

المرايا المقعرة

● نحو نظرية نقدية عربية

تأليف

د. عبد العزيز همودة

وتحاول الدراسة الحالية رد الاعتبار للبلاغة العربية بوصفها أمام «مرايا عادية» تعكس الحجم الحقيقي للإنجازات العلمية العربي دون مبالغة هؤلاء أو تخفيض مجيئهم. وتقتضد الدراسة، عن طريق قراءة جديدة للنثرات البلاغية العربي، قراءة لا تهدف إلى تأسيس شرعية الحداثة، كما فعل البعض، بل في شرعية التراث، كما أن التوصل إلى أن البلاغة العربية قدمت نظرية لغوية ونظرية أدبية تشهدان بمقدرة العقل العربي، لم يهملها، لو لم يهملها الحداثيون والخطبة مع التزات، كان من الممكن تطويرهما إلى مرصدين لا تقلان تكاملا وتضامنا عن المرصدين القويمة والأدبية الغربية التي أظهر بها البعض طول القرن العشرين، إن القراءة الحالية تثبت أنه لا كلاك توجد قضية لغوية وأدبية حديثة أو معاصرة لم تتوقف عندها البلاغة العربية في عصرها الذهبي، وبصورة أكثر من لمعاجيب، والمحب.



Arabic Culture | Capital | **الرياض** (Riyadh)

$$2.45 \times 10^{-2} \text{ mol} \cdot \text{L}^{-1} \times 100 \text{ mL} = 2.45 \times 10^{-2} \text{ mol}$$

ISBN 00006-0-003-5

عظم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهيرة يحررها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري المدوناني 1990-1923

272

المرايا المقعرة

نحو نظرية نقدية عربية

تأليف:

د. عبدالعزيز حمودة



1001
عظم المعرفة

علم المعرفة

مجلد شهري يصدره
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

د. محمد الرمحي
mrmh@68kenx.net

هيئة التحرير:

د. فؤاد زكريا / المستشار
جاسم السعدون
د. خليفة الوقيان
رضا الفهليسي
د. سليمان البدر
د. سليمان الشطي
د. عبدالله العمر
د. علي الطراج
د. غادة الحجاوي
د. فريدة العوضي
د. فهد الشاقب
د. ناجي سعود الزيد

التنفيذ والإخراج والتضئيد

وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا اميركيا
خارج الوطن العربي	اربعة دولارات اميركية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	15 د.ك
للمؤسسات	25 د.ك

دول الخليج

للأفراد	17 د.ك
للمؤسسات	30 د.ك

الدول العربية

للأفراد	25 دولارا اميركيا
للمؤسسات	50 دولارا اميركيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا اميركيا
للمؤسسات	100 دولارا اميركيا

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على

العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب. 28613 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

توقع على الإنترنت:

www.kuwaitculture.org.kw

ISBN 99906-0-063-5

المرآيا المقعرة

نحو نظرية نقدية عربية

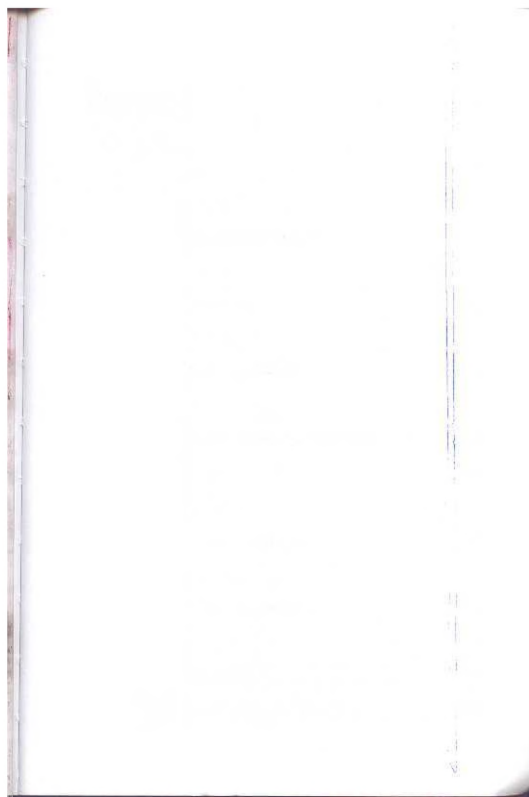
طبع من هذا الكتاب أربعون ألف نسخة
مطابع الوطن - الكويت

جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ - أغسطس ٢٠٠١ م

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المبتدوء المبتدوء المبتدوء

7	تمهيد
	الجزء الأول:
15	الجداسة والقطيعة مع التراث
	الفصل الأول:
17	ثقافة الشرخ
	الفصل الثاني:
99	من النتائج إلى المقدمات
	الجزء الثاني:
165	وميل ما انقطع: نحو نظرية نقدية عربية
165	مدخل
	الفصل الأول:
197	النظرية اللغوية العربية
	الفصل الثاني:
305	النظرية الأدبية العربية
	الخاتمة:
461	عود على بدء
492	الهوامش والمراجع:



المرايا المقعرة

تمهيد

لماذا المرايا المقعرة هذه المرة؟ هل هو غرام بالمرايا والمخايلة؟ أم هو محاولة للاستفادة من الضجة النقدية التي أثارها الكتاب السابق «المرايا المحدبة» من البنيوية إلى التفكيك؟

سوف تقول بعض الآراء بالرأي الأخير بالقطع. وقبل تقديم السبب الحقيقي لاختيار العنوان الجديد وظروف اختياره ثم دلالاته الحقيقية في سياق الدراسة الجديد، دعوني أقول في الرد على الاعتراض المحتمل إن من حقي كمؤلف للكتابين أن أتعمد الاستفادة، إلى أقصى درجة ممكنة، من الضجة النقدية التي أثارها كتابي السابق حول الموقف النقدي الذي اتخذته من المدارس النقدية الحدائثة وما بعد الحدائثة الغربية. فهذا حقي المشروع الذي لا يستطيع أحد إنكاره علي. وعلى الرغم من ذلك الحق الصريح، فإنه لم يكن وراء اختيار العنوان الجديد، بل إنني ترددت كثيرا قبل

«كان التراث بالنسبة لكثير من الحدائثين العرب أمرا من شؤون الماضي... بهذا وضعنا تراثنا البلاغي أمام أمريكا مقعرة، صغرت من حجمه، وقللت من شأن إنجازات العقل العربي».

المؤلف

الاستقرار النهائي عليه بسبب ذلك الاعتراض السطحي المحتمل. وأعترف أيضاً بأن عنوان الكتاب كان معي منذ البداية، وفرض نفسه على الدراسة فرضاً حتى قبل أن أخط السطر الأول منها. بعكس ما حدث مع عنوان الدراسة السابقة. إن ظروف اختيار العنوان الجديد ودلالته أهم بكثير من أي محاولة مبتذلة للاستفادة من الضجة التي أثارها الكتاب السابق.

منذ ظهر المرايا الجديدة حاصرتني الأسئلة، من أناس أعرفهم وآخرين لم أكن قد التقيت بهم في حياتي حتى ظهور ذلك الكتاب المشكك: وماذا بعد المرايا الجديدة؟ ماذا بعد أن رفضت المشروعات والاستراتيجيات التي أفرزها فكر الحداثة الغربية وما بعدها؟ وهل لديك بديل تقدمه، إذ لا يكفي أن ترفض النقل أو الأخذ أو الاستعارة من الثقافة الغربية وعنها ثم تقف متسرجاً؟ وقد كانت لكل هذه الأسئلة وجاهتها التي لم أستطع المراوغة في مواجهتها، ليس طويلاً على كل حال.

كان الجدل الذي أثارته الدراسة قد فتح عيني على حقيقة مؤسسية، وهي أننا وصلنا إلى أحادية في الرأي انفردت بالساحة النقدية لسنوات، أوصلت أصحابها إلى مرحلة رفض الاختلاف. وحق الاختلاف هو فقط ما مارسه في المرايا الجديدة، لا أكثر ولا أقل. وكنت حريصاً على تأكيد أن رفضي لإفرازات الحداثة الغربية ليس أكثر من ممارسة حق الاختلاف، ولا يعني بالضرورة صحة مقولاتي أو خطأ مقولات الآخرين. بل وصل الأمر إلى حد اتهام مؤلف المرايا الجديدة بسوء النية. وكانت تلك في الواقع أول مرة أسمع أو أقرأ فيها وصف الاختلاف في الرأي بسوء النية. وكان على الناقد، قيل أن يختلف، أن يقدم للآخرين شهادة حسن نية قبل أن يمارس ذلك الحق؛ لم أقرأ مثلاً أن ناقدًا حداثيًا أو بعد حداثيًا غربيًا اتهم «جون إلينس» بسوء النية، حينما نسف في قسوة نقدية بالغة الحدة أسس التفكيك واثلقي في كتابه نقد التفكيك Against Deconstruction. كان المصطلح في حقيقة الأمر نحنًا عربيًا أصيلاً؛ كان موقفني المبني في المؤلف السابق أن الحداثيين، في بلاد انشأة وفي العالم العربي على السواء، وقفوا أمام

مرايا معدبة زادت من أحجامهم وضخمتها، وحينما طالت وقفتهم أمام تلك المرايا صدقوا في نهاية الأمر أن إنجازاتهم التقديرية بهذا الحجم المتضخم، وعلى غير الحقيقة. وبعيدا عن الغضب الذي أثارته الصورة عند بعض الحداثيين العرب فإن المقالة في جوهرها لم تكن جديدة، أو تهمة ابتدعها مؤلف المرايا المجدبة آنذاك. فالقول بأن البنيويين والتفكيكيين بالغوا في تقدير حجم إنجازاتهم قول يتفق عليه كل من تقبضوا الاتجاهين في الغرب. لكن أخطر ما وشت به تلك الدراسة، وكان يجب أن أكون أكثر جرأة في تأكيده وأقل تأديبا، هو أن النقل عن الحداثة الغربية يفتح الطريق أمام التبعية الثقافية ثم يكرسها. ثم إننا نرتكب إثما لا ينتشر حينما ننقل المصطلح النقدي الغربي، وهو مصطلح فلسفي بالدرجة الأولى، بكل عواقبه المعرفية إلى ثقافة مختلفة هي الثقافة العربية دون إدراك للاختلاف.

التي ظل حصار الأسئلة التي واجهتني في الشهور التالية لصدور المرايا المجدبة بدأت فعلا في التفكير في البديل الذي طارديني الجميع بضرورة البحث عنه. وكان من الضروري أن يكون البديل عربيا. كانت المقدمات التي اعتمدت عليها في تلك الدراسة تشير جميعا إلى اتجاه واحد: البديل العربي القومي. وبدأت عملية البحث عن البديل في التراث البلاغي العربي. وفضيت عامين كاملين أقرأ بنهم غريب أعمال البلاغيين العرب في العصر الذهبي، ابتداء بالجاحظ وانتهاء بحازم القرطاجني. وتزامنت تلك العودة إلى التراث مع قراءة أكثر اتساعا للحداثيين العرب. وهالني ما قرأت من سوء الفهم وأخطاء النقل. وهالني أكثر الواقع الجديد، واقع الجيل الثاني من الحداثيين العرب الذين يعتمدوا أكثر وأكثر عن الأصول الغربية للحداثة، واعتمدوا أكثر على عمليات نقل وترجمة غير دقيقة، وهكذا ابتعدوا عن حقيقة الحداثة وما بعدها بخطوتين، تماما كما يحدث على السلم الأفلاطوني. هذا الواقع هو ما جعلني أشعر بضرورة تخصيص الجزء الأول القصير من الدراسة الحالية له.

لكن عودتي إلى تراث البلاغة العربية في عصرها الذهبي لم يكن سهلا لأسباب مختلفة، كان السؤال الذي ألح علي كثيرا هو: ماذا

أستطيع أن أضيف إلى الدراسات المتميزة للتراث التي قام بها جيل من النقاد الكبار مثل عز الدين إسماعيل وشكري عياد ومحمد عابد الجابري وجابر عصفور وآخرين غيرهم؟ لكنني كنت أشعر طوال الوقت بأن الإجابة موجودة في التراث البلاغي العربي، وأن البديل هناك ولا بد من العثور عليه. من ناحية أخرى، لا أخفي على القارئ أنني وجدت نفسي أعيش مفارقة غريبة وخاصة: لقد وجدت نفسي، أنا الذي بدأت حياتي العلمية داخل بيت الثقافة الغربية، وأكملت دراساتي العليا في الآدين الإنجليزي والأمريكي. وجدت نفسي في هذه المرحلة من حياتي أعود إلى حظيرة الفكر العربي القديم، في حركة معاكسة تماماً لحركة بعض كبار الحداثيين العرب. أقول ذلك راجياً ألا يفسر على أنه تعظيم من شأن نفسي أو تقليل من شأن الآخرين الذين كان بعضهم أساتذته لي بأكثر من معنى، وقدّموا للثقافة العربية خدمات لا يمكن لأي «سوء نية» أن يقلل من شأنها، لكنني أبداً لم أشعر بالدونية، وإن كنت قد شعرت برغبة كبيرة. ثم إنني أدركت بعد بداية قراءة التراث البلاغي العربي أن بدايتي مع الآداب الغربية ربما تساعدني في تقديم قراءة أو رؤية جديدة لذلك التراث.

وقد فرضت طبيعة الدراسة وأهدافها منهجها الخاص منذ البداية، وحيث إنني لم أعد إلى التراث العربي القديم بدافع الحنين إلى الماضي أو بهدف التقاخر الأجوف بإنجازات وهمية للعقل العربي، فقد عدت إلى ذلك التراث محملاً بسؤال محدد: «هل قدمت البلاغة العربية في عصرها الذهبي نظرية لغوية أو نظرية أدبية؟ أي أنني عدت إلى الماضي بحثاً عن خيوط يمكن تتبعها عند «من» أو «ص» من البلاغيين العرب، خيوط إذا استطعت عزلها وتخليصها من بعض التداخلات المحتملة والقائمة بالفعل، يمكن جدها مع خيوط أخرى لتكوين صفيحة نستطيع أن نسميها نظرية، أي نظرية. في ضوء ذلك الهدف لم يعد منهج الدراسة يقوم على دراسة شاملة أو متعمقة للأسماء البارزة في تاريخ البلاغة العربية، فلم يكن الهدف هو دراسة الجاحظ أو ابن طباطبا أو الآمدي أو قدامة أو القاضي الجرجاني أو القاضي عبد الجبار أو عبد القاهر أو السكاكي أو حازم القرطاجني، كل

على حدة. بل كان الهدف، ومن ثم المنهج، هو تحديد بداية خيط ما يمكن اعتباره بداية لتفسيرية نظرية في اللغة أو نظرية في الأدب، ثم يتبعه عند الآخرين، إلى أن نصل إلى ذروة تأكيده لوجوده. قد يظهر ذلك الخيط عند «س» ثم يختفي عند «ص» ليعاود الظهور مرة أخرى عند بلاغي ثالث، وهكذا. ولهذا السبب احذر القارئ منذ البداية: إذا كنت تتوقع دراسة متعمقة أو مستقيضة في الجاحظ أو ابن طباطبا أو عبد القاهر أو حازم القرطاجني، فعليك أن تبحث عن تلك الدراسة في مكان آخر غير المروايا المصغرة. فحينما أتوقف عند الجاحظ مثلاً فإنني أتوقف عند مقولته المعروفة: «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي» لأناقش أهميتها بالنسبة لقضايا اللفظ والمعنى والشكل والمضمون، والصدق والكذب ووظيفة اللغة... إلخ. الشيء نفسه بالنسبة لبقية الأسماء البارزة في تاريخ البلاغة العربية. وإن كنت على يقين من أن هناك من سيقولون إن مؤلف المروايا المصغرة لم يقرأ البلاغة العربية كلها في القرون الخمسة التي يتحدث عنها. وهذا جهد لم أدعه ولا أدعيه. لكن القوة الدافعة التي كانت تحركني طوال الوقت هي تأسيس شرعية الماضي التراثي، وليس الحاضر الحداثي أو غير الحداثي.

وكانت المفاجأة. لقد بدأت بحدس، مجرد شعور قوي من شذرات قراءاتي السابقة، أنها هناك: أن العقل العربي قد قدم بالفعل ما يكفي لتسميته، دون تفاخر أجوف أو مباهاة فارغة، نظرية لغوية ونظرية أدبية، أو على الأقل ما يمكن تسميته ببدايات قوية للنظريتين. كانت المفاجأة أن ما عدت إلى التراث البلاغي العربي بحثاً عنه كان أكبر وأقوى بكثير من مجرد «الحدس ببدايات قوية». لقد وجدتني أتبع في دهول خيوطاً أوضغ وأضخم من أن تتجاهل، خيوطاً تجدل في نهاية الأمر نظرية لغوية لا يمكن فصلها عن نظرية أدبية. وكنت حريصاً، بقدر المستطاع، ألا أحمل النصوص التي أتوقف عندها أكثر مما تحتل، ولا أنطق كلمات الجرجاني بما لا تقول أو تعني. لم أكن، باختصار، أضغ تلك النصوص فوق «آلات الشد» لأنطقها، كما يفعل الحداثيون أحياناً مع النصوص الإبداعية،

بأشياء أو مقولات لا وجود لها، وفي أحيان كثيرة كانت تلك النصوص لا تحتاج إلى إعادة قراءة حقيقية، فقد كان ما تقوله صراحة يضعها في قلب الحركة النقدية الحديثة، تلك هي الأحيان التي لم أكن أستطيع عندها إخفاء حماسي القوي للبلاغة العربية والعقل العربي، وإذا كان في ذلك خلطاً منهجي فأنا أعترف بذلك الخطأ مقدماً وعن طواعية، بل في سعادة كاملة.

بالقطع سيظهر من يقولون، بعد قراءة الدراسة الحالية، إن حماس المؤلف أعماه بشكل واضح عن نقائص النظرية اللغوية والنظرية الأدبية التي يحاول تحديدها في البلاغة العربية، إذ إن بعض المقولات التي قام بعزلها وإبرازها مقولات لا تنقصها البساطة التي تصل إلى حد المسذاجة، من ناحية، وأنها مقولات قد لا نتفق معها أو نقبلها في ضوء المعرفة التراكمية التي اكتسبها العقل النقدي عبر عشرة قرون منذ القرن الثالث الهجري، من ناحية ثانية، لكن موقعي لم يكن أبداً موقف من يرى أنه ليس في الإمكان أفضل مما كان، أو أننا مطالبون بقبول تلك المقولات وتقبلها. موقعي المبدئي أن العقل العربي استطاع، في وقت كان عقل أوروبا آنذاك يغط في سبات الجهالة، أن يقدم فكراً لغوياً ونقدياً كان من الممكن، لو لم تحدث فترة الانقطاع الطويلة من القرن الرابع عشر الميلادي حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولو لم نقم نحن، في أنهارنا بإنجازات العقل الغربي في العصر الحديث، باتخاذ موقف القطيعة الاختبارية والإرادة من تراثنا القديم، هذا الفكر كان يمكن أن يتطور إلى مدارس لغوية ونقدية كاملة النضج. ثم من الذي قال إننا يجب أن نتقبل مقولات البلاغة العربية أو نتفق عليها؟ هل نتفق جميعاً اليوم على كل مضردات أي مدرسة نقدية حديثة حداثة أو ما بعد حداثة؟ إن اتفاقنا اليوم أو عدم اتفاقنا حول هذه المدرسة أو تلك لا علاقة له بوجودها، وعدم اتفاقنا معها، وهو الأهم، لا يبطئ وجودها. وعلى الرغم من توقفي أحياناً عند بعض التناقضات الواضحة في النظريتين، فإنني لم أشعر في أي وقت بالحاجة إلى الاعتذار عن الثقافة العربية، وقد خرجت من ذلك الاحتكاك السعيد معها بإحساس راسخ بأنه لا يوجد ما يجب أن نعتذر عنه في البلاغة العربية، في التحليل الأخير.

عن سؤال أصبح اليوم أكثر إلحاحا من أي يوم مضى: «من أنا؟»
والتساؤل لا يكتسب شرعيته من هذا الإحساس المؤلم الذي نعيشه
بالانشطار والتمزق فقط، ولكن أيضا من رفضي القاطع لأن أظل
علامة ثقافية هائلة تسبح حسيما ينفذها التيارات، ويطلب منها أن
تستقر في نهاية المطاف فوق شاطئ سوسير وشتراوس وياكوبسون
وبارت وندريدا، بل حتى هوسيرل وهايدجر، بينما شطآن العقل العربي،
شطآن الجاحظ وقدامة بن جعفر وابن طباطبا العلوي وعبدالقاهر
الجرجاني وحازم القرطاجني قربية، أقرب معا يتصور الكثيرون، من
العقل والقلب!

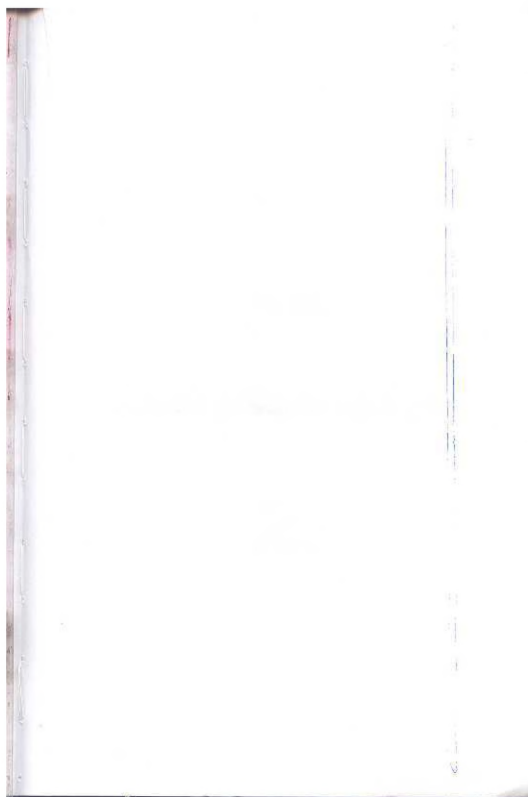
د. عبدالعزيز جمودة

القاهرة: إبريل ٢٠٠١



الجزء الأول

الحدثة والقطيعة مع التراث



ثقافة الشرح

من أنا؟ من نحن؟

صباح أحد أيام الخريف الماضي (مايو ٢٠٠٠ على وجه التحديد)، وفي أثناء عبوري الشارع عائداً إلى بيتي بعد أن ابتعت بعض صحيف اليوم، كما هي عادتي دائماً، ألقيت نظرة سريعة على الصفحة الأولى لواحدة من تلك الصحف. وفي تجربة مثيرة كانت الأولى من نوعها، أحسست فجأة بالانقطاع. نعم أحسست بأنني إنسان يعاني شرخاً أو صدعاً حاداً حوِّله إلى نصيفين، بعد أن فقد إحساسه بالكلية والتوحد. ووجدتني أسأل نفسي في إلحاح شديد: من أنا..

كانت الصفحة الأولى من تلك الصحيفة تحمل عدداً من الأخبار المتناقضة بشكل صارخ حول آخر تطورات معركة رواية وثيمة لأعشاب البحر، للروائي السوري حيدر حيدر، التي صدرت طبعاتها الجديدة عن هيئة قصور الثقافة التابعة لوزارة الثقافة المصرية، وكانت الأسابيع السابقة، بل الأشهر السابقة في الواقع، قد شهدت احتفال القاهرة، مع عدد

دين كوننا شكلاً في العائم الحديث، وكوننا جوهرًا من خارجيه، (تناقش) يمشوننا إلى معاناة قضايها مجتمع قديم في عالم حديث، ومعاناة قضايها عالم حديث في مجتمع قديم، عني التعبير عن معانينا تلك نعرض أنفسنا لإنشاج أدب يجسد القارئ العربي مستوداً غريباً..

يوسف الخال

من العواصم العربية والعالمية، ببداية الألفية الميلادية الثالثة، الألفية التي بدأت بعد أن حقق الإنسان في مائة عام سابقة أعظم إنجازاته: فقد تحقق غزو الفضاء وإسقاط الحدود الثقافية وثورة المعلومات، وكلها شواهد على التطبيقات العملية للاكتشافات العلمية والتفكير العلمي. وشهدت الأسابيع السابقة أيضاً معركة «وليمة لأعشاب البحر» والضجة التي أثيرت حول ما سمي بمشاهد «الجنس والإلحاد» فيها، ولست هنا بصدد الحديث عن الرواية أو إصدار حكم قيمي عليها، أو حتى الانحياز لهذا الحرف أو ذاك من أطراف الجدل الذي أثارته، كانت اللجنة الفنية - والفنية هنا تعني نخبة من رجال الدين والأدب - التي شكلها وزير الثقافة قد اجتمعت وناقشت الرواية في غيبة أحد أعضائها، وهو رئيس جامعة الأزهر العريقة، الذي انسحب من اللجنة أو تخلف عن حضور اجتماعاتها. بعد أن ناقشت اللجنة رواية الأديب السوري أصبرت بياناً دافعت فيه عنها تأسيلاً على ميدانين: أولاً، حرية التعبير التي يتمتع بها، ويجب أن يتمتع بها الأديب، أي أديب؛ ثانياً، التوظيف الفني والأدبي الجيد لمشاهد الجنس التي نجح حيدر حيدر في إخضاعها لمقتضيات البناء الروائي والرؤية الفنية، تحقيقاً للمبدأ الجمالي المتعارف عليه في الدراسات النقدية، والقاتل بأن طبيعة الكل (العمل الأدبي في كليته) هي التي تحدد قيمة أجزائه. أما فيما يتعلق بالمشاهد التي قيل إنها تحمل شبهة إلحاد فقد أبرزت اللجنة أن الرواية تجسد خطين متصارعين، خطأ لشخصية ملعدة، وآخر لشخصية قوية الإيمان، وأن الصراع ينتهي بانتصار خط الإيمان. وهذا هو ما يجب أن يعول عليه عند إصدار حكم قيمي نهائي على الرواية. كان ذلك هو الخبر الأول الذي طالعت في الصفحة الأولى من تلك الصحيفة ذاك الصباح.

أما الخبر الثاني الذي نشر في الصفحة الأولى أيضاً، فقد قدم وجهة نظر مغايرة تماماً، في بيان أصدره الأزهر الشريف - ورئيس جامعة الأزهر بالطبع - أدينت مشاهد الإلحاد في رواية الأديب السوري. وقد ترتب على صدور البيان، وهو ما طالعتا به الصفحة الأولى أيضاً، خروج شباب جامعة الأزهر، ممن لم يقرأوا الرواية، وربما لم يسمعوها عنها قبل ذلك البيان، إلى الشوارع المحيطة في احتجاج غاضب هدد بنشر

ثقافة الشرخ

الفوضى والدمار . أي أن رئيس جامعة الأزهر العريضة ، وهو أحد أقطاب الأزهر الشريف ، ورئيس مؤسسة تعليمية يصعب الفصل بينها وبين أعلى سلطة دينية ، انسحب من اللجنة التي شكلها وزير الثقافة - ممثل السلطة السياسية الحاكمة - ليشارك بطريقة أو بأخرى في إصدار بيان يدين الرواية . خطوة هذا الموقف الأخير ، وما أدى إليه من تداعيات ، تتمثل في الطليعة المزدوجة لوضع رئيس جامعة الأزهر . فهو ، من ناحية ، برأس مؤسسة تعليمية يصعب الفصل بينها وبين أعلى سلطة دينية وهي الأزهر الشريف . وهو ، من ناحية ثانية ، قطب بارز في حزب الأغلبية الحاكم منذ سنوات ، ومن ثم ، يمثل - شاء أم لم يشأ - السلطة السياسية ، حينما يرتبط اسمه من طرف خفي في بيان الأزهر وعلائية في إدانته للرواية في مجلس الشعب ، فإنه بالقطع يضع نفسه في موقف مناهض لرأي السلطة السياسية التي ينتمي إليها هو ويمثلها أيضا وزير الثقافة . كان العملية لم تعبر تجسد صراعا أو على الأقل تناطحا بين السلطتين الدينية والسياسية - وهو ما استطاعت مصر ، والحمد لله ، أن تتحاشاه بنجاح ، ولم يحدث في تاريخنا الطويل أن وقفت السلطان الدينية والسياسية في موقف تضاد حقيقي في العصر الحديث ، باستثناء الفترة أو الفترات التي قاد فيها الأزهر الكفاح ضد السلطة السياسية الأجنبية - سواء أكانت سلطة نابليون أو سلطة الاحتلال الإنجليزي - بل أصبحت ، بطريقة أو بأخرى ، تجسد تصادما بين رموز السلطة السياسية ذاتها ربما يرى البعض أن الاستنتاج هنا يقوم على مبالغة شديدة في إنطاق بعض المقدمات بنتيجة منطقية بعيدة . لكن حقيقة الأمر أن المقدمات أو القضايا القائمة والنتيجة المنطقية لها ما يبررها ، وأنتا شعرنا ذلك الخريف بالصدام بين السلطتين الدينية والسياسية من ناحية ، وصدام السلطة السياسية مع نفسها ، من ناحية ثانية !

وأعود مرة أخرى إلى تأكيد أنني لا أحاول - في هذه السطور - اتخاذ موقف مع الأزهر أو ضده ، أو مع السلطة المدنية ممثلة في وزارة الثقافة أو ضدها ، وأضيف أنني لا أقصد ، ولو من باب التلميح البعيد ، إلى إدانة موقف رئيس جامعة الأزهر أو التعريض به ، فأنا لا أحمل للرجل والمؤسسة التي يمثلها ، وهي جامعة الأزهر ، إلا كل تقدير واحترام . لكنني فقط أحاول

تحديد المدخلات inputs - إذا جاز لنا استخدام لغة الحاسوب - التي فرضت عليّ في لحظة تنويرية باللغة القصر ذلك السؤال الملح: «من أنا؟». وبصراحة ربما يراها البعض مستفزة: هل أنا ما تقول به المؤسسة الدينية ممثلة في الأزهر الشريف، أم ما تقوله السلطة المدنية ممثلة في بيان لجنة وزارة الثقافة؟ هل مدخلاتي مقصورة على كل التراث الديني الذي شربته وتعلمته عبر السنين أم كل ما تعلمته في أثناء احتكاكي في الداخل والخارج بفكر «الأخر» الثقافي المختلف؟ قد يرى البعض في هذا تبسيطا لمفهوم الشرخ، بل ترسيما له. وقد يكون للاعتراض وجهته. لكن الحقيقة الأكيدة هي وجود الشرخ: عميقا، مقلتا، بل مهددا بتدمير كل شيء إذا لم نقم جميعا بالعمل معا لرأب الصدع.

لم يكن السؤال في حقيقة الأمر «ترفا فكريا» طارئا أو عارضا. وإذا كان العالم كله اليوم يعيش ما يحلو للبعض أن يسميه «ثقافة الأسئلة»، فإننا، في هذه المنطقة من العالم، نعيش ثقافة الأسئلة في تعاملاتنا كل يوم. وليس الأمر، كما قد يتصور البعض، وليد السنوات الأخيرة من القرن العشرين، أو حتى ربع القرن الأخير منه، في مواجهة العولمة وثورة المعلومات واقتصاد السوق وحقائق الإنتاج والاستهلاك، لكنه أصبح واقعا ملحا ملمنا منذ بداية الانفتاح على الغرب الثقافي، سواء عن طريق الابطاع منذ عصر محمد علي، أو عن طريق الاستعمار العسكري، أو الهيمنة الاقتصادية والثقافية. وليس من قبيل المصادفة - ولا يمكن أن يكون - أنه في أثناء كتابة هذه السطور المبكرة من الكتاب الحالي تعيش الثقافة المصرية معركة أخرى، تشترك فيها أصوات عديدة للثقافة العربية ورموزها، هي معركة سحب ثلاث روايات أصدرتها هيئة قصور الثقافة نفسها التابعة لوزارة الثقافة المصرية، مع ما صاحب المعركة الجديدة من إجراءات متشددة. ناهيك عن أن السلطة السياسية ممثلة في وزارة الثقافة تبنت هذه المرة موقفا منافضا لموقفها السابق. ومرة أخرى، لست في موقف إدانة أو إصدار حكم إيجابي أو سلبي على قرار وزارة الثقافة، فليس لهذا موضوعنا، من ناحية، ثم إنني شخصيا لم أقرأ الروايات الثلاث موضوع الجدل بسبب سحبها من السوق، من ناحية ثانية. وليس من العلمية أو الموضوعية أن أحكم على عمل إيداعي لم أقرأه. لكن معركة

ثقافة الشرخ

اليوم تعيد معركة الأمم القريب جدا مع تعقيد أكثر إرباكا وإثارة للحيرة والبليلة أضافه تبدل غير مفهوم في المواقف.

وهكذا تعيدنا معركة اليوم إلى ثقافة الأسئلة، وتفرض علينا نقلة منطقية وحبسية من «من أنا؟» إلى «من نحن؟». يفرض السؤال نفسه، إذن، بأبعاد أوسع: من نحن؟

في محاولة للإجابة عن السؤال الجوهرى ربما يستحسن أن نبدأ من النهاية، أن نبدأ من نقطة يتفق عليها الجميع، وهي أن الشرخ الذي يعيشه المثقف العربى أو الفصام الذى يتهدده كل يوم، يرجع إلى غياب المشروع الثقافى القومى أو العربى. قد يرى البعض أن هذا التشخيص يعانى التبسيط الشديد، لكنه، في حقيقة الأمر، يقع في قلب الشرخ الثقافى العربى. فالأمر لا يحتاج إلى كثير ذكاء أو تمحيص لنذكر أننا، في أي بقعة من إبداع العالم العربى، لا تملك مشروعاً ثقافياً قومياً، سواء على المستوى الإقليمى، أو على المستوى العربى العلم، وأن جميع محاولتنا لتحقيق هذا المشروع أو المشاريع كانت تؤدي دائماً إلى طريق مسدود يؤكد الفصام ويوسع الشرخ. بل إن محاولتنا في أحيان كثيرة لم تتعد مرحلة الكلام بفرض الاستهلاك المحلى. على الرغم من كل ما تتشدد به مجالسنا وهيئاتنا ومؤسساتنا الثقافية من خطط للعمل الثقافى، فإننا لم ننجح حتى الآن. ومنذ اتصالنا بالغرب وثقافته في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أو منذ السنوات الأخيرة من القرن السابق عليه، من الحملة الفرنسية على مصر، في تطوير مشروع ثقافى خاص بنا يوقف الشرخ ويراب الصدع، وما يكتبه سيد البعراوى في كتابه: **البحث عن المنهج في النقد العربى الحديث** (١٩٩٣) عن واقع الثقافة المصرية في النصف الثانى من القرن العشرين، يعبر، في جانب منه، عن قسوة ذلك الواقع:

«من هنا لم يبد هناك مشروع ثقافى (حتى للتبعية). وإنما أدوات إجرائية تسعى لنقل التقنيات التي تتصور أنها قادرة على حل مشكلات الواقع المصرى. وهذا هو لب المشروع الجديد الذي تحول فيه المثقفون (مثلهم مثل المهندسين والأطباء الممارسين) إلى مسجود تقنيين لا يفكرون) إلا في كيفية تنفيذ المشروع الذي يضعه السياسيون دون حق التفكير فيه أو مناقشته أو حتى التعرف عليه»^(١).

ولسنا بحاجة في هذا السياق للتوقف عند المشروع الثقافي في محاولة تعريفه، يكفي أن نقول إننا لا نقصد هنا خطة للعمل الثقافي تقوم هيئة أو سلطة (ممثلة في حكومة أو وزارة للثقافة) بوضعها بطريقة واعية مدركة، يتم فيها وضع البرامج وتسمية الآليات التي تمكن الجماعة من تحقيق الهوية الثقافية والحفاظ عليها. إذ إن مرحلة التخطيط والتنفيذ هذه تمثل مرحلة تالية للمشروع الثقافي القومي، وفي غيبة هذا المشروع تصبح الخطط والأنشطة التنفيذية لها مجرد مسكنات مؤقتة ومرحلية، قد تتعارض وتتصادم مع خطط وآليات تنفيذ أخرى، عند حدوث تغير في السلطة المسؤولة، أو النوط بها تنظيم العمل الثقافي. لكننا نقصد تحرك القوى الاجتماعية في اتجاه يحقق تحديد الهوية الثقافية للجماعة، والحفاظ عليها من الذوبان في ثقافة أو ثقافات الأخر في أثناء تفاعلها معه أو احتكاكها به، في عصر أصبح الاحتكاك بين الثقافات قدرا معتموما، ربما لا يعني ذلك قيام سلطة أو سلطات عليا بالتحكم في مسار القوى الاجتماعية بصورة إرادية واعية تماما، ولكنه يعني تحقق قدر أدنى من التحكم في ذلك المسار وتوجيهه، مما يعني في المقابل درجة من التحكم في التغيرات الاجتماعية التي هي أساس الأنشطة الثقافية، فقرار فتح السوق مثلا إلهام قوى الإنتاج والاستهلاك، وهو قرار سياسي سلطوي، يؤدي إلى إحداث تغيرات اجتماعية جذرية تؤدي بدورها إلى خلق حساسية خاصة بها، ومن ثم، إلى إفراز أدب وفكر خاصين بتلك التغيرات الجديدة. وإغلاق السوق وتوجيه الإنتاج وترشيد الاستهلاك قرار سياسي سلطوي، يؤدي إلى تداعيات مختلفة على المستويين الاجتماعي والثقافي. هذا هو قدر التحكم الذي نقصده والذي يمكن أن يؤدي، في ظل وضوح كامل للرؤية، إلى تطوير مشروع ثقافي قومي. وسوف نرى في مرحلة لاحقة كيف يربط «الآن توريين» في دراسته المتميزة، نقد الحضارة (١٩٩٢)، بين التغيرات الاجتماعية والفكر الحضاري الأوروبي - والذي يمكن اعتباره المشروع الثقافي الأوروبي - في نشأته وتطوره بصورة تكاد ترجع جميع الثورات الفكرية والثقافية إلى القوى الاجتماعية في تفاعلها وتغير علاقاتها.

إن المتنبع للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية في مصر - ناهيك عن تلك التغيرات داخل المجتمعات العربية المختلفة - يدرك جيدا أن تلك

ثقافة الشرخ

التغيرات التي شهدتها المجتمع المصري في أقل من ربع قرن، كانت تغيرات تفرضها السلطة السياسية بقرارات عليا دون نقط ثابت أو رؤية واضحة. لقد كانت السياسات الاقتصادية، بل حتى التقسيمات الطبقية، تتغير بين يوم وليلة. لقد تحولت مصر من نظام اقتصادي واجتماعي يقوم على فلسفة إقطاعية متخلفة حتى أوائل الخمسينيات، إلى اشتراكية اقتصادية واجتماعية طوال فترة الستينيات، ثم اقتصاد السوق الحر والأبواب المفتوحة منذ منتصف السبعينيات، وأخيرا اقتصادات الاستهلاك وتراجع دور السلطة القومية الذي سوف يجيء حتما مع العولمة - إن لم يكن قد جاء بالفعل، لقد أدت هذه التحولات بالقطع إلى تغيرات اجتماعية جذرية، لكنها كانت، بسبب قصر عمرها واقتدارها إلى رؤية محددة، تغيرات هي أقرب إلى حالة الفوضى منها إلى التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المؤثرة، التي يمكن أن تؤدي إلى خلق حساسية أو حساسيات جديدة خاصة بالمراحل المختلفة. كانت التحولات مفروضة بالكامل. صحيح أن بعض هذه التحولات حينما جاءت، جاءت تحقيقا لإرهاصات شعبية مسبقة، لكنها لم تتحقق في نهاية الأمر إلا على يد سلطة سياسية أو عسكرية. بالإضافة إلى أنها تحولات مستعارة من جماعات تختلف تراكيبها الاجتماعية والاقتصادية عن تركيبة مجتمعاتنا. وهكذا عشنا في النصف الثاني من القرن العشرين حالة هي أقرب إلى الفوضى منها إلى أي شيء آخر معروف. اجتماعيا واقتصاديا لم نعش فترات تغيرات اجتماعية واقتصادية كان لها من الاستمرارية ما يمكننا حقيقة من القول بأننا اشتراكيون تقدميون، وحينما دخلنا اقتصاد السوق، اقتصاد الإنتاج والاستهلاك - وإن كنا لم نصبح بعد منتجين حقيقيين! - ظل بيننا من يتمسك بإنجازات الاشتراكية والاقتصاد الموجه. هذا بالإضافة إلى أن المرحلة التي دخلنا فيها اقتصاد السوق مرحلة متأخرة، جعلتنا تحت رحمة قوى الإنتاج الكبيرة ورأس المال الضخم والمسيطر، وهكذا لا نستطيع أن ننتمي حقيقة إلى تلك المرحلة، ولا نملك - حتى الآن - إلا أن نكون تابعين لقوى خارجية مهمة.

ليس مؤلما أن نقول إن جيل مؤلف هذا الكتاب - وهو في بداية الستينيات من العمر - عاش كل هذه المراحل خلال سنتين عاما! فقد عاش جيلي إقطاع

ما قبل ثورة ١٩٥٢، واشتراكية الستينيات، ثم انتحاح السبعينيات، وأخيراً اقتصاد السوق بكل قسوته منذ الثمانينيات! وبعد هذا، هل كان من الممكن أن نحقق مشروعاً ثقافياً قومياً له بعض الاستمرارية ووضوح الرؤية؟
النايب أننا في كل هذه المراحل المستعارة والمفروضة كنا - ومازلنا - ننتج في صلف يحميها عليه الكثيرون قائلين إننا حداثيون ثم ما بعد حداثيين، وإننا تحولنا من استهلاك حداثنة «الأخرة» الثقافية إلى إنتاج حداثنة عربية خاصة بنا، وحينما نتعرض لاختيار بسيط مثل اختيار وليمة لأعشاب البحر، تسقط كل دعاوانا الحداثنة وما بعد الحداثنة ونعجز عن الإجابة عن السؤال المبدئي: بمن نحن؟!

وتلج علينا ثقافة الأسئلة التي أثارها الاختيار الأخير: هل نحن شرقيون أم غربيون؟ هل نعيش حالة المجتمع الحديث أم حالة المجتمع القديم؟ هل ننتمي إلى التراث العربي أم إلى التراث الغربي؟ قد تعني الإجابة والقدرة على تجليد هويتنا الثقافية القدرة على اتخاذ قرار مع كل ولائم لأعشاب البحر القادمة، يرضى البعض وينضب البعض. فقد نتفق على أن وليمة لأعشاب البحر عمل إبداعى تكفل حرية التعبير (وحداثتنا) لصاحبه الاستقلال عن أي أحكام أخلاقية أو دينية. وسوف يغضب ذلك بالقطع دعاة العودة إلى الأصولية باعتبارها المدخل الوحيد لتحديد الهوية الثقافية القومية. وقد نتفق على أن الرواية، بصرف النظر عن أي قيمة إبداعية وجمالية تملكها، عمل مسف يخذل الحياء ويعيب في حق الذات الإلهية. وسوف يغضب ذلك بالقطع دعاة حرية التعبير. لكن الاتفاق يفترض أنه سوف ينهي حالة الفصام ويضع حداً للشرح ويرأب الصدع. وهكذا سنعود إلى درجة من التوحد الصحي والكلية التي راوغتنا لما يقرب من قرن من الزمان. عندئذ سنكون أسعد حالاً بعد أن نخرج من الدائرة المجهنمية الحالية، التي تدور داخلها مغمضى العيون، مسلوبى الإرادة، تتقاذفنا تيارات القديم والجديد دون أن ننجز شيئاً، يتمثل جل جهلنا في السير فوق أحبال التوازنات الدقيقة، ولن نجد أنفسنا، كما كتب يوسف الخال، نعيش ذلك التناقض المؤلم:

«بين كوننا شكلاً في العالم الحديث، وكوننا جوهراً من خارجه،
(تناقضاً) يضطرنا إلى معاناة قضاي اجتماع قديم في عالم حديث».

ثقافة الشرخ

ومعاناة ضحايا عالم حديث هي مجتمع قديم، ففي التعبير عن معاناتنا تلك نعرض أنفسنا لإنتاج أدب يجده القارئ العربي مستورا غريبا»^(٢).

وهكذا تعيدنا كلمات الخال إلى النقطة الثابتة التي تثير الجدل منذ سبعينيات القرن الماضي على الأقل، وهي الحداثة الغربية وما بعد الحداثة - بالطبع - وعلاقتهما بهما. لكن هذا موضوع آخر يحتاج منا إلى وقفة متأنية.

ماذا حدث؟ وأين أخطأنا؟

ما الذي أوصلنا إلى ذلك الشرخ، وذلك القصام المؤلمين؟ ماذا حدث حتى وصل البعض منا هي انبهاره بالغرب والثقافة الغربية إلى درجة العماء الكامل، الذي أفقدهم القدرة على الاختلاف؟ ما الذي حدث حتى وصل البعض، وسط انبهارهم بالعقل الغربي وإنجازاته، إلى درجة احتقار العقل العربي وإنجازاته؟

إن الإجابة لا تكمن، كما قد يتبادر إلى أذهان البعض ممن يتشددون إجابة سهلة، في الحداثة أو ما بعد الحداثة أو في الاثنين معا، على الأقل لم تكن الحداثة نقطة بداية الشرخ؛ بل كانت مرحلة متاخرة يرى البعض أنها بدأت بعد نكسة ١٩٦٧. ثم أصبحت ثيارا قويا عالي الصوت مع صدور مجلة فصول المصرية في بداية الثمانينيات. والواقع أن الحداثة وما بعدها كانتا نتيجة ولم تكونا سببا. صحيح أنهما تمثلان ذروة الارتواء في أحضان الثقافة الغربية، لكنها ذروة سيققتها عملية اتجاه واعية ومدركة نحو الغرب وثقافته. بدأت في أثناء حكم محمد علي، وتمثلت في تحديث التعليم وابتعاث الشباب إلى أوروبا.

وعلى الرغم من أن تحديث التعليم الذي حققه محمد علي كان تحديثا «موظفا» و«مقيدا»؛ لأنه ركز على التعليم الصناعي؛ ليوظفه في إنشاء صناعات عسكرية؛ تشبع احتياجات القوة العسكرية التي خلطت لتأسيسها، حتى يحقق أحلامه في إنشاء إمبراطورية خاصة به، أو على الأقل في تحقيق الاستقلال النهائي عن سلطة الباب العالي في الأستانة، وصحيح أن نظام التعليم الحديث الذي أدخله محمد علي بدأ في التراجع تدريجيا، بعد هزيمته وتدمير أسطولته البحري، ثم في عهد أبنائه من بعده.

«ولكن الصلة بين مصر وأوروبا أو بين الحياة العقلية المصرية والحياة العقلية الأوروبية، قامت ولم يعد من الممكن أن يقضي عليها لسببين هما: أولاً وجود ملأفة من العلماء المصريين الذين بعثوا إلى أوروبا وعادوا ليثبتوا حركة المزج الحديثة بين حياتنا العقلية وحياة الأوروبيين؛ وثانياً هجرة كثير من الأوروبيين إلينا وتأسيسهم للشركات والمدارس في ديارنا، وزار مصر كثير من أدباةهم، وأخذنا نؤثر بتاريخنا القديم والحديث في أدبيهم والأدب الأوروبي عامة»^(٧).

هل يرجع الشرح حقيقة إلى الثائفة التي أحدثها محمد علي بإدخال نظام التعليم الأوروبي مع الإبقاء على نظام التعليم التقليدي؟ مما لا شك فيه أن عددا كبيرا من المفكرين يرون ذلك، ويرجعون حالة الضمام إلى أن محمد علي لم يكن جاسما بما فيه الكفاية، وعدم الحسم هنا منطقي، فالرجل لم يكن يريد تحقيق «تحديث» حقيقي لمصر، بل كان همه تحديث قطاع واحد من التعليم يوظفه في خدمة طموحه العسكري والسياسي، ويقولون إنه لو كان ينشد تحديثا حقيقيا لقضى على هذه الثائفة، أو لم يكن يسمح بها منذ البداية، بل يذهب البعض إلى حد الربط الصريح بين القضاء على الثائفة ومشاريع الاستشارة التي يرفعها البعض شعارات صارخة منذ العقدين الأخيرين في القرن العشرين، دون مراوغة أو دوران، يرى هؤلاء البعض أن محمد علي كان يجب عليه إنهاء التعليم الديني قبل أن يدخل التعليم الأوروبي؛ لأن أفراد التعليم العام - تأسيسا على النظام الأوروبي - كان المدخل الوحيد والحقيقي للعلمانية والتحديث:

«لقد أنشأ محمد علي نظام تعليم جديدا ليعخدم مصالحه في مجالات معينة، ولم يهتم بالفلسفة ولا العلوم الإنسانية، والأهم من ذلك أنه ترك التعليم الديني التقليدي كما هو، بحيث ظل مجمل المجتمع يعيش حالة التخلف، الفكري والديني الموروث عن القرون السابقة دون وجود من يستطيع مواجهتها، لأن متعلمي محمد علي لم يدرسوا شيئا عن هذا الأمر. في أوروبا، كما أنهم كانوا قد أصبحوا فئة مثقفة تعيش عزتها بعيدا عن الشعب، ومن هنا فشلت كل محاولات مواجهة هذا التخلف ووقعت في إطار الحلول التوفيقية التي لا تحسم شيئا»^(٨).

ثقافة الشرخ

ثم أصبح جسر التأثير الغربي في الثقافة العربية طريقاً واسعاً معهداً عن طريق الاستعمار الغربي. فلم يعد الأمر مقصوراً على فئة محدودة من الأفراد بيتعتون إلى أوروبا لتعود بأنبهارها إلى الثقافة العربية؛ لتحاول تحديث العقل العربي، أو مجرد اقتباس أنظمة تعليم أوروبية حديثة تطبق في عدد محدود من المدارس، بل تعداه إلى غزو بشري عسكري يؤكد التفوق العسكري والثقافي للمبهرين، ويفرض التبعية على المترددين:

«تبدأ الحداثة في الأدب والنقد مع بداية ما سمي بعصر النهضة، بكلمة أكثر تحديداً، إن نقطة البدء، أو البذرة الأولى للحداثة تكمن في اللقاء الاستعماري الحضاري مع الغرب، فقد دخل الغرب مستمراً ومن النافذة نفسها تدفقت منجزاته الحضارية، وهو ما أدى إلى انشطار الذات زمانياً (نحو الماضي) ومكانياً (نحو الغرب)... هذا الاحتكاك خلخل القيم المحلية وجعل الشخصية المحلية تهتز لأول مرة وتبدأ بالبحث عن الذات»⁽⁵⁾.

إن كلمات شكري عزيز ماضي هنا تحمل خطلاً واضحاً بين «الحداثة» و«التحديث»، وهو خلط يحتاج إلى وقفة لاحقة منافية لفك الاختلاط وفصل الخيوط أحياناً، وتأكيد تداخلها وتعلقها أحياناً أخرى. لكننا هنا في حاجة وطبع النقاط فوق الحروف في إيجاز.

مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كانت جميع الخطوط تشير إلى اتجاه واحد، هو تبني «النموذج الأوروبي» أساساً للتحديث. فمع مطلع القرن العشرين كان معظم مناطق العالم العربي، باستثناء المناطق الداخلية لشبه الجزيرة العربية الشاسعة، واقع تحت الاحتلال العسكري الأوروبي المباشر: الإنجليزي والفرنسي والأسباني، ثم الإيطالي بعد ذلك بسنوات قليلة في «تقسيم» متفق عليها بين القوة الاستعمارية الغربية القديمة والجديدة، وبغض النظر عن قيام المستعمر الأجنبي بفرض التبعية الثقافية بل درجات متفاوتة، وقهر الثقافة القومية وكتبها بدرجات متفاوتة أيضاً، حسب طبيعة القوة المسيطرة، فإن الشعوب العربية لم تكن تملك إلا الانبهار بمنجزات العقل الغربي، الذي حقق لتلك الدول تفوقاً عسكرياً، مكنتها من فرض سيطرتها وتأسيس إمبراطورياتها الحديثة. ولابد أن ذلك أيضاً كان دافعاً قوياً لأنشطة «التحديث» الذي بدأه

محمد علي، الذي صعد إلى كرسي الحكم بعد رحيل الحملة الفرنسية عن مصر بسنوات تعد على أصابع اليد الواحدة، وهنا تكمن مفارقة أساسية: فالشعوب المشهورة التي هزمتها قوى عسكرية متفوقة في التقنية والتنظيم وفنون إدارة المعارك، تتجه عادة إلى تبني التقنيات والأليات نفسها لتهزم الأجنبي الدخيل بأسلحته نفسها، لهذا لم يكن غريبا أن يختار محمد علي، وهو يخطط لتأسيس قوة عسكرية «حديثة»، أن يقوم بتحديث نظم التعليم وأن يوكل مهمة بناء جيش «حديث» إلى رجل فرنسي هو سليمان باشا الفرنساوي، ويؤكد لنا المؤرخون أن هزيمة مصر القديمة أمام الهكسوس ترجع إلى التفوق التقني العسكري - مهما كان ضيقا - الذي تمثل في استخدام الغزاة لسلح جديد، للكر والفر وهو العجلات الحربية Chariots، وأن أحسن، ملك طيبة الشاب، نجح في هزيمة الهكسوس وطردهم خارج مصر، ومطاردتهم إلى حيث جاءوا، بعد أن صنَّع الجيش المصري عربات حربية خاصة به، ماذا نسمي ما حققه المصريون آنذاك؟ إنه «حديث» بالمعنى الكامل للكلمة على أساس النموذج الذي قدمه الغزاة المتفوقون؛ وبالمعنى نفسه يمكن فهم ما حدث في السنوات التي أعقبت الهزيمة العسكرية عام ١٩٦٧، حينما اعتبرها قطاع كبير من الشعب العربي هزيمة لعقل عربي متخلف، ومن ثم بدأ البحث المموم، وسط إحباطات مؤلمة، عن تفسير انتهينا فيه إلى الرغبة الموهومة في تحديث الآداة العسكرية وفنون القتال وإدارة المعارك. وقد استغلت قلة منا رغبة الجماهير العربية في تحقيق تحديث كامل لتحقيق «حداثة»، انتهت بنا إلى الارتواء الكامل في أحضان الثقافة الغربية ومنجزات العقل الغربي دون تمحيص أو ترو، لكن المهم أن الرغبة في التحديث ترتبط عادة بشعور بالدونية في مواجهة «الآخر» الثقافي، وهو ما يناقشه، في جزء منه، جابر عصفور في سياق حديثه عن موقفنا من التراث بصورة أكثر تعمقا وعمقا مما توجي به سطور مؤلف المرايا المقعرة، الذي يلجأ إلى التيسيط عن قصد وتعمد:

«ومن منظور هذه الدلالة، فإن المرء لا يمكن أن يتجاهل اتساق المتصاعد لهذه القراءات بعد العام السابع والستين، وما يدل عليه هذا التساق للمحاح من وعي متوتر بأزمة جذرية، قاهرة، تقترب بالشك في كل شيء، وتدفع إلى إعادة طرح الأسئلة عن كل شيء»

ثقافة الشرخ

وتلح على ضرورة اكتشاف - أو إعادة اكتشاف - «الأنثى» في علاقاتها بالمتنويات المتعددة لثلاثية: الحاضر، الماضي، الآخر. ومن ثم اكتشاف - أو إعادة قراءة - كل واحد من أطراف الثلاثية (بمتنوياته المتعددة) هي علاقاته بغيره (بمتنويات متعاقبة) بحثاً عن المستقبل. وذلك في وعي يسرب فيه الشعور بالدونية الذي يبعثه إدراك التخلّف في حضرة «الآخر» (القرب الرأسمالي والاشتراكي على السواء) والتبعية له. وفي الوقت نفسه الرغبة البقية (المكبوتة - المقموعة) في الاستقلال عنه والتميز بإزاءه^(٦).

لقد ارتبطت الرغبة القوية في التحديث في مواجهة «الآخر» الأوروبي بصفة خاصة، بشعور بالدونية، سواء أكان ذلك في بدايات الاتجاه إلى أوروبا أو في محطته الأخيرة بعد هزيمة ١٩٦٧، العسكرية، وبعد عصفور بشهور قليلة، يؤكد شكري عياد العلاقة بين إحباطات الحلم العربي عام ١٩٦٧، وظهور الحداثة في العالم العربي، وإن كنا نضيف هنا أن الریم بین «الحداثة» والتحديث كان هو الخديعة الكبرى التي قام بها الحداثيون العرب عظماء وجهوا الرغبة الشعبية الشاملة في التحديث، بعد الهزيمة العسكرية، في اتجاه تبني الحداثة دون أن يدركوا، إذا افترضنا حسن النية، أو في تجاهل متعمد، إذا افترضنا سوء النية، أن التحديث لا يعني «الحداثة» بالضرورة، وأن هناك اختلافات جوهرية بين ثقافة الحداثة الغربية والثقافة العربية، يكتب عياد:

«في مجال الأدب - موضوعنا الخاص - كان هذا المناخ المرضي الكتيب تربة صالحة جداً لانتعاش الحداثة، التي لن تصبح مقصورة على فئة صغيرة من الأدباء والفنانين الذين يعيشون بأجسامهم في مصر، ويعيشون بعقولهم ومشاعرهم في أوروبا (أو يتوهمون ذلك). بل الوسيلة الوحيدة لدى جيل كامل من الأدباء الشبان الذين نشأوا في ظل ثورة ٥٢: للتعبير عن إحباطهم ورفضهم المطلق للماضي، وشكهم في الحاضر، وإسهم من المستقبل»^(٧).

وقد وضع شكري عياد يده ببصيرته النقدية النافذة، على الرغم من تواضعه الجرم في التعامل مع موقف فكري كان من أول الرافضين له. على ثقافة الشرخ حينما وصف الحداثيين العرب بأنهم أناس يعيشون بأجسامهم

في مصر، ويعيشون بعقولهم ومشاعرهم في أوروبا (أو يتوهمون ذلك)، هل يستطيع أحد أن يشكك في شرعية مشروع «التحديث»؟ الإجابة واضحة لا تحتاج إلى إعادة أو تأكيد، كان واجب الأمة العربية، منذ لحقت بركب السباق الحضاري الأوروبي (ولا نقول السباق الثقافي) منذ بداية القرن التاسع عشر، أن ترفع شعار التحديث قولاً وفعلًا، وكان من حقها أن تتبنى النموذج الأوروبي أو النماذج الأوروبية في استخدام وتطبيق منجزات العلوم المختلفة، وأن تحقق تحديثاً في الصناعة والزراعة وأساليب الإدارة يمكنها من مواجهة ذلك الآخر الثقافي، الحضاري، دون إحساس بالذلونية التي يؤكدنها الكثيرون. وقد أدركت القوى الاستعمارية الأوروبية خطورة ما يمكن أن يحققه العالم العربي، الذي أخذ بالتحديث الغربي - دون أن يفقد هويته الثقافية بعد - حينما وصلت قوات محمد علي إلى أبواب الأستانة، وأصبحت تهدد بإنهاء الإمبراطورية العثمانية المتهترئة، وتهدد، في الوقت نفسه، بصحوة عربية جديدة تبتل مخططات وأطماع القوى الأوروبية، ولهذا تكاثفت ضد محمد علي وحطمت أسطوله البحري أمام شواطئ اليونان، ثم فرضت عليه التراجع إلى ما وراء حدود ولايته الصغيرة، وأجهضت بذلك حلم صحوة كبرى جديدة. المهم أن التحديث هنا، وفي التحليل الأخير، كان طريق الاستقلال وأداة الحفاظ عليه، بل إن تبني النموذج الغربي كان يعني ضمناً وصراحة، درجة من الانبهار بمنجزات العقل الغربي.

أين أخطأنا إذن؟

أخطأنا حينما حولنا صفة «التحديث» التي تعني الحفاظ على منجزات العقل العربي مع الاستفادة من منجزات العقل الأوروبي في العلوم والتكنولوجيا، كما فعلت اليابان على سبيل المثال حتى عهد قريب، إلى صفة حضارية وثقافية شاملة، وتحولنا من الانتقاء الذكي من ثمرات الحضارة الغربية، منذ ذروة عصر النهضة، إلى الارتواء الكامل في أحضان ذلك الآخر. أخطأنا حينما ربطنا بين التحديث وإدارة ظهورنا بالكامل لمنجزات العقل العربي، وهو ما يسمونه بلغة الحدائين البراقة: القطيعة المعرفية مع الماضي، على أساس أن الحدائنة (كما قد بدأنا الخلط بين

ثقافة الشرخ

التحديث والحداثة) لا تتم إلا بتحقيق القطيعة المعرفية مع التراث، باختصار مؤلم، أخطأنا حينما جمعنا بين الانبهار بالعقل الغربي ومنجزاته، وبين احتقار العقل العربي والتكبر لمنجزاته والتقليل الكامل من شأنها.

من الانبهار بالعقل الغربي إلى احتقار العقل العربي

إن شائبة الانبهار بالعقل الغربي ومنجزاته، واحتقار العقل العربي ومنجزاته تقع في قلب الشرخ الثقافي الذي يعيشه الإنسان العربي بدرجات لا تتفاوت كثيرا من جماعة عربية إلى جماعة عربية أخرى وبدا من منطقة وسط يأخذ فيها المثقف العربي ما يتناسب مع ثقافته العربية وتراثه الطويل، نجد الغالبية تعيش الشائبة بكل تناقضاتها وفصامها. صحيح أن هناك قلة بين المثقفين العرب لم يفقدوا إنجاز العقل الغربي قدرتهم على الاحتفاظ بتوازن صحي بين طرفي الشائبة من منطلق إدراكهم أن إنجازات العقل الغربي ليست خيرا كلها، وأن إنجازات العقل العربي ليست شرا كلها، وأدركوا أيضا عكس ذلك، فليست إنجازات العقل الغربي شرا كلها وليست إنجازات العقل العربي خيرا كلها، هناك من أدركوا الاختلافات بين الثقافتين العربية والغربية، وهناك من واجهوا التحديات القوية ضد الارتقاء الكامل في أحضان الثقافة الغربية، لكن تحذيراتهم، على ما يبدو، ذهبت أدراج الرياح، ووصل الانبهار بالعقل الغربي إلى ذروته، في ربع القرن الأخير من القرن العشرين مع النسخة الحداثية وما بعد الحداثية العربية. الانبهار بمنجزات العقل الغربي، في حد ذاته، ليس خطيئة لا تغتفر، لكنه يصبح كذلك حينما يُقرن بالتكبر للتراث الثقافي العربي أو المناداة، كما تفعل النسخة، بضرورة حدوث «قطيعة معرفية» كاملة معه كشرط لتحقيق التحديث والحداثة. ومرة أخرى يحدد شكري عياد، في دقة كاملة، ملر في الثمانية في نهاية القرن العشرين:

«لا شيء أصعب من أن ننظر إلى الحقائق كلها في وقت واحد، فكم يكون الاختيار سهلا لو تعامينا عن بعضها. وأصحاب الحداثة - كبارهم وصغارهم - يتجاهلون نقائص الحضارة الغربية مع علمهم بهذه النقائص، كان إيمانهم بتفوق العقل الغربي ونجاح المجتمع الغربي بلغ حد الإيمان بقدراتهم على التغلب على جميع المشكلات،

أو كان التفكير في نقائص الحضارة الغربية يجب أن يؤجل إلى أن تصبح جزءاً من هذه الحضارة بالفعل»^(٨).

لكن كلمات شكري عياد هنا والتي تنتمي إلى العقد الأخير من القرن العشرين تشير إلى الحداثة والحداثيين العرب، مما قد يوحي بأن الحداثيين هم الذين بدأوا موجة الانهيار بإنجازات العقل الغربي والثقافة الغربية. لكن هذا ما لم يقصده عياد ولا يهدف مؤلف المرايا المقعرة إلى إثباته. الحداثة العربية - كما سبق أن أشرنا - كانت نتيجة لهذا الانهيار ولم تكن سبباً. كانت ذروة ستتوقف عندها بما تستحق من دراسة في موضع لاحق، وإن كان ذلك لا يعني إثارة الحداثيين العرب سواء من الانهيار بإنجازات العقل الغربي - وهذا من حقهم - أو احتقار العقل العربي - وهذا ليس من حق أحد.

إذا كان هناك من يرى أن القول بالحضور المتزامن للانهيار بالعقل الغربي وإنجازاته واحتقار العقل العربي وإنجازاته اتهام مبالغ فيه، فدعونا نسترجع الخطى إلى السنوات المبكرة من القرن العشرين، ميخائيل نعيمة، على سبيل المثال، الذي قدم أكثر مؤلفات بداية القرن قيمة وجدية، وتخص به الفريال (١٩٢٢) والذي تفوق أهميته عمليات التسفيه السطحية التي أحفلت بها صفحات ديوان العقاد والملازني (١٩٢٠، ١٩٢١)، وهو تصفيه وتسلط لا يرقى إلى مستوى النقد، بل يمكن اعتباره قذفاً في حق شوقي وشكري وآخرين، ميخائيل نعيمة هذا يبدأ من نقطة ارتكاز أساسية هي موت الثقافة العربية (في جانبها الإبداعي على الأقل) لأكثر من خمسمائة عام. «اليسست تلك الأجيال التي مرت بنا»، يتساءل نعيمة في كتابه القيم، «ولم نبد في خلالها أمارات الحياة، ولم نسمع لأنباضنا دقة في جسم الإنسانية، سبباً كافياً لحمل العالم على الاعتقاد بموتنا الأدبي؟ أرملة الإنجيل لم يكن معها سوى درهم واحد ضمته إلى الأموال المعينة لمجد الله، أما وطننا فكان في تلك الأجيال ولا يزال أفقر من تلك الأرملة؛ إذ لا درهم عنده يضيفه إلى خزانة العالم»^(٩). ولم يكن غريباً، في ظل تلك النظرة، أن يسبق نعيمة كلماته هذه بكلمات أشد قسوة: «أسباب هذا؟ فنوما هنياً! أم وفاة فرحة أبدية؟».

لكن هذا حكم بالوفاة أو السببات على العقل العربي المبدع في القرون الخمسة السابقة على القرن العشرين. فهو يحكم بفشل العقل العربي طوال

ثقافة الشرق

خمس قرون في أن يودع أي فكر جديد في خزانة الآداب العمومية، أو أن يقيم مشروعاً يهر به البشرية، أو حتى يضيف اسماً واحداً إلى قائمة قواد الإنسانية في أي من أنواع الإبداع. وقد يرى البعض أن واقع الحال يؤكد مقولة نعيمه، إذ إن القرون الخمسة المعنية كانت بالفعل قرون تحط وانحطاط، ماذا إذن عن عصور الإبداع الذهبية في تاريخ الثقافة العربية ابتداءً من العصر الجاهلي ومروراً بصدر الدولة الإسلامية ثم الأموية والعصر العباسي؟ بل ماذا عن تلك التومضات التي أضاعت سماء الأدب العربي الحديث؟ يجيب نعيمه في احتقار ممزوج بالسخرية للأدب العربي الحديث، احتقار لا يقل عن احتقاره السابق ويقارن أعلام العطاء العربي بأعلام غربية لا يتردد في أن يمنحها قصب السبق والتميز:

«أسمع أصواتاً تنادي وأرى أيادي تمتد نحوي والسنة تصب عليّ
اللقم والكل يقولون: «وهل نسيت - وأنت جاهل - أسماء امرئ القيس
والنابغة الذبياني وليد وعقمة وعنترة والمهلهل والمتنبّي والهمداني
والأخطل وابن رشد وابن سينا... إلخ من الأقدمين وشوقي وحافظ
والمطران وكثيرين سواهم من المحدثين»

كلا يا سادتي أنا لم أنس هؤلاء كلهم بل لا أتجاسر أن أرعج
سكينة قبور الرافدين منهم ولا أن أرفع عيني الخاطنتين إلى أكائيل
النار وأهله النور فوق رؤوس الباقين في قيد الحياة. إنما أغمس لكم
همساً كي لا أثير غضبهم؛ إن غضبهم أكثر من ثمينهم، وعلى كل لا
أظنكم ظالمين إلى حد أن ترفضوا أحداً منهم إلى مصاف هوميروس
وفرجيل ودانتي وشكسبير وملتون وبيرون وهيغو وزولا وشوته وهينة
وتولستوي... خلقوا وماثوا [يقصد الشعراء العرب] ليتغزلوا بطباء
الفلاة ولعمان المشرفيات ووقع سنايك الخيل وسفك الدماء ومشى
الإبل وأطال المنازل ونار القرى... إلخ»^(١).

والنهضة الأدبية، أو «ما تعود البعض أن يدعوه نهضة أدبية»، كما يقول
نعيمه، لم تكن «سوى نضجة هبت على بعض شعرائنا وكتابتنا من حداثتي
الآداب الغربية، جذبت في مخيلاتهم وفرائضهم كما تدب العافية في
أعضاء المريض بعد إيلاله من سقم طويل. والسقم الطويل الذي يشير إليه
نعيمه هو «المرض الذي أُلِّم بلغتنا أجيالاً متوالية كان شللاً أوقفت فيها

حركة الحياة وجعلها ... جيفة تتغذى عليها أقلام الرُعائف المستبعدين
وقرائح النظميين والمقلدين»^(١١).

ما أسهل أن تنحي رأي ميخائيل نعيمة جانبا بدعوى أن الرجل كتب
«غرياله» في نيويورك، حيث تلقى تعليما غريبا خالصا في المهجر الأمريكي،
وأنه من المنطقي أن يصدر حكمه على إنجازات العقل العربي من هوى مسبق
وتحيز جاهز. وإذا كان ذلك كذلك، فماذا نقول في حماس العقاد والمازني في
«ديوانهما» الذي لابد أنهما كتياه في السنوات نفسها لكتابة مقالات نعيمة، إذ
إن بعض هذه المقالات التي نشرت في الغريال تعود إلى عام ١٩١٩، أي قبل
صدور جزأي الديوان في عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ وسوف نعود في مرحلة لاحقة
إلى وقفة أكثر أناة مع ديوان العقاد والمازني، لكن يهمنا أن نذكر هنا حماس
العقاد لـ غريال نعيمة، الذي يشتم منه ذلك المزج بين الانبهار بالعالم الجديد
والاجتقار لإنجازات المبدعين العرب المعاصرين، والذي لم يفلت واحد منهم
من «سوط» المؤلفين غير النقدي، موقف العقاد هذا تنطق به صفحات
الديوان نفسها، في أكثر من موقع. فلم يكن نعيمة وحيدا في انبهاره بإنجازات
العقل الغربي. وهل نستطيع أن نتجاهل صوتي العقاد والمازني اللذين قدما
أهم دراسة نقدية - يفترض أنها كذلك - في السنوات المبكرة من القرن
العشرين. وهنا أعيد تأكيد المقولة السابقة، وهي أنه إذا كان بإمكان أحد أن
يتجاهل رأي ميخائيل نعيمة باعتباره أمريكي الثقافة، فإن أحد لا يستطيع أن
يتجاهل رأي مؤلفي الديوان للسبب نفسه، ولم يكن العقاد والمازني في حقيقة
الأمر أقل حماسا من نعيمة لإنجازات العقل الغربي وانبهارا بثقافته وأدابه:

«وإن المرء ليزهر يادميته حين يلقي بنفسه في غمار الآداب
الغربية، وتجيش أعماق ضميره بتدافع تياراتها، وتعارض مهايبها
ومنتجاتها وتجاوب أصداؤها وأصواتها - أبواب للكتابة متنوعة،
ومهايع متسعة، وقتون مبتدعة، ونحل ومذاهب، ومدارس ومشارب.
والحياة بين هذه الأفكار المشرقة معروضة للنظر في كل شبة من
شباتها، محسوسة في كل خطوة من خطواتها، متكررة متضاعفة،
شاذة موقفة، جادة ساخرة، نائمة راضية»^(١٢).

إن حماس العقاد والمازني هنا للأدب الغربية لا يمكن أن يوصف بأنه أقل
من حماس نعيمة!

ثقافة الشرخ

هل تختلف نعمة السنوات المبكرة من القرن العشرين عن نعمة السنوات المتأخرة؟ الاختلاف الوحيد الذي تؤكد متابعة بسيطة لحركة الثقافة العربية في ربيع القرن الأخير، هو أن الحدائي العربي - فتلك سنوات الازدهار الحدائي في العالم العربي - كان أكثر انهياراً بمنجزات العقل الغربي واحتقاراً لمنجزات العقل العربي. ربما تكون نكسة أو هزيمة ٦٧ مبرراً مقبولاً لتلك المبالغة عند طرفي الثنائية، لكننا هنا في مجال الرصد وليس التبرير. وربما يكون انكسار الحلم العربي بالقسوة التي تم بها أيضاً مبرراً آخر، جعل هذا التحول إلى ثقافة الآخر الأوروبي الغربي - والأمريكي بعد ذلك - رد فعل طبيعياً لانهيار الحلم في لحظات دفعت المثقف العربي إلى محاولة تحقيق قطيعة معرفية مع الماضي - مع ما يعنيه ذلك من رفض صريح واحتقار ضمني له - ومحاولة تحديث العقل العربي تأسيساً على النموذج الغربي الذي حققت أسلحته تحطيم الحلم العربي. من هنا نستطيع أن نقول صادقين إن الحدائي العربي فعل ما فعل بحسن نية كاملة. ومع الانهيار من ناحية، وحسن النية من ناحية ثانية، لم يدرك الحدائي العربي أنه يضع رقية الثقافة العربية طائفاً مختاراً تحت سيف الهيمنة الغربية. وهو حسن النية نفسها الذي اعماه عن حقيقة أكثر إيلافاً، وهو أن المخابرات الأمريكية الـ «CIA» كانت تمول انشطة ثقافية مختلفة ومتباينة أحياناً، ومن بينها مدارس الحداثة المختلفة، في دول عديدة من العالم؛ لم نكن نعرف، سوف يسارع الحدائيون العرب إلى القول. لكن الواقع أن الإنسان الذي يعطي لنفسه مسؤولية قيادة فكر أمة في فترة تاريخية حاسمة، كتلك التي تلت هزيمة ٦٧، واجبه أن يعرف. فقد كانت الشواهد موجودة ومعلنة في الجامعات الأمريكية منذ أواخر الستينيات، أي قبل صدور الدراسة المطولة والموثقة للباحثة البريطانية «فرانسيس سوندرز» تحت عنوان من الذي دفع أجبر العازف؟ دور المخابرات الأمريكية في الثورة الثقافية (١٩٩٧) بثلاثين عاماً على الأقل، ولهذا حديث آخر.

أضف إلى هذا أننا لا نستطيع أن ننكر أن أصوات التحذير كانت موجودة، خاصة في الفترة القريبة من الخمسينيات، وإن لم تكن التحذيرات في ذلك الوقت بالقوة الكافية، فلم يكن الارتواء الكامل في أحضان الثقافة الغربية قد تم بعد. من بين هذه الأصوات، على سبيل المثال، صوت محمد مندور الذي حذر من نقل الفكر الغربي والانفصال عن الواقع متبنيها دعوة للوسطية

الثقافية تقترب من الواقع الثقافي والحياتي العربي، أكثر من اقترابها من الثقافة الغربية:

«ونحن في عصرنا الحاضر لن نستطيع أن نجاري التفكير الأوروبي، أو نصيف إليه إضافات حقيقية إذا اكتفينا بنقل هذا التفكير [التفكير من عندي]، وذلك لأن الفكرة التي تبني على فكرة أخرى لا تلبث أن تحل متعشرة في فئات المنطق، وإنما التفكير الخصب هو الذي نستمد من الحياة ونبنيه على الواقع، وعلى هذا لا يكون لنا، إذا أردنا أن نجدد حياتنا الروحية، من أن نغير اتجاهاتها وقيمها، وهذا لن يكون إلا إذا تغذينا بالأدب والفنون الأوروبية من تصوير ونصت وموسيقى»^(١٣).

وسطية مندور تتمثل في رفضه للنقل وتقبله للتأثر الذي يعبر عنه في «إذا تغذينا»، لكن التعذير قائم ويتفق توازنه بل هبوطه مع توازن المرحلة السابقة على التحول الحداثي. ولهذا لم يكن غريباً أن يكون مندور من أكبر النقاد العرب في العصر الحديث الذين تحمسوا للتراث النقدي العربي. لقد كان الموقف من التراث محور الثقافية التي واجهناها منذ بداية القرن، ومازلنا نواجهها بصورة أكثر حدة اليوم. على الرغم من كل شعارات الأصالة والمعاصرة، وهي الثنائية التي تم فيها تحريف «الأصالة» لتعني العودة إلى الأصول أو التراث، فإن حقيقة الأمر أن التحديث عامة، والحداثة خاصة، تنفيض التراث، فالحداثة في أبسط تعريفاتها ثورة على القوالب التقليدية المألوفة والمتوارثة، وهو ما أدركه نعيمه ميكرا وسط انهياره بعبارة الثقافة الغربية، قديمها وحديثها، الذين «أسكنتهم السماء أوليوس بين الآلهة ولمست شفاههم بجمرة الحق»، ومن ثم يخلص في مقارنته سكان أوليوس وسكان الأرض البسطاء من المبدعين العرب إلى: دعوهم في أعمالهم فتعن قاصرون عن إدراكهم بأيدٍ أقللتها سلاسل القيود، وعيون امتصت الظلمة ماءها، وعقول لم تتجر بعد من أوهام الماضي وأشباحه وغرور المستقبل لتدرك حاضرها»^(١٤).

حقاقاً للحق، هناك قلة من الحداثيين يدركون الأزمة ويدركون أنه تصعب المجاهرة صراحة بالدعوة إلى تحقيق قطيعة معرفية مع التراث كشرط لتحقيق الحداثة، ومن ثم يتحدثون عن حداثين لا حداث واحد، تأكيداً لشعار الأصالة

ثقافة الشرع

والمعاصرة، وعلى الرغم من أن ما بعد الحداثة، على وجه التحديد، لا يسترجع التراث أو الماضي إلا لتفكيكه بل لتسخيره منه. من بين هؤلاء سامي سويدان في كتاب أخير له بعنوان «جسور الحداثة المعلقة» (١٩٩٧)، حيث يتحدث صراحة عن حدثين في معرض حديثه عن مراحل البنيوية:

«في كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث، كانت الإنتاجات الإبداعية الحداثية تعلن عن نفسها ضمن ضفتين متقابلتين تنهض في إحداها أعمال ملتحقة بالمطرف الغربي المبسط، مقابل بروز أعمال معيرة عن مقاومة هذا الأخير بثبوتها بالقيم والأساليب التقليدية المتوارثة، قد تلتقي مع الأولى في بعض ظواهرها وإنجازاتها دون أن تفك نهائياً عن التواصل مع الموروث القديم في إجازاته الأكثر عمقا وثأفا»^(١٥).

لقد أراد سامي سويدان أن يقيم جسرا ما، فتحدث عن حدثين: حداثة تتجه ناحية الغرب، وحداثة تتجه ناحية التراث العربي القديم، تتفق مع الحداثة الغربية، من ناحية، ولا تحقق قطيعة مع التراث، من ناحية ثانية، الحداثة الثانية على وجه التحديد هي الحلم المستحيل الذي راوغ الحداثيين الغرب حتى الآن، وهو تأسيس حداثة عربية أول شروطها - وهو ما لم يكن يذركه سويدان أو يعترف به - التمرد على جوهر الحداثة الغربية المتمثل في تحقيق قطيعة مع التراث والتمرد عليه بل رفضه. ومن هنا فإن شرط تطوير حداثة عربية خاصة بنا، وهو حلم مؤلف المرايا المقعرة، غير متوافر في معاولة سويدان إمساك العصا من منتصفها.

أما عن الانبهار فلم يكن العقل العربي في يوم من أيام اتصاله بالثقافة والحضارة الغربيتين أكثر انبهاراً بهما مما هو اليوم، ومنذ بداية الثمانينيات على وجه التحديد، وهو انبهار أعصى الحداثيين العرب عن إدراك الاختلافات، من ناحية، ودفعهم، بسبب إيمانهم بضرورة تحقيق قطيعة معرفية مع الماضي كشرط لتحقيق الحداثة، إلى احتقار التراث من ناحية ثانية، ثم الوصول بالتبعية الثقافية للغرب إلى أبعد نقطة فيه من ناحية ثالثة. والنتيجة أن أصبح العقل العربي منفصلاً وليس فاعلاً:

«يلاحظ المتتبع لحركة النقد العربي الجديد - في العقدين

الأخيرين - تدفق الدراسات الأدبية على الساحة النقدية العربية.

ويبدو العقل النقدي العربي المعاصر معججا بها، ومتحمسا لها كأنه وجد ضالته المنشودة بعد صبر مديد، كما يلاحظ كثرة المؤلفات النظرية والتطبيقية والترجمات المتعددة، للبنوية الوصفية والبنوية التكوينية والسيمولوجيا والنقد الأسطوري والنقد التفكيكي... إلخ. كما تدرس أسماء رولان بارت وجوليا كريستينا وتودوروف وجولدمان وهراي وسوسير وياكوبسون وغريمان وجان كوهين وبريموند وغيرهم وغيرهم، في الكتب والمجلات العربية.

ويشعر المرء بأن العقل العربي - في معظم الأحيان - يبدو من خلال ذلك كله، منفعل لا فاعل، مستقبلا لا محاورا، محاكيا لا متمثلا،^(١٦) [التأكيد من عندي].

وقد كان شكري عزيز الماضي أكثر صراحة في تفسير موقفه من رفض ذلك الانبهار بالحدثة الغربية، «من نافلة القول»، يكتب عزيز الماضي، «التأكيد بأننا لم نبتكر هذه الوسائل العلمية بل جاءتنا من الخارج فهي لم تنبع من سياق اجتماعي تاريخي حضاري، مثله مثل الأدوات التي جاءتنا من الخارج ولم تنبع من سياق أدبي نقدي تاريخي محلي»^(١٧) [التأكيد من عندي].

إن الإنسان يقف في دهشة بالغة أمام درجة الانبهار المطلق بإنجازات العقل الغربي، وهو انبهار لا تكفي هزيمة العقل العربي وانتهيار الحلم القومسي للذات أعقبا هزيمة ١٩٦٧ لتبريره إلا بمقدار محدود. وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة أن الانبهار كان مقرونا دائما، وفي تعميم، موثق بدرجة مماثلة من احتقار العقل العربي وإنجازاته، فانبهار جابر عصفور مثلا بإنجازات العقل الغربي منذ تمتعت عيناه، كما يقول، عام ١٩٧٧ على البنوية، لا يقابله احتقار أو تقليل من شأن التراث النقدي العربي، ودراسات الرجل في التراث النقدي لما يقرب من ثلاثين عاما في ذلك المجال تعتبر من بين أعمق الدراسات الأكاديمية وأكثرها جدية واحتراما للعقل العربي، لكنه لا يختلف كثيرا عن بقية الحداثيين العرب في انبهارهم بالثقافة الغربية عامة، والحدثة خاصة، في فصل بعنوان «فتنة البنوية» من كتاب نظريات معاصرة، وهو مجموعة مقالات كان قد سبق لجابر عصفور نشرها في جريدة الحياة على مدار أربع أو خمس سنوات سابقة لنشرها في ذلك الكتاب، يتحدث المؤلف عن «فتنة البنوية» في حماس لا يقل عن انبهار أي حداثي عربي معاصر آخر:

ثقافة الشرخ

«كانت البنيوية مبعوث العناية اللغوية الذي حمل بشارة العهد الآتي إلى العلوم الإنسانية ومنها النقد الأدبي، دالا إياها على طريق الهداية المنهجية والجنة الموعودة للدراسة العلمية التي تؤسس النقد الأدبي بوصفه علما من العلوم الإنسانية المضطربة. وسواء تحدثنا عن البنيوية بوصفها حركة اجتماعية سياسية، أو بوصفها نشاطا أيديولوجيا، فإنها تظل مشروعاً منهجيا بالدرجة الأولى. من حيث هي دعوة إلى تطبيق النموذج المنهجي الذي أبنى عليه علم اللغة عند سوسير»^(١٨) [التأكيد من عندي].

وفي بعض الحالات يقف المرء مذهشاً أمام مفارقات أقل ما يقال عنها أنها محيرة. وإن كانت تصور موقف الناقد الحدائثي العربي وحيرته في غيبة مذهب نقدي عربي يمكن أن يستخدم أدواته في تعامله مع الخصوص الإبداعية. فهو يعيش حالة فراغ خلقته القطيعة المعرفية الكاملة مع التراث التي تعتبر شرط تحقق الحدائث. وفي الوقت نفسه، وينشط حماسه للتحديث، يتبنى المناهج والأدوات الحدائثية الغربية. وينقل من الفراغ إلى المناهج الحدائثية الغربية وأدواتها تتسق مع موقف الحدائثي العربي الذي أكدناه في إلحاح حتى الآن، لكن من غير المنطقي؛ وذلك هي المفارقة، أن يتحدث الناقد العربي الذي يعيش على فكر ومنهج مستعار قائلاً إنه في بحثه عن «ذاته»، تبني هذا المنهج الغربي أو ذاك. تماماً كما قال يوسف الخال، وكما قال شكري عياد بأن هؤلاء جميعاً يعيشون بأجسامهم في العالم العربي ويعيشون بمقولهم ومشاعرهم في أوروبا، مثل هذه المفارقة تجسدها كلمات ناقد حدائثي جاد عزيز الإنتاج هو عبدالله الغدامي في مقدمة كتابه: *الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية* حيث يقول:

«ولذلك احترت أمام تقسي، وأمام موضوعي، ورحبت آجعت عن نموذج استظل بظله، ومحشياً بهذا الظل عن وهج اليوم المصطرع في النفس، كي لا أجتر أعصاب الأمل». [الإشارة هنا إلى القطيعة مع التراث - المؤلف] وأجلب التمر إلى هجر، ومازلت في ذاك المصطرع حتى وجدت متقدماً فتح الله مسالكه، فوجدت منهجي، ووجدت نفسي...»^(١٩).

وبعد ذلك ببضعة سطور يحدد الغدامي ملامح «منهجه» و«نفسه» اللذين وجدهما؛ لقد وجد الاثنين عند رومان ياكوبسون دون موارد أو لف أو إدراك لسخرية المفارقة: «وخير وسيلة للنظرة في حركة النص الأدبي، وسبل تحرره، هي الانطلاق من مصدره اللغوي، حيث كانت مقولة لغوية أسقطت في إطار نظام الاتصال اللفظي اليشعري، كما يشخصها رومان ياكوبسون في (نظرية الاتصال) وعناصرها الستة، التي تغطي كل وظائف اللغة، بما فيها الوظيفة الأدبية»^(٢٠). وبصرف النظر عن مقارفة أكثر إثارة للعجب تتمثل في أن تعامل الغدامي مع قصائد الشاعر السعودي الذي يتخذ من شعره نموذجاً للنقد «التفكيكي» الذي يسميه «تشريحياً» لا علاقة له بمنهج ياكوبسون البنيوي؛ فإن مفارقتها الأساسية لا تحتاج إلى تعليق!

نستطيع أن نمضي مع الطرف الأول من ثنائية الانبهار - الاحتقار إلى مدى قد لا يطيقه القارئ. لكننا قدمنا في الصفحات السابقة نماذج - لا ندعي أنها جامعة مانعة - للانبهار بإنجازات العقل الغربي في ربع القرن الأخير من القرن العشرين. وقد آن لنا أن نتحول إلى الطرف الثاني ونعني به احتقار العقل العربي وإنجازاته الثقافية في الفترة نفسها، وهي فترة ارتقاء نجم الحداثة في العالم العربي.

ولنا وقفة قصيرة هنا مع دلالة عنوان الدراسة الحالي. لم يقع اختياري على المرايا المقعرة كعنوان للدراسة الحالية في محاولة مقصودة أو متعمدة لتكرار الضجة التي أثارها كتابي السابق: المرايا المحدبة؛ من الهنيوية إلى التفكيك (١٩٩٨). وإن كنت أظن أن هذا في حد ذاته هدف مشروع. لكن صورة «المرايا المقعرة» فرضت نفسها منذ البداية بمجرد أن بدأت التفكير في بديل نقدي للمنهجين أو المشروعين النقديين اللذين رفضتهما في المرايا المحدبة، وهو البديل الذي ألع على الكثيرون للاشتراك في البحث عنه، هذه الصورة قفزت إلى ذهني مباشرة. كان لابد من التفكير في بديل يجيء تطويراً للتراث و«حديثاً» له. التطوير والتحديث اللذان فكرت فيهما كانا جوهر الرد المنطقي على الدعوة الحداثية لتحقيق قطعية معرفية مع الماضي. وهذا على وجه الدقة هدف وموضوع الدراسة الحالية، إذ إن الحداثيين وغير الحداثيين العرب، منذ السنوات المبكرة من القرن العشرين، أداروا ظهورهم للتراث العربي، بدرجات متفاوتة، بالقطع. وفي العقدين الأخيرين من ذلك القرن

ثقافة الشرخ

وصلت الدعوة إلى القطيعة المعرفية مع التراث إلى ذروتها، كان الحداثين العرب، في الوقت الذي وقفوا فيه طويلاً أمام المرايا المحدبة^(٢١) فصدقوا وهم ضخامة إسهاماتهم، قد وضعوا التراث الفكري والنقدي العربي أمام «مرايا مقعرة» قامت بتصغير إنجازات العقل العربي والتقليل من شأنها. وهذا في حقيقة الأمر ما نقصده باحتقار إنجازات العقل العربي.

هكذا وضع بعضنا منجزات العقل العربي عامة وتراثه النقدي خاصة أمام «مرايا مقعرة» فرأوه صغيراً قليل الشأن، وتعاملوا معه، وسط انبهارهم بمنجزات العقل الغربي، من منطلق الاحتقار، وهذا هو جوهر الإحساس بالدونية التي يتحدث عنها الكثيرون، ومرة أخرى نعود إلى بداية القرن العشرين لنرصد بداية الموقف من التراث النقدي، فكما لم يكن الانبهار بمنجزات العقل الغربي مقصوداً على ريع القرن الأخير والحدائث العربية، لم يكن احتقار منجزات العقل العربي مقصوداً على ريع القرن الأخير أيضاً، ولا يمكن التأريخ لهذا الموقف ببداية الحدائث العربية. لقد كانت بداية القرن في الواقع تسجيلاً لنشائية الانبهار بالعقل الغربي واحتقار العقل العربي ومنجزاته. ففي معرض تقديمهما العنيف، أو بالأحرى، كما سبق أن أشرنا، تشهيرهما غير الموضوعي بشوقي، يكتب مؤلفا الديوان، بعد كلمات الانبهار بالأدب الغربية مباشرة:

«ثم تلنفت إلى الأدب الذي يدعيه أولئك الأميون العارضون
بالكثابة، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة. العامة المتطفلون على
موائد الخاصة ضئى عجباً... نفوس ضاوية وعضول خاوية وأخيلة
في التراب ثاوية... فصدق إحدى الشئتين: إما أن أدبا تسمعه من
هؤلاء أشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو إلى أسنى معارج
الإنسانية، أو أنهم ليسوا من ذاك وإنما هم محترفو حرفة ليس من
آلاتها تباعة الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور.
وإن من الجنابة على مصر والشين لها أن يسمى هؤلاء النثر بعد
أهوم أدباها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها. وما تلتك بحياة فنية
يعنو ذوقها لكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من
أغراضه أو يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة واليهلوانات
أرزاقهم يعرض ثعابينهم وخيولهم؟»^(٢٢)

وتعني الفترة المفصلة بين الدعوة إلى «التحديث» في بدايات القرن، مع كل ما صاحبها من درجات على سلم الانهيار بالغرب وثقافته، وبين الدعوة الوجلي للحدثة في السنوات الأخيرة من الخمسينيات مروراً برموز فكرية مثل طه حسين ومحمد مندور ولويس عوض ورشاد رشدي دون تسجيل ذي شأن لاحتقار العقل العربي وتراثه الفكري والنقدي، بل إن بعض هؤلاء، وجميعهم تلقوا تعليمهم العالي في جامعات أوروبية غربية، لم يترددوا في أكثر من موضع في تسجيل سبق العقل العربي في كثير من القضايا المثارة. لم يسجل طه حسين مثلاً، مع كل ما أثاره من ضجة في السنوات المبكرة، وعلى الرغم من كل حماسه للثقافة الغربية، احتقاراً للعقل العربي ومنجزاته. وقد تركزت الضجة التي أحدثها طه حسين، خاصة حين صدر كتابه الشهير في الشعر الجاهلي (١٩٢٦) على قراءته الجديدة للتراث العربي وليس على رفضه لتلك التراث أو احتقاره له. ويحضرنا هنا، على سبيل المثال لا الحصر، موقف محمد مندور المعروف من إنجاز عبدالقاهر الجرجاني في مجال الدراسات اللغوية، وهو الرأي الذي أعلنه في بداية الانهيار العربي بإنجازات علم اللغويات أو اللسانيات - والذي جاء متأخراً بالطبع عن مثيله في أوروبا. ففي كتابه المعروف النقد المنهجي، يسجل سبق الناقد العربي القديم قائلاً: «مذهب عبدالقاهر أصبح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا لأيماننا هذه. وهو مذهب العالم السويسري الثابت فرديناند دي سوسير... الذي توفي عام ١٩١٣» (٢٣).

ثم جاءت الحدثة العربية برفضها التضام مع التراث - تأسيساً على تحقيق القطيعة المعرفية مع الماضي، واحتقارها الخفي أحياناً والمعلن أحياناً أخرى، للقوالب والتقاليد القديمة والمألوفة. وهذا ما يؤكد شكري عياد في نهاية القرن في تحديده لمعالم الحدثة العربية منذ سنواتها المبكرة^(٢٤). فمع تأكيد أهمية الحدثة والبدور الذي قامت به كرد فعل للضياع وسقوط الحلم بعد نكسة ٦٧ على وجه التحديد، أو كمخرج مناسب من واقع يرفضه المثقف العربي بعد أن عجز عن التعامل أو التعايش معه، فإن شكري عياد يبرز الجانب الأيديولوجي للحدثة باعتباره ثورة للنخبة، وباعتبارها ثورة نخبة، فإن الحدثة، في نسختها العربية والغربية على السواء، «تتجه إلى تدمير عمد النظام القديم»، ومن الطبيعي

ثقافة الشرح

أن يجيء التعبير الفني والأدبي الذي تتجه الحداثة «رفضاً قاطعاً للتقاليد الفنية السابقة، بل رفضاً أيضاً لفكرة التقاليد نفسها»^(٣٥).

وإذا كان جابر عصفور، وهذه شهادة للرجل، لا ينطلق في أي وقت، حتى في أكثر مراحل انغماسه في الحداثة الغربية، من موقف احتقار التراث النقدي العربي وتقاليده، فإنه يحدد بشكل متميز ملامح «التحديث» العربي في بدايات القرن، وأبرزها، شرط القطيعة مع التراث، أي رفضه، باعتبار ذلك التراث إطاراً مرجعياً مرفوضاً، وهذا ما يؤكد في دراسته المتميزة: قراءة التراث النقدي، وفي «المقدمات المنهجية» على وجه التحديد.

«ولم يعد الهدف من قراءة التراث - في النهم الجديد - استعادة الماضي بكل ما يقتزن به من قيم جمالية وأدبية، فقد أصبحت هذه المبادئ والقيم حريئة إطار مرجعي مرفوض، صار التمرد عليه قرين التحرر الفردي الذي ينطلق من إطار مرجعي مضاد... وإذا كان الإطار المرجعي الجديد يعني استبدال الحاضر بالماضي، والغرب المتقدم بالشرق المتخلف، فإنه كان يعني بداية أول قطيعة حادة مع التراث بوجه عام، ومن ثم، بداية تعويل الناقد العربي (الحديث) على أصول نقدية ليست من صناعه، ولا من تراثه، بل من صنع الغرب (المتقدم) الذي أصبح للحاق به - منذ ذلك الوقت - حلاً لازمة التخلف»^(٣٦) [التأكيد من عندي].

إن جابر عصفور هنا يسحب شرط القطيعة مع التراث، واستبدال الحاضر بالماضي على فترة سابقة للحداثة العربية، وهي فترة سيادة مذهبي الرومانسية والتعبيرية، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لمذهبين لم يتطلبا في الواقع مثل هذه القطيعة وذلك الاستبدال اللذين حولاً ثقافة الغرب المتقدم إلى «مرجعية جديدة» تقوم على تبني أصول نقدية ليست من صنع الناقد العربي، ولا من تراثه، فإن القطيعة مع التراث العربي القديم وتقاليدته في الإبداع والنقد واستبدال الحاضر بالماضي، كانا أكثر حدة مع الحداثة فيما بعد، وهو ما يؤكد جابر عصفور دون مواربة في تعليقه على حادثة أدونيس، وهكذا يثني على كلمات أدونيس ويعلق عليها في السياق التالي:

«والقراءة الحداثية انتقادية وتنويرية في آن، منطلقها الناعالية اللغوية للأدب، والتسليم بقدرة هذه الفاعلية على تحطيم الثقالب

المتحجرة الثابتة لمنظومات القيم البالية في العالم. وهذا الهدف يجعلها منحازة إلى «التجاوز» وإلى «الإبداع» دون «الاتباع» ومن ثم فإنها تضع التراث في مناخ الأسئلة التي تبرز الثابت لتفنيه، وتؤكد الإبداع لتتعلق منه، محطمة في ذلك سطوة «التفافض مع الحداثة» من حيث هي - أي الحداثة - قرينة انشك والتجريب وحرية البحث والمغامرة في اكتشاف المجهول وقبوله». [هذه كلمات أدونيس في الثابت والمتحول]. وذلك انطلاقاً من إطار مرجعي مؤداه أن «أصل الثقافة العربية» لن يحمل في ذاته حيوية التجاوز إلا إذا تخلص من «البنى القديمة التقليدية الاتباعي» وبواسطة آلة من داخل التراث نفسه، وفي هذا الهدم يجب التأكيد على أن الحقيقة ليست في الذهن بل في التجربة. والتجربة الحية هي ما تؤدي عملياً إلى تغيير العالم، [كلمات أدونيس مرة أخرى] (٣٧).

في هذه الضميرة المكثفة تتداخل كلمات عصفور وأدونيس لتؤكد معا جوهر الحداثة في نسختها العربية والتي لا تعقل عن جوهر الحداثة الغربية في تأكيد كل منهما على أهمية «تخطيم القوالب المتحجرة الثابتة لمنظومات القيم البالية». ثم إن الثقافة العربية، كما يتفق الكاتبان، لابد لها، من تحررها من القديم، من تحقيق «إطار مرجعي» يتخلص «من البنى القديمة الاتباعي»، صحيح أننا لا نستطيع القول بأن هذه الكلمات لا تحمل، منفصلة أو مجتمعة، اختصاراً للعقل العربي، ولكنها بالقطع تتفق مع روح الحداثة التي أخذنا عنها، وهي رفض القديم وتحقيق قطعة معرفية معه أو «هدمه»، كما يذكر أدونيس بالحرف الواحد، قبل إقامة المرجعية الجديدة، مرجعية الحداثة.

ليس في الربط بين تحقق الحداثة وتحقيق القطيعة المعرفية تجن على الحداثة، الحداثيون الغربيون يحددون ذلك الشرط باعتباره مطلباً أساسياً لتحقيق الحداثة، أما في حالة الحداثة العربية فربما لا يجد البعض لديه من الجرأة التي تمكنه من الاعتراف بذلك الشرط، خاصة هؤلاء الذين يحلو لهم أن يرفعوا في وجوهنا بين الحين والآخر شعار «الأصالة والمعاصرة». هؤلاء بالطبع ينكرون الربط بين تحقق الحداثة وشرط القطيعة المعرفية. لكن الاتجاه العام هو التسليم بأن التمرد على الماضي أو التحرر منه هو المدخل الطبيعي لتحقيق حداثة عربية؛ وهم في ذلك يربطون بين حرية الحداثة

ثقافة الشرخ

وقيود التراث، وهو ما يؤكد سامي سويدان في السنوات الأخيرة من القرن العشرين في **جسور الثقافة المعلقة (١٩٩٧)**:

«التقصية الأولى التي قامت في صلب الأعمال الحدائية في هذا القرن هي قضية التحرير. وقد عرفت تسميات متعددة وتمثلت في صيغ متنوعة، فبرزت كثورة على التقاليد السائدة وتمرد على القيم والأعراف المهيمنة والخروج على المقاييس والمعايير المستتبة، وغالبا ما ارتبطت بموقف عام من المجتمع وأنظمته وقوانينه، بإدائه لما تحفل به من ظواهر التخلف والتعسف والكبت والظلم والتشويه... وركزت في المجالات الإبداعية المختلفة على رثاة الأساليب التقليدية المتبعة فيها، واعتبرت الأخذ بها والمحافظة عليها خيانة للذات وإزراء باللغة وتشويهها للأدب، والالتزام بمعاييرها والخضوع لشروطها ارتثانا وعبودية وعوها عن التعبير الصحيح ناهيك بالإبداع الطريف»^(٢٨).

ففي مقابل الأصوات التي تحاول التموهيه فيما يختص بالقطعية المعرفية مع التراث، أو تلك التي تتخفى وراء شعار الأصالة والمعاصرة بعد أن فرغ من معناه، أو حتى تلك التي تجهج بالقطعية المعرفية شرطا من شروط الحداثة دون أن تشعر باحتقار خفي أو صريح للعقل العربي، هناك أصوات لا تمارئ أو تلتصك العصا من منتصفها أو تحاول تجميل الدعوة للقطعية بأي دعاوى تمويهية، من أبرز هذه الأصوات صوت كمال أبي ديب، الناقد الحدائي ثم ما بعد الحدائي الذي لم يتردد في الجهر بتبنيهِ لطرفي الثنائية، فينطق، في ما يكتب، منبهرا بالعقل الغربي ومحقرا في شأن العقل العربي. وعلى الرغم من رفضي المبدئي لموقف أبي ديب إلا أنني شخصيا لا أملك إلا أن أعبر عن إعجابي بشجاعته الأدبية سواء في رفضه لمنجزات العقل العربي أو في احتضانه لمقولات الحداثة وما بعد الحداثة الغربية في صراحة، وهكذا يقف كمال أبو ديب على رأس القائمة باعتباره «واحدا من أبرز من حاولوا قبولية الإنسان العربي فكريا، وتفريجه، وذلك من خلال فرض - أو محاولة فرض - منهج تحليلي على الرغم من أنه بلغ أقصى درجات العلمية»^(٢٩). وهكذا يكتب أبو ديب في كتابه المبكر، **جدلية الخفاء والتجلي**:

«بهذا التصور، وبالإصرار عليه، يكون هذا الكتاب... طموحا لا إلى فهم عدد محدود من النصوص أو الظواهر في الشعر

والوجود، بل أبعد من ذلك بكثير: إلى تعبير الفكر العربي في معانيته للثقافة والإنسان والشعر، إلى نقله من فكر تطلعي عليه الجزئية والسطحية والشخصانية إلى فكر يتصرع في مناخ الرؤية المعقدة، المتقسية، والموضوعية، والشمولية والجزئية في آن واحد^(٢٠).

ربما لا يهمننا الآن التوقف عند تحولات وتناقضات أبي ديب الذي انتقل بعد ذلك بسنوات قليلة جدا من كلية النظرية البنوية الموحدة، وهي الكلية التي أدى افتقار العقل العربي إليها إلى تحوله إلى تقنيات وشرذمة التفكيك ليدافع عن الإستراتيجية الجديدة بالحماس نفسه ويدعي السبق إليها، تماما كما ادعى السبق إلى تأسيس بنيوية عربية^(٢١). لكن ما يهمننا هنا أن احتقار أبي ديب لإنجازات العقل العربي بعد غزيرال نعيمه لا يختلف كثيرا عن احتقار الأخير لإنجازات ذلك العقل منذ بداية تاريخه إلى تاريخ صدور الغزيرال (١٩٢٢). ومن ثم، يرى أبو ديب أن إبداعات العقل العربي خلال ما يسمى بعصر النهضة، بل خلال القرن العشرين بتمامه، ليست سوى رقع متناثرة لا تتلمذ محاولات الربط بينها عمليات ترقيع أو توفيق قسرية، وذلك انطلاقا من موقفه المبدئي الذي يؤكد في أكثر من موقع، وهو أن «الفكر العربي... لا يزال عاجزا عن التصور الكلي المعقد لحركة الإنسان في المجتمع وقوانين التطور الفني والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي فيه، ولأن الفكر العربي، أخيرا، لا يزال عاجزا عن أن يبلور تصورا بنيويا لمشروع سياسي أو اقتصادي، أو لدراسة قصيدة أو رواية، أو لإنشاء جامعة أو مؤسسة تجارية أو عسكرية»^(٢٢) [التأكيد من عندي]. ولا اعتقد أننا نستطيع العثور في قاموس احتقار العقل العربي وإنجازاته الثقافية بل والسياسية والاقتصادية والتجارية على كلمات تقترب من تميم و حدة كلمات أبي ديب في السياق السابق، الذي يصل في تحامله على كل ما هو عربي إلى ذروة غير مسبوقة.

وما دام العقل العربي نفسه أصبح مستباحا إلى هذا الحد، فلماذا لا نستباح أدواته وفي مقدمتها لغة التعبير؟ وهكذا ينتقل تحقير العقل العربي إلى تحقير اللغة العربية واتهامها بالقصور، إذ يتهمها بعض العرب وغير العرب بالقتل للغوي، لأن «نظامها اللغوي»، حسب زعمهم «يخلو من الفئات التركيبية grammatical categories الموجودة في اللغات الأخرى، ولا سيما الأوروبية منها، ويتبع هذا الاتهام بطبيعة الحال - وهو ما يرمون

ثقافة الشرخ

إليه... اتهام فكري ومعرفي»^(٢٣)، وهكذا تكتمل دائرة الإدانة الجهنمية للعقل العربي وأدواته، فمسواه كانت من المؤمنين بأن اللغة تسبق الفكر وأنه لا وجود للفكر قبل اللغة، أو أن اللغة أداة للتعبير عن الفكر، بمعنى أن الفكر سابق لوجود اللغة، فالعقل العربي هي فكره ولغته عقل متخلف وقاصر!

ويزداد الشرخ اتساعاً عند المثقف العربي المهوم بواقعه الفكري واللغوي وهو يشاهد من حوله مثقفين ومفكرين يشعرون بدونية العقل العربي؛ فيرغمون في أحضان فكر الآخر وينقلون عنه في لغة ركيكة تؤكد تلك الدونية وتبشّرها هي أن:

«وحقا ان هذه التجارب التي تشير إليها نكتب بلغتنا العربية، ولكن لا نقرأ فيها حتى نشعر أن الأعمدة التي تشد بناء لغتنا قد سقطت وهوت من أيدي أصحابها فهم يكتبون بحروف وألفاظ، يظنونها عربية أو هي كذلك، ولكن لا نقرأ فيها حتى نحس بالعجمة والتشذوذ على ما ألفناه في أساليبنا وفي عريبتنا. وكاد أقول إنهم يكتبون بلغة لا عربية، ولا غربية، أما إنها غير غربية فذلك شيء واضح لأنها لا تكتب بلغة الغرب، وأما إنها غير عربية فلأنها لا تكتب باللغة العربية المألوفة لنا»^(٢٤).

أين أخطأنا؟ جميع المؤشرات تشير في اتجاه الخلط المبكر بين التحديث التكنولوجي المادي والتحديث الثقافي، حينما وصل انهيارنا بالعقل الغربي - مع التقليل من شأن العقل العربي بدرجات متفاوتة بين الاحتقار والتجاهل - إلى تبني كل ما هو غربي بصرف النظر عن اختلافه؛ بل تهاوته بالنسبة للغربيين أنفسهم. «واللغبة عندنا»، كما يذكر شكري عباد، حتى في مجال الثقافة - تقنع عادة بـ «آخر» ما أنتجته المصانع الأوروبية أو الأمريكية، وقد تضع في أعز مكان من الصالون، ما يلقيه الغربيون على جانب الطريق»^(٢٥). لقد انتهى القرن العشرون وقد تربع الفكر الحدائي، بل ما بعد الحدائي، في أعز مكان في «صالون» الثقافة العربية بعد أن طرد بعضنا، ربما بحسن نية لا تفتقر، التراث العربي عبر النوافذ والأبواب، وأكدوا - وهنا تكمن ضخامة الجرم الثقافي الذي لا يقتصر مع كل حسن النوايا - التبعة الثقافية لثقافة «الآخر» المختلفة، وحققوا المفارقة المؤلمة، ففي الوقت الذي ارتبطت

الحدائثة عامة بالرغبة في التحرر من قيود الماضي المكيلة لحرية الإبداع، أنتهت الحدائثة العربية، إلى إدارة ظهورها بالكلية للتراث الثقافي العربي، لتقع أسيرة قيود جديدة، أكثر قهراً وأكثر إيلاماً، وهي قيود التبعية للثقافة الغربية. أليست هذه مفارقة مضحكة ومبكية في آن؟ ولهذا يقف الإنسان أسوياً أمام طموحات الحدائثين العرب المبكرين وأحلامهم في تأسيس حدائثة عربية تحقق الاستقلال عن الثقافة الغربية التي تقوم بنفي الثقافات القومية الأخرى «إلى أطراف الذاكرة» ثم كيف حققت التجربة عكس تلك الأحلام وانطموحت بعد أن استسلمت الثقافة العربية للثقافة الغربية المهيمنة، وأسلمت لها قيادها وقيلت، عن طواعية، النقي إلى أطراف الذاكرة. ولنقرأ كلمات الطموح ثم نعيد لأنفسنا سؤالنا السابق: أين أخطأنا؟ «الحدائثة العربية»، يكتب إلياس خوري، «هي محاولة البحث عن شرعية المستقبل، بعد أن فقد الماضي شرعيته التاريخية في عالم توحدته الرأسمالية الغربية بالقوة، ويهيمن عليه الغرب، وتتقي فيه الأطراف إلى الذاكرة التاريخية، حيث لا تستعاد إلا بوصفها فولكلورا أو دليلاً جديداً على تفوق الغرب وقدرته على نفي الآخرين وإبادتهم. البحث عن الشرعية هو بحث عن محاولة التخلص من خطر الإبادة ومحاولة إيقاف تدمير الذات عبر القبول بتدميرها الحزني»^(٣٦). لقد بدأنا القرن الحادي والعشرين وقد تحقق كل ما تخوف منه إلياس خوري، كأنه كان يستشف الغيب. والمؤلم أننا فعلنا هذا بأيدينا واخترنا النقي إلى الذاكرة التاريخية حينما اختار بعضنا طريقاً مسدوداً هو طريق الحدائثة الغربية دون أن يجهدوا أنفسهم في البحث عن بديل ثقافي قومي، لا يرفض الحدائثة الغربية رفضاً كاملاً بالضرورة، لكنه ينظر إلى الوراء قليلاً من دون أن يفقد رؤيته المستقبلية.

«لكن هذا هو سجن التاريخ»، قد يصيح البعض معترضين، تماماً كما قال أحد الأساتذة الأمريكيين الحدائثين في أحد المؤتمرات الدولية التي اشتركت فيها في أوائل الثمانينيات. يومها، وفي حديث جانبي قال الحدائث الأمريكي: «مشكلتكم أنكم تنظرون إلى الوراء، وبهذا أصبحتم سجناً الماضي». هل كان الرجل على حق؟ ما نحن قد اخترنا، البعض منا على الأقل، إدارة ظهورنا إلى الماضي وتحقيق قطيعة معرفية مع التراث لأكثر من عقدين، فأين وصلنا؟ وهل سيصل بنا طريق الحدائثة إلى ما بعد الحدائثة - وقد وصلت إلى الثقافة

ثقافة الشرخ

العربية بالفعل دون إعلان صريح تخوفاً من المحاذير التي يجعلها فكر ما بعد الحداثة الغربية؟ ثم هل تقبل، في نهاية المطاف، دعوة دريدا البالغة الخطورة والتي أطلقها آخر مرة في قلب القاهرة، وفي مقر المجلس الأعلى للثقافة في أوائل عام ٢٠٠٠، إلى تفكيك المؤسسات القومية المختلفة ووكل المهمة إلى الجامعة للدعوة، في حقيقة الأمر، بريق قوي خداع، فهي ترتدي لباس حرية الذات، وحرية التعبير والتشوير والعالمية في مواجهة مؤسسات قمعية. لكن خطورتها النهائية تتمثل في أنه لا يمكن الفصل بينها وبين العولمة الجديدة التي مستوذي إن عاجلاً أو آجلاً، إلى تقلص دور المؤسسات القومية في مواجهة مؤسسات القوة العالمية الوحيدة المسيطرة التي انضردت بالهيمنة في النظام العالمي الجديد:

«ويمكن لمثل هذه المقارنة غير المشروطة أن تضع الجامعة في مواجهة عدد كبير من السلطات، (سلطات الدولة، وبالتالي سلطة الدولة القومية وهمها في السيادة التي لا تقبل التجزئة)؛ ويمثل هذه المواجهة يمكن للجامعة أن تكون عالية أكثر من كونها كوزموبوليتانية أي أن تكون متجاوزة لمفهوم المواطنة العالية والدولة القومية بشكل عام، كما أن هذه المقاومة تضع الجامعة في مواجهة السلطات الاقتصادية (أي مواجهة الشركات العملاقة والقوى الرأسمالية الوطنية والعالمية) وفي مواجهة سلطات الإعلام والسلطات الدينية والأيديولوجية والثقافية... إلخ) باختصار مواجهة كل السلطات التي تحد من ديموقراطية المستقبل»^(٢٧) [التأكيد من عندي].

ومؤلف المراسيا المقررة على استعداد كامل للتسليم بخطئه واعتذاره عن إساءة فهم دريدا إذا استطاع أي حدثي عربي - وقد قلنا إنهم يترددون في الاعتراف بأنهم قد تحولوا إلى ما بعد حداثة دريدا - أن يقنعه بأن كلمات دريدا لا تربط بين دعوته لتفكيك المؤسسات القومية والعولمة، من ناحية، وأنها، إذ تحقق تفكيك المؤسسات القومية الذي يدعو إليه دريدا، لا تفتح الباب على مصراعيه أمام الهيمنة الأمريكية، من ناحية ثانية؟ لا يكفي أن يدفع البعض بأننا لم نكن نعرف منذ عشرين أو ثلاثين عاماً أن اختصار الحداثة سيقدونا في نهاية الأمر إلى طريق ما بعد الحداثة المسدود

وتفكيكية دريدا، التي لم تعد مقصورة على لعبة تفسير النص الأدبي محدودة الضرر، بل تعدتها إلى تفكيك المؤسسات والحكومات القومية في مواجهة عولمة لن ترحم وثقافة مهيمنة. لقد كان الاختيار خاطئاً منذ البداية، فقد كان هناك الاختلاف الواضح بين المناخ الفكري والاجتماعي الذي أفرز الحداثة الغربية والمناخ الفكري والاجتماعي للواقع العربي، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، كان هناك الخطر الذي تمثله الحداثة ثم ما بعد الحداثة على الثقافات القومية.

قبل الحديث عن الاختلاف والأخطار القادمة بل الماثلة في الاختيار الحدائني لنا وقفة لا بد منها وخاصة بعد أن ظهر مصطلح التفكيك وتسطل إلى سطور المرايا المقعرة. ليست الدراسة الحالية دراسة في «البنويّة» و«التفكيك» كما قد يتخوف البعض في هذه المرحلة المبكرة، فقد قال المؤلف كل ما عنده أو أكثره في المرايا المحدبة عن الاتجاهين النقيدين. وفي الدراسة الحالية سنخرج بين الآن والآخر على البنويّة والتحليل اللغوي للنص والتفكيك. لكن ذلك لن يعني، في أي وقت، تكرار مقولات الكتاب السابق. ولكن أكثر تحديداً: في أثناء كتابة المرايا المحدبة قاومت إغراءات قوية وملحة للحديث عن الحداثة وما بعد الحداثة، سواء في جوانبها الثقافية أو جوانبها الحضارية، كنت دائماً أرفض الاستجابة لذلك الإغراء، فقد كنت معنياً بالمدرستين النقديتين بالدرجة الأولى باعتبارهما أبرز الترجمات النقدية للحداثة الغربية، ومن ثم كان التركيز على البنويّة والتفكيك. على حين كانت الحداثة وما بعدها هما الخلفية الثابتة التي تفسر المشروعين النقيدين وتحدد شرعيتهما. أما موضوع المرايا المقعرة فهو يلجأ، في نصفه الأول على الأقل، إلى عكس المعادلة. ففي المقدمة أو الأمامية تقف الحداثة الغربية والعربية. وما بعد الحداثة، بينما تعج الخلفية بالمشاريع والإستراتيجيات والمذاهب النقدية، ولن نخرج إلى أي منها، في الجزء الأول من الكتاب، إلا بمقدار ارتباطهما بضرورة التركيز وهي الحداثة وما بعد الحداثة. بعبارة أخرى، كانت المذاهب النقدية في الدراسة السابقة هي مركز الدائرة، بينما وقفت الحداثة وما بعدها في نقاط مختلفة من محيطها. أما في الدراسة الحالية فالحداثة الغربية، والعربية، هي التي تحتل مركز الدائرة بينما تقف المذاهب

ثقافة الشرخ

والمدارس والإستراتيجيات هي نقاط مختلفة من محيطها، وهي نقاط نوزرها بصورة متكررة ولكن بالقدر الذي تلقي فيه الضوء على المركز، أما في الجزء الثاني من الكتاب، وربما في ثلثيه الأخيرين، فسوف تتغير نقاط التركيز بالكامل، حينما ينصب اهتمام الباحث على تقديم دراسة «حديثة»، وليست «حداثة» بالضرورة، للتراث النقدي العربي.

الاختلاف

قبل الحديث عن الاختلافات الجذرية بين الثقافتين الغربية والعربية. دون أن يعني ذلك بالضرورة، بل بأي صورة من الصور، الحكم على واحدة بالدونية وعلى الأخرى بالتفوق، دعونا نتوقف عند طبيعة الحداثة الغربية التي نقل عنها، ويفترض أنها طريق الهداية من ضلال الجهالة والتخلف، «حداثة» هي أم «جدائات»؟ فالغريب أنه في الوقت الذي يفترض أن يعمينا فيه انبهارنا بالثقافة الغربية عن الفوارق الأساسية بين ثقافتنا وثقافتهم، فإن الحداثة التي يتحدثون عنها هي الواقع أكثر من حداثة، هناك حداثة اليسار الاشتراكي حتى ما قبل سقوط الحلم الاشتراكي بتفكك الاتحاد السوفييتي في مطلع التسعينيات، وهناك حداثة اليمين الغربي، وفي داخل المعسكر الغربي ذاته نجد حداثة ليمسار وسط هرشمي تختلف في جوانب كثيرة منها عن حداثة الاتحاد السوفييتي السابق والدول الشرقية التي كانت تدور في فلكه. وهناك حداثة فرنسية إلى يمين الوسط تختلف عن الحداثة الأنجلو - أمريكية في أشياء كثيرة، بل إنها في أحيان كثيرة تختلف فيما بينها أكثر مما تتفق. والشيء نفسه داخل معسكر ما بعد الحداثة: تفكيك نريدا مثلا يختلف عن تفكيك مدرسة بيل، ومدرسة بيل التفكيكية نفسها لا تخلو من بعض الاختلافات الجوهرية بين أقطابها الأربعة: «بلوم» و«دي مان» و«هارتمان» و«ميللر». ومن حق الحداثيين وما بعد الحداثيين في الشرق والغرب أن يختلفوا، كل حسب المناخ الثقافي الذي ينتمي إليه، فهذا أمر طبيعي، ولكن ليس من حق الحداثيين العرب، وقد تأثرت كل مجموعة منهم بنجاح محدد من أجنحة الحداثة وما بعدها، أن يصبوا جميعا في ثقافة واحدة، ويتوقعوا منا أن نصل إلى حالة انبهار مهازلة، كحالة «التنويم» التي تحكم علاقة الشاعر والراوي والمتلقي فوق سلم أفلطون المعروف. ولسنا في حاجة هنا

إلى تأكيد ما هو واضح، فبعض الحداثيين العرب تأثر بحدثة يسار الوسط أو ربما تلقى تعليمه في إحدى دول الكتلة الشرقية السابقة، بينما تلقى آخرون تعليمهم في فرنسا، وآخرون في إنجلترا، وآخرون في أمريكا. وكل واحد من هؤلاء يطالبنا بأن نستمع إلى صوته هو! هل يمكن أن يكون هناك عيب أكثر من هذا؟

أ. فإذا تركنا نقطة الانطلاق العيبية تلك، والتي تؤسس لحالة من الفوضى الحداثية العربية، حتى قيل أن نبدأ، وتحولنا إلى موضوع الخلافات الجوهرية بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، فإن أهم ما يمكن إبرازه في هذا السياق هو أن الحداثة الغربية إفراس لأنظمة ثقافية مختلفة: اجتماعية واقتصادية وسياسية وفلسفية، وهي أنظمة لم تُعرف أو يؤسس لها في الثقافة العربية، وهو حقيقة يحذر شكري عياد، بحسه النقدي الناضج واتمائه العربي الواضح، من تجاهلها.

«ولكن الشاعر الذي يخوض في هذه المذاهب لا يحسن به أن ينسب أن ثمة خلافات هائلة بيننا وبينهم. فالظروف التي يعيش فيها القارئ العربي والكتاب العربي تقسم بفراغ هائل. في الغرب والشرق هناك خيارات واضحة تفرضها نظم سياسية حديثة قوية، لها تقاليدها كما أن لها تطلعاتها؛ ويفرضها تراث ثقافي حي تعهده أجيال من العلماء بالتحقيق والدرس. أما في عالمنا العربي فالتقديم مجهول أو شبه مجهول والجديد ضعيف مترنح، الأرض غنية وصحراء، التعديلات لا جد لكثرتها ولا لضعفاتها» (٢٨).

إن تحذير شكري عياد هنا من اختلاف الثقافتين لا يحتاج إلى تأكيد، وإن كنت اختلف معه في جزئية صغيرة ولكنها بالغة الأهمية. فليس صحيحاً أن «التقديم مجهول أو شبه مجهول»، فقديم الثقافة العربية معروف، والمكتبة العربية في نصف القرن الأخير من القرن العشرين - على الأقل - زاخرة بالدراسات الأكاديمية المتخصصة والدراسات العامة التي تخاطب القارئ المثقف خارج أسوار الجامعة، ولكن المشكلة أن هذه الدراسات تتم لتوضع في «نافذة عرض ثقافي» دون محاولة حقيقية لتطويرها والتأسيس عليها، بما يتفق مع روح العصر ومتطلبات العالم الجديد في عصر العولمة وثورة

ثقافة الشرخ

المعلومات بهدف تطوير نظرية نقدية عربية خاصة بنا. وهكذا نتأكد مفارقة قضائية عربية أخرى مثيرة للدهشة، فنحن ندرس تراثنا الفكري والنقدي ثم نذير له ظهورنا بالكلية لتستعير فكر «الآخر» ومصطلحه! وعلى كل حال، اختلاف الثقافتين عامة، واختلاف الفكر الحدائي وما بعد الحدائي كما أفرزه واقع الثقافة أو الثقافات الغربية، عن فكرنا وثقافتنا خاصة، هو موضوع اهتمامنا في هذه المرحلة. وعلى الرغم من أننا نتحدث هنا عن الاختلاف لنحلول بعد ذلك إلى مناقشة أخطار النقل عن الحداثة الغربية، إلا أن الفصل بين الاختلاف والخطر فصل تعسفي ومرحلي فقط يخدم هدف البحث، فالاختلاف في الوقت نفسه هو بيت الخطر.

وهنا أعيد تأكيد ما سبق تأكيده في المراتب المحدية، والذي اعتبره باكثر من معني الجزء الأول من الدراسة الحالية، من أن الأزمة ليست، كما قد يتصور البعض، أزمة مصطلح وترجمته ونقله إلى العربية، بل أزمة الثقافة - الثقافات التي أفرزت ذلك المصطلح، أزمة اختلاف حضاري وثقافي بالدرجة الأولى، وسوف نتوقف طويلاً، في مرحلة لاحقة من هذه الدراسة، عند أزمة المصطلح وفوفى نقله إلى اللغة العربية، ومحاولة تجديده في ثقافة مختلفة. أزمة المصطلح إذن قائمة وتكاد تستعصي على الحل، يؤكد ذلك، على سبيل المثال فقط، ترجمتنا العربية لمصطلح Poetics. لكن ما أكدها من قبل ونؤكد هنا هو أن الأزمة أزمة اختلاف: اختلاف الفكر الذي أفرز الحداثة الغربية ثم ما بعد الحداثة، وتاريخ الفلسفة الغربية لما يزيد على ثلاثمائة عام، والذي لا يمكن فصله عن الحداثة وما بعدها. في انبهارنا بإنجازات العقل الغربي وحماسننا - بعد إحباطات المواجهات مع الحضارة الغربية - لتحديث أعماننا عن الاختلاف ودفعنا إلى نقل المصطلح الغربي بمواقفه أو قيمه المعرفية cognitive values دون تقيّة أو تصفية حقيقية له من تلك المواقف «المختلفة». أزمة المصطلح - وهي قائمة - كانت نتيجة ولم تكن أبداً سبباً للأزمة.

لنبداً من نقطة متأخرة في مسار الفكر الغربي الذي تنبهر به، وهي نقطة في مرحلة التفكير ما بعد الحدائي الذي يمثل تحريراً نهائياً للذات في مواجهة أي سلطات قمعية بالنسبة لما بعد الحداثة الغربية، وطريقاً مسدوداً بالنسبة للحداثيين وما بعد الحداثيين العرب الذين يطرقون ذلك الباب في استحياء أحياناً، ودون أن يعلموا ذلك في أحيان أخرى، مرجعنا

لتلك المرحلة كلمات لـ «رولان بارت» في بداية تحويله من البنيوية إلى التفكيكية، أو في المنطقة الانتقالية ما بين المرحلتين، في بحثه المعروف: «موت المؤلف» المنشور عام (١٩٦٨). وبارت هو من هو بالنسبة للحدثة الغربية عامة والحدثة العربية خاصة، فلا يكاد يخلو مؤلف أو بحث أو مقال حدائي عربي من اسمه:

«إن الكتابة [يقصد النص] تحدد معنى بلا توقف لتبخره [أي لتفككه] بلا توقف، منفذة عملية إعفاء منتظمة من المعنى، وبهذه الطريقة نفسها فإن الأدب (من الأفضل أن نقول الكتابة) من خلال رفضه تعيين معنى نهائي للنص، (وللعالم كنص) يحزر ما يمكن تسميته بالنشاط المعادي للاهوت، نشاط ثوري حق. إذ إن رفض تثبيت المعنى، هو في النهاية، رفض للثالوث المقدس - العقل - العلم - القانون»^(٣٩).

هذا ما قصده على وجه التحديد «بالطريق المسدود»، الذي لا اعتقد أن حدائيا عربيا أو ما بعد حدائيا قد سلكه أو جرؤ على الاعتراف بسلكه؛ وإن كان ذلك لا يعني إنه لا يوجد بيننا من تحمس للتفكيك وتبنى آليات دون أن يخوض في النتيجة الحتمية التي يؤدي إليها تفكيك النص بصفة مستمرة، مما يعني ذلك من رفض الاعتراف بأي سلمة مرجعية خارج نص المؤلف وذات القارئ. ومقولة «بارت» الخطيرة التي تربط بين ثورية فعل القراءة ورفض الثالوث المقدس قد تتفق مع المناخ الفكري - الفلسفي الذي أفرز فكر ما بعد الحدثة، والحدثة من قبلها، وعلى الرغم من أنه لا يوجد اتفاق عام بين الحدائين وما بعد الحدائين الغربيين أنفسهم، الذين بدأ البعض منهم في السنوات الأخيرة من القرن العشرين يؤكدون رفضهم للطريق المسدود الذي قادهم إليه ما بعد الحدثة، خاصة فيما يتعلق برفض الدين كعنصر مؤثر في إنتاج الثقافة، إلا أن رأي بارت في الكلمات السابقة يتسق مع مقولة دريدا التي أعلنها أخيرا في القاهرة عن الدعوة إلى تفكيك المؤسسات بجميع أشكالها باعتبارها سلطات قمعية تقهر «الذات» وتكبل حريتها، هذه الجزئية من فكر ما بعد الحدثة، في اختلافها وخطورتها معا، هي ما يحذر منه شكري عباد مرة أخرى في مقدمة في أصول النقد تأكيداً لرفضه المماثل لأسس الدين. «لاشك»، يكتب عباد، «إن هذا الوصف ينطبق على جميع

ثقافة الشرخ

المجتمعات الحديثة بدرجات مختلفة، ولكنه أكثر انطباقا على المجتمعات الغربية التي بلغ فيها المذهب الإنساني أقصى مداه، أي تم الاعتراف بأن الإنسان هو مصدر جميع القيم^(٤١). وهذا أيضا ما قصده شكري عياد، «بأسطورة الإنسان» في مقابل «أسفة الدين».

كانت تلك مجرد محاولة مبكرة لتحديد معالم الطريق المسدود، الذي يمكن أن توصلنا إليه ما بعد الحداثة الغربية، لكن تلك كانت المرحلة الأخيرة لتطورات طويلة يرجع بها «الآن تورين» إلى بداية الفلسفة الغربية الحديثة في القرن السابع عشر، وإن كان عنوان كتاب تورين *Critique de la Modernité* يعني الفكر الحديث وتحديثه وليس «الحداثة» كما ترجمه أنور مغيث. وقد تتبعنا نحن في المراسم المحدية خطي الفلسفة الغربية والفكر الحديث بما يخدم أهداف ذلك الكتاب من نقض البنية والتفكيك، ومن ثم لم نضيع وقت القارئ بتكرار معلومات سابقة، مرحلة الحداثة الغربية وارتباطها الجذري، لبل بالفكر الفلسفي هذه المرة، بل بالتحويلات والتغيرات الاجتماعية والصناعية الكبرى التي أفرزت الحداثة الغربية هي ما يهمننا في الدراسة الحالية. وهما هنا هو تأكيد الاختلاف بين هذه التحويلات والتحويلات المقابلة، ونهت المناظرة، التي أثرت في الفكر العربي وحددت اتجاهاته.

بصفة عامة، وقبل الدخول في علاقة القوى الاجتماعية والاقتصادية في تحولاتها الجديدة بالحداثة الغربية، لابد من تأكيد أبرز صفات الحداثة الغربية وهي التسليم الكامل بسلطة العقل، إلى درجة يؤكد معها الجميع أن الحداثة في أحد معانيها الجوهرية صنو العقلنة أو العقلانية أو مرادف لها. وقد وصل إيمان الحداثة بالعقل ومنتجاته في الحضارة الغربية إلى درجة دفعت المرتدين على الحداثة نفسها، في مرحلة ما بعد الحداثة، إلى التمرد على التسليم بسلطة العقل الكاملة وسطوة العقلانية لأنها، من ناحية، انتهت إلى قهر الذات بدلا من تحريرها، ولأنها، من ناحية ثانية، في إيمانها المطلق بأن العقل والعقلانية الإمبريقية ارتبعت بشرط القطعية مع جميع ألوان الفكر الفيسي، أي أن الطريق المسدود الذي أوصلنا إليه ما بعد الحداثة كان قد بدأ حقيقة مع الحداثة الغربية منذ بدايتها. وهذا ما يؤكد تورين مبكرا في دراسته القيمة في نقد الحداثة عندما يحاول تقديم تعريف مبسط للحداثة الغربية:

«كيف يمكننا الكلام عن المجتمع الحديث إلا إذا كان هناك مبدأ عام معترف به لتعريف الحداثة؟ من المستحيل أن نطلق كلمة «حديث، على مجتمع يسعى قبل كل شيء لأن ينتظم ويعمل طبقاً لوعي إلهي أو جوهري قومي. وليست الحداثة أيضاً مجرد تغيير أو تتابع أحداث، [أي أنها لا ترتبط بالجدّة بالضرورة] إنها انتشار لمنتجات النشاط العقلي، العلمية، التكنولوجية، الإدارية... فالحداثة تستبعد أي غائية. إن العلمنة وإزالة سحر الأوهام، اللتين يتحدث عنهما هيرر Weber واللّتين تحدّدان الحداثة باعتبارها عقلنة، تبرزان القطعية الضرورية مع الغائية الدينية التي تنادي دوماً بنهاية التاريخ، سواء عن طريق تحقيق تام لمشروع إلهي أو اختفاء للإنسانية منحرفة لم تخلص لرسالتها»⁽⁵¹⁾.

إن أخطر ما في هذه الصفة المبدئية والأساسية للحداثة، وهي جانب الاختلاف الأول الذي يجب أن ندركه لنبحث عن توازن أكثر خصوصية بشأفتنا بين «حديث» الحداثة الغربية والقيم الدينية والروحية العربية، هي أنها «أحلت فكرة العلم»، كما يقول تورين، «محل فكرة الله في قلب المجتمع»، وقصرت «الاعتقادات الدينية على الحياة الخاصة بكل فرد. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنه لا يكفي أن تكون هناك تطبيقات تكنولوجية للعلم لكي نتكلم عن مجتمع حديث» [التأكيد من عندي].

إن القول بأن التطبيقات التكنولوجية للعلم لا تكفي لكي نتحدث عن مجتمع حديث ينقلنا إلى محطة أخرى للاختلاف، وهي التغيرات التي طرأت على علاقات القوى الاجتماعية في المجتمعات الغربية منذ بداية الثورة الصناعية، بالإضافة إلى التحولات الفلسفية العديدة التي مر بها الفكر الأوروبي منذ بداية القرن السابع عشر، وكيف أدت في النهاية، وبصورة حتمية، إلى إنتاج الحداثة الغربية. إن الحداثة الغربية كانت نتيجة منطقية للتحولات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي مرت بها المجتمعات الغربية. أما نحن، فقد تبنينا النتائج النهائية للحداثة الغربية دون أن نعيش مقدماتها. النتائج الوحيدة التي كانت أمامنا هي التي تعتمد على مقدمات التراث العربي. كان من الممكن أن ندخل عليه كل ما شئنا من عمليات التحديث، من تطعيم ذكي بالتراث الغربي واختيار حصيف لأفضل ما فيه،

وكان من الممكن أن نمارس مع تراثنا جميع عمليات الاختيار والحذف Selection and elimination، بدلا من تبني نتائج تعتمد على مقدمات - واقع حضاري وثقافي - ليست مقدماتنا. وهذا، على وجه التحديد، ما أطلق سيد البحراوي في البحث عن المنهج حينما حاول أن يضع يده على أزمة الثقافة العزلية، وهي أزمة تتمثل، من وجهة نظره، في أن لهفتنا للحاق بركب الحضارة الغربية دفعتنا إلى تبني حلول الآخرين الجاهزة، الحلول الغربية دون أن نتوقف في كثير أو قليل عند الاختلاف لنسأل أنفسنا إذا كان واقعهم وأزميتهم، هو واقعنا وهي أزماتنا^(٤٢).

هكذا التناقض الصارخ بين المقدمات والنتائج كان أبرز ما سجله شكري عياد، من زاوية مختلفة، حول مقولة مبكرة لآلياس خوري في مقاله «الذاكرة المنقودة» والذي نشر لأول مرة عام ١٩٧٩ في مجلة مواقف. يقول خوري: «لم تطرح الحداثة في الثقافة العربية المعاصرة إلا ضمن إشكالية خاصة بها. فهل لم تكن صورة عن الحداثة الغربية، بل كانت محاولة عربية لصياغة الحداثة داخل مبنى ثقافي له خصوصياته التاريخية، ويعيش مشكلات نهضته... الحداثة العربية هي محاولة بحث عن شرعية المستقبل، بعد أن فقد الماضي شرعيته التاريخية في عالم توحده الرأسمالية الغربية بالقوة». ولا يتردد شكري عياد في إبراز التناقض الواضح بين مقدمة خوري ونتيجته. إن خوري يقرر «أن للحداثة العربية خصوصيتها المرتبطة بتاريخ النهضة العربية، هذه هي المقدمة. فكيف أدت إلى النتيجة القائلة بأن هدف الحداثة العربية وشرعية وجودها يقومان على ضرورة التخلص من كل معوقات الماضي من أجل الانطلاق إلى المستقبل؟»^(٤٣). إن تناقضات خوري هنا وتناقضات من يحاولون تأصيل الحداثة الغربية داخل البعث الثقافي العربي تتمثل في إدراكهم، في حقيقة الأمر، للاختلاف ومحاولة التحايل عليه وعلى القارئ. ولأن نتائجهم تقوم على مقدمات غير عربية فإنهم يحاولون تحقيق تزاوج زائف بين مقدمات ثقافة ونتائج ثقافة أخرى!

عودة إلى أكبر قوتين أفرزتا الحداثة الغربية، وهما التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في تقاعها المستمر، بل في تواطؤها الدائم، من نافذة القول أن نذكر بأن أحد المؤثرات الميكروية في الاتجاه الحداثي هي التغيرات في التركيبة السكانية للمدينة، وهي تغيرات لا تختلف فحط من مدينة أوروبية إلى مدينة

في إحدى دول العالم الثالث المقهور - وهو الاختلاف الذي لم يدركه الحداثي العربي - بل من مدينة أوروبية إلى مدينة أوروبية أخرى. مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كما يقول ريموند وليامز، لم تكن التطورات المذهلة التي أحدثتها عمليات الهجرة من الأطراف إلى مركز في المباني، من ناحية، والهجرة من الدول المستعمرة إلى الدول المستعمرة قدلفت إليها الانتباه بعد. لكن هذا الحراك الاجتماعي المستمر والمتسارع كان يهدد في نهاية الأمر استمرار الأنماط الاجتماعية والحضارية والثقافية والتقليدية في الدول الأقل تطوراً. وكان النفاذ عن الخطر أو عدم إدراكه - ألم نقل إنه يصعب الفصل بين الاختلاف والخطر؟ - خطوة أولى على طريق الاختيارات الخاطئة للشعوب الأقل تطوراً. ويشرح ريموند وليامز في «المدينة وظهور الحداثة»:

«كانت هذه التطورات في مراحلها الأولى تتعلق بالإمبريالية والتركيز المُنطَبيسي للثروة والقوة في العواصم الإمبريالية والاختراق المتزامن لعدد من الثقافات التابعة. لكن الأمر كان يتجاوز النظام الاستعماري التقليدي. ففي قلب أوروبا نفسها، كان التطور يتميز بتفاوت شديد في درجته، سواء داخل دول بعينها، حيث كان الفارق بين العواصم والأقاليم شاسعاً على الصعيدين الاجتماعي والثقافي. وفي التطور غير المتوازن في الصناعة والزراعة أو في الاقتصاد المالي ووجود محدود لأنماط السوق، بل ظهرت فوارق أشد خطورة بين الدول وبعضها البعض والتي بدأت في تشكيل نوع جديد من التدرج الهرمي لا من حيث القوة العسكرية، كما كان في القديم، بل من حيث التطور، وبالتالي، من حيث التثوير والمعاصرة»^(٤٤).

معنى ما يقوله وليامز ببساطة أن الحداثة، بعد أن كانت في البداية ترتبط بمراكز الثروة والقوة، ومن ثم تقوم باختراق الثقافات التابعة (المستعمرة)، أصبحت ترتبط في مرحلة تالية بالاختلافات في التطور الصناعي والزراعي والاقتصادي، ومن ثم بتدرج العلاقات الاجتماعية داخل الدول الاستعمارية المسيطرة نفسها. والحقيقة التي لا بد لنا جميعاً من مواجهتها أن واقع العالم العربي الاقتصادي والصناعي، ومن ثم الاجتماعي، ممثلاً في الطبقات الاجتماعية والعلاقة بينها، يختلف اختلافاً كبيراً عن واقع الدول الغربية،

ثقافة الشرخ

وأننا، في أفضل الحالات، لسنا أكثر من مستهلكين لمنتجات الصناعة الغربية المتقدمة على الرغم من كل شعارات التصنيع والتحديث التي رفعها العالم العربي لما يقرب من قرنين، وأن استهلاكنا لحداثة الغرب أيضا هو في حقيقة الأمر اختراق إمبريالي لثقافتنا القومية. وسوف نثبت في مرحلة لاحقة من هذا الفصل، أن الربط بين الحداثة الغربية والهيمنة الأجنبية ليس شعارا يفرضه هوس أو تطرف قومي أو عنصري، ولكن الشواهد تؤكد أن ذلك أحد الأهداف الغربية الصريحة من ترويج الغرب لثقافته وحداثته، بل إنه يمول أي أنشطة داخلية تروج لتلك الاتجاهات، وهكذا نجد أنفسنا دون أن ندري، أو بحسن نية كامل، نهمد الطريق للهيمنة الأجنبية، ونسهل عمليات اختراق الثقافات القومية، حينما نروج نحن، بإرادتنا الكاملة، للحداثة الغربية ونغاضى عن الاختلاف!

عودة إلى ما بعد الحداثة والاختلاف، أمام قبح الصورة النهائية لما بعد الحداثة سوف يسارع بعض الحداثيين العرب - وقد حدث هذا بالفعل - إلى إفراغ التعدير من قوته باعتراف يتسم بالسذاجة والمغالطة في أن: لم كل هذا القلق مما بعد الحداثة، فنحن لن نتحول إليها، وقد لا نتحول؟ وقد قلنا إن هذه مغالطة تقوم على افتراض زائف قوامه أن المثقف العربي غير الحداثي جاهل لا يقرأ، وأنهم هم فقط، أي الحداثيين العرب، هم الذين يقرأون، ولا نبأغ إذا قلنا إن السنوات الأخيرة من القرن العشرين أثبتت أن الحداثيين العرب تبنا شعار «الجهل وعدم القراءة» ليرفعوه تهمة جاهزة أو «كليشيه» سابق الإعداد في مواجهة كل من يختلف معهم حول تبني الحداثة الغربية - كما يفعلون - قلبا وقالبا، ومن «الكليشيات» الأخرى الجاهزة تهمة الانعزالية والانغلاق يدمغون بها كل من يناادي بتطوير حداثة عربية أو قومية دون انسحاب جزئي أو كلي من ثقافة الآخر وحضارته. والطريف أن إحدى التهم التي حرموا منها، بعد أن سبقتهم أحداث التاريخ المعاصر، هي «الرجعية»، فلم يعد منطلقا أن يتهموا من يختلف معهم بالرجعية بعد أن فرغت اللفظة ونقيضتها، «التقدمية» من معنييهما. وإن كان ذلك لا يمثل عقبة حقيقية أمام الحداثيين العرب، فسرعان ما استبدلوا بالرجعية تهمة «الأصولية» تاركين التعريف يتحرك في مراوغة بين «العودة إلى الأصول» و«الأصولية الدينية».

هل حقيقة أننا، في ثقافتنا العربية، لم نتحول من الحداثة إلى ما بعد الحداثة؟ وأنا قد لا نتحول إليها؟ شواهد الواقع الثقافي تؤكد غير ذلك، فالموقف الحالي يمثل تركيبة ثلاثية فريدة: ١ - الإنكار الكامل للتحول إلى ما بعد الحداثة؛ ٢ - التحول الصريح؛ ٣ - التحول إلى فكر ما بعد الحداثة دون إعلان ذلك، تخوفاً من المحاذير التي تمثلها ما بعد الحداثة الغربية. أما الركن الأول من الثلاثية فهو اختيار يعلنه البعض تهرباً من مسؤولية المزايا التي ستوقننا فيها أفكار ما بعد الحداثة الغربية والتي سنقوم باستعراض بعضها بعد سطور، وهو إنكار وضعه أحد الحداثيين العرب في وجه المرايا المحدبة عام ١٩٩٨ متسائلاً في استنكار: «لماذا يتخوف مؤلف المرايا المحدبة من التفكير وهو لم يصلنا أو لم نصله بعد؟». وقد كانت مغالطة تاريخية من ناحية، وتهرباً متعمداً من عواقب الاعتراف بأن الحداثي العربي قد انتقل إلى مرحلة ما بعد الحداثة بكل ما تمثله من محاذير ثقافية، من ناحية ثانية. ففي الخلطة والتكفير، الذي نشرت طبعته الأولى في جدة عام ١٩٨٥، أي قبل ظهور المرايا المحدبة بثلاث عشرة سنة، تبني عبدالله الغدامي منهج التفكير الذي ربما اختار ترجمته إلى «التشريحية» عن قصد، وإن كان اللبس أو سوء الفهم حول المذهب النقدي الذي يقصده غير وارد بعد أن «أضاف المصطلح الإنجليزي Deconstruction إلى العنوان ووضع في صلبه، يكتب الغدامي في تحديد مذهبه النقدي في التعامل مع قصائد الشاعر السعودي حمزة شحاتة:

«وهذا يضعنا في طريق مدرسة النقد التشريحي [التفكيكي، كما جاء في عنوان الكتاب] الذي يبرز أماناً كأجل ما قدمه العصر من إنجاز أدبي نقدي، حيث يعطي مجالا تاما للتركيز على النص، وفي الوقت نفسه يفتح باباً للدور الإبداعي للقارئ، ومن هنا يحفظ للنص قيمته الفنية المطلقة ويحول القارئ من مستهلك للأدب إلى صانع للأدب ومنتج له، وكما قال دي مان - فيما نقلنا أعلاه - (إنه يركز على اعتماد التفسير اعتماداً مطلقاً على النص، مثلما يعتمد النص اعتماداً مطلقاً على التفسير)»^(٤٥) [التأكيد من عندي].

وبصرف النظر عن «إساءة القراءة» - وهو تعبير بعد حداثي - غير المقصودة، فقد كانت التفكيرية في ذلك الوقت «لعبة» جديدة أسماء البعض قراءتها باعتبارها تشريحا للنص ثم إعادة تركيبه، أو المقصود من باب

ثقافة الشرخ

التهرب المتعمد من الارتباط بإستراتيجية نقدية تعتبر أخطر الانتجاهات النقدية التي أبرزتها ما بعد الحداثة الغربية. وعلى الرغم من التدخل الواضح بين «التفكيكية»، كما أساء الغداهي قراءتها، وبين تحليل مدرسة «النقد الجديد»، فإن حماس عبدالله الغداهي للتفكيك ما بعد الحداثي لا يحتاج إلى تعليق أو تأكيد، فهو يرى ببساطة أن التفكيك «أجمل ما قدمه العصر من إنجاز أدبي نقدي».

لهم أننا لا نستطيع إنكار الانتقال إلى إنتاج العقل الغربي في مرحلة ما بعد الحداثة. فما أوجه الاختلاف، أو المزالق والمحاذير، التي يجب أن تدفعنا إلى التفكير في مقولات ما بعد الحداثة عامة بكثير من الشك والريبة؟

في محاولته لتحديد مفهوم الحداثة، يضع «فريدريك جيمسون» النقاط فوق الحروف في إيجاز شديد، فهو يرمي بين فكر ما بعد الحداثة، زمانياً ومكانياً، وبين حالة اجتماعية - اقتصادية أساسها التصنيع والاستهلاك. وهي حالة لا تحتاج إلى توكيد اختلافها عن حالة المجتمع العربي:

«وهي ليست مجرد كلمة تصنيف أسلوبياً خاصاً؛ فهو مفهوم زمني وتاريخيته الربط بين ظهور خصائص شكلية جديدة في الثقافة وبين ظهور نمط جديد من الحياة الاجتماعية ونظام اقتصادي جديد. أو هو ما يسمى بالتحديث أو المجتمع الصناعي أو الاستهلاكي أو مجتمع وسائل الإعلام أو الرأسمالية متعددة الجنسية. وهذه الحقيقة الجديدة من الرأسمالية يمكن تأريخها منذ طفرة ما بعد الحرب في الولايات المتحدة في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، أو في فرنسا منذ قيام الجمهورية الخامسة عام ١٩٥٨، وتعد فترة الستينيات هي الفترة الانتقالية الرئيسية، فترة اتخذ النظام الدولي الجديد فيها مكانه (الاستعمار الجديد والثورة الخضراء والحاسب الآلي والمعلومات الإلكترونية) واهتز من داخله نتيجة لتناقضاته الداخلية والمقاومة الخارجية»^(٤٦).

مرة أخرى لم تعش المجتمعات العربية العصر الصناعي، ولم تلحق به في أي وقت من الأوقات، فتنح، بعكس دعاوانا بغير ذلك، مازلنا مجتمعات مستهلكة. وربما يرى بعضنا - على حق - أن تخلفنا عن اللحاق بركب الصناعات المتقدمة، نعمة في ثياب نقمة، إذا كان ثمن التحديث والتصنيع

هو التشردم وتحلل الروابط الاجتماعية وانضرام العقد بين الإنسان والطبيعة والله. «إذا كانت الحداثة»، على حد قول تورين، «تربط التقدم بالثقافة وتعارض الثقافات أو المجتمعات التقليدية بالثقافات أو المجتمعات الحديثة وتفسر كل حدث اجتماعي أو ثقافي بمكانه على محور التراث - الحداثة، فإن ما بعد الحداثة تفصل ما ارتبط»^(٤٧). معنى ذلك، عند تورين مرة أخرى، أنه «لم يعد للمجتمع أي وحدة وبالتالي ليس هناك من شخصية أو لافئة اجتماعية أو خطاب يحتكر المعنى»^(٤٨). أما وحدة العالم، «واشتراك... الله والإنسان والطبيعة واللغة كل في الآخر»، كما يرى والاس «بارتن في مقدمة كتاب نقاد بيل، فقد انتهى زمانه بعد أن حدث الانشطار أو اتسعت المسافة بين الدوال والمداولات»^(٤٩). واللافت للنظر أن تأكيد خطورة التناقض عن الاختلاف يقوم به مفكرون غربيون، مثل تورين، بنمط أكثر تكراراً من التحذيرات العربية. بعض هؤلاء المفكرين الذين ينقسمون الحداثة وما بعد الحداثة من داخلها، من داخل البيت الغربي ذاته، يؤكدون الاختلاف، ويحذرون من أخطار التسمية، ولا يترددون أحياناً في فضح تناقضات الحالة الحداثية وما بعد الحداثة الغربية. وهذا ما يفعله تورين على المستويين. من الداخل، يبرز تورين التناقضات داخل معسكر ما بعد الحداثة الغربية، إذ «لا يوجد مجتمع هو سوق فقط، ولكن توجد بلاد يجاور فيها السوق الجيتو وتحيط فيها الحركة والابتكار بجيوب الاستبعاد. مجتمعات متضرطة تقدم لنا الولايات المتحدة منذ وقت طويل النموذج الساحر والمغلق له والذي تقترب منه البلاد الأوروبية بسرعة هائلة رغم تصريعاتها الاحتفالية عن الاندماج الجمهوري والضمان الاجتماعي النموذجي والكفاح الضروري ضد عدم المساواة. ولكن يتخذ هذا النموذج أشكالاً مأساوية أكثر فأكثر عندما لا يوجد ثراء وهير يسمح للقراء بالبقاء على قيد الحياة والخروج من الجيتو»^(٥٠).

إن التناقضات الكامنة في مجتمع ما بعد الحداثة الغربي تكفي في حد ذاتها لإنهاء حالة الانبهار بالعقل الغربي ومنجزاته، وتؤكد، في الوقت نفسه، أن مجتمع ما بعد الحداثة ليس هو الجنة الموعودة التي يحاول متقفو العالم الثالث نقلها أو محاكاتها. وحينما تندفع دول العالم الثالث في اتجاه ما بعد الحداثة الغربية دون أن تتواهر لها الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي

ثقافة الشرخ

أفرزت ما بعد الحداثة الأوروبية - الأمريكية، أو حينما تتبنى نتائج تقوم على مقدمات ليست مقدماتها، فإن النتيجة الحتمية حالة قصاص مرضية:

«يبدو أن البلاد المنخفضة والبلاد ذات الوضع المتوسط، مثل معظم بلاد أمريكا اللاتينية، مجزرة في انقسام متسارع يزيد نسبة الفقراء ويبعدهم تدريجياً عن الفئات التي تشارك في النظام الاقتصادي العالمي. هل يمكننا الحديث عن هذه المجتمعات إلا باعتبارها حالة مرضية اجتماعية، بما أن ما يميزها هو ضعف وانهايار قدرتها على التعامل مع نفسها، إلى درجة تجعلها لم تعد تمثل أنظمة اجتماعية بالفعل، ولكن مجتمعات منقسمة على ذاتها. يعيش الفقراء فيها في عالم مختلف أكثر فأكثر من عالم الأغنياء. ويدمر تعايش الطوائف المتعلقة فيها مع مناطق الانفتاح على الاقتصاد العالمي كل إمكان سواء للتدخل السياسي أو للاندماج الاجتماعي»^(٥١) [التأكيد من عندي].

لكن من أبرز جوانب الاختلاف التي لم ندرکها، وربما تكون السبب الأساسي لمراوغة ما بعد الحداثيين العرب وتهريبهم من الاعتراف بتحولهم من الحداثة إلى ما بعدها، هو حالة الشك وفقدان اليقين، بعد أن سقطت الألهة الجديدة، المادة، والعلم، والعقل، وفشلت في تفسير الكون أو تحقيق السعادة للإنسان. لقد وصل الإنسان في شكه في العقل وسيادته ورفضه ليثنية العلم التجريبي لا إلى الشك في الأمور الميتافيزيقية فقط، بل إلى الشك حتى في الحقائق العلمية القائمة على التجريب والقابلة للاختبار. كان معنى ذلك، نقدياً، فوضى الدلالة التي توفشت في إسهاب في المرايا المحدية، وبعض أوسع، أي حداثياً، انقراض عقد العالم بعد أن فقد نقطة ارتكازه وبعد أن فقد كل شيء الإحالة المرجعية إلى مصدر ثابت أو موثوق. وهكذا لم تعد «الحقيقة» بل «الحاجة» أساس الاختيارات الإنسانية، وهذه الاحتياجات تحديها الجماعة مجتمعة وأفراداً، «فحينما نقول إن العلم قد حل محل الخرافة، كما يقول توماس كون في دراسته الرائدة بنية الثورات العلمية The Structure of Scientific Revolutions (١٩٦٢)، «فنحن لا نوصف عملية الانتقال من الظلمة إلى النور، بل التغير في الجدول الاستبدالي الذي يحدث حينما تتصارع الحاجات الملحة للجماعة مع التقاليد القديمة وتتطلب

معتقدات جديدة^(٥٧). لم تعد «حقيقة» المرحلة التي تتحول عنها أو إليها هي أساس الاختيار، بل الحاجة، وحينما تصبح الذات في عصر الشك المطلق في جميع السلطات، المصدر الوحيد للقيم، لا تحصد إلا القوضى. ولهذا لم يكن غريبا أن يخلص آلان تورين، في نهاية نقده للحدائثة الغربية، إلى أن العالم الغربي اليوم، الذي يبهز بعضنا بإنجازاته الحدائثة وما بعد الحدائثة إلى درجة العمى عن إدراك الاختلاف، هذا العالم قد بدأ مرحلة الحنين إلى الماضي: ماضي التقاليد والنظام والتوازن الصريح بين منجزات العقل وتحقيق الذات والقيم الدينية، بعد أن اقترب العالم الغربي نفسه من حالة الهمجية والوضوح. ويزداد الحنين حدة في الثقافات التي فرضت عليها الحدائثة وما بعد الحدائثة من الخارج عن طريق قوة استثمار القاهرة:

«لم يعد لدينا ثقة في العالم. لم نعد نؤمن بأن الشراء يشود إلى تحقيق الديموقراطية والسعادة. لقد ذهبت الصورة التحريرية لتعقل وأعقبها الخوف من العقلة التي تؤدي إلى تركيز سلطة القرار في القمة. ويزداد خوفنا... من عدم المساواة على المستوى العالمي وأن تفرض على الجميع سيفاها مهلكا تجاه التغيير. يظهر خلف هذه المخاوف شك عميق: ألا تكون [هكذا] قد تكون صحتها: أن تكون الإنسانية بإزاء فض تحالفها مع الطبيعة وتتحول إلى همجية... يتحسر البعض على مجتمع التقاليد بشرفاته ومراتبته وطقوسه... لا سيما في البلاد التي جاءها التحديث من الخارج على يد المستعمرين أو المستبدين. ويستدير البعض تجاه الرؤية العقلانية للعالم، علمانية كانت أو دينية. والتي تدعو البشر إلى ترقية العقل الذي يخضع لنفس القوانين التي يخضع لها الكون»^(٥٨) [التاكيد من عندي].

فإذا كان أصعاب الحدائثة الغربية أنفسهم يشعرون بالحنين nostalgia إلى الماضي بمراتبته وطقوسه فكيف بنا، بكامل إرادتنا، ندخل انسباق المهلك للتغيير القائم بالدرجة الأولى على تحقيق قطعية معرفية مع الماضي! يتبقى لنا أخطر الاختلافات وأشدها تهديدا - الربط بين الاختلاف والخطر مرة أخرى - للمؤسسات الاجتماعية التقليدية في المجتمع العربي وعلى رأسها الأسرة، ونعني به وظيفة الأسرة التي تختلف بالقطع، سواء في الحدائثة أو ما بعد الحدائثة الغربية، عن وظيفة الأسرة كما تحددها

ثقافة الشرع

التقاليد العربية، ناهيك عن الموروث الديني. إن وظيفة الأسرة تتمثل، من منظور حدائي/ ما بعد حدائي، في قوة قهر ترسخ التقاليد وتكبل الذات، «ومن ثم، كما يرى تورين الذي يلعب المشكلة ثم يتخطاها بسرعة لافتة للانتباه، فإن وظيفة التعليم هي تحرير الفرد من الرؤية الضيقة واللاعقلية التي تفرضها عليه أسرته وانفعالاته الخاصة، ويفتح أمامه مجالاً للمعرفة العقلية والاشتراك في مجتمع ينظم نشاط العقل. وينبغي للمدرسة أن تكون مكاناً للتعبئة مع وسط النشأة وللانفتاح على التقدم بواسطة المعرفة والمشاركة في مجتمع قائم على مبادئ عقلية»⁽⁵²⁾. ربما يختلف التربويون حول هذا التعريف لوظيفة المدرسة، وقد يتفق البعض مع الشرط الذي يقدمه تورين - الذي يتخذ موقفاً معارضاً للحدائنة الغربية في الدرجة الأولى والخبرة - «للتطوير الحدائي»، بينما يختلف البعض الآخر مع دلالات ذلك الشرط، لكن من الصعوبة بمكان تجاهل العلاقة بين الحركة النسائية الغربية، الأوروبية / الأمريكية في حالات تطرفها البالغ وما يمد الحدائنة الغربية. وهناك إجماع واضح على الربط بين الحركة النسائية المتطرفة والتيار الفكري لما بعد الحدائنة.

لقد استخدمنا لفظة «تطرف» مرتين في جزأين فقط من جملتين وذلك لأننا نريد تأكيد موقفنا المبني مع المرأة في مطالبتها بحقوقها الكاملة. وهذا تأكيد لا بد منه لنفلق الباب مبكراً أمام أي اتهامات محتملة لمؤلف المراسل المقعرة بالرجعية ومعاداة المرأة. لكن ما نرفضه هو المبالغات - الاختلاف مرة أخرى - غير المقبولة من جانب العقل العربي وثقافته الدينية والتقليدية في تأكيد حق المرأة في المساواة الكاملة؛ في الزواج من امرأة أخرى، وفي إنشاء أسرة وتنشئة طفل دون أب معروف أو غير معروف، في ممارسة الشذوذ الجنسي أو السحاق، في اعتبار العلاقة الصحية والسليمة بين الرجل والمرأة صورة من صور قهر الرجل للمرأة، إن لم تكن أبغها. وينسحب الشيء نفسه على الشذوذ بين الرجال، بل، وهذه ليست مبالغاً من جانب المؤلف، حق رجلين في الزواج وتكوين أسرة وتنشئة طفل وتهدد تربيته أي أننا ضد دخول الدائرة الجهنمية التي انتهت إليها ما بعد الحدائنة الغربية، وهي الدائرة نفسها التي يحلم عقلاء الغرب اليوم بالخروج منها والعودة إلى الماضي.

الطريف أن الأساس الذي قامت عليه هذه المرحلة المتطرفة، كما يقول جوناثان كالر في دراسة أخيرة مبسطة له بعنوان: **النظرية الأدبية** (١٩٩٧)^(٥٥)، هي النظرية اللغوية التي طورها الفيلسوف الإنجليزي جون أوستن J.L. Austin في خمسينيات القرن العشرين والتي قسم فيها الكلام إلى نوعين: «كلام إخباري constative utterances» و«كلام أدائي performative utterances». والكلام الإخباري، كما هي «وعد جورج بالمجيء»، يحتمل الصحة والخطأ، أو الصدق والكذب. أما الكلام الأدائي فلا يحتمل الصدق والكذب لأنه يرتبط بالفعل، إنه لا يصف فعلاً بل يؤدي الفعل الذي يحدده، فالتقسييم حينها يسأل الرجل: «هل تعد بأن تتخذ من هذه المرأة زوجة شرعية لك؟» فإن رد الرجل: «أعد بذلك أو أفعل I do» لا يمثل خبراً يحتمل الصدق والكذب، بل فعلاً. وبقفزة واسعة - سهاها شطحة، إذا شئت - نقلت فيلسوفة أمريكية معاصرة هي جوديث بتلر ثنائية اللغة الإخبارية واللغة الأدائية أو لغة الفعل إلى الدراسات النسوية ودراسة الجنس، وقدمت في التسعينيات من القرن الماضي ثلاث دراسات متتالية جسدت الثورة النسوية الجديدة وعبرت عنها في الوقت نفسه. وقد حقق كتابها الأول على وجه التحديد: **Gender Trouble: Feminism and Subversion of Identity** (١٩٩٠) تأثيراً كبيراً في الدراسات الأدبية والثقافية، وخاصة في لون جديد من الدراسات حول المسحاق (بين النساء) والشذوذ الجنسي (بين الرجال)، ثم أكملت كتابها التاليان في (١٩٩٢) و(١٩٩٧) في الدراسات اللغوية، وخاصة في الدراسات التجريبية الجديدة حول الشواذ، دائرة التأثير المخيفة.

إن جوديث بتلر تبدأ بالاختلاف مع الاتجاه النسوي التقليدي الذي كان يرى حتى ذلك الوقت ضرورة تحديد الهوية النسوية، أي الاتفاق على السمات المشتركة بين النساء. ويلغض كاللر موقف بتلر:

«بالنسبة لبترل فإن تقسيمات الهوية، على العكس، منتجات ثقافية واجتماعية... وهذه التقسيمات عندما تفرض معايير (تعريفات لمهية المرأة) فإنها تهدد باستبعاد كل ما لا يتفق معها. وفي كتاب Gender Trouble تقترح بتلر علينا أن ننظر إلى الجنس باعتباره أداء، بمعنى أنه لا يقوم على ماهية الإنسان بل فعله. فالرجل ليس ماهيته بل فعله، حالة يقوم بها»^(٥٦).

ثقافة الشرع

وحيثما يستقبل المولود بصبيحة «إنها بنت» أو «إنه ولد» فإن تلك الصبيحة في الواقع جملة «إخبارية» أكثر منها «أدائية» لأنها تحتمل الصدق والكذب، ولأن ما يحدد جنس ذلك المولود في حقيقة الأمر هو «الوعد» بأن يتصرف بناء على الدور الذي حددته له الأعراف والتقاليد، وكلما كثر ترديد «التسمية» زاد حجم التوقعات في سلوك القادم الجديد حسب تلك التسمية. لكن المساحة بين التوقع والفعل أو السلوك، عند بئتر، هي المنطقة المحتملة للمقاومة والتغيير (أي مقاومة التقاليد والأعراف الاجتماعية التي ترتبط بتسمية الجنس). وفي نهاية المطاف فإن ما يحدد جنس ذلك القادم الجديد، عند سن «النضج» أو «البلوغ» هو سلوكه المتكرر، فإن تصرف كأمراه أو أتى أفعالا معينة، يسمى امرأة، والعكس صحيح!

وحيثما تنتقل إلى اللغة تتسع دائرة الرعب ما بعد الحدائي للحركة النسوية، إذ حينما تنتقل بئتر إلى اللغة التي تستخدم في إهانة الشواذ من الرجال مثلا (وهم في حقيقة الأمر ليسوا شواذ في ضوء آرائها من الأداء) وما يترتب على ذلك من ضرورة تأجيل تسمية جنس المولود إلى سن البلوغ) تؤيد حق الشواذ في التناحر والتباهي المستمر بالصفة التي يرفعها المجتمع في وجوههم وهي صفة «شاذ» إذ إن الصفة اكتسبت معانيها السلبية المهيمنة في المقام الأول عن طريق استخدامها المستمر والمتكرر لإهانة الشواذ حسب أعراف اجتماعية/سياسية تكتسبها قوتها وتحجزها. وحيثما يتعمد الشواذ اليوم، من وجهة نظر بئتر، أن يصنفوا المجتمع بالكلمة بصفة متكررة ومستمرة فإنهم بذلك سوف ينجحون في تكسير الأعراف المتحجرة وتغييرها، ومن ثم سوف تقبذ كلمة «شاذ» أو «queer» وكلمة «سحاقية» lesbian على الإهانة. ومن يري، فربما تستخدم الكلمتان في المستقبل في سياق المدح!

هل يتعمد آراء جوديث بئتر هنا كثيرا عن آراء جاك دريدا عن تفكيك المؤسسات الذي تحدث عنه في القاهرة؟: «إن تفكيك مفهوم السيادة هذا لن يس فقط القانون الدولي، وحدود الدولة القومية وسيادتها المزعومة، ولكنه سيمس أيضا استخدامنا لهذه العناصر في مختلف أنواع الخطاب القانوني-السياسي والتي تتعلق بالعلاقات بين الرجل والمرأة»⁽⁶⁷⁾.

هل هذا ما يراد لثقافتنا العربية أن تصل إليه في انبهارها الأعمى بالعقل الغربي وإنجازاته؟ وهل نستطيع حقيقة أن نتفاوض عن كل هذه الاختلافات؟ وقائمة الاختلاف طويلة عريضة لم نورد منها إلا القليل.

التهديد / الخطر

سبق أن أكدنا أنه، من ناحية المبدأ، يصعب الفصل بين الحديث عن الاختلاف والحديث عن التهديد والخطر الذي تمثله الحداثة وما بعد الحداثة الغربيّتان على العقل العربي والثقافة العربية. وأشرنا أيضاً إلى أن الأخطار التي نتحدث عنها ليست من صنع خيالنا أو أنها وهم نعيشه، بل إنها هي حقيقة الأمر أخطار وتهديدات يقوم المناهضون للحداثة الغربية، ومن داخل البهت الغربي، بالتهبيه إليها هي كثير من الموضوعية والتجرد. أعرف جيداً أن عقدة المؤامرة حالة مرضية يتخيل من يعانيتها عدوا مترصدا له خلف كل شجرة. وقد عشنا عقدة المؤامرة والتآمر في العالم العربي، عشنا حالة قريبة من تلك الحالة المرضية، لسنوات طويلة، فأصبحت تهمة التآمر الغربي الإيبويالي زائناً اليومي طوال النصف الثاني من القرن العشرين على الأقل إلى درجة أفقدت اللفظة الكثير من معناها وإن كانت لم تبطلها بكليتها. يمكن أن نسمي معاهدة مايسكس - بيكو مثلاً، قبل نهاية الحرب العالمية الأولى، مؤامرة تتحقق لها جميع شروط التآمر: متآمرون، واجتماع، واتفاق على تقسيم مناطق العالم العربي إلى مناطق تقوِّد وهيمنة إنجليزية وفرنسية، لكن هناك مواقف كثيرة تتحقق لها صفة التآمر دون أن تتحقق لها أركانه... وهذا النوع الأخير هو الذي نسميه أخطاراً وتهديدات دون الإشراف المرضي في استخدام اللفظة.

نقطة البداية هي تساؤل جوهري يثيره الآن تورين: «كيف يمكن لبلدان مستعمرة أو مقهورة ألا تحذر من عقلانية يطابقون بينها وبين القوة التي تقهرهم؟ كيف لا تضع تاريخها وثقافتها في مواجهة سلطة مهيمنة تتماهى مع الحداثة ومع العقل وتعتبر أن أشكال التنظيم والفكر الملائمة لمصالحها الخاصة أمثال كونية»⁽⁸⁸⁾. إن أخطر ما يعبر عنه تساؤل تورين أنه يرى أن الغرب حينما يفرض، باسم الكونية أو العلمانية، أفكاره ونظمه، فإنه يفعل ذلك من منطلق حرصه على مصالحه الخاصة. وهذا على وجه التحديد هو المفهوم غير المرضي للمؤامرة، حينما لا تتوافر أركان التآمر كاملة وتبقى المؤامرة، أي تتخذ سلطة مهيمنة قراراً أو قرارات تخدم مصالحها هي بصرف النظر عن مصالح الآخرين الذين تتعارض مصالحهم مع مصالحها. لكن تساؤل تورين هنا يدافع

ثقافة الشرع

عن حق الدول المستعمرة أو المهورة في الشك في نوايا الحداثة العربية. لكننا هنا، في العالم العربي، في لحظة انهيار الحلم العربي، اندفعنا، في انهيار غير محسوب، في اتجاه الحداثة الغربية، غير مدركين للأخطار التي تحملها لنا ولهويتنا الثقافية القومية. لم نشك في أهداف الحداثة الغربية، بل دفعنا الإحساس بالدونية إلى التقليل من شأن العقل العربي واحتقاره مرات غير قليلة، وقد سبق أن أشرنا إلى المفارقة البدئية في موقف الحداثة الغربية، فمن منطلق الرغبة في التحرر من قيود ماض متخلف وتقاليد معوقة أسلمنا قيادنا إلى جدالة غربية مسيطرة انتهت إلى قهرنا وإخضاعنا هي الأخرى خدمة لأغراضها. وليست هذه أوهام المؤامرة المرضية.

ليس معنى ذلك بأي حال من الأحوال الدعوة إلى العزلة أو الانفلاق، وقد سبق الاتهام مؤلف المايا المحببة بالانعزالية، وهي تهمة، إلى جانب طرافتها، تحمل بذور نقضها - كما يقول التفكيكيون، فذلك المؤلف تلقى تعليمًا غريبًا، ويقوم حتى اليوم بتدريس الأدب الإنجليزي دون تزمّت أو حتى محافظة، ثم إن تعدد المبادئ والتفريعات النقدية، كما يقول محمد زكي العشماوي في قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث (١٩٩٤)، علامة صعبة ودليل على الثراء الفكري. «ولكن الخطر الحقيقي في أن نواجه بهذا السيل الدافق من الفكر الإنشائي دون أن نوفر له من وسائل المعرفة الحققة ما يوضح أماننا الرؤية، ويجعل سبيلنا للنظر، والفهم، والحكم سليمًا مأمون العواقب»^(٥٩).

ربما يقول حدائي مغال إن كلمات شكري عياد: «أنا أخذنا نشهد في النصف الثاني من هذا القرن مرحلة تاريخية جديدة، أصبح فيها الكيان القومي مهددًا بالفناء»^(٦٠)، تأسيسًا على رأي مماثل سابق للعقاد، تجسيد حي للحالة المرضية التي تتوهم عدوا وراء كل شجرة لكن شواهد الأمور، بل الوقائع المحددة والموثقة، تثبت، كما سنرى بعد قليل، أن الكيانات القومية الصغيرة - مقارنة بالكيانات الكبرى المسيطرة - مهددة فعلاً بالفناء، وأن المؤامرة ضد الثقافات القومية قائمة منذ بداية الخمسينيات من القرن الماضي على الأقل، ومن جانبه، يحذر محمد مفتاح، في كلمات أكثر تحديداً في ارتباطها بالحالة النقدية/الإبداعية، من خطورة الثقل دون إدراك الاختلاف، فهو يذكّر الناقد العربي أن للشعر العربي خصوصيته وأنه ليس عتيبا أو عديميا، أو ترهنا فكريا، ثم يحذره من خطورة تناسي خصوصيته

الثقافية، «فالشاعر العربي المعاصر - بصفة عامة -» يقول مفتاح، «ليس عبثيا وليس عدوياً، وليس شعوره مجرد إثباع ثقافي، وعلمي، وترف سياسي. وعليه، فإن نقل أي منهجية جاهزة لتحليل الشعر العربي المعاصر بها قد تسلب هذا الشعر رسالته وخصوصيته في مجتمعات ذات خصوصية»^(٦١). إن تجاهل «الخصوصية» التي يتحدث عنها مفتاح، هو على وجه التحديد ما نقصده بتجاهل «الاختلاف» بين الثقافتين العربية والغربية، وهو الذي أدى، بعد هزيمة ٦٧ على وجه التحديد، إلى ارتقاء «النخبة الحداثية» كما يصفهم شكري عياد، في إحضان الحداثة الغربية، مؤكدين الشعور الحاد «بستقوط الحلم العربي وعجزها [النخبة] المطلق عن الحركة الفاعلة»، وهو عجز قد يرجعه البعض إلى غياب نظرية نقدية عربية، متكاملة أو مجزأة، كما قال قسطنطين الحمصني في مطلع القرن العشرين: «لم يكن النقد من العلوم المعرفية عند العرب في عصر من العصور، مع أن الانتقاد من الفرائز التي عرفوا بها في كل زمن فلم يحدوا له رسماً ولا اشتقوا من اسمه فناً غير ما هو معلوم عندهم من نقد الدراهم، أي تمييز جيدها من رديتها»^(٦٢)، وهو الرأي الذي يبدو أن جابر عصفور يتفق معه حينما يقول:

«هذا الحضور المتبادل يمكن أن نعمقه على مستويات متعددة، لكن ما يهمني - في هذا السياق - هو «الاستعارات المعرفية» التي نأخذها عن الآخر، والتي تتحول إلى قوى تحكم توجهاتنا في قراءة التراث، وتغدو الإطار المرجعي الذي تنسب إليه أحكامنا القيمة. منذ أن قال قسطنطين الحمصني في كتابه...»^(٦٣).

فعصفور، في هذه السطور يحول «الاستعارات المعرفية» التي نأخذها عن الآخر إلى إطار مرجعي تتنسب إليه أحكامنا النقدية، ولست في حاجة إلى التذكير بأن ما يحدث على الساحة الثقافية العربية أكبر بكثير من مجرد «استعارات معرفية». ربما لا يفعل عصفور ذلك، لكن التيار الحداثي العربي قد تخطى مرحلة «الاستعارات المعرفية» التي يشير إليها في تساؤله، إلى مرحلة رفض الماضي والانغماس الكامل في الحداثة الغربية. وهو ما يؤكد شكري عياد في حديثه عن المذاهب النقدية والأدبية التي وهدت على الثقافة العربية منذ عشرينيات القرن الماضي:

ثقافة الشرخ

«فلا عجب إذا تأخرت الواقعية إلى العشرينيات، ولا عجب إذا ظلت الرومنسية تنازعها البقاء حتى الأربعينيات، وإن غلبت الواقعية على القصص، بينما كادت الرومنسية تنفرد بالشعر، ولكن التطهير النقدي كاد يختفي منذ أواخر العشرينيات إلى أوائل الأربعينيات، فلبار المذهبان بقوة الاندفاع الذاتية إلى أن ظهرت تبشير الحداثة تليق بدخول عصر جديد لم يكن عصر التعلم من الغرب، مع السعي للاستقلال، بل عصر الالتحام بالغرب، سواء أكان هذا الالتحام إرادياً أم غير إرادى»^(١٤) [التأكيد من عندي].

إن التحول من «التعلم» إلى «الالتحام» في علاقتنا بالغرب الثقافي يمثل في إيجاز بالغ علاقة الثقافة العربية بالثقافة الغربية منذ بداية القرن العشرين، فقد شهد النصف الأول من القرن عمليات تأثر ذكي بالمازب النقدية الأوروبية وانتقاء شديد العناية من بين منتجات العقل الغربي، أما المرحلة الثانية، والتي بدأت في ثواريخ مختلفة ودرجات متفاوتة من التركيز، فهي مرحلة «الالتحام» الكامل التي تهدد بانمحاء الهوية الثقافية الغربية، وهو ما تشهد به الحياة الأدبية والنقدية في العقدين الأخيرين من ذلك القرن.

هل نلخيل أعداء متريصين خلف أشجار «الأخر»، حينما نقول إنه لا يمكن الفصل بين الحداثة وما بعد الحداثة من ناحية، والعولمة أو الكونية الجديدة - والثقافية «الجات» للتجارة نموذج أخير لها - من ناحية ثانية، ثم الغطرسة الغربية المهيمنة والتي تريد فرض نموذجها الصناعي - الرأسمالي - الاستهلاكي على الدول المغلوبة على أمرها من ناحية أخرى؟

ليست مقولة المؤامرة هنا تعبيراً عن حالة مرضية، بل حقيقة واقعة يؤكدنا عقلاء الفكر الغربي الذين يرون الخطر الواضح، والذي نقش لنحن في إدراكنا، بين العقلنة والكونية من ناحية، والسيطرة الغربية على دول العالم الثاني أو الثالث، من ناحية أخرى. ثورين مثلاً، يرى أن الحداثة والقومية تمثلان قوتين متناقضتين بل متصارعتين، وكلما كان الشعور القومي في بلد ما قويا زاد ارتباط ثقافته بأصوله وتراثه، مما يحفزها إلى الابتعاد عن مراكز الحداثة المهيمنة. والواقع أن ثورين عندما يقول بالتناقض المبدئي بين الحداثة والقومية يعتمد على تعريفه للقومية باعتبارها «تعبئة الماضي والتراث في

خدمة المستقبل والحدثة»^(٦٥) [المقصود هنا التحديث أو «العصرنة» كما يترجم شكري عباد Modemité]. وذوافع نشر الحدثة الغربية في الثقافات الأخرى ليست الرغبة البريئة في نشر سيادة العقل والتفكير العقلاني، بل الرغبة في سيطرة المركز الحدائي على الثقافات الواقعة على المحيط بهدف استغلالها تجاريا وصناعيا وعن طريق الاستعمار غير المباشر. ومن ثم أدركت بعض القوميات ميكرا، قبلنا على الأقل، خطر الحدثة وتعارضها مع الهويات القومية على المحيط.

مؤذلك لأن الأفريقي والأمريكي اللاتيني لهما أسبابهما الوجيهة لنشك في أن يكون كل ما يأتي إليهما من فرنسا أو الولايات المتحدة أو من إنجلترا تعبيراً عن الحدثة. فهو في الغالب سيطرة استعمارية أو فرض نماذج ثقافية غربية. عندما يعلم الفرنسيون الجزائريين. «أجدادنا الغاليون» [يقصد عندما يرد ذلك في نص مدرسي يقرأ طالب جزائري لا علاقة له بالغالين] أو عندما تنشر الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية كتباً مدرسية تتحدث عن الزراعة في كنساس [أحدى الولايات المتحدة] وليس في التيبالانو، كيف يمكن أن نجد الجراحة على اعتبار هذا الاستعمار تحديثاً في حين أنه ليس إلا غشواً؟ كان يلزم كل صلف البلاد المسيطرة لكي تطابق بين قوميتها وكونية العقل^(٦٦). [التأكيد من عندي].

إن ثورين في الواقع يكشف الخديعة الكبرى التي مارسها الاستعمار الغربي مع الشعوب المهزوزة حينما ربط بين الكونية الجديدة والعقلانية بكل ما فيها من إغراءات وغواية، لكنه قبل ذلك كان قد قصر العقلانية على عقلانيته هو، على قوميته الخاصة، وهكذا حينما يبيع لنا الغرب الكونية الجديدة فإنه يبيع لنا نسخته القومية الخاصة من سيطرة العقل والحدثة. ونسخة الغرب العقلانية تقوم على عدم الاعتراف بأي مكتسبات من الماضي، ولهذا تدعو للتخلص من كل المعتقدات والأنظمة السياسية والاجتماعية التي لا تتأسس على العقلانية والعلمية.

ونعود في نهاية المطاف إلى نقطة البداية وهي المؤامرة. وقد تكون كل الآراء الماضية حول الأخطار والتهديدات الماثلة في تبني النموذج الحدائي وما بعد الحدائي الغربي مجرد آراء تحتمل الصدق والكذب باعتبارها مجرد

ثقافة الشرخ

تفسيرات وقرارات لا تزيد على كونها أوهاما مريضة أضررتها عقدة الاضطهاد أو الخوف المرضي. لكن المؤامرة الغربية ضد الثقافات القومية موجودة بالفعل وموثقة.

في بداية ١٩٩٩ ظهرت في السوق دراسة مطولة لباحثة إنجليزية شابة تخرجت في جامعة أكسفورد قبل ذلك بأعوام قليلة جدا، هي «فرانسيس ستونر سوندرز»، ولابد أنها تفرغت لكتابة مؤلفاتها بعد تخرجها مباشرة، فلم تكن قد نظمت الثلاثين من عمرها إلا بأعوام قليلة حينما تشر لها: من دفع أجرة العازف؟ **Who Paid the Piper?: The CIA and the Cultural Cold War** وضخامة الدراسة وعدد الوثائق التي رجعت إليها الباحثة، وهي بالمئات، بعد أن أفرجت عنها الإدارة الأمريكية بسبب التقادم، وعدد اللقاءات التي عقدتها الباحثة الشابة مع الأطراف التي كانت تعرف بدور المخابرات الأمريكية والبريطانية في تمويل الأنشطة الثقافية في شتى أنحاء العالم، بما في ذلك الأنظمة الحداثية بالطبع، كل ذلك يؤكد أن الباحثة قضت سنوات من البحث والتنقل بين أمريكا وأوروبا حتى تجمع الكتاب، أو الوثيقة الدامغة. والعنوان، لمن لا يعرفون الثقافة الإنجليزية عن قرب، هو جزء من مثل إنجليزي يقول: «من يدفع أجر العازف يختار اللحن». وحيث إن المخابرات الغربية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، منذ ١٩٤٨ على وجه التحديد، هي التي تقوم بدفع أجر العازف بسخاء، فقد كانت تقوم طوال الوقت باختيار الألحان التي عزفها الجميع، والحداثيون من بينهم، بالطبع، والتي ظل البعض يرقص على نغماتها. ويطلب من الجميع أن يرقصوا عليها أيضا حتى ١٩٧٧ حينما حل الـ **Congress For Cultural Freedom** نفسه بعد اضمحلال دور المخابرات في تمويل أنشطته في مناقشات ساخنة في الكونجرس الأمريكي وعبر صفحات الصحف والمجلات، والطريف، أن أحد الأعضاء النشطين في جهاز المخابرات الأمريكية والذي لعب دورا نشطا في «رابطة حرية الثقافة» قال في سخرية شديدة، في أحد لقاءاته مع المؤلفة، وفي معرض انتباهي بنجاح المخابرات الأمريكية في اختراق كل شيء، إنهم نجحوا في يوم ما في تمويل مؤتمري شيوعي رسمي، أو الدفع لأحد أقطابه، وينهي الرجل لقاءه مخاطبا القطب الشيوعي الراحل - الذي لم يكن يعرف حتى تلك اللحظة: «فلان، تقلب في قبرك، فقد دفعت لك المخابرات الأمريكية!».

اعتقد أن الأمر يحتاج لوقفة لا بد منها قبل الاسترسال في هذا الموضوع. إنني أؤكد أن الحديث عن دور المخابرات الأمريكية في تمويل أنشطة ثقافية في جميع أنحاء العالم ليس المقصد منه، تصريحا أو تلميحاً، اتهام أي مثقف مصري أو عربي بالعمالة. هأنذا، بعكس بعض الحداثيين، أجل المثقف العربي وأكن له كل احترام. وفي هذا الجزء من سياق المرايا المقعرة لن أذكر أسماء، لكن ذلك ليس من باب التعفف، ولكن لأنني فعلا لا أعرف اسم مثقف عربي أو مصري واحد على الأقل دفعت له المخابرات الأمريكية. ولابد أنها دفعت للعشرات في مصر وللعالم العربي، كما دفعت للمئات في أوروبا وأمريكا الجنوبية وآسيا، لكن ذلك لم يكن بعلمهم. فلم يكن يعلم بدور المخابرات الأمريكية في تمويل تلك الأنشطة الثقافية، بالإضافة إلى رجال الجهاز المسؤولين، إلا قلة قليلة جدا في أوروبا وأمريكا، وبعض هؤلاء لم ترتفع معرفتهم إلى أكثر من درجة الشك غير المؤكد. ومن ثم لا يمكن اتهام أحد منهم بالعمالة لهذا الجهاز أو ذلك، والحديث عن دور المخابرات الأمريكية وحدها هنا لا يعني أن جهاز المخابرات السوفييتية KGB مثلا لم يتم. بالأنشطة مماثلة، لكن في الوقت الذي يسمح فيه الدستور الأمريكي بالكثيف عن وثائق الحكومة بأجهزتها المختلفة بعد فترة تقادم محددة، وهو ما مكن «سوندرز» من الاطلاع على وثائقها، إلا إنه لم يتم حتى الآن الكشف عن وثائق المخابرات السوفييتية المماثلة. وحينما يحدث ذلك فلا بد أن الوثائق ستؤكد أن الكتلة الشرقية بزعامة الاتحاد السوفييتي لم تكن أقل حماسا لتصدير «حداشها» وأيديولوجيتها إلى دول العالم. لماذا إذن الاهتمام بدور المخابرات الغربية؟ أليس في موقفك الآن تناقض صارخ؟ ليس هناك تناقض على الإطلاق. إن الإشارة إلى دور المخابرات الغربية يقصد بها فقط، أن الدور الثقافي الغربي ليس بريئا ولم يكن بريئا في يوم من الأيام، وأننا في أحيان كثيرة، كما تقول الباحثة الإنجليزية، نتحرك فوق رقعة الشطرنج في حركات نعتقد أنها صادرة عنا وبمحض إرادتنا، ولكنها ليست كذلك.

والتواقع أن كتاب سوندرز لا يمثل أكثر من تأكيد ما هو معروف. ففي بداية العام الجامعي ١٩٦٨/١٩٦٩ اشتملت المظاهرات في عدد من الجامعات الأمريكية التي تضم أقساما متميزة للدراسات اللغوية. على الرغم من أن الدراسات اللغوية لم تكن أمريكية المنشأ إلا إنها سرعان ما انتشرت في

ثقافة الشرخ

أمريكا، ومع بداية النصف الثاني من القرن العشرين أصبحت الجامعات الأمريكية تحتل مكان الصدارة في هذه الدراسات الجديدة، وبحلول الستينيات كانت الدراسات اللغوية في الجامعات الأمريكية قد وصلت إلى عصرنا الذهبي بعد أن اجتذبت تلك الجامعات أفضل اللغويين، من أوروبا الغربية والشرقية على السواء، بطروفي معيشية أفضل ورواتب مجزية تزيد على رواتب بعض التخصصات الأخرى، واجتذبت إليها شباب الدارسين من أنحاء العالم ليحضروا لدرجات الماجستير والدكتوراه في الدراسات اللغوية. وكان الالفت للنظر آنذاك - أو ربما لم يلاحظ أحد ذلك إلا متأخرا - أن هؤلاء الدارسين كانوا يحصلون على منح دراسية سخية من مؤسسة ثقافية مرموقة في أثناء تحضيرهم لتلك الدرجات، ومرة أخرى: لم يكن أحد يعرف ما عرفة الطلاب الأمريكيون في بداية فصل الخريف عام ١٩٦٨، ومن ثم لا مجال على الإطلاق لاتهام أحد بالعمالة، إننا فقط نذكر ببعض الحقائق التاريخية، فجأة انكشف الغطاء وعلم الطلاب الأمريكيون أن جزءا كبيرا من ميزانيات أقسام اللغويات في الجامعات الأمريكية الكبرى تأتي من المخبرات الأمريكية، عن طريق مؤسسات ثقافية مرموقة أو مؤسسات وهمية كانت تؤسس لهذا الغرض؛ واشتعلت المظاهرات في تلك الجامعات لبضعة أيام احتجاجا على تدخل المخبرات في الشؤون الجامعية الأمريكية.

وما علاقة ذلك بموضوعنا؟ إنه صلب موضوع الخطر والتهديد. أولا، نحن نتحدث هنا عن الدراسات اللغوية، وليسنا في حاجة إلى التذكير بأهمية اللغويات أو اللسانيات للحدادة الأدبية والنقدية، فقد قامت البنيوية على أكتاف الدراسات اللغوية منذ نشرت محاضرات فريدريش دي سوسير على شكل كتاب في بدايات القرن. والواقع، أننا نستطيع القول، دون كثير مغالطة أو تحريف للحقائق، إنه بهذا المعنى المحدد، كانت صلة المخبرات الأمريكية باتجاهات الحدادة في الدراسات الأدبية النقدية أكثر مباشرة من صلتها بالأنشطة التي كشفت عنها فرانسيس سوندرز في كتابها الأخير: من دفع أجر العازف؟ ماذا كانت أهداف المخبرات الغربية من وراء ذلك؟ وما الفائدة التي جنتها من وراء ذلك التمويل؟ الأهداف والقوائد معروفة للجميع: كان طلاب الدراسات العليا في هذه الأقسام، الذين ينتمون إلى ثقافات ولغات العالم «الأخر» غير الغربي، يوجهون لكتابة أطروحاتهم التخصصية عن لغاتهم بل

لهجاتهم المختلفة. وفي نهاية الأمر تصب هذه الأطروحات والدراسات المتخصصة في مراكز المعلومات المعنية في جهاز المخابرات للاستفادة منها في دراسة تلك اللغات ولهجاتها المختلفة، ومن ثم في تسهيل عمليات الاختراق للثقافات القومية في شتى أنحاء العالم.

ونعود إلى الوقفات التي لا بد منها: هل تلوم المخابرات الأمريكية والمخابرات الروسية بعض الحيدة من جانبنا نستطيع أن نعترف بأن التدخل في شؤون الآخرين ثقافيا من حقها - وليس هذا حقا مطلقا، ولكنه الحق الذي نرضه القوة وغطرستها. من حق تلك الأجهزة، من زوايتها الضيقة، أن تحمي مصالحها مهما تعارضت تلك المصالح مع مصالح الشعوب المقهورة والمغلوبة على أمرها. وإذا كان لا بد من لوم أحد - ولابد من ذلك - فلا تلوم إلا أنفسنا. إن تبني الحداثة ثم ما بعد الحداثة الغربيين مصاحبا بكل الأنبياء الذي رافق ذلك يعني في بساطة مؤلمة أن بعض الحداثيين العرب قد «هللوا» - عن غير قصد - لعمليات الاختراق الثقافي وسهلوا عمليات السيطرة والأهيمنة للحداثة، شرقية وغربية، هذا هو حجم الخطأ والذي يحدد بالقطع حجم اللوم المناسب.

بعد هذا التقديم آن لنا أن ننقل إلى بعض تفاصيل «المؤامرة»، الموثقة في خمسمائة وتسع صفحات من القطع الكبير، هي حجم كتاب سوندرز، وفي هذا سوف نركز فقط على أهداف تدخل المخابرات الأمريكية (CIA) والمخابرات البريطانية من خلال إدارة (The Information Research Department) والمؤسسات والأشخاص المستهدفين، ثم أجهزة التمويل أو «الغطاء» - في لغة المخابرات - الذي استخدم في ذلك، وأخيرا، وهو أهم أهداف هذه الوثيقة المطولة في هذه المرحلة من المرايا المقعرة، علاقة كل ذلك بالهياكل الغربية عامة والحداثة الغربية خاصة.

أما الأهداف فتعدها سوندرز موثقة في أكثر من موقع في دراستها المطولة. وتحدد المؤلف أهداف دور المخابرات الغربية في الصفحة الأولى من مقدمتها، فتذكر أن أهداف المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) منذ إنشاء ذلك الجهاز بعد الحرب مباشرة (في عام ١٩٤٧ على وجه التحديد) «أن تشكل مجموعة عمل أو Consortium تكون مهمتها المزدوجة أن تقوم بتطعيم أو تحصين العالم ضد عدوى الشيوعية وتسهيل تحرير السياسات الخارجية

ثقافة الشرخ

الأمريكية في الخارج^(٦٧). ثم تضيف سوتندرز في كلمات أكثر إيضاحا، وإن كانت تعرج في نهايتها على الأدوات والوسائل التي استخدمت:

«لقد قامت مؤسسة التجسس الأمريكية، دون أن يردعها أو

يكشفها أحد الأكثر من عشرين عاما، بإدارة واجهة ثقافية متطورة،

جيدة التمويل في الغرب، ومن أجل الغرب باسم حرية التعبير، بعد أن

اعتبرت الحرب الباردة «معركة حول العقول» جمعت المؤسسة ترسانة

ضخمة من الأسلحة الثقافية: من الصحف والكتب والمؤتمرات

وحلقات النقاش والمعارض الفنية والحفلات الموسيقية وإنجوازه»^(٦٨).

كانت سياسة التدخل الأمريكي في أوروبا للحيلولة دون وقوع دول أوروبا الغربية تحت السيطرة الشيوعية قد أصبحت سياسية رسمية معلنة بعد إعلان الرئيس الأمريكي، هاري ترومان ذلك في الكونجرس في مارس ١٩٤٧.

وقد كان مشروع مارشال الضخم الذي بدأ تنفيذه بعد خطاب ترومان بأشهر قليلة لمساعدة أوروبا المدمرة في عمليات الإعمار وإعادة البناء، هو التجسيد الحي لسياسة الأمريكية الجديدة «للملء الفراغ» الذي أعقب الحرب، وقد كان

مشروع مارشال طوال عمله في أوروبا يخصص نسبة مئوية من ميزانيته - بالعملة الأوروبية المحلية - لتمويل أنشطة «رابطة حرية الثقافة» من مجالات ومؤتمرات وكتب. لقد اتفقت المخابرات البريطانية على تحديد الهدف المزدوج

لأنشطتها في الحرب الثقافية الصادرة كالتالي: الاقتراب من الجامعات التقدمية بغرض مراقبة أنشطتها، من ناحية، والعمل على التخفيف من تأثير

هذه الجماعات، أو فاعليتها، بتحقيق درجة من النفوذ داخلها، ثم عن طريق فتح عضويتها أمام أعضاء أقل تقدمية، من ناحية ثانية. وقد تشعبت عن

هذين الهدفين البديهيين أهداف أخرى تم العمل لتحقيقها في نعومة وذكاء ابتعدا عن الدعاية المباشرة، التي يمكن أن تؤدي إلى عكس ما تهدف إليه

الأنشطة الموجهة. أبرز هذه الأهداف، إقناع المعارضين اليسارية، وفي فرنسا على وجه التحديد، بأن الثقافة الأمريكية ليست بالخواء والسطحية والثقافة التي تصورها بها الدعاية المضادة، والتي تتصورها أوروبا عنها، وهكذا لم يكن

غريبا أن تعرض أمريكا أفضل ما لديها من فرق موسيقية وآخر منتجاتها الحديثة في الفنون الجميلة في أول مؤتمر نظمته «رابطة حرية الثقافة» في باريس من ٢٦ إلى ٢٩ يونيو ١٩٥٠ تحت عنوان حرية التعبير، في باريس، أكثر

عواصم أوروبا تقدمية، لقد أرادت وزارة الثقافة الأمريكية غير الرسمية، ممثلة في رابطة حرية الثقافة - وهي التسمية التي وصل أقطاب المخابرات المعينين إلى قناعة كاملة بها - أن تغير صورة أمريكا السطحية والتافهة وتجعلها، أما الهدف الثاني الذي تشعب عن الهدف «المزدوج لـ» رابطة حرية الثقافة» فهو إقناع المعارضة بطريقة الحياة الغربية، ومن ثم خدمة أبرز أهداف السياسة الخارجية الأمريكية في أثناء الحرب الباردة، وهو ضرب قاعدة «الحياد بين القوتين الكيبرتين، أو المعسكرين الشرقي والغربي، فقد اعتمدت السياسة الخارجية الأمريكية، منذ حدها ترومان في خطابه أمام الكونجرس في مارس ١٩٤٧، على إقناع العالم بأن أمامه اختيارين فقط: إما التحالف مع الشرق أو التحالف مع الغرب، ولا مكان لأي خيار ثالث. والواقع أن الهدف النهائي للسياسة الخارجية الأمريكية كان دائما إقناع العالم بوجود خيار واحد فقط وليس أكثر، إذ إن حملات الدعاية التي كانت تركز على تجهيل صورة الغرب، وتحبذ الخيار الغربي، كانت في الوقت نفسه تركز، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أو الأتنتين معا، على تشجيع واقع الاختيار الشرقي عن طريق التركيز على مزايا الديمقراطية وعيوب الديكتاتورية والشمولية، وعن حقوق الإنسان في الغرب مقابل القهر الواضح للبروليتاريا التي جاء الشيوعيون إلى الحكم لتحريرها أصلا، وحرية التعبير مقابل كبت الحرية الفردية - وهذا يفسر استخدام المخابرات الغربية لشعار «حرية التعبير» سلاحا أساسيا في «المعركة من أجل العقول»، المهم أن هذا الموقف المبني كان يعني في النهاية أن الغرب يضع العالم أمام خيار واحد فقط وليس أمام خيارين.

من الذين استهدفتهم أنشطة الرابطة من أجل الحرية الثقافية؟ ومرة أخرى تحددهم الياحة بصفة عامة، وفي كلمات تثير الدهشة والغربة في الصفحات الأولى من دراستها: «قلّة فقط من الكتاب أو الشعراء أو الفنانين أو المؤرخين أو العلماء أو النقاد في أوروبا ما بعد الحرب الذين لم ترتبط أسماؤهم بطريقة ما بهذا المشروع السري»^(٦٩). والواقع أن الكتاب يزخر عبر صفحاته بعشرات بل مئات الأسماء التي شاركت في نشاط أو أكثر أنشطة رابطة حرية الثقافة لأكثر من ثلاثين عاما، وإذا أراد القارئ أسماء محددة، خارج الدائرة العربية، فما عليه إلا أن يراجع أسماء نجوم الفكر والفن والأدب

ثقافة الشرح

والصحافة والأعلام من كل أنحاء العالم، الذين اشتركوا في مؤتمر حرية التعبير الأول في باريس عام ١٩٥٠، ثم مهرجان الفنون الموسع الذي خططت له ونظمتها وأشرفت على تنفيذه ومولته تمويلًا كاملاً رابطة حرية الثقافة لمدة شهر كامل في باريس في أول أبريل ١٩٥٢، وإذا كانت الأسماء في حد ذاتها لا تلهمنا هنا، فإنما يهمننا في السياق الحالي هو الاتجاهات الفكرية والاتجاهات الأيديولوجية التي تمثلها هذه الأسماء. لقد كانت الفئات المستهدفة من جانب المخابرات الأمريكية والبريطانية هي فئات يسار الوسط بجميع درجاته: التقدميون واليسار غير الشيوعي والشيوعيون السابقون الذين ارتدوا عن الشيوعية. ولسنا هنا في حاجة إلى التذكير بأن تلك الفئات لم تكن تجتهد للعمل لمصلحة المخابرات الغربية، فليس هذا ما نقصده، لأن الأغلبية الساحقة منهم لم تكن تعرف بمجرد التمويل المخابراتي لتلك الأنشطة. وإن كانوا في نهاية الأمر، ودون علمهم - اللفظة التي استخدمتها المخابرات الأمريكية لذلك هي unwittingly - يخدمون أهداف الكتلة الغربية في حريها الثقافية والسياسية مع الكتلة الشرقية، وهنا تجدر الإشارة إلى أن تحديد الفئات المستهدفة باعتبارها فئات يسار الوسط تجيب عن تساؤل راود الكثيرين منا في إلحاح وتكرار طوال النصف الثاني من القرن العشرين. كنا نساءل باستغراب: كيف توجه الدعوات لزيارة جامعات أمريكا ومؤسساتها الثقافية والاشتراكية في مؤتمراتها على حساب مؤسسات أمريكية مرموقة لهذا العدد الكبير من اليساريين العرب، من قادة الفكر الذين لا يمكن تسميتهم بالشيوعيين، ولكنهم كانوا بالقطع، وكما كان يعرف الجميع، يقفون إلى يسار الوسط ولا ينظرون بعين الرضا - على الأقل - إلى طريقة الحياة الغربية؟ وقد قامت وثائق المخابرات الأمريكية والبريطانية التي أفرج عنها بالتقادم، وكما استشهدت بها سوندرز، على هاجسنا الملح، أو على الأقل أكدت ظنوننا تماماً بهذا الصدد.

وإذا لم يكن الهدف هو تجنيد صفوفه المفكرين من كل أنحاء العالم، بل مجرد إبعادهم عن المعسكر الشرقي والشيوعية كمرحلة أولى، ثم إقناعهم بطريقة الحياة والتفكير الغربية في مرحلة ثانية، كلما أمكن ذلك، فما تذكيا «الغواية» الذي اتبعته تلك الأجهزة طبعاً أبسط أدوات الغواية هي الدعاية الذكية والحرب النفسية. ودون إطالة في غير محلها فإن الوثائق المنشورة

تؤكد أن طرفي المعادلة هما: تصوير مخاطر عالم يحكمه نظام مثل النظام الستاليني ثم تجميل صورة الغرب لدى المثقفين. لكن العمود الفقري للمعادلة كان، بلا شك، «حرية التعبير» و«حرية الثقافة» وتأكيد غيبيتهما في جانب وتواقرهما في الجانب الآخر. وهوق هذا وذاك، سواء في مرحلة الترهيب أو مرحلة الترغيب، ومن منطلق الإدراك الكامل من جانب تلك الأجهزة أنها لا تتعامل مع جماهير البسطاء، بل مع «المقول» أو النخبة المثقفة، تركهم يصلون، دون أن يدركوا ذلك، إلى النتائج المطلوبة معتقدين أن تلك نتائجهم هم. وقد كان ذلك أحد التوجيهات المبكرة التي حُدِث واتفق عليها مبكراً، في مذكرة ترجع إلى عام ١٩٥٠، أي في بداية أنشطته «رابطة حرية الثقافة»: «إضافة إلى هذا، فإن أكثر أنواع الدعاية تأثيراً هي تلك التي تحرك الهدف subject في الاتجاه الذي تريده أنت لأسباب يعتقد أنها أسبابه هو»^(٧٠). وربما يفسر ذلك في جزء كبير منه عدم شك جمهوره المثقفين في مصدر تمويل أنشطتهم المختلفة. فقد وصل الأمر إلى إصدار التعليمات الصريحة بأن تتجنب النشرات والمطبوعات - سواء كانت على شكل مجلات أو دوريات - تأييد السياسة الأمريكية في كل ما تقوم به أو بشكل فج واضح، لكن الأمر لم يتوقف عند مجرد الغواية ومحاولة كسب ثقة المترددين وجلبهم إلى حظيرة المعسكر الغربي الذهبية. لقد كان ذلك هو الطعم فقط، وخينما تلتقط الضحية الطعم تبدأ عملية التدخل المخابراتي الذي يسمى في لغة المخابرات «التحكم أو السيطرة control»:

«لم يكن الهدف من دعم الجماعات اليسارية هو التدمير أو الهيمنة، بل تحقيق اقتراب ذكي أو غير محموس من تفكير هذه الجماعات ومراقبته، وتوفير أداة تغيير لهم يستطيعون عن طريقها التنفيس، ثم، في نهاية المطاف، ممارسة نوع من حق الاعتراض النهائي veto على مطبوعاتهم، ثم أفعالهم، إذا أمكن، إذا فكروا أن يصعبوا تقديم أكثر من اللازم»^(٧١).

إن كلمات توم برادن Tom Braden، وهو من أبرز رجال المخابرات البريطانية الذين قادوا الحرب الثقافية، تؤكد بما لا يترك مجالاً للشك أن العملية لم تكن، في التحليل الأخير، بريئة كلية، لكنها في الوقت نفسه تبرز مقارعة جوهرية. فالمخابرات، من منطلق تشجيع حرية التعبير كانت تقوم أولاً

ثقافة الشرخ

«بشراء» حرية التعبير تلك ثم تقوم بالتحكم فيها وتقييدها، من ثم تعلق سوندرز: «لم يكن سوق الأفكار بالحرية التي تظهر بها». ويتحدث برادن أيضا بصراحة عن الجانب الأهم في الأدوات التي استخدمتها المخابرات، فهو يذكر أن من بين خطط المخابرات البريطانية في تحييدها للجماعات اليسارية، بل كسبها، هو توفير «أداة للتعبير mouthpiece»، للتقريب غير الضار بالطبع. وهذا لما فعلته المخابرات الغربية على نطاق واسع. فتحت أولا مكاتب لرابطة حرية الثقافة في أماكن مختلفة من العالم. ومع بداية عام ١٩٥١ كان لرابطة حرية الثقافة مكاتب في ألمانيا وبريطانيا والسويد والدانمارك وأيسلندا (في أوروبا)، وفي اليابان والهند والأرجنتين وشيلي وأستراليا ولبنان والمكسيك وبيرو وأرجواي وكولومبيا والبرازيل وباكستان (في آسيا وأمريكا الجنوبية)، كانت تلك هي البداية فقط لأن مكاتب المنظمة سرعان «ما انتشرت كعش الغراب»، كما تضيف سوندرز، في بقية أنحاء العالم. وقد افتتح للرابطة مقر في القاهرة في مرحلة الألفية من الخمسينيات. أما الخطوة المهمة والتي تزامنت مع افتتاح تلك المقار فكانت تمويل إصدار المجلات الثقافية. وسوف نعود بعد قليل لهذه الخطوة في العالم العربي.

نقد توقفنا في بعض الإطالة عند نشاط المخابرات الغربية، البريطانية والأمريكية، ودورها في الحرب الثقافية، لكن ما علاقة كل هذا بالحدثة عامة والحدثة والحدائين العرب خاصة؟ وهل معنى ذلك أن المخابرات الغربية، شجعت عن طريق التمويل، التيارات الحداثية في الفنون والآداب والنقد؟ في الواقع أن تلك العلاقة هي السبب الوحيد لهذه الوقفة الطويلة مع كتاب فرانسيس سوندرز، استكمالاً لما نحاول تأسيسه منذ البداية وهو أن الحدثة الغربية لم تكن بالبراءة التي تصورها البعض، وأنها الحلقة الأخيرة في سلسلة الهيمنة والسيطرة على مقدرات الشعوب المقهورة، ثم إن - وهذا استنتاج مخيف بالقطع لأمال الكثيرين ممن تحمسوا للحدثة الغربية لسنوات، وانهروا بها واعتبروها المخلص الجديد - انشغلت الحدائين العرب واتجاههم الحداثي كان تمهيدا إراديا لهيمنة الثقافة الغربية، وبتنميط من المخابرات الغربية في أحيان كثيرة.

قبل أن نناقش العلاقة بين المخابرات الغربية والتيارات الحداثية في العالم لابد من التعرّيج على مفارقة لافتة للنظر.

المفارقة التي تبرزها سوندرز أن أمريكا التي رفعت شعار حرية التعبير والحرية الثقافية واستخدمته سلاحاً مبدئياً في حربها البارودة مع المعسكر الشرقي كانت في تلك السنوات المبكرة، في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات على وجه التحديد، تقهر حرية التعبير داخل الولايات المتحدة الأمريكية. بل إن الذوق الأمريكي، ممثلاً رسمياً في رئيس الجمهورية وبعض أعضاء مجلس الشيوخ، كان يعتبر الفن الحدائثي - الرسم بالتحديد - فناً هامطاً منحللاً. وقد وصل الأمر إلى درجة اتهام أحد أعضاء الكونجرس (مجلس الشيوخ) للفنانين الحدائثيين بالتجسس لحساب الاتحاد السوفييتي. وذهب إلى القول بأن اللوحات الحدائثية خرائط سرية مشفرة تحدد المواقع الإستراتيجية الأمريكية. خلاصة القول إن الذوق الأمريكي لم يكن يختلف عن ذوق ستالين في رفضه للفن الحدائثي باعتبارها فتونا هامطاً منحللاً.

لكن الموقف الأمريكي كان ينطلق أساساً من نقطة تشجيع كل ما يرفضه الشيوعيون، ليس معنى ذلك بأي حال من الأحوال أن الحدائثية كانت معادية أو معاكسة للفكر الشيوعي أو التقدمية، لكنه يعني فقط أن الاتحاد السوفييتي تحت حكم ستالين، ولسنوات بعد رحيله، كان رافضاً للفن الحدائثي، وفي لقاء متأخر (١٩٩٤) أجرته الباحثة مع واحد من أقطاب رابطة حرية الثقافة هو دونالد جيمسون، يشرح الأخير المنطلق الذي حكم الموقف الغربي في تعامله مع الحدائثية في سنوات نشاط رابطة حرية الثقافة المبكرة:

«لقد أدركنا أن ذاك فن لا علاقة له بالواقعية الاشتراكية، بل جعل الواقعية الاشتراكية تبدو أكثر جموداً وضيقاً مما هي عليه... لقد كانت موسكو في تلك الأيام شرسة في إدانتها لأي شيء لا يتفق مع أنماطها باللغة الجمود، ومن ثم قررنا في دفة أن شيئاً ينتقدونه إلى ذلك الحد وبذلك القسوة يستحق أن ندعمه بطريقة أو بأخرى»^(٧٢).

وهكذا وجد المسؤولون عن أنشطة «رابطة حرية الثقافة» أن لديهم من الأسباب ما يبرر اتخاذ موقف يتعارض مع الموقف الرسمي للحكومة الأمريكية من الحدائثية باعتبارها معادية للواقعية الاشتراكية، وأنها تقوم على مبدأ حرية التعبير الذي يتناقض مع مبادئ الواقعية الاشتراكية ومفهوم الالتزام الذي تتسمك به.

ثقافة الشرخ

لكن تشجيع الفكر الحدائي لم يعتمد فقط على مجرد دعم كل ما ترفضه الشيوعية أو الكتلة الشرقية، وإن كان في ذلك ما يكفي لربط الحدائنة العالمية بأهداف المخابرات الغربية بصورة أكثر عضوية من مجرد تشجيع كل ما ترفضه الشيوعية، لقد كان من بين خطط أجهزة المخابرات وأهدافها مخاطبة النخبة المثقفة - تحت شعار حرية التعبير - باعتبارهم الفئة المختارة والقادرة على التأثير. لم تخطط المخابرات، مثلاً، في حريها الثقافية لمخاطبة الجماهير، بل ركزت اهتمامها على «تشجيع النخبة المثقفة على تطوير نظريات وآراء لا تخاطب الجماهير، بل مجموعات ضغط مثقفة ورجال السياسة الذين يقومون بدورهم بتحديد السياسة الحكومية»^(٧٣)، وفي ذلك كانت «فلسفة المخابرات الغربية ترى أنه «لا ينبغي إعطاء الجمهور ما يريدونه، أو ما يظنون أنهم يريدونه، بل - عن طريق أعضائها شديدي الذكاء - ما يجب أن يكون لديهم»^(٧٤)، هل يستبعد، في هذا المجال، أن يكون هذا التوجه من جانب المخابرات الأمريكية هو الذي طور «موضة» النخب الحدائية في بقاع مختلفة من العالم والذين وصلت قناعتهم بأنهم قوى الضغط المؤثرة لدى أصحاب القرار السياسي إلى درجة جعلت البعض منهم يرون أنفسهم أنصاف آلهة ولا يقبلون مجرد الاختلاف!

وماذا عنا نحن في العالم العربي، وهل كان للحدائين العرب، عن معرفة أو غير معرفة (wittingly or unwittingly)، علاقة بالمخابرات الغربية؟

سبق أن أشرنا إلى أنه بحلول ١٩٥١ كان لرابطة حرية الثقافة عدد كبير من المكاتب أو المقار في أوروبا وأمريكا اللاتينية وآسيا، وأن أول هذه المكاتب في العالم العربي بدأ في لبنان. وفي مرحلة لاحقة من العقد نفسه افتتح مكتب آخر في القاهرة، وقلنا أيضاً إن من بين خطط تلك الرابطة منذ البداية توفير «أبواق mouthpieces للتعبير الحر» للجماعات التي تتعامل معها. وهكذا بدأت في افتتاح عدد من المجلات والدوريات بتحويل كامل من المخابرات الغربية بهدف تمكينها من «التفيس Let off steam»، وقصة مجلة حوار التي افتتحت في القاهرة كنسخة عربية مقابلة للمجلة التندئية المبكرة Encounter في أوائل الستينيات إلى أن اضطرت لإغلاق أبوابها بعد اقتضاح أمرها، هذه القصة معروفة للمثقفين في مصر. لكن هناك مجلة أخرى تحتاج إلى وقفة أكثر أناة لارتباطها المبكر بتيار الحدائنة

في العالم العربي ونقصد بها مجلة شعر البيروتية، والتي لا يكل الحداثيون العرب عن تذكيرنا أن الحداثة العربية بدأت مبكراً معها وليس مع مجلة فصول المصرية. ليس موضوعنا الآن إذا كانت الحداثة قد بدأت بشعر ثم كتبت مع فصول، لكن موضوعنا هو محاولة التأسيس لعلاقة «شعر» على إجله التحديد بالمخابرات الغربية دون أن يعني ذلك بالضرورة، بل بأي صورة من الصور، اتهام أحد بالعمالة، خاصة إذا تذكرنا أن أجهزة المخابرات القريبة لم تكن «تجند عملاء» لها في المناطق المختلفة من العالم، بل تمول الأنشطة المناوئة للتغلغل الشيوعي في مناطق الفراغ التي خلفتها الحرب ورواها.

إن ظهور مجلة شعر في بداية ١٩٥٧ والظروف التي أحاطت بها تشي بعلاقة وثيقة «برابطة حرية الثقافة»، فقد ظهرت بعد ما يقرب من عقد من بداية نشاط الرابطة المشبوهة، ومؤسسها نفسه، يوسف الخال، كما يروي محمد جمال ياروت في «من العصرية إلى الحداثة»، كان مقيماً في نيويورك، وعاد إلى بيروت فجأة عام ١٩٥٥ ليصدر المجلة التي ارتبط اسمها بالحداثة العربية إلى حد كبير بعد ذلك التاريخ بأقل من عامين^(٧٥). هل يحتاج الأمر حقيقة إلى كثير ذكاء لمعرفة مصدر تمويل المجلة الجديدة؟ وأحياناً يستعرض شكري عياد مانقستو الحداثة بمبادئه العشرة يصل في تحليله للمبادئ الأربعة الأخيرة منها إلى أنه على الرغم مما يبدو من اعتدال يوسف الخال ظاهرياً بين التراث العربي القديم والتراث الغربي، فإن نعمة دعوته ليست بالحيدة التي قد يظنّها البعض، «فالنبرة هنا»، كما يقول عياد، «أكثر حدة، مع شبهة اتهام للتراث العربي»^(٧٦)، فلم تكن الأصوات المنادية بقطيعة كاملة مع التراث بالجرأة والقوة التي ظهرت بها في الثمانينيات والتسعينيات فيما بعد، ويؤكد تلك النبرة التحتية أو الخفية حماس الخال للاتصال بالتراث الأوروبي «بحيث ينتهي فهمنا إياه إلى أن نكونه». ويؤكد شكري عياد الدلالة الواضحة لـ «أن نكونه» وهي المطالبة غير المباشرة بالاندماج في الثقافة الغربية!

ونعود إلى نقطة بداية هذه المرحلة، لقد تحرك العقل العربي - الحداثي - في اتجاه الثقافة الغربية في ظرف تاريخي شعر فيه العربي بالحاجة المصيرية للتحديث. ومع كثير من الإنهيار بمنجزات العقل الغربي، واحتقار

ثقافة الشرخ

للعقل العربي ومنجزاته، تحول الحداثيون من «التعلم» إلى الاندماج دون أن يدركوا الاختلاف أو يستشعروا الخطر، ودون أن يدركوا في الوقت نفسه أن هذا على وجه الدقة هو ما يريده الغرب في مرحلة اقتلع فيها بصحة مقولة نهاية التاريخ، مقولة الصلف والفطرسية الغربيين التي ترى أن النموذج الغربي قد وصل إلى منتهاه واكتماله، وما على أبناء الثقافات القومية الأخرى إلا تبني ذلك النموذج صاغرين، والمفارقة المؤلمة الأخيرة، أن بعضنا قام، عن حسن نية، بتسهيل المهمة. وهكذا لم يجهد الغرب نفسه كثيرا ليوصلنا إلى ما يريده هو مع قناعتنا إلى أن ذلك هو ما نريده نحن. لقد سهل بعض الحداثيين مهمة العقل الغربي في تحقيق السيطرة والهيمنة.

والنتيجة؟

النتيجة هي ثقافة الازدواجية والشرخ. لقد مرت الثقافة العربية في القرن العشرين بمرحلتين محدثتين، كل مرحلة منهما، بالطبع، كانت لها تنوعاتها وتبايناتها الخاصة بها، لكنهما تظلان مرحلتين منفصلتين. مرحلة «التحديث» التي انتهت بصورة تقريبية مع هزيمة ٦٧، ومرحلة «الحداثة» حينما تحول العقل العربي إلى الارتواء شبه الكامل في حضن الثقافة الغربية. ومع تمسكنا المبدئي بمقولاتنا الافتتاحية في بداية هذا الفصل من أن «الشرخ» الثقافي بدأ فلع عمليات التحديث المبكرة مع محمد علي، إلا أن الشرخ لم يكن أبدا بالعمق الذي ظهر به بعد التحول إلى «الحداثة». كان النصف الأول من القرن العشرين إذن، وكما يقول شكري عياد، مرحلة التعلم من الغرب دون دعوة صريحة إلى أي قطيعة معرفية مع الماضي والتراث العربي، وحينما كانت هذه الدعوة تراود البعض لم يكونوا يتخطون مرحلة «الهمس» بها. ومن ثم يمكن تقيل مقولة استاذنا شوقي ضيف، مبدئيا، في تقييمه لمنجزات النصف الأول من ذلك القرن عن حدوث «زواج» بين الثقافتين العربية والغربية في الأدب العربي المعاصر في مصر والذي نشرت طبعته الأولى عام ١٩٥٧:

«فالأربعون سنة الأخيرة من تاريخنا الحديث تسجل نصرا مؤزرا

لنهضتنا الأدبية الطويلة منذ منتصف القرن الماضي إلى هذا اليوم (١٩٥٧، بالطبع) الذي نعيش فيه. لا سبب إلا لأن هذين التيارين العربي والغربي اللذين كانا يبدوان منفصلين طوال الحقب السابقة اتحدا اتحادا متينا» (٧٦).

لقد كانت الساحة تجمّع بالشواهد حول شوقي ضيف والتي تؤكد صحة استنتاجاته في النقد والفكر والرواية والمسرحية والشعر. كان القرن قد قدّم حتى ١٩٥٧ العقاد والمازني وتسميمه وطه حسين وشكري والحكيم والمسياب وعبدالصبور والملائكة وحجازي والشرقاوي ولويس عوض، ومندور، وغنيمي هلال ومحفوظ وعشرات الأسماء الأخرى التي أغنت الثقافة العربية على امتداد ساحتها. كان هؤلاء جميعاً يشتركون في الرغبة في «تحديث» العقل العربي واتباع المنهج العلمي في التفكير والبحث، الذي تعلموا أصوله من «الأخر» الثقافي. وقد أدار الجميع ظهورهم بدرجات متفاوتة إلى الماضي، بل إن بعضهم، كما سبق أن بينا، مزجوا دعوتهم إلى التعلم من الآخر الغربي بنقمة احتقار لمجزئات العقل العربي، لكنهم كمجموعة أو مجموعات، لم ينادوا صراحة بتحقيق قطيعة معرفية مع التراث العربي. وإذا كان هذا ما يُشتم من موقف البعض، إلا أن أي جيل منهم لم يشكل موقفاً موحداً يقوم على الدعوة إلى القطيعة، كما فعل جيل الحداثيين وما بعد الحداثيين العرب فيما بعد. ما حدث في الأربعين سنة التي يشير إليها ضيف أن العقل العربي النهضوي الجديد أدرك حاجته، بعد قرون التخلف والتدهور الطويلة، إلى تبني مناهج التفكير العلمي من ناحية، واستعارة «قوالب الأنواع الأدبية الغربية لتطوير الشعر والرواية والمسرح والقصة القصيرة من ناحية ثانية.

ولم يكن في استعارة تلك القوالب، سواء أكانت جديدة على الثقافة العربية مثل الدراما والرواية الحديثة، أم مجرد تطوير لقالب عربي قائم بالفعل مثل الشعر، لم يكن في تلك الاستعارة ما يضرير الثقافة العربية. وعلى الرغم من أن العقل العربي المبدع أدار ظهره بالكامل لثور فن القص العربي كما جسّدته ألف ليلة وليلة والمقامات وفنون الشّرجة العربية المختلفة من سمر شعبية واحتفاليات وبابات خيال الظل وعروض القراقوز، إلا أن أحداً لم ينهم كتاب المسرح والرواية بالانقصال عن التراث العربي، وذلك لسببين: السبب الأول، أن القالب الفني كان قد فقد قوميته مع بداية عصر الاتصال منذ استخدام السفن البخارية، وهكذا أصبح القالب عالمياً وملكاً للبشر جميعاً، الذين يجمعهم كوكب واحد. والسبب الثاني، أن استعارة تلك القوالب كان مجرد استعارة آليات أو «تكنيك» للكتابة لا يبعد

ثقافة الشرخ

اللبدع عن واقعة ولا يجرمه القدرة على التأثير فيه. وهكذا لا يفقد النوع الأدبي الجديد هويته أو قوميته. وقد تحدثنا عن ذلك في بعض الاستقاضة من قبل في المراسم المحببة.

لكن الرغبة هي «التحديث» تعرضت لتحويل كامل بعد هزيمة الجيوش العربية التي اعتبرها البعض هزيمة للعقل العربي، وهكذا حولنا الرغبة المشروعة في تحديث ذلك العقل إلى «حادثة» وما بعد حادثة دون أن ندرك الاختلاف والأخطار. وهنا تكمن أخطر نتائج ما حدث في النصف الثاني من القرن العشرين، أو ربع القرن الأخير منه.

وتعرض وقفة أخرى نفسها، فلابد أن القارئ قد لاحظ أننا، مهما قضينا مع الحادثة وما بعدها، نرصد من الثقافة عامة إلى قضايا الإبداع والنقد، مما قد يعنى عودة إلى القضايا نفسها التي ناقشناها في المراسم المحببة. وقد سبق أن طمأننا القارئ إلى أن قضايا الإبداع والنقد لن تكون محور ارتكاز الجزء الأول من المراسم المقعرة إلا بقدر علاقتها بقضايا الحادثة وليس العكس. وهذا منهج لا مهرب منه، إذ إن قضايا النقد والإبداع عرضت نفسها على الساحة الثقافية لما يقرب من ربع قرن الآن باعتبارها أبرز مجالات التأثير الكامل بالحادثة الغربية وما بعدها، بل النقل عنهما إلى أحيان كثيرة. ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن جوانب الحادثة وما بعد الحادثة الحضارية والثقافية الأخرى مثل التحولات الاجتماعية الكبرى التي توالى في سرعة تتحدى الدراسة الموضوعية من إقطاع إلى اشتراكية، إلى انتعاش، إلى اقتصاد السوق والكونية الجديدة، وما جاءت به، أو استجبه به حتماً، من مشكلات الإنتاج والاستهلاك، وضعف سلطة الحكومات القومية، هذه الجوانب، وعشرات مثلهما، لم تحظ باهتمامنا الكافي. هل نتجنس حينما نقول إن تلك الفترة لم تشهد دراسة اجتماعية أو اقتصادية عربية أصيلة لفتت الأنظار إليها خارج الدائرة العربية؟ أو إذا قلنا إن بعض الدراسات اللافتة للنظر عن واقعنا الاجتماعي والحضاري والثقافي يكتبها غيرنا؟ ولم يبق على الساحة العربية إلا «نخبة» الحداثيين وما بعد الحداثيين العرب، الذين ملأوا الدنيا ضجيجاً حول قضايا الإبداع والنقد. ومن ثم يجيء التركيز على قضايا النقد والإبداع الحداثية كنموذج لما أوصلتنا إليه الدعوة الجديدة من مآزق الشرخ.

خطورة النتيجة/النتائج التي أوصلنا إليها فكر «النخبة» تتمثل في الإجابة عن سؤال واحد: «هل يمكن أن نقول إن أزمة / أزمت مدن مثل نيويورك ولندن وباريس وموسكو وبرلين هي نفسها أزمت القاهرة والرياض ودمشق وبغداد والكويت وتونس... إلخ، من العواصم العربية الكبرى؟ الإجابة واضحة ووضوح الشمس إذن:

«فمن الضروري أن نستكشف التنوعات العديدة في هذه المرحلة الحاسمة من التطبيق والنظرية الحدائين، ولكن أن الأوان لكي نستكشفها بشيء من شعورها الخاص بالقصرية والتباعد لا بأنماط المجمع، مما يعني النظر إلى المدينة الإمبريالية والراسمالية كتملح محدد في مراحل مختلفة: باريس ولندن وبرلين ونيويورك، ويتضمن ذلك النظر من حي إلى آخر في إطار المدينة، من أرض المحرومين حيث تتحرك قوى معقدة، ومن عالم الفقراء الذي كان دوماً على هامش النظرية الحضرية... لا سبيل إلى إنكار قوة التطور الحضرية، فالإشارة والتحدي اللذان يميزان عملياتها المعقدة من تحريرية واغتراب وتواصل لا يزالان على قوتيهما، ولكن لا ينبغي عرض هذه العمليات المحددة كما لو كانت كونيّة شاملة»^(٧٨) [التأكيد من عندي].

لاستكمال أطراف الإجابة عن سؤالنا السابق، نقول إننا لم نتوقف طويلاً عند الاختلاف بين الظروف، أو التطورات الحضرية، التي أفرزت الحضارة الغربية والتي أدت إلى إفراز حداثة خاصة بهذه التطورات، حداثة لم تختلف من عاصمة غربية كبرى إلى عاصمة غربية أخرى فقط، بل من حي إلى آخر داخل العاصمة الواحدة. فما بالنا بالاختلاف بين التطورات الحضرية التي مرت بها عاصمة غربية وتلك التي مرت بها أي عاصمة عربية؟ وهكذا تقبلنا المقولة الإمبريالية بكونية الحدائة وأن ما يناسب ذلك الآخر الثقافي/الحضاري يناسبنا بالضرورة وإذا ارتفع صوت ينهب إلى الاختلاف سارعت «النخبة» إلى اتهامه بالأصولية والانتمالية!

أما النتيجة الأخرى التي ترتبت على موقف الحدائين العرب فهي تحويلهم المحزن إلى «نخبة» يكتب بعضهم لبعض، ويحاولون أنفسهم، ويخاطبون أنفسهم، مما أدى إلى عزلتهم الميكرة عن الجماهير ووضعهم في

ثقافة الشرح

موقف مناقض «لثورية الحداثة»، مما لا شك فيه، وكما أشرنا في أكثر من موقع في الصفحات السابقة، أن الحداثة ارتبطت... تاريخيا، كما يقول سويدان في **جسور الحداثة المعلقة**، بحركة التحرير الاجتماعي، ولا يغلو من دلالة أن تكون قضية التحرير في رأس القضايا التي خاضتها وتعرضت لها على مستويات عدة وبصيغ شتى، لتكون الحرية في الخارج (المجتمع) كما في الداخل (الأعمال الأدبية والشعرية) المحور المركزي للنشاط الحداثي، تلتقي عنده وتدور في فلكه مجمل القضايا والمسائل الحداثية المختلفة^(٧٨). الحداثة الغربية، إذن، صنو الثورية والتمرد، لأنها ارتبطت منذ البداية بالتمرد، على القديم المألوف، والثورية أيضا هي ما أكده الحداثيون العرب منذ البداية. لكن في الوقت الذي تمثلت ثورية الشعر الحداثي الغربي مثلا، كما يرى شكرى عياد، «في الإيغال في الغموض والتجريب (أي الابتعاد عن الأشكال الفنية المعروفة)»، وهو اتجاه يرجع «إلى أن الشاعر - باعتباره منتجا في مجتمع استهلاكي وليس راثيا أو نبيا - يقدم بلغة إلى جمهور محدود من الأفراد الذين يميلون بطبيعتهم إلى العزلة. وقد يمكنهم أن يشاركوا في لعبة البحث عن معنى وراء الصور المهشمة التي ينفضها اللا شعور»^(٨٠)، وكان واقع الحداثة العربية ولورثها أمرا مختلفا. ويشير عياد إلى المازق المزدوج الذي وجد فيه الحداثي العربي نفسه في الخمسينيات والستينيات كما يجسده شعر أدونيس وتظليلاته الحديثة. في المجتمع الغربي لم يبدأ المبدع الحداثي مشلا من نقطة انفصال عن الجماهير، فأزمة الإنسان الحديث بعد الحرب العالمية الثانية لم تكن أزمة الشاعر الحداثي بمفرده، ولكنها كانت أزمة الجماهير. وهكذا حينما لجأ الشاعر الحداثي إلى التجريب والتفريب والغموض - تمردا على القديم والمألوف - كان يطمح في نهاية الأمر إلى أن يدفع الجماهير إلى مشاركته في البحث عن الصور المهشمة، أي التجريب، أي أن الحداثي الغربي كان يبدأ من نقطة اللقاء ثورية مع قرائه في حقيقة الأمر. وهذا ما لا نستطيع قوله عن الحداثي العربي أو هرائه، مما يكسب إشارة شكرى عياد في حقيقة الأمر أبعدا أكبر بكثير مما أفصح عنه الرجل الذي كان من أبرز المفكرين العرب الذين تنبهوا مبكرا لخطر الحداثة الغربية. ففي الفترة التي تبنى فيها المبدع العربي - وليكن أدونيس نموذجنا لهذه المرحلة - ثورية

الحدائة الغربية فعل ذلك في وقت - في الخمسينيات والستينيات - كانت النخبة السياسية الحاكمة فيه هي التي تتحدث عن التغيير، وتلك سمة يؤكد تورين في دراسته أنها من سمات المجتمعات المتخلفة التي تحدث فيها التغيرات الاجتماعية الحاسمة من أعلى في غيبة واضحة للتغيرات الاجتماعية الحقيقية على مستوى المجتمع نفسه، وهو عادة ما يؤدي في نهاية المطاف إلى ظهور الدكتاتورية والأنظمة الفاشية، وهكذا وجدت «نخبة» الحدائين العرب نفسها في تحالف مبكر مع «النخبة» السياسية الحاكمة. أي أنها بدأت معزولة عن الجماهير. وإذا كنا نتحدث عن جماهير ترى النخبين، الحدائية والسياسية، أنها غير مؤهلة لإحداث التغيرات الأساسية في البنى والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية بسبب أمية متفشية خلفتها وراءها عهود استعمار طويلة فإن عزلة النخبين، في مرحلة أو أخرى، تصبح أمرا حتميا؛ إذ سرعان ما يتحول الانفراد باتخاذ قرارات التغيير بالنسبة للنخبة السياسية إلى دكتاتورية سياسية قاهرة، في الوقت الذي يتحول فيه دور الريادة في الفكر الإبداعي والنقدي الحدائي إلى عملية ابتعاد مستمرة عن الجماهير التي جاءت تلك النخبة لقيادتها وتغييرها في المقام الأول، معنى ذلك أن الحدائة العربية جاءت إلى الوجود معزولة منذ اليوم الأول، وحينما فقدت الثورية السياسية براعتها المبكرة وتحولت، أو حولها البعض، عن أهدافها، كما هو قدر الثورات عبر التاريخ، تأكدت عزلة النخبة الحدائية أكثر وأكثر، بل فقد البعض، شأنهم شأن الثوريين السياسيين، براعتهم الأولى حينما قبلوا التحالف مع نخبة سياسية غير ثورية، كان ذلك هو «الكمين» أو «القبح» المزدوج الذي وجد الحدائيون العرب أنفسهم فيه منذ البداية. وربما يفسر ذلك المأزق، ولابد أنه يفسر، ضيق صدر الحدائين العرب بكل أنواع الاختلاف، ومسايرتهم إلى اتهام كل من يحاول تقديم رؤية مختلفة تفني الحوار، وربما تصحح المسار بالجهل والتخلف و«الأصولية» بديلا عن «الرجعية»!

أزمة المصطلح

كان من الطبيعي أن تبرز عمليات النقل والاستعارة - إذا كنا سنتقبل أن ما يحدث مجرد «استعارة» - من فكر الآخر في انبهار أعمالنا عن

ثقافة الشرح

الاختلاف الذي يصل إلى ذروته في وضع العملية «أو العقلانية» والدين على طرفي نقيض على أساس أن الدين فكر غيبي يتعارض مع التفكير العلمي والعقلانية، أزمة حادة في المصطلح. وتصل حدة الأزمة في أحيان كثيرة إلى درجة العبثية كما يتمثل ذلك في ترجمة مصطلح واحد هو Poetics إلى أكثر من عشر ترجمات عربية؛ وتكرر مرة أخرى ما سبق أن أكدناه في الصفحات السابقة من هذا المؤلف وفي المراتب المحدث من قبل، إن أزمة المصطلح ليست أزمة ترجمة، أي ليست أزمة نقل لفظ أو مصطلح من سياق لغوي إلى سياق لغوي آخر هو العربية. وهو طبعاً حل أو مخرج سهل يلجأ إليه الحداثيون كثيراً، مع ما يعنيه أيضاً من إلقاء اللوم على اللغة العربية، وقصورها في التعامل مع المفاهيم الجديدة أو المركبة. لكن قرائن الاختلاف التي قدمناها حتى الآن، ونستطيع أن نسبر معها شوطاً طويلاً، تؤكد أن أزمة المصطلح كانت دائماً نتيجة وليست سبباً. وسوف نتاح لنا الفرصة شبه كاملة فيما بعد للتوقف عند بعض النماذج من المصطلحات الأزمة. لكننا سوف نكتفي فقط بالتوقف عند مظاهر أزمة المصطلح ومظاهرها وأسبابها بصورة مبدئية وعامة. إذ إن مناقشة جوانب أزمة المصطلح ليست غاية في حد ذاتها، وإن كانت فوضى المصطلح النقدي الحداثي وما بعد الحداثي في اللغة العربية تكفي لتبرير التعامل بحرص وحذر شديد مع الاستعارات - والتي أسميها عمليات النقل المباشر - من الحداث وما بعد الحداث الغربية. لكن التوقف عند فوضى المصطلح «المستعار» أو المنقول يمهد لجوهر الدراسة الحالية، وهو أن قراءة التراث النقدي الغربي والاتصال به - بدلاً من القطيعة - كان كفيلاً بتجنيب المثقف العربي الكثير من مزالق فوضى المصطلح. وهنا أيضاً نشير إشارة عابرة إلى أننا لا نستطيع أن نفضل التعموض المتعمد والمراوغة المقصودة التي تميز الكتابات الحداثية العربية من أزمة المصطلح.

إن مجرد الحديث عن المصطلح يدخلنا في مفارقة جديدة من مفارقات الحداث التي لا تنتهي. فالمصطلح الذي نختلف حول دلالته وتعيين حدود وامنحة تلك الدلالة يفقد قيمته العلمية، وهذا ما يشير إليه صالح زياد في بحث أخير له بعنوان: «المصطلح الأدبي: بين غناه بالمعرفة وغناه بالتاريخ»، نشر في مجلة عالم المعرفة (مارس ٢٠٠٠)، «نفهم من معاجم اللغة عن الجذر

«من ل ح» الذي ترجع إليه لفظة «مصطلح» صريفاً، ما يدل على صلاح الشيء وصلوحه، بمعنى أنه مناسب ونافع. ثم يستعين بمدخل المعجم الوسيط: «صلح الشيء: كان نافعاً أو مناسباً، يقال: هذا الشيء يصلح لك». أما تعريف المصطلح في المعجم نفسه، كما يورده زباد، فهو «اتفاق طائفة على شيء مخصوص، ولكل علم اصطلاحاته»^(١). أهم شرطين يجب تحققهما للمصطلح، إذن، هما الاتفاق والمناسبة، أي اتفاق الطرفين اللذين يستخدمان المصطلح على دلالاته، أما المناسبة فتعني دقة الدلالة. فإذا كان المصطلح النقدي الحدائي وما بعد الحدائي يعاني أزمة في الدلالة فذلك لأنه بالقطع يفترق إلى الاتفاق والمناسبة ومن ثم يفقد القدرة على الدلالة المحددة والدقيقة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن افتقار المصطلح للقدرة على الدلالة المحددة يتنافى كلية مع روح العلمية التي كانت نقطة البداية الحقيقية للحدائيات العربية، والحدائيات العربية بالتالي. إن المشروع النقدي البنيوي برمته، في اعتماده النموذج اللغوي البنيوي في التعامل مع النص الإبداعي وتحليله أو «مقارنته»، يقوم على الطموح لتحقيق علمية النقد. أليست العلمية صنو دقة الدلالة وتحديدها؟ فليس من المعقول أن نذكر الرقم «٢» ونحن نقصد الرقم «٣»، ونتحدث عن معادلة كيميائية ونذكر «الأكسجين» كأحد أركانها ونحن نقصد «الهيدروجين» أو ثاني أكسيد الكربون. فوضي المصطلح الحدائي وما بعد الحدائي إذن، تصيب الادعاء بعلمية الحدائيات في مقتل. وبالمناسبة، ليس صحيحاً، أن فوضي المصطلح ترتبط بالترجمة. أما إذا تحدثنا عن غموض النص النقدي الحدائي أو ما بعد الحدائي - بعيداً عن فوضي المصطلح - فقل على عملية النقد السلام!

في معجمه المميز: **المصطلحات الأدبية الحديثة** يحدد محمد عناني واحداً من الأسباب المحزنة لفوضى المصطلح:

«وقد استفسل الأمر حتى أصبح «موضة» فلم يعد أحد يستخدم كلمة «مشكل» أو «مشكلة» على الإطلاق تفضيلاً لكلمة «الإشكالية»، وهي مصدر صناعي من المادة نفسها، ولها معناها المحدد باعتبارها ترجمة لكلمة أجنبية هي Problematic (الماخوذة عن الفرنسية لفظاً ومعنى)، والتي قد تعني القضية التي تجمع بين المتناقضات، فهو يفضلها لخبراتها وطرافتها، طائناً أنه

ثقافة الشرخ

بذلك ينمق أسلوبه أو ينبس عن العلم والحجاء، ولم يعد البعض يستخدم كلمة «التساؤل» أو «المعالجة» أو «المنهج» لا بل ولا الدراسة - مفضلاً كلمة «المقاربة» وهي ترجمة غريبة لكلمة Approach الإنجليزية التي لا تعني أكثر من أي من هذه الكلمات، وإن كانت قد توحى للقارئ بفيض عميم من المعرفة والتعبر في المذاهب الحديثة»^(٨٢).

إن ما يثير الألم في كلمات محمد عناني، أن البعض هي اتباعه لآخر «الصيحات» في موضة النقل يعتمد اختيار الترجمة الخاطئة لمجرد أنها «موضة»، أو لأنها توحى للقارئ «بفيض عميم من المعرفة والتبحر في المذاهب الحديثة»، وكأنه لا تكفيها الغرابة والغربة في الأفكار الحداثية الغربية في تربتنا الثقافية، وهي مكان آخر من معجم عناني القيم يشير إلى الخطورة المتزايدة لتلك «الموضة» حينما يبدأ الشباب الذين لم تتوافر لهم بعد درجة من النضج الفكري والمعرفة الحقيقية بفكر الحداث وما بسما ترديد تلك الترجمات المحرفة أمسوة بكبار أساتذتهم من الحداثين العرب.

لكن تلك مجرد قشرة «يخدشها» محمد عناني لتظهر الأبعاد الحقيقية لأزمة المصطلح، فالأزمة، كما يدرك عناني جيداً، وكما يشير في أكثر من موقع في معجمه، أخطر من ذلك بكثير. إن أزمة المصطلح ترجع إلى تركيبة متشابكة ومتداخلة من الأسباب أبرزها خصوصية المصطلح النقدي، وخصوصية الثقافة التي تنمزه، ثم نسبته المعنى عند نقل المصطلح من وسيط لغوي إلى وسيط آخر، وأخيراً نسبية المصطلح التي تحددها التغيرات أو التحولات السريعة في القيم المعرفية. ذلك الفشل في إدراك طبيعة المصطلح وأهمية الشبكة المركبة التي تحدد دلالاته وتحركها من ثقافة إلى ثقافة ومن عصر إلى عصر داخل الثقافة الواحدة، هو ما يؤكد الصكر حينما يتوقف في بعض الإطلاقة عند فضوض المصطلح النقدي العربي المعاصر. «وسوف ترينا الوقفات التحليلية»، كما يكتب الصكر، «تفنية استعمال نقادنا العرب مصطلحات هذه المناهج والتيارات، ومفاهيمها، وطرائقها التي تجربها لتحليل النصوص. وأول ما نسجيله هنا، اضطراب المصطلح وتساوت وصف الأعمال النقدية. فعبد الله الغذامي

وعبد الملك مرتاض يصفان تحليلاتهما بأنها (تشريرية) تعريبا لمصطلح (Deconstruction) الذي ترجم إلى التفكيك أو التفكيكية»^(٨٢).

أولى مشكلات نقل المصطلح ترجع إلى أن المصطلح ليس دالا يشير إلى مدلول حسي «واقعي» خارج العقل، ولكنه رمز لغوي، سواء أكان يدل على مفهوم بسيط، أو مركب، يشير إلى صورة ذهنية داخل العقل وليست خارجه، وهي حقيقة أدركها النقاد العرب القدامى، وسبقوا بذلك إيمانويل كانط الذي يرجع إليه صالح زياد في دراسته القيمة التي سبقت الإشارة إليها عن «المصطلح الأدبي»، وإن كان الفيلسوف المثالي الألماني أكثر تحديدا وتركيزا في قوله، كما يشير زياد، «إن أذهاننا تصنع الواقع، وإن كل ما يكتسبه (الواقع) من تشكيل أو تنظيم إنما يفرض عليه من أذهاننا، التي تأتي بالإطار أو القالب الذي ينبغي أن تصب فيه الكثرة من الإدراكات غير المهضومة قبل أن تتصف بالمنطقية أو المعقولة»^(٨٣). هذا التفسير المبكر لآلية الإشارة للرمز اللغوي هو الذي سيؤدي في نهاية المطاف، ومن داخل الفلسفة الألمانية نفسها، إلى المقولة التأويلية لكل من هوسيرل وهايدجر بأن الواقع الخارجي أو المادي لا وجود له إلا عند وعي المتلقي به أو أثناء الوعي به. ومادامنا قد ربطنا، وربط النقد العربي القديم من قبل، بين الدال، أو المصطلح في سياقاتنا الحالية، والمفهوم العقلي، فلا بد أن تتوحد المبركات العقلية في الثقافات المختلفة أولا، قبل أن نستطيع الحديث عن توحيد دلالة المصطلح. وقد أشرنا هنا، وفي إطالة كافية من قبل، في المربا المحذبة، إلى أن مصطلح النقد الحدائي كان إهراز فلسفة غربية تختلف جوهريا عن منجزات العقل العربي وطرائق تفكيره، دون أن يعني ذلك بالضرورة الحكم بدونية العقل العربي أو تفوق العقل الغربي.

معنى ذلك أن المصطلح يقوم، في جزء كبير منه، على نسبية الثقافة التي تفرزه، وفي ضوء تلك النسبية كان علينا أن ننظر إلى المصطلح الغربي ببعض الشك، وهذا ما يقصده مصطلحي ناصف، وإن كانت تعبيراته في هذا الصدد أقرب إلى تهويمات عامة من معانٍ علمية محددة: «النقد الغربي أسئلة كثيرة شديدة الأهمية يؤدي بعضها إلى بعض. وكل فهم للمصطلح بمعزل عن الشعور والثقافة العربية ومآثر المصطلحات الأخرى جدير ببعض الشك»^(٨٤).

ثقافة الشرح

لكن نسبية دلالة المصطلح لا تقوم على الاختلاف بين الثقافات، بين دلالة المصطلح في الثقافة المنتجة له والثقافة المستميرة له، ولكنها أيضا نسبية قائمة داخل الثقافة الواحدة في قلب استخدامات المصطلح العلمي الذي يفترض فيه دقة الدلالة ووضوح حدودها، كما سبق أن أشرنا. وقد ساهم إيقاع العصر المتزايد بشكل جنوني في تأكيد تلك النسبية. وقد أشار إلى ذلك فؤاد زكريا في فترة مبكرة، ربما تسبق الإيقاع المجنون للتطورات العلمية التي عاشها ربع القرن الأخير من القرن العشرين، فالحقيقة العلمية، كما يؤكد زكريا، «لا تكف عن التطور، فهما بدا في أي وقت أن العلم قد وصل في موضوع معين إلى رأي نهائي مستقر، فإن التطور سرعان ما يتجاوز هذا الرأي ويستعيز عنه برأي جديد»^(٨٦). إن التغيير الذي يتحدث عنه فؤاد زكريا هو سنة العلم، بينما الثبات ضد طبيعته، فالعلم، كما يرى بعض المفكرين، يمثل شكلا هرميا غير مكتمل؛ والعقل البشري يضيف من إنجازاته العلمية كل يوم إلى الهرم المنقوص، لكن الوصول إلى القمة أو مجرد معانيتها أمر مستحيل. وحينما تصل إلى قمة الهرم فإن ذلك يعني واحدا من أمرين: توقف العقل البشري عن الإضافة أو نهاية البشرية، ولهذا فإن من الخطأ، كما يسترسل فؤاد زكريا في التفكير العلمي، «أن نفترض أن العلم الكامل لابد أن يكون ثابتا، مع أن ثبات العلم في أي لحظة، واعتقاده أنه وصل إلى حد الاكتمال، لا يعني إلا نهايته وموته، ومن ثم فإن الثبات في هذا المجال هو الذي ينبغي أن يعد علامة نقص. إن العلم حركة دائية، واستمرار حيوته إنما هو مظهر من مظاهر حيوية الإنسان الذي أبدعه، ولن يتوقف هذا العلم إلا إذا توقفت حياة مبدعه ذاته»^(٨٧).

التغير المستمر في المدلول العلمي أو المشار إليه وحيويته يفرض علينا، بداية، عمليات تعديل مستمرة في الدوال ذاتها، والشئ نفسه، إلى حد كبير في المصطلحات الأدبية الجديدة التي تتعرض لترجمتها أو نقلها عن لغات أجنبية، فهي:

«تحتاج إلى ما يسمى بعملية تعديل دلالية متواصلة continual redefining of terms. والتعديل هنا أقرب إلى الضَّلُّ منه إلى التَّضْيِيب والتَّهْذِيب، فالغاية هي زيادة درجة المطابقة بين المصطلح

المرآيا المعقّرة

والمعنى المستخدم فيه. أو ضمان عدم الخلط بينه وبين غيره مما يمكن أن يؤدي إلى الالتباس أو الغموض. وعملية التعديل المشار إليها لا تتوقف في اللغات الأوروبية، ولا في لغات العالم الحية كلها ومنها العربية، ولذلك فلسنا وحدنا في تحري المزيد من الدقة والوضوح، والإصرار على الوصول بالكتابة النقدية إلى المستوى العلمي الرفيع الذي نشده^(٨٨).

أمام تلك المستويات المتعددة لنسبية دلالة المصطلح النقدي لا يتروّد شكري عياد في تأكيد نسبية أكثر مصطلحين أدبيين شيوعاً واستعمالاً، وهما: «الكلاسيكية» و«الرومانسية» على أساس أنه يصعب تقييدهما بأدب قومي بعينه، ومن ثم، فإن الاختلافات في الخصائص المشتركة لأدب قومي ما عن الخصائص المشتركة لأدب قومي آخر - وهي اختلافات حتمية - تعني بالضرورة درجة من المرونة والحرية في تحديد دلالة المصطلحين، أي نسبية دلالتهم، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، لأننا لا نستطيع القول إن ثمة مجموعة ما من المفكرين والمفكرين اجتمعت في يوم ما وافقت على دلالات محددة للمصطلحين، أي أن المصطلحين قد جاءا إلى الوجود يحملان بذور نسبتهما الدائمة، ومن هنا يتساءل عياد:

وهل يصح، مع وجود هذا الاختلاف، أن نتحدث عن «الكلاسيكية» أو «الرومانسية»... إلخ، دون أن نقيدها بأدب قومي معين وعصر معين، ما دمتا نسلم أننا بصدد أسماء مجردة فيجب أن نسلم أيضاً بأن الاختلاف وارد. فلم يحدث أن اجتمع عدد من الناس ليقروا شروطاً معينة في الأعمال الأدبية كي تسمى كلاسيكية أو رومانسية... إلخ، ولو فرضنا أن ذلك حدث فهل يمكننا أن نفرض أيضاً أن جميع الكتاب في اللغات التي تريد أن تدخل حلبة ما يسمى الأدب العالمي أعلنوا موافقتهم على هذه الشروط والتزموا بها في كتاباتهم؟^(٨٩)

وهكذا يخلص عياد إلى استحالة أن يوجد نظام واحد مشترك للكلاسيكية أو الرومانسية.

ومن هنا أيضاً يخلص صالحي زباد في دراسته الجادة إلى ضرورة القيام المستمر بعمليات تفكيك دلالة المصطلح النقدي الحديث والقديم على السواء في ضوء سياق النص والثقافة، وهو ما حدده عنائي بطريقة أقل إثارة

ثقافة الشرح

وغموضاً «بعملية تعديل دلالية متواصلة»، وإن كانت أكثر قدرة على الوصول إلى عقل المثقف العادي من كلمات زياد. يقول زياد إنه لا يد

«أن تُقدّر تلك المصطلحات في ضوء سياقها، وذلك يقتضي التفكير للدلالة الاصطلاحية المغلقة على حد ما للكشف عن النسبية والخصوص فيها، ومن ثم إعادتها إلى فضاء الاختلاف والتعدد فيما يشهده من إشكاليات المعرفة وأسئلتها، وما يحيل إليه من أنساق ومسافات في إطار موضوع البحث»^(٩٠).

عوامل نسبية الدلالة الاصطلاحية المتشعبة والمتداخلة حتى ليصعب الفصل بين مستوى للنسبية وبقية المستويات وضعت الحدائي العربي وما بعد الحدائي في قلب الأزمة منذ بدأنا عمليات «الاستعارة» و«النقل» عن الحدأة الغربية وما بعدها دون روية أو تمحيص، وهي أزمة لا تمثل الاختلافات اللغوية، من لغة إلى أخرى، أو الترجمة، إلا جزءاً يسيراً منها. وتزداد الأزمة تعقيداً حينما يحاول الحدائيون العرب تثبيت دلالات المصطلحات المستعارة والمنقولة، وحينما يواجهون بقصور المصطلح وفوضى دلالاته يسارعون إلى إلقاء اللوم على القارئ غير الحدائي واتهامه بالجهل تارة، وقصور قدراته على الفهم تارة أخرى، أو الرجعية والأصولية والانعزالية تارة ثالثة. فإذا لم يكفهم هذا السبيل من الاتهامات الجاهزة والسبقة يتحولون إلى اتهام اللغة العربية التي تجسد، في رأيهم، كل قصور العقل العربي وعجزه عن التفكير الكلي والمركب وتوقفه عند الجزئيات. لكن الحقيقة التي يتناساها البعض أن فوضى الدلالة ليست أمراً خاصاً باللغة العربية أو مقصوراً عليها، فهي في حقيقة الأمر في موقع القلب من الفكر الحدائي الغربي نفسه الذي يعاني نسبية الدلالة والاختلاف، وهي ظاهرة ترجع إلى أننا نتعامل مع «حدأة» أو ما بعد حدأة واحدة، بل مع «حدئات» وما بعد حدئات مختلفة، ويتوقع منا، داخل بيت ثقافي واحد، أن نقبل كل هذه الحدئات بجميع تناقضاتها، ويزبر عناني في الدراسة المتميزة التي يمهدها بمعجمه الأدبي ذلك الجانب للحدأة الغربية: «وسر تسمية اتجاهات النقد الحديثة بالنظرية Theory أنها تهتم بالفكر المجرد أكثر من اهتمامها بالتطبيق، وتولي الأولوية للتضاي الفلسفية في مفاهيمها ومصطلحاتها، وفي هذا ما فيه من

المرآيا المقعرة

عسر، وإن لم يكن مستغرباً، «مصادره الأوروبية من فرنسية وألمانيا - ومن قبلها الروسية وبعض لغات أوروبا الشرقية - مولعة بالترديد والميل إلى الصيغ غير المألوفة لأبناء الإنجليزية الذين يفضلون الإمبريقية والوضوح»^(٩١).

والحصول النهائية؟ إذا أضفنا كل هذه المعطيات بعضها إلى بعض، من انهيار بالعقل الغربي، واحتقار للعقل العربي، والدعوة إلى القطيعة مع الماضي، وتعتمد الغموض والإبهام والمراوغة، إما رغبة في إبهام المتلقي وإما عن عجز حقيقي في فهم النص الأجنبي المنقول عنه إلى العربية، إلى جانب الرغبة في التباهي بعمق المعرفة، ثم الانتماء الأكيد إلى نخبة اختارت عن وعي عدم مخاطبة الجماهير أو القارئ العادي، إذا أضفنا هذه العوامل بعضها إلى بعض، أدت في نهاية الأمر إلى أن «ألح البعض على هذه المصطلحات وطلق الكتاب يستخدمونها عن علم وعن غير علم، وبالفعل في الزج بها في كل مجال واشتقاق الجديد منها، حتى غدت عسيرة التناول صعبة الفهم، ودفعت بالكثير من شباب الدارسين إلى اليأس بعد أن حيرت الكبار وأرهقتهم»^(٩٢).

فبالإضافة إلى تأكيد الحداثة العربية للتبعية الثقافية التي أفرغت الثورة أو التمرد الحداثي المبدئي من مضمونه بعد أن حولتنا إلى قطع من الشطرنج تحركها مصالح الإمبريالية الجديدة تحت عباءة الكونية والعولمة، وإلى راقصين يتواثبون في فوضى مع أنغام عازف دفعت أجره مبكراً ومقدمات المخايرات الأجنبية، الغربية والشرقية على السواء، يضيف الحداثيون وما بعد الحداثيين العرب إلى خطاياهم، خطيئة جديدة، وهي العبث بالعقل العربي.



من النتائج إلى المقدمات

في الفصل السابق عن «ثقافة الشرخ» يمكن القول إن المؤلف بدأ من نهاية قضيته. كان التركيز على وصف جوانب الشرخ المختلفة، وكانت القرائن نظرية أكثر منها تطبيقية. فقد أجّلنا الحديث التفصيلي عن القرائن إلى الفصل الحالي. أي أننا بدأنا بالنتيجة وفتقل هنا إلى المقدمات التي وفقنا أمامها في زهول أحياناً وفي ياس أحياناً أخرى. الزهول لأننا لا نتصور أن تختار ثقافة ما، عن طوعية وبكامل إرادتها، في لحظة انكسار عابرة، أن تتنازل بالكامل عن هويتها، لأن هذا ما حدث في ربع القرن الأخير من القرن العشرين على الرغم من كل دعاوى «الاستمارة» و «التزاوج». وفي ذلك تبنى أصحاب النقد الحدائي وما بعد الحدائي العربي مصطلحاً تقديماً لا هو عربي ولا هو غربي لأنه، من ناحية انتقل بمواقفه المعرفية التي تختلف عن القيم المعرفية للثقافة الجديدة التي نقل إليها، ولأنه، من ناحية ثانية، تعرض في أثناء الانتقال إلى عملية تشويه وتحريف

«فل شهم بعض الحدائين
الحدائى الغربية حقيقة وإلا
كانوا قد فهموها فهل نجحوا
في توصيل ما فهموه إلى
المثلى العربى المستهدف
بالتحديث...»

المؤلف

وسوء فهم. وزاد الملمن بلة أننا حينما انتقلنا إلى التطبيق أو التعامل مع الإبداعات العربية مستخدمين أدوات الحداثة وما بعد الحداثة النقديتين دخلنا مرحلة الفوضى الكاملة. فالمصطلحات التي لم يتم حتى اليوم الاستقرار أو الاتفاق على دلالات بعضها، ثم تعرضت للتشويه والتحريف والابتسار. بل سوء الفهم الواضح، استُخدمت في تحليل قصيدة/قصائد عربية لا تتجملها أو تطبيقها. وزاد حدة الشعور باليأس والإحباط بعد أن طرقت أبواب قرن جديد، بل ألفية جديدة، دون أن نستطيع أن نجيب عن تساؤل بسيط: «من نحن؟».

هل يوجد بصيص من النور، أي بصيص وأي نور، في نهاية نفق طويل قضينا في ظلماته حتى الآن ما يقرب من قرن كامل، منذ السنوات المبكرة من القرن العشرين حتى نهايته؟ إن المناخ الثقافي في نهاية القرن يؤكد أنه لا يوجد حتى الآن أي بصيص نور في النفق المظلم. كان الاتجاه نحو الغرب، كمنطلق للتحديث في مطلع القرن العشرين بعد عصر انحلال طويل، له شرعيته. ثم إن ذلك الاتجاه نحو الغرب، حتى عند الذين جمعوا بين طريفي ثنائية الانبهار بالغرب واحتقار منتجات العقل العربي، لم يصل إلى درجة النقل الكامل والمباشر والصريح لفكر الغرب أو الارتواء الكامل في أحضانها، أو «الاندماج» فيه، كما يقول شكري عياد. لكن ما حدث كان عمليات تأثر بمنجزات العقل الغربي ودعوة إلى التزاوج بين ثقافتين، وكان من المفروض، وبتطوير منطقي لسير الأمور، أن ينتهي القرن وقد طورنا فكراً نقدياً، بل حداثة عربية من الداخل، لكن ما حدث، وبسبب النكسة العارضة (هزيمة ٦٧) تحول التأثير إلى الاندماج في الآخر، وهو اندماج لم يزد الأمور وضوحاً، ولم يجذر الاستتارة التي رفعها بعض الحداثيين شعاراً لاتجاههم. إن الإنسان لا يستطيع أن يعتمد على «الاستعارة» إلى مالا نهاية، ولا بد لكي يبقى على قدرته على «العمل» أن يصل إلى مرحلة يقف فيها على قدميه هو، ويستغني عن «الاستعارة»، بل التأثير عن طريق تطوير عطاء خاص به، يؤكد عن طريقه استقلاله، ويتحول من التأثير إلى التأثير. المارقة أن «الاستعارة» وهي مشروع له شرعيته، ليس في ذلك شك، بدلا من الاعتماد على «العقلانية» المقبولة تحولت إلى تبني الفكر الغربي بعدته وعتاده، وهكذا زادت الأمور إظلاماً بدلا من «إنارتها»:

من النتائج إلى المقدمات

«وهكذا نجد أن طريقة تعامل الكثيرين من المثقفين العرب مع العلوم الجديدة القادمة من الغرب خلال العقود الأخيرة كان لها نتائج سلبية خطيرة من بينها أننا أضعنا حوالى عشرين عاما في مناخ غامض وملتبس لا يؤدي إلا إلى البلبلة وسوء الفهم، وقد نتج عن ذلك كم هائل من الكتب الغربية المستعجمة أو المبسرة التي تزيد الظلام (ظلاما بدلا من أن تثير شمعاً أو توضح فكرة)»^(١).

قد يرى البعض أن المقالة التي افتتحنا بها هذا الفصل عن العتمة الكاملة في نهاية النفق إسراف غير مبرر في التشاؤمية، وفي رفض المؤلف المطلق للآخر و«انعزاليته» المشرطة - وهو الذي تلقى تعليمه في الغرب - مبالغة في تصوير قتامة الصورة. لكننا سنخصص الفصل الحالي بالكامل لنماذج تطبيقية تبهرهم على أن الصورة أكثر فوضوية وتشاؤمية مما قد يتصور الكثيرون. ومرة أخرى، نبدأ من نقطة النهاية فقد يتفق معنا البعض حول خطورة المنحنى الذي وصلنا إليه في تأثرنا الكامل بالفكر الحدائني وما بعد الحدائني الغربي. لننوقف معا عند مفردات جملة عربية واحدة كتبها حدائني عربي كبير في محاولة لفك طلاسمها، أو «شفراتها»، بلغة الحدائنة:

«إن هذا التخصص والتعميم، والتطبيق والتوسيع سينعكسان على تعاريف التشاكل فعند «جرباماص» هو «مجموعة مترابطة من المقولات المعنوية (أي المقومات) التي تجعل قراءة متشاكلة للحكاية، كما نتجت عن قراءات جزئية للأقوال بعد حل (إيهامها، هذا الحل نفسه موجه بالبحث عن القراءة المتشعبة»»^(٢).

إننا أمام أفكار تستعصي على الفهم، وكأن الناقد قد دخل في عملية تحد مع قارئه ولم يدخل معه عملية تواصل أو توصيل. ومهما قلنا الجملة القصيرة وحللتنا شفراتها، ومهما قدمنا أو أخرنا أو جزأنا الجملة القصيرة نظل ظلمنا يستعصي على الفهم والدلالة، ولن نكون مبالغين إذا قلنا إننا لن نواجه بالمشكلة نفسها أو التحدي إذا رجعنا إلى نص فرنسي لجرباماص نفسه، وهنا أذكر بما سبق أن أشرت إليه في سخرية في المراتب الحديثة من أدبي، «وقد تحقق لي قدر معقول من الثقافة والتعليم، ولابد أنني أمتنع بعد أدنى من الذكاء مكنتني من الحصول على أعلى درجة علمية في تخصصي، كنت أقرأ كتابات الحدائين العرب وأقف أمامها عاجزا بسبب ما أتصوره

عجزاً عن الفهم، أو غباء طليعيًا أو مكتسبًا، أو حتى جهلاً، وكانت المفاجأة أن عددا كبيرا من الأساتذة الجامعيين المرموقين، والذين لا يشاركونني بالقطع غيائياً أو جهلياً - أو الاثنين معاً - عبروا في أكثر من مناسبة عن شعوري نفسه بالعجز لمدة عشرين عاماً. كانوا، مثلي، لا يفهمون ما يقرأون للحدثيين العرب، وحينما تستعصي النصوص على أفهامهم، كانوا يفعلون كما فعلت أنا بالضبط: يشعرون بالرهبة أمام ما يقرأون بل ويفتحون باللائمة على جهلهم وغيائهم. الفارق الجوهرى أننى، في رأي هؤلاء الأساتذة، واتقتي الشجاعة على الاعتراف بذلك، ولم يكن من قبيل المصادفة - ولا يمكن أن يكون كذلك، بعد أن اتضع أننى كنت أعبر عن رأي أغلبية صامتة - أن يكتب أستاذ آخر حول الموضوع نفسه وبالتفصيلات الدقيقة نفسها لموقفى، قبل ظهور المرايا المحببة بأربع سنوات. ففي معرض حديثه عن إحساسه بالعجز والقصور أمام نص حدائى عربى، يذكر حامد أبو أحمد، أنه عاد إلى النصوص الأجنبية (الإسبانية) التى أخذ عنها ومنها التناقد الحدائى العربى، فوجد ذلك اختياراً أسهل من اختيار التعامل مع النص الحدائى العربى الطلسم. وهكذا يتساءل أبو أحمد: «وهل كل القراء العرب مطالبون بأن يعودوا إلى المصادر الأصلية يقرؤونها في لغاتها ثم يعودون إلى ما نقله مؤلفنا عنها؟ وهل صارت هذه هي المنهجية الجديدة في تأليف الكتب؟»^[7]. وهنا يفرض تساؤل آخر نفسه، كان أبو أحمد أكثر كرماً من أن يضيفه، وهو: «إذا كنا لا نستطيع فهم النص الحدائى العربى، ولابد لنا من العودة إلى النص الأجنبى أو النصوص التى أخذ عنها الحدائى العربى أو نقل حيث سيكون حظنا في الفهم أفضل بكثير من حظنا مع النص العربى «المستعار» أو «المنقول»، فلماذا يلزمنى قراءة النص العربى في المقام الأول؟ وهل هناك حاجة حقيقية لأن أفعل ذلك؟».

لقد وصلنا في الواقع، مع نهاية قرن من التأثير والاستعارة والنقل وبداية قرن جديد، إلى نقطة تتطلب منا مراجعة كل الأفكار القديمة والجديدة في أرشيقنا الثقافى. إننا بحاجة إلى مراجعة كل شيء حتى نستطيع أن نحدد أولاً «أين نقف» قبل أن نقرر اختياراً بعينه يوصلنا في النهاية، حتى وإن كره البعض، إلى: «من نحن». وهكذا يصبح فتح ملف علاقتنا بالآخر الثقافى عامة، وبالحداثة الغربية وما بعدها خاصة، ضرورة مصيرية. وهو ما سنفعله إلى درجة كبيرة في الفصل الحالى من الكتاب، مع الاتجاه نحو مناقشة

من النتائج إلى المقدمات

التطبيقات الفعلية والابتعاد عن تطبيقات الفصل السابق، سيثير البعض اعتراضاً: إذا كنا سنحاكم العقل العربي في علاقته بالآخر الغربي، فلماذا كل هذا التركيز على الحداثة؟ لماذا نرفض ذلك الآخر الثقافي منذ البداية، منذ السنوات المبكرة من القرن العشرين؟ الإجابة المنطقية الوحيدة أننا، بعد أن وصلنا إلى المنعنى الحالي الخطير في علاقتنا بالغرب، وتحولنا عن «التعلم» منه إلى «الاندماج» فيه، أصبحنا مهددين بالانمحاء - وارتباط الحداثة العربية بالهيمنة والسيطرة أمر يعترف بعض المفكرين الغربيين أنفسهم به - ثم، وهو الأهم، إننا اليوم لا نملك تغيير اختيارات الماضي، سواء كانت اختيارات العقاد والمازني أو نعيمه أو طه حسين أو لويس عوض أو رشاد رشدي، لكننا اليوم مازالت أماننا فرصة للاختيار قبل السقوط في هوية التبعية التي يعلم الله وحده متى نستطيع أن نفلت من إسارها. وقد أصبح ذلك الاختيار أمراً لا مفر منه بعد أن ربط الغرب، كما يرى آلان تورين، بين التحديث والحداثة، «فالتحديث هو الحداثة في حالة التنفيذ»، وكان «الحداثة» في نسخها الغربية جزءاً من صفة التحديث ولا يمكن فصل الأولى عن الثانية، خاصة أن الأصوات التي تنادي بذلك الفصل تقابل «بالرد ذي الصلاقة الساذجة من قبل الغرب الذي تنزعمة الولايات المتحدة، بأن التاريخ قد انتهى»، وأن النموذج العقلاني قد حقق انتصاراً كلياً على المستوى الاقتصادي وأيضاً على المستوى السياسي⁽⁴⁾. إن جوهر الادعاء الغربي بنهاية التاريخ تعني أن سيادة العقل - ماركة غربية مسجلة باسم الغرب وحده! - قد حققت في نهاية الأمر النموذج الاقتصادي والصناعي والسياسي الأمثل، وما على القوميات الأخرى إلا أن تستورد ذلك النموذج النهائي.

والغريب أنه في الوقت الذي أدركت بعض القوميات خطورة الحداثة الغربية، كما حدث في الهند وفي بعض دول أمريكا اللاتينية، فإننا في العالم العربي مطالبون بتقبل الحداثة الغربية، والأفكار التي تشعبت عنها، باعتبارها المنقذ الجديد من الضلال والمخلص من ظلمات العصور الوسطى. صحيح أن رفض الحداثة الغربية كاختيار وحيد سوف يؤدي - كما أدى في مناطق معروفة من العالم - إلى الاعتزالية والانغلاق والتزمّت أو التشدد الأصولي. لهذا فإن الرفض في حد ذاته ليس خياراً مطروحاً. ولكن يجب أن يكون هناك اختيار ثالث يحقق «التحديث»، بل حتى تحديث العقل العربي ذاته في آليات ومناهج أدائه، دون أن

يؤدي ذلك بالضرورة إلى قبول مقولات الحداثة الغربية من ناحية، أو أصولية متزمتة تقهر الذات وحرية التفكير والتعبير من ناحية أخرى.

لكن البديل الثالث الذي تجاهلناه حتى الآن لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تحقق الفهم الكامل للحداثة الغربية حتى نختار ما يقني الفكر العربي من ناحية، ولا نقع في محاذير الشك الكامل الذي يقول الجميع إنه أصبح الحقيقة الوحيدة اليوم، من ناحية ثانية. والفهم الصحيح للحداثة الغربية وما بعدها هو الضمان الأول للتوصليل الجيد لما نريد توصيله إلى الجماهير التي تستهدف، تحديتها، ولا سيظل الفكر الحداثي مقصوراً على «النخبة» يكتبون لأنفسهم ويصوبون في أنفسهم ويبتعدون إلى حد الاعتراّب عن الطبقة المستهدفة الحقيقية، وهي الجماهير العربية، فليس من الحقول أن يحاول المتعلم - الحداثي العربي - تعليم بالتفعل - حداثي آخر.

لنتفتح إذن ملف الفهم والتوصيل. هل فهم بعض الحداثيين الحداثة الغربية حقيقة؟ وإذا كانوا قد فهموها هل نجحوا في توصيل ما فهموه إلى المثلي العربي المستهدف بالتحديث، وهو المثقف العادي. ولنقتل من أكمل تعليمه الجامعي على الأقل، وليس عضو «النخبة» الحداثية؟

ولنا هنا وقفة لابد منها. يدرك المؤلف جيداً أن ما سيكتبه في الصفحات التالية، وما كتبه بالفعل في صفحات الفصل السابق، سيغضب الكثيرين وسيؤلب عليه الجميع، الحداثيون على الأقل. لكنني أعترف أنني منذ نشر المرايا الحديثة، ومنذ بدأت العمل في الدراسة الحالية كان أمامي خياران: الخيار الأول: أن أكتب ما أريد دون ذكر المؤلفين أو مؤلفاتهم أو الاقن معاً. أما الاختيار الثاني فهو الاختيار الذي اتبعته في هذه الدراسة، وهي الدراسة السابقة، وهو التوثيق الكامل لكل ما أكتبه. كان الاختيار الأول بالطبع اختياراً آمناً مضمون العواقب، فلن أسمى أسماء ولن أذكر مصادر، ولن أغامر بدخول «عش الزنايير»، ويحضرني هنا تعليق أحد الأساتذة الذين أجّهم بعد أن قرأ المرايا الحديثة وأبدى إعجابه بالكتاب وجرأة الباحث، ثم أضاف: «وإن كان لم يكن هناك داعٍ لذكر أسماء»، أراد الأستاذ أن أحجب الأسماء والمصادر، وقد قلت إن ذلك اختيار سهل وآمن، ولا أخفي على القارئ أنه راودني مراراً في أثناء شهور الإعداد الطويلة للدراسة الحالية! لكن أي بحث علمي هذا؟ هل حدث أن قرأ أي مبتدئ في البحث العلمي كتاباً أو بحثاً أو مرجعاً دون توثيق علمي

من النتائج إلى المقدمات

حقيقي يسمى الناس فيه بأسمائهم والمصادر بعناوينها والكلمات بمسححاتها؟ إن التهرب من التوثيق الكامل قد يعني أنه لا يوجد ضمان حقيقي في صحة الإحالة المرجعية، فمن الذي يضمن للقارئ أن مقولة ما ينسبها الباحث لاسم مجهول ومؤلف مجهول صحيحة وغير «مفبركة»؟ إن على من يخشى التعبير عن رأيه ألا يكتب بدائية.

لكن مجرد ذكر النصيحة الصادقة والحنانية، بل مجرد افتراض الخيارين في حد ذاته يجسد الحالة المساوية التي تردى إليها الحوار بين المتقنين في العالم العربي بعد أن وصل الأمر إلى مصادرة حق الاختلاف، وما فعله مؤلف المراسل الحديثة، وهو ما يفعله في الدراسة الحالية، ليس أكثر من ممارسة حق الطبع والمشروع في الاختلاف، ولا أعرف كيف نصيب بالاختلاف من داخل صنفون في الوقت الذي ننقل فيه كل فكر الآخر الأجنبي بقضيه وقضيضه بكل اختلافاته؟ لكن المشكلة الحقيقية تتمثل في أننا استسلمنا لفترة طويلة، أطول من اللازم في الواقع، لأحادية في الرأي حولت نخبة النخبة من الحداثيين إلى أنصاف آلهة لا تتسع صدورهم لممارسة الآخرين للحق نفسه الذي مارسوه هم أنفسهم حينما رفعوا شعار القطيعة مع التراث وتحولوا إلى العقل الغربي في انبهار. «إن ثقافتنا الحالية»، يؤكد حامد أبو أحمد، «تفتقر اقتضارا شديدا إلى الحوار البناء، ومن ثم صار كل إنسان يقول ما يقوله، أو يزعمه ولا أحد يواجهه بالحوار أو الرد أو يقارعه بحجة ودليلا بدليل، ولهذا أصبحنا في حالة ركود شديد السوء»⁽⁵⁾. هل يحتاج المؤلف إلى تأكيد ما هو مبني؟ إن الاختلاف الذي يمارسه لا يعني بالضرورة اتهام الآخرين بالجهل أو القصور أو التقصير، ولا يعني بالضرورة أيضا أن رأي المؤلف هو الصواب بينما الآراء الأخرى خاطئة، إنه مجرد اختلاف في الرأي. وإن كنت أعرف معرفة يقينية أن كلماتي هنا لن تمنع البعض من اتهام مؤلف المراسل المقصرة بالرجعية والأسوئية والانحياز إلى بل بالجهل والغباء!

بعد هذه الوقفة التي لا أظن أنها ستفيد كثيرا في التخفيف من حدة المعركة القادمة لا محالة، دعونا نتوقف عند نماذج للكتابة الحداثية العربية المعاصرة لنرى درجة استيعاب الحداثة الغربية عند البعض - ولا أقول الكل - وما ترتب على ذلك من قدرة مقابلة على التوصيل، ثم تعتمد البعض، ومن أتبع لهم فرصة الفهم الحقيقي لماضية الحداثة الغربية، الغموض والإبهام

والمراوغة المقصودة. وسوف نتوقف في بعض الإطلاة عند نماذج لسوء فهم النص وسوء نقله إلى اللغة العربية. بعد ذلك سوف نختر بعض نماذج من المصطلح النقدي الحدائي وما بعد الحدائي كاملة لقوضى الفهم وقوضى النقل ثم قوضى التطبيق.

ربما يكون من المفيد أو العملي أن نعمل مشكلة تهدد بالتحول إلى ظاهرة، خاصة عند جيل الشباب الذين لم تتج لهم القدرة على التعامل مع نصوص حدائية مكتوبة بلغات أجنبية - لماذا هذا اللق والدوران؟ ولماذا لا نقول مباشرة: من لا يجيدون لغة أجنبية؟ الظاهرة التي بدأت بالفعل أن الإنسان يقرأ بحثاً أو مقالاً حدائياً بالعربية وعندما يتوقف عند المصادر والهوامش يكتشف أنها تخلو من أي مراجع في لغتها الأصلية، أي أن كل مراجع الباحث الحدائي الشاب مراجع مترجمة وأخرى مؤلفة بالعربية وبين النوعين يضع الباحث والبحث العلمي، وتزداد صورة الفكر الحدائي وما بعد الحدائي غموضاً، بل ابتعاداً مؤسفاً عن المعاني الأولى. وسوف نتحدث بالتفصيل عن سوء الفهم والترجمة، مما يعني أن الباحث الشاب يقيم بحثه ويعضد رأيه - بالعنجهية والغطرسة والتأله نفسه الذي يمارسه أساتذته - على آراء مشكوك في صحة نقلها أو فهمها. وكأننا هنا أمام السلم الأفلاطوني المعروف الذي يرى أن الفن محاكاة لمحاكاة الحقيقة، وفي كل مرحلة تنتقل فيها الحقيقة في الحركة النازلة المعاكسة إلى المرحلة التالية تفقد بعضاً من «حقيقتها». وهكذا نجني كتابات بعض الحدائين الشباب، من غير القادرين على التعامل مع المصادر الأولى للفكر الحدائي، محاكاة لمحاكاة أو تشويهاً لتشويه الحقيقة!

الغموض

غموض الكتابات الحدائية العربية نوعان: غموض غير مقصود وغموض مقصود متعمد. الغموض غير المقصود من النوع الذي لا يفتقر، فمن ناحية النتيجة فإنه يؤدي إلى تشويه الأفكار والمفاهيم الأصلية. أما أسبابه فهي الأخرى لا تقتصر لأنها تشأ إما عن سوء فهم النص الحدائي وإما عن سوء نقله إلى العربية، وفي معظم الأحيان عن الالتئب معاً. وسوء الفهم أو تشويه المعنى الأصلي له هو الآخر أسبابه. السبب الأول أن الحدائة الغربية إفراز

من النتائج إلى المقدمات

مباشر للفلسفة الغربية الحديثة عبر ثلاثة قرون من التحولات الفلسفية الكبرى. وتمثل المرحلة الأخيرة، منذ ثلاثينيات القرن العشرين على الأقل، أو قبل ذلك بسنوات قليلة، بداية مدرستين فلسفتين ألمانيتين بالفتي التعقيد وهما الظاهراتية والتأويلية أو الهرمنيوطيقية ورمزهما «هوسيرل» و«هايدجر» و«جادامر». ولست بحاجة إلى القول إن الظاهراتية والتأويلية تمثلان تحدياً فكرياً للعقل العادي. وقد ناقشت العلاقة بين الفلسفة عامة، والظاهراتية والتأويلية خاصة، وبين المدارس النقدية الجديدة في إسهاب موفظاً في المرایا المحدية من قبل. أما السبب الثاني فهو أن الحدائنة النقدية وما بعد الحدائنة تمثلان مرحلة جديدة في تاريخ النقد التطبيقي يدعي فيها الحدائيون وما بعد الحدائيين أن النص النقدي لا يقل أهمية عن النص الإبداعي، وأن القول إن لغة النقد لغة ثانية قول مغلوط لأن لغة النقد هي الأخرى لغة أولية Primary، ولتأكيد ذلك تعتمد الحدائيون وما بعد الحدائيين الغربيون إلى اختيار الغموض والمراوغة أسلوباً للكتابة حتى يجهد القارئ عتقه في فهم النص النقدي وإن أدى ذلك إلى ضياع النص الإبداعي. الغموض والإبهام والمراوغة إذن اختيار مقصود ومدرك حتى تلت لغة النقد النظر إلى نفسها. ولهذا تمثل قراءة إستراتيجيات ومشاريع النقد الحدائي وما بعد الحدائي تحدياً حقيقياً أمام الحدائي العربي الذي قد لا يكون معداً لغوياً أو ثقافياً للتعامل معها، مما يعني أن الكتابة الحدائنية العربية هنا تضيف غموضاً جديداً - في اللغة العربية - إلى الغموض الأول الذي يرجع إلى طبيعة الحدائنة الغربية وما بعدها، وليذهب القارئ العربي بعد ذلك وبسبب ذلك إلى الجحيم! فإذا فشل في فهم النص، فإن القصور، من وجهة نظر الحدائيين العرب، قصوره هو وليس قصورهم هم!

أما الغموض المقصود في الكتابات الحدائنية العربية فهو مجازة واعية مدركة لغموض النص الحدائي في لغته الأصلية تأسيساً على مبدأ لفت لغة النقد النظر إلى نفسها. هذا مع افتراض أن الحدائي العربي الذي يختار الغموض أسلوباً متعمداً قد فهم النص في لغته الأصلية بالكامل قبل أن يبدأ الكتابة بالعربية. أما إذا لم يستطع فهم النص في لغته الأصلية - وكثيراً ما يحدث ذلك - فإن تعتمد الغموض هنا يضيف خطيئة ثانية لا تقتصر إلى خطيئة أولى لا تقتصر هي الأخرى!

في سياق الحديث عن التلقي ترجع لطيفية إبراهيم في دراسة أخيرة لها، «اتجاهات تلقي الشعر في النقد العربي المعاصر» نشرت في مجلة علامات (مارس ٢٠٠٠) إلى نص عربي - يفترض أنه كذلك - لسليمان عشراني يعرف القراءة. وكان لابد من التوقف أولاً عند عنوان البحث الذي أخذ منه النص وتعني به بحث عشراني، عنوان البحث بالحرف الواحد: «قراءة القراءة؛ الخطاب القرائي.. وأدبية القراءة والتلقي»؛ ولا أخفي على القارئ أنني شخصياً حينما أواجه بعنوان بهذه التركيبية الفريدة، حيث ترد لفظة «قراءة» في أربعة تركيبات لغوية ودلالية مختلفة، لابد أن أتوقف أمامه في ريبة وتوجس، الكثير من الريبة والتوجس في الواقع. إن تجربة بسيطة لإبراز العلاقات بين مفردات العنوان واستبدال بعض المفردات التي اصطلاح عليها الحداثيون العرب ببعض الألفاظ التي وردت في العنوان مثل «الخطاب» و«القرائي» و«أدبية» سوف توضح لنا عمق الهوية التي تردينا فيها، بعد أن أصبح موقفنا من ثقافة الآخر ومن استخدامنا للغتنا موقفاً عيشياً كاملاً؛ فأننت أمام نص، كما سبق أن كتب شوقي ضيف، لا هو بالعربي ولا هو بالأعجمي. والقموض الذي يجسده عنوان البحث هنا لا يمكن أن يكون إلا مقصوداً! لكن إذا كان قموض العنوان مقصوداً فما يرد في مقدمة البحث ذاته لا يمكن إلا أن يكون غير مقصود، لأنه يجسد عدم فهم المصادر الأولى، إذ إنه، في نهاية الأمر في اللغة الجديدة لا يعني شيئاً؛ وإذا كان يعني شيئاً ما فإنه في بطن الكاتب، ومن ثم يستعصي على فهم القراء أمثالنا يقول سليمان عشراني، على مسؤولية لطيفية إبراهيم التي لا تعين بداية المقتطف أو نهايته (١)، ولهذا فهي مسؤولة علمياً عن دقة الاقتطاف أو عدمها، فإذا لم يكن السياق التالي هو سياق عشراني، فلا بد أنه سياقها هي:

«حيث يغدو النص المطروح يباين من مستويات مختلفة ذاته، حيثما تمثل تلك الذات أمام فعل القراءة - التلقي؛ إذ يصبح النص كما أصدره الباحث، غير النص الذي انتهى إليه القارئ [حتى الآن ومع قليل من الغناء يمكن وضع أيدينا على معنى، وهو أن النص الذي يكتبه المبدع غير النص الذي يصل إلى المتلقي]؛ وذلك لأن قراءة نص مرسومة قبلاً في هذا النص؛ [وحتى هذا أيضاً يمكن فهمه وإن كان يتعارض مع نظرية التلقي بعض الشيء لأنه يقول إن النص يحمل

من النتائج إلى المقدمات

قراءاته المختلفة واللانهائية، مما يعني منطقياً أن النص هو المرجع الأول] إذ تأتي الكتابة مبجلة بتفكير نقدي، لكن أن تتمكن هذه القراءة، وهذا التفكير النقدي [لاحظ أن القراءة هنا فعل القارئ أما التفكير النقدي، كما أشار الكاتب في الجملة السابقة فهو في النص] من أن يظهر، أو يرتسم بياضاً على سواد [لا بد أن المقصود هو «يتضح»] فإن ذلك لا يكون إلا بالقراءة. [أي أن القراءة لا تتضح إلا بالقراءة، لا تعليق] إذ تغدو القراءة وريضة نقدي خيالاً، [للهذا] وهذا يعني أن القراءة هي فكرة النص، لكنها ليست مكتوبة، إنها القابل، كما يعني أن القراءة يتموضعها في الأماكن الشاغرة، توجد في الاختلالات والانكسارات وليس في الإفضاءات النقدية الخرساء^(١).

ولست في حاجة إلى التذكير بأن التعليقات بين الأقواس ليست كلمات عشوائية أو لطفية إبراهيم بل مؤلف كتاب المراسم المتعرة الذي حاول أن يفهم شيئاً وسط هذا الكم من التداخلات والتناقضات وسوء الفهم. ولماذا نذهب بعيداً لنقرأ المصادر الثواني وهي المصادر التي اعتمدت عليها لطفية إبراهيم ولا ننظر إلى كلماتها هي باعتبارها مصدراً الأول لنرى مدى فهمها للنظرية اللغوية التي تكتب عنها ثم مدى قدرتها على توصيلها في لغة عربية مفهومة؟ وهنا يجب أن نلتصم العذر مقدماً لطفية إبراهيم، فهي تعتمد على نصوص عربية عن الحداثة الغربية وما بعدها، فإذا كانت مصادرها العربية تقدم الحداثة الغربية مشوهة بل بلغة تستعصي على الفهم، فلا مفر من أن تضيق كتابتها هي الأخرى تشويهاً جديداً إلى التشويه الأول، ولنتذكر، مرة أخرى سلم أفلاطون، فما تقدمه الباحثة هنا ليس أكثر من محاكاة لمحاكاة الحقيقة المثالية (الأصل). وإذا كان ذلك كذلك، فلا بد أن تكتب لطفية إبراهيم على النحو التالي:

«وبالتالي: لا يمكن للموضوع الجسماني أن يكون مطابقاً مع أي واحد من تمظهراته في أثناء مدة القراءة [لم تحدد إذا كانت تمظهرات الموضوع عند المتلقي أقل أو أكثر]. ويستلزم النقص في كل تمظهر على حدة [إذن فهو أقل، هل قصد عدم اكتمال الدلالة في وعي المتلقي، أم قصد الفجوة بين الكاتب والمتلقي؟] وجود بعض التراكمات [في النص] التي تعمل بدورها على نقل النص إلى وعي القارئ. [هنا تكتمل

حيث أننا، لأن هذه الكلمات تعني أن النص هو المرجع الأول والأخير، وهذا يتعارض مع فكر التلقي [و مع ذلك فإن عملية التركيب ليست متقطعة،] لا يعرف إذا كانت تقصد التراكيب السابقة داخل النص، أم تقصد تجميع وتركيب الدلالات داخل وعي المتلقي [بل تتواصل خلال كل مرحلة من مراحل وجهة النظر الجواله^(٧)].

وإلى نموذج آخر.. أعرف أن البعض، حتى من بين الذين قد يتفقون مع وجهة نظري، قد يضيّق بالإطالة هنا. لكن تعدد النماذج والأمثلة هنا يقصد منه تأكيد عمق الهوية الثقافية التي وصلنا إليها من ناحية، ثم الرد على بعض ما قيل عن المرايا المحدبة، والذي قد يثار في وجه الكتاب الجديد، من أن المؤلف توقف عند بعض النماذج القليلة وأن رؤيته زائفة واستنتاجاته غير منطقية، لأنه يستطلق الجزء بما يجب ألا يتعلق به إلا الكل، من ناحية ثانية. ثم إن بعض هذه النماذج يقدم أحياناً قراءة ممتعة لا تقتضيها الطرافة إذا استطلعنا بعد قليل من القراءة، ألا نأخذها بكثير من الجدية، ونظرنا إليها باعتبارها تخفيفاً كوميدياً لموقف عبثي بالغ القتامة، لكننا في الوقت نفسه، لا نملك أن نتجاهل أن هذا التخفيف الكوميدي Comic relief من نوع «المضحكات المبكيات». لقد توقفنا في مرحلة محاكاة محاكاة الحقيقة الأفلاطونية، عند مرحلة باحث شاب أو باحثة شابة تعتمد على مصادر عربية تشبه الفكر الحدائثي الغربي - المشوش أصلاً - ومن ثم يجيء ما يكتبه أكثر تشويها لتلك الحدائث الأولى. ولا مناص هنا من التفكير في مرحلة ثالثة نجد أنفسنا عندها أمام محاكاة محاكاة الحقيقة الأولى، أي أن ننزل على السلم الأفلاطوني ثلاث درجات أو ثلاث مراحل (three removes) بدلاً من مرحلتين. وهي المرحلة التي يتعامل فيها مثقف عربي عادي، سبق أن حددنا أنه من أكمل تعليمه الجامعي، مع نص أخير من هذا النوع، ولنا أن نتصور فهمه للحدائث بعد أن اكتمل تشويهاها! فإذا تحول ذلك الشاب إلى الكتابة الحدائثية، وهو ما سيحدث بالطبع مع البعض، فإن سلم التشويه يصبح لا نهائياً! إن الأمر أخطر مما قد يتصور البعض، فإن ما يحدث لا يمكن وصفه بأقل من العبث بالعقل العربي ومستقبل أمة كاملة!

أما عن القموض المقصود لذاته وفي ذاته لإيهام القارئ بعمق المعرفة من ناحية، ولتأكيد إبداعية النقد من ناحية ثانية، فحدث عنه ولا حرج. وقد قلنا

من النتائج إلى المقدمات

إن الغموض حينما لا يتعمده الحدائي وما بعد الحدائي الغربي يرجع عادة إلى ارتباط النقد الحدائي بمدارس الفلسفة الألمانية في الدرجة الأولى. وحينما يتعمده الحدائي الغربي فإن ذلك يرجع في المقام الأول إلى الرغبة الواعية والمدركة في أن يلتفت النص النقدي النظر إلى نفسه، على حساب النص الإبداعي، بالطبع. فالتقارُّ الذي يتوه داخل متاهات النص النقدي ويضيع في سراديبه ويفقد القدرة على حل شفراته اللغوية يتوقف طويلاً مع ذلك النص، ويفترض الحدائيون، أنه سيصل إلى قناعة بإبداعيته. وهذا ما اختاره كبار الحدائيين العرب عن قصد ودراية كاملين، وإن كان الإنسان لا يملك إلا أن يرصد أن تعمد الغموض حيلة أو آلية لغوية يلجأ إليها البعض في أحيان غير قليلة، عن اختيار واعٍ مرة أخرى. لتغطية القصور في فهم النصوص الأصلية، وسواء أكان الدافع هو التباهي بفيض العلم والمعرفة أو العلمية والعمق، أو تعمد لفت الأنظار إلى اللغة النقدية المشرحة أو حتى تغطية وجه من أوجه القصور، فقد ذهب الحدائيون العرب في ذلك الشوط إلى منتهاه في مبالغات حولت نصوصهم النقدية إلى طلاس وولغاريتات تستعصي على الفهم. وسوف نحاول الآن تجربة جديدة: سوف نقتطف نموذجاً مطولاً من نص نقدي عربي أخير ثم نحاول ترجمته نعم ترجمته إلى لغة يفهمها المثقف العادي وليس الحدائي. يكتب عبدالرحمن بسيسو في «قراءة النص في ضوء علاقاته بالنصوص المصادر: قصيدة القناع نموذجاً» (فصول، صيف ١٩٩٧):

«تعود محاولة تعرف دوافع التفتُّع في القصيدة العربية إلى الإطلال على شبكة المتناقضات التي تتخلل الواقع العربي مكبَّوحة عن التفاعل. وإلى تعرف طبيعة العلاقات القائمة بين الشاعر من جهة، وواقعه الاجتماعي - التاريخي، وذاته، والشعر، من جهة ثانية؛ وذلك على اعتبار أن موقفه الشاعر، المتوجه نحو اختراق شبكة المتناقضات [مَل يقصد اختراقها أم كشفها أم تحريرها أم التماسي فوقها؟] لَمَّا كَوَّابِهَا، [هنا يتضح أن المقصود هو فك إسار التناقضات وتحريرها من قوى القهر. لم يذكر أي قوى قهر يقصدها] وتفعيلها، [تفعيلها داخل النص الإبداعي، بعد أن كانت مقهورة أو مكبَّوحة عن التفاعل] هو المحدد الأساس لطبيعة علاقاته

التي تعكس، من بين ما تعكسه: دوافع التسقّع في القصيدة، والوظائف التي يتطلب من القناع أن يؤديها فيها. فإذا استدعي عملية اختراق شبكة المتناقضات نسخ شبكة علاقات فاعلة ومؤثرة: [تحدث هنا عن شبكة علاقات ثانية لا يحددها الكاتب] فإن هذه الشبكة [الشبكة الأولى، شبكة المتناقضات، أم الشبكة الثانية الفاعلة والمؤثرة؟] تنهض بدورها على شبكة دوافع متضاربة ومتفاعلة، [لغويا، الحديث هنا عن شبكة ثالثة] تتبع من قراءة الشاعر المسكون بموقف كيان (ontological?) حدائي، نسج شبكة المتناقضات، [الشبكة الأولى] ومن اكتشافها علاقاتها الممكنة: بغية تفعيلها، وفتح أقطابها المتناقضة على جدل حر ومفتوح يفضي إلى تحديد الذات، والتشعر والمجتمع^(٨).

الآن لننظر هنا: أن الكاتب يعرف جيداً ما يكتب عنه، ولا يمكن اتهامه بـ «سوء فهم شيء»، ثم إن ذلك المعنى جاد بالغ الجدية ويستحق إبرازه وتوصيله، لكنه اختار عن قصد أن يلف ويدور - أي يعتمد الغموض والإبهام - للتعبير عن الفكر. وهنا تجيء أهمية المقارنة بين ما أراد عبد الرحمن بسيسمو التعبير عنه وبين ترجمته، أي المعنى الذي وصل إلى القارئ دون إبهام وغموض: «إن دوافع خلق أو استخدام القناع تتبع من إدراك الشاعر للتناقضات الخفية في المجتمع ورغبته في الكشف عن هذه التناقضات وفضحها عن طريق خلق كيان شعري يتم فيه تفعيل أو تحرير أو تحريك هذه التناقضات. وهو في ذلك يلجأ إلى عملية إسقاط هرباً من قهر السلطة». هل فقدت الفكرة، في الصياغة الجديدة، والتي أسميتها «ترجمة» شيئاً يذكر بالمقارنة بذلك النص المطول والمراوغ الذي قدمه بسيسمو؟ لكننا لكي نصل إلى الفكرة البسيطة والمهمة التي عبرت عنها في نصي القصير نجهد عقولنا ونكدها لكي نفهم ما يراد توصيله في النص الأصلي. وإن كان هناك فرق جوهري لا نستطيع تجاهله، وهو أن النص الأصلي نص حدائي مائة في المائة بكل ما يحمله من غموض وادعاء، بينما النص الثاني نص غير حدائي جرد من الغموض والادعاء. بقي تعليق أخير: يمكن أن يعترض حدائي على الترجمة البسيطة التي قدمتها للنص الأصلي من منطلق أن النص الشعري الأصلي إبداعي - ألا يقول الحدائيون وما بعد الحدائيين إن لغة النقد لغة

من النتائج إلى المقدمات

إبداعية! - وإنها، من هذا المنطلق، فقدت إبداعيتها حينما جرّؤ المؤلف على ترجمتها، تماماً كما يحدث في نثر أو ترجمة قصيدة حقيقية:

ربما يعترض حداثي آخر قائلاً إن الإنسان لا يعتمد الغموض، فهذا اختيار غير قائم منطقياً! إذ كيف يقصد إنسان أن يكتب نصاً غير مفهوم! أما التسليم بوجود غموض وإبهام ومراوغة في بعض الكتابات الحداثية العربية، إن لم تكن في غالبيتها العظمى، فأمر تشهد به النصوص والنماذج التي سقناها حتى الآن، والتي يستعصي بعضها على فهم الحداثيين أنفسهم من داخل دائرة النخبة: وإذا كان الاعتراض باستحالة تمعد الغموض يجد من يقبله، فمعنى ذلك أن الغموض - وقد أثبتنا أنه قائم وله قوة الظاهرة العامة بين الحداثيين - ناتج عن سوء فهم للأصول الأجنبية وأن الأفكار لم تهضم جيداً! ولذلك جاءت إعادة إنتاجها بالعربية غامضة مبهمة تستعصي على الفهم! وتعليق حامد أبو أحمد على هذه الظاهرة في الواقع له ما يبرره ولا يمثل تجنياً من أستاذ رافض للحداثة الغربية. فهو يرى أن أحد أسباب غموض النص الحداثي العربي «هو سيادة مفهوم لسان حاله يقول: اكتب كلاماً غير مفهوم ينظر إليك على أنك أكبر العلماء، وقد شهدت الساحة الثقافية العربية خلال عقد الثمانينيات الميلادي ظهور عدد كبير من الكتب لا يفهمها أحد، من القارئ العادي بالطبع حتى أكثر الناس ثقافة وتخصصاً»^(١). لكن مقولة أبو أحمد، وإن كانت تنطبق على بعض الحداثيين وما بعد الحداثيين العرب، لا تنطبق على جميع الحداثيين العرب، فهناك حداثيون عرب لا يمكن لأحد، مهما بلغ تحامله، أن يتهمهم بسوء الفهم أو الخلط. وعلى الرغم من ذلك تجيء كتاباتهم عن الحداثة تجسيدا للغموض والمراوغة. النتيجة المنطقية أن خيار الغموض خيار إرادي مقصود. هل يمكن لإنسان أن يشكك في فهم جابر عصفور للحداثة الغربية وما بعدها بعد أن أعطى لها من عمره حتى الآن ما يزيد على العشرين عاماً؟ لا أظن ذلك.

لكنه حالة تعري أي متابع للحداثة العربية بالتوقف عندها في كثير من العجب، وقبل أن تساء قراءة هذه الكلمات أو فهمها أسارع إلى تأكيد أن مصدر العجب أننا أمام مثقف يفهم ما يقرأ ويعرف جيداً ما يكتب لكنه يختار عن وعي كامل أن يتحدى قدرات القارئ على الفهم، أي يختار الغموض والإبهام والمراوغة منهجاً في الكتابة! ليس هذا حكماً قيمياً يعتمد

على تهيؤات المؤلف وعدم قدرته على التعامل مع كتابات عصمور الحداثية. إذ إن الحكم باختيار الغموض منهجا في الكتابة يقوم في حالة جابر عصمور على وجه التخصيص على دليل مادي لا يقبل النقد ولا يحتاج إلى أكثر من درجة معقولة من نضج الحس اللغوي عند القارئ ليضع يده عليه. يذكر جابر عصمور، في موقع مبكر من كتابه «نظريات معاصرة» (١٩٩٨) أنه تعرف على البنيوية والنقد الحداثي لأول مرة عام ١٩٧٧ في أثناء عمله أستاذا زائرا بإحدى الجامعات الأمريكية. وأنه في أثناء تلك الفترة وجد نفسه أمام مكتبة حداثية تخص صاحب المنزل الذي أقام فيه، وهو أستاذ لايد أنه كان هو الآخر في مهمة علمية مماثلة لمهمة عصمور. معنى ذلك أن جابر عصمور يتيح لمتابعي الحداثة العربية فرصة ذهبية وفريدة للمقارنة، ليس بين منهجه النقدي قبل وبعد الحداثة فقط، وإن كان ذلك لا يهمننا حاليا في شيء، ولكن أيضا بين أسلوبه في الكتابة قبل الحداثة وأسلوبه في الكتابة بعد أن تحول إلى الحداثة. ولحسن الحظ أن جابر عصمور يقدم لنا دراسة لايد أنه كتبها قبل سفره إلى الولايات المتحدة ونشرها قبل سفره، وربما لم تنشر إلا في أثناء وجوده في الجامعة الأمريكية التي أشار إليها، إذ إن المقدمة التي كتبها لتلك الدراسة الأكاديمية المتميزة بكل المقاييس تحمل تاريخ أغسطس ١٩٧٧. والدراسة التي نغنيها هي مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي والتي نشرت طبعتها الأولى في ذلك العام. من هنا يجيء إغراء مقارنة أسلوب عصمور قبل عام ١٩٧٧ وبعده: أي قبل وبعد التحول الحداثي لنؤكد أننا بالفعل أمام اختيار مدرك ومقصود للغموض والإيهام والتعدي الإرادي لقدرة القارئ على الفهم. وقد اخترت ثلاثة نصوص للمؤلف، اثنان منها قبل تحوله الحداثي مباشرة، وهما مأخوذان من مفهوم الشعر والثالث من «قراءة التراث» الذي نشر لأول مرة عام ١٩٩٠ ثم أعيد نشره في كتاب قراءة التراث النقدي (١٩٩٢).

والواقع أنني اخترت نموذجين أحدهما يتحدث فيه جابر عصمور عن انصراف النقد عن الانشغال بمشكلة الشكل والمضمون التي كانت قضية محورية لفترة طويلة، أما اليوم، كما يقول عصمور، فإن عملية الفصل التعسفي بين الاثنين لم تعد أمرا ينشغل به أحد، «فليس ثمة شيء يمكن أن يسمى شكلا إلا من قبيل التعسف أيضا، فلا شيء له وجود متعين غير

من النتائج إلى المقدمات

القصيدة نفسها باعتبارها موازنة رمزية تقصع عن موقف لا وجود له خارجها بأي حال. والموقف الذي تقدمه القصيدة هو ضرب من الإدراك الجمالي للواقع يتميز تميزاً نوعياً عن أي إدراك آخر^(١١). لا أظن أن القارئ العادي يحتاج إلى لغة نقدية شارحة تفسر له فكر المؤلف ورأيه في قضية الشكل والمضمون. وهذا الموضوع في الخطاب النقدي لا يقلل بحال من الأحوال من شأن الفكرة وعمقها. لكن هناك من سيقول بالقطع إنني اخترت نموذجاً تجيء فكرته على السطح ولا تتمتع بأي أبعاد فلسفية. لهذا أجدني مضطراً لاقتطاف مقلع آخر لا ينقصه العمق ولا يمكن وصف فكرته بالمسطحية، وعلى الرغم من ذلك فقد جاء الخطاب النقدي متسقاً مع أسلوب جابر عصفور في تلك المرحلة قبل الحداثية حيث لا يحتاج الخطاب النقدي إلى خطاب نقدي آخر أو شارح:

«ومن المنطقي ألا تبرز صيغة «علم الشعر» على هذا النحو إلا في مرحلة فكرية ناضجة. ومن المنطقي - أيضاً - أن تحتاج محاولة تأسيس «علم الشعر» إلى ثقافة فلسفية تتجاوز الثقافة اللغوية. وإن استعانت بها لدرس الأداة، فتقيد المحاولة - في هذا التجاوز - من طريقة الفلسفة في صياغة المفاهيم والتصورات، وفي صياغة الترابط المنطقي بين المفاهيم والتصورات، كما تقيد من معييات الفلسفة فيما يتصل بإنجازها في نظرية الفن بعامة، وبخاصة مجال الشعر الذي درسه الفلاسفة، ضمن أقسام المنطق والسياسة والنفس والأخلاق... والإفادة من الفلسفة في شمولها تعلم ناقد الشعر ضرورة ارتباط مفهومه عن الشعر بمفاهيم أخرى متكاملة عن الحياة»^(١٢).

لا يستطيع قارئ أن ينكر عمق الفكرة وأهميتها في السطور السابقة، فالكاظم يقول إن تأسيس «علم الشعر» يحتاج إلى جناحين يكمل كل منهما الآخر، وهما الدراسة اللغوية والدراسة الفلسفية، ويناقش كيف يستفيد الناقد من منهج الفكر الفلسفي في صياغة أفكاره، وعلى الرغم من ذلك فإن النص لا يحتاج إلى نص آخر شارح لفهمه.

أما نموذج المرحلة الحداثية فيقوم على جملة واحدة من «قراءة التراث» حيث يقول جابر عصفور: «فما نعرفه من تاريخ النقد الأدبي بوجه عام هو أن كل تغلر حاسم في مجال المعرفة الأدبية يقتزن بعملية انقطاع معرفي، وأن

هذا الانقطاع لا يتأسس إلا بانعكاس النقد على نفسه، وازدواج حركته التي يتحول بها من لغة واصفة لموضوع هو غيرها إلى لغة واصفة لموضوع هو إياها، بالمعنى الذي يغدو معه النقد لغة واصفة لموضوعها هو عين ذاتها، وذاتها هي عين موضوعها الذي يدخل عصرا جديدا ومرحلة جديدة بتغير نظرة الذات إليه أو تحديثها فيه^(١٢). الفكرة، مترجمة مرة أخرى، هي تعريف وظيفة النقد حينما يتحول إلى نقد النقد، فبدلاً من التعامل مع نص إبداعي في الحالة الأولى يتعامل في الحالة الثانية مع نص نقدي آخر، وهو ما اصطلح على تسميته بنقد النقد أو «الميتا نقد metacriticism». فهل كان الأمر يحتاج إلى كل هذا الإجهاد، إجهاد الكاتب والقارئ للتعبير عن فكرة يمثل هذه البساطة لا تحتاج إلى «لغة واصفة لموضوعها هو عين ذاتها، وذاتها هي عين موضوعها»؟ ما لدينا هو ادعاء شكل فلسفي دون وجود أي فلسفة حقيقية أو عمق إلتفسير الذي قد يتطوع البعض - وما أكثرهم - بتقديمه هو أن النص الأخير ينتمي إلى مرحلة تضح الكاتب. لكن هذا التضح بحاجة حقيقية إلى التفسير أو التعريف، إذ إن التضح لا يعني التطور من مرحلة ينجح فيها الكاتب في توصيل فكرة لا تقتصر إلى العمق إلى مرحلة يتكلف فيها التعبير المبهم والغامض عن فكرة بسيطة مطروقة. إذا كانت المرحلة الثانية هي التضح فنحن بحاجة أكيدة إلى إعادة تعريف مفهوم البلاغة كما تعلمناه !

الترجمة

إن ترجمة نص ما من لغته الأصلية إلى لغة أخرى يمثل بالدرجة الأولى مسؤولية المترجم أمام قرائه في اللغة الجديدة، فالإنسان لا يترجم للقارئ القادر على قراءة النص بلغته الأولى، وقارئه المستهدف أولاً وأخيراً هو القارئ غير التادر على التعامل مع النص الأصلي. ومن هنا يعتبر المترجم مسؤولاً علمياً وأخلاقياً أمام قارئه، والمسؤولية هنا كاملة لا تقبل التجزئة. أما المبدأ الثاني، وهو مبدأ عام أيضاً، فهو أن عملية الترجمة تتطلب في المقام الأول، ليس مجرد معرفة باللغتين المعنيتين، بل تمكناً كاملاً غير منقوص لنواصيتهما، عدم التمكن من لغة النص الأصلية يعني بالضرورة عدم فهمه ومن ثم توصيل رسالة غير صحيحة إلى القارئ، أي إنه في حقيقة الأمر يقوم، من الناحية القانونية، بتزييف النص المترجم. ولا يكفي في هذه الحالة تمكّنه من اللغة

من النتائج إلى المقدمات

التي يترجم إليها لأن الرسالة التي يتم توصيلها هي تلك اللغة تكون زائفة أو منقوصة. والشئ نفسه بالنسبة للغة الترجمة، فعدم التمكن من ناصية اللغة التي يترجم إليها يعني الفشل في توصيل المعنى الأصلي، بصرف النظر عن تحقق فهم النص في لغته الأولى. والمبدأ الثالث هو أن إجادة اللغتين وحده لا يكفي لإنتاج ترجمة جيدة أو سليمة، على الأقل، إذ لا بد أن يتمتع المترجم بقدر كبير من المعرفة والعلم في المجال الذي يمارس فيه فعل الترجمة. ومن ثم يتفق المترجمون وعلماء اللغة على أن الترجمة العلمية - أي في مجال العلوم الطبيعية والتطبيقية - أقل أنشطة الترجمة تحدياً لقدرات المترجم والمتلقي، فالعلاقات بين الدوال والمندلولات محددة، تليها الترجمة في مجال العلوم الاجتماعية التي تتمتع فيه اللغة بدرجة من تحديد الدلالة. أما في العلوم الإنسانية فإن التحدي يصل إلى ذروته، خاصة أن أبرز تعريف للغة الإبداع الأدبي هو أنها لغة رمزية، لا تقوم على المواضع اللغوية حيث يدل اللفظ على ما وضع من أجله، بل تقوم على القدرة الدائمة والمتجددة على الإيحاء بدلالات غير متواضع عليها.

وقبل أكد النصف الثاني من القرن العشرين أن ترجمة النظريات النقدية، خاصة الحداثيّة وما بعد الحداثيّة، تمثل أعلى درجات التحدي لقدرات المترجم لغويًا وذهنيًا، فالمترجم هنا يجد نفسه يتعامل مع مصطلحات لغوية، مفردة أو مركبة، لم يحدث الاتفاق على دلالاتها بعد بين أبناء الثقافة الواحدة، وأحياناً بين أبناء الثقافة التي أفرزتها، أو بين أبناء الثقافات المختلفة، هذا من ناحية. من ناحية ثانية فإن ارتباط المدارس النقدية الحداثيّة وما بعد الحداثيّة بالفلسفة الأوروبية الحديثة، خاصة الظاهراتيّة والهرمينوطيقية، ونعت المصطلحات والمفاهيم من داخل البيت الفلسفي يجعل إدراك المعنى، حتى على القارئ من داخل الثقافة نفسها، تحدياً آخر أكثر إجهاداً للقارئ، فما بالتأ المترجم، وفوق هذا وذاك، هناك العنصر الحداثي وما بعد الحداثي القائم على تعمد القموض والإبهام لتأكيد إبداعية النص النقدي وأهميته. هذه العوامل مجتمعة في نص نقدي حداثي غربي تضع المترجم أمام مهمة شبه مستحيلة. ومتابعة سبل الترجمات الحداثيّة إلى العربية في العشرين عاماً الأخيرة تؤكد أن المترجم العربي عامة لم يكن على مستوى تلك المسؤولية.

ومن ثم، يمكن أن نضيف نوعاً ثالثاً من الغموض إلى الغموض غير المقصود والغموض المقصود اللذين سبق لنا مناقشتهما، ونعني به الغموض الناتج عن سوء الترجمة والنقل إلى اللغة العربية، وإن كان يصعب الفصل الكامل بينه وبين النوعين السابقين، فسوء الترجمة قد يكون غالباً مشتركاً في كل ألوان الغموض التي تقابلنا في النصوص الحداثيّة المكتوبة بالعربية حتى حينما لا يشير الكاتب العربي إلى مصادره الأجنبيّة. وفي الوقت نفسه قد يكون سوء الترجمة ورداءة التوصيل راجعين في جانب منهما إلى جزء منها، كما يشير محمد عناني في أكثر من موقع في معجمه الأدبي، راجعة إلى تلمذ الغموض.

وفي الحديث عن فوضى الترجمة سوف أعمد على عدد من أمثلة سوء نقل المصطلح، وتعمد تشويبه، وسوء فهم نصوص أجنبيّة يحتمل أن المترجم اعتمد عليها، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، دون أن يشير إليها، وسوف أبدأ ببعض من التماذج التي أوردها محمد عناني في مقدمته الممتازة للمعجم الأدبي. وحينما نتحدث عن دقة الترجمة وشروطها فإن محمد عناني هو مرجعنا الأول بعد أن فرض نفسه منذ سنوات كأفضل المنظرين والممارسين للترجمة عن الإنجليزيّة. ولمست بحاجة إلى الإشارة إلى أن ترجماته لأعمال شكسبير التي جعل منها، إلى درجة كبيرة، مشروع حياته الثقافي، تعتبر أفضل ما شهدته الساحة الثقافية العربيّة، منذ بدأت عمليات نقل شكسبير إلى العربيّة، وإن كنت اختلفت مع عناني في تممه حجب المعلومات التوثيقية الخاصة بالنصوص التي ناقشها، مثل أسماء الكتاب وعناوين المؤلفات، ولكنني في الوقت نفسه أتعهم دوافعه جيّداً، فهذه دائرة لا يدخلها الإنسان في تسرع ودون رؤية، لأنها عملية كشف، أو بالأحرى، فضح مهازل الترجمات الحداثيّة.

في أحد هوامش فصل، «المشكلات»، في معجمه الأدبي، يورد محمد عناني عدداً من التراكييب اللغوية والدلالية الغريبة التي يفترض أنها ترجمات لتراكييب أجنبيّة مقابلة، ولا يمكن أن تكون غير ذلك، فلا وجود لهذه التراكييب في العربيّة أصلاً، وأمام كل تركيب منحوت يورد المعنى الذي قصده - أو ربما قصده - المترجم أو الناقل ولابد، وهو في ذلك، وبذكائه الذي يحيمه من فتح النار عليه من جميع الجهات حينما يحجب المعلومات

من النتائج إلى المقدمات

التوثيقية، بين بهذه التقابلات المنحنى الخطير الذي وصلنا إليه في النقل السيئ وعدم الفهم:

«الغلاء البحثي (نطاق البحث) - كفاءة احتوائه (قدرته على الإلمام بجوانب الموضوع) - أحكام الواقع (أحوال الواقع) ما يمليه الواقع» - السياق المنتج اللاتيات (السياق الذي يتحكم في دلالة الأنفاظ ووظائفه في النص) - فعالياته وجمالياته (وظائف الأنفاظ وجوانبها الجمالية) - مقاربتها بمفاهيم أكثر نضجا (تناول القضية استنادا إلى مفاهيم أكثر نضجا) - العقلانية العاملة (منهج عقلاني إيجابي أو نشيط) - إستراتيجيات لفهم ذات طبيعة احتمالية (علائق لفهم النص باعتباره حمال أوجه أي يتحمل أكثر من معنى أو تفسير)^(١٢).

ويؤكد عنائي في السطور التالية من الهامش نفسه عبثية، بل قل، مسؤولية المأزق الذي وصلنا إليه ثقافيا أمام النقل الرديء والترجمة السيئة عن أصول أجنبية. إذ إن الواحد منا يواجه بمصطلح أو تركيب لغوي «لا هو عربي ولا هو أجنبي»، كما سبق أن أشار شوقي ضيف، وحينما يعجز عن فك عجمته الشديدة يبدأ في التفكير في المصطلح أو التركيب الذي يحتمل أن يكون كاتب النص قد أخذ عنه أو نقل منه. وإذا وفق في كده المرهق في التوصل إلى الأصل المحتمل في اللغة الأجنبية يعود إلى النص المكتوب بالعربية - يفترض أنه كذلك - ليحاول فهمه في ضوء النص الأجنبي المحتمل. وإلى جانب عبثية هذا الموقف من أوله إلى آخره، هناك سؤال لا بد أن يفرض نفسه: كم من بين شباب القراء ممن أكملوا تعليمهم الجامعي من يستطيع أن يفعل ذلك؟ بل، وهو الأدهى والأمر، كم مثقفا حقيقيا، حتى من بين الحداثيين العرب أنفسهم، قادر على القيام بما قام به أستاذ الأدب الإنجليزي المتخصص، لنقرأ معا تفاصيل المأساة/المهابة، المضحكة/المبكية:

«الواقع أنني كنت في كل مرة أتوقف فيها عند تعبير من هذه التعابير المخينة، أحاول أن أردّه إلى ما يمكن أن يقابله (أو ما ترجم عنه) باللغات الأجنبية، مضطورا على الإنجليزية والفرنسية، فالواضح أن (الغلاء) تعبير مترجم عن الإنجليزية cover والتسبة

إلى البحث أو البحوث جديدة، فإما أن البحث أو البحوث تغطي الموضوع، وإما أن نطاق البحث يشمل جوانب الموضوع ولا علاقة بذلك بالترجمة»^(١٤).

ولا أريد أن أقف عند كل تعبير بل سأختتم هذه النماذج بالعبارة التالية من الكتاب نفسه:

«منظومة من الإجراءات المنهجية القابلة للتطبيق على المستوى التداولي». وقد ترجمتها إلى الأصل المفترض التالي: A system of at the pragmatic level methodological procedures. وربما كان معناها: «عدد من الخطوات المنهجية المتسقة، التي يمكن اتخاذها عند تحليل السياقات اللغوية»^(١٥).

لكن عنائي لا يتوقف عند المصطلحات والتراكيب القصيرة في سخرية القاسية - وإن كانت هادئة - من واقع النقل السيئ عن الحداثة الغربية الذي لا يمكن إرجاعه إلى أي قصيدة من جانب المترجم لأنها تتم عن عدم فهم النصوص الأصول التي نقل عنها المترجم ومنها، وقد يرى بعض المجادلين أن تلك التراكيب وترجماتها تعتبر خلافة يصعب الاتفاق على ترجماتها، من ناحية، ثم إنها لا تفسد النص ولا تضيع معناه، من ناحية ثانية، وهكذا ينتقل محمد عناني إلى نصوص أطول يفترض أنها تعني شيئاً، ولا نملك إلا أن نقف معه مع نماذج قليلة لتلك المواقف التي لا يفلح معها الحس أو التخمين أو حتى محاولة إرجاعها إلى أصولها الأجنبية المحتملة. ومرة أخرى يختار عناني أن يحجب المعلومات التوثيقية لنماذجه عملاً بمبدأ السلامة، دعونا نتوقف عند نموذج واحد من النماذج التي أوردها مؤلف المصطلحات الأدبية من باب التخفيف الكوميدي، مرة أخرى: «إن الانهيار التركيبي، هي إطار التجني على السطوعية، للواقعية لم يعد يبشر بإمكانات الفعلية المتنامية، مهما تكون (هكذا) تاصلاتها الحقيقية أو الزائفة فحسب، بل بالتجني على الأدبية الحداثية أيضاً»، ومهما مارس القارئ من حيل القراءة، ومهما حاول من تقديم وتأخير، فلن يستطيع إنسان، مهما بلغت ثقافته، حدائياً كان أو غير حدائي، أن يضع يده على معنى - أي معنى - للنص. إنه كلام مترص يستعصي على فهم القارئ، بما في ذلك كاتب الكلمات نفسه، مما يعني شيئاً واحداً، شيئاً واحداً فقط، هو أنه لم يفهم النص في مصدره الأول! ولهذا أجد من الصعب عليّ قبول تخفيف محمد عناني - في تأدبه الشديد - في قولته:

من النتائج إلى المقدمات

«ولاشك في أن لهذا الكلام معنى، وإن يكن في بطن الشاعر، ولكن الغموض لا يرجع إلى الترجمة، ولا ذنب لنص أجنبي في هذا، فالعيب عيب الكاتب الذي يعجز عن توصيل أفكاره إلى قارئه»^(١٦) فلا المعنى في بطن الشاعر، لأنه لا وجود للمعنى أصلاً، ولا الشاعر/المترجم عجز عن توصيل أفكاره إلى قارئه، لأنه لا وجود لتلك الأفكار. إن ما أحجم عنائي عن ذكره بصراحة أن المترجم أو الناقل في حالتنا هذه لم يفهم النص الأصلي. ويقف الإنسان مذهولاً، يضرب أخماساً في أسداس أمام نموذج يقدمه حامد أبو أحمد لسطور مأخوذة من ترجمة عربية لكاتب جوليا كريستيفا بعنوان **علم النص**. «نقرأ في الصفحة الثامنة»: يكتب أبو أحمد:

«إن الاشتغال على اللسان يفترض ضرورة العودة إلى الذاكرة الأولى التي يتحدد، انطلاقاً منها، المعنى وذاته معاً. وهذا يعني أن منتج اللسان إما لا رمي، مضطراً إلى الولادة المستمرة، أو بتعبير أفضل أنه وهو على أبواب الولادة يعمل على اكتشاف ما سبقها ليس منتج اللسان ذلك «الطفل» الهرقليطي» الذي يرمح في لعبه. إنه ذلك الشيخ الذي يعود إلى ما قبل ولادته لينبه أولئك الذين يتكلمون إلى أنهم متكلمون»^(١٧).

إن كلمات المترجم لا تستعصي فقط على فهم القارئ، بل أنا على يقين أنها تستعصي على فهم المترجم نفسه! وإذا كان المثقف المتميز الثقافة يقف عاجزاً عن فهم النص المنقول إلى العربية، فما بال الإنسان العادي الذي يخطئ الحداثيون لإقناعه بالانتقال من معسكر التخلف والجهالة إلى استارة الحداثة الغربية وما بعدها؟ إما أنه لن يفهم ويرفض التحول، مما يعني ذلك من فشل المشروع التنويري للحداثة عند نقطة انطلاقه، أو يتظاهر بالفهم حتى لا يتهم بالغباء أو الجهل أو بالإنشعاع معاً، وهكذا تزداد حلقة الظلام والجهل اتساعاً يوماً بعد يوم، فجعل الأساتذة الحداثيين يفرض أجبالاً أقل معرفة بالحداثة دون أن تتقد شيئاً من صلتها وغطرستها. الأمر إذن ليس مضحكاً كما تصورنا في البداية.

الواقع أن أمامي أمثلة لا حصر لها لسوء فهم النصوص الأصلية ولسوء الترجمة وللاثنين معاً، وللتقل دون الإشارة إلى المصادر الأصلية، أي السرقات العلمية. لكنني اخترت هنا الاكتفاء بنماذج محمد عنائي، بعض نماذج في الواقع وليست كلها، فهو الآخر يقدم عشرات النماذج لكل ذلك.

بالإضافة إلى الأمثلة التي يقدمها حامد أبو أحمد في نقد الحداثة التي يمكن للقارئ أن يعود إليها. قلت إنني اخترت الاكتفاء ببعض نماذج عنائي لمسيين: الأول، إن النماذج التي قدمتها حتى الآن تقي بما فيه الكفاية لتأكيد ما أثرته من موضوعات؛ والثاني، إنني لن أستطيع، التزاماً باختياري المبدئي الذي أشرت إليه في موضع سابق، حجب المعلومات التوثيقية من مؤلفين ومؤلفات، والنماذج التي أمامي نماذج لحداثيين كبار على الساحة الثقافية العربية سوف يثير ذكركم حفيظتهم جميعاً وسيؤلبهم جميعاً ضدي. وأنا أدرك أنني قد أثرت حتى الآن حفيظة الكثيرين بالفعل، إن بعض النماذج التي خططت لذكرها ومناقشتها تقوم على المقابلة والمقارنة بين نصوص أجنبية (إنجليزية) وترجمتها إلى العربية، بل بين نصوص أجنبية نُقلت حرفياً إلى النصوص العربية دون إشارة واحدة إلى الأصول؛ ثم، وهذا سبب أخير، إنني أومن إيماناً كاملاً بالمثل الشعبي المصري القائل: «الضرب في الميت حرام»!

وإذا لم يكن الهدف هو إثارة حفيظة أحد، فلماذا ضيعنا كل هذه الصفحات مع نماذج سوء الفهم وخملاً الثقيل؟ لقد فعلنا ذلك لسبب جوهري وهو إثبات أنه إذا كانت المدخلات inputs في حالة فوضى، فلا بد أن تأتي المخرجات outputs هي الأخرى في حالة فوضى، فالقارئ المحددة السابقة تؤكد أن ذلك هو مدى فهم بعض الحداثيين العرب - ولا أقول جميعهم - للنصوص الحداثية الغربية في لفاتها الأولى - بالإضافة إلى تعدد مصادر الحداثة الغربية واختلافاتها من ثقافة غربية إلى أخرى - فلا بد أن تكون أفكار هؤلاء الحداثيين العرب مشوشة ومبهمّة وفي حالة فوضى، وهكذا نضيق إلى فوضى مفاهيم ومصطلحات لم يتم الاتفاق على مناسبتها داخل الثقافة/الثقافات التي أهرزتها فوضى التشويش والتشويه، ثم نتوقع أن نسير خلفنا جماهير المثقفين العرب نحو النور والاستقارة، وإذا تجرأ أحد يرفع صوته في محاولة للاعتراض أو حتى مجرد الفهم، سارعوا إلى اتهامه بالجهل والرجعية أو الأصولية. وسوف نتوقف هنا بشيء من التفصيل عند نموذج أو نموذجين لأبرز أفكار الحداثة الغربية وما بعدها كما تصل إلينا عبر الحداثيين العرب لنرى كم التشويشات والتحريفات والانتقاضات اللانهائية التي يفترض أن تصب في وعي المثقف العادي وتشكله ثم تغيره.

الحضور والغياب

لا تتجسد فوضى النقل عن الحادثة وما بعد الحادثة وسوء فهمها،
تظليرا وتطبيقا، في شيء كما تتجسد في ثنائية الحضور والغياب أو
معكوسة، كما هي عند كمال أبي ديب، الخفاء والتجلي. إن الإنسان يتابع
تفسيرات الحداثيين العرب وتطبيقاتهم في دهشة وعجب شديدين، ففكرة
دريدا عن ثنائية الحضور والغياب، والتي ترجع، في جزء منها، إلى
ميثافيزيقيا الحضور كما قدمها مارتن هايدجر من قبله، تتفرع عند
الحداثيين العرب عامة، وعند من لم نتح لهم أصلا قراءة دريدا أو هايدجر،
ومن سبق أن سميتهم «المعيدون عن الحقيقة بمرحلتين أو ثلاث»، خاصة،
إلى تشعيبات وتخريجات، وبالتالي إلى تطبيقات لا علاقة لها بمفهوم الناقد
التفكيكي أو الفيلسوف الألماني. وإلى هذا الخليط من سوء الفهم تُرحف
بعض المفاهيم الأخرى التي تعني أشياء يحملها الحداثيون العرب أكثر مما
تطبق مثل «الفراغ» و«المقوجة»، مع ما يصاحبهما أيضا من سوء الفهم وسوء
التطبيق. بينما الأمر، سواء عند هايدجر أو عند دريدا، لا يعدو أن يكون
جزئية جانبية في التفكير والتلقي ودور التقاليد في حجب المعاني الأولى
عند الفيلسوف الألماني، ودور اللغة كعلامة حضور وغياب للمعنى عند الناقد
الأمريكي/الفرنسي. وقيل عرض مفهوم الحضور والغياب في أصوله الغربية
دمونا نتوقف عند نموذج عربي يقدمه ناقد تفكيكي مبكر كنموذج للتطبيق
المبالغ فيه للثنائية من ناحية، وفي تجاهل واضح لمفهوم يشع في صلب ألوان
المجاز في العربية، وهو مفهوم لو استعان به الناقد العربي الذي لا يستطيع
أحد أن ينكر دوره التويري الرائد لأغناء عن الاستعارة من دريدا وما بعد
الحادثة الغربية، من ناحية أخرى، في شرحه لمفهوم «الغياب» يذكر الغدائم
بيت المتنبي المشهور:

«أعينها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم في من شحمه ورم»،
ثم يعلق عليه بالسطور التالية:

«فإنه يطلق البيت معلقا في الهواء معتمدا بذلك على فهمنا لأبعاد
إشارات هذا البيت، وهو لا يريد منا أن نفهم المعنى الموجود في هذا
القول، ولكنه يريدنا أن نفهم الغائب عنه، أي دلالاته المجازية. فالشحم

والورم لا يعنيان هذا الشحم والورم المعروفين، وهذان المعنيان يعزف عنهما الشاعر ولا يريد ههما، ولذا فإن «شحم وورم» هما إشاراتان حرتان، وهما وجود معلق، يعتمد على (غياب) سيتولى القارئ إحضاره إلى البيت في كل مرة يقرأ فيها هذا البيت، ويتنوع هذا الحضور ويتشكل حسب ماهية الالتقا، بين الإشارة ومفسرها، فقد يكون معنى الشحم والورم هو الهدية والرشوة، أو المحبة والنفاق أو العلم والجهل، أو أي متضادين قد يتبعثان في ذهن القارئ لحظة احتكاكه بهاتين الإشارتين، وهذا هو معنى القراءة أو تفسير النص^(١٤).

إن كلمات الغدامي هي «نقد» بيت المتنبّي أو تفسيره تغري يفقد آخر من نوع نقد النقد لأنها تجسد المنحنى الذي وصلنا إليه هي «مطل» المصطلح ما بعد الحدائي، وهو «الغياب» و «الحضور» في حالتنا، لينسحب على بيت شعر بسيط من ناحية، وفي تجاهل واضح لمصطلح نقدي عربي جاهز يعتبر واحداً من أقدم المصطلحات النقدية العربية، من ناحية ثانية، يعتمد معنى بيت الشعر البسيط، البالغ البساطة في الواقع على «كناية» لغوية لا تحتاج إلى كثير تفلسف، ولا تحتاج بالقطع إلى المصطلح «الدريدي» البراق. ومهما قلنا البيت على أكثر من وجه فلن يخرج عن واحد من المعاني البسيطة التالية: «أرجو أن تنظر بعينين فاحصتين حتى لا تسيء الحكم عليّ» أو «الجا إليك أن تبصر الأمور حتى يجيء حكمك عليّ صائبا»، أو «الجا إليك لتحكم على حقيقتي وليس على مظهري»، والواقع أن اعتماد معنى البيت على القبيعة المجازية وهك دلالتها لم يخف على عبد الله الغدامي، كما ذكر في السطور الأولى من تعليقه، ولكنه بدلا من تطوير المجاز الذي أدركه مستخدما المصطلح النقدي العربي الواضح، وهو «الكناية» في هذه الحالة، اختار أن يرتحل غربا إلى ثنائية الحضور والغياب الهرمنيوطيقية والتفكيكية دون أن يصل إلى ما كان يوصله إليه استخدام أبرز مصطلحات المجاز العربي، ولا أكون مبالغا إذا قلت، إنه أوصل تفسير البيت البسيط إلى فوضى لا نهائية الدلالة، ما أبسط أن نقول إن «الشحم والورم لا يعنيان هنا الشحم والورم المعروفين»، تماما كما نقول إن «كثير رماد القدر» لا تعني ما توحى به الدلالة السطحية للجملة التي لا يخلو منها كتاب في البلاغة العربية تقريبا، فالمعنى السطحي

من النتائج إلى المقدمات

المباشر ليس هو المقصود، لأنه هو «الغياب» الذي يشير إليه الغذائي، وبدلاً من التحول الطبيعي من «المعنى» إلى «معنى المعنى» - وهو مفهوم لغوي آخر قديم قدم البلاغة العربية - نقول إن كثرة رماد القدر تعني، وراء المعنى الأول، معنى الكرم، و «الشحم والورم» في بيت المتنبي، وتطبيقاً لمبدأ «معنى المعنى» تعني خداع المظاهر، يقول الغذائي، في تعقيده لمعنى بيت بسيط لا يحتمل كل هذا «الإبهام» النقدي، إن الشحم والورم «إشارتان حرتان»، وهما وجود معلق، يعتمد على «غياب» سيتولى القارئ إحضاره إلى البيت في كل مرة «يقرأه فيها» لكننا، حتى هذه المرحلة من تحليل الغذائي للكناية البسيطة، قد لا نختلف معه إلا في جزئية الانبهار بالمصطلح الغربي في تجاهل واضح لمصطلح نقدي عربي، لكن المرحلة التالية التي تترتب على المرحلة التي وصلنا إليها حتى الآن، تجسد كل مخاوفنا من فوض الدلالة ولا نهائيتها، نعم، قد يفسر البيت بأكثر من معنى إعمالاً للمبدأ المتفق عليه وهو «تعدد الدلالة»، فقد يفسر قارئ، حسب الظروف التي يؤسس فيها علاقتها مع النص، كلمات المتنبي باعتبارها تعني «أن المظاهر خداعة»، وقد يرى آخر، في ظرف آخر، أو حتى القارئ نفسه في ظرف آخر، أن البيت يعني «لا تحكم عليّ بمظاهر الثراء، فأنا في الواقع فقير»، بل قد يفسر قارئ آخر البيت نفسه دون كناية على الإطلاق، فعلى المستوى الحسي المباشر قد يعني البيت: «لا تحكم عليّ بضخامة حجمي، فهو ليس علامة صعبة، لأنني متورم مريض»، وهكذا. لكن هذه ليست لا نهائية الدلالة، بل تعددها، هل قصد الغذائي لا نهائية الدلالة، أم تعددها؟ من الواضح أنه قصد لا نهائية الدلالة في: «ويتنوع هذا الحضور ويتشكل حسب ماهية العلاقة بين الإشارة ومفسرها، فقد يكون معنى الشحم والورم هو الهدية والرشوة، أو المحبة والنفاق، أو العلم والجهل، أو أي متضادين قد ينبثقان في ذهن القارئ لحظة احتكاكه بهاتين الإشارتين»، حتى لو لم يكتب الغذائي ذلك المقطع الأخير، فقد قام السياق السابق بالفعل بتحديد لا نهائية الدلالة هدفاً لقراءته-لبيت الشعر- ولتنا بحاجة إلى استبدال «أي متضادين» بالشحم والورم لنؤكد عبثية التفسير هنا، ويكفي أن نستبدل بهما «الهدية والرشوة» أو «المحبة والنفاق» ليصبح معنى بيت المتنبي شيئاً آخر.

وبصرف النظر عن تجاهل عبد الله الغذامي للمصطلح النقدي العربي المعروف والذي كان دائماً موضوع النقاش والشرح في كتب البلاغة العربية في عصرها الذهبي لما يقرب من خمسة قرون، فإن السؤال الذي لابد أن نسأله لأنفسنا: هل هذا هو الحضور والغياب كما قدمهما هايدجر ودريدا؟ ثم هل يتحدث الغذامي هنا حقيقة عن الحضور والغياب أم عن «الفجوة» و«ال فراغ»؟ أو حتى السكوت عنه؟ وهل الفجوة هي الحضور والغياب؟ وهكذا نعود إلى نقطة البداية: إلى مفهوم الحضور والغياب في الفلسفة والنقد.

والبداية هنا في حقيقة الأمر لغوية صرفة، مهما اكتسبت عند هذا من عمق أو ذلك من تعقيد. فالحضور والغياب، سواء في الفلسفة أو التنظير النقدي القائم على الدراسات اللغوية، يرتبطان بـ «العلامة اللغوية» والعلاقة بين الدال والمدلول، حتى في المفاهيم اللغوية ما قبل الحديثة والتي ترى بمواضعة العلاقة على أساس أن الدال يشير إلى الشيء الذي وضع من أجله. وتبدأ بأبسط تعريف للحضور والغياب سوف نعتبره - وهو كذلك بالفعل - نقطة انطلاق مبدئية لكل التشعيبات والتعريفات الأكثر تركيبية وتعقيداً، حتى وإن كان ذلك من باب التظاهر بما لا وجود له. في تعريفه المبدئي الدقيق لثنائية الحضور والغياب عند دريدا، باعتباره الناقد التفكيكي الذي ارتبط اسمه بتلك الثنائية أكثر من أي ناقد آخر معاصر، يؤسس محمد عناني في معجمه المصطلحات الأدبية الحديثة تعريفه على التلاعب الذي مارسه دريدا مع هجاء لفظة difference (الاختلاف) وكيف يستخدمها في الوقت نفسه في هجائها الفرنسية deferance (الأرجاء أو التأجيل). ويخلص عناني إلى: «وأما الإرجاء فهو عكس الحضور، أي أننا حين نعجز عن الإتيان بشيء أو بفكرة فنحن نشير إليها بكلمة، ومن ثم فنحن نستخدم العلامات مؤقتاً ريثما تتمكن من الوصول إلى الشيء أو الفكرة، وعلى هذا فإن اللفة هي حضور مرجح للأشياء أو المعاني، ولا يمكن إذن افتراض حضورها في وجود اللفة»^(١٨). على الرغم من البساطة الكاملة، لغة وفكراً، لهذا التعريف الذي يقدمه عناني، فإنه في حقيقة الأمر يقدم في بلاغة رائعة مفهوم الحضور والغياب بصورة جامعة مانعة. وما يحدث بعد هذا التعريف اللغوي لا يزيد على تشريعات وتعقيدات ترتبط مباشرة بهذا التعريف المبدئي، وخاصة تطور الاحتمالات العديدة لما

من النتائج إلى المقدمات

يعنيه مفهوم دريدا مثل «اللعب الحر للمدلول»، ومن ثم المراوغة الدائمة للدلالة، وأخيرا لا نهائية الدلالة، التعريف في جوهره يعني أننا حينما نستخدم لفظ «شجرة» أو «tree» أو «arbre» في أي من العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية، فإن «الشجرة» ذاتها ليست حاضرة في النطق أو الكتابة، ولكنها غائبة بعد أن استبدلنا بها اللفظ والكلمة، أو الرمز اللغوي، بصرف النظر إذا كان ذلك اللفظ/الرمز يرمز إلى صورة حسية - كما في مفهوم اللغة كمواضعة أو حتى بداية العصر الحديث - أو إلى صورة ذهنية - كما في مفهوم النظريات اللغوية الحديثة. إن حضور اللفظ هو نفسه غياب الشيء المشار إليه، والشيء حاضر أيضا في رمزه أو بديله، وهذا ما يضع هنست ليتش يده عليه في: **Deconstructive Criticism**:

An Advanced Introduction

«إن الفكرة الغالبية عند دريدا عن النص الأدبي هي: لما كانت اللغة سلسلة من الدالات لا تشير إلى مدلولات مستقلة في وجودها، فإن النصوص إذن لا تصور عالما حقيقيا قائما بصورة مستقلة عن اللغة، ونتيجة لذلك فإن وظيفة النقد هي التركيز على النص باعتباره تركيبا لغويا، توليفة بلاغية، يمكن فهمها عن طريق فكها وتفكيكها، حتى يمكن الكشف عن آلية البلاغة، وهذه العملية لا تؤدي إلى الحقيقة؛ بل - وذلك جوهر الشك - إلى إدراك أنه حيث نتوقع الحقيقة لا يوجد إلا غيابها، ومراوغة الدائمة، فراغ، مكان شاغر قامت اللغة بإخفائه إحساسا بالاكتمال أو الوحدة،^(٢٠) التأكيد من عندي».

لكننا بهذا المدخل يبدو كأننا ندور حول دريدا ونتحاشى التعامل معه، لا نتعامل مباشرة مع ما كتبه هو عن الحضور والغياب بل مع شروح الآخرين وتفسيراتهم للشأنية الدريدية! لنحاول أن نحدد معنى الشأنية كما يفهمها دريدا نفسه. إن آراء دريدا النقدية بصفة عامة تقوم لا على مبدأ رفض جميع نظريات النقد الأدبي وتاريخ النقد الأدبي برمتها فقط، بل أيضا على التشكيك في الفكر الغربي من أساسه، ومن ثم فهو يبدأ برفض مبدأ إحالة النص إلى أي سلطة خارجية Logocentrism. وقد خص المرحلة الأخيرة من الفلسفة الألمانية (منذ بداية القرن العشرين) بأعنف هجوم له على الفلسفة الغربية.

فهو يرفض ما توحى به فلسفة هوسيرل الظاهراتية *Phenomenology* وفلسفة هايدجر التأويلية *Hermeneutics* من ميتافيزيقا الحضور التي يرى أنها تعني وجود سلطة خارجية موثوقة *authoritative* (٢١) قد تكون العقل أو الإنسان أو التقاليد أو الكينونة أو المقدس. وقد كانت هذه السلطة، نقدياً، وعلى سبيل المثال، هي «التقاليد» الفنية والأدبية عند النقاد الجدد والنظام العام عند النيويين، وهذا ما توقف عنده المؤلف في بعض الإطالة في المرايا المحدبة من قبل:

ولكن ذلك كان في فترة سيادة التفكير العلمي وسلطة المنهج التجريبي، بينما تنشأ التفكيرية داخل الشك الجديد الذي خيم على العالم؛ الشك في المعرفة اليقينية، الشك في قدرات العلم، الشك في قدرات العقل، والشك النهائي في وجود مركز، أي مركز، مرجعي خارجي يعطي الأشياء شرعيتها ويمكن اللغة من الدلالة. وبدلاً من التقاليد التي يجب أن تدمر بعد أن حجبت الكينونة والنظام الخارجي الذي لم يعد له وجود في ظل غيبة المركز القادر على تثبيت الأشياء، تؤكد إستراتيجية التفكير استحالة الحضور، فعوضاً عن ذلك المركز المحوري الخارجي داخل النص أو اللغة يرتبط دائماً بالغياب ... المهم أن الحضور لم يعد حاضراً في النص أو التسق اللغوي إلا مقروناً بالغياب (٢٢).

الحضور الوحيد في النص هو اللغة، وحيث إن اللغة كما قلنا منذ البداية، تحجب الأشياء أو تخفيها، فمعنى ذلك أن الحضور الوحيد هو الغياب. أي أن اللفظ، بقدر ما يكشف عن الأشياء (حضور)، يخفيها أو يحجبها (غياب). من هنا، من وجهة نظر دريدا، لا حضور لأحد طرفي الثنائية إلا مقروناً بالطرف الآخر. لقد حدد دريدا موقفه من الثنائية مبكراً في واقع الأمر في معرض تفسيره لمفهومة عن التماس في *Positions*:

«إن لعب الاختلافات - يعني تركيبات وإحالات تمنع كل تلك الاختلافات من أن تكون في أي وقت أو بأي وسيلة عنصراً حاضراً في ذاته ولذاته ويشير هقط إلى ذاته، لا يستطيع أي عنصر في خطاب مكتوب أو منطوق، أن يقوم بوظيفته كعلامة دون أن يرتبط بعنصر آخر هو أيضاً ببساطة ليس حاضراً، هذه الرابطة تعني أن

من النتائج إلى المقدمات

كل عنصر يتشكل في إشارته إلى ما به من أثر للعناصر الأخرى في سياق النص... هذا الربط، هذا الجدل هو النص الذي ينتج فقط عن تحويل نص آخر. لا شيء، سواء في العناصر أو النسق، حاضرا أو غائبا فقط. لا يوجد في كل مكان سوى اختلافات وآثار آثاره^(٢٢).

صحيح أن دريدا في هذا النص المبكر نسبيا يمهّد للبينصية أو التناص، لكن ما يهمنا هنا أنه انطلاقاً من مبدأ الاختلاف والتأجيل الذي سبق أن ربط محمد عناني بينه وبين ثنائية الحضور والغياب يؤكد دريدا مبدأين أساسيين هما جوهر الثنائية؛ أولاً، لا يوجد عنصر في النص يمكن أن يكون حاضرا «في ذاته ولذاته ويشير فقط إلى ذاته». أي أن حضوره هو أيضا غيابه، قد يكون معنى ذلك أنه يشير إلى خارج النص أو إلى «أثر» من نص آخر، لكن المهم هو حضور العنصر أو اللفظ في ذاته يحجب الشيء أو الأثر ويغيبه، ثانياً، أنه لا شيء، سواء في العناصر أو النسق، أي في اللفظ الذي يكون تعبيرا رمزيا عن الشيء، أو في النص الذي ينظمه النسق، «حاضرا أو غائبا فقط».

حتى حينما يطور دريدا أفكاره عن ثنائية الحضور والغياب ضاربا في أعماق الدراسات اللغوية والفلسفية فإن الربط البسيط بين فكرة تأجيل الإحالة وبين الغياب، وهو ما تحققه العلامة اللغوية في الوقت نفسه الذي تظهر الشيء (الحضور)، تظل هي الخلفية البسيطة والدائمة التي يمكن في ضوئها تفسير كل الشطحات اللغوية والفلسفية، ومن أبرز هذه الشطحات ما فعله دريدا في مناقشته لاعتراقات جان جاك روسو قبل أن يعرف النقد الأدبي الغربي ثنائية الحضور والغياب وذلك في كتابه الأشهر *Of Grammatology* (١٩٧٦). لكن دريدا يقرأ الاعتراقات من مدخل الثنائية الجديدة للحضور والغياب عبر المفهوم اللغوي الذي ينظر في المستويات المختلفة «للمكمل supplement» والذي سنتوقف عنده في بعض الإطالة عند حديثنا عن النقد العربي القديم في فصل لاحق، حتى بداية العصر الحديث للفكر الغربي، أي حتى القرن السابع عشر، اعتمدت الفلسفة الغربية على التمييز بين «الأشياء» و«ممثلاتها»، أو بين الفكرة والعلامات التي تعبر عنها. لكن تحقيق الدلالة كان يعتمد في المقام الأول على درجة الشفافية التي تتمتع بها «المثلات» أو «الرموز» أو «العلامات».

وهكذا لم تكن العلامات أو الرموز اللغوية تمثل وسيطا مصمّتا أو عائقا حقيقيا أمام توصيل الأفكار والواقع والحقيقة، لكن العلامة المعنية في ذلك المفهوم التقليدي عن شفافية اللغة هي العلامة الصوتية التي تقوم على الحضور المتزامن للمتكلم والمستمع، مع ما يعنيه ذلك من قدرة العلامة الصوتية «الشفافة» على توصيل الأفكار والواقع والحقيقة. من منظور الثنائية ما بعد الحداثية فإن ما يعنيه ذلك حتى الآن هو تأكيد الحضور. لكن الغياب يبدأ مع دخول الكتابة «المكتملة» للكلام.

ويثير دريدا سؤالاً مبدئياً قبل مناقشة اعترافات روسو كنموذج تحليلي مبكر لثنائية الحضور والغياب: هل تصنيف الـ supplement إلى الكتابة شيئاً أساسياً كان ناقصاً في الكلام، أم أنها تصنيف شيئاً يمكن أن يستغني عنه الكلام؟ وعلى الرغم من أن دريدا يضع روسو في قلب مدرسة شفافية اللغة إلا أنه يتخذ من حياة المفكر الفرنسي نموذجاً مبكراً لبذرة الثنائية ما بعد الحداثية. إن روسو، على سبيل المثال يرى أن الكتابة إضافة أو «مكمل» لا ضرورة له على أساس أن الكتابة أنظمة علامات قد يساء فهمها أو «تساء قراءتها» - الأخير مبدأ تفكيكي دريدي معروف - لأنها تحاول تحقيق دلالة في غيبة المصدر الأول أو المتكلم. لكن المفارقة التي يبرزها دريدا أنه على الرغم من وصف روسو للكتابة بأنها «زيادة لا ضرورة لها»، فإن كتاباته تؤكد أن الكتابة، كما يمارسها، تكمل الكلام وتعوض ما ينقصه، بل إنه يذهب في الاعترافات إلى الاعتراف بأن الكتابة هي التي أتاححت للآخرين فرصة التعرف عليه كما هو، أو على ما يسميه «ذاته الداخلية» أو الحقيقة التي لا تتبدى (الحضور) إلا في العلامات المكتوبة، وهذه العلامات، كما يرى روسو، هي التي «تكمل» ما ينقص العلامات اللغوية المنطوقة والخادعة. وتلك على وجه التحديد، هي نقطة بداية ما يسميه دريدا في كتابه بـ «منطق الإكمال» Logic of supplementarity أو السلسلة اللانهائية للدلالة التي تحكمها عمليات التجلي والخفاء أو الحضور والغياب، إذ إن دريدا ينطلق من كلمات روسو البسيطة عن الطفل الذي يشعر بالحاجة إلى إكمال عجزه أو قصوره عن طريق «الكلام». أي أن «الكلام» في هذه المرحلة المبكرة، «مكمل» لشيء آخر ويعوض ما ينقص ذلك الشيء. وقد تابعنا منذ سطور موقف كل من روسو و دريدا القائم

من النتائج إلى المقدمات

على اعتبار الكتابة «مكلمة» للكلام، أي أن الكلام حضور وغياب، والكتابة، تأسيساً على موقفنا المبدئي في بداية هذا المنعطف من الفصل الحالي، حضور وغياب، ولسنا بحاجة هنا إلى تأكيد أن موقف الطفل قبل ممارسة فعل أو نشاط الكلام هو الآخر حضور وغياب، لكن هذه ليست نهاية السلسلة؛ ويستشهد دريدا بموقف خاص في حياة روسو في علاقته بمحيويته (أو عشيقته شبابه المبكر) التي كان يطلق عليها: «Maman». ويرجع دريدا إلى ذلك الموقف، كما ورد في الاعترافات في بعض الإطالة:

«لو بدأت في وصف كل الحماقات التي دفعتني إليها عملية تذكر عزيزتي Maman حينما كنت أحرم من الوجود في حضرتها فلن أتوقف، ما أكثر ما قبلت سريري، متذكراً أنها نامت فيه، وستأثري وكل قطع أثاث حجرتي لأنه كان أثاثها ولأنها لمستها جميعاً، بل حتى أرض الغرفة قائلاً لنفسي إنها سارت فوقها... حتى في حضورها كنت أرتكب أحياناً مبالغات لا تقدر على الإيحاء بها اعتف عواطف الحب، ذات يوم ونحن نتناول الطعام، وفي اللحظة التي وضعت فيها قطعة من الطعام في فمها، صحت قائلاً إنني رأيت شعرة فوق قطعة الطعام فأعادتها إلى طبقها، فالتقطتها أنا في شغف والهمتها»^(٧٤).

إن كلمات روسو في وصف عاطفته المشبوبة نحو محبوبته شبابه تقدم لدريدا في الواقع موقفاً مثالياً يطبق عليه سلسلة «منطق الإكمال» المستمرة وعمليات الغياب والحضور، باعتبار الحضور غياباً والغياب حضوراً في تبادل لا ينتهي للأدوار والتزامان في الوقت نفسه، باختصار. إن الموقف العاطفي الذي يصفه روسو يجسد لا نهائية الدلالة التفكيكية. ففي «غيبه» «مدام» حبساً يستعاض عنها بكل «المكملات» أو البدائل التي يقبلها روسو في وله، مثل السرير والستائر وقطع الأثاث وأرض الغرفة التي وطنتها قدماها. وهكذا يتحول «غيابها» أو خفاؤها إلى «حضور» في تلك الأشياء. لكن «حضور» تلك الأشياء هو «غيبه» العشوائية «الحاضرة» نفسها. لكن تلك المرحلة الأولى بسيطة ومباشرة ويمكن التعامل معها ببعض الفهم والقبول، ويمكن وصفها بأنها مرحلة لتعدد الدلالة

وليس لا نهائيتها. أما المرحلة الثانية فهي التي تدخلنا بلا أدنى شك في «منطق الإكمال» الديردي ولا نهائية الدلالة التفكيكية. ففي «حضور» المعشوقة حسيا، بلحمها وشحمها «غياب» آخر يستعيز عنه روسو ويكملها، من وجهة نظر دريدا، يقطع الطعام التي يخرجها العاشق من فمها ليلتهمها لتؤكد «حضورها» لأنها غائبة على الرغم من حضورها الحسي، وهكذا تصبح قطعة الطعام بديلا أو مكملا جديدا على السلم الجهنمي لمنطق الإكمال الديردي. ولابد أن قطعة الطعام نفسها تصبح في مرحلة ما ناقصة تترجم «غيابا» يحتاج المحب الشاب إلى إكماله، وهكذا إلى ما لا نهاية.

هل يشي ما كتبناه حتى الآن بأن ثنائية الحضور والغياب، كما يشرحها دريدا، هي مفتاح التفكيكية بكل تعاقباتها بل فوضاها الضاربية؟ إنها كذلك بالفعل من دون المبالغة، وإن كان ذلك يتحقق طوال الوقت بربطها بالثنائية الديرديّة التي ترتبط باسم الناقد الأمريكي/الفرنسي أكثر من أي شيء آخر، وهي ثنائية «الاختلاف والتأجيل» *deference/difference*. إن الثنائيتين معا تحدّدان نظرة دريدا إلى النص الأدبي، بل إلى الحياة ذاتها كنص تشكله «علامات» و«مكملات» يحكمها قانون أو منطق الإكمال الذي يرى في العلامة «حضورا» منقوصا، أي غيابا يحتاج إلى «مكمل» يعتبر هو الآخر حضورا وغيابا يحتاج إلى مكمل آخر، وهكذا في عملية اختلاف وتأجيل لا نهائية:

«من سلسلة المكملات هذه يتولد قانون: قانون سلسلة لا نهائية

تقوم بصورة تمهية بتوليد multiply عمليات وساملة تكميلية تتج

المعنى الذي توجهه: أثر الشيء - ذاته، أثر حضوره المباشر أو إدراكه

الأول. إن الحضور اشتقاق. وكل شيء يبدأ بالوسيط» (٢٥).

أي أن العلامات أو المكملات هي التي تؤكد أن هناك شيئا ما يمكن أن نضع أيدينا عليه، لكن هذا الشيء الأول يُوجّل بصفة مستمرة - أي أنه في حالة غياب - في وجود النسخ اللانهائية. ومع قليل من المنطق، ومن دون غموض يلجأ إليه دريدا، ويلجأ إليه عن عمد من قدموه في العربية حتى الآن، نستطيع أن نقول إن تأجيل الشيء الأول أو الأصل. أي غيابه المستمر، يعني أننا في حقيقة الأمر لا نمكّن من الوصول إليه، ولئن نستطيع أن نصل إليه

من النتائج إلى المقدمات

للتأكد من «حضوره». هكذا فعل روسو، كما أشار دريدا. حينما اعتبر أن البديل، وهو قطعة الطعام، أزاح Maman حتى في حضورها الجسدي وحجبها، بل حقق غيابها. وهكذا يخلص دريدا إلى مقولته المشهورة: «Il n'y a pas de hors-texte» لا يوجد خارج النص، وأنك في اللحظة التي يخليل إليك فيها أن علامة/علامات ما تقولك إلى شيء خارج النص، تكتشف أنه لا وجود إلا لنص آخر وعلامة/علامات أخرى:

«إن ما حاولنا إظهاره في تنبؤنا لخيط الربط، للمكمل الخطر»
هو أنه لا وجود في ما نسميه الحياة الحقيقية لخلوقات من لحم
ودم إلا للكتابة، ولم يكن هناك وجود لأي شيء سوى مكبالات
ودلالات بديلة يمكن أن تتحقق فقط داخل سلسلة من علاقات
التأجيل... وهكذا إلى ما لا نهاية، لأننا قد قرأنا داخل النص أن
الحاضر المثلث، والطبيعة، وما تصنعه الكلمات بـ «الأم الحقيقية»
إلخ، استطاعت دائماً أن تهرب، لم يكن لها وجود، وأن ما
يدشن المعنى واللغة هو الكتابة باعتبارها اختفاء [أو غياباً]
للحضور الطبيعي^(٣٦).

هل يقربنا ذلك كله، وببساطة أكثر من مفهوم المراوغة؟
indeterminacy «أو الفجوة» أو «الفراغ» blanks؟ إن المتابع للكتابات
العربية ما بعد الحداثية غير المألوفة سرعان ما يدرك أن الإجابة بالإيجاب،
وسوف نتعرض لنماذج من كتابات عربية ما بعد حداثية - غير مألوفة -
يخلط فيها بين الحضور والغياب وبين المراوغة والفجوة والفراغ. بالنسبة
لقارئ بسيط أو مثقف قليل الادعاءات قد يبدو هذا ذنباً يمكن اغتفاره.
ولكنه حينما يقوم به حدثي أو ما بعد حدثي عربي من بين هؤلاء الذين
يدعون احتكار العلم ويجهلون الآخرين، فإنه خطأ لا يقتصر. قد تبدو
المسافة بين ثنائية الحضور والغياب والمراوغة أو الفجوة مسافة قصيرة أو
لا وجود لها في واقع الأمر. فما أسهل أن يسارع المثقف العادي بعد قراءة
بسيطة لرأي دريداعن ثنائية الحضور والغياب كما عرضناها في تبسيط
كامل حتى الآن إلى القول: إن كل هذا يعني المراوغة وصعوبة تثبيت المعنى.
وإنصافاً لذلك المثقف قليل الادعاءات فإن ثنائيي الحضور والغياب
والاختلاف والإرجاء تؤديان في نهاية الأمر إلى تحقق المراوغة. وهذا هو

استنتاج عام يغفر لذلك القارئ استخدام مصطلح منها مكان آخر. أما الحدائث الذي يدعي احتكار المعرفة الحدائثية فإن الخلط جريمة لا تغتفر، لأن ثنائية الحضور والغياب كما يستخدمها دريدا تختلف عن مفهوم «رومان إنجاردن» Roman Ingarden «(١٨٩٦-١٩٧٠) الفيلسوف والناقد الأدبي البولندي الأصل الذي تتلمذ في مدرسة هوسيرل التأويلية والذي يرتبط اسمه بمفردات «المراوغة» و «الفجوة» و «الفراغ».

ثنائية الحضور والغياب عند دريدا تعني صعوبة الوصول إلى أصل العناصر النصية، وهي صعوبة تكاد تصل إلى مرتبة الاستحالة. فالأصول الأولى للأشياء، للحقيقة، للطبيعة، للأمم... إلخ، غائبة وإن كانت حاضرة في صورها ونسخها النصية. وحيث إن الوصول إلى الأصول الأولى للأشياء شبه مستحيل فإن دريدا يصل إلى قناعة بأن لا وجود أصلاً لما يمكن أن نسميه «خارج النص». لا وجود لهذا الخارج حتى نحاول الوصول إليه. ومن ثم لا يوجد إلا نص تعتبر مكوناته بدائل أو مكملات للأصول أو المنابع الأولى. وهذا ما قصده على وجه التحديد مارتن هايدجر بدعوته إلى حرق المكتبات. معنى ذلك أن المدلول الحقيقي في حالة مراوغة مستمرة للدال وأن كل محاولة لتشبيت مدلول أحد الدوال سرعتان ما تحول المدلول إلى دال يشير إلى مدلول آخر، وهكذا. وهذا هو جوهر المقولة التفكيكية: «كل القراءات إساءات قراءة All readings are misreadings». «مراوغة؟ نعم، مراوغة أكيدة. ولكن بهذا المفهوم التفكيكي الذي يختلف عن مفهوم مراوغة indeterminacy إنجاردن. كيف؟

إن المراوغة الهرمنيوطيقية التي يتحدث عنها إنجاردن، ويستخدمها مرادفة للفجوة والفراغ، تختلف عن مراوغة المدلول التي يتحدث عنها دريدا. إن إنجاردن يتحدث في كتابه The Literary Work of Art والذي نشر بالألمانية عام ١٩٣١، ثم ظهرت ترجمته الإنجليزية عام ١٩٧٦، عن التناغم القائم على التعدد الذي يجعل إنتاج عمل جمالي ممكناً. والتناغم الذي يتحدث عنه المفكر البولندي الأصل هو الاتفاق بين أربع طبقات للعمل الأدبي هي أصوات الكلمات ومعاني الكلمات والأشياء التي يمثلها النص وأخيراً الجوانب التخطيطية schematic. وتتشأ المراوغة أو الفراغ عن الطريقة التي يتم بها التناغم بين هذه الطبقات والمستويات داخل

من النتائج إلى المقدمات

العمل الجمالي. مثال ذلك المراوغة التي تنشأ حينما يفشل القارئ في تحديد صفة معينة في شيء يعينه داخل العمل الفني أو الأدبي، وهو ما لا يحدث عندما نحاول تحديد صفات الأشياء في الواقع خارج العمل الجمالي. ولتوضيح ذلك يعقد إنجاردن مقارنة بين غرفة حقيقية ذات وجود حسي وغرفة جمالية يصنعها مبدع في رواية أدبية أو لوحة فنية قائلا إنه لا مجال للمراوغة أو الفراغ أو «عدم التحديد indeterminacy» في تعاملنا مع الحجرة في الواقع. وهو تحديد لا يمكن وصف الحجرة الجمالية به، لأنه مهما بلغ كم التفاصيل التي يسوقها المبدع في وصف حجرته الجمالية فسوف يفشل ذلك الوصف - أي يفشل - في تحديد جزء منها، ومن ثم يترك للقارئ وفهمه محاولة تحديد ما لم يُحدد. وفي مقارنته بين الأشياء في الواقع وممثلاتها الجمالية يقرر إنجاردن أن الأولى تتصف بالتحديد بينما تتصف الثانية بعدم التحديد لأنها تقدم من خلال تعبيرات رمزية متعددة التفسير والدلالة، ومن ثم فإن النصوص الأدبية تترك الأشياء التي تقدمها أو تمثلها في حالة عدم تحديد لأنها تقدم مجرد مخططات schemata. وعلى الرغم من إنجاردن يؤكد أن التعبيرات الرمزية تضع حدودا للتفسير ولا تترك عملية التفسير مفتوحة أو دون قيود فإن تلك التعبيرات تترك بالضرورة مناطق فراغ lacunae حتمية. وكيف يختلف ذلك المفهوم للفراغ عن الفراغ عند دريدا؟ إن فراغ دريدا في حقيقة الأمر ليس مساحة فارغة يقول المتلقي بملئها بالدلالة أو المعنى، ولكنه في الحقيقة مساحة بين الدال والمدلول تسمح بتعدد الدلالة بل بالانهائية المعنى. فراغ إنجاردن نقص يكمله المتلقي، وفراغ دريدا مساحة لحرية التفسير أو التديل. فراغات إنجاردن أو فجواته أو مراوغته هي، ببساطة، المسكوت عنه، بينما فراغ دريدا هو المراوغة اللانهائية للدلالة والتي تقوم على التفكير المستمر للمعنى، إذ أننا كلما ثبتنا مدلولاً راوغ دالته وتحول إلى دال يحاول الإشارة إلى مدلول آخر. وهكذا إلى ما لا نهاية.

في أحد الأفلام الأمريكية المتميزة تقوم صداقة بين زوجة في منتصف العمر وسيدة مسنة تخطت الثمانين أرغمت على ترك بيتها مكرهة للإقامة في بيت للمسنين رغم إرادتها. ففي طريقة الحياة الأمريكية أصبح مالوكا

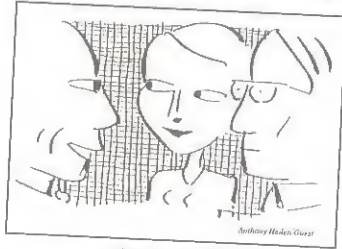
وعاديا أن يقوم الأبناء، من منطق حبهم (١١) للآب المسن أو الأم بارغامه على الإقامة في بيت للمسنين حتى يتقربوا هم لحياتهم، لكن السيدة المسنة تعيش حينها مؤرقاً لبيتها المهجور منذ سنوات، وتتجح في نهاية الأمر في الهروب والذهاب إلى بيتها الذي كان قد تم إزالته. وتجلس تعيسة فوق أطلال بيتها وحياتها لا تعرف ماذا تفعل. وتلتحق بها صديقتها. وأمام هذا الكم من التماسه وديافع حب قوي وحقيقي للسيدة المسنة تعرض عليها الإقامة معها هي وزوجها، وينتهي الموقف، بل الفيلم بجمليتين قصيرتين يكون المسكوت عنه أهم بكثير مما يقال. تسأل السيدة المسنة صديقتها: «وما رأي زوجك؟»، وترد الزوجة: «سوف يتعلم أن يحبك مع مرور الوقت». الإجابة التي توقعها السيدة المسنة هي على وجه التحديد ما لم تقدمها الزوجة. لم تقل لها إذا كان زوجها يوافق على فكرة إقامة امرأة غريبة معها أم لا، سكنت الصديقة عن الإجابة. ولا بد أن يقوم المتلقي - تحكمه الحدود التي أكد أنجاردن أهميتها حينما قال إن تعدد الدلالة ليس مفتوحاً - بملء الفراغ وانطاق النص بما صممت عنه. فبين السؤال والإجابة هناك فراغ ساعدت الإجابة في ملئه: «إن الزوج غير موافق». هذا هو فراغ أنجاردن، وهذا هو المسكوت عنه، وهو شيء يختلف عن المسافة بين الدال والمدلول عند دريدا.

ماذا فعلنا نحن، كحديثين وما بعد حديثين، بمفاهيم الحضور والغياب، والمراوضة كما قدمها دريدا: باعتبارها المسافة بين الدال والمدلول، وكما قدمها أنجاردن؟

لقد حاولنا في الصفحات القليلة السابقة أن نبطل سحر (demystify) بعض المفاهيم والمصطلحات الأكثر استخداماً بين الحديثين وما بعد الحديثين العرب، فائقارئ العربي لا يملك إلا أن يشعر بالرهبة وهو يتابع استخدامات الحضور والغياب والفجوة والفراغ والمسافة عند الحديثين العرب - سوف نكتفي مؤقتاً بوصفهم بالحداثيين، على الرغم من أن المصطلحات التي يستخدمونها ترتبط بفكر ما بعد الحداثة الغربية بالدرجة الأولى - لأنه يجد نفسه بالفعل أمام عالم من الأسرار ليس مسموحاً لأحد بدخوله، من ناحية، وعالم من القوضى الشاملة لا يجب أن يغامر بدخوله، من ناحية ثانية. بنطبق ذلك على الحديثين العرب الذين أصبحوا يحتلون مواقع الأساتذة لأكثر من جيل من الحديثين العرب

من النتائج إلى المقدمات

الجديد كما ينطبق على جيل شباب الحداثيين الذين يتعدون أكثر فأكثر عن المنابع الأولى للحدثة الغربية، ويقل فهمهم لها، ومن ثم تزداد المناطق العمياء في كتاباتهم، الطبيعة الأسمرية موجودة عند الجميع وإن كانت بدرجات متفاوتة، وإذا كان جونانان كاللر ينهي فصله الأول عن «تعريف النظرية» في دراسته المبسطة، النظرية الأدبية، برسم كاريكاتيري يسخر فيه سخرية لادعة من المنظرين الذين أصبحوا، كما يقول الرسم الكاريكاتيري، أخطر من الإرهابيين، فإن ذلك الرسم الساخر ينطبق بصورة أكثر تحديداً على المنظرين العرب:



أنت إرهابي؟... الحمد لله لقد ظننت أن ميخ تقول ذلك منظر،

"You're a terrorist? Thank God. I understood Meg to say you were a theorist."

إن مغزى الكاريكاتير يفقد الكثير في الترجمة إلى العربية بسبب التقارب الصوتي في نطق «Terrorist» و«theorist»، وقد حاولنا، كما قلت، تبسيط تلك الأفكار ما بعد الحداثية إلى درجة تقريبها جميعاً من فكر المثقف العادي، في مواجهة بساطة تلك الأفكار، بل حتى افتقارها إلى أي أهمية حقيقية في تاريخ النظرية الأدبية، نتابع تخيل الحداثيين العرب في التعامل معها وفي تقديمها تنظيراً ونظرياً، وبطريقة تتداخل فيها مفاهيم «الفراغ» باعتباره المسافة بين الدال والمدلول

عند دريدا، وباعتباره المسكوت عنه أو غير المحدد عند انجاردن وظاهريته. بل تتداخل عند بعضهم أحيانا الخطوط الفاصلة بين البنيوية والتلقي والتفكيك دون أن يدركوا ذلك التداخل. هذا بالإضافة إلى ما يعنيه ذلك من بعد عن مصطلحات نقدية عربية أصيلة كان من الممكن أن تغني الحدائي العربي عن استخدام المصطلح الأجنبي الغريب، لا شيء إلا لغرابته وطرافته، وسوف نبدأ هنا بنموذج متأخر تتداخل فيه الخطوط والحدود، مما يستدعي بعض الإطالة التي نرجو من القارئ أن يغفرها لنا. وسوف نضيف أرقاماً من عندنا في نهاية كل مقطع نقوم بعد ذلك بمناقشة دلالاته بالتفصيل:

«فعل القراءة أو التلقي كتابة جديدة، كتابة تتجدد بتجدد القارئ؛ وذلك لأن النص الشعري مفتوح قابل لكل كتابة جديدة. [١] يعيش حالة بحث، دائمة عن اكتمال اللامحدود وهو بذلك ناقص الكتابة، والقارئ هو الذي يتم هذا النص، ويضمن إمكان إعادة كتابة النص بشكل دائم [٢]. نخلص مما سبق إلى أن فاعلية التلقي في الاتجاه البنيوي اللغوي (ما أن تمثّل في الكشف عن انساق النص الشعري. لاكتشاف عالمه والقوانين التي تحكمه؛ وبذلك تتحدد مهمة القراءة النقدية بتتبع إنتاج الدلالة الشعرية وعوامل تولدها. [٣] فيسد الملقّي الفجوة مسافة التوتر في النص الشعري، والفجوة - مسافة التوتر بينه وبين النص [٤]. وإما أن تشمل هي استحضار أو استدعاء المدلول الغائب مقابل الدال العامنر [٥] أي في عملية الاستجابة لسفريات النص؛ وبذلك يتمكن القارئ من ملء الفراغات في النص الشعري، فيتحقق التفاعل بينه وبين هذا النص [٦]. ولا يختلف الأمر في دراسات الاتجاه البنيوي، التوليدي عن دراسات الاتجاه البنيوي اللغوي إلا في أمرين أولهما: ربط الدلالة التي ينتجها القارئ - اتقاد بالسياقين التاريخي والاجتماعي، فتحقق بذلك القراءة التوليدية انفتاح النص الذي يقبل تفسيرات متعددة القراءة، وثانيهما كون التلقي معادلاً لكتابة جديدة للنص الشعري [٧]. فلقراء والقراءة وجود فعلي، حتى في دراسات الاتجاه البنيوي الذي أكد استقلال الأعمال الأدبية، وعدم أهمية تجاوبات القراء، وذلك لأن القراء - النقاد أنفسهم يقرأون الكتب ويتجاوبون معها [٨].»

من النتائج إلى المقدمات

وقد تعمّدت في الواقع إخفاء المصدر وعدم توثيقه للمرة الأولى، على الرغم مما في ذلك من مخالفة صريحة للعلمية المطلوبة، وذلك حتى أستطيع مناقشة النص بحرية وبعلمية، نعم بعلمية كاملة، دون أن يوصف ذلك «بسوء النية» أو التجريح، فسوء النية الذي يتهمني به البعض هنا ليس أكثر من ممارسة لحق الاختلاف، والتجريح ليس سوى مناقشة تتسم ببعض التسوية، وهي قسوة تفرضها خطورة المنعطف الذي وصلنا إليه مع نهاية ألفية وبداية ألفية جديدة. إذ إن كاتب/كاتبة هذه السطور من الجيل الثاني من الحداثيين العرب الذين تتلمذوا، كما يؤكد ذلك نصه/نصها، على الجيل الأول للحدائين العرب، وهكذا/أضاف/أضافت إلى عدم قدرة بعض هؤلاء الأساتذة الأول على فهم المصادر الأصلية، إساءة فهم جديد خاص به/يها. ولنا أن نتصور خطورة الموقف الذي لا ينبغي أن يؤخذ بأدنى درجة من الاستهانة، حينما نتصور جيلا ثالثا أو رابعا يتلمذ هو الآخر على يد كاتب/كاتبة هذا النص! إننا نبتعد أكثر وأكثر عن الحقيقة في نزولنا على السلم الأفلاموني!

دعونا نقرأ أو نفسر فقرات النموذج في ضوء الخلفية اللغوية والفلسفية للحضور والغياب ومفهوم المراوغة أو الفجوة أو الفراغ التي استعرضناها في تبسيط - غير حداثي، في الفقرة الأولى [١] لا توجد شبهة اختلاف في أننا هنا أمام المفهوم الأساسي للتلقي والقارئ إلا لا يقوم بمجرد قراءة النص بل بكتابته، وإنه لا وجود حقيقيا للنص إلا داخل وعي المتلقي أو القارئ، ونذكر هنا بأن ذلك أيضا هو الذي أدى في النهاية، من بين عوامل أخرى، إلى لا نهائية الدلالة عند التفكيكيين التي ترى أنه لا يمكن تثبيت دلالة نهائية للنص. وأرجو أن يغفر لنا القارئ هنا تكرار بعض المقولات التي سبقنا الإشارة إليها في أكثر من موضع، لكن التكرار هنا جوهري لإبراز التداخلات بل التناقضات التي يحتشد بها النموذج.

وتبدأ الفقرة الثانية [٢] بتداخل ظاهري فقط يمكن تقبله دون عناء، فالحديث عن البعث الدائم، من جانب القارئ، لإكمال اللامعهود، هو مفهوم إنجاردن الذي أشرنا إليه من قبل عن تعريفه للقراغ أو الفجوة باعتبارها blank أو Lacuna، أو المسكوت عنه، ولا يملك أحد أن يقول إن

دور القارئ في كتابة النص، من وجهة نظر التلقي، ليست تطويراً لفكر إنجاردن وتأسيساً عليه. المهم هنا أن الفقرة الثانية تربط مفهوم الفراغ، وهو ما أسماه إنجاردن الظاهراتي بالمراوغة، وهو ليس مفهوم دريدا عن مراوغة المدلول للدال، وهي المراوغة التي تخلق فراغاً (Space) تختلف مسافته من نص إلى آخر. وفجأة تدخلنا الكلمات الأولى للفقرة الثالثة [٣] في متاهة مربكة لأنها تجسد ارتباط الكاتب/الكاتبة بنفسه/نفسها، فقد انتقلنا، من جوهر التلقي والتفكير إلى البنيوية، سواء كانت توليدية أم غير توليدية. وفهم الكاتب/الكاتبة لوظيفة القارئ/الناقد البنيوي في أثناء تعامله مع النص الإبداعي واضحة محددة وتتفق مع جوهر البنيوية كما يفهمها الجميع: «الكشف عن أنساق النص الشعري، لاكتشاف عالمه والقوانين التي تحكمه، وبذلك تتحد مهمة القراءة النقدية بتتبع إنتاج الدلالة الشعرية وعوامل تولدها»، وهذه كلمات تتم عن فهم كامل لوظيفة القراءة النقدية من منظور بنيوي. لكن المشكلة أننا وضعنا البنيوية من ناحية والتلقي والتفكير من ناحية ثانية في سلة واحدة. وهذا هو الجديد، وهذا هو همة الخلط والتداخل.

البنيوية، توليدية أو غير توليدية، تبدأ بالأنساق الصغرى للنصوص الفردية لتصل إلى أنساق كبرى أو عامة تقوم بعدها بتطبيقها على النصوص الفردية. وقد أسهنا في شرح ذلك في كتابنا المرايا المحدبة في الفصل المخصص للجدد عن البنيوية. هل هي حكماً على البنيوية من ناحية والتلقي والتفكير من ناحية أخرى، وهي اختلاف أدواتها وغاياتها، نعتف أو مغالطة؟ الاعتراض الوحيد المقبول والمنطقي بصفة مؤقتة ومبدئية فقط: لكن البنيوية التوليدية تفتح النص أمام القوى الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية! أليس هذا فتحاً للنص يؤكد أهمية وظيفة التلقي والقراءة في التعامل مع النص؟ وهذا ما تفعله الفقرة السابعة [٧] التي نتحدث بصراحة عن البنيوية التوليدية وتتم على «ربط الدلالة التي ينتجها القارئ - الناقد بالسياقين التاريخي والاجتماعي». وبهذا يكون الخلط والتداخل قد وصلنا إلى ذروتها! فنحن هنا خلطنا بين «فتح» و«فتح». التلقي والتفكير يفتحان النص أمام القارئ، وفي هذا يمكن أن يكون للسياقين التاريخي والاجتماعي دور باعتبارهما جزءاً من أهق

من النتائج إلى المقدمات

توقعات القارئ. أما البنيوية التوليدية فهي تفتح النص، هي أشاء فعل الإبداع، أمام القوى الاجتماعية والتاريخية التي تشترك في إبداع النص، أي في كتابته الأولى وإنشائه الأول، وليس في أشاء التلقي، في إيجاز أكثر وضوحاً؛ إن البنيوية التوليدية ترى أنه لا يمكن عزل النص، ومن ثم المؤلف، عن السياق الاجتماعي والتاريخي، أما التلقي فيرد التفسير إلى القارئ وليس المؤلف أو النص. ويزداد الخلط والارتباك مع نهاية الفقرة نفسها حيث يؤكد الناقد/الناقدة صراحة ادعاء السبق بالخلط بين التلقي والبنيوية التوليدية «وفتح» النص من منظور كل منهما، فيعد ربط دلالة النص التي ينتجها القارئ/الناقد بالسياقين التاريخي والاجتماعي «فتحقق بذلك القراءة التوليدية انفتاح النص (لا جدال في ذلك ما دمنا ندرك أننا نتحدث عن البنيوية التوليدية) الذي يقبل تفسيرات تتعدد بتعدد القراءة». إن المصيبة أن كاتب/كاتبة هذه الكلمات لا يدرك/تدرك أنه لا توجد أدنى علاقة بين فتح النص في البنيوية التوليدية التي ترى بضرورة وضع النص داخل الطرف التاريخي والاجتماعي الذي أنتجه وبين فوضى التلقي أو التفكيك الذي يرى ضرورة وضع النص داخل وعي المتلقي به! كما قد تخطئنا عدداً من الفقرات حتى نربط بين الدلالات المتباينة بل المتناقضة التي اجتمعت في تفسير الأصل لمصطلح نقدي واحد هو «فتح النص». لكننا في الواقع مازلنا في بداية طريق الخلط والارتباك وسوء الفهم، وهكذا نستدرك ما فاتنا في الفقرات التي تخطئناها.

في الفترة الثالثة تجتمع المتناقضات دون ضوابط، وهكذا نبدأ مع البنيوية التي تقدم في كلمات موجزة لا يمكن أن تختلف حول دقتها: «نخلص مما سبق إلى أن فعالية التلقي في الاتجاه البنيوي اللغوي إما أن تتمثل في الكشف عن أنساق النص الشعري، لاكتشاف عالمه والقوانين التي تحكمه؛ وبذلك تتحدد مهمة القراءة النقدية بتتبع إنتاج الدلالة الشعرية وعوامل تولدها». إذا أغمضنا أعيننا أو تجاهلنا مؤقتاً لفظة «التلقي» التي وردت في السياق السابق تصبح الكلمات نموذجاً لبلاغة الناقد/الناقدة في تعريف جوهر البنيوية بمثل هذا الإيجاز والاقتصاد في التعبير، لكن المشكلة أننا لا نملك أن نتجاهل، بصفة دائمة أو مؤقتة، لفظة «التلقي» التي وردت في السياق السابق لأنها محور النموذج كله حيث يخلط بين فتح

النص أمام القوى التي تشترك في إنتاجه في أثناء فعل إنشائه الأول، وفتح النص أمام تفسيرات القراء اللانهائية عند التلقي. ولهذا بعضي النص، في الفقرة الرابعة [٤] لينسخ أي وضوح محتمل للرؤية النقدية: «فيمسد المتلقي الفجوة مسافة التوتر في النص الشعري، والفجوة - مسافة التوتر بينه وبين النص» أي «فجوة» يتحدث عنها النص؟ هل الفجوة المقصودة هنا هي الفجوة نفسها في الفقرة الأولى [١]؟ إن الفجوة في الفقرة الأولى، كما قلنا، توصف بأنها «اللامحدود» و «الناقص» وهو ما يقرّبنا بشكل ربما لم يدركه كاتب/كاتبة الفقرة، من مفهوم المسكوت عنه عند إنجاردن، لكن الفجوة المقصودة في الفقرة الأخيرة التي نحن بصدها يقصد بها بشكل واضح «مسافة» التوتر بين الدال والمدلول، وهو مفهوم تفكيكي يقدم داخل سياق بنيوي حددته بداية الجملة! وحتى لا نفلت من دائرة الفوضى الجهنمية بسهولة يضيف النص النموذج فجوة أخرى هي مسافة التوتر بين القارئ والنص! وكان مهمتها كقراء، مهما بلغت درجة ثقافتنا، أن نقضي الساعات الطوال، في أثناء قراءتنا لنص نقدي تستغرق قراءته بضعة ثوان أو حتى دقائق، في محاولة فك الخيوط المتشابكة، والخطوط المتداخلة، وتضمن معنى، نعم مجرد تضمن معنى نص هو نموذج للفوضى وسوء الفهم!

وهي الفقرتين الخامسة [٥] والسادسة [٦]، يفترض فينا أن ننسى بنيوية الفقرة الثالثة تماماً ونعود إلى التلقي والتفكيك والمسافة بين الدال والمدلول، مسافة المراوغة أو الفجوة. وعلى الرغم من أن الفقرة الثامنة [٨] والأخيرة تحاول تحقيق عملية «توفيق» سطحية فإنها تذكرنا بكل تناقضات الفقرات السابقة في إصرار. التوفيق السطحي القائل إن للقراء والقراءة وجوداً فعلياً، حتى في دراسات الاتجاه البنيوي «من قبيل التعميم الذي لا يختلف عليه أحد؛ فلم يقل أحد منذ بداية التاريخ المعروف للأدب بالإناء وجود القارئ أو القراءة. فهذا مبدأ أساسي ومبدئي. وقد اختلفت المذاهب النقدية منذ البداية حول درجة «تحييد» القارئ أو درجة تفصيله. لكن الناقد/الناقذة حينما يكتب/تكتب في تعريف الاتجاه البنيوي: «الذي أكد استقلال الأعمال الأدبية، وعدم أهمية تجاوب القراء» فإنه/إنها بذلك ينسف كل المحاولات في السطور السابقة لتأكيد فاعلية القراءة البنيوية،

من النتائج إلى المقدمات

تماما كقراءة المثقفي! وإذا كان الأمر كما تقول هذه الكلمات الأخيرة باستقلال الأعمال الأدبية وعدم أهمية تجاوبات القراء في المشروع البنيوي، فأي بنوية جديدة وعبقرية كانت السطور السابقة التي أكدت دور القراء والقراءة تحاول التأسيس لها؟ أم أن السطور تتحدث عن بنوية لم يسمع بها أحد؟ أدرك جيدا أن المناقشة المطولة لذلك النموذج الحدائي وما بعد الحدائي، وإن كانت ما بعد الحدائة مسكوت عنها، لابد أنها استنفدت صبر بعض القراء، لكن الإطالة كانت مقصودة لتصوير خطورة الأزمة الثقافية التي نعيشها، ولا أبالغ إذا قلت إنني شخصا أشعر أن هذا هو «الرعب القادم» إذا لم نفعل شيئا يعيد تحديد الهوية ويعين المسار. فني بضعة أسطر، وربما لا تصل إلى خمسة عشر سطرا في النص الأصلي، وفي «نفس واحد»، كما يقولون، تجتمع المذاهب والإستراتيجيات والمشاريع النقدية التي شهدتها الساحة العربية في السنوات الأخيرة من القرن العشرين من بنوية إلى تلق إلى تفكيك، وتثقل المصطلحات النقدية في خلد قوضوي بكل عواقبها المعرفية/الفلسفية، مثل هذه المحاولة قد تكون مقبولة لو أننا أمام محاولة ذكية للتوفيق بين تلك المذاهب، وتحقيق «توليفة جديدة»، لكننا أمام نموذج مخيف لسوء الفهم. ويزيد من حجم الرعب القادم أن كاتب/كاتبة النموذج النقدي السابق ينتمي/تنتمي إلى الجيل الثاني أو الثالث من الحدائين العرب الذين يبتعدون أكثر وأكثر عن المصادر الأولى للحدائة الغربية التي أخذ عنها آسانتتهم. وقد قلنا، وأثبتنا من خلال بعض النماذج التي قدمناها في الفصل الحالي، إن بعض هؤلاء الأساتذة أنفسهم أساءوا فهم الأصول الأولى للحدائة وما بعد الحدائة الغربية، ولنا أن نتصور كم التشويه وسوء الفهم الذي يمارسه حدائيو الجيل الثاني اليوم بعد أن تتلمذوا على يد الجيل الأول! إذا كان البعض يرى أن في الحديث عن «الرعب القادم» تهويلا ومبالغة غير مقبولة فليهم أن يسألوا أنفسهم أولا: ماذا سيكون شكل الفكر الحدائي العربي عند جيل قادم يتلمذ على يد كاتب/كاتبة النموذج النقدي الذي ناقشناه في إطالة قد يراها البعض مملّة؟ وبعد هذا، وبقليل من التجرد هل سيقولون إن حديث الرعب القادم تهويل ومبالغة، حتى وإن قالوا إن الحدائة الغربية في جوهرها، وبمثل هذا الخلط الغريب، تتفق مع الثقافة العربية؟

المرايا المقمرة

ومرة أخرى، ومن باب التخفيف الكوميدي بعد هذه الصفحات القائمة، نقتل رسماً كاريكاتيرياً آخر يورده كائلر في كتابه النظرية الأدبية في معرض الحديث عن غموض النظريات الحديثة وما بعد الحداثة داخل الثقافة التي أفرزتها حيث يصور رجلاً مات بسبب قيامه بالقراءة لمدة ساعتين دون تدريب مسبق:



"He read for two straight hours without any training."

وإذا كان هذا هو حال القارئ الغربي في تعامله مع فكر أفرزته ثقافته، فماذا يكون مصير القارئ العربي وهو يتعامل مع فكر غريب ودخيل، من ناحية، ينقل إليه بتلك القوضى التي جسدها النموذج النقدي السابق، من ناحية ثانية؟

هل كان فهم الحداثة وما بعد الحداثة الفرييتين بالغموض والتداخل نفسه عند الجيل الأول والذين أسميناهم جيل الأساتذة من الحداثيين العرب والذين تتلمذ على أيديهم جيل كاتب/كاتبة النص السابق؟ الواقع إن الصورة

من النتائج إلى المقدمات

لم تكن بهذا السوء والقمامة، فقد كان هؤلاء، وغير منافذ مختلفة، يأخذون عن المصادر الأجنبية الأولى، ولم يكونوا قد ايتعدوا عن الحقيقة المثلى أو الأولى بحركتين أو ثلاث حركات بعد. لكن ذلك لا يعني أن القموض والتداخل لم يكن لهما وجود، إن الفارق فارق درجي فقط، ربما نلتمس لذلك الرعيل الأول بعض العذر، وأحيانا الكثير من العذر، فقد كانوا في عجلة واضحة لتحديث العقل العربي بعد عام ١٩٦٧، وانعكست تلك العجالة بشكل لا مفر منه فيما نقلوه، تأثرا أو ترجمة، عن الأصول الأجنبية. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فقد وجدوا أنفسهم يتعاملون، كما يقول محمد عناني، «مع الفاظ وتعبير لم تعد بعد من المصطلحات، لأننا لم نتفق عليها بعد، فهي حديثة العهد في اللغات الأوروبية ولا تزال، كما يقول فاولر في معجم مصطلحاته الأدبية، [الإشارة هنا إلى Dictionary of Roger Fowler, A Literary Terms (١٩٩٠)] غير ثابتة المعنى، ولا تزال مشار جدل controversial ونقاش بين النقاد»^(٢٧). وهذا على وجه التحديد ما حدث مع ناقد حداثي وما بعد حداثي عربي مثل عبدالله الغذامي.

لقد سبق عبدالله الغذامي الحداثيين في التعرف على تفكيكية ما بعد الحداثة، وهذه حقيقة يؤكدها كتابه الخطيئة والتكفير التي صدرت طبعته الأولى في جدة عام ١٩٨٥، حتى قبل أن يتحول كمال أبو ديب نفسه إلى التفكيكية، متعاملا مع مصطلح نقدي لم يكن قد نُقل إلى العربية أو، على الأقل، بُث في العربية. وفي الوقت نفسه لابد أن عبدالله الغذامي أدرك خطورة الهوة اللانهائية التي يمكن أن تؤدي إليها إستراتيجية التفكيك وفلسفة التأويل الألمانية التي قامت عليها، وفي وقت لم يكن الغذامي قد انتقل كلية من البنوية وأدواتها النقدية في التعامل مع النصوص الأدبية قدم الخطيئة والتكفير كنموذج للتقد التفكيكي مطبقا على شعر حمزة شحاتة، هكذا، وبقلب موزع بين مصطلح بنوي تربي عليه، ولو لفترة قصيرة، ومصطلح تفكيكي لم تثبت دلالاته بعد، وحذر واضح من الجهر بتبني مذهب ما بعد حداثي، جاءت نماذج التطبيقية تعكس هذا التمزق بين الرغبة والخوف، وقد سبق أن قلنا إننا في بعض الأحيان نلتمس الكثير من العذر لهؤلاء الحداثيين الأوائل الذين كانوا يحرقون في تربة جديدة تماما. لكن الأعداء، قلت أو كثرت، لا تنفي أن هناك قدرا من الخلط لا تخطئه العين المجردة:

«ولذا فإن التحليل التشريحي [سبق: أن أشرنا إلى أن الغذائي
ترجم Deconstruction إلى تشريحية] للنص، من أجل أن يعقد
العلاقة بين النصوص المفترض تداخلها، لا بد أن يكسر النص إلى
وحدات صغرى ويمهّزها ليقيم الصلة بينهما وبين مداخلاتها.
ولذا فإنني سعيت إلى تفكيك النصوص إلى وحدات، وسأسمي
الوحدة (جملة)، والجملة هنا هي: أصغر وحدة أدبية في نظام
التشفرة اللغوية للجنس الأدبي المدروس، أي أنها تمثل (صوتيم)
النص بحيث لا يمكن كسرها إلى ما هو أصغر منها» (٢٨).

لا أعتقد أن الأمر يحتاج إلى وقفة طويلة أو قصيرة لإبراز التداخل
الواضح بين البنيوية والتفكيك في مشروع الغذائي للتعامل مع قصائد حمزة
شعلته، فهو يستخدم أدوات التحليل البنيوي ليحقق هدفاً تفكيكياً لا يتوقف
عن تذكيرنا به. وتفكيكية عيدالله الغذائي في حقيقة الأمر في ذاتها مزيج
من تحليل النقد الجديد، والبنية اللغوية للنص عند البنيوية ثم مصطلح
تفكيكي غريب عن الاثنين. ففي الوقت الذي يردد مقولة هنسنيت ليتش عن
تفكيكية دريدا التي تقوم على لا نهائية التفكيك: «وكل قراءة تشريحية (يقصد
تفكيكية) هي نفسها مفتوحة للتشريح... ولا يمكن لأي قراءة أن تكون
نهائية... ولكنها مادة جديدة للمشرحة» (٢٩). يقول في موضع آخر:

«ومادام النص جسداً، فلا بد أن يكون القلم مبضعاً يلح إلى هذا
الجسد لتشريحه من أجل سبر كوامنه وكشف المغازم في سبيل تأسيس
الحقيقة الأدبية لهذا البناء. أي أن ذلك تفكيك وتقض من أجل البناء
وليس لذات الهدم. وهي عملية مزدوجة الحركة حيث نبداً من الكل
داخلين إلى جزئياته واحدة واحدة، لتعيد تركيبها مرة أخرى كي تصل
إلى كل عضوي حي لها... ومن هنا تأتي التشريحية كاتجاه نقدي عظيم
القيمة، من حيث إنها تعطي النص حياة جديدة مع كل قراءة تحدث له،
أي أن كل قراءة هي عملية تشريح للنص، وكل تشريح هو محاولة
استكشاف وجود جديد لذلك النص، وبذلك يكون النص الواحد آفاً
من النصوص يعطي ما لا حصر له من الدلالات المتفتحة أبداً» (٣٠).

في النصف الأول من هذا المقطع لا يمكن أن يكون الغذائي يتحدث عن
التشريحية/التفكيكية، فالكلمات هنا مفصلة تفصيلاً على النموذج التحليلي عند

من النتائج إلى المقدمات

النقاد الجدد، وليس عند التفكيكيين أو حتى البنيويين، أما النصف الثاني فيؤكد أنه يتحدث عن التفكيك، على الرغم من التناقض بين ما يقال في النصين؛ ولا يشفع للغذامي أن ينوه في بداية الفقرة التالية مباشرة إلى أنه يقدم تفكيكية مختلفة: «وهذه تشريعية جديدة تختلف عن تشريعية دريدا، تلك التي تقوم على محاولة نقض العمل المدروس من خلال نصوصه». إنها فعلاً تشريعية مختلفة عن تشريعية دريدا، ما هي ذلك شك، ولكنها تشريعية تلفيقية من النقد الجديد والبنوية وتشريعية دريدا. ويكفي أن نحيل القارئ إلى أحد النماذج التطبيقية التي يقدمها الغذامي في تعامله مع أحد قصائد حمزة ضحانة ليتأكد أن التطبيق الذي يمارسه لا علاقة له بالتفكيك، سواء كان تفكيك دريدا أو تفكيكا جديداً، وما على القارئ إلا أن يرجع إلى صفحة ٢٧٢ من التخليلة والتكفير حيث يورد الناقد جدولاً بنيوياً وإحصائياً خالصاً لعدد وأزمنة الأعمال ثم أسماء الأعمال في فصيحة «يا قلب مت ظمًا».

وسواء كان تعامل عبدالله الغذامي مع «تفكيكية» ما بعد الحداثة يقوم على حذر مقصود، متعمد أم لا فإن الموقف من الإستراتيجية التفكيكية ككل يحدد موقفه أيضاً من جزئياتها، وهكذا نستشعر الخلط نفسه في مفهوم الحضور والغياب، فهو يجمع بين المفهوم كما قدمه إنجاردن على أساس أن الغياب هو الفراغ lacuna الناتج عن النقص في التمثيلات اللغوية داخل النص للحقيقة الخارجية، مثل الغرفة في الواقع ووصفها داخل رواية أدبية، وقد سبق أن قلنا إن ذلك النقص هو «المسكوت عنه» الذي يقوم المتلقي بإحضاره أو الفراغ الذي يقوم بملئه، ولكنه ليس لا نهائية الدلالة. وهذا المفهوم الذي يعبر عنه عبدالله الغذامي في اقتدار واضح يتفق مع كل ما قصده إنجاردن عن مناطق المروعة واللاتحديد:

«والأدب يقوم على حالات الغياب وليس على حالات الحضور، ومن يقف في الأصيل متأملاً في الشمس وهي تغرب فلن يطربه الاستماع إلى مرافقه يعطيه وصفا لهذا المنظر. ولكن هذا الإنسان في موقف آخر منفصل عن هذا المشهد سيطرب كثيراً لسماع قصيدة تصف الغروب لأن نفسه تقبل على الجانب الغائب هنا، وتأخذ في رسمه حسب إمكاناتها التخيلية. والجانب العمي في النص هو ما يجب علينا البحث عنه في التجربة الأدبية»^(٢١).

«الجانب الغائب» و«الجانب المعمي» هما مفهوم القراغ Lacuna أو منطقة الثلاثديد التي أكدها إنجاردن قائلًا إن وظيفة القارئ أن يملأها بتجسيدهات concretizations، هما المسكوت عنه الذي يقوم المتلقي بملأها. لكن التجسيد أو الإنطلاق أو ملء الفراغ بالنسبة لإنجاردن كما سبق أن بينا، لا يتم دون ضوابط، فعدد أنشطة القارئ هنا تقررهما حدود النص اللغوي، التعبيرات الرمزية التي أكد إنجاردن أنها تحدد دوائر حرية حركة المتلقي. بعبارة أخرى، من الصعب أن نقول في نهاية الأمر، وفي تجاهل «التجسيد» و«القيود» التي يذكرها إنجاردن، إنه يعني لا نهائية الدلالة. والنموذج الذي يقدمه الغذامي عن الغروب في الواقع والغروب الجمالي داخل عمل أدبي نموذج رائع في تفسير مناطق الفراغ Lacunae من وجهة نظر إنجاردن. لكن ما حدث أيضًا أن عبد الله الغذامي يحمل ذلك النموذج الدقيق عبء تفسير ثنائية الحضور والغياب بالمفهوم الدريدي، وفي ذلك يربط الغذامي بين الحضور والغياب التفكيكي وبين الحضور والغياب بالمعنى الحسي والحرفي. ففي حضور المشاهد لغروب الشمس لا تظهر الحاجة إلى نص أدبي أو فني بديلًا عن الحضور المادي. وفي غيبة مشهد الغروب الفعلي يصبح الحضور الجمالي هو البديل. لم يدرك عبد الله الغذامي في تلك الفترة المبكرة من التعرف العربي على التفكيكية، إن دريدا يرى أن العالم الخارجي نفسه نص آخر، يعجب بقدر ما يكشف، تمامًا مثل غياب Maman الحقيقي في حضورها الجسدي في حضرة روسو، كما فسر دريدا العلاقة الشهيرة بين المفكر الفرنسي وعشييقته. وفي الوقت نفسه، فإن الغذامي يعود وبصفة دائمة إلى مفهوم «المراوغة» كما قدمه كل من بارت دريدا باعتباره المراوغة المستمرة التي يمارسها المدلول مع الدال وكيف يتحول كل مدلول، بمجرد تثبيتته، إلى دال جديد وهكذا دواليك. باختصار لقد كان ذلك التعرف المبكر الذي قدمه الغذامي على التفكيك في وقت لم يكن غالبية الحداثيين العرب قد سمعوا عنه مكلنًا دفع الرجل ثمنه تناقضات وتداخلات لا تحتاج إلى جهد كثير لاكتشافها، «الغذامي»، كما يقول حاتم الصكر:

«لا يتحدد بالقواعد النظرية، أو المنطقات الخاصة بالتفكيكية، ولا يحافظ على تعاليم بارت والبنوية عامة، إلا يرى - خلافاً لنيتويين - أن النص مفتوح يؤدي فيه الحرف إلى الكلمة، والكلمة إلى الجملة، والجملة إلى السياق، وإلى النص، ثم إلى النصوص».

من النتائج إلى المقدمات

الأخرى وهذا هو النص (المعلّاء) لا المغلق الذي يصبح محمّلاً ليس فيه غير معنى حبيس في جمل مؤطرة، ويخالف الغدّامي بنويته حين يدعو إلى أن تكون مهمة المحل هي وصف علاقتنا بالنص لا وصف النص، وبذلك ينتقل الاهتمام من النص إلى القراءة^(٢٢).

لمّا كل هذا التوقّف عند مثل هذه الجزئيات، خاصة أنّنا نرفض الأخذ بالحدائث الغربية في كثير من أمورنا، ونتشكك في ما بعد الحدائث إلى حد التخوف؛ لأنّ التداخل الذي قدمه الغدّامي، على الرغم من هداية السبق، هو على وجه التحديد ما قرأه وتعلّم منه جيل أو جيلان منذ عام ١٩٨٥ حتى الآن، ولنا أن نتصور مقدار بعدهم عن الصورة أو الحقيقة الأولى. أي أنّنا نواجه اليوم بعمليات نقل فكر غريب عن الثقافة العربية، من ناحية، ومشوه أو خرف عدة مرات، من ناحية ثانية؛ وإذا كنت قد وصفت تلك الحالة بـ«الرعب القادم» في الصفحات السابقة، فلنأتي أجد نفسي، مع كثير من الأسف، أعداء ذلك الوصف إلى «الرعب القائم». لقد وصل الرعب بالفعل وأصبح بيننا نعيشه مع بعض الكتابات الشابة. فحركات الاعتماد المستمرة عن المصادر الأولى للحدائث وما بعدها، وما يتبع ذلك من عمليات تشويه مستمرة تقدم تفسيرات جديدة للحضور والغياب لم تخطر على بال إنجاردن أو دريدا، إن مفهوم ملء الفراغ بين الحقيقة الخارجية والحقيقة الجمالية داخل النص كما يرى إنجاردن، أو ملء المسافة بين الدال والمدلول كما يرى دريدا، على الرغم من بساطتهما التي تقسّرب من السدّاج، يتحول إلى أشياء غريبة، كالقول مثلاً إن الفراغ الذي يملأه القارئ هو الفراغ بين صورة فنية وصورة فنية أخرى داخل القصيدة ومرة أخرى سوف أخالف مقتضيات المنهج العلمي وأحجم عن تحديد اسم الناقد/الناقدة التي أرجع إليها، ويكفي أن يعلم القارئ أن النموذج للناقد نفسه/الناقدة السابق:

«وقد ربط الناقد الإثارة بقراءة الشعر واستحاثته وتلفيته بشيء عن انغموس النسبي، الذي يستكشف القارئ من خلاله دلالات الشعر وتمتلك قيمة جمالية ويتحقّق هذا الإحياء عندما يجمع الشاعر بين الصور المتقابلة بتأنيها، والمتصلة بعلاقة ما فيها بينها؛ إذ يجبر هذا الجمع القارئ على سدّ الفجوة بين الصورة والصورة، وذلك لأنّ اللثني قد يستطيع إعادة تفهم (لا معنى) بعض الصور في الظاهر، ويتمكن من معناها عندما يترك فراغ الحلقة بين صورة وأخرى،

وعندما يتبع الخيط الذي يربط قصيدة الشاعر الواحد، ثم مجموع قصائده كلها».

ما نعرفه - وليس هذا كشفًا حداثيًا جديدًا - أن القارئ يقوم بمحاولة تأسيس علاقة، قد تثبت وقد تفكك في قراءة أخرى، بين طرفي الصورة الواحدة محاولاً تضيق مساحة المراوغة بين الدال والمدلول، كما يحدث في الاستعارة والتشبيه والكناية مثلاً. أما أن نضع الفجوة بين صورة وصورة فهذا هو الجديد. هل نحتاج للإشارة المبكرة هنا إلى أن سبب كل هذا الخلط والتداخل هو أننا جربنا، في انبهار، وراء مصطلح غربي شديد البريق والسذاجة كالبصير والغياب وأدركنا ظهورنا بالكامل للنقد العربي بترائه الطويل والثري والذي يزرع بعشرات المؤلفات التي لا يخلو واحد منها من دراسة للمجاز بأنواعه المختلفة؟ ثم، وهو الأهم، هل تكون بذلك قد حققنا، تحديث، العقل العربي؟! لكن الأمر الأخطر من ذلك أن الحديث عن «الفرغ» و«الفجوة» ارتبط إلى حد كبير بمفهوم القطيعة المعرفية epistemological break في مرحلة متأخرة من تطور الفلسفة الغربية وما يتبع ذلك من إزاحة معرفية يصعب على الثقافة العربية تقبيلها، وهو المبدأ الذي ناقشه ميشيل فوكو في كتاب *The Order of Things* (الترجمة الإنجليزية ١٩٧٢)، والذي يرى أن كل عصر معرفي جديد يزيح العصر المعرفي السابق مولداً في أثناء ذلك فراغاً في الفقرة المفصلية. وما يهمنا هنا هو خطوة ما يقوله فوكو عن القطيعة المعرفية الأخيرة والإزاحة التي صاحبها. ففي مرحلة سابقة حدثت قطيعة معرفية تمت فيها إزاحة المقدس من مركز الوجود ليحل محله العلم والعقلانية. أما في المرحلة الأخيرة، فقد أزيح العقل لتحل محله اللغة، سواء في المشروع البنيوي أو إستراتيجي التفكير، وهي إزاحة ارتبطت في الفكر الفلسفي الغربي بمعملية التفكيك والشرذمة بعد فترة طويلة كان الفكر الإنساني في أشأها يرى الوجود وحدة متكاملة تجمع بين المقدس والكون والإنسان واللغة. من دون ذلك التفكيك لم تكن عمليات الإزاحة والإحلال ممكنة. وهكذا أزاح العقل بالمفهوم الكانطي العالم الخارجي في حقبة معرفية، ثم أزاح الاقتصاد والمادية والعلم والمقدس في حقبة أخرى، ثم أزاحت اللغة العقل والاقتصاد. أما في مرحلة ما بعد الحداثة الأخيرة فقد اختلطت الأشياء، بعد أن أصبح الشك المطلق هو الحقيقة الوحيدة الباقية^(٣٢). هل كان بريق مصطلحات

من النتائج إلى المقدمات

«الفراغ» و«الفجوة» و«الحضور والغياب» يبرر تفاضلي الحدائين العرب من كل العوائق المعرفية المحملة بها تلك المصطلحات، وتقلها كما هي دون إدراك للاختلاف؛ ثم، هل المسافة بين تلك المصطلحات الغربية البراقة وبين المصطلح النقدي العربي «معنى المعنى» من الاتساع بحيث تبرز إدارة ظهورنا بالكامل للمصطلح النقدي العربي وتبني المصطلح النقدي الغربي بعواقبه الخطيرة؟ ولا أقول هنا إنه لا يوجد اختلاف بين «معنى المعنى» وتلك المصطلحات، لكن الاختلاف بين دلالة المصطلحين العربي والغربي لا يكفي لتبرير هذا الانبهار بمنجزات الفلسفة الغربية؟ وهذا حديث آخر.

ومرة أخرى، أنهدا يتم، تحديد، العقل الغربي؟ وإذا كان هو التحديث، فما اتجاه هذا التحديث؟ الإنجاه الحالي - لا خلاف في ذلك - هو الاتجاه نحو ما بعد الحداثة... ولكن ما بعد الحداثة التي نتحرك في اتجاهها؟ لنقرأ مما كلمات أول ناقد معاصر استخدم المصطلح بكثافة في سياقها الحالي وهو إيهاب حسن، وتلك حقيقة يجمع عليها النقاد المعاصرون. في بحثه الذي ألقى في المؤتمر الدولي الثاني للنقد (جامعة عين شمس ٢٠٠٠) يعترف إيهاب حسن صراحة: «ماذا كانت ما بعد الحداثة، وما هي الآن؟ اعتقد أنها عودة شبح، أنها عودة ما لا يمكن التحكم فيه، فكلاما تخلصنا منها، يظهر شبحها مرة أخرى، وكشبح، فإنها تتحدى التعريف. إنني بالقطع أعرف اليوم عن ما بعد الحداثة أقل مما كنت أعرفه منذ ثلاثين عاما، عندما بدأت الكتابة عنها»^(٢٤). ويمضي الرجل الذي ارتبط اسمه بالمصطلح لمدة ثلاثين عاما ليصف استحالة الاتفاق على دلالة محددة لما بعد الحداثة ليكتب في سخرية لاذعة:

«إن المصطلح، ناهيك عن المفهوم، يمكن بهذا الشكل أن ينتمي إلى ما يسميه أفلاستة بالفئة الخلافية من الدرجة الأولى، وهكذا، وبلغة أبسط، إذا وضعت في حجرة واحدة المناقشين الأساسيين للمفهوم - مثل ليزلي فيدلر، شارلز جنتز، جان - فرانسوا لوتيار، برنارد مسميث، روزالين كراوس، فريدريك جيمسون، مارجوري بيرلوف، لندا هتشمون، ولزليدة إريك، أنا - ثم أغلقت الحجرة وألقيت بالمفتاح بعيدا، فلن يحدث إجماع بين المشتركين في الجدل بعد أسبوع، وإن كان خط رقيق من الدماء سوف يظهر من تحت الباب»^(٢٥).

وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن نشير في سياقنا الحالي إلى إيهاب حسن، فقد تحدثنا حتى الآن، على سبيل المثال، عن فوضى فهم وتطبيق مفهوم الفراغ، سواء أسماء البعض الفجوة أو المنطقة المعماة أو المراوغة، كل ذلك داخل سياق أعم وهو ثنائية الحضور والغياب، وقد كان إيهاب حسن من أوائل مفكري ما بعد الحداثة الذين كتبوا مبكراً عن «المراوغة» أو «الفراغ» في بحث له بعنوان: «Age of Indeterminacy and Immanence Margins of the (Postmodern)» (1٩٧٧). ومن ثم، فإن علينا أن نقرأ بعناية كلمات الرجل حول مصطلح الفوضى ما بعد حداثتي تنهات الحداثيون العرب، دون أن يسألوا أنفسهم إذا كانت العوالم والرياء التي تجمّع مع المصطلح الغربي هي ما نريد نقله إلى ثقافتنا وذرعه فيها، وراي إيهاب حسن لا يختلف عن رأي ميشيل فوكو الذي ربط بين القطيعة والإزاحة المعرفية من ناحية، والتشرد والتفتت وسقوط وحدة العالم من ناحية ثانية. لكن إيهاب حسن، في بحثه الأخير، يضيف إلى التفتت والتشرد فوضى المصطلح الذي لا يتفق على دلالاته حتى داخل الثقافة التي أفرزته، وعند أبرز مستخدميه في الولايات المتحدة:

«لثني أقصد بالفراغ (المراوغة)، والأفضل أن نقول الفراغات، تركيبة من الاتجاهات تشمل الانفتاح، التشوُّب، الغموض، الانقطاع، اللامركز، التعاض، التعدد، التشويه، وكلها تؤدي إلى اللاتحديد أو قلة التحديد. المصطلح الأخير وحده، وهو التشويه، ينسحب على «دستة» مصطلحات حاله للتفكيك مثل اللابعد، التفتت، الإزاحة، الاختلاف، الانقطاع، التزق، الانعواء، اللاتحديد، الاستعسار، اللاكل، اللاشعري، اللااستعماري، إن هذه المفاهيم تجمعها إرادة شاملة للتدمير أو الإسماء undoing تؤثر في عالم السياسة والمعرفة، النفس الفردية، وفي أنواع الخطاب في الغرب»^(٣٦).

ويرتبط بالارتباك المصاحب لاستخدام مناهج الغياب والحضور والمراوغة، والفجوة، والفراغ ارتباك مماثل في مصطلحين «النص الخلق» و«النص المفقود» فالحدثيون وما بعد الحدثيين العرب يستخدمون المصطلحين في سياقين مختلفين، بل إن ذلك يحدث عند الناقذ الواحد دون إدراك واضح لتلك التداخل، خاصة عندما يكون موقفه التنظيري غير واضح المعالم.

من النتائج إلى المقدمات

لقد ظللنا لسنوات طويلة نقرأ للبنيويين العرب ونستمع إلى آرائهم حول النص المفلق والنص المفتوح حسب انتماءاتهم البنيوية. فالبنيوية الشكلية على وجه التعديد تؤمن بإغلاق النص وأن آلية الدلالة، أو حدوث الدلالة، يعتمد بالدرجة الأولى على شبكة العلاقات الداخلية التي تربط بين أنساق النص وتمكنها من أحداث الدلالة التي تتحقق دون حاجة إلى استدعاء أي شيء من الخارج. أما البنيوية التوليدية فتري أن «النص مفتوح» على الخارج بمعنى أن تحقق الدلالة يعتمد، بالإضافة إلى شبكة العلاقات التي تنظم الأنساق الداخلية، إلى استحضار مؤثرات خارجية، قد تنتمي إلى أنظمة غير أدبية، مثل القوى الاجتماعية والاقتصادية التي ساهمت في إنشاء النص الإبداعي. هذا، بنسبته تام، مفهوم «النص المفلق» و«النص المفتوح» في المشروع البنيوي بجناحيه الرئيسيين. وما يهمنا في هذا السياق أننا نتحدث عن الانفتاح والانغلاق من وجهة نظر النص ومنشئه، أي العوامل التي تؤثر في حالة فتح النص أو لا ينبغي أن تؤثر في حالة إغلاق النص، في عملية الإنشاء وليس في عملية التلقي.

وقد قدمنا حتى الآن عددا من النماذج النقدية العربية، الحدائية وما بعد الحدائية، التي يقدم فيها مفهوم «الفتح» و«الإغلاق» من الطرف الآخر كلية، من طرف التلقي، وهو ما يعني أن النص، بصرف النظر عن كونه مغلقا أو مفتوحا عند نقطة الإنشاء، «مفتوح» أمام القارئ الذي لا يقوم فقط بتحقيق دلالاته أو تفسيره، بل بإعادة كتابته عن طريق استحضار الغائب فيه، وملاءمته قرائنه وفجواته، وهذا هو النص «المعماء»، كما يسميه عبدالله الغذامي، الذي يسمح للقارئ بنشاط تفسير النص بل إعادة كتابته. أما النص الذي لا يسمح بذلك فهو النص «المفلق» المتحجر.

ولاشك في أن لكل من الموقفين شرعيته التي تؤسسها الدراسة النقدية التي ينتمي إليها، لكن تلك الشرعية تصبح عبثا حينما يستخدم الحدائي العربي هذين المصطلحين، من الموقفين المعارضين، في سياق واحد دون أن يدرك أنه بذلك يخلط الأوراق بشكل مربك. وفي النموذج المطول الذي جنينا اسم كاتبه عن عمد مثال صارخ للتداخل المربك الذي نتحدث عنه. إن الأزمة، في إيجاز، لا تتمثل في غموض المصطلح أو مراوغته في سياقه الأصلي الأجنبي، ولكنها تتمثل في استخدامنا العربي له بحرية وفي تداخل

غريب يرجع إلى أننا في حقيقة الأمر عاجزون عن تحديد انتماءاتنا بالدرجة الأولى. مفهوم فتح النص وإغلافه في حد ذاته قديم قدم النقد ذاته، وهو أمر لا يحتاج إلى إثبات أو مناقشة أو تفصيل. أما نحن فننصرف في انهيارنا بإنجازات العقل الغربي كأننا أمام فتح نقدي جديد قدمته الحداثة وما بعدها.

وقد فعلنا الشيء نفسه مع مصطلح غربي، هو الآخر قديم قدم النقد الأدبي، وهو المصطلح Poetics، الذي وقفنا أمامه في انهيار غريب كأننا نتعامل معه للمرة الأولى لا لشيء إلا لأن المصطلح القديم قدم أرسطو ذاته على الأقل عاد إلى احتلال بؤرة الضوء في النقد الحداثي الغربي. صحيح أن الوصفة الحداثية الغربية مع المصطلح القديم ارتبطت بتفسيرات ثم إعادة تفسير جديدة انتهت إلى تحميل المصطلح القديم دلالات جديدة لم يحدث عليها اتفاق حقيقي حتى الآن، وأن أبرز التفسيرات الجديدة حتى الآن تفسير رومان ياكوبسون للمصطلح (Poetics) باعتباره «لغة عن اللغة»، وهو التفسير الذي يقدمه عبدالله الغدامي في إيجاز رائع في الخطيئة والتكفير، نقلا عن ياكوبسون ببعض التصرف:

«والشاعرية تتبع من اللغة لتصف هذه اللغة: لغة عن اللغة تحتوي اللغة وما وراء اللغة، مما تحدثه الإشارات من موجهات لا تظهر في الكلمات، ولكنها تختبئ في مساريها. وهذا تمييز للشاعرية عن اللغة العادية ويستعين. ياكوبسون يعلم المتعلق الحديث ليؤسس التمييز هنا ويقسم اللغة إلى فئتين: لغة الأشياء، وهي ما نمارسه عادة في الحديث عن الحياة والأشياء، والفئة الثانية: ما وراء اللغة، وهي لغة اللغة، عندما تكون اللغة هي موضوع البحث وهذه هي الشاعرية. ولكنها لا تقوم كشيء ذي قيمة إلا بأن تتجاوز ظاهراً اللغة فتفسر بواطنها وتستكشف تركيباتها الخفية. ولو اقتصرنا على ما في اللغة فقط لكانت كمن قسر الماء بعد الجهد بالماء»^(٢٧)

وحتى نفهم جيداً ما يتحدث عنه ياكوبسون عبر الغدامي فإننا نذكر بأن الكلمات السابقة وردت في سياق محاولة الأول الإجابة عن سؤال مبدئي هو: «ما الذي يجعل الرسالة عملاً فنياً»، وبعد السطور السابقة مباشرة يشير الغدامي

من النتائج إلى المقدمات

إلى رأي كل من تودوروف وفراي في تعريف الشاعرية، فالأول يرى أن الشاعرية تهدف إلى تأسيس نظرية ضمنية للأدب، واستنباط الشفورات المعيارية التي ينطلق منها الجنس الأدبي، أما الآخر فيرى أن فهم الشاعرية شرط للفهم النقدي، وأن وظيفة الناقد لكي يحقق ذلك الفهم أن «يعمد إلى تأسيس التقوانين العامة للتجربة الأدبية، وباختصار لابد أن يكتب مستندا على إيمان بأن هناك أبنية كلية قابلة للإدراك والتعريف في معرفتنا عن الشعر، وهي ليست الشعر نفسه، ولا ما فيه من تجربة، ولكنها: الشاعرية». لقد أثرت في سياقنا الحالي أن أشير إلى ياكسون وتودوروف وفراي من خلال الغدامي عن عمد. لأن ما فهمته أنا هو بالقطع ما فهمه الغدامي، وهو أن ما يتحدث عنه النقاد الثلاثة هو ما يجعل الشعر شعرا، أو نظرية الشعر، ثم، وهو الأهم، أننا لا نتحدث هنا عن «الشعر» كنوع أدبي معروف، بل نتحدث عن كل إبداع أدبي وهو ما يؤكد الغدامي، حينما يشير إلى كلمات تودوروف: «الشاعرية إذن هي الكليات النظرية عن الأدب، نابعة من الأدب نفسه، وهادفة إلى تأسيس مساره، فهي تناول تجريدي للأدب مثلما هي تحليل داخلي له». لكن الغدامي حينما ينقل إلى تطبيقه هو ثم تطبيقه يتحدث فجأة عن «الشاعرية» وهي الترجمة التي يختارها للمصطلح القديم المعاصر Poetics، لا باعتبارها صفة أو قيمة تصف بها الشعر. الشاعرية كما يراها الغدامي ليست نظرية الشعر بل الخصائص اللغوية التي لا تختلف كثيرا عن مفهوم الاستخدام الخاص أو الرمزي للغة، وهو مفهوم لا يختلف عن معنى لفظة poetic باعتبارها صفة في الإنجليزية، ومن ثم لم يكن من الصعب أن يربط الناقد الحدائي العربي بين ياكسون وتودوروف وفراي وبين القرطاجني والحديث الشريف:

«وتتحول الكلمة عندئذ إلى (إشارة) لا لتدل على معنى وإنما لتثير في ذهن إشارات أخرى، وتجلب إلى داخلها صورة لا يمكن حصرها، وهذا ما سماه القرطاجني بالتحثيل... حيث يركز على ما يحدثه النص من أثر إشاري في ذهن المتلقي ينتج عنه أن تقوم في الذهن صور ينفع لتخليها، ويتبعها صور أخرى يحدثها الانفعال اللاشعوري - من جهة الانبساط أو الانقباض - على تعبير القرطاجني - كأنه يقول بعبارة التوازن القائم على (التعارض انشائي) في تأسيس الشاعرية...»

ولذا فإن (الشاعرية) انتهاك لقوانين العادة، ينتج عنه تحويل اللغة من كونها انعكاساً للعالم وتعبيراً عنه أو موقفاً منه، إلى أن تكون هي نفسها عالماً آخر، ربما بديلاً عن ذلك العالم. فهي إذن (سحر البيان) الذي أشار إليه الأثر النبوي الشريف (إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان شحراً). وما السحر إلا تحويل للواقع وانتهاك له، بقلبه (إلى لا واقع)، أو هو (تخييل) على لغة القرملاجني، أو تحويل العالم إلى خيال» (٢٨).

لقد تحول معنى Poetics من نظرية للأدب - قد تختلف حول الترجمة، بالطبع - تبحث فيما يجعل النص الشعري شعراً، وبعبارة أدق، فيما يجعل النص الأدبي أدبياً إلى شاعرية لغة الشعر، في «الأقوال الشعرية» التي أشار إليها القرملاجني وأشار إليها الغدامي في صفحة سابقة من كتابه. لقد كان القرملاجني - على الرغم من سبقه الواضح لياكسون، كما يؤكد الغدامي، في حديثه عن نظرية الاتصال، يتحدث عن «الأقوال الشعرية»، أي قصائد الشعر، وليس الأدب عامة.

وحتى لا نطعم عبد الله الغدامي بهذا التركيز، ولا نقتل من جهده في خضمة حركة النقد العربي المعاصرة، ومحاولاته المستمرة لإقامة جسر ثقافي بين الحدائث الغربية وما بعدها وبين التراث النقدي العربي، وهي محاولات تشهد بها عمليات العودة الملحة لأعلام النقد العربي القديم في معرض حديثه عن التشكيك الغربي، نقول إن الحيرة في التعامل مع المصطلح النقدي الغربي Poetics لم تكن أبداً حيرته وحده، ولكنها حيرة جيل كامل أمام مصطلح نقدي مستورد تجسد في نهاية المطاف في أكثر من عشر ترجمات - حتى الآن - لمصطلح واحد. في بحث لـ «ثامر الغزي» نشر في مجلة علامات السعودية (مارس ٢٠٠٠) يورد الباحث عشر ترجمات، سبق أن أحصاها حسن ناظم في دراسة سابقة له بعنوان «مفاهيم الشعرية»، للفظ Poetics هي: «الشعرية» و«الإنشائية» و«الشاعرية»، و«علم الأدب» و«الفن الإبداعي» و«فن النظم»، و«فن الشعر» و«نظرية الشعر» و«بوطيقيا» ثم «بويتيك». ونستطيع أن نضيف إليها بالطبع ترجمة أخرى هي «علم الشعر» التي وردت في أكثر من موضوع في كتابات جابر عصفور، وإن كنت لا أستطيع أنؤكد نسبتها إليه. إننا أمام إحدى عشرة ترجمة عربية لمصطلح نقدي غربي واحداً معنى ذلك أن يقوم كل كاتب حدائث عربي من

من النتائج إلى المقدمات

الأجيال المتأخرة الذين لم تتح لهم قراءة الفكر الحدائث وما بعد الحدائث الغربي في لغاته الأصلية باختبار الترجمة التي تحلو له، وعلى القارئ العادي المسكين أن يضيع وهو يحاول تحديد الدلالة المقصودة للترجمة المختارة. ولسنا هنا في مجال تحديد درجات الاختلاف والاتفاق بين هذا الخليط المريب من الترجمات، أو حتى محاولة تحقيق قدر من الاتفاق على ترجمة واحدة للمصطلح يشيها الجميع. إن كل همنا هنا هو إبراز حالة الفوضى التي أوصلتنا إليها عملية الانبهار بالحدائث وما بعد الحدائث الغربيتين.

لكن الطريف أن لفظ «علم» يستخدم مرتين في ترجمة ذلك المصطلح الغربي الذي ترجم مرة إلى «علم الأدب» ومرة أخرى إلى «علم الشعر». مرة أخرى ليس الهدف هو المفاضلة بين الترجمتين، لكنه التوقف عند «العلمية» الجديدة كأحد مقانين خديعة «حديث» العقل العربي. نعم لقد استخدم شعار العلمية عنواناً للاتجاهات الحديثة باعتبار أن العلمية هي مدخلنا المبدئي لتحديث الفكر العربي. وتحت ستار العلمية ارتكبت مغالطات لا تحصى.

لقد كان الطموح الأول للدراسات اللغوية منذ السنوات المبكرة من القرن العشرين هو تحقيق «علمية الدراسات اللغوية». وقد كان هذا حلم سوسير الذي مهد مبكراً لظهور علم العلامات أو السميولوجيا. وقد حاول نقاد الأدب البنيويون، بنقلهم للنموذج اللغوي في التحليل إلى النص الأدبي، تحقيق علمية مماثلة للنقد الأدبي. وعلى الرغم من أن الفلسفة الألمانية، الظاهراتية والتأويلية على وجه التحديد، كانت قد سبقت ذلك الاتجاه وأن انتقالتها إلى اللغات الغربية الأخرى، مثل الفرنسية والإنجليزية قد تزامنت مع الأهل مع الدعوة الجديدة لعلمية النقد، فإن الشعاع ظل مرهوقاً حتى نهاية الستينيات دون كثير نقض. ثم انهارت علمية النقد، وعلمية اللغة تحت معاول الفلسفة الألمانية من ناحية، والاستراتيجية التكيكية، من ناحية ثانية. وهكذا، ومنذ البداية، صاب دريدا، كما يقول محمد غناتي، جام غضبه على البنيوية والبنيويين:

«إن صاب جام غضبه على ما رآه أو ما زعمه من طموح دعاء البنيوية إلى اتباع المنهج العلمي فإن العلم science في نظره، مثله في ذلك مثل الدين والفلسفة والميتافيزيقية، يقيم نظامه system على ما يسميه بالحضور presence ومعناه التسليم بوجود نظام خارج نطاق اللغة وإطار عملها بحيث يبرر ما تدعيه من الإحالة إلى الحقائق أو الحقيقة truth»^(٣٩)

كان الشك في علمية اللغة وعلمية التحليل اللغوي البيوي للأدب، بل نفي تلك العلمية قد بدأ بالفعل داخل معسكر ما بعد الحداثة الغربية، بدأ قبل أن يرفع الحداثيون العرب، خاصة حداثيي الثمانينيات، العلمية شعاعاً لهم بسنوات طويلة، والواقع إن رصد مواقف الحداثيين العرب يظهر ازدواجية وربما ثلاثية لاهتة للنظر، ففريق البيويين استمر في تمسكه بشعاره المبدئي، علمية النقد، تأسيساً على علمية التحليل اللغوي، على الرغم من أن عصر الشك الكامل داخل الثقافة الغربية كان قد أصاب شعار العلمية في مقتل. وفريق ما بعد الحداثيين الذين تبنوا بعض مقولات إستراتيجية التفكيك، أو: إستراتيجية التفكيك، تحولوا، بالطبع، إلى رفض العلمية واعتبارها قيداً على الإبداع والنقد. أما الفريق الثالث، وهو أشد الفرق خطورة على العقل العربي، فهم الفئة التي تقف في منطقة وسط، لا عن معرفة ودراسة، أو حتى محاولة انتقاء ذكية وصعبة من التيارات المختلفة، بل عن عدم فهم لما يحدث حولهم، وهكذا ندخلت عندهم كل الاتجاهات النقدية في خيلهم غريب لا هو بنيوية أو تلق أو تفكيك، ولا هو أيضاً تراثي. من بين أعضاء الفريق الثاني الذين كتبوا سجنين، في بداية العصر الذهبي للبنوية العربية مع صدور مجلة **فصول**، محمد مفتاح الذي نيه إلى أن العلمية كانت مقتل البنوية في دراسته المبكرة: تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، والتي صدرت طبعها الأولى عام ١٩٨٥:

«إن النظرية الوضعية المعاصرة كان لها دور كبير في تشأع كثير من العلوم وتطورها لأنها صاغت قوانين علمية أو اجتماعية لتفسير الظواهر، وكذلك فإنها أعدت (مؤقتاً) من مجال اهتمامها ما ليس خاضعاً للتقنين ولا قابلاً لصياغة القواعد. وهكذا فإن الدراسة اللسانية الموضوعية لا تهتم كثيراً بالوقائع النمنية (التفهم والتبرير والإيضاح)، والمجاز (الاستعارة والكناية) والمجاز (الموسل) أي ما يكون روح أنواع الخطاب الأدبية والشعرية وأضرابها، ولكنها في نفس الوقت ركزت على المعطيات القابلة للإحصاء والتكميم، وهكذا شاعت المنهجية الإحصائية للأصوات والصيغ الصرفية والمعجم والتركيب والصور قصد دراسة النصوص وتاويلها على أسس علمية (علموية)»^(٤٠).

من النتائج إلى المقدمات

إن المتابع لعشرات، بل مئات النماذج للتعامل البيئي مع الشعر العربي لا يملك إلا أن يقف مذهولاً، ولا أقول حائراً، أمام ما يقتصر في حق الإبداع، حديثه وقديمه، من آثام. فهذه «المقاربات» البيئية، متدثرة بغطاء «العلمية» لا تقرب «القصاصد» من المطلق، ذلك العنصر الأساسي في ثنائية الإبداع/التلقي أو الكاتب/القارئ، بل تبعدها عنه، لأنها من ناحية لا تحقق أكثر من تحليل لغوي للقصيدة - هذا إذا لم يعتمد الناقد الغموض والإيهام والمراوغة، ولا تحقق «إنارة» النص من ناحية ثانية، وفي أحيان كثيرة، لا يتحقق حتى مجرد نحو القصيدة، وينتهي بنا الأمر إلى جداول إحصائية - تبدو علمية بالقطع، فالإحصاء علم له قواعده وله دوره - ولكنها لا تساعد، من قريب أو بعيد، في اقتراب القارئ العادي من القصيدة نفسها. والطريف، أنني سحبت من فوق رف مكتبتي أقرب مجلد وضعت يدي عليه، وأقسم أنني لم أختر المجلد، حينما وضعت يدي عليه أخذت أتصفحه باحثاً عن بيتي؛ وهو رسم بياني أو جدول إحصائي قدمه كاتب - أي كاتب - لإضفاء صبغة العلمية على «المقاربة» النقدية، كان المجلد هو فصول، المجلد السادس عشر العدد الأول، صيف ١٩٩٧. وكان الجدول الذي لفت نظري أولاً، قبل البحث أو كتابته، هو الجدول التالي الذي قدمه محمد مفتاح. هل قلت محمد مفتاح؟ نعم، محمد مفتاح ويعطه المشار إليه بعنوان: «مدخل إلى قراءة النص الشعري، المفاهيم معاً»^(١). محمد مفتاح نفسه الذي كتب في ١٩٨٥ رأياً يعيب فيه، ولومن طرف خفي، على «المنهجية الإحصائية»، التي تهمل الوقائع النغمية والمجاز من استعارة وكناية ومجاز مرسل، وهي جميعاً «روح» الخطاب الأدبي، من أجل تحقيق حصر إحصائي للأصوات والصيغ الصرفية والمعجم والتركيب والصور، وهذا، على وجه التحديد، ما يفعله محمد مفتاح، مع بعض تنويعات تقترضها القصيدة التي يتعامل معها، وهي قصيدة الشاعر المصري رفعت سلام: «إنها تؤمن لي». وبصرف النظر عن موقفنا المبدئي القائم على أن هذا التعامل النقدي مع القصيدة يقوم بحجبها عن المطلق ولا يحقق أي إنارة، فإن الموقف في حد ذاته نموذج للمنحنى الذي وصلنا إليه في الثقافة العربية! فنحن نعيش تداخلات وتناقضات مستمرة بين حداثي وحداثي، وبين مرحلة ومرحلة أخرى حداثة للفكر نفسه، وأحياناً كثيرة داخل النص الواحد! أي رعب هذا الذي يعيشه المثقف العربي العادي؟

إن الجدل أو البيان الإحصائي على الصفحة المقابلة لا يحتاج إلى تعليق. وما على القارئ إلا أن يكرر تجربة المؤلف نفسها ويمد يده إلى مجلد أو كتاب يشتمل أن صاحبه حدثني لتطالعه نماذج مماثلة، قد تكون أقل أو أشد تعقيداً، ولكنها جميعاً تشترك في عدم إثارة النص الإبداعي:

بل وصل الأمر بناقد كبير مثل كمال أبي ديب في انتباهه بعلمية النقد الغربي إلى ياس من نقل علمية البنيوية الغربية لأنها سوف تستعصي على فهم القارئ العربي غير القادر على التفكير في القضايا الكلية، ومن ثم غير القادر على إدراك «القيمة الثورية للبنيوية»، ولهذا، وبسبب هذا اليأس عند كمال أبي ديب من قدرات القارئ العربي على التعامل مع النظريات العلمية، يختار الرجل أن يركز جهده على تطبيق المنهج العلمي للبنيوية كما عرفها، أو كما سبق إليها الآخرون، على الخصوص العربية، ما يتيح للقارئ العربي «الفرضية لإدراك الهوة العميقة بينه وبين المناهج الأخرى السائدة في الدراسات العربية، وأمتهانه عليها»^(١٢). وقد سبق أن توقفتنا طويلاً في المرايا المحدبة عند نماذج من تطبيقات أبي ديب على الشعر الجاهلي، وكيف تحولت باسم العلمية، إلى عمليات تعذيب حقيقية للنص الشعري لتطلقه بها ليس فيه، تماماً كما قال روبرت شولز في سياق نقده للبنيوية. وحينما نقول «إنطاق النص» هنا فلا نعني إنطاق الصوامت أو ملء الفجوات، بل نعني فرض تفسير أو معنى على النص لا يمكن للنص في الظروف العادية، وبعبارة عن «جهاز الشد» الحدائي، أن ينطق به. «إن فكرة وضع اللغة»، كما يقول شولز، «لشعر فوق جهاز الشد rack إرغامه على الإقضاء بأسراره أو، ما هو أسوأ، على الاعتراف الكاذب، كانت مثار رعب جزء كبير من العالم الأدبي، وقد كانت النتائج الضلعية للنقد الأدبي الذي قام به البنيويون فظيعة بما فيه الكفاية»^(١٣).

وبعد

لقد استغرقتنا فصلين كاملين وطويلين، لتحديد معالم الدعوة لتطبيق معرفية مع تراثنا النقدي، وهي الدعوة التي ركبت موجة الشعور القومي والرغبة الصادقة في «تحديث» العقل العربي بعد هزيمة عسكرية أطاحت بحلم تحقيق صحوحة عربية كبرى من المحيط إلى الخليج، وعلى الرغم من شرعية الدعوة للتحديث فإن ما حدث أن البعض حول ذلك الشعور الصادق

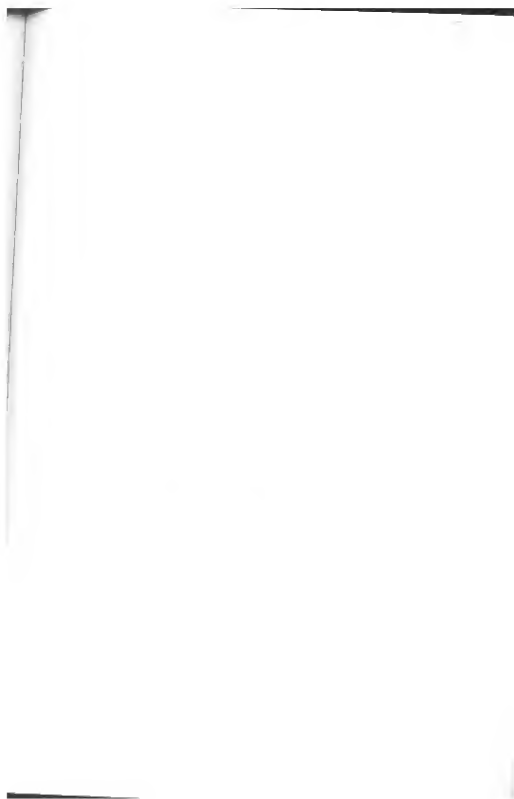
إلى دعوة للأخذ بكل ما هو غربي، والتفكير لمنجزات العقل العربي بل احتقارها. ومبرعان ما استُبدلت الحداثة بالتحديث اعتماداً على تقارب لفظي خداع. وقد كان الارتواء في حضن الحداثة الغربية، دون إدراك لمواضع الاختلاف ومكامن الخطر، كاملاً. وهكذا قُبل البعض الحداثة الغربية في جوهرها القائم على التمرد على القديم والمألوف، وحينما تحولت الحداثة الغربية إلى ما بعد حداثة تقوم على الشك المطلق في كل شيء اتزلق البعض إلى متاهاتها، من فعلوا ذلك دون وعي لم يكونوا أقل ذنباً ممن فعلوا ذلك عن وعي وإدراك. لكن الأخطر من هذا وذاك أن الانبهار بالحداثة الغربية جاء تمهيداً مبكراً واختيارياً من جانب البعض للوقوع في فخ السيطرة الأجنبية. وقد ناقشنا في ذلك الجزء الأول أيضاً آراء بعض المفكرين من داخل المعسكر الغربي حول العلاقة بين الحداثة وما بعد الحداثة الغربية وبين الهيمنة التي يؤكدها النظام العالمي الجديد القائم على ثنائية العولمة وحرية التجارة. وقد انتهى بنا المطاف، في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، إلى زحام هو أقرب إلى القوضى منه إلى أي شيء آخر في المفاهيم والمصطلحات النقدية كان نتيجة طبيعية لفتح ثقافة واحدة. هي الثقافة العربية، أمام حداثة متعددة، غربية وشرقية، دون إدراك الاختلافات الجوهرية بين الثقافة العربية وتلك الثقافات المستوردة. وزاد الطين بلة أن عمليات النقل عن العقل الغربي، كانت تنسم في أحيان كثيرة بالفموض والتشوش بل سوء الفهم. أما ثلاثة الأثافي، فقد كانت ضيعتنا الكاملة بعد القطيعة المعرفية مع التراث العربي في مواجهة فوضى المصطلح النقدي، وفي أحيان كثيرة، أحيان كثيرة جداً، كان البعض منا يفتار أن يدبر ظهره لمصطلح نقدي عربي محدد، بل وعصري وحداثي إلى أقصى حدود العصرية والحداثة، ليستعير أو ينقل مصطلحاً لا يعرف بداياته أو نهايته.

من هنا تبدأ أهمية محارلتنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب لوصول ما انقطع.



الجزء الثاني

وصل ما انقطع:
نحو نظرية نقدية عربية



مدخل

موقفنا من التراث

لقد تحدثنا في إطالة في بداية الجزء الأول من الدراسة الحالية عن موقف المثقف العربي من التراث في القرن العشرين، وهو موقف حددته ثنائية متكررة تكرر النمط، هي الانبهار بإنجازات العقل الغربي، واحتقار إنجازات العقل العربي. في تلك الصفحات المبكرة لم نتوقف عند بداية ازدهار الفكر الحديث في العالم العربي في ثمانينيات ذلك القرن، فلم تكن الحداثة العربية، كما قلنا في حينه، بداية لتلك الثنائية المؤسفة، وإنما كانت الذروة، أو القشة التي قصمت ظهر البعير، كما يقولون. وقد أشرنا أيضا إلى أن البدايات المبكرة للثنائية، مع ديوان العقاد والمازني وغريال نعيمه، كانت تطويراً شبه حتمي لثقافة الشرخ التي بدأت قبل ذلك بقرن من الزمان على الأقل، ومن ثم، نود أن نطعمن القارئ في بداية الجزء الحالي من الدراسة إلى أننا لن نرغمه على عبور الجسر السابق تقسه من جديد، ولكننا سنعتبر معه

إن السبب في عدم تبلور نظرية بلاشبية عربية معاصرة كما نرى في أن العديد من الدراسات التي مورست في حقلنا النقدي لم تراع في فتراتها الشروط البلاغية العربية... الأمر الذي أسفر عن تفهيمها للعديد من خصائصها في إجراء اللغسة وفي توظيف البلاغة.

محمد سالم الأمين

جسرا آخر، هو الجسر الأساس في الدراسة الحالية، وتعني به موقفنا كمتقنين عرب من تراثنا النقدي العربي على وجه التحديد. وأثناء عملية العبور الجديدة سوف نحاول تحديد موقف مؤلف المرآيا المقعرة من ذلك التراث، ومنهجه في إعادة قراءته واستقرائه والهدف من ذلك، وعلاقته بالدعوة إلى تأسيس نظرية نقدية عربية، وهذا هو الطموح الذي استتر خلف رفض المدارس النقدية الحداثية وما بعد الحداثية الغربية مثل البنوية والتلقي والتفكيك في المرآيا المحدبة. وهو الطموح نفسه الذي دفع المؤلف إلى الجهر بتلك الدعوة في كل صفحة من صفحات المرآيا المقعرة الحالية.

كان لابد لنا، أثناء عبور الجسر الحالي من التوقف في عجالة هذه المرة، ودون تكرار لمقولات سابقة، عند ثلاث محطات رئيسية لتحديد بعض المواقف من التراث عامة، والتراث النقدي العربي القديم خاصة. المحطة الأولى تأخذ موقعها في بداية القرن العشرين، والمحطة الثانية حول منتصفه، أما المحطة الثالثة والأخيرة فقرب نهايته، ومن نافلة القول هنا التنكير بأن المواقف عند هذه المحطات الثلاث تتباين وتتداخل وتتزامن، بين رفض لا يخلو من الحدة للتراث العربي القديم مع انهيار بالفكر الغربي، إلى دعوة صريحة إلى تحقيق قطيعة معرفية مع التراث قبل تحقيق تحديث العقل العربي، ثم إلى محاولة لإمسك العصا من منتصفها بين التراث العربي والحداثة الغربية، وسوف نتعرض لنماذج من المواقف الثلاثة في انصصالها وتداخلها بقي، من التفصيل، ونعود، في محطتنا الأولى، إلى الغريال وموقف ميخائيل نعيمة الحاد من رفضه للتراث العربي القديم تأسيسا على أن الزمان غير الزمان، وأن مياها كثيرة قد مرت تحت الجسر، مما يجعل التناحر بإنجازات العقل العربي القديم مثار السخرية والاستهزاء. وهكذا يكتب نعيمة:

«هناك زمرة من المنتقدين الذين إذا قرأوا هذه السطور لا يدعون.

سهما في جمبتهم إلا رمونا به. هم يطربون إلى ماضينا فيرونه محاطا بهالة من السؤدد والمجد والعظمة. عندهم بعض عبارات ترددها المنتقم «كلما دق الكور بالجرة» كقولهم: «بلادنا مهبط الوحي - بلادنا مهبط الإنسانيات - بلادنا أم الأنبياء... إلخ. ههلا توافقوني أيها القراء الأعزاء حينئذ إرضاء لخواطر هؤلاء الأدباء المنتقدين أن نحول لنا قمصانا كالتي كان يرتديها أجدادنا...»⁽¹⁾

وإذا كان هذا ما نريده، أي التفاخر بأمجادنا الغابرة، في رأي ميخائيل نعيمة، فيجب علينا أن نعود إلى بغداد نحيي أمجاد الخلافة ونقيم علينا خليفة معاصرا مكان هارون الرشيد، ونختار وزيرا نسميه جعفر البرمكي، أو فلنعد إلى نجد واليمن فتحيي بُد ومُحضر وحِمير ونحیی سوق عكاظ، عندئذ، كما يقول نعيمة، لن يضحك أو يسخر منا أحد حينما نتفاخر بأمجادنا اليوم، وحيث إن تلك عودة مستحيلة، فإن نعيمه يخلص إلى:

«هذا بلاؤنا، إنا ونحن لا نملك شروى تقير، ندعي الغنى والنوارة، إنا ونحن في كهوف الحياة وظلماتها، نفاخر الماشين في النور والساترين في مقدمة الجيوش البشرية، إنا ونحن جهلاء، ندعي العلم والنور والمعرفة، إنا، ونحن ضعفاء، نضج ونكثر من الصباح، كان قوّة المرء في حجّرتة، وقد سها هؤلاء المتفاجرون بالجهل عن أن الإقرار بالضعف قوّة»^(٢).

وإذا كان ميخائيل نعيمة قد انطلق في رفضه للتقديم كله من نقطة «المهاجر» المقيم في أمريكا، والمنبهر بإنجازات العقل الغربي، فإن موقف عبدالعظيم أنيس ومحمود أمين العالم، بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما، لا يختلف عن موقف المهاجر المنبهر بالعقل الغربي، وإن كان انهيار الأخيرين ليس بالعقل الغربي، بل بالعقل الشرقي الأجنبي هو الآخر. فالواقعية الجديدة، وهي التسمية التي استخدمها البعض بديلا عن الواقعية الاشتراكية، وصلت في انهيارها بإنجازات الثورة البلشفية إلى موقف المهاجر إلى الغرب نفسه من رفض للتراث العربي واحتقاره، وهو موقف لم تخفف من حدته كثيرا نعمة التراجع النسبي التي سادت مقدمتهما لطبعة لاحقة لكتابهما: في الثقافة المصرية (١٩٥٤). بل إن الاعتراف، في تلك المقدمة المتأخرة، بأنهما كتبا «ماكتباه في فترة براءة ثورية وفكرية، لم يغير من حقيقة اعتماد المقالات التي شملها الكتاب على الأحكام العامة والمتسرعة حول الأدب العربي وغير العربي. ما يهمننا هنا أنهما في معرض الدفاع عن حركتهما يرميان النقد القديم بالجمود والفجاجة:

«ونحب أن نقرر أولا أن ما نُتهم به حركتنا النقدية من تغليب للجانب الاجتماعي إنما يرجع إلى ما أسمعنا هؤلاء الأدياء القدماء من فهم قاصر لهذه العلاقة بين صورة الأدب ومادته، وإلى ما يتميز

به آدهم من جمود وانفصال عن حركة الحياة، وإلى ما رسيوه في وجداننا التومي من قواعد نقدية فجأة لا تقضي بالإبداع الفني إلا إلى أزقة مقلقة»^(٢).

وحتى لا يكون هناك لبس حول « قديم » هؤلاء القدماء، ومن يعنيههم الوصف بالجمود والشجاجة فإن الكاتبين لا يترددان في إضافة ما يحدد أي قديم يقصدان. «ولو راجعنا تاريخ النقد العربي القديم»، يكتب أنيس والعالم، « لوجدنا أنه لا يضرخ في مجمله عن البحث الجاد عن اللفظة الرائعة للمعنى الفريد. ولو تأملنا ما يقوله عميد الأدب اليوم في قلب القرن العشرين، وبعد أجيال من التطور الثقافي والتجارب النقدية التي لا حصر لها، لما وجدناه يخرج عن ترديد هذا الموقف الثقلي القديم، المسرف في القدم»^(٣). ولسنا في حاجة هنا إلى تأكيد أن هذا الحكم على النقد العربي القديم بأنه، في مجمله، لم يخرج عن البحث عن اللفظة الرائعة، يندرج تحت التعميم غير العلمي ولا يمكن أن تبرره أي «براءة» ثورية. وسوف تتكفل الصفحات الباقية من المرآيا المقعرة بإبراز ثراء النقد العربي، في مجمله، بل عصريته الشديدة. أما المحطة الثالثة والأخيرة فهي ذروة الدعوة إلى القطيعة مع التراث رغم أنفا شعار الأصالة والمعاصرة الذي يسارع الكثيرون إلى رفعه في جوهنا كلما رفعنا راية التحذير من الارتقاء في أحضان الحداثة الغربية، بل رغم كثرة الأصوات التي تتخذ موقفاً وسطاً بين الحداثة الغربية والتراث العربي. وسوف نناقش فيما بعد المقارقة الجوهرية التي تغلب على موقف دعاة إمساك العصا من وسطها حينما يتأذون بوسطية ثقافية/نقدية ثم يستخدمون كل أدوات المناهج النقدية الحداثية وما بعد الحداثية الغربية ومصطلحاتها. فالموقف الذي لم يستطع حداثي عربي واحد أن يرفضه في الحداثة الغربية هو مبدأ القطيعة المعرفية مع التراث والتمرد على الماضي. ورغم اختلافنا المبدئي مع الدعوة إلى القطيعة مع الماضي، إلا أنها دعوة تتسق تماماً مع الرغبة في «تحديث العقل العربي» الذي يعني، وبصفة أساسية، رفض القديم باعتباره مرادفاً للجهل والتخلف. وهذا ما يؤكد أن تورين - تورين مرة أخرى - في نقده للحداثة الغربية حيث يضع النقاط فوق الحروف ولا يترك مجالاً للشك في ربط الحداثة، أو حتى مجرد «العصرنة» modernity، بالقطيعة مع الماضي:

«أليس الفكر الحديث هو الفكر الذي يكف عن أن يحصر نفسه فيها هو معائن أو عن المشاركة الصوفية أو الشعرية في عالم القدس لكي يصير علميا وتكتيكيا...»

لقد تحدث فكرة الحداثة كالنقيض لبناء ثقافي، وككشف لواقع

موضوعي...

فالحداثة هي معاداة التراث، وسقوط الأعراف والعادات والتقاليد في الخروج من الخصوصيات والدخول إلى الكونية، بل هي أيضا الخروج من حالة الطبيعة والدخول إلى سن الرشد. وقد اشترك الليبراليون والماركسيون في الثقة في ممارسة العقل، وكثفوا بالطريقة نفسها هجماتهم على ما أطلقوا عليه عقبات التحديث^(٤).

ومن لم يكن غريبا أن يعدل العقاد من موقفه المبكر البالغ الحماس للثقافة الغربية والانبهار بإنجازات العقل الغربي إلى حد احتقار العقل العربي في العقود المبكرة من القرن العشرين إلى الدعوة إلى تأثر حذر بتلك الثقافة ومنجزات ذلك العقل في بداية النصف الثاني من القرن. فالعالم العربي، في رأيه، يحتاج إلى هوية وأقية تحميه من أن تجور عليه الثقافة الغربية. ففي مقال له عن الوجودية، نشر في بين الكتب والناس (١٩٥٢) يكتب العقاد: «وقد تبين أن الهوية الواقية كانت أئزم للعالم العربي في هذا الدور مما كانت في جميع الأدوار الماضية منذ بداية النهضة في العصر الحديث. فإن الدعوات العالمية خليقة أن تجور على كيان القومية وأن تؤول بها إلى فتاء كفناء المغلوب في الغالب»^(٥). والجدير بالانتباه أن العقاد عندما عبر عن تخوفه على الكيان القومي الذي تعرضه التيارات الفكرية الغربية الجديدة لفتاء «كفناء المغلوب في الغالب» لم يكن قد سمع، ولم يكن أحد آخر قد سمع، خارج دائرة الفنون التشكيلية، بالحداثة كما عرفناها بعد ذلك بسنوات قليلة مع صدور مجلة شعر، أو كما أغرقتنا في الربع الأخير من ذلك القرن، مما يكسب كلماته أهمية خاصة وكأنه يقرأ صفحات كتاب مفتوح فلم تمضي سنوات قليلة حتى كان الحدائيون العرب يتحركون من منطلق فقدان الماضي التراثي لشريعته المرجعية: «فالحداثة العربية»، كما كتب إلياس خوري العام ١٩٧٩، «هي محاولة بحث عن شرعية المستقبل، بعد أن فقد الماضي شرعيته التاريخية»^(٦)، وإن كان خوري يستطرد ليؤكد أن شرعية المستقبل «هي أمل

الثقافة العربية في عالم توحده الرأسمالية الغربية بالقوة وتنتفي فيه الأطراف إلى النذاكرة التاريخية حيث لا تستعاد إلا بوصفها فولكلورا أو دليلا جديدا على تسوق الغرب وقدرته على نفي الآخرين وإبادتهم». وعلى الرغم من التحذير، فإن الموقف الميداني هنا أن الماضي قد فقد شرعيته.

وتفرض المفارقة نفسها مرة أخرى، وستظل تفرض نفسها ما استمر عجزنا عن تحديد هوية ثقافية خاصة بنا وما استمر اعتمادنا على الآخر الثقافي، سواء استعرنا فكره فقط أو متناهجه فقط، أو الاثنين معا. وهذا ما يؤكد سامي سويدان في معرض حديثه عن استعارة «نماذج وأنماط إبداعية وتصورات وأحكام معيارية... وبخاصة الأوروبية الغربية»، «ضمن هذه الشروط» يكتب سويدان، «كانت الأعمال الحداثية في الوقت الذي تدعي فيه التحرر وأصالة التعبير تقع عن وعي أو من دونه في التبعية والاستلاب... بذلك كانت الأعمال المشار إليها تؤدي لتقيض ما كانت تتوخاه وتعلنه، وكان وهم التحرر والأصالة يتكشف عن ارتهاج واغتراب»^(٨).

بالإضافة إلى تلك المفارقة التي أبرزها سويدان في جسور الحداثة المعلقة هناك المآزق الذي ولدت به وفيه الحداثة العربية، وهو المآزق الذي يؤكد شكري عياد في الصفحات المبكرة من المذاهب الأدبية والنقدية. ففي معرض حديثه عن كلمات يوسف الخال المحورية المبكرة، والتي حددت الازدواجية الفصامية للمثقف العربي منذ أواخر الخمسينيات في دقة بالغة، يؤكد أن «التناقض بين كوننا شكلا في العالم الحديث وكوننا جوهرا في خارجه يضطرنا إلى معاناة قضايا مجتمع قديم في عالم حديث، ومعاناة قضايا عالم حديث في مجتمع قديم»^(٩)، وفي سياق حديثه عن تلك الازدواجية يحولها شكري عياد إلى ازدواجية للأنا والآخر العليا تنتهي بصورة حتمية إلى عزلة الحداثة والحداثيين العرب منذ لحظة الميلاد الأولى:

«فالقاعدة أن الكاتب يكتب لنوع واحد من القراء، إذا وجد نفسه يفكر في نوعين مختلفين إلى حد التناقض فلا يد أن يشعر بالتمزق حقا، ولكن هذا التمزق لم يبدأ من وقت الكتابة، لقد وجد قبل ذلك حتما، ويمكننا أن نقول إنه تمزق في الانتماء. هالكاتب منتم بفكره أو بالآنا العليا [التي تشكلها الثقافة] إلى العالم الغربي الحديث، بينما هو منتم بعلاقاته الاجتماعية، أي بالآنا، إلى المجتمع العربي، وهنا

على ذلك فلن يكون أمامه خيار حين يكتب، إلا أن يكتب لقارئ على شاكلته، قارئ عربي ينتمي بفكرة إلى العالم الغربي الحديث»^(١١) [التأكيد من عندي].

في مقابل ذلك الفتكر الصريح للتراث النقدي العربي منذ بداية القرن العشرين، وانتهاء بالدعوة إلى القطيعة المعرفية مع الماضي كشرط لتحقيق التحديث ارتفعت بعض الأصوات بين الآن والآخر تستنكر الانسلاخ الثقافي والارتقاء في أحضان الفكر الغربي، وإن كانت تلك الأصوات، خاصة منذ ارتفاع الصخب الحداثي، لم تتجح في تحقيق تيار حقيقي للأصالة يعتمد على العودة إلى التراث ورفض القطيعة، ربما يرجع إلى عدد من الأسباب أبرزها: أولاً، ارتفاع صوت الحداثيين العرب ومسازعتهم، تماماً كما فعل الحداثيون الذين أخذوا عنهم، إلى اتهام كل من يختلف معهم بالرجعية والجهل أو الأصولية والانزالية، في عملية إرهاب فكري غير مسبوق في تاريخ الفكر العربي والإنساني. ثانياً، الاستغلال الذكي لشعار التحديث والرغبة الصادقة لدى الجماهير العربية في تحديث العقل العربي بعد هزيمة ١٩٦٧ التي اعتبرها الكثيرون هزيمة للعقل العربي، ثالثاً، أضاف الحداثيون العرب إلى غموض الفكر الحداثي وما بعد الحداثي غموضاً آخر، كان مقصوداً في حالات قليلة، وغير مقصود ترتب على سوء الفهم والنقل والترجمة من الأصول الأجنبية في حالات كثيرة. وقد وقف القارئ العادي، بل المثقف العادي، أمام ذلك الغموض في كثير من الرهبة، ثم اختار الصمت حتى لا يتهم بعدم القدرة على الفهم، مما أدى في نهاية الأمر إلى أحادية غريبة في الرأي وصلت إلى حد الضيق الكامل بالاختلاف، أي اختلاف، رابعاً، رفع الحداثيون العرب في فترة مبكرة شعاراً برافاً انخدع به المثقف العربي لسنوات طويلة، وهو شعار الأصالة والمعاصرة، وقد وصلت درجة الخداع إلى أن قلّة فقط من المثقفين في العالم العربي هم الذين تبهوا، كما حدث مع شكري عياد، إلى أن الرابطة بين الأصالة والمعاصرة لا تتعدى «واو العطف» بين شطري الشعار البراق المخادع. وهكذا صمت الكثيرون معاً أغربى الحداثيين بتصديق أنفسهم في نهاية الأمر.

وسواء نجحت هذه الأصوات في تشكيل تيار مضاد أو حركة نقدية مناوئة للاستعارة من فكر الآخر الأجنبي أو لم تتجح، فالثابت أنها موجودة، وقوية، وإن

كانت تعمل في عزلة شبه كاملة لأنها بعيدة عن سلطة اتخاذ القرار أو عن ابواق الدعاية والمنطقة. لكنها كتبت من منطلق القلق الحقيقي وانغميق على مسار الثقافة العربية. وسوف أكتفي في السياق الحالي بالإشارة إلى صوتين أو ثلاثة كنماذج للوعي بقيمة التراث النقدي العربي الذي يجب أن يكون نقطة انطلاقاً للتعامل مع فكر الآخر الثقافي، بما في ذلك الحداثة وما بعد الحداثة الغربيين. يكتب مصطفى ناصف، على سبيل المثال، في دراسة أخيرة له بعنوان: النقد العربي، نحو نظرية ثانية (٢٠٠٠) مؤكداً اتساع مساحة النقد العربي القديم بما يكفي لتغطية القضايا الجوهرية التي يثيرها النقد الغربي المعاصر:

«في التراث النقدي عبر كثيرة: لقد عولجت مسائل الشعب، والامتداد، والتعدد، وعولجت مسائل الاشتباه ثم عولجت علاقة الاشتباه بالمبادئ المحكمة. النقد العربي القديم - إذن - يستطيع أن يحاورنا في مسائل تهمني الآن، وقد يؤدي الحوار إلى شيء من الفهم الثاني للنقد العربي المعاصر نفسه. وقد حاولت أن أقول - بطرق مختلفة - إن الاستقلال النسبي للثقافة الأدبية لا يبرر إغفال التأمل فيما يعرض مجموع الثقافة والمطالب المشتركة للتهديد. وبعبارة أخرى إن الثقافة الأدبية المعاصرة ينبغي أن تسأل نفسها - بطريقة ثانية - عن فكرة المخاوف التي غنت النقد والثقافة الأدبية الموروثة.. معالجة المخاوف شديدة الصلة بالمصطلحات المعاصرة وعلى رأسها التهميش والتشظي. النقد العربي القديم إذن درس ينفع النقد العربي المعاصر من بعض الوجوه... لقد عجبت حين خيل إلي أكثر من مرة أن بعض منحنيات النقد القديم ذات الأهمية لا تنفصل انفصالاً حاداً عن النقد المعاصر»^(١١)

ورغم اختلاف مؤلف المرايا المقعرة مع تعامل مصطفى ناصف مع النقد العربي القديم ممثلاً، بصفة أساسية، بل وحيدة، في كتابي شيخ النقاد العرب القدماء، عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وهو اختلاف جوهري في أحيان كثيرة، إلا أن الكتاب المشار إليه يحدد علامات الطريق الذي انتهجته المجموعة الثانية من نقاد العرب في رفضهم للدعوة إلى قطيعة معرفية مع التراث النقدي العربي. وقد كان ناصف في الواقع أكثر تحديداً في موقع سابق للسطور المطولة التي أشرنا إليها، فهو يربط بين

استعارة المصطلح النقدي الحدائي (الغربي) والتعبئة الثقافية. «لكننا» يكتب الرجل، «ضيقنا هيبة المصطلح وسط النزاعات الشكلية، وإلحاق ثقافتنا النقدية بثقافات أخرى، ضيقنا ما يتبعني علينا من تبين الحوار الصعب الشائك»^(١٣). وحينما يتنقل ناصف فيما بعد إلى مناقشة المصطلح النقدي العربي عند عبدالقاهر يقدم تفسيرات مثيرة للدهشة سوف نتوقف عندها فيما بعد، أقل ما يقال عنها مؤقَّتاً إنها تقتقر إلى الدقة، والدقة على وجه التحديد، هي ما تحفقه دراسة الولي محمد في دراسته: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي (١٩٩٠) في مواضع عديدة منها، إن الولي محمد يتخذ موقف الرفض لدعوة القطيعة المعرفية مع التراث العربي، ولا يخفي حماسه الشديد أحياناً لذلك التراث مع رفض مقابل للهزولة في انهيار وراء المدارس النقدية المستوردة ومصطلحها الغريب، الذي لا يضيف الكثير، في رأيه، إلى المصطلح النقدي العربي الأصيل:

«وما تزال التساؤلات التي آثارها الجرجاني بشأن الاستعارة تحتفظ، إلى اليوم بالكثير من المعاصرة. لقد كان وهما ما تصورناه، ونحن واقعون تحت تأثير النقد الاجتماعي والنفسي والتاريخي والانطباعي، من إمكان تجاوز البلاغة القديمة باعتبارها قواعد «جامدة». وإذا كانت هذه البلاغة قد فقدت الكثير من المواقع في المؤسسات التعليمية، فإن ثورة علوم اللغة وما أعقب ذلك قد نيه الأذهان إلى أن البلاغة لن تموت وخاصة إذا كانت بحجم بلاغة الجرجاني.

إن العودة إلى الجرجاني هي عودة إلى نص لم يفقد جنته، نص يثير من التساؤلات أكثر مما يقدم أجوبة قاطعة، نص يفتح باب الاجتهاد ويتركه كذلك، ولم يحاول إغلاقه إلا بعض المتأخرين. وهكذا فعندما نحاول الاجتهاد مرة أخرى فإننا نعود إلى سنة عريقة في البلاغة العربية»^(١٤) [التأكيد من عندي].

وفي مرحلة لاحقة من كتابه يتحول الولي إلى بعض المقارنات المطولة بين مقولات أجنبية حديثة ومقولات من النقد العربي القديم - من غير عبدالقاهر! - ليخلص إلى الحكم بأن الحدائين العرب يدبرون ظهورهم للنقد العربي لينقلوا أفكاراً أجنبية حديثة أو معاصرة، لا تضيف كثيراً إلى أفكار

مماثلة أنتجها البلاغي العربي. يستشهد في ذلك بتمودج لاستعارة عز الدين إسماعيل لتعريف ريفردي Reverdy للصورة الشعرية، كما ورد في كتاب الشعر العربي المعاصر:

«إن الصورة إبداع ذهني منفرد، وهي لا يمكن أن تنبثق من المقارنة، وإنما تنبثق من الجمع. بين حقيقتين واقعيتين تتفاوتان في البعد قلة وكثرة... وإنما يمكن... إحداث الصور الرائعة تلك التي تبدو جديدة أمام العقل بالزبد، دون المقارنة، بين حقيقتين بعيدتين لم يدرك ما بينهما من علاقات سوى العقل»^(١٤).

ويجمع الولي بين تعريف ريفردي للصورة وتعريف عبد القاهر لها في أسرار البلاغة: «وهكذا إذا استقرت التشبيهات وجدت التباعد بين الشئين كلما كانت أشد كانت إلى النفوس أعجب وكانت النفوس لها أطرب وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب» ليؤكد أن التعريف الذي قدمه الناقد الغربي الحديث، والذي اقتطفه عز الدين إسماعيل في كتابه، لا يختلف في مكوناته كثيرا عن تعريف الناقد العربي القديم في جوهره وعلى الرغم من تأكيد الولي في مقتطف سابق أنه لا يقصد البقاء داخل سجن الماضي بل فتح باب الاجتهاد وتركه مفتوحا في تعاملنا مع التراث إلا أنه يخلص إلى نتيجة منطقية يصعب الاختلاف معها: «فأي مجهود ضائع» يكتب الولي، «إذا كنت أصرف مرحلة من حياتي لأجل التجديد النظري» وهدم القديم لكي أجد نفسي في النهاية أواجه القدماء بأسلحة مفولة وقد تكون أسلحة استعيرت من مخازنهم، إلا أن هذه الأسلحة أسيء استعمالها بين أيدينا فاكشفنا أنها أقوى»^(١٥).

و على الرغم من حماس الولي محمد الواضح للتد العربي القديم، ممثلا في آراء الجرجاني الذي يراه عملاقا في علم البلاغة، إلا أنه لا يتوقف في محبس الماضي ولا يعميه ذلك الحماس عن التطورات التي مر بها علم البلاغة، ومن ثم فهو يدرك أن آراء عبد القاهر في البلاغة ليست النموذج النهائي، ولكن ما يفعله حقيقة هو فتح باب الاجتهاد في تعاملنا مع تراثنا النقدي والبلاغي، نجهد. نعم، ندير ظهورنا لهذا التراث بالكلية، لا - إن رفض القطيعة مع الماضي لا يعني تقديس ذلك الماضي والوقوف عند إنجازات الأقدمين في انبهار خاضع مماثل لانبهار الفريق الآخر بإنجازات العقل الغربي، إنما بذلك نقسرب من وسطية تنافية لا تفرض الجديد كله. ولا تقبله كله، ولا نقب عند القديم تتفاخر

بإنجازاته في سلبية وعجز. هذه الوسطية لا تختلف عن أهمية «المنظور التاريخي» في التعامل مع التراث، وهو ما يؤكد شكري عياد في اللغة والإبداع (١٩٨٨) حينما يرفض، في مجال المقارنة بين إنجازات العقل الغربي وإنجازات العقل العربي، مبدأ التفاضل وأدعاء السابق لأنه «لا يتفق مع منهجنا، منهج المنظور التاريخي الذي يسجل المتغيرات كما يسجل الثوابت، ويمترف بالنسبي كما يعترف بالمطلق، ويرتكز على الوعي بالحاضر بدلا من تقديس الماضي»^(١٦).

هكذا ينقلنا شكري عياد إلى الفريق الثالث من النقاد الحداديين المعاصرين العرب، وتعني بهم أصحاب الموقف الوسطي الصحي الذي يرفض القطعية المحرفية الكاملة مع التراث النقدي العربي في الوقت نفسه الذي يرفض فيه البقاء داخل سجن الماضي. الموقف المبدئي الصحي لا يعني أنهم يتفقون حول عدم الانبهار بالحدأة الغربية، أي أنهم في انصافهم على التعامل مع التراث من موقف اتصال، لا ينادون بالانفصال عن الحدأة الغربية، وهنا يكمن اختلافهم الحقيقي، كأنهم يقفون على سلم واحد، بعضهم فوق درجاته السفلى، عند أبعد نقطة من الحباثة الغربية، وبعضهم فوق درجاته العليا، عند أقرب نقطة منها. وحتى هذا التوصيف للتوزيعات المختلفة لا يمكن لنا أن نتق به تمام الثقة، فعند النقطة الواحدة تحدث تنوعات تقترب من التناقض الصريح في مواقف البعض الذين يتحدثون في حماس عن التراث العربي، وعندما يتحولون إلى الممارسة التطبيقية يذوب ذلك الحماس المبدئي أمام غواية مصطلح تقدي غربي باهر. وفي أحيان أخرى نلاحظ بقراءة للتراث لتعزيز وجهة نظر حدائية محددة، وكأن هدف العودة إلى الماضي مرهون بتحقيق شرعية الحاضر وليس شرعية الماضي، وهي الشرعية الأساس في مفهومنا. وقد وضع جابر عصفور يده على نموذج لتلك الممارسة التي تقوم على قراءة التراث لخدمة هدف حدائي محدد دون الاكتراث، في كثير أو قليل، لتأسيس شرعية الماضي، وإن كان جابر عصفور، للأسف، يذكر النموذج ويتركه دون أن يتخذ موقفا منه، النموذج الذي وضع عصفور يده عليه هو قراءة كمال أبي ديب لعبدالقاهر الجرجاني، وهي قراءة يوظفها أبو ديب، كما يقول عصفور، لتأكيد صحة المشروع البنيوي. بل إن القراءة التراثية لا تهدف إلى تحقيق اتصال مع التراث بقدر ما تهدف إلى تحقيق انفصال عنه:

«ولكنه الوصل الذي سرعان ما ينقطع ليؤكد حضور القارئ في حدث اتصال فعال. يثبت ... دور «المنتقل» لهذه الرسالة، ومن ثم دور القارئ المعاصر، في عملية تجعل الهدف من القراءة مرهوتا بغائية المشروع البنيوي كله. وذلك هو ما وجه نافذاً مثل كمال أبي ديب إلى إعادة قراءة «نظرية الجرجاني في الصورة الشعرية» (١٩٧٩)؛ ليثبت أن عبدالقاهر هو الناقد الذي يؤمن عمله مدخلا هذا إلى بنية اللغة التعبيرية بوجه عام والصورة الشعرية بوجه خاص، «فعيدالقاهر - في قراءة كمال أبي ديب - هو الناقد الذي يتركز اهتمامه في المنهج المحايث «للتحليل الأدبي، وليس «المنهج الخارجي»، وعمله... نموذج مفيد للناقد البنيوي»، خصوصا ما يجده هذا الناقد من اهتمام عميق بالبنية الشعرية عند عبدالقاهر، حيث التركيز على القصيدة بوصفها «نشاطا لغويا وجماعا من العلامات أو... بوصفها نسقا من علامات لغوية دالة»^(١٧) [التأكيد من عندي].

إن خطورة ما يشير إليه جابر عصفور في قراءته لأبي ديب أننا أمام ناقد يقرأ التراث العربي، ممثلا في عبدالقاهر، ليثبت صحة اتجاهه البنيوي، وليس العكس، وشتان بين القول إن التراث النقدي يثبت صحة المشروع البنيوي، أو أي مشروع نقدي حدائي آخر، والقول إن النقد العربي قدم مدرسة نقدية، قد لا تكون متكاملة أو مبلورة بما فيه الكفاية، تؤكد شرعية التراث العربي وسبقه، القول الأول يعطي شرعية للمشروع النقدي الحدائي. ومن ثم يعزز التمسك به، أما القول الثاني فيعطي شرعية للماضي، ويؤكد ضرورة إحيائه والتمسك به وتطويره، بالطبع. واللافت للانتباه هنا أن جابر عصفور في رأينا من بين أفضل من قدموا قراءات مستنيرة للتراث النقدي العربي وأغزروهم إنتاجا في هذا الاتجاه، ما في ذلك شك، لم يتوقف كثيرا أو قليلا عند خطورة قراءة أبي ديب للجرجاني، وعلى الرغم من أنه، في أكثر من مناسبة، يؤكد أهمية الوساطة التي ترفض القطيعة المعرفية مع التراث، وهي حينما تفعل ذلك فإن الهدف هو فهم الماضي بصورة أفضل من ناحية، وتحقيق فهم أفضل في الوقت نفسه للتراث ذاته عن طريق استخدام المنهجيات والأليات الحديثة في التعامل معه، من ناحية أخرى. لكنه، أبدا، لم

ينزلق إلى فخ قراءة التراث بهدف تأسيس شرعية البنيوية أو الحدائنة. وإذا كنا في بعض الأحيان نرصد عنده بعض التناقضات فذلك لأن تناقضاته هي تناقضات جيل الحدائين بأكلمه تقريبا، بعد أن وجدوا أنفسهم يتبنون الحدائنة بتمردها على القديم والمألوف، ودعوتها للطبيعة مع الماضي مع الرغبة في تحقيق الأصالة، مهما اختلفنا على معناها ودرجتها، إن جيل الحدائين في الواقع جيل أفضله من حاولوا تحقيق موقف وسط، لا من قبيل الرغبة في إمساك العصا من وسطها أو «الرقص عند منتصف السلم»، بل من قبيل إيمان صادق بقيمة التراث. وهذا ما يؤكد عصفور في تقريره «للاستعارات» من الآخر الثقافي باعتبارها أدوات لتطوير معرفتنا بالتراث، وليس لإثبات شرعية تلك الاستعارات، كما هي الحال مع أبي ديب في «مقدمات منهجية» لـ «قراءة التراث»، يكتب جابر عصفور:

«ويبدو أنه يلزم لي - حتى أستبعد أي سوء فهم - تأكيد الوجه الموجب لأمثال هذه الاستعارات، من حيث كونها أدوات ضرورية لا سبيل إلى الاستغناء عنها، أو تجاهلها، أو الجهل بها، في تطوير كل معرفة قائمة بالتراث، أو إنتاج أي معرفة جديدة به، على الأقل إلى أن تستطیع ثقافتنا أن تصل إلى الطور الذي يمكنه من الإنتاج الذاتي مثل هذه الأدوات، وحتى لو وصلت ثقافتنا إلى هذا الطور. فإن الجدل مع «الآخر» المنتج لهذه الاستعارات سيظل - كما كان دائما - شرطا أساسيا لاكتمال وعي الأنا بنفسها من ناحية، وقبيلتها على تطوير نفسها بالحوار مع غيرها من ناحية ثانية»^(١٨) [التأكيد من عندي].

وهنا أيضا لا نملك إلا أن نسجل أن كلمات جابر عصفور السابقة عن الاستعارات من الآخر الثقافي جاءت في ذروة «فتنة البنيوية» كما سماها هي، في الكتاب المشار إليه الذي نُشر عام ١٩٩٢، وهو موقف يتسق تماما مع موقفه السابق قبل أن «تفتنه» البنيوية بعد عام ١٩٧٧، كما سبق أن أشرنا. ففي مقدمته المذيلة بتاريخ «أغسطس ١٩٧٧» لدراسته حول مفهوم الشعر يؤكد عصفور: «إن إلقاء التراث النقدي، بهذا المعنى، يؤدي إلى إلقاء حياتنا النقدية نفسها، كما يؤدي إلى إضفاء الأصالة على الجديد في هذه الحياة وفي ذلك يكمن المحك وراء كل حركة صوب الماضي. وثمة فرق - بالتأكيد - بين من يعود إلى الماضي

ليثبت وضعاً متخلفاً في الحاضر ومن يعود إلى الماضي ليؤصل وضعاً جديداً قد يطور الحاضر نفسه^(١٦)، بل إنه يؤكد في أكثر من موقع من تلك الدراسة المبكرة «علمية» النقد التراثي العربي التي مكنت النقد الأدبي القديم من «تجاوز منطقة الانطباعات إلى منطقة التصورات التي تشكل عياراً للقيمة، يمكن تجريده من الحالات الجيدة أو الرؤية المتعينة والمتاحة، لكي يعود العقل فيطبقه على حالات قريبة أخرى، متشابهة أو مخالفة»^(١٧). إن الإنسان لا يملك هنا إلا أن يتساءل في أسى: إذا كان هذا هو مقدار حماس بعض الحداثيين لعلمية النقد العربي القديم، فلماذا يطلب منا أن نلقي بأنفسنا في أتون الحداثة الغربية باسم العلمية نفسها التي كانت لدينا من قرون!!

والواقع أن منهج الوساطة الصحيحي الذي يرفض القطيعة مع الماضي بالقدر نفسه الذي يرفض به تشديده كان أحد المناهج الذي أكدها بعض المثقفين العرب في ذروة المد البنيوي في العالم العربي، من أبرز هؤلاء عز الدين إسماعيل بصفتة رئيساً لتحرير فصول، المجلة التي ارتبطت منذ مولدها بالحدأة والبنيوية. وعلى الرغم من ذلك فإن رئيس تحريرها لا يتريد في تأكيد أهمية هذه الوساطة الثقافية والمنهجية. يكتب عز الدين إسماعيل، بصفتة رئيساً للتحرير تحت عنوان «أما بعد» في افتتاحية العدد الأول من المجلد السادس (١٩٨٥) لمجلة فصول:

«فلم يعد هناك مجال في وقتنا الراهن لانطلاق بعض الأصوات

منادية بنوع من القطيعة الاستعمارية مع التراث، ... فاهتمامنا

بالتراث اليوم لا ينطلق من عارضة أولية ساذجة تتمثل في الحنين إلى

الماضي، وتمكس في جوهرها نوعاً من عبادة الأسلاف، وهو كذلك لا

ينطلق من أي شعور بالقداسة لهذا التراث، يجعل الاقتراب النقدي منه

بمنزلة خطيئة لا تغفر. وكذلك فإننا لم نعد ننظر إلى التراث على أنه

كيان موحد منلق على ذاته، يقل كل أو يرفض كل... إن تراثنا هو

حصيلة ما حققه الإنسان العربي على مدى التاريخ من نجاح وإخفاق،

ومن انتصار وانكسار، فاجتمع فيه الإشراق، والإعتام، والحيوية

والجمود، وكل فضائل العقل البشري وورائته»^(١٨) [التأكيد من عندي].

إن ثنائية رفض القطيعة الاستعمارية أو المعرفية مع التراث ورفض تشديده في الوقت نفسه، أي رفض إغلاق باب الاجتهاد، كما قدمنا حتى الآن،

وصل ما انقطع

هو الموقف الذي تتبناه غالبية الحداثيين بدرجات متفاوتة، وفي ذلك لا يختلف موقفهم، في حقيقة الأمر، عن المعنى الذي قصد إليه ت. س. إليوت في حديثه عن «الحسن التاريخي» *the historical sense* في مقالته الأشهر عن «الموهبة والتقاليد». وليس من قبيل المصادفة أن يختار شكري عياد، الذي ينطق إنتاجه النقدي بإعجاب غير خفي بكثير من مبادئ النقد الجديد الذي أسس له إليوت وأرتبط به، مصطلح «المنظور التاريخي» وضرورته في تعاملنا مع التراث النقدي، إذ لا يوجد اختلاف كبير بين المصطلحين. وربما يحتاج الأمر هنا، من باب توضيح الثنائية التي نتحدث عنها، إلى التوقف في إيجاز مع مقولة إليوت المعروفة: «إن الحسن التاريخي لا يعني إدراك انقضاء الماضي فقط، بل أيضا حضوره». أي أننا، في تعاملنا مع التراث الماضي، لا بد أن ندرك في أن الماضي قد انقضى وأصبح ماضيا لا يمكن استرجاعه كما هو. ولكننا لا بد أن ندرك، في الوقت نفسه، أن الماضي حاضر، ومستمر فينا ومعنا. أهمية مقولة إليوت أننا لا نستطيع أن نطلق من أحد طرفي الثنائية في تجاهل لطرفها الآخر. فالقول فقط بأن الماضي ماضي انقضى؛ دعوة صريحة إلى الجهل، والقول فقط بأن الماضي حاضر مستمر فينا دعوة إلى الجمود والتحجر وإغلاق باب الاجتهاد؛ وهذا ما أدركه محمد عابد الجابري في دراسته القيمة عن موقفنا من التراث: نحن والتراث (١٩٨٢)، حيث يؤكد أن التراث، في قراءتنا المعاصرة، يتحقق له حضوران متزامنان لا نستطيع الأخذ بواحد منهما دون الآخر:

«فمن جهة تحرص هذه القراءة على جعل المقروء معاصرا لنفسه على صعيد الإشكالية والمحتوى المعرفي والمضمون الأيديولوجي ومن هنا معناه بالنسبة لمحيطة الخاص. ومن جهة أخرى تحاول هذه القراءة أن تجعل المقروء معاصرا لنا، ولكن فقط على صعيد الفهم والمعتولية. ومن هنا معناه بالنسبة لنا نحن، إن إضفاء المعتولية على المقروء من طرف القارئ معناه نقل المقروء إلى مجال اهتمام القارئ. الشيء الذي قد يسمح بتوظيفه من طرف هذا الأخير في إغناء ذاته أو حتى في إعادة بنائها، وجعل المقروء معاصرا لنفسه معناه فصله عنا وجعله معاصرا معنا وصله بنا»^(١٢).

إن أبرز ما يؤكد الجابري في السيلاق السابق أن علاقتنا بالتراث علاقة «اتصال» و «انفصال» متزامنين، وهو ما أكدته مقولة إليوت السابقة أيضا،

وهو ما أكده أيضاً جابر عصفور بعد ذلك بعشر سنوات في نص نجى مفرداته وتفاصيله تأكيداً لمقولة الجادري التي كانت أمامه ولا بد. ففي معرض حديثه عن مشكلة التعامل مع التراث النقدي وقراءته يكتب:

«هذا الفهم يجرنا إلى المشكلة الثانية حيث تتحول علاقة القارئ بالمقروء إلى علاقة اتصال وانفصال في آن» وإذا كان القارئ ينتمي إلى عصره والمقروء ينتمي إلى عصره المقابل، فإن العلاقة بينهما علاقة انفصال لا محالة، لكن هذا الانفصال سرعان ما يتحول إلى اتصال على مستوى البعد القيمي الذي ينطلقه النص المقروء، والذي يتجاوب أو يتناثر مع البناء القيمي لعالم القارئ... ومن هنا، فإن القارئ المعاصر عندما يقرأ عبدالقاهر الجرجاسي مثلاً، فإنه يقرأ عبدالقاهر الذي يعيش في القرن الخامس للهجرة، وعبدالقاهر الذي ينأى تحت جلدته وعيه في القرن الخامس عشر للهجرة، فكانه يقرأ عبدالقاهر الذي «هناك» وعبدالقاهر الذي «هنا» أي نص عبدالقاهر الذي يقع خارجه، ونص عبدالقاهر الذي يقع داخله» (٣٣).

ويرى مفكر حديثي كبير، له احترامه في الأوساط العلمية عامة، وعند الحداثيين العرب خاصة، وهو عبدالسلام المسدي، أن النص النقدي الحديث مجموعة من الشفرات أو الدوال اللغوية تكون في ذاتها رسالة مستقلة قائمة بنفسها من ناحية، وتتقبل التفسيرات والتأويلات المختلفة باختلاف المتلقين من ناحية ثانية، ولا بد أن هذا ما حدث مع الرسالة الأولى عند بثها لأول مرة. وحيث إن ذلك كذلك، فإن تعدد الدلالة يحدث أيضاً مع تغير المستقبلين للرسالة نفسها عبر الزمن. هذا الإحياء المستمر لدلالة الرسالة التراثية الواحدة هو دليل ديمومتها وحيويتها. وهذا أيضاً مفهوم يتفق مع مقولة مشهورة لإليوت، ربما بطريق المصادفة، ترى أن قراءة النص القديم لا تحقق عملية تأثير الماضي في الحاضر فقط، بل تأثير الحاضر في الماضي بالقدر نفسه. فنحن عندما نقسّر نصاً لعبدالقاهر عن الصورة الشعرية فلا بد أنه يؤثر في فهمنا المعاصر للصورة لغوية وإبداعية، وفي الوقت نفسه فإن القارئ الحديث، وهو يحمل «تحت جلدته وعيه» كل ما يعرفه من التراث النقدي، داخل أرشيفه الثقافي، الذي

وصل ما انقطع

جاء بعد عبد القاهر، من ناحية، وتراثه الحاضر، من ناحية أخرى، يدرك أشياء لم يدركها الماضي - عبد القاهر في هذه الحالة - عن نفسه، وهذا ما يكتب فيه المصدي، وإن لم يكن بالمباشرة نفسها التي قدمناها:

«كل قراءة - كما هو معلوم في اللسانيات العامة - هي تفكيك لرسالة قائمة بنفسها، وما التراث إلا موجود لغوي قائم الذات باعتباره كتلة من الدوال المتراصفة، وإعادة قراءته هي تجسيد لتفكيك ورسائلته عبر الزمن، وهي بذلك إثبات لديمومة وجوده، فكما أن الرسالة اللسانية عند يثا قد تصادف أكثر من مستقبل واحد، فيفككها كل حسب انماط جدوله اللغوية، فتتعدد القراءة آنبا للرسالة الواحدة حسب تعدد المستقبلين، كذلك تتعدد القراءة زمانيا بتماقب المستقبلين للرسالة والمفكرين لبنائها عبر محاور الزمن والتاريخ»^(٢٤).

تلك، إذن، هي الاتجاهات الثلاثة الأساسية في التعامل مع التراث النقدي: اتجاه ينادي بتحقيق قطعية معرفية مع الماضي كشرط مسبق لتحقيق الحدأة و«تحديث» العقل العربي، واتجاه ثان يرفض القطعية ويحذر من الانهيار بإنجازات العقل الغربي باعتبار أن الحدأة وما بعدها مدخل من مداخل السيطرة الجديدة، واتجاه ثالث وسطي يرى أن علاقتنا بالتراث علاقة اتصال وانفصال في الوقت نفسه، وإن كان البعض، داخل ذلك الاتجاه الأخير، يعود إلى الماضي ليؤسس شرعية الحاضر وليس شرعية الماضي، وهو ما يعني أن العصرية والحدأة هما نقلة الانطلاق الحقيقية، عند تلك الفئة الأخيرة. وفي هذا لا يختلف موقف كمال أبي ديب كثيرا عن موقف حمادي صمود الذي يقرأ التراث هو الآخر لتأسيس شرعية الحدأة وليس شرعية التراث، فهو يبنئ مقولة تقوم على: «مباشرة التراث من منطلق التفاعل بينه وبين الحدأة قصد فهمه في ذاته واستجلاء أبعاد النظرية التي يتضمنها [وهذا أضغف الإيمان، لكنه لا يتوقف عند أضغف الإيمان هذا]، ثم محاصرة مظاهر المعاصرة فيها، التي يمكن استحضارها اليوم، للمساهمة بها في تغذية النقاش القائم حولنا»^(٢٥) [التأكيد من عندي]. وفي بعض الأحيان يبلغ حماس البعض للوسيطية حدا يخرجها من منطقة الوسط كلية، وهو حماس يرتبط بالدرجة الأولى بحماس مبدئي للنقد الحدائي الغربي يقابله حماس مماثل للتراث النقدي العربي ينتج عنهما في نهاية الأمر تمزق أو تشتت واضح بين الاثنين

ينتهي إلى عدم التوفيق في تأسيس شرعية الماضي أيضا، ويجسد عبدالله الغدامي هذا الموقف الأخير بشكل لاقت للتظلم. فحماسه للحدافة الغربية وما بعدها أوضح من أن يؤكد، وهو في ذلك يقوم بدور تنويري يقترب من القدائية، ولكنه، وبسبب حساسية خاصة به وبموقفه، يتحسم للتراث النقدي العربي. ويدفعه الحماس في بعض الأحيان لتأسيس شرعية الماضي إلى إنطلاق بعض النصوص التراثية بما لا تنطق به، وتحميلها ما لا تطيق. وكتابه الخلطية والتكفير، حيث يتبنى لا نهائية الدلالة وحرية الكلمة ومراوغة المدلول المستمرة للدال، يحاول إرجاع ذلك المفهوم التشكيكي إلى مقولة لابن سينا، يعتقد أنها تعبر عن المفهوم نفسه فيخونه التوفيق بشكل واضح إذ إن نص ابن سينا في حقيقة الأمر لا علاقة له بتفكيكية دريدا، كما سنرى:

«وإنه لمن غرر المواقف أن نرى طوال هذه المفهومات مغروسة في تراثنا العربي الجيد، وذلك في فكر ابن سينا النقدي الذي أشار بوضوح إلى حرية الكلمة في الدلالة، وإلى إمكان تحولها على يد المبدع إلى إشارة حرة وذلك بقوله: (إن اللفظ لا يدل البتة، ولولا ذلك لكان لكل لفظ حق من المعنى لا يجاوزه، بل إنما يدل بإرادة الالفاظ، فكما أن الالفاظ بطلقة دالا على معنى، كالعين على الدينار، فيكون ذلك دلالاته، كذلك إذا أخلاه، في إطلاقة عن الدلالة بقي غير دال)، [نص ابن سينا من كتاب الشفاء، جملة المنطق، المدخل، القاهرة ١٩٥٢]. والحق في ذلك يعود للمبدع الذي يهلك حرية ابتكار الإشارة الحرة، أي إعادة الكلمة إلى أصل وثقيتها الجمالية المطلقة»^(٢١).

من المعروف أن «اللعب Play» و«المراوغة indeterminacy» مصطلحان ارتباطا أولا بنظرية اللقي وتم تطويرها إلى لانهائية الدلالة التي تحتل موقع القلب في إستراتيجية التفكيك. فالمراوغة المقصودة هنا هي مراوغة المدلول للدال التي تحول العلامة اللغوية إلى علامة سباحة أو عائمة Floating يحاول القارئ أو المتلقي تثبيتها مؤقتا إلى أن يجيء قارئ آخر، أو القارئ نفسه في قراءة أخرى، ليفكك الدلالة السابقة ويثبت دلالة جديدة للمدلول السابح أبدا، وهكذا، وهذا ما أكده عبدالله الغدامي نفسه في حديثه عن الحضور والغياب وإشارته إلى أن القارئ أو المتلقي هو الذي يقوم باستحضار الدلالة الغائبة، هل هذا هو ما يتحدث عنه ابن سينا؟ إن ما يقوله ابن سينا في هاتين الجملتين

وصل ما انقطع

يعتبر أحد أركان نظرية لغوية عربية لا تختلف كثيراً عن أركان النظرية اللغوية التي قدمها فريدريش دي سوسير، والتي هُلل لها الحداثيون في كل مكان باعتبارها الفتح الجديد. للدراسات البنيوية اللغوية ثم البنيوية النقدية. هنا تكمن شرعية العودة إلى نص ابن سينا، وسوف نتاح لنا الفرصة فيما بعد للتوقف طويلاً وبما فيه الكفاية لتحدد معاً معالم النظرية اللغوية العربية التي لا نقول بأنها سبقت نظرية سوسير اللغوية - عملاً بنصيحة أستاذنا شكري عياد - ولكنها تؤسس لشرعية التراث النقدي العربي. ما يهمنا هنا أن نشير إلى أن ما يقوله ابن سينا ليس هو ما يخلص إليه عبدالله الغدامي في حماسه لتأسيس شرعية... شرعية ماذا؟ الحاضر ما بعد الحداث أم الماضي التراثي؟

ما أركان النظرية اللغوية التي يتحدث عنها ابن سينا هنا؟ أولاً، إن اللفظ لا يدل بنفسه. وهذا هو جوهر عفوية الدلالة arbitrary التي يتحدث عنها سوسير، فلفظ «شجرة» كان من الممكن أن يكون «جشرة» أو أي صوت آخر. ثانياً، إن الحديث هنا عن إرادة اللفظ، ولسنا في حاجة إلى تأكيد أن ابن سينا لم يقل المتلقي أو القارئ، إنما اللفظ هنا تعني مرسل الرسالة، ثالثاً، الركن الأخير هنا يقول عكس ما وصل إليه الغدامي تماماً، فاللفظ، كما يقول ابن سينا، إذا أخلاه اللفظ في إطلاقه عن الدلالة بقي غير دال، أي أنه من دون ذلك الاتساق العفوي بين المرسل والمستقبل لا تتحقق الدلالة، إن ما يتحدث عنه ابن سينا هنا هو، «للامعنى» وليس، «لا نهائية المعنى»، أو حتى، تعدد المعنى، أو الدلالة. إنه يعني اللامعنى فقط، أي عدم تحقق الدلالة، أي دلالة؟ وما يقوله الغدامي في تعليقه على رأي ابن سينا عن أن المبدع «يملك حرية ابتكار الإشارة الحرة»، صحيح، لكنه ليس صحيحاً في سياقنا الحالي، بل في سياق آخر، ونقصد به اختيار المبدع لأدوات المجاز اللغوي وهو بالقطع ليس «اللامعنى» الذي يحذر منه ابن سينا؛ ثم إن ابن سينا هنا لا علاقة له بالانهائية الدلالة التذكيرية من قريب أو بعيد، لأنه يرتبط بالدرجة الأولى بموقفه من الاتجاه اللفظي الذي يرى أن المعاني في الألفاظ، وابن سينا هنا يسير على طريق عبدالقاهر في رفض ذلك الاتجاه. هذا كل ما في الأمر.

بعد هذا الاستعراض الذي كان لابد منه لموقف النقاد العرب المعاصرين، الحداثيين منهم وغير الحداثيين، نصل إلى منهج المرايا المقعرة في محاولة وصل ما انقطع. ليس الهدف من الدراسة الحالية بأي حال من الأحوال

التباكي على أطلال الماضي والوقوف أمام عتبات تراثنا النقدي هي تبايم
 وإتيهار لنبقى سجناء الماضي قائلين: «ليس بالإمكان أفضل مما كان». ولن
 نحاول في قراءتنا الحالية تأسيس شرعية الحاضر بأي حال من الأحوال،
 ولن نقرأ التراث لتؤكد صحة مقولات سوسير اللغوية أو دريدا النقدية، لكننا
 سنحاول تأسيس شرعية الماضي، شرعية التراث النقدي العربي دون انفصال،
 أي انفصال عما يدور حولنا، وما نتججه، وما أنتجته بالفعل، ثقافات الآخرين،
 ولسنا بحاجة هنا إلى تأكيد أن العزلة الثقافية، حتى بالنسبة لمن يحلمون
 بها، أصبحت ترفاً مستحيلاً، وإن كان ذلك لن يمنع البعض من اتهام مؤلف
 المرايا المقعرة بالانتمائية والانغلاق، وهي تأسيسنا لشرعية الماضي سوف
 نبقى في مجال نظرنا طوال الوقت تأسيس شرعية المستقبل، التي تعني أننا
 وصلنا إلى منحنى فكري يفرض علينا، أكثر من أي وقت مضى، أن نحدد
 هويتنا الثقافية، وأن نصبح قادرين على أن نجيب عن التساؤل المبدئي: من
 نحن؟ وفي هذا لن نرفض الحاضر، خاصة حاضر الآخر الغربي باعتباره شراً
 كله، ولن نقبله أيضاً باعتباره خيراً كله. وفي تعاملنا مع التراث، في محاولتنا
 لوصف ما انقطع وتأسيس شرعية الماضي، لن نتحرك من منطلق أن التراث
 خير كله. إن موقفنا المبدئي، سواء هنا في المرايا المقعرة، أو في كتابنا السابق،
 المرايا المحدبة، يقوم على أن تراثنا العربي من الثراء والتنوع، بل والمعاصرة،
 بحيث يكفي لرفض القطيعة المعرفية معه، وألنا لو وصلنا ما انقطع معه
 فسوف نصبح قادرين على تطوير نظرية لغوية ونقدية عربية تأخذ من التراث
 أفضل ما فيه، ومن الآخر خير ما يقدمه وما يتفق مع ذلك التراث الخاص،
 وإذا لم تفعل ذلك فسوف ينتهي بنا الأمر، عاجلاً قبل أجلاً، إلى تبعية ثقافية
 قد يصعب الانعتاق منها فيما بعد. وفي هذا كله لا ندعي، بأي حال من
 الأحوال، أننا نحقق سبقاً فكرياً لم يسبقنا إليه آخرون، وما أكثرهم: اجتهدوا
 وأثبوا. لكننا نقول أننا بهذا الجهد نبقى باب الاجتهاد مفتوحاً. قد تختلف
 مع البعض، مع الكثيرين في الواقع، بل أننا اختلفنا هنا، في الصفحات
 السابقة وفي المؤلف السابق. وسوف تختلف في الصفحات التالية مع
 الكثيرين أيضاً، لكنه الاختلاف الذي يأتي مع الاجتهاد العلمي دون أن يقصد
 التقليل من شأن أحد أو من مساهمته الفكرية بأي حال من الأحوال. وأجدني
 هنا أردد، في تكرار يكاد يصل إلى حد الهوس، مع حامد أبو أحمد: «إذا كان

العرب القدامى قد أبدعوا قيما في مجال اتساق الخطاب وانسجام النص فلماذا لا تواصل مسيرتهم انطلاقا من مفاهيم ومصطلحات عربية خالصة. مستعنيين في الوقت نفسه بالاكشافات القادمة من الغرب بدلا من أن نحدث نوعا من الخلط بين المفاهيم الأصلية والمفاهيم المستوردة»^(٢٧). أرجو أن تكون الصفحات السابقة قد استلذت إفتاح البعض بأن الخلط ليس وهما، بل واقع قائم مخيف لا بد من أن نتخطاه.

وفي ختام هذا الجزء من التمهيد، قبل الدخول في قراءة اجتهادية حديثة للتراث النقدي واللغوي العربي، أعود إلى كلمات لجابر عصفور، تصور في بلاغة لا تقبل الجدل أخطار الاستعارة من الآخر الثقافي، كلمات مطولة أحيل القارئ إليها دون تعليق:

«والحق أن الأثر السلبي لهذه الاستعارات المعرفية هرين غياب الوعي النقدي بها، وتقبلها بمنطق الاستهلاك (الذي يقوم على الترجمة أو التلخيص والنقل)، وليس منطق الإسهام في إعادة الإنتاج. أعني التسليم الاتباعي بسلامة الاستعارة دون استدلال على صحتها واختبار نتائجه، أو فحص إمكاناتها على مستويين: مستواها الذاتي المقترن بسياقها التاريخي ونسبتها المعرفي الذي أنتجت ضمن علاقاته، ومستواها الأدائي الوظيفي حين يستخدمها القارئ في سياق تاريخي مغاير، أو نسق معرفي ينطوي على إشكاليات مغايرة. وللأسف فإن ما يبدو لافتا إلى الآن أن وعي الذات القارئة بهذه الاستعارات يعجز - غالبا - عن التأمل المحايد لها... والإضافة المنتجة إلى عناصرها، وذلك بحكم المرحلة الحضارية التي نعيشها، وعلاقات التبعية التي نعيشها»^(٢٨).

غيبية النظرية النقدية العربية

إن التبرير المنطقي لدى الحدائين العرب، سواء أعلتوا ذلك أو لم يعلنوه، أنهم تحولوا إلى فكر الحدائة الغربية بسبب غيبة نظرية علمية متكاملة للنقد العربي، وفي سعيهم لتحديث العقل العربي لجأوا إلى عملية النقد الحدائي. أمام هذا التبرير الذي قلنا إنه، مرحليا على الأقل، منطقي، وفي ضوء موقفنا المبدئي من الحدائة الغربية، والذي أكدناه حتى الآن، باعتبارهم تمهيدا للتبعية

ثم تأكيداً لها، تتحدد مهمة مؤلف المرايا المتعبرة في محاولة إثبات وجود بديل عربي. وهذه في حقيقة الأمر مهمة رئيسية، سوف تتركز مهمتنا في إثبات أن النقد العربي والبلاغة العربية قدما نظرية نقدية ونظرية لغوية، ربما لا تكون متكاملة في أي من المجالين، ولكنهما نظريتان لا تنقصهما «العلمية» التي كانت طعم الحداثيين العرب والذي التهموه في انهيار وحماش واضع، وأنهما يقدمان في جزئياتهما المتأثرة عبر أربعة قرون أو خمسة مكونات نظرية لغوية ونقدية كان من الممكن، مع قليل من التزاوج مع فكر الآخر الحديث، والمعاصر، أن يطورا إلى نظريتين كاملتين.

وهكذا يفرض السؤال نفسه: هل كان لدينا حقيقة، وهل لدينا اليوم، نظرية لغوية أو نقدية عربية؟ فيما يتعلق بالشق الأول من السؤال، فقد قلنا إن موقفنا المبدئي والذي يمثل صلب الدراسة الحالية، يقوم على تأكيد امتلاك التراث اللغوي والبلاغي والنقدي العربي لمكونات نظرية عربية كان يمكن أن تكون، كما قال العقاد في المرحلة الأخيرة من حياته، هي «الهوية الواقية» القادرة على حماية الثقافة العربية من «أن تؤل إلى فناء كفتاء المقلوب في الغالب»، أما الشق الثاني من السؤال: هل لدينا اليوم نظرية نقدية؟ فإن محاولة الإجابة عنه هي موضوع الصفحات التالية من هذا التمهيد.

يتصور بعض الحداثيين العرب، بعد أن وقضوا طويلاً أمام مراياهم المحدبة، شأنهم في ذلك شأن الحداثيين في بلاد النشأة، أنهم قد نجحوا بالفعل في إنتاج نظرية نقدية عربية، بعد أن تحولوا، كما يقولون، من استهلاك حداثة الآخر في عقد الثمانينيات من القرن العشرين إلى إنتاج حداثة عربية. وقد قلنا، في الفصل الثاني من الجزء الأول للدراسة الحالية، بإلقاء الضوء على جوانب تلك الحداثة العربية التي أنتجوها: حداثة النقل والترجمة والابتسار وسوء الفهم، وأخيراً حداثة الزيف التي تبتعد عن الحقيقة الأولى خطوة مع كل جيل حداثي جديد، وإذا كانت تلك هي النظرية النقدية التي قدموها حتى الآن، فما أتعس حظ الثقافة العربية، فالحقيقة التي لا يتردد عدد من المثقفين العرب في الجهر بها أن ارتعاشنا في أحضان الحداثة ثم ما بعد الحداثة الغربية قد أخر ظهور نظرية نقدية عربية. وهذا ما يقول به باحث موريتاني يرى أن البلاغة العربية قد أضررت نتيجة

وصل ما انقطع

استخدام عدسة نقدية واحدة، هي عدسة النقد الحدائي الغربي، في النظر إليها. يكتب محمد سالم الأمين في «مفهوم الحجاج عند «بيرلمان» وتطوره في البلاغة المعاصرة» (عالم الفكر، يناير/ مارس ٢٠٠٠) ما يلي:

«إن السبب في عدم تبلور نظرية بلاغية عربية معاصرة كامن في أن العديد من الدراسات التي مورست في حقلنا النقدي لم تراعى في قراءتها الشروط البلاغية العربية، وإنما عمدت إلى النظرية النقدية الغربية متخذة منها عدسة واحدة للنظر إلى مختلف جوانب النص، الأمر الذي أسفر عن تغليب للعديد من خصوصياتنا في أجزاء اللغة وهي توليف البلاغة»^(٢٦).

إن رأي الأمين يشفع باب مفارقة جديدة، وما أكثر المفارقات التي يضع الحدائيون العرب أنفسهم فيها، لقد كان العقل العربي، في بداية عصر النهضة، يحاول أن يخرج من الظلمات التي فرضها عليه الاحتلال العثماني، الذي ابتلع رقعة كبيرة من العالم العربي في السنوات المبكرة من القرن السادس عشر، ولا يستطيع إنسان أن ينكر أن تلك الرغبة في الاستتارة قد صاحبها قدر ملحوظ من الانبهار بالعقل الغربي تختلف درجته من مستتير إلى مستتير ومن جيل إلى جيل. لكن رواد التحديث الأوائل لم يقوموا بالنقل الصريح عن منتجات العقل الغربي أو الارتواء في أحضان الثقافة الغربية، ويمكن للمرء أن يعمم دون كثير مغالطة: إن النهضة كانت تعني استعارة الفكر العلمي ومناهجته، حدث هذا، بدرجات متفاوتة، مع العقاد والمازني ونعيمه وطه حسين ودون مغالطة أيضا، يمكن تعميم الحكم نفسه على جيل منتصف القرن: لويس عوض، ومحمد مندور، وفنميني هلال ورشاد زشدي، سواء اتجهوا إلى الواقعية الاشتراكية أو النقد الجديد التحليلي، أقصى ما حدث أن هؤلاء وهؤلاء بنوا مدرسة شرقية أو غربية رأوا أنها تخدم رؤيتهم لوظيفة الفن والأدب، وقد استعاروا أيضا المصطلح النقدي الذي أفرزته هذه المدرسة أو تلك، لكن ذلك المصطلح لم يكن في يوم من الأيام، سواء داخل المدارس النقدية التي أفرزته، أو داخل الاستعارة العربية له، حاجزا أمام التعامل مع النص، من الذي يستطيع مثالا أن يقول إن «المعادل الموضوعي» الذي كان «أغريب» ما قدمه رشاد زشدي وأبنا مدرسة النقد الجديد آنذاك، كان مصطلحا مرأوغا أو مخادعا أو محملا بأي قيم معرفية فلسفية، مثل ما

حدث فيما بعد مع مصطلحات الحضور والغياب أو الاختلاف والتأجيل؟ بل من الذي يستطيع أن يقول إن «المعادل الموضوعي» يختلف عن مفهوم الصورة الشعرية التي تجسد المعقول بالمحسوس كما قال البلاغيون العرب؟ وفي مرحلة ما كان المناخ مهيباً حقيقة «لإنتاج نظرية نقدية عربية أصيلة. كان ذلك الهدف هو النزوة الطبيعية لعمليات التأثر والاستعارة التي بدأت في السنوات المبكرة من ذلك القرن.

وفجأة توقف كل شئ مع الهزيمة العسكرية القاسية للعقل العربي العام ١٩٦٧. وحتى لا نعبر الجسر نفسه مرات نؤجس فنقول: حولنا الرغبة المحمومة في تحليل العقل العربي إلى الارتقاء الكامل، ليس الاستعارة وليس التأثر، بل الارتقاء الكامل في أخضان الحداثة الغربية باعتبارها المخلص الجديد والمنقذ من الضلال! وتحققت بأشعل قطيعة معرفية إبستمولوجية حقيقية مع منجزات العقل العربي القريبة والبعيدة على السواء. قد ينكر البعض قيام الدعوة لقطيعة معرفية مع التراث، ناهيك عن تحقيقها الفعلي، كما ندعي هنا. إذن فلنقرأ معا نموذجاً نقدياً عربياً لنرى إذا كانت القطيعة المعرفية قد تخطت مرحلة الدعوة إلى مرحلة التحقق أم لا في كتاب محمد مفتاح، وهو من كبار الحداثيين العرب، تحليل الخطاب الشعري الذي صدرت طبعته الأولى العام ١٩٨٥، يستعرض المؤلف التيارات اللسانية المختلفة التي شهدتها القرن العشرين بهدف التمكن «من فرز العناصر الصالحة لاستثمارها في إطار بناء متسجم إذا تعرفنا على تلك الخلفية» [التأكيد من عندي]، ثم يقدم أهم عناصر تلك التيارات على النحو التالي:

- + اللغة بريقة شفاضة... / اللغة فخادعة مضللة تظهر غير ما تخفي.
- (تشومسكي، كرايس...) / (بارت وأضرابه)
- + اللغة تصف الواقع وتمكسه / اللغة تخلق واقعاً جديداً،
- (الوضعيين، والماركسيون) / (الجنطاليون، والشعراء...)
- + الذات المتكلمة هي اللغة الأولى / الهيئة اللغوية لها دور كبير في إيجاد
- والأخيرة في إصدار الخطاب.
- (سورل - نظرية اللغوية) / (نظرية التفاعل)
- + اللسانية الضيقية / اللسانية الموسعة
- (الناطق والعلماء) / (الأخمينيون)^(٢٠)

ومنْ ما انقطع

هذا إيجاز لا آنرد في تسميته «رائع» للاتجاهات اللسانية في القرن العشرين. ولكن: من القارئ المستهدف هنا؟ لا شك في أنه القارئ العربي في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وما المدارس أو الاتجاهات اللغوية التي يقدمها محمد مفتاح إلى القارئ العربي حتى «يتمكن من فرز العناصر النظرية لاستثمارها في إطار بناء منسجم»؟ إنها الاتجاهات اللغوية التي شهدتها العالم الغربي من أوروبا الشرقية مروراً بأوروبا الغربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. هل هناك إشارة واحدة، ولو من طرف بعيد، إلى أي اتجاهات لغوية عربية قديمة؟ وهل يخلو تراث البلاغة العربية كله من بعض الدراسات اللغوية التي ربما لا تختلف كثيراً - وحتى لو اختلفت - عن هذه الاتجاهات الأجنبية؟ أما إن البلاغة العربية قد قدمت في تراثها الفني ما يمكن تسميته نظرية لغوية، فهذا ما سوف نحاول إثباته في الفصل التالي من دراستنا الحالية. وعلى الرغم من ذلك يظل الباب مفتوحاً هنا لاعتراض قد يثيره البعض: «لكن مفتاح هنا يتحدث عن الاتجاهات اللغوية الغربية الحديثة»، لكن هذا الاعتراض الشكلي يغفل نقطة جوهرية وهي أن المؤلف يخاطب القارئ العربي الذي يريد أن يعلمه المدارس اللغوية الأجنبية حتى يتمكن من «فرز العناصر النظرية لاستثمارها في إطار بناء منسجم». فالمؤلف لا يقدم استعراضاً لهذه الاتجاهات اللغوية بالعربية يستهدف به قارئاً إنجليزياً أو فرنسياً أو أمريكياً هنا يتمثل التحقق الكامل للقطيعة المعرفية مع التراث العربي. وهذا، على وجه التحديد، ما يؤكد سيد البحراوي في «خاتمته» الرائعة لكتابه:

البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث:

«ولعله أمر لا بد أن يلفت النظر، ذلك الوضع الذي نجد فيه نقدنا الحديث، لا يطرح أمامه طوال الوقت نموذجاً، سوى النموذج الأوروبي (سواء كان غربياً أو شرقياً أو أمريكياً) وسواء كان هذا النموذج نقدياً أو أدبياً... النموذج الذي نعبد عليه ونضرب به الأمثلة هو نموذج أوروبي... إن معنى ما رصدت الآن يمكن أن يتلخص في جملة عامة، هي أننا لسنا منتجين المناهج الغربية التي تتبناها ونؤمن بها وإنما نستوردها، أو لنقل بدقة أكبر إنها تفرض علينا، لأننا مولعون بالتجديد... ومعنى ذلك أننا لسنا منتجي المناهج النقدية، أننا

نقف في مواجهتها دون أن نستطيع امتلاكها - سيكولوجيا - بعمق، فهي المثل الأعلى الذي لا يحق لنا أن نعدل أو نغمر فيه أو حتى نختر منه ما يناسبنا^(٢٧) [التأكيد من عندي].

قد يجيء الرد بأن القطعية التي رفع البعض شعارها ثم نفذوها كانت ضرورة لا مفر منها، هالبلاغة العربية فشلت في تطوير نظرية لغوية عربية، وبالتالي في تطوير نظرية نقدية عربية. ثم إن الجيلين السابقين على جيلنا، جيل الحداثة وما بعدها، لم يستطيعا هما الآخران، بعد نصف قرن من التأثير بعلمية الفكر الغربي، أن يطورا مدرسة لغوية ومدرسة نقدية عربيتين. فلماذا كل هذا الصخب؟ لكن اعتراضنا ليس موجها فقط ضد اختيار البديل الغربي باعتباره تمهيدا للتعبية ثم ترسيخها لها، لكنه موجه أيضا ضد النتائج التي ترتبت على ذلك الاختيار. إذ إن جميع الدلائل، وقد قدمنا الكثير منها في الفصل السابق مباشرة، تؤكد أن اعتراضنا كان له ما يبرره، الكثير مما يبرره في الواقع. فما تحقق هو سوء الفهم، وسوء النقل والتشويه والتداخل والتناقض اللانهائين، والفشل، في نهاية الأمر في تقديم بديل مقنع لما تمردنا عليه. وقد سبق أن ناقشنا بالتفصيل في المرايا المحدبة أن أخطر ما فعلناه أننا استعرنا أو نقلنا مذاهب نقدية غربية هي بالدرجة الأولى إفراز أمزجة ثقافية وفلسفية لها خصوصيتها التي لا تتفق مع أمزجة الثقافة العربية. وهكذا أضاف الحداثيون العرب إلى سوء الفهم والتشويه غربة المفاهيم المستوردة ومصطلحها النقدي، أي أن الفكر الحداثي العربي في حقيقة الأمر ولد معكوما عليه بالغربة، لقد رفضت الحداثة العربية منذ البداية، إذن، الاتصال بإنجازات النقد العربي القريب والبعيد ولم تسمع كما يقول شكري عزيز الماضي «إلى تخطي وأقناع النقدي بل حاولت نشر عنه وربما نفيه! فلم تنبع من سياقه الخاص ولم تولد كتطور طبيعي ومنطقي لتناقضاته ومشكلاته المتعددة. وقد نبعت من سياق آخر (على الرغم من تعاملها مع بعض النصوص العربية القديمة والحديثة). وقد بدت - وكانت حريصة على أن تبدو - وكأنها جديدة تماما، وهذا ما جعلها تحدث انقطاعا في مسار الحركة النقدية العربية»^(٢٨) [التأكيد من عندي].

وكيف نفسر، إذن، هذا الكم الهائل من الدراسات المتخصصة التي ترجع إلى التراث النقدي العربي، والتي لا يستطيع أحد أن يفكر جدية الكثير منها وتمييزه ألا ينقض ذلك ما ندعيه من أن الحداثة العربية قامت على القطيعة مع التراث؛ خاصة أن هذه الدراسات المتميزة في معظمها قام بها حداثيون عرب؟ وقد سبق لنا إثارة هذا التساؤل ومحاربة الإجابة عنه في مرحلة مبكرة من هذه الدراسة الحالية. قلنا في حينه إن تلك إحدى المشارقات اللافتة للنظر، فعلى الرغم من أن المكتبة العربية شهدت في الربع الأخير من القرن الماضي زخما غير مسبوق من الدراسات التراثية، إلا أن الحداثيين الذين قاموا بتلك الدراسات كانوا، عندما يلجأون إلى التطهير والتطويق النقدي، يتجاهلون دراساتهم التراثية ويستعبدون وينقلون المفاهيم الأجنبية بمصطلحاتها النقدية كأنهم يفعلون ذلك من منطلق إحساس قوي بدونية إنتاج العقل العربي وتخلفه. ثم أضفنا في موضع لاحق أن بعضهم كان يعود إلى التراث، لا لتأسيس شرعية ذلك التراث، بل لتأسيس شرعية الحاضر الحداثي. تأكيداً للمفارقة اللافتة للنظر. وهذا، أيضا، ما يؤكد شكري عزيز الماضي في حديثه عن حركة النقد العربي المعاصر:

«ولم تتواصل مع التراث النقدي القديم؛ فعلى الرغم من استشهاد النقاد الجدد بشذرات من النقد القديم وذكر اسم الجرجاني كثيرا؛ فإن المرء يشعر أن هذه المحاولة تهدف إلى تسويق آرائهم وأفكارهم أكثر من التواصل والتفاعل الجدي مع التراث النقدي أو تطوير آراء الجرجاني بدليل أنهم لم يلتفتوا إلى تلك الشذرات إلا بعد احتكاكهم بأراء النقاد الغربيين، وهي مسألة تثير قضية مهمة وهي كيفية التعامل مع التراث النقدي»^(٣٧).

وهي الوقت نفسه، فإننا لا نستطيع أن نغفل الإشارة، من جديد، إلى أن العودة إلى التراث النقدي عند بعض الحداثيين العرب جاءت من منطلق تأكيد شعار الأصالة والمعاصرة دوماً للأخطار التي يعينها الجهر باتفتاحهم الكامل على الحداثة وما بعد الحداثة الغربيين. لكن الواقع، نظريا للنقد وتطبيقا له، كان يؤكد دائما أن الثنائية جوفاء مشرقة تماما من المعنى، إذ تبقى العودة إلى التراث مجرد ذر للرماد في العيون، أو نوعا من التجمل الضروري لترويع الأكاديمية الحداثية.

لقد تَمرَدَ النقاد الحدائيون العربي، كما سبق أن قلنا، على التراث النقدي، القريب والبعيد، على أساس أن الممارسة النقدية السابقة عليهم مباشرة، من نقد جديد وواقعية اشتراكية ووجودية، ومن قبلها النقد العربي القديم، قد فشلت في تطوير مدرسة نقدية عربية وكان من المتوقع أن يؤدي ذلك التمرد في مرحلة ما إلى تطوير نظرية نقدية عربية خاصة بنا. ولكن ما حدث أننا بدلا من تحقيق ذلك الحلم المراوغ، فتحنا أبواب الجحيم والفوضى وأصبحنا اليوم أبعد ما نكون عن تطوير نظرية نقدية عربية مما كنا في أي يوم من الأيام، بل إن ذلك البعد يزداد مع كل جيل حدائي أو ما بعد حدائي جديد. يتعد عن المنابع الأصلية الأولى للحدائفة، بل إننا أصبحنا اليوم أبعد ما نكون عن أصولنا الثقافية، أي أن الاتجاه الحدائي العربي قد عطل أو آخر ظهور مدرسة نقدية عربية من ناحية، وقدم حالة من الفوضى العنيفة كبديل لنظام بتقبله دون اعتراض، من ناحية ثانية، ويصور شكري عياد في مقدمة في أصول النقد (١٩٨٦) حالة الفوضى التي سادت الساحة الثقافية العربية في بداية المد الحدائي الهنوي نتيجة لتبادل الأصوات والانتقادات والأدوار بصفة مستمرة، وهو تبادل يرتبط بالمصالح أكثر من ارتباطه بالمبادئ أو القيم الثابتة: «فَنا قد اقترينا من دائرة» المصالح «حيث لا رحمة ولا إنصاف.

هنا تتبادل الاتهامات بسهولة فيكون إليوت ومن نحا منحاه رجبين، ويكون الواقعيون الاشتراكيون عبيدا، ويكون الوجوديون ضُفّة من البراجوازية الصغيرة المتعفة والصورة أشبه بتلك الرسوم المخططة التي تقدمها الصحف في أركان التسلية. تحتاج إلى شيء من الحذق... حتى تتبين معالم الأرنب والذئب والحمل... ولا تليث أن تكشف ما هو أمرُف: فكل فريق يعتمد التشويش على خصمه باستخدام مصطلحاته نفسها فالإليوتيون والوجوديون يصمون الماركسيين بأنهم رجبين. والماركسيون يرمون خصومهم جميعا بأنهم خدام السلطة»^(٢٤).

وإذا كان البعض قد برر التحول إلى الحدائفة الغربية باعتباره هروبا من حالة الفوضى التي رسمها عياد بكلماته السابقة إلى حالة من العلمية، فإن حال الثقافة العربية لم تكن أسعد حظا مع التحول الحدائي، فقد ولدت الحدائفة معزولة منذ البداية، وهي حالة يربطها شكري عياد بظهور

وسئل ما انقطع

البنوية التي عجز الجميع - باستثناء البنيويين أنفسهم - عن فهمها. فقد «أخذ المتحمسون لهذا المذهب الجديد»، كما يرى مؤلف مقدمة في أصول النقد، «يطبقونه على نصوص من الأدب العربي، بدءاً بامرئ القيس وانتهاء بأحداث المحدثين. وظهرت مجلة فصول في القاهرة عندما كان هذا النشاط في عنفوانه (١٩٨٠)، ففتحت صدرها له. وقرأ الناس نقداً لا يشبه ما عرفوه، أو ماظنوا أنهم عرفوه، فاختلطت الأمور عليهم، وساء ظنهم بالأدب الجاد، فنزلوا عنه راضين إلى ثلة من المثقفين»^(٢٥). ولم يكن غريباً، إذن، في ظل هذا التحول الجديد، أن يصبح النقد التراثي العربي مستباحاً، وهدفاً سهلاً لكل من أراد أن يركب الموجة الجديدة، ويسمح لبعض لأنفسهم، ليس بتجذير القطيعة الإبستمولوجية مع التراث فقط، بل باستباحته وبيان قصوره، وهذا ما فعله أحمد طاهر في ذروة المد البنيوي في بحث له بعنوان: «حول روايات النقد الأدبي عند العرب».

«والناظر إلى هذا التراث يجد «توليفة» عجبية من النظريات النقدية المتعددة والمتباينة في الوقت ذاته؛ وهي تأتي متداخلة في المؤلفات النقدية بحيث يصعب على القارئ أن يجزم بأن هذا الناقد أو ذلك نموذج لغوي بحت؛ لأنهم في الحقيقة قد خلطوا بين هذه الأمور جفياً؛ ومن ثم فإن كتاباً نقدياً واحداً قد يجيء ليحوي بين دفتيه نماذج للنظريات اللغوية والبلاغية والدينية والمنطقية جنباً إلى جنب ممزوجة ومتداخلة، وأحياناً في نسيج يصعب استدلال خيط واحد منه. إلا إذا كان الهدف هو تمييزه والاسئناء عنه»^(٢٦).

والغريب أن أحمد طاهر، يعد هذه التهمة الواضحة بل القوية لرفض التراث النقدي العربي بسبب عجزه وقصوره في تطوير نظرية لغوية أو نقدية، ينتهي سطره بجملة مريكة: «قد تكون هذه مزية، وقد تكون عيباً، ولكنها في الحالتين حقيقة لا ينبغي تجاهلها». هل تركت السطور السابقة مجازاً لأي مزية يمكن أن نصف بها التراث النقدي العربي كما صوره طاهر؟ وهنا لا نملك إلا أن نشير بعض التساؤلات التي تحمل إجاباتها في داخلها: وهل كان للنقد الغربي حتى نهاية القرن الثامن عشر، على الأقل، نظرية لغوية أو نقدية متكاملة أو «خالصة»؟ ثم، ألا تقدم نماذج النقد

العربي القديم، قبل النقد الغربي بقرون طويلة، البدايات الحقيقية لمدارس لغوية ونقدية شبه متكاملة ما علينا إلا أن نجهد أنفسنا فقط في استخلاصها وتركيب جزئياتها؛ ثم، كيف تجيء المذاهب اللغوية والنقدية إلى الوجود؟ ويؤكد محمد مندور الحقيقة المعروفة وهي أن المدارس النقدية لا تأتي إلى الوجود عندما يجتمع عدد من المنظرين والنقاد ويتفقون فيما بينهم على مجموعة من المبادئ والإجراءات النقدية تنقض القديم وتقدم البديل الجديد إلى أن تجتمع مجموعة أخرى من المنظرين والنقاد ليقدّموا نظرية جديدة، وهكذا، يشرح محمد مندور في كتابه في الأدب والنقد (١٩٥٢):

«والذي يجب الفطنة إليه عند البحث في نشأة المذاهب هو أن لا تتصور أنه قد قصد إلى خلقها، فوضع الشعراء أو الكتاب أو النقاد أصولها من العدم، ودعوا إلى اعتناق تلك الأصول، وذلك لأن الحقيقة التاريخية هي أن المذاهب الأدبية حالات نفسية عامة ولدتها حوادث التاريخ وملايسات الحياة في العصور المختلفة، وجاء الشعراء والكتاب والنقاد فوضعوا للتعبير عن هذه الحالات النفسية أصولاً تتكون من مجموعها المذاهب، أو خاروا على هذه القواعد والأصول لكي يتحرروا منها، وبذلك خلقوا مذهباً جديداً» (٣٧).

إن قراءة التراث اللغوي والنقدي العربي في عصره الذهبي لا يمكن إلا أن تؤدي إلى حقيقتين ساملتين: الأولى، إن الحياة الأدبية العربية كانت، لمدة أربعة أو خمسة قرون، تموج بالتيارات اللغوية والنقدية، بصورة لا تقل عن حركة الحياة الأدبية الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين، وإن ذلك كله بدأ ووصل إلى ذروته ثم انتهى في وقت كانت أوروبا في أشاته تعيش عصر الظلام والجهالة. الثانية، إن ذلك التراث، لو تمت هراءاته وغربلته دون انهيار بمنجزات العقل الغربي، سوف يتبقى منه الكثير الذي كان قادراً على تطوير نظرية لغوية ونظرية نقدية متكاملتين، ولا نملك في السياق الحالي إلا أن نذكر بحقيقة تاريخية معروفة: إن عصر النهضة الأوروبية قام، في الدراسات اللغوية والنقدية، على وصل ما انقطع مع التراث الغربي القديم، وتعني به التراث اليوناني - الروماني. ومن المعروف أن القطيعة المعرفية في ذلك التراث وطعمه وتسيانه هي التي أوقفت

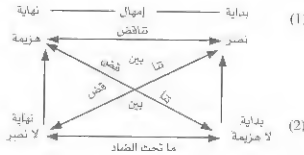
حركة التطور المنطقي تحت ضغوط الكنيسة الأوروبية، وأن النهضة ارتبطت باكتشاف وإعادة الاكتشاف لإنجازات الحضارة اليونانية - الرومانية. أما نحن في العالم العربي فنشترط القطيعة المعرفية مع تراثنا كشرط لتحقيق الحداثة والتحديث، مهما غلفنا شعارات القطيعة بشعارات مخادعة من قبيل الأصالة والمعاصرة.

خلاصة القول، إن التحول في اتجاه الحداثة ثم ما بعد الحداثة الغربيين خلق الفراغ بقدر ما أكده، فشعار القطيعة المعرفية مع التراث خلق فراغا أدى إلى تبني الفكر الغربي كبديل للماء الفراغ الجديد. وفي الوقت نفسه، فإن التحول الحدائي كان يعني خلو الساحة الثقافية العربية من فكر لغوي ونقدي ناضج. ثم إن الفوضى التي جاءت مع الحداثة وما بعد الحداثة، خلقت، هي الأخرى، فراغا جديدا وأكثته.

نقطة أخيرة، إن القول بمعجز العقل العربي عن تطوير نظرية لغوية يعني قبول الاتهامات التي يوجهها المستشرقون للغة العربية باعتبارها لغة جامدة، محتلة، عاجزة عن التعبير عن الفكر الجديد، وهو ما يرى به محمد عابد الجابري في تكوين العقل العربي سيرا على طريق اتهامات الاستفراق، أو أنها عاجزة عن مواكبة الثورة الفكرية الحديثة كما يقول زكي نجيب محمود في تجديد الفكر العربي. والواقع أنني سأتحاشى الدخول في متاهة هجوم المستشرقين على اللغة العربية والدفاع عنها، لكنني سوف أتوقف فقط عند نقطة جوهرية دون الدخول في التفاصيل التي لا تهتم في السياق الحالي. أولا، ليست اللغة العربية التي نستخدمها اليوم، والتي يرى البعض أنها قاصرة عن التعبير عن الثورة الفكرية المعاصرة، هي نفسها اللغة التي عبرت عن الثورة الفكرية العربية في مجالات الرياضيات، وعلوم الفلك، والطب، والفلسفة وتم نقلها إلى الثقافات الغربية عبر قنرات كثيرة، أبرزها الوجود العربي في الأندلس، لنسهم في تحقيق النهضة الأوروبية ثم، ليس هذا الإتهام في حد ذاته ثم استمراره تناقضا جوهريا مع الفكر اللغوي الأوروبي الحديث ابتداء من دراسات بوسير حتى اليوم؛ ألا يجمع هذا الفكر اللغوي الحديث، بدرجات متفاوتة من الانشقاق والاختلاف على عدم الفصل بين اللغة والفكر، وأن تشكيل الفكر دون اللغة أمر مستحيل، وأن فكر الإنسان هو

لغته ولغته هي فكره؟ إذا كان هناك قصور، إذن، فهو ليس قصور اللغة العربية في حد ذاتها، بل هو قصور الفراغ الفكري، أي أننا حينما استغرقتنا عملية استهلاك فكر الآخر ولم نعد ننتج فكرا خاصا بنا، قدمنا لغتنا في حالة قصور وعجز.

في ظل هذا الفراغ النقدي الذي خلقه الحداثيون وما بعد الحداثيين العرب، يكون البديل هو ذلك التحليل المطول الذي يشغل أكثر من مائتي صفحة من كتاب مفتاح تحليل الخطاب الشعري لقصيدة عربية واحدة، نقدم من هذه الصفحات نمودجا مصغرا، شديد التصغير لبيت واحد، لأن التحليل البيئضي ذاته لذلك البيت يمتد لصفحات وصفحات:



النظرية اللغوية العربية

أركان النظرية اللغوية الحديثة

ربما يكون رد الفعل الأول والمسرّع لدى البعض في استخدامنا لمصطلح «النظرية اللغوية العربية»: «مبالغة كبيرة» أو على الأقل: «هذا طموح لا يستند إلى حقائق من تاريخ البلاغة العربية، فلم يطور العرب ما يمكن أن نسميه نظرية لغوية متكاملة»؛ ثم: «الم يكن غياب النظرية اللغوية هو ما دفع البعض منا، في المقام الأول، إلى الاتجاه إلى اللغويات الأوروبية، شرقها وغربها، وهي الدراسات التي طورت نظرية لغوية منذ السنوات المبكرة من القرن العشرين عكف العقل الغربي على تطويرها وتهذيبها وتعديلها ونقضها إلى أن أصبحت في نهاية القرن أسرة كاملة من المدارس اللغوية المتعددة والمتشابكة»؟

والواقع أن لكل هذه الاعتراضات وجهاتها لو أننا نتحدث عن نظرية علمية تحولت عبر سنوات أو قرون إلى حقيقة علمية لا تقبل الجدل أو الاختلاف مثل دوران الأرض حول الشمس. ولكننا في حقيقة الأمر نتحدث عن مجموعة من الافتراضات والآراء التي تكون في مجموعها

إن تطوير نظرية لغوية ونشمية عربية، يتطلب القيام بعملية غربية دقيقة وتقنية واعية تراعى الثقوي واللغوي من كثير من تفاصيله وتداخلاته لجعل أن تضع أيدينا على مقدرات تلك النظرية.

المؤلف

نظرية، أو مجموعة من المبادئ العامة التي تقيّم الحالات الفردية في ضوءها دون أن يعني ذلك بالضرورة جمود النظرية ونهايتها من ناحية، وخطأ الحالات الفردية التي لا تتفق مع تلك المبادئ العامة بالضرورة، من ناحية ثانية، قد يعكف عقل واحد عبر مساحة زمنية من حياته على تطوير نظرية ما، وقد يشزامن ذلك مع جهود عقول أخرى تصل، إلى انفراد، إلى تطوير نظريات مماثلة أو مختلفة. وقد تكون النظرية إنتاج مجموعة عقول أو جيل واحد من العقول، وقد تكون أيضاً إنتاج مجموعة عقول تنتمي لعدد من الأجيال. إن أبسط تعريف معجمي للفظ «نظرية» يصفها باعتبارها «مجموعة القواعد التي يقوم عليها موضوع أو مهارة عملية، مثل نظرية الموسيقى»^(١) هل يختلف ما قدمه العقل العربي في الدراسات البلاغية عبر خمسة قرون عن ذلك المفهوم للنظرية خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن النظرية التي نتحدث عنها هنا، تقبل التغيير والتحوير والإضافة والنقض دون أن يغير ذلك من قيمتها كنظرية؟ وبدقة وتحديد أكثر: ألا ينطبق كل ذلك على محاضرات فريدناند دي سوسير في اللغويات العامة في بدايات القرن العشرين والتي جمعت بعد ذلك في كتاب نشر بعد موته هو **دروس في علم اللغة** عام (١٩١٦)، وهو الكتاب الذي لا يختلف عليه مفكران باعتبار الكتاب العمدة الذي بدأ النظرية اللغوية الحديثة؟ ألم تعرض آراء سوسير المبكرة للتعديل والتفسير والإضافة والنقض دون أن ينسف ذلك كله النظرية اللغوية التي قدمها المفكر السويسري أو يبطل وجودها؟

إن عمليات التطوير والتحوير والنقض المستمرة التي تعرضت لها آراء سوسير استطاعت في نهاية الأمر أن تحول النظرية اللغوية إلى نظريات لغوية خرجت جميعها من عباءة النظرية السويسرية، بطريقة أو بأخرى، وعلى الرغم من كل التشعيبات والتفريعات التي خرجت من عباءة سوسير فإن تعريف النظرية اللغوية يظل بسيطاً يتسع لكل الاختلافات، وقد اخترنا نموذجاً أو اثنين يجمعان بين التركيز الشديد والبساطة المتناهية والمرونة الكاملة، وكلها صفات تخدم الهدف من دراستنا الحالية لمحاولة تحديد الخطوط العامة للنظرية اللغوية العربية، يكتب علي عزت، أستاذ علم اللغة الخضر، في تعريف علم اللغة في كتيب موجز بعنوان: «الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب» (١٩٩٦): «وعلى ذلك فإن التعريف السليم

لعلم اللغة هو أنه: العلم الذي يدرس اللغة من ناحية بنائها الداخلي، أو الأنماط المكونة لها من نحوية وصوتية ولفظية ودلالية^(٢)، وبما يقول البعض إن علي عزت في التعريف السابق يتحدث عن علم اللغة وليس نظرية اللغة. ولا أظن أن القارئ يحتاج حقيقة إلى تذكيره بأن مصطلح «علم» أكثر انضباطاً وتحديداً من لفظ «نظرية» التي تسمح بالقطع بمرونة أكبر مما يسمح به مفهوم «العلم» والعلمية. وما علينا إلا أن نعود إلى التعريف المعجمي للفظ «النظرية» لنذكر درجة المرونة التي يمكن أن تسمح بها تلك القواعد: التعريف الثاني يقدمه واحد من أكثر النقاد المعاصرين مصداقية في تعامله الموضوعي مع النقد الحدائثي وما بعد الحدائثي، ونعني به جوناثان كلير:

«من ثم، فإن اللغويات تبدأ من الحقائق المتصلة بشكل ومعنى المقصولات بالنسبة للمتكلمين وتحاول أن تبررهما. فكيف يحدث أن يكون للجملتين التاليتين اللتين تتشابهان في التركيب: «John is easy to please» و«John is eager to please» معنيان مختلفان للناطقين بالإنجليزية؟... إن عالم اللغة لا يحاول اكتشاف «المعنى الحقيقي» لهاتين الجملتين، كأن البشر كانوا مخطئين طوال الوقت وأن الجملتين في أعماقهما تعنيان شيئاً آخر. إن وظيفة علم اللغويات أن يصف بنى اللغة الإنجليزية... حتى يمكن تفسير الفوارق الواضحة في المعنى بين هاتين الجملتين»^(٣) [التأكيد من عندي].

وبعملية إحلال بسيطة، يمكن أن نقرأ الجملة الأخيرة من تعريف علم اللغة الذي يقدمه كلير على النحو التالي: «إن وظيفة علم اللغة العربي (أو الفرنسي، أو التركي أو الإسباني... إلخ)، أن يصف بنى اللغة العربية (أو الفرنسية أو التركية أو الإسبانية إلخ) حتى يمكن تفسير الفوارق الواضحة في المعنى بين هاتين الجملتين». وبعد استبدال «اللغة العربية» بـ «اللغة الإنجليزية»، كما فعلنا، وبعد قراءة الجملة بعد الاستبدال، هل قمنا بالتجني على علم اللغة؟ والأهم من ذلك، هل أعينا للتراث البلاغي العربي فضلاً لا يستحقه؟ وبصورة أكثر تحديداً ومباشرة: ألا يقدم التراث البلاغي العربي من دراسات في بنى اللغة العربية ما يكفي لإثبات أنه بالفعل قدم مدرسة لغوية عربية شبه متكاملة، فيها التطور والتكرار والتداخل والتحوير والنقض؟ وأخيراً، وهو السؤال الأساسي في هذا المدخل الموجز، هل قدم الباحث

السويسري فرديناند دي سوسير الذي لا يختلف اثنان على أنه مؤسس علم اللغويات في العصر الحديث، هل قدم شيئاً في نظريته عن اللغويات العامة لم يتطرق إليه بلاغي عربي أو أكثر؟ وإذا أخذنا الفارق الزمني بين القرن الثالث أو حتى السابع الهجري من ناحية وبين القرن العشرين الميلادي، يمكن لنا أن نقول، دون مغالطة أو ادعاء فضل لا وجود له، إنه لو استمر العقل العربي في مساره لكان قد استلّح تطوير نظرية لغوية أكثر علمية وأكثر تركيبية من أي نظريات لغوية بلاغية قدمها القرن العشرون في أوروبا وأمريكا. ثم إنه، لو أن العقل العربي في بداية عصر النهضة في أوائل القرن العشرين استطاع، كما فعل العقل الغربي في عصر نهضته، أن يتخطى عصور الظلام والانحلال ويعيد الاتصال مع عصره الذهبي، كما حدث مع إنجازات الحضارة اليونانية، لكان العقل العربي قد نجح في تطوير مثل تلك النظرية اللغوية المتكاملة.

ونعود إلى تساؤنا الأساسي عن الإنجاز الذي حققه سوسير والذي لم يسبقه إليه أي من البلاغيين العرب! وقبل محاولة الإجابة، وهي نقطة انطلاقنا، في الواقع، ليس في هذا الفصل عن النظرية اللغوية العربية، بل أيضاً في الفصل التالي عن النظرية النقدية أو الجمالية العربية، قبل الإجابة بهمني أن أؤكد نقطتين جوهريتين. أولاً، إن الهدف من الدراسة الحالية ليس من باب الحنين المطلق إلى الماضي أو العودة إلى سجن التراث لإثبات سبق أو ميزة. أو حتى البكاء على أطلال ذلك الماضي. لكن إذا كان أقطاب التأويل والتلقي والتفكيك يرفعون شعار حرق المكتبات ونسف طبقات التكلس المتتالية التي رسبها التقاليد فوق المتابع الأولى للغة والوجود، ألم يكن حرياً بنا نحن أيضاً بإزالة التكلسات التي رسبها عصور الانحلال الطويلة فوق تراث البلاغة العربية حتى نعيد الاتصال - وليس القطيعة - مع ذلك التراث ونطوره في ضوء معارفنا، ومعارف الآخرين الجديدة، ليصبح أكثر خصوصية وارتباطاً بالعقل العربي؟ ثانياً: إنني أدرك تمام الإدراك أنني لست عالم لغة، لا بالمعنى العام أو الخاص، ومن منطلق هذا الإدراك سوف أتحاشى الدخول في المناطق التي تهيم عالم اللغة وحده ولن أكتب فيما لا أعرف. وإذا أخطأت فسوف أكون أول المعترفين بالخطأ وأول المعتذرين عنه، لأنني لا أتصور نفسي تصف إليه، كما

يتصور بعض الحدائين العرب أنفسهم، وفي الوقت نفسه أذكر بأن الخطا
الفاصل بين ما هو لغوي صرف وما هو نقدي صرف كان دائما خطأ دقيقا
دائم التعرج والتداخل، ثم إنه لم يكن في يوم من الأيام بالدقة والتعرج اللذين
يتصف بهما اليوم، بعد أن دخلت الدراسات الأسلوبية والدراسات
السيميوطيقية المنطقة الوسطى بين الدراسات اللغوية والدراسات النقدية منذ
بضعة عقود على الأقل، ثم إن النقاد الحدائين وما بعد الحدائين العرب،
على الأقل من أعرفهم شخصا منهم من البنيويين والأسلوبيين والتفكيكيين.
ليسوا متخصصين في الدراسات اللغوية بالمعنى الدقيق للتخصص. وحينما
أكتب اليوم، على استحياء وفي حذر شديد في اللغويات بصفة عامة، فإنني
أمارس الحق نفسه الذي يمارسونه، وهو حق الاجتهاد وإن كانوا، في الكثير
من ادعاءاتهم، أقل تواضعا مني.

إن الإجابة، التي هي، كما أشرنا، موضوع الفصل الحالي كله، تتطلب
تحديدا مبسطا، ربما يراه البعض شديد التبسيط في الواقع، لأركان النظرية
اللغوية التي قدمها سوسير في بداية القرن العشرين، والتي يرى جوناثان كلر
في دراسة تحليلية لها بعنوان فرديناند دي سوسير والذي قدم له عز
الدين إسماعيل ترجمة عربية رائعة بعنوان: فرديناند دي سوسير: (أصول
اللسانيات الحديثة وعلم العلامات) (٢٠٠٠)، بعد أن أضاف العنوان الفرعي
لأن الكتاب، يعكس ما يوحي به العنوان الأصلي، ليس سيرة ذاتية للغوي
السويسري، بل دراسة لأصول اللسانيات الحديثة، إن أهمية دروس في علم
اللغة العام لا تتمثل في جدة أفكاره عن اللغة أو ثورتها، بل في كونه نقطة
انطلاق حقيقية للتفكير الحدائي وما بعد الحدائي حول وظيفة اللغة
وطبيعتها. وسوف نقوم في الصفحات القليلة القادمة باستعراض أركان نظرية
اللغة السوسيرية في إيجاز وتبسيط من باب التذكير من ناحية، ويهدف
استخدام ذلك الاستعراض المبسط كخلفية backdrop ثابتة ودائمة في أثناء
مناقشتها المفصلة لأركان النظرية اللغوية العربية، من ناحية ثانية. أما
الاكتفاء بتذكير القارئ فقط بذلك لأننا لا نعتقد أنه يوجد عالم لغوي أو ناقد
أدبي لم يقرأ سوسير، فقد كانت نظريته اللغوية نقطة انطلاق للبنيوية اللغوية
ثم البنيوية الأدبية، بل إن المدارس النقدية بعد البنيوية، حتى في تمرداها على
بعض مقولات سوسير، جاءت تطويرا لنظريته المؤسسة، وفي هذا الاستعراض

المبدئي أيضا لن نتوقف عند المدارس اللغوية المختلفة التي تضرعت عن علم اللغة السوسيري، إذ ستتاح لنا تلك الفرصة في معرض الدراسة المطولة للنظرية اللغوية العربية، ولا يسعنا هنا إلا أن نحيل القارئ إلى كثير من التفصيلات التي احتشدت بها دراستنا السابقة المرايا المحدبة حول نظرية اللغة عند سوسير في الفصل الخاص بالبنائية.

إذن ما أبرز أركان نظرية اللغة عند فرديناند دي سوسير؟ يقدم كلر في دراسته الموجزة لفكر سوسير تعريفا مبدئيا ومركزا للغة كما تعامل معها اللغوي السوسيري:

«فاللغة نظام من العلامات ولا تحد الأصوات إلا عندما تعبر عن الأفكار أو تتقلها، وإلا فهي مجرد أصوات، ولكي تعبر الأصوات عن الأفكار أو تتقلها ينبغي لها أن تكون جزءا من نظام من الأعراف يربط بين الأصوات والأفكار، وبعبارة أخرى، ينبغي لها أن تكون جزءا من نظام من العلامات، والعلامة هي اتحاد بين شكل يدل، يسميه سوسير الدال Signifiant، وفكرة يدل عليها، تسمى المدلول Signifié، ومع أننا قد نتكلم عن الدال والمدلول، كما لو كانا عنصرين منفصلين، فإنهما لا يوجدان إلا بوصفهما مكونين للعلامة اللغوية»⁽²⁾.

ويستمر كلر في الصفحات التالية في تحديد طبيعة العلامة اللغوية عند سوسير. لكننا نكتفي مؤقتا بهذا التعريف المركز الذي يقدم مجموعة من الأركان الرئيسة لنظريته اللغوية التي أسس عليها البنائيون نظريتهم في النقد والتي أقام فوقها أصحاب التلقي والتفكيك، باختلافهم مع بعضها وتطويعهم للبعض الآخر، إستراتيجيات التعامل مع النص.

الركن الأول يقوم على القول إن اللغة نظام من العلامات يكتسب قوة العرف الاجتماعي عندما ينفق عليه المستخدمون له. وسوف يضيف سوسير بعد ذلك مباشرة أن هذا الاتفاق يتم بصورة اعتباطية أو عفوية arbitrary، معنى ذلك أن اللغة نشاط اجتماعي بالدرجة الأولى، وسوف يطور اللغويون بعد سوسير فكرتي النظام اللغوي والطبيعة الاجتماعية للغة إلى تشعيبات وتخريجات عدة، الركن الثاني، إن نظرية سوسير تقوم على أن العلامة اللغوية التي نتحدث عنها هي الصوت أو الأصوات، وسوف تمثل ثنائية الكلام parole، واللغة المكتوبة Langue العمود الفقري، ليس لنظرية سوسير اللغوية

النظرية اللغوية العربية

فقط، بل لكل النظريات اللغوية والنقدية التي شهدتها القرن العشرون دون استثناء، أما الركن الثالث فيتكون من عنصرين أساسيين: ١ - رفض النظرية التقليدية التي تقول بشفافية اللغة على أساس أن العلامة تتكون من دال يشير إلى شيء - مدلول - ويدل عليه ويمثله، أما في فكر سوسير اللغوي فإن الدال لم يعد يشير إلى شيء، بل إلى مفهوم الشيء أو فكرته في العقل. ٢ - القول إن تقسيم العلامة إلى دال ومدلول لا يعني أنهما في حالة انفصال، فهما عنصران لا يوجدان إلا بوصفهما مكونين للعلامة. وسوف يكون ذلك المحور هو الآخر، والجدل حول أسبقية اللغة أو الوجود، اللغة أو الفكر، اللفظ أو المعنى، موضوعا للدراسات المختلفة في الفلسفة والنقد الأدبي.

من هذه الأركان الثلاثة الأساسية يطور سوسير نفسه، ويطور تلاميذه ممن آمنوا بنظريته اللغوية، عددا من المفاهيم ويخلصون إلى عدد من النتائج تمثل أهم إنجازات نظريته الحديثة إلى اللغة. فالأركان الثلاثة التي حددناها قد لا تمثل جديدا بالنسبة لمقاييس الدراسات اللغوية إلا في جانب محدود منها. لكن ما يمضي سوسير في تطويره مؤسسا على تلك الأركان الأساسية هو الذي يكسب نظريته اللغوية مكانتها المحورية في تاريخ علم اللغة. فالقول إن اللغة نظام اجتماعي يكتسب قوة العرف الاجتماعي مثلا حدد الاتجاه الأساسي للدراسة في البنيوية اللغوية والبنيوية الأدبية فيما بعد باعتباره البحث في النظام وطريقة أداته، أي أن البحث في هذين المجالين، انطلاقا من اعتبار اللغة نظام علامات، يركز على كيفية حدوث الدلالة أو المعنى وليس على ماهية الدلالة أو المعنى، يركز على شبكة العلاقات الداخلية للنص اللغوي والتي تمكنه من الدلالة. ويرى جوناثان كلر أن هذا الجانب من نظرية سوسير اللغوية هو على وجه التحديد ما يعطي للمفكر السويسري أهمية جاليليو، إذ إن سوسير بنظريته اللغوية والتركيز على نظم العلامات وشبكة العلاقات التي تمكنها من الدلالة وضع اللينيات الأولى لعلم العلامات أو السيميوطيقيا. وقد تزامن ذلك الإنجاز اللغوي مع نقلة مماثلة في عدد من الحقول المعرفية الأخرى جعلت يبحث سوسير في العلاقات بين البنى اللغوية مدخلا للتفكير في طريقة الوصول إلى حقائق الأشياء «من خلال منظور يحدد ما بينها من علاقات. وفي هذا التوجه تتمثل الإستراتيجية العامة للتفكير الحدائي إجمالا حيث يتجه التفكير إلى دراسة العلاقات بين الأشياء وليس

إلى دراسة الأشياء ذاتها، على أساس أن حقائق الأشياء إنما تتحدد في ضوء هذه العلاقات وعلى أساس منها^(٥). لكن علي عزت، في الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، يضيف استخدام المتخصصين في الحقول المعرفية الأخرى، مثل علم النفس والأنثروبولوجيا والفلسفة، لنموذج التحليل اللغوي البنيوي في التعامل مع حقائق الخطاب في هذه الحقول، حيث «لا تقل أهمية اللغة عن أهميتها بالنسبة لعالم اللغة، بيد أن الفارق الوحيد هو أنهم يدرسون اللغة كوسيلة لغائية، في حين يقوم اللغوي بدراستها كغاية في حد ذاتها»^(٦). وفي مجال الحديث عن اللغة كنظام علامات وشبكة علاقات وما تبع ذلك من تحديد وظيفة التجليل باعتبارها تركيزاً على كيفية حدوث الدلالة، يقدم سوسير نوعين من العلاقات الداخلية التي تنظم هذه العلامات من تحقيق الدلالة، هما العلاقة السياقية Syntagmatic والعلاقة الاستبدالية Paradigmatic، وهي علاقات يشرحها شكري عياد في مبادئ علم الأسلوب العربي في إيجاز وتيسيط شديدين:

«رأينا فيما سبق أن سوسير لاحظ نوعين من العلاقات اللغوية: علاقات رأسية تصريفية Paradigmatiques وهي التي تقوم بين الكلمة المذكورة وكل ما يمت إليها بصلة لفظية أو معنوية من كلمات لم تذكر في النص، وعلاقات أفقية أو تركيبية Syntagmatiques وهي تلك التي تقوم بين الكلمة وسائر الكلمات في الجملة. وقد لقي هذا النوع الأخير عناية أكبر لدى اللغويين من بعده، وأشهرهم اللغوي الأمريكي نعوم تشومسكي صاحب نظرية النحو التوليدي التحويلي، التي أصبحت لها من التأثير والامتداد في الدراسات اللغوية المعاصرة، أكثر مما لأي نظرية أخرى»^(٧).

ويرتبط مفهوم العلاقات الأفقية والرأسية بمفهوم آخر جوهري هو ارتباط تحقق الدالة بالاختلاف، الذي يعتبر أساس «الثنائيات المتعارضة» أو «التعارضات الثنائية» binary oppositions عند البنيويين. والفكرة كما يوجزها كلر في دراسته عن سوسير تقوم على أساس قيمة اللفظ اللغوي، حينما يطلب من شخص ما التمييز بين القيم التي تدل عليها العلامات اللغوية، مثل قيمة لفظ «بني» أو «brown» في الإنجليزية، فإنه سوف ينتج في نهاية الأمر في تحديد قيمة ذلك اللون على أساس أن البني «هو ما ليس

النظرية النغمية العربية

احمر أو أسود أو رمادي أو أصقر... إلخ. والشئ نفسه يصح بالنسبة إلى كل مدلول من المدلولات الأخرى»^(٨). ويؤسس استنتاجه على مقولة لقريبناند دي سوسير نفسه وردت في كتابه دروس في علم اللغة العام يقول فيها:

«إننا إذن نستكشف في كل الأحوال لا الأفكار التي تطرح عسيقا، بل القيم الصادرة عن النظام. وعندما نقول إن هذه القيم تتطابق مع التصورات فإن هذا معناه أن هذه التصورات تطابقية صرف، لا تحدد بصورة إيجابية عن طريق محتواها، بل تحدد سلبيا عن طريق علاقاتها بهفردات أخرى في النظام. وأدق خاصية لها أنها تمثل ما لا يمثلها غيرها»^(٩) [التأكيد من عندي].

تحت مظلة الركن الأول أيضا يجيء مفهوم اعتباطية العلاقة بين شطري العلامة اللغوية. ومرة أخرى، فإن موضوع اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول لم يعد بحاجة إلى تفسير أو شرح بعد أن قتلها اللغويون والنقاد، في اللغات الأجنبية واللغة العربية، بحثا ودراسة، لكننا نتوقف عندها هنا في عجالة لأنها جزئية مهمة من مكونات الخلفية السوسيرية الثابتة التي سنضع أمامها مفردات النظرية اللغوية العربية فيما بعد. بإيجاز شديد، إننا حينما تصدر الصوت الذي هو لفظ «كلب» لبدل على فكرة «الكب» ذلك الحيوان الأليف، فإننا، كمرسلين ومستقبلين، نتفق اعتباطيا على إقامة علاقة بين الصوت والفكرة التي يشير إليها، وكان يمكن، في المرحلة المبكرة لإقامة تلك العلاقة، أن نؤسس علاقة أخرى بين الصوت نفسه ومدلول آخر غير ذلك الحيوان الأليف، أو علاقة أخرى بين ذلك الحيوان الأليف وصوت آخر ربما كان «بكل» أو «كيب» أو حتى «شجرة». لكننا، وهذا أهم ما يميز تلك العلاقة الاعتباطية، بمجرد أن نقيم ذلك الربط، يكتسب قوة العرف الاجتماعي الذي لا يملك متكلم بمفرده أو مستقبل بمفرده، أو الاثنان معا، تغييره دون أن تتفق الجماعة المستخدمة للغة على ذلك التغيير:

«وكل ما قصد إليه سوسير هو أن العلاقة بين المدلول والدال، كما هي الحال في مفهوم «الخبز» وكلمة الخبز الدالة عليه، كانت في الأصل اعتباطية، من حيث إن ذلك المفهوم لم يكن يستتبع بالضرورة تلك الكلمة، ومع ذلك فإن سوسير يوضح غاية الوضوح أنه على الرغم من أن كلمة «خبز» قد رُبطَ بينها في ظرف طبيعي موغل في القدم

وبين مفهوم «الخبز» فإن هذه الرابطة تعد اعتبارية منذ اللحظة التي تقبلها فيها المجتمع. وهكذا كانت الدوال في الظرف الطبيعي اعتبارية، لكنها صارت في المجتمع ثابتة»⁽¹¹⁾ [التأكيد من عندي].

أما الركن الثاني فقد ظل محورا حيا للجدل والاختلاف منذ فتح سوسير باب الجدل حول الكلام parole واللغة Langue. أو الكلام speech والكفاءة، وهما ما طورهما ناعوم تشومسكي فيما بعد إلى ثنائية الأداء والكتابة. وإن كان سوسير برغم دوره الريادي في دراسة هذه الثنائية، كان موزعا بين التقليد الراسخ لشفافية اللغة التي ترى أن الكلام أقرب إلى تمثيل الحقيقة من وهم الكتابة، ومن ثم القول بأولوية الكلام على اللغة وبين تفسيره الجديد الذي يرى أن اللغة هي منظومة القواعد الكامنة التي تجعل الكلام ممكنا وذا معنى. وبصرف النظر عن التشتت بين القديم والجديد فإن الأمر الثابت أن سوسير آمن بأسبقية نظام اللغة على ممارستها في الكلام. وهذا ما تؤكد قراءة عالم اللغة الكبير ريتشارد هارلاند، والناقد الحدائني جوناثان كلر والناقد العربي عز الدين إسماعيل لنظرية سوسير اللغوية. فهارلاند في كتابه *Superstructuralism: The Philosophy of Structuralism and* Post-structuralism يعرف اليهوية الفوقية مستعينا بمفهوم «اللغة» أو

«اللمان» Langue كما قدمه سوسير في بداية القرن على النحو التالي:

«لقد عد سوسير نفسه عالما وذهب إلى أن الحقيقة الواقعية للكلام parole - مثلا - ينبغي أن تكون لها الأسبقية على خاصية الكتابة المتضمنة بالمتالية، لكنه ذهب في الوقت نفسه إلى أن «اللسان» ينبغي أن يكون له الأولوية على الكلام، أي أن نظام اللغة بعامة ينبغي أن يكون له الأسبقية على مجمل المفوضلات النغمية التي تُنطق بها على الإطلاق. وهذه قضية بالغة الغرابة من منظور العلوم الطبيعية، حيث تكون الحقائق المادية الثابتة هي الشاهد الوحيد الصحيح. ولكن الحقائق المادية الثابتة على نحو ما أدركها سوسير كافية لشرح اللغة بوصفها لسانا، أي بوصفها دالة وحاملة للمعلومة»⁽¹²⁾.

أما جوناثان كلر ففي معرض حديثه عن علاقات الاختلاف التعاقبية فيعود إلى بعض النماذج التوضيحية التي قدمها سوسير وأبرزها قلع لعبة الشطرنج والقواعد التي تحكم حركتها، وهي قواعد لابد أن يكون اللاعب

النظرية اللغوية العربية

على دراية بها قبل أن يقوم بتحريك قطعة أو قطع الشطرنج على اللوحة، إذ إن هذه القواعد هي التي تعطي للقطعة وبالتالي للحركة قيمتها أو معناها. «فمن الواضح أن العناصر الأساسية في الشطرنج هي الملك والمملكة والرخ والفارس والأسقف والبيدق، ولا أهمية للشكل المادي الفعلي لهذه القطع، ولا للمادة التي صنعت منها: فقد يكون الملك في أي حجم وأي شكل، ما دامت هناك طرق لتمييزه عن سائر القطع»^(١٢). ثم يخلص كلر إلى تطبيق قانون الاختلاف نفسه على عناصر اللغة: «إذا نحن طبقنا المثل على اللغة فسوف تكون في وضع نفهم فيه دعوى سوسير المتعارضة، القائلة إنه في نظام اللغة، ليس هناك سوى اختلافات ولا وجود معها لأنقاط ثابتة الدلالة»^(١٣)، ورغم أن الحديث هنا، سواء عند «هارلاند» أو «كلر» أو «سوسير» عن قانون الاختلاف الذي يحكم العلاقة بين وحدات النص اللغوي (أو اللساني بصورة أدق، إذ إن «اللسان» language يقصد به لغة بعينها من بين لغات الشعوب)، ومن ثم يمكن إلحاق هذا الجزء كله بكامله بالركن الأول السابق، إلا أن ما يهمنا هنا هو تأكيد أسبقية القانون على الممارسة، باعتبار أن معرفة هذا القانون سواء كان قانون اختلافات أو تماثلات، هو الذي يعطي للكلام معناه ويحقق دلالاته، ولن يضيرنا أو يضير أحد بالطبع أن ينقل الكلام من هنا إلى الركن الأول السابق، أو الركن الثالث التالي، خاصة أن تقسيم نظرة سوسير إلى أركان اجتهد مارسناه لزيادة الإيضاح.

وإدراك نظام اللغة أو اللسان كشرط مسبق لتحقيق دلالة الكلام هو ما يؤكد عز الدين إسماعيل في مقدمته الوافية لكتاب كلر:

«والواقع أن التفريق بين اللسان والكلام يعد نتيجة منطقية لطبيعة العلاقة الاعتيادية وبشكله التامثل في علم اللغة. وبدهي أن اللسان غير اللغة Language لأن اللسان لغة بعينها من بين لغات العالم... والتفرقة هنا بين اللسان والكلام هي تفرقة بين الكلام واللسان الذي ينتمي إليه هذا الكلام. وهكذا فإن «اللسان هو نظام لغة ما، أي اللغة بوصفها نظاما من الصيغ: في حين أن الكلام هو الحديث الفعلي أي الأفعال الكلامية التي تسمح بها اللغة، واللسان هو ما يتمتعه الأفراد عندما يتعلمون لغة ما، أي أنه جملة من الصيغ، أو - كما يقول سوسير - ذخيرة وسبقتها الممارسة الكلامية لدى

متكلمين ينتمون إلى الجماعة نفسها، ونظام نحوي قائم في عقل كل متكلم لتلبية كل المقاصد والأغراض... وفي وسعنا أن نضيف هنا أن اللغة «هي الشرط اللازم لكي يكون الكلام مفهوماً، أي أنها نوع من النظام المنطقي الواقع خلفه (أي خلف هذا الكلام)، والذي يمنح الكلام المعارض والمثير أطراداً جوهرياً»^(١٤) [التأكيد من عندي].

لقد توقفتنا عند كلمات عز الدين إسماعيل في بعض الإطالة لسبب واضح. إذ إن كلا من «سوسير» و«لازين» اللذين يعيل إليهما المترجم في مقدمته الواظية التي تقدم في حد ذاتها دراسة لا تقل أهمية عن دراسة كللر لفكر اللغوي السويسري، يؤكدان فكرة وجود «نظام نحوي في عقل كل متكلم»، وأن اللغة، باعتبارها نظاماً من العلامات والعلاقات، «هي الشرط اللازم لكي يكون الكلام مفهوماً». وإذا قبلنا شرط وجود نظام مسبق في عقل كل متكلم لتحقيق الدلالة - ولست هنا في مجال تأكيد أو نفي صحة هذه النظرية اللغوية - لا يكون من الصعب علينا أن نتقبل النقطة التالية التي حققها تشومسكي في قوله بوجود النحو العالمي الفطري تأميساً على مقولة سوسير السابقة، ومقولات أخرى. النحو العالمي يتبسيط شديد يرى أن إدراك العلاقات اللغوية بين وحدات النص اللغوي عملية فطرية يولد بها الإنسان بصرف النظر عن جنسه أو وطنه، وهو مبدأ يفسره شكري عياد في إيضاح أكثر تحديداً:

«فهو يرى أن إدراك العلاقات اللغوية قائم في الإنسان بالفطرة، مهما يكن جنسه أو وطنه، ولكنه يكتب من بيئته شكلاً معيناً من أشكال هذه العلاقات وهو لغته الأم. وليس ثمة ما يمنع من أن نتصور هذه القدرة وقد بلغت مستوى مثالياً بحيث لا تعجزها، قولا أو فهما، جملة ما يمكن أن يقال في هذه اللغة. فهي تقبل كل ما هو صحيح وتهمه، وترد كل ما هو خطأ وتشكره. وهي ترجع في قبولها أو رفضها إلى عدد محدود من النماذج الأساسية، ثم مجموعة من القواعد التحويلية المتدرجة، بحيث يمكنها تشكيل عدد محدود من الجمل التي لم تسمعها أو تقرأها من قبل»^(١٥).

أما الركن الثالث والأخير فهو أهمها جميعاً فيما يتعلق بالدراسة الحالية. ليس معنى ذلك بأي حال من الأحوال أن الركنين السابقين عديما

النظرية اللغوية العربية

الأهمية، وسوف ندرس فيما بعد كيف أن الحديث عن اعتبارية العلاقة بين شرملي العلامة اللغوية وتعريف اللغة كنظام للعلامات لم يكن أبدا غريبا على النظرية اللغوية العربية، بل إن هذه القضايا في الواقع تقع في قلب تلك النظرية التي نحن بصدد تحديد معالمها، لكن موضوع ثنائية اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما كدال ومدلول، ثم العلاقة بين اللغة والفكر عامة، وهو موضوع الركن الثالث في نظرية سوسير اللغوية، سوف يؤكد فرضيتنا الأساسية، وهي إنتاج العقل العربي لنظرية لغوية لو أننا قمنا، في بداية عصر النهضة في القرن العشرين، أو في أي مرحلة لاحقة من ذلك القرن، بتطويرها لكان لدينا اليوم نظرية لغوية أغنتنا عن الاستعارة والنقل عن الحدائق وما بعد الحدائق القريبيتين من ناحية، وكونت حائط أمان يحمينا من التبعية الثقافية التي تهدد بمحو هويتنا مدحوا تاما، من ناحية ثانية.

إن أبرز مقولات سوسير في حديثه عن العلامة اللغوية هو القول بوحدة شطريها، وهي الوحدة التي ترتبت عليها عدة تفرعات أهمها، كما سبق أن أشرنا منذ قليل، أسبقية الفكر على اللغة، أو، على الأقل أن الفكر لا وجود له إلا في اللغة. قال بذلك سوسير بمعنى أو بآخر، وقال به أيضا، وبدرجات متفاوتة من المبالغة، كل من أسسوا على نظريته اللغوية حتى نهاية القرن العشرين. لكن حتى المبالغات التي قد يرى البعض أنها غير مقبولة جاءت جميعها من الموقف المبدئي لعالم اللغة السويسري عن العلاقة بين اللغة والعالم الذي تمثله، بين الدال والمدلول، بين اللفظ والمعنى. إن اللغة، في التحليل الأخير، وفي ضوء نظرية سوسير، هي التي تقوم بتنظيم العالم الخارجي لأنها، كما يقول جوناثان كلر، ليست مجرد فعل لتسمية الأشياء الموجودة خارجها:

«يصر سوسير على أن اللغة ليست عملية تسمية توفر أسماء من عندها لصفات موجودة خارج اللغة. إن هذه نقطة لها تشعيبات محورية في النظرية الحديثة، فنحن نميل إلى اقتراض أننا نستخدم لفظي «كلب» و«كرسي» لتسمية الكلاب والكراسي الموجودة خارج أي لغة، لكن سوسير يرى أنه إذا كانت الكلمات تمثل مفهومات سابقة الوجود، فسوف يعني ذلك أن تكون لها معانٍ مقابلة تماما من لغة

إلى أخرى. وهذا ما لا يحدث على الإطلاق، إن كل لغة نظام من المفاهيم والأشكال في الوقت نفسه: نظام علامات تقليدية يقوم بتنظيم العالم»^(١٦).

إن أهم ما يقوله كلر في السياق السابق أن الأصوات والألفاظ والكلمات هي التي تحقق وجود الأشياء وتحدد قيمتها، ولو كان العكس صحيحاً، أي لو كانت الأشياء موجودة سابقة الوجود خارج اللغة لكان معنى ذلك أن تتشابه الأصوات والألفاظ والكلمات المستخدمة في اللغات المختلفة للدلالة على الأشياء نفسها، لكن الأنبياء توجد، أو ندرك وجودها، حيثما يقوم العرف الاجتماعي بتثبيت العلاقة الاعتبارية بين العلامة اللغوية والشيء الذي يشير إليه، ومن هنا اختلاف صوت «dog» في الإنجليزية عن «chien» في الفرنسية و«كلب» في العربية. بل إن سوسير في الواقع يذهب، لا إلى إنكار الوجود السابق للأشياء قبل إدراك ذلك الوجود في اللغة فقط، بل إنكار وجود الفكر ذاته خارج اللغة، وهو بذلك ربما يكون قد سبق الفلاسفة التأويليين الألمان أو تزامن مع تأويليتهم على الأقل. فحينما يقرر أنه «ليس للأفكار وجود سابق، كما أنه ليس هناك شيء واضح قبل ظهور اللغة»^(١٧) يكون بذلك قد أكمل الانقلاب ضد التفسيرات التقليدية بشفافية اللغة التي سادت الفكر الأوروبي حتى بداية العصر الحديث للفلسفة في القرن السابع عشر. ويعلق عز الدين إسماعيل في «مقدمة المترجم» لكتاب جوناثان كلر مؤكداً مبدأ التوحد بين شطري العلامة الذي بدأنا به، فهو يرى أن إنكار الوجود المسبق للأفكار، قبل التعبير عنها باللغة،

«ينفي أسبقية الفكر على اللغة من جهة، ويدخل أي صوت في منطقة الوضوح قبل اقتراجه بالفكر في اللغة من جهة أخرى، فالصوت - من منظور سوسير - لا يقل إيهاماً عن التفكير في هذه الحالة، والدور المميز للغة فيما يتعلق بالتفكير ليس خلق وسائل صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، ولكنه القيام بالربط بين الفكر والصوت، وفي هذه الحالة لا تمنح الأفكار شكلاً مادياً، كما أن الأصوات لا تتحول إلى كينونات عقلية... ويشبه سوسير هذه العملية بعالة هبوب الريح على سطح ساكن من الماء، فإذا ما اختلف الضغط الجوي تكسر سطح الماء وانقسم في شكل موجات: فهذه

النظرية اللغوية العربية

الفكرة تشبه اتحاد الفكرة بالمادة الصوتية. وعلى هذا النحو تثبت الفكرة في الصوت، ويصبح الصوت علامة على الفكرة، وهما بهذا يتراعيان وازتياملهما ينتج صيغة لا مادة» (١٨).

النقطة الأخيرة التي لا نملك إلا أن نتوقف عندها، ولو في عجلة، هي قضية العلاقة بين اللفظ والمعنى، الدال والمدلول، لأنها هي الأخرى، ستكون مكوناً أساسياً من مكونات النظرية اللغوية العربية. وبصرف النظر عما قدمه الأسلوبيون وعلماء اللغة من تنويعات على نظرية فرديناند دي سوسير التي فتحت الطريق أمام الدراسات اللغوية الحديثة، بل حتى عما فعله التأويليون في مجال الفلسفة والتفكيكيون في مجال النقد من ربط تعبد الدلالة ولا نهائيتها بمقدار مسافة التباعد بين الدال والمدلول، فإن نقطة الارتكاز المبدئية، والتي ستحاول الاحتفاظ بها كجزء من الخلفية الثابتة التي ندرس أمامها مقومات النظرية اللغوية العربية، هي التوحد الكامل بين اللفظ والمعنى أو الدال والمدلول. وهنا نذكر بأن البعض منا قد يقبل المقولة السوسيرية في صورتها الأولى، وفي صورتها المطورة المبالغ فيها، إن اللغة سابقة للوجود، يرفضها البعض يرمتها، وقد يحاول البعض الآخر تحقيق منطلقة وسط يلتقي عندها الطرفان. لكن الموقف الذي يصعب الاختلاف حوله هو التوحد الكامل للفظ والمعنى. وهو توحيد يصعب الفصل على أساسه بين طرفي العلامة اللغوية. وقد تأكدت هذه العلاقة التي لا انفصام لها في اللغويات الحديثة منذ بداية القرن العشرين بعد أن انتهى علم اللغويات إلى ميدئين أصبحا اليوم من قبيل المسلمات. المبدأ الأول، رفض شفافية اللغة، ذلك المفهوم التقليدي القائم على أساس وجود أشياء خارج اللغة تعبر عنها أصوات أو ألفاظ، كأن اللغة مجرد وعاء شفاف يظهر الأشياء أو المواد التي بداخله. شفافية اللغة بهذا المعنى تعني وجود الشيء ومثله اللغوي منفصلين. أما اليوم، وبعد ما يقرب من أربعة قرون من تطور الفكر الفلسفي واللغوي الأوروبي، فلم تعد اللغة تمثل الأشياء ذاتها بل مفاهيم الأشياء، من ناحية، فصارت لفظاً «شجرة» لا يشير إلى شجرة مادية أو شجرة بعينها، بل إلى «مفهوم» الشجرة. ومن ناحية ثانية، لقد طورت الدراسات اللغوية الحديثة، ابتداءً من نظرية سوسير، مقولة مغايرة تماماً لمفهوم التقليدي السابق عن تمثيل

اللغة للأشياء مؤداها أن الوجود لا يدرك إلا في اللغة، ومن ثم فهو ليس سابقا لوجود اللغة. المنبدا الثاني هو القائل باعتباطية العلاقة بين اللفظ والمعنى، أو بين الدال والمدلول، وهي علاقة يقيّمها العرف الاجتماعي أولا، ثم يثبتها ثانيا، ومن ثم لا يصبح بإمكان مرسل واحد للعلامة اللغوية أو مستقبل واحد لها أن يتفقا على فصم العلاقة أو تغييرها بعيدا عن أعراف الجماعة. ويؤكد شكري عياد علاقة الاتحاد أو التطابق بين اللفظ والمعنى، وإن كان يرى أن علاقة التطابق تلك لم تكن واضحة وضوحا كافيا في البلاغة العربية القديمة. «وكثيرا ما عومل اللفظ والمعنى»، كما يقول عياد، «على أنهما طرفان متناقضان أو متضادان. ومن أقات العقل البشري أنه إذا وجد اسمين يتعان على شيء واحد من جهتين مختلفتين ظن أنهما شيئين مختلفين. ولعل التطابق بين اللفظ والمعنى لم يتضح وضوحا كافيا في البلاغة العربية والنقد العربي القديم وهو من الأمور التي عني ببحثها علماء الدلالة. ومع أن الكثير من مسائل هذا العلم لا يزال غامضا، فإن قضية اللفظ والمعنى لم تعد محل القياس»^(١٦) وما يقصده عياد بقوله إن قضية اللفظ والمعنى «لم تعد محل قياس» هو أنها أصبحت قضية محسوسة، ولم يعد التطابق بينهما موضوعا للخلاف، ومن ثم يرجع إلى رأي أحد علماء الدلالة وهو ج. ر. بالمر، الذي يرى:

«إن مشكلة علم الدلالة لم تعد البحث عن شيء زواغ يسمى «المعنى» بل هي بالأحرى محاولة فهم الكيفية التي بها يمكن للكلمات والجمل أن تعني شيئا، أو قل كيف يمكن أن تكون «ذات معنى». والكلام عن أن (لها) معنى أشبه بالكلام عن أن الشيء (له) طول. فكون الشيء (له) طول يراد به أن طوله كذا قديما أو كذا بوصف، ولا يراد به أكثر من ذلك، وكذلك الأمر في المعنى فليس المعنى شيئا (للكلمات) بالمعنى الحرفي للكلمة»^(١٧)

والطريف أن شكري عياد، بعد أن أشار إلى أن التطابق بين اللفظ والمعنى لم يتضح وضوحا كافيا في البلاغة العربية والنقد العربي القديم، يحيلنا إلى رأي سوسير حول الوحدة بين الدال والمدلول، وهي الوحدة التي شبهها سوسير بتشبيهه لم يكن جديدا تماما في بداية القرن العشرين، فقد سبقه آخرون إلى القول إن تلك الوحدة «كثيرا ما شُبّهت بإنسان مكون من جسد

النظرية اللغوية العربية

وروح»، وبرغم أن سوسيرا لم يرفض ذلك التشبيه، كما يقول شكري عياد إلا أنه فضل عليه تشبيه تلك الوحدة

«بمركب كيميائي كالماء المكون من أيديروجين أو أكسوجين، فلو أخذ كل عنصر على حدة لما كانت لأيهما خصائص الماء، ويمود فيشبهه اللثة بقطعة من الورق وجهها الفكر وظهرها الصوت، فكما لا يمكنك أن تقطع وجه الورقة دون أن تقمع ظهرها في الوقت نفسه، فكذلك لا يمكنك أن تفصل الصورة عن الفكرة ولا الفكرة عن الصوت»^(٢١).

ووجه المرافقة أن شكري عياد حينما يحيلنا إلى تشبيه الوحدة بين اللفظ والمعنى بالوحدة بين الجسد والروح، غاب عنه أن ذلك التشبيه على وجه الخصوص ورد في البلاغة العربية القديمة وبالمشردات نفسها في مقولة ابن طباطبا العلوي: «والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه، كما قال بعض الحكماء: للكلام جسد وروح، فجسده النطق وروحه معناه». وبهذا يكون البلاغيون العرب قد سبقوا سوسيرا ومعاصريه إليه بوضع مئات من الستين.

أركان النظرية اللغوية العربية

في محاولتنا لتجميع مكونات نظرية لغوية عربية سوف نحتفظ بالتقسيم المبسوط نفسه الذي لجأنا إليه لتحديد مكونات النظرية الأوروبية الحديثة. وسوف نتحرك أيضا بالحرية نفسها التي تحركنا بها بين الأركان الثلاثة التي تشغل مناطق التداخل فيما بينها مساحة أكبر من مساحة التباعد، بل إننا هنا ستمارس حرية حركة أكبر بكثير مما مارسناه في الحديث عن النظرية اللغوية الأوروبية، إذ إن نظرية اللغة العربية هي محور تركيزنا، مما يعني الدخول في تفصيلات لا نهائية تفرض عمليات تداخل لا نهائية مقابلة، وفي هذا نفرض طبيعة الدراسة منهجا خاصا بها، فلن ندرس أعلام البلاغة العربية كلا على حدة، كما أننا لن نلتزم بالسياق التاريخي الذي ينظمه تتابع القرون التي شهدت العصر الذهبي للبلاغة والنقد العربيين، بحيث تبدأ بالاحاط، وننتقله بحثا قبل أن تنتقل إلى عيد القاهرة الجرجاني وهكذا. وحينما يحدث التسلسل التاريخي فسوف يكون ذلك أمرا تفرضه الموضوعات قيد المناقشة ولن تكون من باب الالتزام بالسياق التاريخي، هي معرض حديثنا عن

مفهوم اللغة كنظام للعلامات مثلاً قد تبدأ من نقطة معينة في السياق التاريخي ثم تتحرك بحرية إلى الأمام والوراء استجابة لمنطق استكمال جوانب الموضوع، ولسنا بحاجة إلى التذكير بأن الاتجاه إلى قراءة التراث النقدي والبلاغي العربي ثم إعادة قراءته الذي تزامن مع الاتجاه نحو الحداثة الغربية، سواء من باب الحنين الصادق إلى الماضي، أو من باب الرغبة في تأسيس شرعية الحاضر الحداثي، أو من باب إضفاء بعض المصداقية على الشعر الأجوف للأصالة والمعاصرة، هذا الاتجاه قدم للمكتبة العربية لحسن الحظ دراسات متميزة في أغلب الأحيان لأعلام التراث البلاغي والنقدي العربي، كل على حدة، وفي أحيان في مجموعات متقاربة أو متعاطلة، ولكنه لم يقدم نظرية متكاملة تقوم على قراءة أشمل واستقراء أكثر اتساعاً، وهذا ما سنعالجه هنا. ومن هنا، مرة أخرى جاءت حرية الحركة والاختلاف في المنهج. وفي الوقت نفسه، وبرغم كل طموحاته التي قد يراها البعض أقرب إلى الطموح المنفائل منها إلى الواقعية، فإنني اخترت ألفاظي بعناية شديدة، فقد حددت هدفي الطموح باعتباره «محاولة لتجميع مكونات نظرية لغوية عربية»، قد يرى البعض، أن تلك المكونات لا تكفي في مجموعها لتقديم نظرية لغوية، وقد يرى البعض أيضاً أن بعض تلك المكونات تقتصر إلى تركيبية وعمق النظرية اللغوية المعاصرة. لكنني أسجل مبدئياً أننا نتحدث عن بعض المباحث العلمية التي لا يعوزها التفصيل والتدقيق قبل أن نعرف أوزوباً مناهج البحث العلمي بوضعة قرون على الأقل. ولسنا هنا بحاجة إلى التذكير بأن القرن الرابع الهجري، على سبيل المثال، كان القرن العاشر الميلادي يقابله؛ ثم إن من المثلم البين إصدار حكم قيمي بالتخلف أو الدونية على أي مكونات للنظرية اللغوية العربية في ضوء المخزون الثقافي والمعرفي للقرن العشرين، وهو مخزون يمثل مرحلة نهائية لطريق طويل من الاستمرارية والتطور في مقابل قطيعة فرضت على التراث العربي القديم منذ القرن السابع الهجري على الأقل، أي لأكثر من ستة قرون. وحينما أعاد البعض منا اكتشاف ذلك التراث في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي فعلوا ذلك لتأسيس شرعية الفكر الغربي وليس الفكر العربي. هل يشتتم القارئ هنا نعمة اعتذار عن التراث البلاغي والنقدي العربي؟ إن الاعتذار أبعد الأمور عن ذهن مؤلف المرايا المقعرة، فالتراث العربي ليس بحاجة إلى من يعتذر عنه بأي حال من

النظرية اللغوية العربية

الأحوال. وسوف أحاول أن أثبت أن العقل العربي قد نجح في تقديم مكونات عصرية.. ولا أقول حداثة حتى لا يقال إننا مصابون بمقدرة الحدأة - تتف على قدم المساواة في بعد النظرة والتركيب والعمق مع منتجات العقل الغربي الحديث. قد يرى البعض أن مفهوم الوظيفة التمثيلية للغة التي يبدو أن البلاغة العربية تقوم عليها في الكثير من قضاياها مفهوم تخطته اللغويات الحديثة منذ فترة طويلة. وهذا صحيح إلى حد ما: أقول إلى حد ما فقط؛ لأن القراءة المتأنية، وهو ما سوف نحاول تحقيقه، للبلاغة العربية، تكشف لنا عن بدايات في النظرة إلى اللغة لا تعتبر غربية علينا اليوم في بداية القرن الحادي والعشرين الميلادي. إن هذا الكم الهائل من الدراسات العربية القديمة التي تناولت طبيعة المجاز اللغوي بأنواعه المختلفة وما تبع ذلك من تأكيد تعدد الدلالة وأهمية معنى المعنى، تعتبر تحذيرا مبكرا لنا من الوقوع في فخ الحكم المبكر على اللغويات العربية بالتصور والتخلف. ثم: من قال إن الدراسات اللغوية الأوروبية الحديثة والمعاصرة تقدم أمورا يمكن أن نتفق جميعا عليها؟ والتساؤل نفسه معكوسا يمكن أن يثار حول النظرية اللغوية العربية: من قال إن النظرية العربية تقدم أمورا لا يمكن أن تختلف جميعا حولها؟ بل يمكن أن نتفق جميعا حولها؟

ليس هناك في التراث النقدي العربي ما يمكن أن نعتز به، وليس ذلك من قبيل «التمويض النفسي» الذي يتحدث به واحد من أبرز من مارسوا العودة إلى التراث. وهو رأي، برغم جديته، لا يخلو من الغرابة لأنه يجيء من ناقد كبير يكتب بعد ذلك بعامين أو ثلاثة في حماس مبالغ فيه عن البنيوية باعتبارها طريق الهداية ومبعوث العناية اللغوية للنقد الأدبي، فيعد أن يسجل في قراءة التراث النقدي سبق عبد القاهر الجرجاني لبعض الأفكار الحدائية الغربية، ينتقل ليشتن هجوما عنيفا، مستحقا، على من يتجهون إلى دراسة التراث العربي من باب التقليد الذي لا تتوافر له الدراسة الجادة:

«وليس ذلك كله من قبيل تصاعد التقليد، أو مراوغته بحسب،

في غيبة فحص دقيق ودرس مقارن لمقولات التشابه والتضاد بين

دي سوسير (ومن بعده النقد الفرنسي البنيوي) وعبد القاهر،

وإنما هو - فخللا عن ذلك - وضع مؤس يذكر المرء بأولئك الذين لم

يقدروا روايتها مثل نجيب محفوظ إلا بعد أن قدر على أيدي الفرنسية

في الغرب... وهو وضع يكشف - في النهاية - عن عرض من أعراض «تمويض» نفسي، تتحول معه علاقة الناقد العربي المعاصر بترائه النقدي إلى علاقة تضاد عاطفي، وهو انعكاس لعلاقته بالنقد الأوروبي الذي لا يملك هذا الناقد سوى أن يتبعه، ولا يستطيع - ما لم يطور أدوات إنتاج معرفته النقدية والتراثية - سوى أن يحلم - عاجزا - بالاستقلال عنه»^(١٢).

إن عصفور يتحدث عن الناقد الذي لا يملك إلا أن يتبع النقد الأوروبي، وقد ناقشنا علاقة التبعية التي مهد لها الحداثيون العرب ثم رسخوها في نهاية الأمر في الجزء الأول من الدراسة الحالية، فإذا أضفنا حماسه الواضح للبنىوية الغربية الذي عبر عنه بعد كتابة السطور السابقة في كتاب النظرية المعاصرة، يتضح التناقض الذي وقع فيه، لأنه بذلك يدين نفسه بصفته واحدا من أبرز الحداثيين العرب.

ما يهمنا هو نفي هذه التهمة المسبقة التي لابد سيوجهها البعض إلى مؤلف المرآيا المقعرة الذي ينطلق، لا من مجازة لـ «هوجة» إعادة قراءة التراث البلاغي والنقدي العربي، أو التقليد، بل من غيرة حقيقية على الثقافة العربية والعقل العربي ورغبة مزدوجة في التحذير من مخاطر التبعية الثقافية، من ناحية، والدعوة إلى الاتجاه للتراث العربي القديم لتأكيد شرعيته هو وليس شرعية الحاضر، وإبراز وتطوير أفضل ما فيه لتحديد رؤية أو شرعية للمستقبل من ناحية ثانية، وليس معنى ذلك، بأي حال من الأحوال، ألا نستفيد من المخزون الثقافي العالمي كله وجميع ما أفرزه العقل الغربي من مناهج وآليات بحث، والطريف هنا أيضا أن مؤلف المرآيا المقعرة تلقى تعليما غريبا وهو في حماسه للتراث النقدي العربي لا يقل عن كثيرين من النقاد العرب. وسوف أكتفي هنا بتموذجين لذلك الحماس لعبد القاهر الجرجاني وإنجازه اللغوي النقدي، على سبيل المثال لا الحصر. النموذج الأول لمحمد عابد الجابري الذي يكتب، في ذروة المد البنيوي في مجلة فصول (١٩٨٥) مدافعا عن عبد القاهر ضد اتهامات طه حسين له الذي خلص إلى أن البلاغي العربي الكبير كان «فيلسوبا يجيد شرح أرسطو والتعليق عليه»:

«كلا، إن نظرية «النظم» كما قررها عبد القاهر الجرجاني قد فكر فيها داخل الحقل المعرفي البياني، مؤلفنا معطيات هذا الحقل،

النظرية اللغوية العربية

مستجيبا لاهتماماته، معبرا عن مرحلة من مراحل نموه؛ نمو الوعي بالذات، أما المنطق اليوناني فلم يكن له أثر في هذه النظرية، بل لقد جاءت هذه النظرية تتويجا لتيار فكري نشأ وتطور وأخذ يتبلور ويتميز من خلال طرح نفسه بما هو، أنا، عربي إسلامي يياني، بديل عن، الآخر، اليوناني، الدخيل،^(٢٠) [اتفاكيد من غندي].

وفي قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث (١٩٩٤) يتحدث محمد زكي عشمائي عن إنجازات عبدالقاهر الجرجاني وأبرزها مفهومه عن اللغة كنظام علامات تحكم وحداته شبكة علاقات تمكنها من تحقيق الدلالة، فعبداقاهر، كما يرى العشمائي، «منعته ثروته اللغوية، وإلمامه الواسع باللغة لإلمام إحساس وذوق القدرة على الوعي بما تحمله من ظلال مختلفة من المعنى بالقياس إلى السياق الذي وردت فيه، فمضمون الكلمة عنده يقل أو يكثر، ينسبط أو ينكمش بحسب علاقتها بالموجب المتحرك الذي تسير فيه الكلمة مع ما تقدمها وما تلاها من الفاصلة»^(٢١)، ويذهب العشمائي إلى القول إن وجهة نظر عبدالقاهر حول أهمية اللغة تلتقي مع وجهة نظر ناقد حديث مثل إليوت.

بقي سؤال لا بد منه: لماذا نبدأ بالحديث عن النظرية اللغوية؟ السبب واضح وبسيط. فمما أن بدأ الاهتمام المتزايد بالدراسات اللغوية في السنوات المبكرة من القرن العشرين، ثم نجاح النموذج البنوي اللغوي في اكتساب قيمة العلمية في مواجهة انطباعية النقد الأدبي، اتجه العقل الغربي إلى محاولة تحقيق «علمية» النقد، ذلك الحلم الذي راوغ الجميع لقرون، وذلك عن طريق تطوير نموذج نقدي يقوم على النموذج اللغوي. وهكذا جاءت البنوية النقدية امتدادا للبنوية اللغوية وتطورا خاصا لها. ومن ثم أصبحت الدراسة اللغوية هي المدخل الأساسي لدراسة النص الأدبي الإبداعي، حتى حينما تمررت مدارس ما بعد البنوية على «سجن اللغة» البنوي، بقيت اللغة المدخل الأساسي لدراسة النص الأدبي، ثم إن التداخل بين الدراسة اللغوية والدراسة النقدية أصبح حقيقة من حقائق القرن العشرين الراسخة، بحيث وصلنا إلى مرحلة يصعب معها تحديد ما هو لغوي خالص أو ما هو نقدي خالص، ولهذا انتهى ذلك التداخل إلى تطوير الدراسات الأسلوبية والسميوطيقية أو السيميائية التي تعتبر جسرا يمتد فوق مناطق التداخل بين المجالين الحيويين. وهل هناك حركة نقدية قامت على التحليل اللغوي للنص أكثر من النقد العربي القديم؟ لقد كان المدخل اللغوي هو

المدخل الأساسي ليس لدراسة النص الأدبي أو القصيدة فقط، بل لدراسة أصول الفقه الإسلامي نفسه، وهذه حقيقة يفرد لها محمد عابد الجابري مساحة وافية من «اللفظ والمعنى في البيان العربي»، إذ إن الفقهاء المسلمين انشغلوا منذ البداية بوحدة من أهم قضايا اللغة، وهي قضية اللفظ والمعنى وضرورة ضبط العلاقة التي تحكمهما:

«إذا تصفحنا أي كتاب من الكتب المؤلفة في أصول الفكر... فإننا سنجد «أبواب الخطاب»، أو «المبادئ اللغوية»، على حسب تعبير الفقهاء، أو «القواعد اللغوية» على حسب تعبير بعض المعاصرين، تشغل عادة ما لا يقل عن ثلث حجم الكتاب وهذا شيء يجد تبريره في تصورهم لموضوع علمهم ذاته. ذلك لأنه إذا كان علم أصول الفقه يدرس، أساساً، «وجود دلالة الأدلة على الأحكام الشرعية» - والأدلة هنا هي أساساً النصوص: القرآن والسنة - فإن الشاغل الرئيس لأصحاب هذا العلم سيكون، بالضرورة، هو ضبط العلاقة بين اللفظ والمعنى في الخطاب الذي يتعاملون معه: الخطاب الشرعي، وبما أن هذا الخطاب قد ورد بلسان عربي، فإن عملية «الضبط» هذه ستمتد إلى هذا اللسان بما هو كل»^(٢٥).

إنّ لقد كانت اللغة العربية، من البداية، وخاصة بعد انتشار الإسلام في الجزيرة العربية ثم في مناطق شاسعة من الإمبراطوريتين الفارسية الرومانية، محور الاهتمام والدراسة، وانتقل الاهتمام، بالطبع، من مجرد الاهتمام بها في مجالات نشر الدعوة والدراسات النحوية، إلى مجال الشعر، ديوان العرب، وتكاثرت كل الجهود في تحديد النظام اللغوي الذي يحكم نظام العلامات اللغوية، واحتلت ثنائية اللفظ والمعنى مكان الصدارة في الدراسة والجدل المستمر. وهكذا ننتقل إلى دراسة الأركان التي نرى أنها أسست لما يمكن أن نسميه نظرية لغوية عربية.

أولاً: اللغة العربية كنظام

يورد محمد عابد الجابري، في بحثه القيم الذي أشرنا إليه من قبل في أكثر من موقع، قصة طفلة صغيرة ارتكبت خطأً نحويًا فاحشًا في حديثها مع والدها، وأن ذلك الخطأ، كما يزعم النحاة، كان الخطوة الأولى في نحو اللغة العربية: «إذ

يحكي أن ابنة أبي الأسود الدؤلي المتوفى سنة ١٦٠ هـ قالت له ذات يوم: يا أبا أشد الحر، فقال لها الرمضاء في الهاجرة يا بنية... فقالت له: لم أسألك عن هذا، وإنما تعجبت من شدة الحر. فقال لها قولي إذن: ما أشد الحر. ثم قال إنا لله فسدت السنة أوغدنا، وهم أن يضع كتابا يجمع فيه أصول العربية...»^(٢١). ويمضي الجابري معلقا: «وهكذا فعبارة ما أشد الحر يمكن أن ينطق بها على صورة معينة فتفيد الاستفهام، ويمكن أن ينطق بها على صورة أخرى فتفيد التعجب، والاختلاف بين الحالتين يرجع، لا إلى عدد الحروف ولا إلى طريقة نظمها ولا إلى تركيب العبارة، بل يرجع فقط إلى الحركات، أي علامات الإعراب». وظهفة النحو إذن ليست مجرد ضابط للوحدات داخل النص اللغوي، كما يتصور البعض، بل تحديد المعنى وتخصيصه، وقد قلنا «تحديد المعنى» هنا ولم نقل «تحقيق المعنى»، إذ إن كلمات الطفلة الصغيرة حققت معنى في الحالتين، لكن النحو هو الذي حدد المعنى الذي أرادت الفتاة توصيله.

لكن النحو يمثل أحد جوانب النظام اللغوي العربي فقط، وليس هو النظام كله، وما دما نتحدث عن نظام اللغة العربية فلا أرى حاجة إلى استخدام المصطلح الغربي المستعار في وجود المصطلح العربي القديم الذي كاد بعضنا يتساهل للأسف الشديد ورغم أن جذوره تضرب في أعماق تراثنا البلاغي والتقدي، منذ القرن الخامس الهجري على الأقل، ونعني به مصطلح «النظم» الذي يقدم نظرية أو مكونا في نظرية لغوية عربية لا تقل سماتها وضوحا عن سمات أي نظرية لغوية حديثة، غير عربية. وقبل الدخول في دراسة مطولة حول نظرية «النظم» العربية، والتي تحتل مكانا بارزا في كل من الدراسات اللغوية والأدبية/النقدية، كما ستؤكد الفصول الباقية من الدراسة الحالية، أرجو من القارئ المثقف أن يغفر لنا خروجنا سريعا عن الموضوع لتقديم للقارئ العادي تحذيرا لا بد منه. إن النظم الذي نقصده ليس هو «نظم الشعر»، فقد ارتبطت كلمة نظم بزمان طويل بقرض الشعر حتى نسبتا نظرية النظم، وحينما تحول الحداديون العرب إلى استعارة المصطلح الغربي «نسق» أو «نظام» system أكملوا القطيعة مع المصطلح العربي الرائع في معناه الأوسع من مجرد نظم الشعر: «ويزمنا كان أهم مجال آتت فيه جهودهم هو نظرية النظم versification، إذ قالوا إنه ليس مجرد مجموعة من القوالب moukds، أو القواعد الخارجية external rules، ولا حتى زخرفة

النظرية اللغوية العربية

يحكي أن ابنة أبي الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ قالت له ذات يوم: يا به ما أشد الحر، فقال لها الرمضاء في الهاجرة يا بنية... فقالت له: ثم أسألك عن هذا، وإنما تعجبت من شدة الحر. فقال لها قولي إذن: ما أشد الحر. ثم قال إنا لله فسدت أسنة أوغدننا، وهم أن يضع كتابا يجمع فيه أصول العربية...^(٢٨) ويمضي الجابري معلقا: «وهكذا فعبارة ما أشد الحر يمكن أن ينطق بها على صورة معينة فتفيد الاستفهام، ويمكن أن ينطق بها على صورة أخرى فتفيد التعجب، والاختلاف بين الحالتين يرجع، لا إلى عدد الحروف ولا إلى طريقة نظمها ولا إلى تركيب العبارة، بل يرجع فقط إلى الحركات، أي علامات الإعراب»، وظيفته النحو إذن ليست مجرد ضبط الوحدات داخل النص اللغوي، كما يتصور البعض، بل تحديد المعنى وتخصيصه. وقد قلنا «تحديد المعنى» هنا ولم نقل «تحقيق المعنى»، (إذ إن كلمات الطفلة الصغيرة حققت معنى في الحالتين، لكن النحو هو الذي حدد المعنى الذي أرادت الفتاة توضيحه).

لكن النحو يمثل أحد جوانب النظام اللغوي العربي فقط، وليس هو النظام كله. وما دما نتحدث عن نظام اللغة العربية فلا أرى حاجة إلى استخدام المصطلح الغربي المستعار في وجود المصطلح العربي القديم الذي كاد بعضنا ينساه للأسف الشديد برغم أن جذوره تضرب في أعماق تراثنا البلاغي والنقدي، منذ القرن الخامس الهجري على الأقل، ونعني به مصطلح «النظم»، الذي يقدم نظرية أو مكونا في نظرية لغوية عربية لا تقل سماتها وضوحا عن سمات أي نظرية لغوية حديثة، غير عربية، وقيل الدخول في دراسة مطولة حول نظرية «النظم» العربية، والتي تحتل مكانا بارزا في كل من الدراسات اللغوية والأدبية/النقدية، كما ستؤكد الفصول الباقية من الدراسة الحالية، أرجو من القارئ المثقف أن يغفر لنا خروجنا سريعا عن الموضوع لنقدم للقارئ العادي تحذيرا لا بد منه، إن النظم الذي نقصده ليس هو «نظم الشعر»، فقد ارتبطت كلمة نظم لزمن طويل بفرض الشعر حتى نسينا نظرية النظم، وحينما تحول الحداثيون العرب إلى استعارة المصطلح الغربي «نسق» أو «نظام» system اكملوا القطعية مع المصطلح العربي الرائع في معناه الأوسع من مجرد نظم الشعر:

«وربما كان أهم مجال أتت فيه جهودهم هو نظرية النظم

versification، (إذ قالوا إنه ليس مجرد مجموعة من القوالب

moulds، أو القواعد الخارجية external rules، ولا حتى زخرفة

خارجية embellishment / trappings تُقرض على الحديث العادي ordinary speech أو يصب فيها superimposed، بل إن النظم ضسرب من الكلام الذي يتسم بتكامله الداخلي integrated speech ويختلف نوعياً qualitatively عن النثر، ويتميز بالترتيب الهرمي hierarchy لعناصره وقواعده الداخلية الخاصة به، أي أنه ... كلام يخضع لنظام معين من آفته إلى يائه في نسجه الصوتي، وكانت فكرة الإيقاع من العوامل التي ساعدت في توضيح إحدى المشكلات الجوهرية في فن الشعر، ألا وهي مشكلة العلاقة بين الصوت والمعنى في فن الشعر^(٢٧).

ولسنا بحاجة إلى الإشارة هنا إلى أن النظم الذي يتحدث عنه عناني ليس النظم الذي نتحدث عنه.

عوودة إلى نظرية «النظم» العربية في شقها اللغوي. وقد سبق أن قلنا إن النظم يمثل مكوناً في نظرية لغوية لا تقل سماتها وضوحاً عن سمات أي نظرية لغوية حديثة. والواقع أن مفهوم «النظم» يمثل العمود الفقري لنظرية لغوية عربية لا تقل تكاملاً - من ناحية اتساقها على الأقل - عن أي نظرية لغوية حديثة. بما في ذلك نظرية فريديناند دي سوسير التي اتخذتها علوم اللغة نقطة انطلاق إلى تشعبات وتفرعات لغوية ونقدية شبه لا نهائية. كان ذلك في الواقع هو مقدار حماس محمد مندور لعبد القاهر الجرجاني ونظريته في النظم. وسوف تتولى الصفحات التالية من انقصل الحالي تأكيد أن حماس مندور لم يكن في غير مكانه. ففي الميزان الجديد يكتب محمد مندور عن عبد القاهر الجرجاني بالحماس التالي:

«إنه يستند إلى نظرية في اللغة أرى فيها ويرى عني كل من يمعن النظر أنها تماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء، ونقطة البدء تجدها في دلائل الإعجاز حيث يقرر المؤلف ما قرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلامات système de rapports وعلى هذا الأساس العلم بنى عبد القاهر كل تفكيره اللغوي»^(٢٨) [التأكيد من عندي].

ثم يكتب في النقد المنهجي عند العرب مقارناً صراحة بين إنجاز عبد القاهر وإنجاز سوسير: «ومذهب عبد القاهر هو أصبح وأحدث ما وصل إليه

النظرية اللغوية العربية

علم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه وهو مذهب العالم السويسري الثبت فرديناند دي سوسير^(١٩) [التأكيد من عندي].

يرى البعض أن حماس محمد مندور مبالغ فيه، خاصة أن الرجل استخدم في تلك السطور القلائل والتي وردت في عملين من أعماله وليس عملاً واحداً مفردات «نظرية في اللغة» «تماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث»، ومذهب عبدالقاهر أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه. وسوف يقول البعض، بالطبع، الشيء نفسه ويتهمون مؤلف المراسم المقعرة بالحماس الذي لا مبرر له، وإذا كنا قد أكدنا منذ البداية ضرورة البحث عن هويتنا الثقافية ثم تأكيدها في مواجهة سيطرة غربية قائمة بل قائمة بالفعل، فإن ذلك ليس مبرراً كافياً، ليس مبرراً على الإطلاق، لحساسنا للتراث النقدي العربي، لأن الاعتماد على الحماس وحده يعني فرض رؤية وهمية لا وجود لها على النصوص النقدية التراثية، أو استنطاقها بما ليس فيها، كأننا، بعبارة أخرى، نؤسس شرعية الحاضر وليس شرعية التراث. لكن النصوص التراثية العربية هي التي تؤسس شرعيتها في قرأتنا الحالية لها، وهي التي تؤسس عصريتها، كما يقول شكري عياد في ترجمته لمصطلح modernity، وقد تحاشينا استخدام لفظ «حداثتها» عن عمد. فهذه النصوص التراثية تقدم مفردات لغوية ونقدية لو جمعت في قراءة ذكية ومنصفة لأصبحت بين أيدينا نظريتان متكاملتان في اللغة والأدب، ليس معنى ذلك أن جميع تلك المفردات اللغوية والنقدية يمكن أن يقبلها الجميع، بما في ذلك مؤلف المراسم المقعرة، فالهم أن تتسق المكونات النظرية بعضها مع بعض. ويحدد صلاح رزق في أدبية النص (١٩٨٩)، وبالحماس نفسه، المفردات التي نرى أنها أساس النظريتين الأدبية واللغوية. فهو يتحدث في الفصل الأول من كتابه عن المباحث التي تمثلت في جهود الجاحظ وابن قتيبة والرماني والخطابي والباقلاني والقاضي عبدالجبار والزمخشري والفخر الرازي، «واستخلاص ثمارها خاصة فيما يتعلق بالدور الذي نهضت به هذه الدراسات على طريق تاصيل منهج نقدي حين غيّبت بمكونات التشكيل اللغوي الفصحى والبنية الأدبية المتميزة بدءاً بالحرص منفردا ومؤلفاً، واللغة مؤلفة ومنفردة ومقترنة بأخرى أو بأخريات، ومواجهة الإشكاليات النظرية والمنطقية التي تليها

قضية اللفظ والمعنى... وانتهاء بكل ما من شأنه بيان سر التوافق بين نظم ونظم والاختلاف بين أسلوب وأسلوب مما لا يمكن حصره من شروب التحسين الكلامي، وتوكليف إمكانات الدلالات المجازية، وسبل إدراك المعاني واستشعار آثارها وإيحائها^(٢٠).

والسطور التي أكتبتها من نص صلاح رزق تعتبر حصراً شاملاً لمفردات أي نظرية لغوية، هذه حقيقة لا يمكن الجدل حولها. وحقيقة أيضاً أن التراث البلاغي والنقدي العربي لم يغفل أيًا من هذه المقدرات، وبصورة مكثفة فيها الكثير من التطور والتداخل والتكرار. ومما لا شك فيه أن إعادة قراءة التراث الضخم يفرض فك الخيوط المتداخلة والسيطرة على التكرار وتقنيته، ثم إبراز التطور، حري في نهاية الأمر بإبراز النظرية اللغوية العربية مع إدراك سياقها التاريخي داخل دائرة الثقافة العربية وداخل دائرة الثقافة الإنسانية الأوسع التي كان يلها ظلام العصور الوسطى وجهاتها.

لكننا، قيل أن نتحدث عن نظرية نظم اللغة لابد من أن نعرف اللغة كما عرفها النقد العربي القديم، وسوف نكتفي هنا بتعريفين فقط للغة كأداة توصيل واتصال، الأول تعريف متقدم والثاني تعريف متأخر، والتقديم والتأخير هنا ينسبان أن إلى العصر الذهبي للنقد العربي القديم من القرون الثالث إلى السابع الهجريين، ربما يكون أشهر تعريف مبكر للغة كأداة اتصال هو ذلك التعريف الذي قدمه الجاحظ، والواقع أن الجاحظ قدم تعريفين، أحدهما من لغة التواصل بين أنواع الحيوان التي يقسمها إلى فصيح وأعجم في كتاب الحيوان، فالفصيح هو الإنسان أما الأعجم فهو الحيوان أو «كل ذي صوت لا يفهم إرادته، إلا من كان من جنسه»^(٢١). وفي البيان والتبيين، وفي «باب البيان» على وجه التحديد، يقدم تعريفاً أكثر إسهاباً، وربما أكثر إثارة للجدل عن مفهومه للغة ووظيفتها:

«قال بعض جهابذة الألفاظ ولقد المعاني: المعاني القائمة في صدور العباد المتصورة في أذهانهم، والمختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والخائنة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، وإنما تحيا

النظرية اللغوية العربية

تلك المعاني في ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها... وكلما كانت الدلالة أوضح وأقصر، كانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع»^(٢٢) [التأكيد من عندي].

في هذا التعريف الذي يبدو للوهلة الأولى بسيطاً إلى حد السذاجة، يقدم الجاحظ تعريفاً للغة يمكن قراءة عناصر فيه لا تقل «عصرنة» عن أي تعريف حديث للغة كأداة اتصال. هل سنقوم، كما فعل البنيويون أحياناً، بشد النص على جهاز التعذيب لننطقه بما ليس فيه؟ الرد هنا: إن النص النقدي الذي نتعامل معه يحتمل القراءة العصرية التي سنقوم بها، ولن نلطقه بما ليس فيه، وإن كان الجاحظ، في بعده عن المصطلح النقدي المعاصر بما يزيد على عشرة قرون، لا يستخدم ذلك المصطلح الباهر لأنه لم يكن قد جاء إلى الوجود بعد. كلماته، مثلاً، عن «المعاني القائمة في صدور العباد وأذهانهم» يمكن قراءتها، دون كثير شطط، باعتبارها تعريفاً مبكراً للعلاقة بين شطري العلامة، الدال والمدلول، من منظور حديث. فالدلول التي يتحدث عنه الجاحظ هنا فكرة أو مفهوم، بمعنى أن الدال لا يشير إلى الشيء الحسي، بل إلى فكرته أو مفهومه. هل قلنا «دال ومدلول»؟ نعم، فقد سبق للجاحظ أن قدم تعريفاً لفعل «دل» في الجزء نفسه من الكتاب نفسه قال فيه «ومعنى دل الشيء» على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكنا، وهذا القول شائع في جميع اللغات ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات^(٢٣). ثم إن الجاحظ يستخدم قبل نهاية السطور التي نحن بصدها لفظة «الدلالة»، فلا غرابة إذن في الحديث عن الدال والمدلول، فهي مصطلحات تقع في صلب النظرية اللغوية العربية وليست حدائية أو مستوردة. وليس من قبيل الشطط أيضاً القول إن ذلك النص الموجز يقدم، من بين الكثير الذي يقدمه، نظرية اتصال لغوية يقوم الجاحظ فيها بتعريف الرسالة والمرسل والمستقبل والشفرة فالرسالة هي «المعاني القائمة في صدور العباد» أما المرسل «العباد» الذي يشير إليه الجاحظ، فهو الفرد أو الإنسان في عزله وهو يتشد الاتصال. أما المستقبل أو المتلقي فهو الإنسان الآخر في عزله «الذي لا يعرف ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه...» أما الشفرة فهي اللغة التي بها تحيا المعاني الخفية في صدر المرسل.

هل معنى ذلك أننا، ومن باب إنطاق النص بما ليس فيه، نقول إن الجاحظ لم يعرف اللغة باعتبارها تمثيلاً للأشياء تقوم فيه الدالة بالإشارة إلى المدلول أو الشيء المشار إليه، وهو يسبق بذلك العصر الحديث في الفكر الأوروبي الذي بدأ في القرن السابع عشرة إن الموقف هنا ربما لا يحتمل هذا الاستنتاج لو نظرنا إليه بمعزل عما كتبه الجاحظ، فالسطور التي نتعامل معها تتحدث عن اللغة من منظور كونها لغة «إخبار» أو تفاهم بالدرجة الأولى، ومن ثم فالدلالة محددة denotative وليست متعددة الإيحاءات connotative، ولهذا يختتم السطور بتأكيديه أنه «كلما كانت الدلالة أوضح، وأوضح، كانت الإشارة أبين وأنور»، وكانت بالطبع، «أنتفع وأنجح».

لكن النص أيضاً، خاصة إذا ربطنا بين ما جاء فيه وبعض مقولات الجاحظ الأخرى، يقدم رؤية شديدة المعاصرة. فالمفاهيم والأفكار، في حالة مستورة خفية بعيدة معجوبة مكنونة في نفوس أصحابها وصدورهم وخواطهم - المرسلين - «موجودة في معنى معدومة» أي أنها في حالة التلاصق، ليس هذا ما يقوله الجاحظ بالحرقة ولهذا كان من المنطقي، دون تقلسف أو تحليل نفسي لا حاجة بنا إليه، أن ينتقل الجاحظ في خطوته التالية إلى: «وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إياها». هل نخطلو خطوة أخرى أكثر طموحاً، وإن كانت تتسق واتساقاً كاملاً مع منطق النص المحدد والمعزول عن سياقات أخرى للجاحظ فيها الكثير من التناقض؟ نعم، فالجاحظ، مثل غالبية النقاد العرب القدامى، في ذلك العصر البعيد، حافل بالتناقضات، لكننا مؤقتاً، نعزل نصاً واحداً ونتابع المنطق الداخلي لتطور الفكرة داخله.

الخطوة التي أعنيها هي: «هل المسافة بعيدة - إذا كان لتلك المسافة وجود أصلاً - بين ما يقوله الفلاسفة الألمان، من ظاهريين وتأويليين، ثم أصحاب التلقي والتفكيك من بعدهم، وبين ما يقوله الجاحظ هنا من أن الأفكار، التي يسبق أن أكد أنها، وهي مكنونة خفية، في حالة لا معنى، تحيا، وتكتسب معناها، بل وجودها ذاته، عند التعبير عنها باللغة؟ ثم هناك الخطوة الأخيرة، قبل أن يسارع البعض إلى تفسير حماسي للتراث بأنه مرحلة متقدمة أو متأخرة من مراحل الجنون، فإن هذه الأفكار والمفاهيم التي لا تحيا إلا داخل

النظرية اللغوية العربية

اللغة حينما يعبر المرسل عنها لغويا، لا يدركها المتلقي أو المستقبل هو الآخر إلا داخل اللغة، وعند وعيه بها لغويا؟

هل حملت نص الجاحظ حقيقة أكثر مما يحتمل؟ من ناحيتي، لا أظن ذلك. ما أدركه وأعترف به مقدما أنني ناقشت إمكانات النص النقدي في عزلة عن تصوص أخرى للجاحظ، وأن الأمور، في النقد العربي القديم عامة، ليست بهذا النقاء، ولكن إذا كان مجرد التحليل المنطقي - لا يستطيع أحد أن ينكر أن قراءتي لنص الجاحظ كانت منطقية تماما - يؤكد هذه الدرجة من «العصبرنة» أو العصبرية في النقد العربي، ألم يكن أحري بنا أن نشوم جميعا بما قام به مؤلف المراسم المصنعة نفسه هنا من قراءة التراث القديم وغربلته وتقنيته من كل تناقضاته بهدف تطوير نظرية نقدية عربية حديثة بدلا من الهرولة غير المحسوبة خلف الحداثة الغربية بمفاهيمها ومصطلحاتها الغربية؟

التعريف الثاني للغة ووظيفتها يقدمه حازم القرطاجني في منهاج البلغاء، وهو تعريف لا يختلف في مجمله عن تعريف الجاحظ المبكر: «لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى بعضهم بعضا على تحصيل المنافع وإزاحة المضار وإلى استفادتهم حقائق الأمور وإفادتها، وجب أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب، وإما الاستفادة منه»^(٢١)، وما أظننا بحاجة إلى التوقف عند التعريف المتأخر الذي يتفق في مجمله مع عناصر التعريف المبكر لوظيفة اللغة.

ما النظم إذن؟

التعريف الموجز المطروق الذي لا تكاد دراسة في التراث النقدي العربي تخلو منه، والذي سنتوقف عنده في استفاضة، هو تعريف عبد الشاهر الجرجاني المعروف: «معلوم أن النظم ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض». ويرغم الإيجاز الشديد الذي يعبر به عبد القاهر هنا عن مفهومه للنظم، فإن التعريف في الواقع يقدم كل مكونات نظريته والتي يفصلها مرات ومرات في كتابيه الأساسيين، دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة. وقبل مناقشة مفهوم النظم عند البلاغي والناقد العربي، دعونا نحدد معا، وفي تبسيط غير حدائي، مفهوم النظم أو النظام كما يقدمه ناقد أمريكي مخضرم هو روبرت شولز. وفي هذا لن يكون هدفتنا بأي حال

من الأحوال تأسيس شرعية الحاضر، بل شرعية الماضي التراثي العربي، فانسق أو النظام system، في المنظور الحديث بل البنيوي لا يضيف الكثير إلى مفهوم النظم كما تراتب النقاد العرب على شرحه قبل عبد القاهر الجرجاني وبعده. يكتب روبرت شولز في Structuralism in Literature في تعريف النسق من منظور بنيوي:

«يجب أن نؤكد أن النسق اللغوي ليس وجوداً محسوساً، فاللغة الإنجليزية ليست في العالم أكثر من وجود قوانين الحركة في العالم، ولكي تكون موضوعاً للدراسة يجب بناء لغة ما، أو نموذج لها، من شواهد الكلام الفردي، إن أهمية هذا المبدأ للدراسات البنيوية الأخرى باللغة، إن أي نظام إنساني، لكي يصبح علماً، يجب أن ينتقل من الظواهر التي يسجلها إلى النسق الذي يحكمها، من الكلام إلى اللغة، وفي اللغة بالطبع لا معنى لأي تصوت بالسمية لمحدث ينقصه النسق اللغوي الذي يحكم معناه، وما يعنيه هذا بالنسبة للأدب بالغ الأهمية، إذ لا يمكن لمنطوق أدبي، لعمل أدبي، أن يكون له معنى إذا افتقدنا الإحساس بالنسق الأدبي الذي ينتمي إليه»^(٣٥).

وسوف نتحدث طويلاً عن النسق الأدبي في الفصل القادم من الدراسة بإذن الله، ولست بحاجة إلى التذكير بأن القوانين التي تحكم النسق اللغوي قد نقلت إلى النسق الأدبي. ومن ثم نكتفي هنا بالتوقف عند النسق اللغوي ومعاله الرئيسية قبل أن نعود إلى التراث اللغوي العربي لنرى أن العقل العربي كان قد طور نظريته الخاصة بالنسق، أو النظم، منذ ما يقرب من ألف عام، بل إن النظم الذي ارتبط، باسم عبد القاهر يجمع كل مقدرات النسق الحداثي. هل نتوقف عند مقولة شولز إن النسق ليس وجوداً مادياً محسوساً، لكنه قانون يحكم علاقات الوحدات داخل النص تماماً مثل قوانين الحركة؟ أظن أن هذا مبدأ أبسط من أن نتوقف عنده، لكنه في حديثه عن النسق يؤكد مبدأين جوهريين لا يمكن المرور بهما من الكرام. الأول، إن التصوت اللغوي لا معنى له من دون نسق يحكم علاقات وحداته، أي أن تحقق الدلالة أو المعنى لا يتم إلا بوجود نسق لغوي هو قانون الإرسال والتلقي الذي يتفق عليه المطلق والمستمع، الثاني، وقد تحدثنا عنه في استفاضة في المرايا الحديثة، هو كيفية تخليق النسق أو الوصول إليه ثم كيفية عمله. وفي هذا لا يختلف شولز عن

النظرية اللغوية العربية

جمهرة اللغويين في أسبقية الكلام parole على اللسان أو اللغة Langue. فالنسق يُطور من نماذج الكلام الفردية، أو ما يسميه شولز «شواهد الكلام الفردي»، ولكي يتحول ذلك النسق إلى قانون عام له مصداقية العلم، يجب أن يتحول من الظواهر الفردية إلى اللغة. وبعد ذلك يُطبق ذلك القانون العام على حالات الكلام الفردية قبل أن تتحقق دلالة التلفظ، إننا في الواقع نتحدث عن طريق ذي اتجاهين.

بهذه الخلفية الحداثية في أذهاننا دعونا نعود إلى نظرية النظم العربية لنرى إذا كانت تنقصها أية إضافات حداثية ذات أهمية تبرر تجاهلها والاتجاه الكلية نحو منتوجات العقل الغربي الحديث، ولن تكون نقطة العودة إلى عبدالقاهر الجرجاني الذي سنحتفظ به لنقطة النضج في تطوير نظرية النظم العربية، وإن كنا سنبدأ بنص مطول بعض التطويل لعبدالقاهر يساعدنا في تحديد طبيعة الأرض التي سنقطعها وفي تحديد ما نبحث عنه في رحلتنا إلى القرنين السابقين على إنجازهم:

«والألفاظ لا تُفِيد حتى تُؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويهمل بها إلى وجه دون وجه من التركيب والتركيب، فلو أنك عمدت إلى بيت شعرٍ أو فصلٍ نثرٍ تعددت كلماته عدا كيف جاء وانتق، وأبطلت نظامه الذي عليه بُنى، وفيه أفرغ المعنى وأجرى، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أضاف كما أضاف، وبسببه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول في (قفا نيك من ذكرى حبيب ومزل) (مزل قفا ذكرى من نيك حبيب) أخرجته من كمال البيان، إلى محال الهديان، نعم وأسقطت نسبته من صاحبها وقطعت الرحم بينه وبين منشئه... وهذا الحكم - أعني الاختصاص في الترتيب - يقع في الألفاظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل»^(٢٦) [التأكيد من عندي].

لقد اخترت أن أبدأ بنص للجرجاني يبدأ من حيث انتهى شولز، ولا أقصد بالطبع أن شولز جاء قبل الجرجاني (١)، ولكن ما أقصده أنه بينما يتحدث شولز عن كيفية تطوير نسق لغة ما، فإن نص الجرجاني يبدأ من نقطة وجود نسق للغة العربية بالفعل، وسوف نعود فيما بعد إلى كيفية تطوير نسق لغة العربية، كما يراه الجرجاني وسابقيه. ويكفي أن نبرز

بعض علامات الطريق في أثناء قراءتنا لنص الجرجاني السابق. «فالأنفاظ لا تفيد»، أي لا تحقق معنى أو دلالة، «حتى تؤلف ضريبا خاصا من التأليف» والتأليف الخاص الذي يقصده عبدالقاهر هو «ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد»، ثم هو أيضا «الاختصاص في الترتيب». فإذا خرجنا على «نظام» بيت الشعر وقلنا «نسقه المخصوص» كانت النتيجة إخراج البيت من «كمال البيان» وعدم تحقق المعنى، أي تحقق اللامعنى. ولنا حاجة هنا إلى التذكير بمصطلحين أساسيين استخدمهما عبدالقاهر في هذا النص البالغ الثراء وهما «نسق» و«نظام»، والمصطلحان على وجه التحديد هما جوهر تعريفه الموجز السابق للنظم باعتباره «ليس سوى تعليق الكلام بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض»، كما سيرد تفصيله فيما بعد.

لكن عبدالقاهر، كما قلنا، يمثل نقطة الذروة في الحديث عن نظرية النظم العربية، فلم تأت أراؤه حول النظم من العدم، بل كانت تنويعا لاجتهادات البلاغيين والنحاة من قبله، بعضهم دخل في دائرة مفهوم النظم دون أن يذكر المصطلح وبعضهم الآخر ناقش المفهوم واستخدم المصطلح. وإذا كانت نظرية النظم قد استمرت لمدة قرنين كاملين موضوعا للدراسة، إلا أن الإضافات والتعديلات التي أدخلها من جاؤوا بعد عبدالقاهر لم تزعج الرجل عن مكانه فوق الذروة، فقد قصرت الاجتهادات التالية عن إضافة الجديد حقا إلى النظرية كما طورها الجرجاني.

ولكن لم كل هذا الانشغال. وهي تلك الفترة من تاريخ الفكر العربي اللغوي والنقدي، بمشكلة النظم؟ هناك بعض التفسيرات المعقولة والمنطقية والتي تفسر لماذا خرجت الاجتهادات اللغوية العربية، ومن بينها نظرية النظم، من عباءة علوم النسخ والتفسير، فلم يكن انشغال البلاغي العربي في بداية الأمر باللغة من أجل اللغة، بل كانت اللغة التي جاء بها القرآن الكريم محور التفسير ومصدر الفتوى، ومن ثم كان من الضروري تحقيق أكبر قدر من الضبط والتحديد للدلالة اللغوية، وقد أشار محمد زغلول سلام في دراسته عن أثر القرآن في تطور النقد الأدبي إلى أن الجاحظ كان من البلاغيين المبكرين الذين تبنوها إلى أهمية دراسة القرآن من حيث أسلوبه وعجيب نظمه، ووقف عند آياته مبينا الإعجاز اللغوي لأساليب القرآن مقارنة بكلام العرب آنذاك

النظرية اللغوية العربية

وهو ما يقوله أيضا أحمد مطلوب في **عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونشده** (١٩٧٣) في معرض حديثه عن دلائل الإعجاز:

«وقد سعى عبد القاهر في هذا الكتاب إلى إثبات أن بلاغة الكلام تكون في النظم وأن القرآن معجز بالنظم لا بالمصرف... وقد دفعه إثباتها [نظريته] وترسيخها إلى الكلام على فنون البلاغة المختلفة ولا سيما تلك التي تعلق بتركيب الجملة والعبارة كالفصل والوصل بالحروف والأدوات... لقد كان هدف عبد القاهر البرهنة على أن القرآن معجز بالنظم. وأن بلاغة الكلام لا ترجع إلى الفاظه وإنما إلى ما بينها من ارتباطات» (٣٧).

أما أن الدراسات اللغوية المتطورة التي شهدتها الثقافة العربية في عصرها الذهبي خرجت من الدراسات الفقهية والتفسير فهذه حقيقة لا مرأى فيها، وأن القرآن اتخذ نموذجا للإعجاز في جانبه اللغوي فهذه أيضا حقيقة لا جدل حولها. وكان اللغويين العرب وجدوا في لغة الكتاب نموذجهم الأمثل الذي يجب أن يكون معيار القياس والضبط اللغويين. وبتعبير بنيوي، لقد كان القرآن بلغته العربية هو النمط الأكبر الذي نتحرك منه إلى الأنساق اللغوية الفرعية. وربما يكون ذلك ما يقصد إليه مطلوب حيثما يتحدث، في صفحات تالية من كتابه، عن الموقف من نظرية النظم التي كان القاضي عبد الجبار قد سبق عبد القاهر إلى الربط بينها وبين الفصاحة ثم بنى على ذلك رأيه في إعجاز القرآن، «وعندما جاء عبد القاهر»، كما يكتب أحمد مطلوب، «وجد هذه الآراء في بيانات المعتزلة والأشاعرة ورأى تصارع المؤلفين في الإعجاز فأراد أن يحل المشكلة ويعرض الفكرة واضحة جلية.. ويمضي مطلوب ليشير إلى أن ما حدث كان من حسن حظ اللغة العربية إذ أدى ذلك الهدف النبيل الذي حرك الجميع، ومن بينهم عبد القاهر، بالطبع، إلى تطوير الدراسات اللغوية والنحوية العربية». ولكنه وجد الناس زاهدين في العلم متكرين فضله، وآثم لا يهتمون من النحو إلا ما علق بأواخر الكلم من الإعراب فأراد رفع الحيف الذي أصابه وإيضاح معناه وغاياته» (٣٨).

لكن اللغة العربية التي حيها الله بكتابه المبين كانت موجودة قبل نزول كتاب الله، وكانت لها فصاحتها القائمة على نظمها. ومن نافذة القول التذكير بأن أحد جوانب الإعجاز في القرآن نزوله بلغة يعجز عن الإتيان بمثلها

فصحاء العربية آنذاك. ببساطة شديدة: إن اللغة العربية، كأي لغة أخرى استخدمتها أو تستخدمها جماعة بشرية، لها نظمها وقواعدها التي تحكم تحقيق المعنى ونقله.

في استعراض سريع لمفهوم النظم في البلاغة العربية قبل عبد القاهر يذكر أحمد مطلوب أن أقدم نص عُثر عليه في كتب العربية يرجع إلى ابن المقفع يشير فيه إلى صياغة الكلام، يقول النص: «فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل وأن يقولوا قولاً بديعاً فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب قصص وجد ياقوتا وزبرجداً ومرجاناً فنظمه قلائد وسموطة وأكاليل ووضع كل قص موضعه وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيد به ذلك حسناً فسمي بذلك صائفاً زقيقاً»^(٢٦). وبرغم أن ابن المقفع يستخدم لفظ «نظم» في سياق تشبيهه بين صانع البديع وصانع الجواهر فإن العقل العربي كان وما زال بعيداً بشكل واضح عن مفهوم النظم عند عبد القاهر، وإن كانت الكلمات تشير بوجود نظام يحول الأحجار الكريمة إلى قلائد وسموط. وما يتحدث عنه ابن المقفع هنا من صياغة يصف ذلك الجهد بأنه «وضع كل قص موضعه» و «جمع إلى كل لون شبهه» لينتج بذلك قلادة جديدة. وهو نموذج ربما نعود إليه فيما بعد في حديثنا عن النظرية الجمالية الأدبية في الفصل التالي. يكفينا هنا إبراز هذا الإدراك المبكر بضرورة وجود نظام تحدد على أساسه صفة الأماكن وأوجه التشابه أو التعلقات التي تربط المفردات في سياق جديد. وهل نستطيع، ونحن في مرحلة الإرهاص المبكر بنظرية النظم، أن نخفل «كتاب» سيبويه في النحو باعتباره مرحلة مبكرة لوضع قواعد للغة يسير عليها العرب في إنشائهم؟ ونذكر هنا أن «نظم» عبد القاهر سيعتمد في جزء أساسي منه، في صلبه في حقيقة الأمر، على النحو العربي.

ونعود مرة أخرى إلى الجاحظ لننوقف عند مقولاته المشهورة التي أحدثت بليلة نقدية مازلتنا نعيشها حتى اليوم. وسوف نعود إليها في أكثر من موقع في دراستنا الحالية، خاصة عندما نتحول إلى ثنائية اللفظ والمعنى كأحد مكونات النظرية اللغوية العربية. تقول كلمات الجاحظ التي وردت في الجزء الثالث من كتاب الحيوان، والتي لا يكاد يخلو منها كتاب في البلاغة العربية القديمة: «إن المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها المعجمي والعربي، واليدوي والقروي

والمدني. إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير»^(٤٠). وسوف نتوقف أيضا عند الكلمات نفسها مرة أخرى عند الحديث عن النظرية الأدبية أو الجمالية العربية. لكننا في السياق الحالي لا نملك إلا أن نسلم، بداية، بشرعية جميع التساؤلات التي أثارها كلمات الجاحظ عند محمد زكي العشماوي في قضايا النقد الأدبي، وفي تساؤلات توكلف التناقضات الواضحة في كلمات الجاحظ لتتخلص إلى أن الجاحظ «نفذ عن المعنى كل أهمية»:

«فيل المقصود من هذا أن المعنى شيء وصياغته شيء آخر؟ أم المقصود أن العبرة في الشعر بصياغته وليست بأفكاره أو معانيه؟ ثم ماذا يعني الجاحظ بقوله: إنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ [هكذا] وسهولته [هكذا]، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك؟ هل المقصود من هذا ما يتصل باللفظ من الخارج. ونعني به دلالة اللفظ على الموسيقى والإيقاع، أو ما يكون بين الكلمات من تلازم يباعد بينها وبين التعقيد والتعقار، أو ما يشيع فيها من سهولة في النطق ومراعاة ما يتصل بمخارج الحروف وحسن أدائها منطوقة؟»^(٤١).

إن تساؤلات العشماوي المشروعة تفتح أبواب جدل لم يغلق بابها، كما قلنا، حتى اليوم. وسوف نؤجل الجدل برمته إلى حين الحديث عن ثنائية اللفظ والمعنى في صفحات قادمة. ما يهمنا الآن تأكيد فكرة النظم المبكرة عند الجاحظ، والتي ترد في السياق صراحة، ولكن السياق كله يشير في اتجاهها. «فالحديث عن إقامة الوزن وتخير اللفظ» ثم «جودة السبك» التي تؤدي منطوقها إلى «إنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير»، وهي مفردات سوف تتردد كثيرا عند الجاحظ وغيره من البلاغيين العرب، وخاصة مفردات «النسيج» و«التصوير»، وهذا السياق كله يشير في اتجاه واحد، أو في أحد اتجاهاته على الأقل، نحو الصياغة أو النظم. وقد حاول الولي محمد في دراسته: «الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي» (١٩٩٠) أن يقيم جسرا، لا أظن أنه قوي بما فيه الكفاية، بين كلمات الجاحظ وعبدالقاهر الذي كان ينظر إلى الجاحظ باعتباره من كبار اللفظيين الذين تمرد عليهم كلية بنظرية

النظم. فالولي محمد يرى أنه إذا كان هناك «تأثير جاحظي على عبدالقاهر فينفي أن يكون تأثيرا خاصعا لتحويل، إن الجاحظ يؤكد على الأرجح الصورة الصوتية أي التشكيل الصوتي (ما الجرجاني فإنه يلح على التشكل الدلالي)^(٤٢)، ويؤسس الولي حكمه على الجاحظ على أساس استخدام الأخير للفظي «المعنى» والصورة» في السياق موضوع الجدل».

وقبل الانتقال من «أصحاب اللفظ» إلى «أصحاب النظم» لابد لنا من منطقة وسط بين النقيضين. وهي منطقة وقف فيها ابن سنان ليقدم حلا توفيقيًا بين موقف الجاحظ القائل إن «المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي» وموقف عبدالقاهر الذي يرى أن الألفاظ مفردات لا تحقق معنى. لكن النظم الذي «ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض» هو الذي يحقق لفظا معناه. وهكذا يمسك ابن سنان العصا من منتصفها فيقول إن الألفاظ أو الوحدات اللغوية، التي هي مادة البنية اللغوية، ذات طبيعة مزدوجة أو ثنائية. فاللفظ له قيمة أو سمة خاصة منفردا، وهذه القيمة هي التي تؤهل، دون غيره، لدخول البنية اللغوية. وفي داخل البنية اللغوية، هي الجملة على سبيل المثال، حين تجتمع اللفظة مع ألفاظ أخرى، تكتسب قيمة أو سمة أخرى هي سمة البنية اللغوية التي أصبحت إحدى وحداتها. وفي ذلك يشترط ابن سنان عددا من الشروط التي يجب تحققها في اللفظة منفردة أبرزها أن تكون «غير متوعدة وحشية»^(٤٣) - كلمات تؤكد تأثير الجاحظ - وأن تكون «غير ساقطة عامية»^(٤٤). ثم «أن تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة»^(٤٥) ولتأكيد القيمة المرتبطة باللفظة منفردة يقدم مفهوما لا يخلو من الصرامة اللغوية التي يصعب تطبيقها بصمة دائمة، إذ يقول بضرورة تركيب أو تأليف اللفظة من حروف متباعدة الخارج:

«إن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر: لا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في النظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان النياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة، لقرب ما بينه وبين الأصفر، وبعد ما بينه وبين الأسود. إذا كان هذا موجودا على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة»^(٤٦).

النظرية اللغوية العربية

ربما يكون لحديث ابن منان عن التضاد بين الألوان، أو التباعد بين مضردات الكلمة، ميزة جمالية تستحق التوقف عندها عند الحديث عن النظرية الجمالية العربية، وإن كنت لا أعرف كيف يمكن مقارنة التباعد بين حروف الوحدة اللغوية أي اللفظة المفردة بالتضاد بين وحدات الألوان في اللوحة، فإذا كان التباعد بين الوحدات اللونية ممكناً، فإن تعمد تحت اللفظة اللغوية الواحدة إعمالاً للمبدأ نفسه ليس ممكناً في جميع الأحوال، لكن ما يهمنا هنا تأكيد ما قاله ابن منان عن اللفظة كيف تكتسب قيمة جديدة داخل البنية اللغوية أو الجملة، فنحن بذلك نقترّب بخطى متسارعة نحو نظرية الجرجاني عن النظم، ويفاجئنا أحد الباحثين في إعجاز القرآن، وهو الخطابي (أحمد بن محمد بن إبراهيم، ت ٢٨٨ هـ) بنص يستخدم مصطلحاً نقدياً يحدد معالم نظرية اتصال لغوية حديثة، تكاد تؤكد أن كل أفكار عبدالقاهر الجرجاني لم تكن جديدة بالكلية، فقد كان اجتهاد النحويين والبلغاء قد وصل إلى مرحلة تطوير نظرية لغوية تكاد تكون كاملة، فهي معرض حديثه عن الإعجاز اللغوي للقرآن وعجز البشر عن الإتيان بمثله يكتب الخطابي:

«إنما تمتاز على البشر الإتيان بمثله لأمور ثلاثة: منها أن عليهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبإضافتها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفعالهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيعاب جميع وجود النظم التي يكون اختلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بأشياء ثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم»^(١٧) [التأكيد من عندي].

إننا لا نملك إلا أن نشق أمام هذا النص في عجب وإعجاب شديدين فهذا نص عربي قديم يتحدث عن اللغة كنظام للعلامات، وإن كان لا يستخدم لفظ علامة صراحة، وشبكة علاقات هي التي تحدد دلالة النص. فاللفظ هنا «لفظ حامل للمعنى» أي أنه علامة تدل على معنى، والمعنى «محمول على ذلك اللفظ» أي أنه المدلول الذي يدل عليه اللفظ الدال. نظام العلامات هذا قد يحقق دلالات فردية منفصلة، لا أكثر ولا أقل، ولكنه

لا يحقق معنى إلا في وجود نظام أو شبكة علاقات هي «جميع النظم» التي تحقق للألفاظ أو العلامات «اقتلافها وارتباط بعضها ببعض». ويصل العجب إلى ذروته أمام المقنع الأخير من سطور الخطابي الذي يوجز نظريته اللغوية فيما يشبه الإعجاز والدقة العلمية المطلقة: « وإنما يقوم الكلام بأشياء ثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم». إننا هنا أمام شروط تحقق الدلالة أو المعنى، وهو ما يقصده الخطابي بـ «إنما يكون الكلام»، وهذه الشروط هي وجود نسق من العلامات، كل علامة تتكون من عنصرين: الدال والمدلول، وهو معنى؛ «لفظ حامل، ومعنى به قائم». لكن هذه العلامات اللغوية تبقى عاجزة عن تحقيق المعنى إلى أن ينظمها نظام علاقات يمكنها، مجتمعة، من تحقيق الدلالة، وهو ما نفهمه، ويفهمه أي قارئ منصف لكلمات الخطابي: «ونظام لهما رابط». لقد استغرق العقل الغربي الذي أبهرتنا إنجازاته الحداثيّة ما يقرب من اثني عشر قرناً لينتج هذه الصيغة التي أدركنا لها ظهورنا بدلاً من تطويرها.

ونقترب أخيراً من الجرجاني مع مفهوم القاضي عبد الجبار عن الضم، وبرغم اختلاف اللفظين، فإن كلا من عبد الجبار (بـ ٤١٥ هـ) وعبد القاهر (٤٧٢ هـ) يتعدان عن المفهوم نفسه، بصرف النظر عن استخدام الأول لفظ «ضم» والثاني لفظ «نظم». ويتقارب فكر الرجلين إلى درجة تدفع البعض إلى إرجاع فضل نظرية النظم إلى عبد الجبار وليس إلى عبد القاهر الذي يقتصر إنجازاه، من هذا المنظور، على شرح فكرة الأول وتحليلها وإثرائها بالأمثلة الشارحة. «والحق»، يكتب محمد عابد الجابري في دراسته الرائعة، «أن تحليلات القاضي عبد الجبار في هذا المجال تخطو بنا خطوة كبيرة وحاسمة نحو نظرية النظم الجرجانية، إلى درجة يصعب معها نسبة شيء آخر للجرجاني سوى الفكرة وتحليلها وإغنائها بالأمثلة»^(١٨). وقد آن لنا أن نتوقف قليلاً عند مفهوم «الضم» كما قدمه القاضي عبد الجبار في كلمات توقف عندها كل من قرأت لهم ممن تناولوا نظرية النظم بالدراسة. يكتب عبد الجبار:

«أعلم أن القصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في

الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون

لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضع التي

نتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه [أي الضم]، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام رابع، لأنه إما أن تعتبر فيه [في الضم] الكلمة أو حركتها أو موقعها. ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات، إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركتها وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر ميزة الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها»^(٤٩) [التأكيد من عندي].

وسوف نرى بعد قليل أن هذه الأفكار هي التي سيقوم عبدالقاهر في القرن نفسه بتركيز جهوده لتفسيرها وإثرائها بالأمثلة، بل إنه في ذلك يستخدم مفردات لغوية وتفسيرات شارحة لا تختلف عما استخدمه القاضي عبدالجبار. وأهم ما نتوقظ عنده هنا لتأكيد أننا أمام نظم عبدالقاهر موجزا هو قول عبدالجبار إن الكلمات مفردة، كلا على حدة، لا تحقق معنى ضيحا، بل إنها لا تحقق معنى. الكلمة في حد ذاتها دالة تدل على شيء، لكنها خارج سياق أو نسق لا تعني شيئا. وحينما تدخل السياق أو البنية اللغوية، فإن اللفظة تحقق مع الأنفاظ الأخرى معنى تحدد علاقة اللفظة بالأنفاظ الأخرى والحركات الإعرابية كأن تكون فعلا، أو فاعلا أو مفعولا أو صفة أو حالا. حالة الضم هذه هي مفهوم النظم نفسه، بل إن عبدالجبار يعطي النحو دورا يمهّد للدور الأكبر الذي سيعطيه له عبدالقاهر في النظم، المهم هنا أننا نتحدث عن نظم قائم على شبكة من العلاقات تتحكم فيها قواعد النحو لتحقيق الدلالة.

وهنا يبدأ دور عبدالقاهر الجرجاني الذي أرى أن إنجازه، بعكس ما يرى الجابري، كان أكبر من مجرد «شرح فكرة عبدالجبار وتحليلها وإغنائها بالأمثلة». صحيح أن الجرجاني لم يبدأ من فراغ كامل أو جزئي، لكنه استطاع أن يطور إنجازات البلاغيين السابقين على مدى قرنين إلى نظرية متكاملة للنظم تقوم على تأكيد شبكة لعلاقات بين العلامات اللغوية أفقيا ورأسيا، وبهذا يكون الجرجاني، كما قال محمد مندور، قد قدم نظرية للغة العربية «تماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث»، مذهبيا «وهو أصبح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه». ولا يقل حماس محمد خلف الله أحمد عن حماس مندور فيكتب معلقا على دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة:

«وأظهر ما يميز أسلوب المؤلف فيهما منهجه الواضح القائم على الاستقراء الذوقي الشامل من جهة وعلى التحليل العلمي الدقيق من جهة أخرى حتى لتكاد بحوثه فيهما تقرب في دقتها وتسلسل مراحلها من أسلوب العصر الحاضر في بحوثه العلمية»^(٥٠).

إن توثيق نظرية عبدالقاهر الجرجاني في النظم تضع الباحث، أي باحث، في حيرة شديدة، إذ إن الرجل، إيماناً بقيمة العلم وإعلاء لمنزلة العقل، لم يأل جهداً في المناقشة والجدل حول ما يتعلق بجوانب النظم الذي يشغل المساحة الأكبر من دلائل الإعجاز ومساحة ليست صغيرة من أسرار البلاغة مما يجعل الاقتطاف من كتاباته أمراً عسيراً. وقد قلت «قيمة العلم» و«منزلة العقل»، وهي مفردات لم يأت بها مؤلف المرايا المقعرة من عنده، فقد حرص عبدالقاهر الجرجاني نفسه في الصفحات الأولى من دلائل الإعجاز على تأكيد قيمة العلم وأهمية إعمال العقل:

«وبعد، فإذا تصفحنا النضائل لنعرف منزلتها في الشرف، ونثبتن مواقعها من العظم، ونعلم أي أحق منها بالتقديم... وجدنا العلم أولاهما بذلك، وأدناها هنالك، إذ لا شرف إلا وهو السبيل إليه، ولا خير إلا وهو الدليل عليه، ولا منقبة إلا وهو ذروتها وسناعتها، ولا مفخرة إلا وبه صحتها وتامها، ولا حسنة إلا وبه ففتاحتها، ولا محمداً إلا وبه يتقد مصباحها»^(٥١).

وفي الصفحة التالية مباشرة يعرف الجرجاني الإنسان السوي بأنه الإنسان الذي يحترم العلم «حتى يصدر في أمره عن العقل»، وإذا كنا نسلم بأن مفهوم «العلم» في سياق نص الجرجاني يختلف عن مفهوم العلم والعلمية في العصر الحديث، وأن مفهوم العقل في عصره كان يعني لدى البعض إعمال قوانين المنطق الأسطوي، إلا أنه يكفي الجرجاني أن يستخدم المفهومين بهذا المعنى الزماني الضيق لنقول إنه أعلى من قيمة العلم والعقل. ثم إن العلم الذي يقصده هنا نقيض الجهل وصنو المعرفة والاطلاع، وقراءة أعمال عبدالقاهر تؤكد أنه كان واسع الاطلاع راسخ العلم وأن سعة اطلاعه لم استخدمه لمبادئ الاستقراء المنطقي مكنته من تطوير أفكاره وبلورتها بصورة يكاد لا يسبقه إليها أحد. ونعود إلى حيرتنا مع عبدالقاهر وأي النصوص نخزن لتحديد معالم النظم المحورية عنده خاصة والبلاغة العربية عامة، وقد قلنا إنه كرس جهده لصياغة اجتهادات

النظرية اللغوية العربية

السابقين في نظرية متكاملة، ولكن كتاباته تمثل عمليات تداخل وتكرار مستمرة معا يربك عملية الاختيار من ناحية، ويسهلها من ناحية ثانية. إذ إن أي نص مطول بعض التطويل سوف يساعدنا على وضع أيدينا على جوهر فكرة النظم. ومن هنا تبدأ بنص به بعض الإطالة التي تحتمها أهمية الموضوع:

«وإذا كان ذلك كذلك، فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمرًا ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفرادها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة... وهل يقع في وهم - وإن جهد - أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن ينظر إلى مكان تقعا فيهما، من التأليف والنظم، وأكثر من أن تكون هذه مأثومة مستعملة، وتلك غريبة وحشية؟... وهل نجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملامحة معناها إعلاني جاراتها، وفضل مؤنسيتها لأخواتها؟ وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافتها: قلقة ونابية، ومستكرهة إلا وغرضهم عن أن يعمروا بالتتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناه، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفتاً [بمعنى صاحب أو ملازم] للثانية في مؤداها؟»^(٥٢) [التأكيد من عندي].

فلنتوقف، في كثير من الأناة، عند مكونات نظرية النظم التي يقدمها هذا النموذج، من بين عشرات النماذج التي يحفل بهما دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة. والواقع أن هذه السمات تقدم جميع مكونات النظم باستثناء سلطة النحو والإعراب التي تحكم وتحدد علاقة الوحدات اللغوية داخل النسق، فاللفظة مفردة، في رأي عبد القاهر، علامة تدل على شيء أو فكرة، ولكنها لا تحدث معنى مفيداً إلا داخل الجملة أو البنية اللغوية، وهو المعنى الذي لا يمكن الإفادة به «إلا بضم كلمة وبناء لفظة على لفظة»، في ضوء ذلك المفهوم، سوف يضيف عبد القاهر تعريفه الموجز للنظم بأنه «ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب بعض».

وسوف نؤجل الحديث عن أهمية النحو الذي فتحت بابه مفردات «بسبب» من بعض» مؤقتاً هذا، على وجه التحديد، مفهوم عبد القاهر عن النظم.

ويمضي الجرجاني ليؤكد أن نظرية النظم، وهي تركز على البنية اللغوية ككل، وهي البنية التي تحقق اللفظة داخلها فقط معنى مفيدا، أو تشتبك في تحقيقه، بمعنى أدق، نظرية النظم هذه ترفض اللفظية واللفظيين الذين قالوا بدلالة اللفظة منفردة، وفي إشارة واضحة للجاحظ الذي أسس اللفظية، وتحدث عن الابتعاد عن اللفظة «الوحشية» كشرط لجودة السبك، ينتقل عبدالقاهر إلى المفاضلة بين لفظة وأخرى، فهذه المفاضلة بين لفظة وأخرى باعتبار واحدة مألوفة والأخرى وحشية أو نائية لا يجب أن تتم خارج البنية اللغوية، خارج البناء أو الضم أو النظم، فالذي يحدد فصاحة الكلمة «هو مكانها في النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها»، والشيء نفسه عن اللفظة المتمكنة والمقبولة. أما اللفظة القلقة والتأبعية والمستكرهة فهي اللفظة التي لا تتلاءم مع الألفاظ الأخرى داخل الكلام. والواقع أن ما يقوله الجرجاني هنا يتم عن وعي جمالي متقدم سوف نتحدث عنه باستفاضة عند الانتقال إلى النظرية الجمالية العربية، فالقول إن الكل هو الذي يحدد قيمة الجزء يقع في صلب النظرية الجمالية العربية والنقد الجديد، لكن أبرز ما يؤكد سطور عبدالقاهر الجرجاني هو شبكة العلاقات التي تجمع أو تربط مفردات نظام العلامات في كل بنية لغوية مفيدة أو دالة وذات معنى. وسوف نتحدث عن شبكة العلاقات تلك بشيء من التفصيل في الصفحات التالية ولكننا نشير هنا إلى أهمية ما يقوله عبدالقاهر. فاللفظة لا تؤدي معنى مفيدا إلا داخل بنية لغوية تضم فيها الكلمة إلى الكلمة وتبنى اللفظة على اللفظة، وقيمتها داخل البنية أو النظام اللغوي المصغر تحددها درجة موازمتها واتفاقها مع جاراتها وأخوانها أو تفاضرها معهن. هذا هو محور العلاقات الأفقية التي ألق علينا به الحداثيون لسنوات طويلة. هل تحدث اللغويون العرب أيضا عن المحور الرأسي أو التبادلي؟ هذا ما سوف نراه في حينه. ولا يفتأ عبدالقاهر الجرجاني يعود مرار ومرات إلى تأكيد أهمية العلاقة أو الصلة التي تمكن الألفاظ مجتمعة من تحقيق الدلالة. وفي هذه المرة يعود إلى نموذج المفضل، صورة بلاغية رائعة من القرآن الكريم:

«وجملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة لفظة مقطوعة من الكلام
الذي هي فيه، ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها، وعلقت معناها
بمعنى ما يليها فإذا قلنا في لفظة اشتعل من قوله تعالى «واشتعل

الرأس شيئا: إنها في أعلى المرتبة من الفصاحة. لم نوجب تلك الفصاحة لها وجدها، ولكن موصولا بها الرأس معرقا بالألف واللام ومقرونا إليهما الشيب منكرا منصوبا»^(٥٦).

ثم يجيء دور النحو كسلطة ضبط وتحديد للمعنى من ناحية، ومؤسسا لشبكة العلاقات من ناحية أخرى.

ولنعد صفحات إلى الوراء، إلى تعريف شولز للنسق مرة أخرى حيث يقول «إن النسق اللغوي ليس وجودا محسوسا، فاللغة الإنجليزية ليست في العالم أكثر من وجود هوائين الحركة فيه». فالنسق العام، بعد أن يحدد، هو الذي يحكم تحقق المعنى في الأنساق الفردية، في الجملة اللغوية الواحدة، وفي النص الواحد. هذه السلطة العقلية التي تطبق على البنى اللغوية لتحقيق المعنى وضبطه والتأكد من صحته أدركها عبدالقاهر مبكرا، وحدها في موقع مبكر من دلائل الإعجاز: «وجملة ما أردت أن أبينه لك أنه لا يد لكل كلام تستحسنه ولقط تستجده من أن يكون لاستحسنائك ذلك جهة معلومة وعلّة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل»^(٥٧). والغريب أن أحمد مطلوب توقف عند هذه الكلمات كدليل على الذوق الفني والحس اللغوي الذي تمتع به عبدالقاهر: «ولكن ثقافته الواسعة وإدراكه العميق للغة العربية ربي فيه هذا الذوق وصقله كأحسن ما يكون الصقل، فكان عمدته في النقد إلى جانب اهتمامه بالقاعدة والتعليل الذي كرر الكلام فيه وقال عنه» ثم يورد مطلوب نص عبدالقاهر السابق كنموذج لحك الذوق ومعياره الذي طوره ثقافته العربية الواسعة. إن عبدالقاهر في نصه القصير السابق يتحدث عن سلطة عقلية تمكن القارئ أو المتلقي بصفة عامة من تحديد علّة الاستحسان والاستجادة للفظ، ربما يكفيها الذوق لإدراك ذلك. لكنه يمضي ليعدد قوة هذه السلطة وسطوتها فيقول: ويكون لنا «إلى العبارة من ذلك»، أي في تعبيرنا عن استحسان اللفظ أو استجادته داخل البنية اللغوية، «وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل». وهكذا لا يتركنا عبدالقاهر مجالا للشك حول أي سلطة يقصد، إن عبدالقاهر يتحدث عن سلطة ليست وجودا حسيا في العالم لكن وجودها لا يقل عن وجود قوانين الحركة في ذلك العالم: إنها سلطة النحو. وهكذا يربط عبدالقاهر بين النحو والنظم باعتبار الأول السلطة التي تحدد صفة الثاني أو عدم صحته:

«واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو. وتعمل على قوائمه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجود كل باب وفروقه، فينظر في الخير إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق وزيد منطلق ويتطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق»⁽⁵⁵⁾.

لكن عبد القاهر، وكعادته، يعود دوماً إلى تأكيد الموقف نفسه، ومن ثم، وهرب نهاية دلائل الإعجاز، يعود إلى تأكيد سلطة النحو في النظم وتحقيق المعنى، وهي سلطة أدركها مصطفى ناصف جيداً وإن كان قد وزعها على الوحدات اللغوية المكونة للبيئة أو الجملة بصورة تكاد تكون إنشائية فيها من انهزل أكثر مما فيها من الجد، فهو يتخيل وحدات الجملة تطارد بعضها بعضاً، وهو في ذلك لا يبتعد عن الحقيقة إذا نظرنا إلى تلك المطاردة باعتبارها ترجمة لحتمية العلاقة أو النظام الذي يجمع بين العلامات اللغوية، «في معاني الكلمات التي سميت باسم معاني النحو»، كما يقول ناصف، «مطاردة: الفعل يطارد الاسم. والاسم يطارد الفعل. يريد أن يتحرك، ويريد الاسم غير ذلك. يريد الاسم أن يتحقق ويثبت أو يستقر ويسكن، ويريد الفعل غير ما يريد الاسم»⁽⁵⁶⁾. لكن كلمات عبد القاهر نفسه أكثر تركيزاً للسلطة وأكثر دقة في تحديد سلطاتها، ثم وجودها المسبق في عقل المتكلم والسامع، أو الكاتب والقارئ كشرط لتحقيق المعنى. ومرة أخرى نتوقف في بعض الإطالة مع كلمات الجرجاني، وهي إطالة عذرنا فيها أننا نحاول تأسيس، أو إعادة تأسيس، تراث عربي أصيل وضعناه طويلاً أمام مرايا ومرايا الحدادة الغربية المقعرة:

«اعلم أن معاني الكلام كلها معان لا تتصور (إلا هي شيتين: الأصل والأول هو الخير، وإذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه عرفت في الجميع، ومن الثابت في العقول والتألف في النفوس ألا يكون خبر حتى يكون مخبريه ومخبر عنه، لأنه ينقسم إلى إثبات ونفي، والإثبات يقتضي مثبتاً ومثبتاً له، والنفي يقتضي منفيّاً ومنفيّاً عنه، فلو حاولت أن تتصور إثبات معنى أو نفي من دون أن يكون هناك

مثبت له ومنفي عنه حاولت ما لا يصح في عقل، ولا يقع في وهم،
ومن أجل ذلك امتنع أن يكون لك قصد إلى فعل من غير أن تريد
إسناده إلى شيء مظهر أو إلى مقدر مضمّر، وكان لفعلك به إذا أنت
لم تترد ذلك وصوت تصوته سواء»^(٥٧) [التأكيد من عندي].

هذا ولا شك، ما يقصده مصطفى ناصف بسلطة النحو موزعة على
الوحدات اللغوية. إن عبدالقاهر يضع النحو في قلب النظم، فهو بالنسبة له
قانون النظم الذي ليس له وجود مادي، ولكنه موجود وجود قوانين الحركة.
هذا القانون هو الذي يمكن النظم من تحقيق معنى مفيد، ويكفيها هنا تقديم
نموذجين تلميحيتين لما تحدث عنه في بداية السطور ونهايتها، فإذا نطق
إنسان لفظة «شجرة» واكتفى بذلك لما تحقق أي معنى لأننا في الواقع لم نتعد
مرحلة إصدار «صوت» أو ضجيج، قد يدل الصوت أو يشير إلى شجرة أو
فكرة الشجرة أو مفهومها، لكنه مضرر لا يحقق معنى مفيداً، ثم إن ذلك
الصوت، في انصراده، وخارج سياق لغوي، لا يفيد في حد ذاته إلا إذا كان
مستداً إلى شيء أو أن شيئاً آخر مسند إليه، من دون ذلك الإسناد لا يوجد
سياق، ومن ثم لا توجد علاقات أيقية أو تنايعية، أما إذا قلنا «الشجرة
خضراء» فقد أدخلنا الصوت في سياق أو بنية كلامية، أي هي نظم لغوي
باعتبارها مبتداً «مخبر عنه»، والشيء نفسه مع لفظة «جاء» في «جاء زيد».

والنحو ليس مجموعة من القواعد الجامدة، ولو كان الأمر كذلك لتساوى
في الفصاحة كل من يتقن العربية ويجيد استخدام قواعدها النحوية،
وعبدالقاهر أول من أدرك ذلك وسط حماسه الشديد للنحو ودفاعه عنه.
وكانت هذه في الواقع أولى النقاط التي نبه إليها في مقدمته لـ دلائل الإعجاز
حيث نبه إلى أن التمكن من علم النحو وحده لا يصنع الفصاحة، وأن النحو
وحيداً لا يفسر إعجاز لغة القرآن، «إذا كانت هذه الأمور»، يتساءل الجرجاني،
«وهذه الوجوه من التعلق التي هي معصول النظم موجودة على حقائقها وعلى
الصحة وكما ينبغي في منثور كلام العرب ومنظومه، وأربابهم قد استعملوها
وتصرفوها فيها... وكانت حقائق لا تتبدل ولا تختلف بها الحال... فما هذا
الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية، وباهر الفضل... حتى أعجز الخلق
قاطبة، وحتى قهر البناء والفصحاء»^(٥٨) إن سر الفصاحة إذن ليس موقوفاً
على إجادة استخدام قواعد النحو، وهذا باب آخر.

وفي مواجهة الهجوم الذي سبق عبد القاهر ضد النحو العربي باعتباره قيداً جامداً على الإبداع رد الجرجاني للنحو اعتباره، مؤكداً أنه ليس قيداً، وأنه على العكس تحرير للمعنى: «إذ قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يثبني نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ولا ينكر ذلك إلا من ينكر حسه، وإلا من غالط في الحقائق نفسه»^(٥٩)، وكان الألفاظ التي لا تعني، مفردة، شيئاً، في حالة لا معنى، تمكن عن طريق النحو، من كشف مكونات كنوزها، إن النحو بهذا المعنى ليس قيداً على الكلمة لأنه هو الذي يترك أسرارها من سجن اللامعنى، ويدافع محمد عابد الجابري عن النحو العربي من منظور آخر:

«فإن النحو العربي كما نقرأه في مرجعه الأول «الكتاب» [لسيبويه]، ليس مجرد قواعد لتعليم النطق السليم والكتابة الصحيحة باللغة العربية، بل هو أكثر من ذلك «قوانين» لفكر داخل هذه اللغة، ويعبارة بعض النحاة القدماء: «النحو منطلق العربية». وهذا ما كان يعيه، تمام الوعي، سائر البيهاتين (إذ كانوا يعدون كتاب سيبويه كتاباً في «علم العربية»: نحواً ولغة وبلاغة ومطلقاً، كتاباً يمكن من استوعبه من الإفساك بمفاسل العلوم البيانية كلها بما في ذلك النكتة»^(٦٠).

ويختتم الجابري دفاعه عن علم النحو برواية لأبي إسحاق الشاطبي عن الفقيه الجرمي الذي قال إنه كل يفتي الناس في شؤون الفكر من كتاب سيبويه لمدة ثلاثين سنة، ثم يورد نص الشاطبي في تفسير قول الجرمي: «فكتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش، والمراد بذلك أن سيبويه وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفها في أفعالها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع... بل هو يبين في كل باب ما يليق به حتى أنه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ في المعاني»^(٦١)، لقد وصلت أهمية النحو في ضبط المعنى وتحديد صحته من فساده إلى درجة استخدامه في أمور الفتوى وشؤون الفقه، وهي ميزة أسر عبد القاهر في أكثر من موقع في كتاباته على إبرازها وتأكيداها.

النظرية اللغوية العربية

ونحن لا نتحدث عن أمور الفصاحة أو البيان، بل عن دقة المعنى وتحديد، وهذا ما قصد إليه عبدالقاهر في كلمات لا يمكن أن تكون، هي الأخرى، أكثر تحديدا وحسما في التعريف بوظيفة النحو: «فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى الفظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضعه في حقه، أو عمل بخلاف هذه المعاملة فأزِيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له»^(٦٧). لاشك في أن ما قدمناه في الصفحات السابقة من آراء عبدالقاهر الجرجاني، وهي آراء لم تكن نملك في معظم الأحيان إلا أن نسوقها بمفرداته نفسها وصياغته لها، فيه الكفاية. وهذا هو الحال مع الرجل، فثراء فكره ووضوحه - برغم كل التداخلات - من ناحية، وإلحاحه على المعنى والاستفاضة في تأكيده، من ناحية أخرى، يفرض عليك كلماته. واعترف أنني برغم كل ما مارسته مع نصوصه من مقاومة، كنت أضعف أمام غواية الإحالة إليه بروحه ونصه، وبرغم ذلك فإن ما قدمناه حتى الآن لا يمثل إلا قدرا ضئيلا جدا مما كتبه الجرجاني.. أقول، بعد كل ما قدمناه، لا أظن أننا بحاجة إلى إعادة تأكيد أن العقل العربي قد عكف منذ القرن الثالث الهجري وحتى نهاية القرن الخامس على تطوير نظرية لغوية لا تختلف في مكوناتها كثيرا عن مفردات علم اللغويات الحديث الذي أسس له فرديناند دي سوسير في بداية القرن العشرين. والاختلافات - وهي قائمة بالقطع - بين علم اللغة العربي وعلم اللغة الأوروبي الحديث خلافاً منطقيّة، فقد طور العرب مدرستهم اللغوية قبل الغرب بعشرة قرون على الأقل. وإذا كان لابد من إلقاء تبة اللوم على أحد، فلا نلوم إلا أنفسنا، فقد استطاع العقل الغربي في ثمانين عاما على أكثر تقدير أن يطور علم اللغة من صورته البسيطة كما قدمه سوسير إلى مذاهب ومدارس يتوه الدارس المتخصص في سراديبها بل متاهاتها، بينما تكاسلنا نحن، لمدة عشرة قرون على الأقل، في رعاية جنين لغوي كان من الممكن أن يكبر ويصبح عملاقا ومُنشأ لأجيال من المذاهب اللغوية. والمؤسسي أيضا، أننا حينما تبهنا إلى أهمية علوم اللغة في النصف الثاني من القرن الماضي أدركنا ظهورنا بالكامل إلى التراث العربي. أعرف جيدا أن البعض سوف يقول: هذا متعلق بالتطور، وقد كان علينا أن نبدا من حيث انتهى الآخرون أو وصلوا. لكن أحدا لم يقل، ولا يستطيع أحد أن يقول،

بالقطعية مع العالم من حولنا أو اعتزاله. لكننا نقول إننا قمنا بعملية خيانة ثقافية حينما ربطنا الاتصال «بالآخر» الثقافي بالقطعية مع «الأنثى» التراثية. وكان من الممكن أن تتم عملية تزواج ثقافي صحيحة بين القديم والجديد، ولكنها، بعكس ما يرى به أستاذنا شوقي ضيف، لم تتم، ثم إن التراث اللغوي العربي لم يكن متخلفاً، أبداً لم يكن متخلفاً، وقد أوردت بعض النماذج التي يقف عندها المرء بكثير من العجب والدهشة، وببعضها يرجع إلى البدايات المبكرة، إلى الجاحظ، في القرن الثالث الهجري، متسائلاً كيف استطاع العقل العربي أن يفرز قضايا ما تزال حتى اليوم مثار الجدل والدراسة، وبعض هذه القضايا ما زالت حية تحوز قبول قطاعات عريضة من الحداثيين الغربيين والعرب على السواء. ولهذا أبتيت مستطفاً من هذا النوع المثير للإعجاب والعجب إلى النهاية، نهاية رأينا في تطوير العقل العربي لنظام لغوي يقوم على نظام علامات تحكمه شبكة علاقات، وما زال لدينا الكثير حول نظرية أو علم اللغة العربي. لكن دعونا نقف عند النموذج التالي لعبد القاهر مرة أخرى - ومن غيره! يشير عبد القاهر، كعادته في الكتابة، تساؤلاً أو اعتراضاً حول النظم وأهمية النحو، هذا الاعتراض الافتراضي يقوم على أن البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط ولم يعرف بالمبدأ والخبر يفترض نظرياً أنه غير قادر على النظم السليم، وبرغم ذلك فتح نراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في علم النحو؛ ثم يتبعون اعتراضهم الأول على الأهمية التي يوليها عبد القاهر للنحو باعتباره أساس العلاقات التي تحكم النظم، وهو ما يرفضه البعض، قائلين:

«إننا نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم والعلماء في الصدر الأول لم يكونوا يعرضون الجوهر والعرض وصفة النفس وصفة المعنى وسائر العبارات التي وضعوها، فإن كان لا تتم الدلالة على حدوث العالم والملم بوحدة الله إلا بمعرفة هذه الأشياء التي ابتدأتموها فينبغي لكم أن تدعوا أنكم قد علمتم في ذلك ما لم يعلموه وأن منزلتكم في العلم أعلى من منزلتهم [وهذا، بالطبع لا يمكن للجرجاني أن يقول به] وجوابنا هو مثل جواب المتكلمين وهو أن الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات؛ فإذا عرف البدوي الشرق بين أن يقول: جاءني زيد راكباً، وبين قوله: جاءني

النظرية اللغوية العربية

زيد الراكب، لم يضره إلا يعرف أنه إذا قال : راكبا كانت عبارة التحوين فيه أن يقولوا في «راكب» إنه حال، وإذا قال «الراكب» إنه صفة جارية على زيد، وإذا عرف في قوله: زيد منطلق: أن زيدا مخبر عنه ومنطلق خير لم يضره ألا يعلم أننا نسمي زيدا مبتداً. وإذا عرف في قولنا: ضربه تاديباً له: أن المعنى في التاديب أنه غرضه من الضرب وأن ضربه ليتادب لم يضره إلا يعلم أنا نسمي التاديب مفعولاً له»^(٦٣).

دعونا نملك سحر هذا النص الثري، كما يقول الحداثيون، لنرى مصدر ثرائه وسر دهشتنا بل إعجابنا الشديد به. ما مفردات هذا النص؟ المقولة الأولى مقولة عبدالقاهر الجرجاني عن الأهمية القصوى للنحو داخل النظم، وهي مسابقة على النص الحالي أو خارجه، ولكنها تحتل موقع الخلقية الظاهرة طوال الوقت. جوهر المقولة أن معنى البنية اللغوية لا يتحقق أولاً، ولا تتأكد صحته ثانياً، ولا يمكن أن يكون قصيحا ثالثاً، إلا عن طريق إعمال قواعد النحو. المقولة الثانية هي مقولة معارضة ترى عكس ما يقول به عبدالقاهر من ضرورة إعمال قواعد النحو كشرط لتحقيق المعنى والتأكد من صحته أو فسادة ثم وصفه بالفضاحة، ودليلهم على ذلك: ١- البدوي الذي لا يعرف قواعد النحو كما وضعها سيبويه، ويرغم ذلك «نراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في علم النحو». ٢- الصحابة رضي الله عنهم والعلماء في الصدر الأول الذين لم يكونوا على دراية بدقائق علم النحو. فإذا طبقنا عليهم مقولة عبدالقاهر - في رأي المعتزتين - فإن المنطق يقول إنهم لم يكونوا على دراية كافية أو علم صحيح بأخص شؤون العقيدة، وإن علماء النحو بالتالي أعلم منهم بذلك، وهذه مقولة مستحيلة بداهة، مقولة يرفضها المعتزتون وعبدالقاهر على السواء. المقولة الثالثة: كيف يريد عبدالقاهر على المناقضة ويؤكد صحة موقفه من النحو كأساس للنظم؟ جواب عبدالقاهر: «إن الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات»، ثم إن الإعرابي البدوي إذا عرف «مدلول عبارة»: جاءني زيد راكبا، وعرف أيضاً الفرق بين: جاءني زيد راكبا وجاءني زيد الراكب فلا يضره ألا يعرف أن راكبا في العبارة الأولى «حال» وفي العبارة الثانية صفة، هل يريد عبدالقاهر هنا أن يقول إن دراسة

كيفية حدوث الدلالة وآلياتها، سواء كانت نحواً أو بديعاً، من اختصاص الدارس المتخصص بينما يكفي البدوي - متحدثاً ومستمعاً - أن تتحقق الدلالة أم أنه يوحى، دون أن يتصنّد، بفكرة النحو العالمي التي يولد بها الإنسان بالقطرة التي ارتبطت باللغة الأشهر ناعوم تشومسكي؟ هل قفزنا قفزة واسعة بعض الشيء؟ دعونا نمض في هك سحر النصّ معاً.

نعم، القول إن تحليل البنية اللغوية والدراية بالعلاقات النحوية التي تقيم العلاقات بين وحدات النظم، قول له وجاهته ومعقوليته، ويمكن، من النظرة الأولى، تقبله تفسيراً لإجابة عبدالقاهر. لكن هك سحر ذلك النص يؤكد أن مصداقية الإحياء بوجود نحو قطري يولد به الإنسان أقوى من مصداقية التفسير المتعجل، ونحن، في محاولة إثبات ذلك، لم نبتعد عن فكر عبدالقاهر نفسه كثيراً. إن موقف عبدالقاهر المبني من النحو موقف لا يقبل النقض، فالتجو عمود النظم وشرط تحقق الدلالة، والبدوي الذي لم يدرس النحو ولم يتعلمه بطريقة منهجية لم يكن لينرك، كما ورد في نص الجرجاني، «أن زيدا مخبر عنه ومنطلق خبر، لو لم يكن لديه إدراك بالعلاقة بين ركني الجملة، فالعملية هنا أكبر كثيراً من قدرته على القول المحدد إن هذا مبتدأ وذاك خبر. العملية هنا عملية إدراك بعلاقة بين ركني الجملة ويشترك فيها المتحدث والمستمع، ولأن ذلك، دعونا نفترض أن هذا الإدراك المسبق لدى القائل والمستمع، أو المرسل والمتلقي، لم يكن موجوداً، وفي هذه الحالة يمكن أن يفهم البدوي أن زيدا في «زيد منطلق» خبر وأن منطلق مخبر عنه، والاحتمال هنا ليس هو اللامعنى بل الفوضى الكاملة. وسوف يتحول ركنا الجملة، كما سيقول عبدالقاهر نفسه قرب نهاية الدلائل، «وكان لفظك إذا أنت لم تزد ذلك وصوت تصوته سواء»، مجرد ضجيج لا أكثر ولا أقل. لابد أن ذلك البدوي قد اكتسب إدراكاً، فيه من اللاوعي بقدر ما فيه من الوعي، بالنحو كسلطة تحقق المعنى وتضبطه، أو أنه يولد، كما قال تشومسكي بعد ذلك بأكثر من عشرة قرون، بنحو قطري مشترك بين البشر جميعاً، نحو يربط اللغة بمعناها العام ويقوم الفرد حسب لسانه المحدد والخاص بتكييفه مع النظام اللساني الخاص بجماعته، مرة أخرى، أعرف جيداً أن حماسي لتأسيس شرعية التراث العربي القديم قد يراه البعض إحدى درجات الجنون!

النظرية اللغوية العربية

ليس معنى ذلك الحماس/ الجنون أنني أقول بصحة رأي تشومسكي اللغوي، فهو اجتهاد نظري قد يقبله البعض ويرفضه البعض الآخر، لكن هذا الحماس/ الجنون يشير في اتجاه واحد فقط: إن العقل العربي مارس كل أنواع الاجتهاد واتواعة، وبعض هذه الاجتهادات كانت حزية بالتطوير والإثراء، وليس التجاهل والاحتقار.

فيما يتعلق بنظرية النظم رأيت أن أتوقف عند عبدالقاهر الجرجاني، وإن كنت سأخطئه حينما أتحول إلى مناطق أخرى في الدراسة. وقد فعلت ذلك، برغم التأثير القوي الذي مارسه عبدالقاهر على الياغيين والنحاة حتى نهاية العصر الذهبي في نهاية القرن السابع الهجري تقريبا، أو بعده بقليل لأكثر من سبب، أولا لاتساع رقعة الموضوع في مواجهة تحديد دقيق وضعته لأهداف الدراسة الحالية، فأنا لا أتصور فردا واحدا يستطيع أن يغطي هذه الرقعة الشاسعة من التراث العربي في مؤلف واحد. ثانيا: عند الحديث عن نظرية النظم فإن اسم عبدالقاهر أول وآخر اسم يرد في ذهن. وفي الوقت نفسه فإن مناطق أخرى ستعوض القصور في هذه المرحلة، وسوف نتاح لنا فرصة الحديث عن أعمال آخرين. ومن يرى أن ما يفعله مؤلف المراسم المتعرة هنا يؤثر الرغبة ولا يشبعها، فأنا لا ادعي أنني أهدف إلى إشباع تلك الرغبة، لأن ذلك جهد يجب أن تتكاتف عليه عقول وليس عقلا واحدا. ويكتفي شرف إثارة الرغبة، رغبة الآخرين، في إعادة قراءة تراثنا العربي في النقد والبلاغة ولو بقليل من الإنصاف وكثير من عدم الانبهار بمنجزات العقل العربي.

المحور الثاني والمحور الراسي / المتعاقبي والاستبدالي

حينما يكتب الحداثيون العرب في اللغوية يحلو لهم عند مناقشة شبكة العلاقات التي تربط بين نظام العلامات المكونة للنص أن يستخدموا المصطلح الغربي، فيتحدثون عن العلاقة الأفقية Syntagmatic التي تربط بين المفردات الواردة داخل البنية اللغوية أو الجملة على أساس التتابع أو التعاقب، كما يتحدثون عن العلاقة الرأسية paradigmatic التي تمثل العلاقة بين اللفظة التي وردت في الجملة

والأنفاظ الأخرى المحتملة التي لم ترد في النص. والواقع أن هذا المفهوم حينما نتحدث عنه في سياق علم اللغويات الحديث يرد عادة إلى اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير، وهذه حقيقة لا تقبل الشك أو التشكيك، وقد قام شكري عياد بتبسيط مفهوم العلاقتين وتقريبهما من فهم المثقف العادي بشكل رائع، بعيداً عن كهنوت الحدائين العرب، فسوسير، كما يكتب شكري عياد، «لاحظ نوعين من العلاقات اللغوية: علاقات راسية تصريفية Paradigmatiques وهي التي تقوم بين الكلمة المذكورة وكل ما يمت إليها بصلة لفظية أو معنوية من كلمات لم تذكر في النص، وعلاقات أفقية تركيبية Syntagmatiques وهي التي تقوم بين الكلمة وسائر الكلمات في الجملة»^(١٤). وشكري عياد هنا يذكر حقيقة تاريخية خاصة بشاشة علم اللغويات الحديث في الغرب الأوروبي فيرده إلى سوسير، لكنه، في كتاب آخر، لا يخفي ضيقه بمصطلحي الأفقي والراسي الحدائين فيقول إنه كلما قرأ عبارة سقوط المحور الراسي على المحور الأفقي تصور أن شيئاً سيقع فوق رأسه!

وهذا ينقلنا إلى مفهوم المصطلحين واستخداماتهما عند الحدائين العرب الذين انساها وراء بريق المصطلح الغربي بصفة عامة حتى حينما يكون قديماً قدم التراث البلاغي والنقدي العربي، قدم النحو والنظم ذاتهما. وسوف أكتفي هنا بنموذجين، الأول لعبدالله الغدامي، الذي يمثل انهيار الحدائين العرب بالمصطلح النقدي واللغوي الغربي في تجاهل واضح للمفاهيم نفسها في التراث اللغوي/النقدي العربي ومصطلحاتها العربية الخاصة. ومرة أخرى نذكر القارئ أن الغدامي في كتابه الخطيئة والتكفير يستعير أدوات إستراتيجية التشكيك في تعامله مع الإنتاج الشعري لشاعر سعودي عربي هو حمزة شعاعة، وليس في سياق عرض لأراء رومان ياكوبسون. يكتب الغدامي:

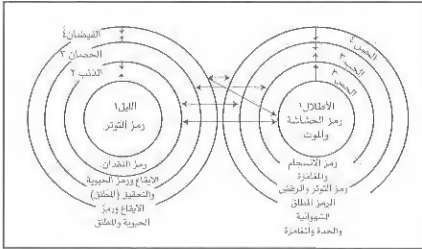
«والنص الأدبي ينشأ حسياً نشوء أي نص لغوي، وذلك بارتكازه على عنصرَي الاختيار والتأليف. وهذه عملية يشرحها ياكوبسون بقوله: (إن اختيار الكلمات يحدث بناء على أسس من التوازن والتماثل أو الاختلاف، وأسس من الترادف والتضاد، بينما التأليف، وهو بناء للتماثل، فهو يقوم على التجاوز) بين الكلمات.

وهذه عملية تحدث في كل حالة إنشاء لغوي. ولكن حالة الأدب تختلف عن غيرها من حيث إنها كما يقول ياكوبسون (تستل مبدأ التوازن من محاور الاختيار إلى محاور التآليف). وهذه أولى وظائف (الشاعرية) في حرف النص عن مساره العادي إلى وظيفته الجمالية، وهي عملية وصفها ياكوبسون بأنها (انتهاك متعمد لسنن اللغة العادية)^(١٥).

إذا تحدثنا عن الجانب اللغوي في السطور السابقة توقفتنا في عجب عند ضرورة الإشارة إلى الناقد الأجنبي، فـياكوبسون، كما يؤكد سياق الإحالة إليه، لم يأت بجديد لم تسبقه إليه قواعد النظم والعلاقات التي تحكم مفرداته على أساس من النحو. ومهما أجهد القارئ ذهنه فلن يجد جديدا يمكن أن يرجع إلى ذلك الاسم البراق. وإذا انتقلنا إلى الجانب الأدبي أو النقدي حيث يعرف الغدامي مصطلح «الشاعرية Poetics» فإن العودة إلى مقولة ياكوبسون التي يرى فيها أن الشاعرية «انتهاك متعمد لسنن اللغة العادية» فلا يتصور عقل أن ياكوبسون يقول في مفهوم انتهاك لغة الأدب للغة العادية وانحرافها عن مسار مجرد الإخبار إلى الإيحاء عن طريق ألوان البديع المختلفة شيئا لم يقله عبد القاهر أو الخطابي أو حازم أو قدامة أو السكاكي. والواقع أن الإحالة إلى أسماء أجنبية براءة مثل ياكوبسون وبارت وتودوروف ودريدا وآخرين في مواقع كان يكشفنا فيها الفكر اللغوي والنقدي العربي ومصطلحه الخاص، نعلم ثابت في منهج الغدامي في التوثيق وفي السياق الحالي، على الأقل، كان يمكن للباحث أن يستخدم مصطلحين عربيين بالنفي البساطة والتحديد في أن هما علاقات «الجوار» وعلاقات «الاختيار» بدلا من المصطلحين المعربين «التعاقبي» و«الاستبدالي». وسوف نرى في الصفحات القادمة مدى مواسمة المصطلحين العربيين لمفاهيم اللغويات الحديثة.

أما النموذج الثاني لانبهار الحدائي العربي بالمصطلح الغربي مقابل تجاهل كامل للمصطلح العربي الذي لا يقل تحديدا للشككة أو تغييرا عنها فهو نموذج من كتاب كمال أبي ديب الرؤى المقتنعة. وحيث إنني سبق لي أن ناقشت موقف أبي ديب من العلاقات الأفقية والرأسية في المراسم المحدبة في إطلالة، فسوف أكتفي هنا ب تكرار الإشارة إلى تعبير الناقد البنيوي - في

ذلك الوقت، فقد تحول إلى التفكير فيما بعد - عن المحورين برسم يفترض أنه توضيحي:



وهكذا يدلا من الإيضاح، أكد الرسم التوضيحي غموض فكرة باللغة البساطة، فكرة لم تكن أولا بحاجة إلى كل هذا التعقيد، ثم إنها، ثانيا، ليست شيئا جديدا على النقد أو البلاغة العربية، والواقع أن النموذجين، نموذج الغدامي الذي يحيل الفكرة إلى اسم أجنبي كلما أمكن ذلك، ونموذج أبي ديب، الذي يتمدد الغموض والإبهام، يشتركان، برغم اختلافهما الظاهري، في هدف واحد، هو محاولة تحقيق درجة من العلمية تسهم في تحقيق «تحديث» العقل العربي. وكأن الفكرة البسيطة إذا اقترنت باسم/أسماء أجنبية تكتسب علمية تفتقدها حينما تذكر مقرونة بالجرجاني أو قدامة أو القرطاجني! ثم كأنها تكتسب هذه العلمية حينما تنعقد لفت النظر إلى صياغتها المراوغة الجديدة، ويتحقق لها عمق العلم، وهو عمق لا يتوافر لنفس الفكرة نفسها واضحة دقيقة محددة عند الجرجاني مثلا!

بعد هذا، يفرض سؤال نفسه فرضنا: هل عرفت البلاغة العربية هاتين العلاقتين بمفهوميها الحديث واستخدمت مصطلحين يمكن الرجوع إليهما؟ ثم، هل أضافت اللغويات الحديثة، على الأقل عند سوسير، الجديد الذي يمكن أن يبرر هذا الانبهار بالفكرة العربية ومصطلحها؟

النظرية اللغوية العربية

في سياق حديثه عن إنجازات عبدالقاهر يرى محمد عابد الجابري في دراسته المتميزة عن «اللفظ والمعنى في البيان العربي» أن إسهام عبدالقاهر في تعميق «الوعي بالذات» لا يتمثل في نظرية النظم، بل «فيما لم يقله صراحة»، أي «فيما كانت تتطوي عليه تحليلاته من معطيات تكشف عن الطابع الاستدلالي للأساليب البيانية البلاغية، وتقيم مطابقة شبه تامة بين نظام الخطاب ونظام العقل». والواقع أن موقف الجابري المبدئي في تلك الدراسة أن النظم اللغوي الذي طوره عبدالقاهر يقابل منطق أرسطو العقلي. ما يهمنا في كلمات الجابري:

«إن إسهام عبدالقاهر الجرجاني في تنظيم العملية البيانية وإمالة الثام من مكوناتها وآلياتها كان إسهاما مضاعفا: فمن جهة توج المناقشات السابقة حول اللفظ والمعنى، ومن جهة أخرى انتقل بهذه المناقشات من مستوى البحث في العلاقة العمودية بين اللفظ والمعنى، إلى مستوى البحث في العلاقة الأفقية بين الألفاظ بعضها مع بعض، والمعاني بعضها مع بعض: بين نظام الألفاظ ونظام المعنى، أو نظام الخطاب ونظام العقل»^(٦٧).

قبل التوقف مع عبدالقاهر الجرجاني الذي تقوم نظريته في النظم، في جوهرها، على شبكة العلاقات والتي لا تختلف كثيرا عما يقوله المحدثون بعد تصفية آرائهم من التداخلات والمراوغة المقصودة والتظاهر بعمق ليس بالعمق، دعونا نتوقف عند القرن الرابع الهجري في محاولة لتحديد نوع أو أنواع العلاقات التي تحكم الضم أو النظم، وقد سبق أن أشرنا إلى كلمات الخطابي (٣٨٨هـ) والتي قلنا إنها تقدم نموذجا أو تعريفا مكثفا وموجزا لنظرية لغة حديثة بأي مقاييس. ولكننا نعود إلى الكلمات نفسها الآن لمناقشة دلالتها من منظور شبكة العلاقات التي تحكم النص، والنص الذي يتحدث عنه الخطابي هنا هو القرآن الكريم الذي يرى أن البشر لا يستطيعون الإتيان بمثله:

«إنما نعدر على البشر الإتيان بمثله لأمور: منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبآفاقها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجود النظم التي

بها يكون انتلافها بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم^(١٨).

دعونا نقدم قراءة ثانية - وقد نعود لقراءة ثالثة - لنص الخطابى الثرى ولنبدأ بـ «الرباط الناظم». لقد حدد الخطابى فى السطور السابقة مفردات نظرية لغوية عربية مبكرة، فقد تحدث عن الألفاظ باعتبارها علامات حوامل للمعنى، ثم تحدث عن «النظوم» التى تجمع بين وحدات النص، وهذه النظوم تحتاج إلى رباط ينظم هذه العلاقات، بعد أن حددنا أهمية «الرباط الناظم» نعود إلى السطور السابقة لنحدد نوع أو أنواع هذا الرباط/العلاقة، فى حديثه عن النظوم - جمع نظم - يعرفها الخطابى بأنها «التي بها يكون انتلافها بعضها ببعض»، أى العلاقة التى تربط بين الكلمة والكلمة بين اللفظة واللفظة داخل البنية اللغوية التى تحكمها قواعد النظم على أساس من النحو. هل يحتاج الأمر هنا إلى تأكيد أو إبراز أن الخطابى يتحدث عن العلاقة الألفية ما فى ذلك أدنى شك، وحينما يكتب الخطابى «فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها» يكون قد قدم ما يعرفه المحدثون والحداثيون بالأفق الاستبدالى. إنه يتحدث هنا عن الاختيار بين المفردات اللغوية، أو بين «الألفاظ الحوامل للمعنى». هذا الاختيار يقوم بالطبع على انتقاء اللفظة المناسبة أو «الأفضل» من بين ألفاظ أخرى متشابهة أو مرادفة أو حتى «متخالفة»، ليس هذا، فى إيجاز مثير للمعجب، جوهر محور الاستبدال^٥ وهكذا، وفى بضعة أسطر فقط يقدم عقل عربى مبكر جوهر محوري التعاقب والاستبدال اللذين يفتتن بهما الحداثيون العرب فى المصادر الأجنبية الغربية^٦.

ولنتوقف عند نص عربى آخر، وهو للباحثين هذه المرة فى إعجاز القرآن، يجمع، على الرغم من إيجازه الشديد، بين المحورين الأفقى والراسى، أو التعاقبى والاستبدالى فى اقتدار شديد، وفى وضوح كامل. فالرجل، فى حديثه عن اللفظة، يؤكد أن للنظم قيمة أدائية يعدها موقع الكلام ومتصرفات مجازي النظام^٧، ثم ينتقل فى بساطة شديدة إلى الجمع بين المحورين الأفقى والراسى أو التقائهما قبل أن يتحدث ياكوبسون أو كمال أبو ديب عن سقوط المحور الراسى على المحور الأفقى لتحقيق

النظرية اللغوية العربية

الدلالة، فحيث إن قيمة اللفظة تحددها وظيفتها وأداؤها داخل النظام فإن ذلك يعني أن عملية الاستبدال التي قد يقوم قارئ أو مستمع أو متلق محل بها أحد المتشابهات أو المترادفات محل اللفظة الموظفة في النص تؤدي إلى فساد المعنى:

« فإن إحدى اللفظتين قد تنفرد في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجده الأخرى - لو وضعت موضعها - هي محل نفاذ، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار» (٦٨).

أليس هذا، في تحديد ودقة كاملين، مفهوم الأفق الاستبدالي كما يقدمه المحدثون؟ إن ما يقوله هنا أعمق مما تشي به كلماته في بساطتها. فلو توقفنا عند بنية لغوية أو نص واخترنا وحدة لغوية ما، ولتكن اسماً أو فعلاً أو صفة... لماذا نذهب بعيداً؟ فلنتوقف عند بيت واحد اخترناه بطريقة مفوية مثل:

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
وتوقفنا عند فعل «أحل» في بداية الشطر الثاني، وكوونا قائمة استبدالية للفعل، على أساس التماثل والتخالف، أو على أساس التشابه والاختلاف، بحيث يكون الشكل الجديد، في وجود الجدول الاستبدالي كالتالي:

شرع	
سمح	
أباح	
أحل	ريم على القاع بين البان والعلم
حرم	سفك دمي في الأشهر الحرم
منع	
حال دون	

ثم قمنا بتجربة عملية، إعمالاً لمقولة الباطلاني العربي القديم، الذي سبق رولان بارت بأكثر من عشرة قرون، وأحللنا لفظة «سمح» من مجموعة التماثل مكان أحل ليصبح الشطر: «سمح بسفك دمي في الأشهر الحرم».

وسألنا إذا كان المعنى قد تغير أو ارتبك أو فسد، من الواضح أننا سنفقد التقارب الصوتي الرائع بين «أجل» و «حرم» في الشطر الثاني، ثم إن المعنى سوف يفقد قدرا كبيرا من قوة تأثيره القائمة على التعارض بين التحليل والتحريم، ثم إن الصورة الأساسية هي الأخرى سوف تصبح أقل تأثيرا، فهذه الفتاة بلغ من سطوة جمالها أنها تملك سلطة التحليل والتحريم. كل هذه أشياء ستختفي مع فعل السماح الجديد، فإذا استبدلنا فعل «حرم» أو «منع» بالفعل الأصلي «أجل»، فسوف يتغير المعنى، وإذا تابعنا التجربة مع أفعال أخرى في الجبلول نفسه فسوف نرى أن الفعل الجديد «في محل ثمار، ومرمرى شراد، ونابية عن استقرار»، تماما كما قال الباقلاني.

مقابل هذا التحديد وهذا الوضوح دعونا ننقل إلى نموذج معاصر يفتقر كاتبه أن يدير ظهره بالكامل للفكر العربي ويحيل قارئه إلى اسم غربي مبهمل. وسوف أتوقف عند النموذج في إطالة ثم أتركه دون تعليق مؤملا أن يحدد القارئ بنفسه إذا كانت الإحالة إلى اسم حدائتي غربي قد حققت أكثر مما حققه ذلك العقل المبدع منذ أكثر من عشرة قرون:

«من أجل النفاذ إلى باطن انفس لسير حركة العلاقات فيه اقترح رولان بارت فكرة (الفحص الاستبدالي - Communication test) وهو أن نقوم بتغيير البادل (الكلمة) بإحلال بدائل عنه من سلسلة الاختيار. لنرى أثر ذلك في ترجمة الجملة، من حيث دلالتها أو من حيث إيقاعها، وقد نفعل ذلك بحركة عكسية بأن نبدأ من (الأثر) المحدث فنغيره لنفحص مدى تجاوب الكلمات مع الأثر البديل. فإذا قلت إمكانات التنوير أو تمتعت فإننا عندئذ نكون أمام تجربة (شاعرية) وهي تمثل (أسفل درجة من إمكانات الاستجابة للاستبدال) وهي التلاحم التام بين (الصوت/الأثر) بحيث يكون تبديل أحدهما تبديلا للآخر.

وحركة الاستبدال تفسر البنية كلها فتغير إحدى الكلمات ينتج عنه تغيير وظائف الأخرى» (٧٠).

دعونا ننقل إلى نموذج ثالث، قيل أن نعود إلى مفكرنا النموذج عبد القاهر. النموذج الجديد لضياء الدين بن الأثير (٦٣٧هـ) الذي يقدم مفهوم التعاقب دون مراوغة أو غموض، ودون كهفوت حدائتي، وقيل أن يقول به ياكوبسون أو بارت أو آخرون من أقطاب الفكر الحدائتي وما يعد الحدائتي الغربي:

النظرية اللغوية العربية

«وهل نشك أيها المتأمل لكتابتنا هذا إذا فكرت في قوله تعالى:
«وقيل يا أرض ابلعي مائك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الأمر
واستوتت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين»، إنك لم تجد ما
وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا لأمر يرجع تركيبها وأنه
لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة
بالرابعة وكذلك إلى آخرها. فإن ارتبث في ذلك فتأمل هل ترى
لفظة منها لو أخذت من مكانها واخرت بين أخوانها كانت لا بأسه من
الحسن ما لبسته في موضعها من الآية»^(٧٩)

ونعود إلى نقطة ارتكازنا، إلى عبدالقاهر الجرجاني والعلاقات التي تحكم
النظم. ولسنا بحاجة إلى إعادة تأكيد أن نظرية النظم لم تحط في تاريخ البلاغة
العربية من بلاغي أو نحوي عربي بالاهتمام نفسه الذي أولاها إياه عبدالقاهر،
وقد قلنا إنها تمثل الجزء الأكبر من كتاب دلائل الإعجاز وقدرا ليس باليسير من
أسرار البلاغة. لقد عكف الرجل على شرح نظريته وتطويرها وتطرق إلى كل
ما يتعلق من أمور، وفي مقدمتها نوع العلاقة/العلاقات التي تحكم الوحدات
المكونة للبنية اللغوية، والقارئ لدلائل الإعجاز سيدهشبه عدد المواقع التي يتطرق
فيها عبدالقاهر إلى النظم، وحيث يكون الحديث عن النظم يكون أيضا عن
العلاقة، الأفقية والعلاقة الرأسية، وإن كان بالطبع لا يستخدم هذه المصطلحات
الحديثة: فالمصطلح المتكرر في وصف العلاقة؛ العلاقة الأفقية، وهي محور
النظم الحقيقي، هو «الجوار» أحيانا و«الضم» أحيانا أخرى. أما المحور الراسي
فالمصطلح الشائع بين البلاغيين العرب هو «الاختيار»، وهو يؤدي المعنى الحديث
بالكامل. ومادام كذلك، فلن نطيل على القارئ ونعبر الجسر نفسه مرارا ومرات،
ويكفي القارئ أن يرجع إلى الوراء بضع صفحات في الفصل الحالي ليقرأ نماذج
مما اخترناه من كلمات عبدالقاهر في معرض الحديث عن النظم ليعرف ما
يكفي ويزيد عن علاقات الجوار والضم التي تحكم وحدات البنية اللغوية. على
الرغم من هذا فسوف نقدم نموذجين مختصرين لمن لا يريد أن يكلف نفسه عناء
البحث في الصفحات السابقة. النموذج الأول يمكن اعتباره نموذج النماذج عند
عبدالقاهر والذي لا يكاد يغفل عنه كتاب في البلاغة العربية منذ قدمه
الجرجاني، وعلى الرغم من إيجازه الشديد فإنه ثري بكل مقومات نظرية النظم،
ولهذا تصدر الصفحات المبكرة من دلائل الإعجاز بل مدخله في الواقع: «معلوم

أن ليس النظم سوى تعليق للكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض. هل يحتاج الأمر إلى تفسير أو إيضاح؟ فالكلمات أو الألفاظ لا يرض بعضها إلى جوار بعض داخل البنية اللغوية، ولكنها ترتبط بعضها ببعض ويحي بعضها بسبب بعض. فالفعل لابد من أن يكون له فاعل والفاعل لابد من أن يكون له فعل، والمبتدأ لابد من أن يكون له خبر، وهكذا، وقد سبق أن قدم عبد القاهر نموذجاً للنظم القادر على إحداث الدلالة هي «قفا نيك من ذكرى حبيب ومئزل» وفوضي الدلالة حينما ينفرد عقد العلاقات الذي ينظم شمل البيت ويعد تقديم الوجدات نفسها دون علاقات، النموذج الثاني أكثر تفسيراً ومباشرة، وإن كان يثير بعض الإحباطات التي يمكن أن نتوقف عندها في عجلة:

«فقد اتضح إذن التضاح لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا

تتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة،

وأن الألفاظ تثبت لها الخصيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة

لعمري التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بعسج اللفظ، ومما

يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع، ثم تراها

بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر» (٧٢).

المحور الأفقي وهو شرط تحقق الدلالة يتمثل في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها. وحينما ينتقل عبد القاهر إلى المقارنة بين اللفظة تستحسن داخل سياق وتنتقل على القارئ أو السامع أو توحشه في موضع آخر يجمع بين المحورين الأفقي والرأسي في جملة واضحة، فالاستحسان والوحشة، بقدر ارتباطهما بالسياق التناوبي، حسب أحكام النحو، يرتبطان أيضاً بممارسة الاختيار السليم في الحالة الأولى والخاطي في الثانية والاختيار، كما قلنا، هو أساس علاقة الاستبدال.

وقد توقف محمد زكي العشماوي عند الكلمات تضمنها لعبد القاهر ليقارن بينها وبين كلمات تقترب منها، فكراً وصياغة، إلى حد كبير لناقد غربي معاصر، هو ريتشاردز الذي يكتب في فلسفة البلاغة:

«إن النغمة الواحدة في أية قطعة موسيقية لا تستمد

شخصيتها، ولا خاصتها المميزة لها إلا من النغمات المجاورة لها.

وإن اللون الذي نراه أمامنا في أي لوحة فنية لا يكتب صفته إلا

من الألوان الأخرى التي صاحبته وظهرت معه، وحجم أي شيء

النظرية اللغوية العربية

وطوله لا يمكن إلا بمقارنتهما بحجوم وأطوال الأشياء الأخرى التي ترى معها. كذلك الحال في الألفاظ، فإن معنى أي لفظة لا يمكن أن يتحدد إلا من علاقة هذه اللفظة بما يجاورها من ألفاظ»^(٧٣).

كل ما أردنا إثباته بهذه الوقفات المطولة والنماذج العديدة أن كل معطيات علم اللغة كما طورده سوسير لم تكن فتحاً جديداً، وكان يجب ألا تكون كذلك، بالنسبة للمثقف العربي لو أنه في حماسه للتحديث وأنهاره بمنجزات العقل الغربي لم يتجاهل تراثه العربي، وقد أثبتنا حتى الآن أن القول إن اللغة نظام أو نسق علامات تربطها شبكة العلاقات من التتابعية والاستبدالية أمر عرّفه العقل العربي وقتله بحثاً وجدلاً لما يقرب من خمسة قرون على الأقل، وأتينا، فيما ناقشناه من نظرية اللغة العربية حتى الآن، كنا نستطيع تطوير المفاهيم التراثية لو أردنا، مستخدمين مصطلحات عربية أصيلة، ونقدم في ختام هذه المرحلة تساؤلاً أرجو أن يستطيع بعض الحداثيين العرب الرد عليه: هل يختلف مصطلحا Syntagmatic و Paradigmatic بمعنى استبدالي أو رأسي عن مصطلحات عربية مثل «علاقات الجوار» أو «الضم» للأولى والاختيار» لثانية؟

اعتباطية العلامة

من المعروف، كما حددنا في الخلفية الأساسية للفصل الحالي، أن أحد الأركان الأساسية في علم اللغة عند سوسير هو اعتباطية أو عفوية العلاقة بين شطري العلامة، الدال والمدلول، وقد أسهبنا في شرح اعتباطية تلك العلاقة. والواقع أن القول بتلك الاعتباطية يمثل اتجاهًا عامًا لا يكاد يشذ عنه أي من علماء اللغة، وعلى الرغم من ذلك الإجماع على اعتباطية العلامة يتوافر في كل لغة مجموعة من المفردات اللغوية تدل أصواتها على مدلولها بطريقة ليست عفوية أو اعتباطية، ودلالة الصوت على المعنى هو ما يسمى في الإنجليزية onomatopoeia، لكن هذه المجموعة تمثل عادة نسبة من الضالة لا تفسد القول بعفوية العلامة اللغوية ولا تبطله. ويبدو أن طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول لم تكن من الموضوعات التي أثارت انتباه البلاغيين

العرب إلا في حالات شديدة الندرة، بالمقارنة بالتوفر على كثير من الموضوعات الأخرى التي تمثل مكونات أساسية في أي نظرية أو علم للغة. ربما يكون أحد أسباب هذا التجاهل لطبيعة العلاقة بين اللفظ والمعنى، أو الدال والمدلول، أن الدراسات حول هذا الموضوع كان عليها أن تنتظر طويلا إلى أن تطور دراسات متعمقة في علم النفس وعلم الاجتماع. وهذه الدراسات النفسية والاجتماعية المتعمقة على وجه التحديد هي ما وفره المناخ الغربي بطريقة جعلت من ظهور الدراسات اللغوية الحديثة أمرا محتوما في نهاية الأمر على يد فرديناند دي سوسير. ومازال تطوير الدراسات اللغوية حتى اليوم يرتبط ارتباطا وثيقا بالدراسات النفسية بالدرجة الأولى والاجتماعية بالدرجة الثانية.

هل معنى ذلك أن اللغويين واليلاغيين العرب لم يتطرقوا إلى طبيعة العلاقة بين الدال والمدلول، وإذا كانت علاقة غموية أم مقننة؟ لقد قلنا إن ذلك تم في حالات شديدة الندرة، ولم نمل إنهم لم يحاولوا ذلك. فقد حظيت باهتمام البعض، وعلى رأسهم، بالطبع، اللغوي الأكبر، عبد القاهر الجرجاني. وإن كانت جهوده حول ذلك الموضوع، هي الأخرى، شديدة الندرة. وقد استطلعنا في الواقع أن نرصد نصين فقط، الأول يشي فقط باعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول ويوحى بها من طرف خفي والثاني يقدم مفهوم تلك الاعتباطية دون غموض أو موازية. النص الأول يرد في أسرار البلاغة حيث يكتب عبد القاهر: «ومما يجب ضبطه في هذا الباب أن كل حكم يجب في العقل وجوبا حتى لا يجوز خلافه، فإضافته إلى دلالة اللغة وجعله مشروطا فيها محال لأن اللغة تجري مجرى العلامات والسمات ولا معنى للعلامة والسمية حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه وخلافه»^(٧٤) [التأكيد من عندي]. ومن باب استتطاق النص بما قد يحتمله - وربما يرى البعض أنه لا يحتمله، وقد يكونون محقين في ذلك - أتوقف عند فكرتين وردتا في نص الأسرار. الفكرة الأولى أن الأحكام نشاط عقلي صرف لا يمكن إضافتها إلى دلالات أو معنى اللغة وأن جعله مشروطا فيها أمر محال. لكن ذلك ربما يرتبط بموقف الجرجاني المبني من رفض الاتجاه اللفظي الذي يرى بأن الأنفاظ تعني في حد ذاتها. دعونا إذن لننتقل إلى الفكرة الثانية التي تقول إنه لا معنى للعلامة أو السمة اللغوية حتى

يعتبر الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه. والفعل «جعل» هو محور تفسيرنا. صحيح أن الجرجاني لم يقل «ما تواضع الناس على دلالة العلامة عليه»، وكان الإيحاء بالعلاقة العنصرية ساعداً سيكولوجياً وأوضح، لكنه أيضاً لم يقل ما «وضعت» أو «خصصت» العلامة دليلاً عليه. وأي من الفعلين كان كفيلاً بالنقطة النهائية لفهوم الاعتيادية، لأن كلا منهما يوحي بوجود نظام للدلالة سابق على وجود البشر.

إن السؤال حول ما إذا كانت العلاقة بين الدال والمدلول معطاة وموضوعة، أو مصنوعة أي من صنع البشر، ليس غريباً على البلاغة العربية. وقد كانت هذه العلاقة من الأمور التي شغلت السكاكي، على سبيل المثال، فيما بعد وفي معرض حديثه عن المجاز عند السكاكي يشير الولي محمد التساؤل المحوري، والذي يرتبط بجديتها عن الموضوع والمصنوع بصورة مباشرة: «فإذا كان هذا اللفظ خاصاً بهذا المعنى فمن هو الذي خص أحدهما بالآخر؟ أي من هو مخصص هذا اللفظ بهذا المعنى؟ هل الذات أو غيبتها؟ وإذا كان غير الذات فهو الله أم غيره من العقلاء»^(٧٥). وبصرف النظر عن أن الولي محمد يخلص في نهاية الأمر إلى أن «السكاكي» يحوم بشكل واضح حول الطبيعة الاعتيادية للدليل اللغوي كما يتحدث عنها اللغويون المحدثون، فإن ما يهمنا في سياقنا الحالي أن عبد القاهر استخدم لفظة «جعلت» في حديثه عن تلك العلاقة مما يعنيه ذلك من رفض الاتفاق المسبق بين طرفي العلامة كنظام سابق لوجود البشر، هل «يعوم» عبد القاهر هنا بشكل واضح حول الطبيعة الاعتيادية بالدليل اللغوي؟ إذا كان عبد القاهر «يعوم» فقط حول الطبيعة الاعتيادية لتلك العلاقة هنا فإنه في الواقع يقترب منها اقتراباً مباشراً، وبطريقة لا تقبل الشك في أنه يتحدث عن تلك الاعتيادية، حين يكتب في دلائل الإيجاز:

«وما يجب إحكامه بعقب هذا الفعل الفرق بين قولنا حروف منظومة وكلم منظومة وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فتعد وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا النظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل أن يتحرى في نظمها لها ما تحرر فلو أن واضح اللغة كان قد قال ريش مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. أما نظم الكلام فليس الأمر كذلك لأنك تقتضي في نظمها آثار

العاني وترتيبها على حسب ترتيب [في نسخة أخرى: وترتيبها على حسب ترتيب] المعاني في النفس. فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعينه مع بعض، وليس هو النظم انذني معناه ضم الشيء إلى الشيء، كيف جاء واتفق^(٧٦) [التأكيد من عندي].

عبدالقاهر الجرجاني هنا لا «يحوم» حول الطبيعة الاعتبارية التي تحكم العلاقة بين طرفي العلامة، بل يشرحها في مفردات لا تقل تفصيلاً أو وضوحاً عن المفردات التي استخدمها سوسير في وصف اعتبارية العلاقة، يبدأ عبدالقاهر أولاً بالتمييز بين «الحروف المنظومة» و«الكلم المنظومة»، أما الكلام المنظوم، وهو ما يتحدث عنه عبدالقاهر في النصف الثاني من السطور التي رجعتنا إليها، فهو «النظم» الذي أوفيناه حقه من الدراسة والمناقشة في الصفحات السابقة ودرجة تكفيها العودة لمناقشته الآن. المهم إنه ضم الوحدات اللغوية في نسق لغوي تنظمه أحكام النحو حتى يحقق معنى. ومن ثم تعود إلى الحروف المنظومة، ويقصد بها عبدالقاهر الحروف التي تتوالى لتشكيل صوتاً ملفوظاً وكلمة مكتوبة مثل «ش ح رة». ولم نذهب بعيداً لماذا لا نستخدم الوحدة اللغوية التي ذكرها الجرجاني وهي «ض ر ب»، إن توالي حروف اللفظة في النطق، كما يقول الجرجاني، أو نظمها بمعنى اجتماعها في سياق ينتج وحدة صوتية في نهاية الأمر، هو مجرد توال أو تتابع في النطق فقط وليس بمقتضى معنى، أي ليس بسبب ارتباطها بمعنى، أي معنى، في حد ذاتها. ثم إن الناكل لها، حينما ضم هذه الحروف/الأصوات لم يفعل ذلك، بداية، لوجود معنى محدد في عقله يربط بينه وبين التلفظ النهائي بالضرورة، ولو أن واضع اللغة - الجماعة المتحدثة في مرحلة إنشاء اللغة كان قد رتب التصويب نفسه بطريقة مختلفة بحيث جاءت الوحدة الصوتية/اللغوية في النهاية في شكل «ر ب ض» لما حدث فساد للمعنى. العلاقة التي تحكم الدال والمدلول، طرفي العلامة اللغوية، إذن، علاقة اعتبارية بالكامل. وقد قلت إن تطوير الفكرة، بل المفردات المستخدمة عند عبدالقاهر الجرجاني، تكاد تتطابق تطابقاً كاملاً مع ما قاله فريديناند دي سوسير بعد ذلك بما يقرب من عشرة قرون، وأقام الدنيا منذ بداية القرن العشرين ولم يقعدا حتى اليوم. نستطيع أن نشير إلى لغويين وبلاغيين عرب آخرين «حاموا» حول مفهوم الاعتبارية، كما فعل الولي محمد في مناقشة آراء السكاكي حول هذا

النظرية اللغوية العربية

الموضوع، وكما فعل شكري عياد، من قبله، في مناقشته للعلاقة بين الدال والمبالول عند ابن جني، لكننا سنكتفي هنا برأي عبدالقاهر الجرجاني لأكثر من سبب. أولها، أننا قلنا منذ البداية أننا لا ندعي أننا قادرون على دراسة التراث البلاغي والتقدي كله، فهذا طموح لا يتدر على تحقيقه فرد واحد، وكل ما نفعله طوال الوقت هو التوقف عند بعض العلامات البارزة في التراث العربي تكفي لإثناع الآخرين بأن العقل العربي قدم ما كان يكفي لتطوير نظرية لغوية ونظرية نقدية متكاملتين. وثانيها هو الإعمال لمبدأ «إذا حضر الماء بطل التيمم». فبعد كلمات عبدالقاهر حول اعتبارية العلاقة، وبصورة لا تقل عصريّة أو عصريّة أو حداثة ومباشرة عن كلمات رائد علم اللغويات الحديث، يصبح من الصعب الانتقال إلى تهويمات واستقراءات وتخريجات «تجوم» حول مفهوم الاعتبارية.

هكذا تصبح جاهزين للانتقال إلى الركن الثاني من أركان النظرية اللغوية العربية.

الركن الثاني: الكلام واللغة

لا تكاد تخلو دراسة لغوية حداثة أو ما بعد حداثة، منذ أن افتتح فرديناند دي سوسير القرن العشرين بدراسته في اللغويات العامة، من مناقشة ثنائية الكلام واللغة (parole, langue) أو الكلام واللسان في تنوعات مختلفة أهمها الكلام والكتابة. وقد تعددت الدراسات وتنوعت، حسب المذهب اللغوي، أو التقدي، وأحيانا الفلسفي، الذي ينتمي إليه المدارس، حول أسبقية أحدهما للآخر، وحول أهمية أحدهما بالنسبة للآخر أيضا. علامات الطريق الأساسية في ذلك هي موقف سوسير اللغوي وموقف البنيويين حول منتصف القرن، ثم موقف التفكيكيين في الثلث الأخير منه. وقد توقفنا عند العلاقة بين الكلام واللغة من قبل، وفي أكثر من موضع في المراسل المحببة، ثم توقفنا عند الثنائية نفسها. في جانب منها فقط، في الفصل الثاني من الجزء الأول من الدراسة الحالية في معرض الحديث عن مفهوم دريدا عن الكتابة كمكمل Supplement للكلام تحت مظلة الحضور والغياب، وكل ما نحتاج إليه في سياقنا الحالي ليس أكثر من إعادة التذكير بجوهر المقولات السابقة، التي سبقتمني إليها، بالطبع، عشرات الدراسات في اللغة العربية. من الواضح أن هناك إجماعا على أسبقية الكلام، أي اللغة منطوقة أو متلفظة أو مكتوبة، على اللغة كعلامات

مكتوبة، وهذه حقيقة لغوية اجتماعية لا يمكن نقضها. من جهة أخرى، فإن الحديث عن أهمية إحداها مقارنة بالآخرى تخضع لبعض التنويعات التي تقترب أحيانا من التعارض ولا تعدى كونها مجرد تنويعات مختلفة في أحيان أخرى، وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك ما يشبه الإجماع على أن اللغة باعتبارها أنساقا وأنظمة هي التي تمكن الكلام الفردي من تحقيق المعنى، وفي الوقت نفسه فإن البعض، اليتويين، على سبيل المثال، يرون أن الحركة من الكلام إلى اللغة تسير في طريق ذي اتجاهين: فالكلام الفردي هو الذي يؤدي إلى تحقيق الأنساق اللغوية العامة الكبرى وهي الأنساق التي تطبق قواعدها على الأنساق الفردية في مرحلة تالية، وفوق هذا وذلك انتهت بعض الدراسات الحديثة إلى القول بوجود نحو عالمي فطري، يقوم الأفراد، كل حسب لسانه، بالتكيف مع قواعده أثناء عملية تفهم اللغوي ويدخلون عليه التفصيليات الجزئية المناسبة. وهذا ما قال به على وجه التحديد اللغوي الأشهر ناعوم تشومسكي. وقد أثبتنا في منقعات سابقة أن مفهوم النحو العام أو العلمي الفطري ثم يكن غريبا على العقل العربي القديم، وأحطنا إلى فقرات يتحدث فيها عبدالقاهر بالفاظ لا يمكن إلا أن تعني الإيحاء القوي بفكرة النحو العالمي، بهذه الخلفية أو هذه التذكرة في أذهاننا تتحول إلى مناقشة ثنائية الكلام/اللغة التي اعتبرناها الركن الثاني من أركان علم اللغة الحديث.

وقبل هذا، هناك تنويه واجب، في حديثنا عن الأركان الثلاثة المكونة نظرية اللغة الحديثة قلنا إن ذلك التقسيم لا يرتبط بخلوط فاصلة بين ركن وآخر، وإن مناطق التداخل أكبر بكثير من مناطق التباعد. وأشرنا أيضا في حينه إلى أن تحديد تلك الأركان كان عملية اجتهاد فردي من جانب المؤلف وليس ملزما لأحد. وعند الانتقال إلى مناقشة أركان النظرية اللغوية العربية فرضت مساحات التداخل بنفسها بشكل سوف يتضح عندما ننتقل إلى مناقشة الركن الثالث، ولهذا قررنا تأجيل الكثير مما كان يمكن إدراجه تحت الركن الثاني إلى الركن الثالث، دون إخلال جوهرى بالتقسيم المبدئي، فكل ما يهمنا في نهاية الأمر أن عناصر اللغويات الحديثة ثلاثة مع تنويعات هنا وهناك. وهي عقوبة العلاقة بين شطري العلامة اللغوية، وثنائية الكلام/اللغة ثم ثنائية اللفظ/المعنى، وهي العناصر نفسها التي نرجو أن يتفق القارئ معنا في نهاية الأمر حول توافرها في النظرية اللغوية العربية.

فماذا كان موقف البلاغيين العرب من ثنائية الكلام/اللغة؟ تأخذنا الإجابة إلى واحد من بلاغيي الجيل المبكر، إلى الجاحظ الذي يتحدث في البيان والتبيين بعبارات لا تختلف كثيراً عما يقول به علماء اللغة المحدثون، بل إنه، في الواقع، يمس في إيجاز جميع الجوانب التي تثير الجدل حول الثنائية في الدراسات اللغوية الحديثة، في النموذج النوثيقي الأول يكتب الجاحظ:

«وتأتي الدلالة (الصوتية) بوصفها آلة لللفظ، فهي الجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، أي لا يمكن أن يتحقق كلام في أي شكل من الأشكال، أو مستوى من المستويات في النثر أو الشعر، إلا بظهور الصوت، ولن تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف، وحسن الإشارة باليد والرأس؛ فهناك تعاون وتكامل بين الجانب الصوتي والجانب الحركي في الإشارة، فتمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة هو جماع الدلالة الحقة»^(٧٧) [التأكيد من عندي].

في السطور السابقة يركز الجاحظ على العلاقة بين العلامة الصوتية والدلالة باعتبار الأولى شرطاً لتحقيق الثانية، فالدلالة الصوتية هي آلة اللفظ، أي الدلالة في منشئها، تتحقق في اللفظ منطوقاً أو متلفظاً به، ولهذا لا يمكن أن يتحقق كلام في أي شكل من الأشكال إلا بظهور الصوت، أي بالتعبير عنه صوتياً. لكن الجاحظ لا يتوقف هنا، إذ ينتقل إلى جزئية بسيطة حولها البعض في القرن العشرين إلى ركن من أركان نظرية الاتصال، وهو القول إن نظام التوصيل ونظرية الاتصال لا تعني الاقتصار على العلامات اللغوية، متلفظة أو مكتوبة، فالعلامات قد تكون غير لغوية بالمعنى المحدود، فقد تكون إشارة باليد، أو إيماء بالرأس، أو حركة بالجسم، أو تعبيراً بسمات الوجه، أو لحظة صمت، أو نوع الزئ وقد طور رولان بارت مفهومه عن التوصيل إلى أبعد قد يراها البعض مبالغاً فيها أو غير مقبولة. وهذا ما يتحدث عنه الجاحظ في بساطة بالغة دون أي تعقيدات حديثة يضيفها حديثا القرن العشرين؛ إذ يربط بين الكلام الذي تحبته الحروف - أي الأصوات - وبين «حسن الإشارة باليد والرأس»، فـ «هناك تعاون وتكامل» بين الجانب الصوتي والجانب الحركي في الإشارة؛ فتمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة هو جماع الدلالة الحقة». هل يختلف مفهوم الجاحظ هنا عن مفهوم

الكلام باعتباره أصواتاً كثيراً عن مفهوم علماء اللغة من ناحية الجوهرية نعم، هناك اختلافات تصنيفية كثيرة بعد أن تحولت دراسة اللغويات في القرن العشرين إلى علم معقد له أصوله وقواعده وقوانينه، على حين نتحدث نحن عن جنين يؤكد التكون في التراث البلاغي العربي؛ تطور على يد علماء اللغة المحدثين والمعاصرين إلى كيان كامل النمو، المهم أن البلاغة العربية حملت جنبنا مؤكداً كان من الممكن أن نرعه نحن لنمكنه من الوصول إلى مرحلة النضج والاكتمال.

ثم يتحول الجاحظ، إكمالا لثقي الثانية، إلى الكتابة: «والدلالة (بالخمل) تمثل جانباً في عملية الكشف والبيان؛ فالقلم أحد اللسانين، بل هو أبقى أثراً، وأوسع انتشاراً، ذلك بأن اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه ولا يجاوزه إلى غيره»^(٧٨). إن التوقف عند هذه الكلمات للجاحظ يؤكد أننا نتحدث عن نظرية لغوية لا يمكن أن تكون في مرحلة «جنينية Embryonic»، بل نتحدث عن وليد مكتمل جاء إلى العالم منذ أكثر من عشرة قرون ولم تتح له فرصة النضج أو الانتقال إلى مرحلة الفحولة. كلمات الجاحظ عن القلم والكتابة باعتبارها الطرف الثاني في الثنائية لا تحتاج إلى شرح أو تفسير. لكنها تحتمل الكثير من القراءة والتفسير. من المعروف، على سبيل المثال، أن القرن العشرين شهد جدلاً ليس بالقليل حول المقاترة بين الكلام parole واللسان langue فيما يتعلق بوضع كل من المرسل والمستقبل، فالمرسل والمستقبل في حالة الكلام يشتركان في الوجود الزماني والمكاني؛ فالمتكلم يرسل رسالته إلى مستقبل يشترك معه في الزمان والمكان. وقد كان هذا الاشتراك موضوعاً لجدل جوهري حول حرية العلامة في تحقيق الدلالة، والقيود التي قد يفرضها هذا الاشتراك في الزمان والمكان على قدرة المدلول على مراوغة الدال، ومن ثم على تعدد الدلالة، وهي الوقت نفسه لم تعدم النظريات اللغوية الحديثة عدداً من الإيجابيات التي توفرها المباشرة في عملية الإرسال والتلقي الكلامي. في المقابل، تعددت الآراء وتباينت حول إيجابيات وسلبيات الرسالة المكتوبة في غيبة كل من المرسل والمستقبل الأصليين، وفي حضور مستقبل يتعدد بتعدد قراء النص الواحد المكتوب، ثم ما قد يتبع ذلك من سوء تفسير الرسالة أو

إساءة قراءتها أو لا نهائية دلالتها، أو، على الأقل، تعدد دلالتها. وتلك جميعها مداخل مستمرة للجدل في الدراسات اللغوية والأدبية في القرن العشرين. ويمبر الجاحظ في سطور قليلة عن وعي ميكس بكل ما تمثله الثنائية من احتمالات للجدل الذي انشغل به فكر القرن العشرين، فالى جانب أن الكتابة، يعكس الكلام، أبقى أثره، أي لا تختفي مع غياب المرسل الأول للرسالة، يشير الجاحظ إلى أن القلم مطلق على القريب الحاضر الذي حل محل المستقبل الأول الذي أصبح في القراءة الأخيرة للرسالة المكتوبة غائبا، وهكذا يتعدد المتلقون بتعدد عمليات قراءة النص، بينما يتوقف عدد متلقي الرسالة الكلامية عند متلق واحد. وكان غياب الرسالة والمرسل والمستقبل في حالة الكلام يتحول إلى حضور مكرر للرسالة والمرسل والمستقبل في حالة اللغة المكتوبة.

وتاريخ البلاغة العربية حافل بالنماذج التي تؤكد أن رأي الجاحظ حول أسبقية الكلام أو القول لم يكن رأيا وحيدا جاء عفوا أو مصادفة، فابن جني كان أكثر اهتماما من الجاحظ، كما يرى شكري عياد في قراءته لبعض آرائه في اللغة والإبداع، بالجوانب الصوتية مما دفعه إلى تأليف كتاب خصصه لصوتيات اللغة العربية وهو سر صناعة الإصراب. ويستعرض عياد بعد ذلك المراتب الثلاث التي تنقسم إليها الدلالة، وهي اللفظية والصناعية والمعنوية ليخلص إلى: «وهذا التقسيم يشبه إلى حد ما تقسيم اللغويين المحدثين لدرس اللغة إلى صوتيات وصيغ وتراكيب»^(٧٩).

ونعود كما فعل دائما إلى عبد القاهر الجرجاني وكأنه المرجع الثابت الذي نستطيع أن نقم في ضوئه معظم المقولات اللغوية التي سبقته والتي جاءت من بعده، وسوف يحدث الشيء نفسه، وربما ينمط أكثر تكرارا، عند التحول إلى مكونات النظرية الأدبية في الفصل التالي.

في موقع سابق، وفي معرض الحديث عن اعتبارية العلامة، أحلنا القارئ إلى كلمات مماثلة لعبد القاهر الجرجاني لن يجد القارئ صعوبة في إعادة قراءتها من منظور ثنائية الكلام/اللغة التي نحن بصدها. وإذا كانت الكلمة منطوقة أو متلفظا بها هي البداية الحقيقية لاستخدام الوحدة اللغوية الكلامية داخل سياق أو نظم كأداة للتوصيل، ثم إن العلاقة بين اللفظ والمعنى، بين الدال والمدلول، بين الصوت «ضرب» وقيل الضرب، صغوية، فلا بد أن للكلام عند عبد القاهر أولوية مقارنة بالكتابة، وقد تتبعنا معا كيف توصل

عبدالقاهر قبل حداثي القرن العشرين هو الآخر، إلى أن البيدوي الذي لم يكن يعرف الكتابة واستخدام الأصل لا يد أنه كان يملك إدراكا قطريا بالتواعد العامة للنحو، ولم يكن بحاجة حشيقية إلى انتظار تعلم الكتابة حتى يكتب عيا بأحكام النحو العامة.

لكننا، في تعاملنا مع الجرجاني، لا يمكن أن نكتفي بقراءة ما بين السطور، أو مجرد إطلاق النص بما قد يحتمله، ففكره اللغوي أكثر نضجا من أن يكتفي معه بالإطلاق أو المظنة. في معرض الحديث عن العلاقة بين الدالة ومصورها الذهنية⁽⁸⁹⁾ المسبقة في العقل - وهذا الموقف الغالب عند البلاغيين العرب - يتحدث عبدالقاهر بما يفيد صراحة أسبقية الكلام أو القول:

«والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلام أن توالى ألفاظها في المنطق، بل أن تتأسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل، وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالي الألفاظ في المنطق، بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعينه مع بعض، وأنه نظير الصياغة والتجوير والتزييف أنواع من التوشية والنقش وكل ما يقصد به التصوير»⁽⁹⁰⁾.

وعلى الرغم من أن السياق هنا ليس سياقاً خاصاً ويصوّر مباشرة بشائية القول/اللسان. أو الكلام/اللغة، إذ إن ما يشغل الجرجاني هو موضوع النظم من ناحية، والاتفاق بين الدالة اللغوية والصورة العقلية من ناحية ثانية، فإنه لا يترك مجالاً للشك في أن النظم هنا هو نظم الكلام أو القول؛ فليس «الغرض بنظم الكلام هنا أن توالى ألفاظها في المنطق»؛ ثم: «كيف يتصور أن يقصد به بالنظم» إلى توالي الألفاظ في المنطق؟ وهو ما يؤكد عبدالقاهر بعد ذلك بصفحات قليلة في دلائل الإعجاز، وإن كان السياق هذه المرة سياق العلاقة بين اللفظ والمعنى: إن «اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلام تقترب في المنطق، بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداً لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب المنطق بهذه قبل المنطق بتلك»⁽⁹¹⁾ [التأكد من عندي]. إن اللفظة الغالبة في الجملة القصيرة السابقة هي «المنطق» تأكيداً للقيمة «الصوتية» للغة وأن اللغة التي يتحدث عنها عبدالقاهر هي الكلام أو القول.

ويحلينا محمد عبدالمطلب في دراسته القيمة عن «مفهوم العلامة في التراث» إلى نص «صبح الأعشى» للقلقشندي الذي يميز فيه بشكل واضح بين العلامة متلفظة أو كلاماً أو قولاً والعلامة «منقوشة» أو مكتوبة، وحيث لا يترك مجالاً للشك في أولوية الكلام، وهذا ما يبرزه عبدالمطلب منذ البداية، وقبل الإحالة إلى النص التراثي: «وتتحقق أهمية الخط في مجال البيان»، يكتب محمد عبدالمطلب: «من أن وضعه جاء تالياً للفظ لأن اللفظ هو دلالة المعنى الحاصل في الذهن - وهو قول يتفق عليه غالبية البلاغيين العرب - ثم يحلينا عبدالمطلب بعد ذلك النص التراثي الصريح:

«فإذا أردت إيتاظك أحداً على ما في ذهنك من المعاني تكلمت بالفاظ وضعت لها؛ وإذا أردت تأدية الفاظ لذلك الإيتاظ إلى أحد بغير شفاء، نقشت النقوش بالموضوعة لتلك الألفاظ، فيطالع تلك النقوش، ويفهم منها تلك الألفاظ، ومن الألفاظ تلك المعاني. ولا علاقة معقولة بين المعاني والألفاظ على الأمر العام، ولا بين الألفاظ والنقوش الموضوعية، ومن ثم جاء اختلاف اللغات والخطوط، كالعربية والرومية وغيرهما»^(٨٧) [التأكيد من عندي].

إن نص القلقشندي يفصل هذه المرة أننا في حقيقة الأمر، عند حديثنا عن المعنى «المركوز» في العقل والذي تجيء العلامة للتعبير عنه، نتحدث عن علامتين لغويتين وليس علامة واحدة، هناك أولاً العلامة الصوتية، وهذا ما يعنيه بـ «تكلمت بالفاظ»، وهو عكس تحقق الدلالة «بغير شفاء»، هذه العلامة الصوتية هي أداة التدليل الأولى والأسبق على المعاني القائمة والموجودة في العقل، فإذا شئنا التعبير أو التدليل عن ذلك المعنى بغير شفاء، نقشنا النقوش الموضوعية لتلك الألفاظ، وهي مرحلة تالية في الأهمية الصوتية. وفي السطور الأخيرة من النص يتحدث القلقشندي عن اعتبارية العلاقة بين طرفي العلامة، سواء كانت قولاً أو كتابة، بمفردات تسبق مفردات رومان ياكوبسون بقرون عدة، فهو يقول بعدم وجود علاقة معقولة - أي تفرضها سلطة عقلية - بين الألفاظ والمعاني، وهذا ما يفسر الاختلافات بين اللغات منقوشة أو مكتوبة. وقد هاته بالطبع أن مبدأ اعتبارية العلامة نفسه ينطبق بالقدر نفسه على اللغات متطوثة وبغير شفاء، فالعربية تختلف هنا أيضاً عن الرومية.

«ربما يستحسن أن نضيف نموذجا أخيرا، متأخرا بعض الشيء في فترة العصر الذهبي للبلاغة العربية، الإجابة هنا إلى كلمات السكاكي عن علم المعاني في كتابه: **مفتاح العلوم**. في معرض الحديث عن خواص تراكيب الكلام ودورها في تحقيق المعنى يكتب سراج الدين يوسف بن أبي بكر السكاكي: «وأعني بتراكيب الكلام: التراكيب الصادرة عن له فضل تمييز ومعرفة، وهي تراكيب اللفاء، لا الصادرة عن سواهم... وأعني بخاصية التركيب ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب جاريا مجرى اللازم له»^(٨٢). يحدث في أحيان كثيرة أن يستخدم البلاغيون العرب مصطلح «الكلم» بمعنى الوحدات اللغوية دون تحديد إذا كانوا يقصدون بذلك الوحدات اللغوية متلفظة أو مكتوبة. أما المصطلح الذي يستخدمه السكاكي في النموذج السابق فهو «الكلام» محمدا إياه بالكلام منطوقا وليس مكتوبا، إذ يستخدم لفظ «سماع» مما يحدد بصورة قاطعة أي كلام يعني.

وكما حدث في مواقف سابقة، قمنا بالتوقف عند عدد محدود من الإحالات إلى التراث العربي، ولم ندع أننا قادرون على إحالة أكثر شمولاً واتساعاً. والنماذج القليلة التي توقفنا عندها تؤكد أن ثنائية الكلام/اللسان أو القول/اللغة التي توقف عندها سوسير، وعدد غير قليل من علماء اللغة المحدثين في السنوات التالية في القرن العشرين، لم تكن غريبة بالكامل عن وعي العقل البلاغي العربي الذي اقتررب كثيرا من الثنائية بتفاصيل تكاد تتطابق أحيانا مع التفاصيل الحديثة، حتى عندما كان السياق الذي ترد فيه تلك الآراء سيافها مختلفا عن سياق تلك الثنائية. وبهذا نستطيع القول بأن الركن الثاني من أركان علم اللغة السوسيري، الذي أعطيت له كل تلك الأهمية في القرن العشرين، كان متحققا في الدراسات اللغوية العربية منذ بضع مئات من السنين.

الركن الثالث: ثنائية اللفظ / المعنى

تحت هذا الركن الثالث من النظرية اللغوية العربية ترد مفاهيم ومصطلحات لغوية ونقدية يقف الإنسان أمامها في كثير من الإعجاب والعجب، الإعجاب لأن البلاغي العربي ابتداء من الجاحظ في القرن الثالث الهجري، بل ابتداء بسببويه في القرن الثاني وانتهاء بالسكاكي، أي

النظرية اللغوية العربية

مطلع القرن السابع، لم يقل جانباً واحداً من جوانب علم اللغة الحديث كما قدمه سوسير. في بداية القرن العشرين الميلادي، بل إن الكثير من التطورات الجذرية التي أدخلها التفتكيون بقيادة دريدا فيما بعد على علم اللغة السوسيري كان هؤلاء البلاغيون العرب قد تطرقوا إليها بطريقة أو بأخرى. ليس معنى ذلك أننا هنا ندعي أن العقل العربي قد سبق العقل الأوروبي الحديث إلى تطوير مدرسة لغوية حديثة، بل معناه، للمرة المئة، أن الدراسات اللغوية العربية قدمت الكثير مما كان يمكن، لو تمت غربلته وتفتيته بعيداً عن الإحساس بدونية العقل العربي، أن يطور إلى علم لغويات عربي عصري، ربما كنا ساعتهما قد سبقنا به الآخرين. صحيح أن مكونات تلك النظرية اللغوية تأثرت عبر خمسة قرون من التطوير والممارسة بحيث يتعذر أن نضع أيدينا على بلاغي عربي بعينه أو عصر بعينه لنقول إن هذا أو ذاك قدم نظرية متكاملة، كما فعل سوسير فيما بعد. لكننا نذكر أن ما نتحدث عنه هنا يرجع إلى القرن الثامن الميلادي تقريباً! هل نحتاج إلى التذكير بما كانت عليه حالة الفكر الأوروبي في القرن الثامن الميلادي، وحتى نهاية القرن الثالث عشر؟ وأن الرأي السابق يقبل النقض دون أن نتهم بالبالغة أو التعصب الأعمى للتراث النقدي العربي، إذ إن عبد القاهر الجرجاني بمفرده يقدم دراسات لغوية ونقدية لا تقل أهميتها في تاريخ الفكر العربي عن أهمية ما أنتجه أي عقل غربي حديث، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة يمكن دراستهما باعتبارهما مدرسة لغوية ونقدية لا تقل في تكاملها عن مدرسة سوسير في اللغويات العامة. وصحيح أننا لا نستطيع أن نقول أننا نتفق مع كل مفردات تلك النظرية اللغوية المجمع، ولكن من الذي قال أننا يجب أن نتفق معها أصلاً؟ يكفي أن تأثير فينا الرغبة في الاختلاف لتكتسب ثقل النظرية. ثم من قال إن علم أو علوم اللغة الأوروبية الحديثة لا تعرف الاختلاف؟

أما مثار العجب فلأننا أردنا ظهورنا لهذا كله وهولنا وراء المفاهيم الغربية بمصطلحاتها. لم نتوقف كثيراً إلا بفرض القراءة لتأسيس شرعية المذاهب الحداثية الغربية في أحسن الأحوال، عند تلك الأفكار العربية المتقدمة والبالغة العصرية عند العديد من البلاغيين العرب الذين عكفوا في حقيقة الأمر، بصرف النظر عن درجات الاتفاق ودرجات الاختلاف،

على تطوير نظرية لغوية عربية عريضة وثرية، وفوق هذا وذلك، تؤسس لضرعية ذلك التراث في حد ذاته بعيدا عن التبعية، كيف لم نتوقف بما فيه الكفاية عند الكلمات التالية لعبدالقاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، أي القرن الحادي عشر الميلادي تقريبا حينما كانت أوروبا غارقة في ظلام الجهالة، قبل أن تلهث وراء مفاهيم تعدد الدلالة ولانهاية الدلالة، ومراوغة الدلول للدال في سياقاتها الغربية؟ وكلمات عبدالقاهر في أسرار البلاغة هي مثار إعجاب المؤلف وعجبه، في معرض الحديث عن وظيفة التمثيل حينما يؤدي إلى غموض مقبول، ومراوغة لا تفسد المعنى يكتب عبدالقاهر:

«إن المعنى إذا أتاك ممثلا فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوّجك إلى طلبه بالفكرة، وتحريك الخاطر والهمة في طلبه. وما كان منه ألطف، كان امتناعه عليك أكثر، وإبائه أظهر، واحتجاجة أشد، ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاينة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف...»

فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجواهر في الصدق لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه، وكأنه عزير المحتجب لا يدرك وجهه حتى تستأن عليه، ثم ما كل فكر يهتدي إلي وجه الكشف عما اشتمل عليه ولا كل خاطر يؤقن له في الوصول إليه فما أحد يفلح في شق الصدفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له،^(٨١)

هل يختلف ما يتحدث عنه عبدالقاهر هنا، منذ ما يقرب من ألف سنة، عن المفاهيم والمصطلحات البراقة التي لهُث البعض وراءها لما يقرب من ربع قرن الآن، مثل تعدد الدلالة، ومراوغة المدلولات للدوال، والفرافات التي يملأها مع كل قراءة جديدة للنص الإبداعي؟ بل، هل يختلف عن المقولات الجوهرية للنقد الجديد أو التحليلي من تأكيد أهمية التجسيد في مقابل التثريب والمباشرة؟ فالمعنى الجيد، عند عبدالقاهر، ليس هو المعنى المباشر، بل ذلك المعنى الذي يحوّجك أو يضطرك للتفكير فيه؛ المعنى الجيد هو الذي يتحدى الفهم السريع بامتناعه على القارئ أو المتلقي، وكما عانى القارئ في طلب المعنى كان ألطف،

المعنى الجيد هو المعنى المميز الذي لا يسمح للقراءة الساذجة أو القارئ السطحي بأن يدخل عليه، فليس كل إنسان قادراً على شق صدقة المعنى، «وليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له»، إننا لا نستطيع أن ندعي أن ما يقوله عبد القاهر هنا يقترب من لاثباتية الدلالة التي يقول بها التفكيكيون، ولكنه بالقطع يتحدث عن تعدد الدلالة، ومراوغة المدلول للدال، وهما يحتلان موقع القلب في النقد الجدي والنقد الحداثي من بعده. ليس هذا أيضاً جوهر المصولة الضاربة في أعماق الدراسات اللغوية في القرن العشرين، والتي ترى أن التطور الأخير للعلامة اللغوية بالدرجة الأولى في الابتعاد المستمر عن الشفافية، حينما كانت اللغة التي منحها الله للبشر، كما يقول فوكو، تضرب بجذورها في العلامات، ولم يكن ممكناً الفصل بين الدال والمدلول،^(٨٤) كيف يمكن أن يفسر القارئ غير المتنبه بإنجازات العقل العربي رأي عبد القاهر في الكتابة: «وإذا نظرت إليها وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنها إثبات المعنى أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول ذوق طريق اللفظ، ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم: هو كثير رماد القدر، وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القري والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ؟»^(٨٥).

لكننا بهذا نكون قد بدأنا موضوعنا من نهايته، ووصلنا إلى النتائج قبل المقدمات، تماماً كما فعلنا في مرات سابقة بسبب حماسنا لتأسيس شرعية الماضي التراثي. نعد إذن إلى المقدمات التي ستعيدنا حتماً إلى نقطة البداية نفسها، حيث نناقش معظم قضايا علم اللغة الحديث ونقرأها معاً في قلب الكتابات التراثية العربية.

لقد كانت ثنائية اللفظ/المعنى من الموضوعات القليلة التي لم يستطع بلاغي واحد ألا يتوقف عندها. فقد انشغل البلاغيون والنحويون، ابتداءً من سيبويه في القرن الثاني للهجرة، بالعلاقة بين اللفظ والمعنى ونوع هذه العلاقة والضوابط التي تحكمها، واللفظة في أفرادها وفي ضمها مع أخريات أو نظمها، ثم الجدل الذي لم يتوقف بين اللغة والعالم الخارجي من ناحية، واللغة والفكر من ناحية ثانية.

أول ما نتوقف عنده في ثنائية اللفظ/المعنى هو استخدام اللفظ على الحقيقة واستخدامه على المجاز، إذ إن الاستخدام الثاني المجازي للفظ هو محور اهتمامنا في الدراسات اللغوية عامة، وفي الأدب خاصة، ويعرف محمد عابد الجابري المستخدمين في تبسيط شديد: «اللفظ من جهة المعنى الذي استعمل فيه ضمن سياق معين صفتان: حقيقة ومجاز؛ فاللفظ يكون على

«الحقيقة» إذ دلّ على المعنى المتعارف عليه بالاصطلاح اللغوي، ويكون على «المجاز» إذا كانت هناك قرينة تجعله يدلّ على معنى آخر معناه المتعارف عليه بالاصطلاح اللغوي»^(٨٧).

استخدام اللفظ على الحقيقة يعني استخدام اللفظ فيما وضع له من معنى، وتلك هي المواضعة اللغوية في أبسط تعريف لها. فاللفظ يصف موضوعاً تقصده لذاته وفي ذاته دون تجاوز. وقد تكفل عبد القاهر بتقديم تعريف عربي مبكر، أكثر تفصيلاً وأكثر تحديداً من أي تعريفات يشغل بها اللغويون المحدثون. ففي معرض تقديمه لحدي الحقيقة والمجاز «في أسرار البلاغة» يعرف حد الحقيقة في الكلمات التالية:

«واعلم أن كل واحد من وصفي المجاز والحقيقة إذا كان الموصوف به الفردي غير حده إذا كان موضوعاً به الجملة؛ وأنا تحدّثها في المقصود: كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح - وإذا شئت قلت: في مواضعة - وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره فهي حقيقة... وإن أردت أن تمنّحن هذا الحد فانتظر إلى قولك: «الأسد» تريد به اتسيع فإليك تراء يؤدي جميع شرائطه لأنك قد أردت به ما يعلم أنه وقع له في وضع واضح اللغة. وكذلك تعلم أنه غير مستند في هذا الوقوع إلى شيء غير السبع أي لا يحتاج أن يتممور نه أصل أداء إلى السبع من أجل التباس بينهما وملاحظة»^(٨٨).

أي أنك إذا قلت: «رأيت أسداً» وتقصد الدلالة على الحيوان الذي اصطلح على تسميته بالأسد فإن العلاقة بين لفظ الأسد والحيوان، أو بين اللفظة ومعناها، أي بين الدال والمدلول علاقة مواضعة «لأنك قد أردت به ما يعلم أنه وقع له في وضع واضح اللغة»، والمواضعة، أي استخدام الألفاظ على الحقيقة، هي لغة الإخبار ولغة العلم، حيث يهدف مرسل الرسالة إلى توصيل رسالته بالمعنى نفسه الذي تواضعت الجماعة المنحدقة للغة عليه. وهذا أيضاً هو المعنى المعجمي الذي يوصف في الإنجليزية والفرنسية وفي اللغويات الحديثة بـ denotative.

أما إذا قلت: «رأيت أسداً» وكنت تقصد وصف شجاعة مقاتل، أو أن تلك هي الرسالة التي فهمها المستمع، فإن لفظ «أسد» هنا مستخدم على المجاز، فالمجاز، كما يعرضه عبد القاهر بالدقة السابقة نفسها، هو «كل كلمة أريد بها

النظرية اللغوية العربية

غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول...، وإن شئت قلت: كل كلمة جزئت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعها للملاحظة ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز»^(٨٩).

وسوف نتوقف طويلاً عند المجاز في اللغة العربية باعتباره صلب النظرية اللغوية العربية بعد قليل، ثم نتوقف عنده مرة أخرى وفي إطالة أكثر عند الحديث عن النظرية الأدبية العربية في الفصل التالي. لكننا نتوقف الآن عند ثنائية اللفظ والمعنى في البيان العربي والقصايا التي ارتبطت بها وأثارها، وهي قضايا نتفق على أنها أيضاً من المكونات الأساسية لعلم اللغة الحديث في القرن العشرين، وفي هذا نرجو القارئ أن يفقر لنا عبورنا للجسر الواحد أكثر من مرة، إذ إننا سنتعرض ولا شك لبعض القضايا التي سبقت الإشارة إليها في الركنين السابقين في قضية اللغة، وعذرنا أن التداخل المستمر من طبيعة نظرية اللغة نفسها.

لا جدال حول أن الجاحظ كان أول بلاغي أو ناقد عربي أثار جدلية اللفظ والمعنى، فهو، كما يرى شوقي ضيف، «أول من أثار مشكلة اللفظ المعنى إثارة واسعة، فقد تحدث عنها في كتبه أحاديث كثيرة، وهو في كل شق من هذه الأحاديث يرفع من شأن اللفظ ويغض من شأن المعنى، بل إنه ليستقله إسقاطاً، فليس له فضل ولا مزية، ولا قيمة فنية»^(٩٠) [التأكيد من عندي]. وقد اخترنا أن تبدأ برأي معاصر حتى نضع أدينا على جوهر الجدل الذي بدأه الجاحظ في القرن الثالث الهجري وظل حياً نشطاً، ليس فقط طوال العصر الذهبي للبلاغة العربية، بل أثناء عصور الانعطاط التي تلت ذلك، باعتبار الجاحظ أحد أقطاب المدرسة اللفظية التي انتهت بالشعر العربي والنشاط النقدي المصاحب إلى الاهتمام بزخرف اللفظ والمحسنات أكثر من الاهتمام بالمعنى، أي أن الجاحظ، بمعنى محدود، كان مسؤولاً عن بداية الانعطاط. نقد آثار الجاحظ، في تلك السنوات المبكرة، جدلاً قسم البلاغيين العرب إلى معسكرين، معسكر اللفظيين الذين مهدوا في نهاية الأمر لعصور الانعطاط، ومعسكر «النظاميين»، وعلى رأسهم عبدالقاهر الجرجاني بالطبع، الذي رفض ذلك الفصل بين اللفظ والمعنى وطور نظريتها في النظم التي قالت بأن السهيق اللغوي هو الذي يعطي اللفظ دلالاته في ربط عربي مبكر بين شطري العلامة اللغوية، وقد شهدت الساحة

الثقافية العربية في النصف الثاني من القرن العشرين ظهور مجموعة ثالثة ترى أن الجاحظ لم يكن يعني إسقاط المعنى، كما يقول أستاذنا شوقي ضيف، لكنه كان يتحدث، في ذلك المقتطف الشهير، عن أن الألفاظ ليس لها معنى متفردة، بل تكتسب معناها داخل النضج اللغوي، وبهذا يكون الجاحظ قد مهد الطريق لعبد القاهر لتطوير نظريته في النظم فيما بعد. وإن كان ذلك التفسير لم يخلق باب الجدل إلى الآن، وهي حقيقة تشهد بها قراءة ضيف السابقة وقراءة العشماوي للكلمات نفسها في قضايا النقد الأدبي.

لنحاول إعادة قراءة كلمات الجاحظ التي أثارت كل هذا الجدل لأكثر من عشرة قرون:

«والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي،
والبندي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ،
وسهولة المخرج، وكثرة الماء. وفي صفة الطبع، وجودة السبك، فإنما
الشعر صناعة. وخرب من النسج، وجنس من التصوير»^(٩١).

قبل أن نناقش كلمات الجاحظ المشكلة دعونا نتوقف عند المناسبة التي قيلت فيها لتساعدنا، مع نص أو نصوم أخرى للجاحظ، في تحديد الدلالة الحقيقية لتلك الكلمات، لقد جاءت كلمات الجاحظ في أثناء مجلس استمع فيه إلى قول الشاعر:

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا أقطع من ذلك نذل السؤال

فأبدى أحد الحضور إعجابه بالبيتين على حين رأى الجاحظ أن الرجل ليس بشاعر، ثم أضاف أن المستمع أعجب بالبيتين على أساس من معناها فقط، ومن ثم قال قولته، هل أمعق الجاحظ، بذلك الحكم الغاضب، معنى البيتين وغض من شأنه؟ ومرة أخرى، وقيل الإجابة المتسارعة، توسع الدائرة قليلاً لترى موقف الجاحظ في موقف مقابل. يروي الأصفهاني في كتاب الأغاني قصة مجلس حضره الجاحظ واستمع الحضور فيه إلى أرجوزة أبي العتاهية «ذات الأمثال»، وحينما وصل نمشد الأرجوزة إلى:

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

فأوقفه الجاحظ قائلاً: «انظر إلى قوله: روائح الجنة في الشباب، فإن له معنى كمنى الطرب الذي لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته

النظرية اللغوية العربية

الأسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير. وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان في وصفه»^(١٢).

هل نحن هنا أمام نموذج، قد يراه البعض صارخاً، للتناقضات التي تزخر بها كتابات البلاغيين العرب؟ أما التناقضات فهي حقيقة لا يمكن إنكارها تاريخياً، فالكتابات العربية تشهد بها دون شك، وخاصة حينما تكون التناقضات داخل كتابات المؤلف نفسه، وقد نبهنا، في أكثر من موقع سابق، إلى أن تطوير نظرية لغوية ونقدية عربية، يتطلب القيام بعملية غريلة دقيقة وثقافية واعية لتراثنا اللغوي والنقدي من كثير من تناقضاته وتداخلاته قبل أن نضع أيدينا على مفردات تلك النظرية. ولكن هل نحن فعلاً أمام نموذج لتناقضات الجاحظة الإيجابية بالإيجاب لو أننا قرأنا كلا من الموقفين السابقين للجاحظ على حدة، ولكنها قطعاً بالنفي إذا قرأناهما معاً، الموقف في علاقته بالموقف الآخر، أي إذا استعنا في قراءة النص الأول المشكلة بالنص الثاني بشروط أن يسمح النص الأول بتلك القراءة التي تنفي التناقض وترفضه، هل يحتمل نمنا الشكل هذه القراءة؟

إننا لا نستطيع الحكم على كلمات الجاحظ هنا بمعزل عن السياق التاريخي للقرن الثالث الهجري؛ وقد كانت أبرز مفردات ذلك السياق هي المعركة الحامية التي بلغت ذروتها في الاختلاف بين أبي تمام والبحتري ومدرستيهم في الشعر. ولنا هنا، بالطبع، في مجال يسمح لنا بالخوض في تفاصيل تلك المعركة، ما يهنا هنا أن التجديد كان يواجه بحائط صلد قائم على أن الشعراء القدامى لم يتركوا للمحدثين شيئاً، وهو الموقف الذي دفع ابن قتيبة للسخرية من ذلك الجمود في الشعر والشعراء قائلًا بأن الشاعر المحدث، مثلاً يستطيع أن يقف على منزل عامر ويكي عند بنيان مشيد، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يصف الفيل الذي يرحل فوق ظهره، لأن الشعراء القدامى رحلوا فوق ظهر الناقة والبعير، في ضوء ذلك الجدل الذي كان محتدماً في عصر الجاحظ، وجد البيانيون العرب أنفسهم يتحركون في اتجاه الصياغة وليس المعاني التي سبقهم إليها الأولون، وهكذا أصبح معيار القيمة «هو جوهر السبك» لأن «الشعر صناعة، وضرب من النسيج وجنس من التصوير»، كما قال الجاحظ، والجاحظ هنا لا يختلف في موقفه كثيراً عن موقف الشكلية الروسية أو النقد الجديد في تركيزهما على البناء

الفني للقمييدة، بل إنه يعتبر رائدا عربيا مكررا، بهذا المعنى، لا تختلف مقولاته عن مقولات النقد الجديد، وما حدث بعد ذلك تاريخيا، أن بعض رجال البيان والبلاغة العرب أخذوا المعنى السطحي الظاهر لمقولة الجاحظ باعتبارها تركيزا على اللفظ دون المعنى، ووصلوا في ذلك بالاتجاه اللفظي إلى مبالغات عملت أو أجلت ظهور نظرية نقدية عربية متكاملة، وقد فعل ذلك أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين معتمدا اعتمادا شبه كلي على مقولة الجاحظ بمعناها السطحي ليصل إلى النتيجة المستفزة: «وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي»، وربط القيمة بعجلة اللفظ: «فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة، والسهولة والرصانة، مع السلامة والنصاعة، واشتمل على الرونق والطلاوة، وسلم من حيف التأليف، وبعد عن سماجة التركيب، وورد على الفهم الشاقب، قبله ولم يرد، وعلى السمع العصبي، استوعبه ولم يمج»^(٩٢). وتلك مبالغة يرى المؤلف أنها كانت بعيدة عن فكر الجاحظ. إن الإحالتين، إذن تكمل إحداها الأخرى، فكلمات الجاحظ في الإحالة الأولى تتحدث عن أهمية السبك، وأن الشعر نوع من المزج والتصوير وهي كلمات لا يمكن فصلها عن مقولته الافتتاحية بأن المعاني ملقاة في الطريق، وفي الوقت نفسه، فإن الإحالة الثانية التي يوردها الأصفهاني تكمل المقولة الأولى ولا تتعارض معها أو تناقضها، لأن الجاحظ في الواقع يتحدث عن أهمية النظم، وأن اللفظة مفردة لا أهمية لمعناها.

بل إن قراءة محمد زكي العشماوي للجاحظ تعيب عليه المبالغة في العناية بالشكل، مشيرا بشكل واضح إلى النص المشكل. ففي تتبعه للفصول المختلفة لكتاب الحيوان، يخلص إلى ثلاث حقائق أبرزها:

«ثالثا: المبالغة في العناية بالشكل، فالشعر صياغة وضرب من النسيج، وجنس من التصوير. وقد تطرق الجاحظ في هذه النظرة حتى كاد الحكم على الشعر عنده أن يكون حكما على الجवाल الخارجي فيه، دون النظر إلى المحتوى أو المضامين الذي كاد أن يلغى عنده. فأصبح الشكل بذلك «قياسا للبراعة. وانتهى الجاحظ في هذا بمثل ما انتهى إليه الأصمعي الذي سئل: «من أشعر الناس؟» فقال: من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا، أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا»^(٩٣).

النظرية اللغوية العربية

ومن الواضح أن العثماوي توقف طويلاً عند المقولتين الأساسيتين للجاحظ كل على حدة، ففسر «المعاني مطروحة في الطريق» باعتبارها إسقاطاً للمعنى وتقليلاً من شأنه، تماماً كما فعل شوقي ضيف، ثم فسر مغردات «السبك» و«الصناعة» و«التنسيق» و«التصوير» باعتبارها مؤشرات، للمبالغة في العناية بالشكل، على حساب المضمون الذي «كاد أن ينعدم»، إن الفصل بين المقولتين يعطي، بالقطع، شرعية واضحة خاصة لموقف كل من شوقي ضيف ومحمد زكي العثماوي، لكن الجمع بينهما، وعدم اعتبار الواحدة منفصلة عن الأخرى، كفيل بتقديم تفسير مختلف، له هو الآخر شرعيته الواضحة، خاصة إذا نظرنا إلى المقولتين باعتبارهما مقولة واحدة تكتسب شرعيتها الحقيقية من فكرة «الضم» أو «النظم» التي كانت البلاغة العربية في تلك الفترة تمهد لتطورها النهائي بعد ذلك بفترة وجيزة عند عبد الجبار وعبد القاهر. وهو الرأي الذي يقول به محمد عابد الجابري الذي يرى أن اتساقاً عند سياق الكثير من مضامع البيان والتبيين للجاحظ، خاصة تلك المقاطع التي يتحدث فيها عن اللفظ، يدل على أنه لا يقصد اللفظ المفرد بل ما ينظم بالألفاظ من عبارات، شعراً ونثراً؛ الأمر الذي يجعل منه اللفظ نظرية «تنظم» التي سيبيدها الجرجاني»^(١٥) [التأكيد من عندي].

من هنا تبيّن أهمية ما حققه عبد القاهر في تطويره لنظرية النظم التي وضعت نهاية للفصل بين اللفظ والمعنى بحيث نستطيع القول إنه وضع نهاية للفصل الذي رسخه من سبقوه من البلاغيين مثل الجاحظ وابن قتيبة بين اللفظ والمعنى. وهو التوحيد الذي لابد أن يذكرنا بما سيؤكدّه اللغويون المحدثون من أن العلامة اللغوية بشطريها الدال والمدلول، مثل ورقة لا نستطيع فصل وجهها الأمامي عن وجهها الخلفي. وربما يستحسن هنا أن نفرق بين دالة اللفظ منفرداً، التي تعني هنا مجرد الإشارة إلى شيء أو صورته في العقل، وبين قدرته على تحقيق معنى، وهو قدرة لا تأتي للفظه منفردة، بل داخل نسق أو نظم لغوي، وقد توقفنا عند نموذج، من بين عشرات النماذج التي تطالعنا في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، يعبر عن الوحدة التي أسسها عبد القاهر بين الدال والمدلول، أو بين اللفظ والمعنى:

«ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه،

كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم، وفي جودة العمل وزدائه، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والميزة في الكلام، أن تنظر في مجرد معناه، وكما أنا لو فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود تنظر في مجرد معناه، وكما أن لو فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود أو فضة أنفس، لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه أن لا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام.^(٩٦)

إن عبد القاهر الجرجاني هنا يضع مجموعة من المبادئ اللغوية والنقدية التي تنقله من القرن الخامس الهجري إلى قلب القرن العشرين الميلادي الذي شهد نهضة علوم اللغة من ناحية، وظهور أكبر عدد من المدارس النقدية وأكثرها تعقيدا، من ناحية ثانية. فهبالإضافة إلى النقض النهائي لمبدأ الانفصال بين اللفظ والمعنى أو الدال والمدلول، وتأكيد أهمية النظم أو انسق اللغوي الذي يجري على أحكام النحو، يطور الجرجاني، وفي إسهاب ودقة بالغين، مبدأ عصريا يتحول برفض الفصل بين المضمون والشكل. فهو هنا يطور ثنائيتين في حركة توازن رائعة، الثانية الأولى ثنائية المادة الخام (الذهب أو الفضة) والمنتج الذي يصنع منها (الخاتم)، والثانية الثانية ثنائية المعاني والمنتج النهائي (القصيدة) التي تنتج عن ترتيب هذه المعاني هي مرتبة في العقل في نسق لغوي ينظم المفردات اللغوية حسب قواعد النحو وأحكامه، وإذا كنا لا نستطيع أن نقول إن الخاتم هو صنعة الجوهري في فراغ، لأن تلك الصنعة قامت على تصنيع أو تحويل المادة الخام، فإننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نقول إن القصيدة هي النظم أو الضم، أو الشكل الفني مفرغا من المعنى، والأهم من ذلك، وهو ما يؤكد عبد القاهر في إلحاح، أنك لا تستطيع أن تحكم على قيمة الخاتم على أساس المادة الخام التي صنع منها، أو حتى على أساس جودة الفضة أو ندرة القصص المستخدم، وحينما نحدد قيمة الخاتم على أساس جودة خاماته، فإننا بذلك لا تحكم عليه كخاتم أو منتج نهائي، بل كفضة أو ذهب، والشئ نفسه مع القصيدة، فتحن لا نستطيع أن نحدد مزية الشعر أو الكلام على أساس معناه، وحينما نفعل ذلك، «أي

النظرية اللغوية العربية

حينما نفضل بيتا على بيت من أجل معناه، فإن ذلك «لا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام»، بل من حيث هو معان فقط، «والمعاني» كما سبق أن قال الجاحظ، مطروحة في الطريق، يعرفها العربي والعجمي، هل حملنا كلمات عبدالقاهر التي جاءت قبل القرن العشرين بما يقرب من عشرة قرون، أكثر مما تحتمل؟ الواقع أن كلمات عبدالقاهر، هنا وفي موضوعات لغوية وجمالية أخرى كثيرة، تحتمل أي قراءة عصرية أو أي اختيار حدائي وتجارزه دون عناء.

وما زلتا مع استخدام اللفظ على الحقيقة أو المواضع اللغوية، لكن حان الوقت لكي نتحول من الطرف الأول للثنائية وهو اللفظ إلى طرفها الثاني وهو المعنى، وهذا باب يصعب إغلاقه بمجرد فتحه، سواء كنا نتحدث عن المعنى في التراث البلاغي العربي أو عن المدلول في علوم اللغويات الحديثة والمدارس النقدية التي أفرزتها، فالتأهات التي تثيرها القضايا الخاصة بالمعنى أو المدلول تكاد تكون لا نهائية، أبسطها، بالطبع، الحديث عن المدلول باعتباره ما تدل عليه الدالة أو اللفظة، وعما إذا كان شيئا محسوسا في العالم الخارجي أو مفهوما أو فكرة أو صورة عقلية، وآخرها وأعقدها التساؤل الذي أشرت اللغويات الحديثة، من ناحية، والفلسفتان الألمانيتان الظاهراتية والتأويلية، من ناحية ثانية، في إثارته: من الذي يسبق الآخر؛ العلامة اللغوية أم الوجود؟ اللغة أم العالم؟

لقد كان من الطبيعي أن يحتل التساؤل الأخير مكانة محورية في الحداثة الغربية عامة، ثم ما بعد الحداثة خاصة، بعد أن ربطت ما بعد الحداثة على وجه التحديد مصيرها بعجلة الفلسفة الألمانية في النصف الأول من القرن العشرين. كانت الفلسفة الألمانية قبل هذه المرحلة قد وصلت إلى مرحلة رفض وجود المقدس باعتباره قوة توحد العالم وتمتعه معناه في آن، وتحول العقل الغربي إلى إلهة جديدة أبرزها السلطة المرجعية للعلمية، وبعد أن فشل العلم في تفسير الوجود من ناحية، وتحقيق السعادة للبشر، من ناحية أخرى، سقط إله العلم، وتكفلت ظاهرية هوسيرل وتأويلية هايدجر وجادامر برفض أي سلطات مرجعية، داخل الإنسان أو خارجه، وخيم الشك الكامل على الفكر الغربي الذي فقد القدرة على الإحالة إلى أي سلطة مرجعية موثوقة، ولم يبق في نهاية الأمر إلا سلطة اللغة، وهكذا أصبح العالم لا وجود له إلا داخل

اللغة، أو عند أو بعد وعي الفرد به، وهذا الشك، هذه اللاشعرية، هي التي أسست شرعية فوضى الدلالة التفكيكية مع كل ما يحمل ذلك من مفارقة؛ والقول بأسبقية اللغة على الوجود، من منطلق الشك الفلسفي المطلق، هو على وجه التحديد ما لا نستطيع أن نقول به، ولم تقل به البلاغة العربية؛ وإن كان التساؤل: «أيهما أسبق: وجود الأشياء أم اللغة؟ أو الفكر أو التعبير عنه لغويًا؟» يقع في صلب تلك البلاغة القديمة المثيرة للإعجاب، صحيح أنها لا تتوصل إلى الإجابة نفسها أو الإجابات ما بعد الحداثية، ولأسباب السابق ذكرها، ولكن من قال إنها كان يجب أن تتوصل إلى الإجابات المعاصرة لنسبها؟ ثم هل ينفي توصلها إلى إجابات مختلفة أن العقل العربي، منذ عشرة قرون أو يزيد، قد انشغل بالقدر نفسه بقضية تحتل مكان الصدارة في علوم اللغة والفلسفة الأوروبية الحديثة؟

وفي الوقت نفسه، فإن قراءة البلاغيين العرب يتسعين تكشف أن البعض اقترب من الإجابات المعاصرة نفسها، وإن لم يكن لأسباب الفلسفية نفسها، لكن ذلك حينما يحدث يجيء في سياقات لا تخلو من الاضطراب والتناقض بل التشوش في أحيان كثيرة، ولهذا ليس غريباً أن يقرأ بعض الباحثين العرب المعاصرين تلك الإجابة بين سطور التصوص العربية التراثية، وهي قراءات، وإن لم تستند إلى قرائن قوية، لها ما يبررها في بعض الأحيان، هكذا قرأ محمد زكي العشماوي مثلاً بعض فقرات دلائل الإعجاز ليصل إلى الإجابة المعاصرة:

«ولكننا نعلم كما أوضحنا من قبل، أن الفكرة لا تكون بالنسبة إلينا فكرة إلا إذا أمكن أن نماغ بألفاظ، حتى لو كانت فكرة غير مسموعة، فنحن حينما نفكر حتى، ونحن ننام، إنما نفكر، بالألفاظ. وكذلك عندما تخرج الألفاظ من أفواهنا لا يمكن أن تكون مجرد أصوات لا معنى لها، وإلا كنا مجانين. وكذلك الحال في الأدب. فليس شمة فكر سابق على التعبير الأدبي، فمتى ما تضجعت التجربة والإحساس في ذات الأديب خرجت في صورة لفظية، أما قبل إخضاع الإحساس للفظ فلا شيء هناك»^(١٧).

وإذا كان رأي العشماوي السابق يقوم على قراءة دقيقة لكتابات الجرجاني فإنه يكون رأياً بالغ الخطورة، لكنه للأسف يؤسس رأيه العصري القائل بأنه ليس شمة فكر سابق على التعبير الأدبي، ثم: «أما قبل إخضاع الإحساس للفظ

فلا شيء هناك، يؤسس ذلك الرأي على كلمات لعبد القاهر من دلائل الإعجاز ينتهي فيها إلى: «من حيث إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا مجالاً تتبع المعاني في واقعها». لكن الجرجاني ينتهي أيضاً إلى رأي يقبل أكثر من تأويل، بما في ذلك تأويل العشماوي السابق: «فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواضعه البلاء فكراً في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن»^(١٨). وقراءة المقطع الأخير على وجه التحديد يمكن أن تشير إلى الاتجاهين؛ أسبقية المعاني على اللغة وأسبقية اللغة، «منظومة» على الفكر. لكن تلك مجرد ومضة قصيرة شديدة الارتباك يجب الآن نغول عليها كثيراً كما فعل العشماوي. وفي الوقت نفسه فإن ما يقوله العشماوي يتفق مع جوهر الفلسفتين الظاهرية والتأويلية اللتين تريان بعدم وجود العالم الخارجي، خارج اللغة، بما في ذلك الفكر، إلا عند الوحي به أو بعده، أي داخل اللغة، كما يتفق أيضاً مع مبدأ عام لا يتناقض بالضرورة مع مبادئ البلاغة العربية بصفة عامة، وهو أن التعبير اللغوي هو الكشف عن المستور بمعنى أنه عملية إظهار لغوي externalization لفكر لا ندركه إلا بعد التعبير عنه باللغة.

لكن عبد القاهر وهو يحدد موقفه من العلاقة بين المعنى أو الفكر واللغة، يهاجم موقف اللغويين ويرفض موقفهم القائل بأسبقية اللغة. أي أن بعض البلاغيين العرب، من اللغويين الذين عاصروه أو سبقوه، ثبتوا في الواقع موقفاً يرى أن اللغة سابقة على وجود الأشياء والمعاني والأفكار، وإذا كنا لا نستطيع أن نحيل القارئ في هذا السياق إلى نصوص للفظيين أنفسهم تؤكد وجود ذلك الاتجاه مبكراً في البلاغة العربية، فإننا نحيله إلى نص لعبد القاهر من دلائل الإعجاز، يحدد فيه موقف اللغويين وينقضه:

«واعلم أنك إذا هتئت أصحاب اللفظ عما في نفوسهم وجدتهم قد توهموا في الخبر أنه صفة للشيء. وأن المعنى في كونه إثباتاً أنه لفظ يدل على وجود المعنى من الشيء أو فيه، وفي كونه نفيًا أنه لفظ يدل على عدمه وانتفاءه من الشيء. وهو شيء قد كرمهم وسرى في عروقهم وأمتزج بطباعهم... والدليل على بطلان ما اعتقدوه أنه محال أن يكون اللفظ دليلاً على شيء لم لا يحصل منه تعلم بذلك الشيء، إذ لا معنى

لكون الشيء دئيلاً إلا إفادته إياك العلم بما هو دليل عليه. وإذا كان هذا كذلك علم منه أن ليس الأمر على ما هانوه من أن المعنى في وصفنا اللفظ بأنه خير. أنه قد وضع لأن يدل على وجود المعنى أو عدمه^(١٩).

إن الموقف الذي يرفضه عبدالقاهر هنا أو ينتفضه موقف محدد ومقتضيل بشكل يؤكد أنه كان أحد محاور الجدل في عصر عبدالقاهر أو قبله بقليل، هذا التحديد والتفصيل اللذان يوردهما عبدالقاهر في نصه السابق يدل، بما لا يقبل الشك، على أن العقل العربي قد توقف هو الآخر عند جدلية اللغة/الموجود أو اللغة/العالم الخارجي. فاللفظيون الذين يتحدث عنهم عبدالقاهر يرون أن المعنى في كونه إثباتاً أنه لفظ يدل على وجود المعنى من الشيء أو فيه^{٢٠} في لغة مبسطة؛ حيث إن اللفظيين قالوا بوجود المعاني في الألفاظ، وليست خارجها، فإن هذه الألفاظ تصبح الدليل على وجود معنى الشيء، في حالة الإثبات، وانثناء وجوده في حالة النفي، ويعود عبدالقاهر إلى المعنى نفسه، الذي يرفضه عند اللفظيين، ليكرر موقفهم «من أن المعنى في وصفنا اللفظ بأنه خير، أنه قد وضع لأن يدل على وجود المعنى أو عدمه». هل هناك شك في أن موقف اللفظيين الذين يرفضهم عبدالقاهر يقول بما قال به المحدثون، من فلاسفة ولغويين، من أن العالم الخارجي لا يوجد إلا في اللغة، وأنه لا وجود لهذا العالم الخارجي خارج اللغة؟

ليس معنى التوقف عند هذا المحور من محاور الجدل اللغوي أن مؤلف المرآيا المقعرة يتفق مع الموقف الأوروبي الحديث أو الموقف العربي القديم القائلكين، في الحالين، بوجود العالم داخل اللغة، أو أنه يتفق مع هؤلاء وهؤلاء في محاولة «رؤية العالم من خلال حبة فاصولياء»، كما قيل في نقض البنيوية. ولكنه فقط يريد أن يؤكد أن العقل العربي القديم، الذي يختار البعض تجاهل إنجازاته والتقليل من شأنها، قد توقف عند أبرز محاور الجدل التي تقع في صلب أي نظرية لغوية حديثة.

وما دمنا نتحدث عن الاتفاق أو الاختلاف حول هذا الرأي أو ذلك، دعونا نتوقف في عجالة عند نقض عبدالقاهر الجرجاني المقنع للموقف اللفظيين في عصره، وهو نقض يمكن الاستفادة منه أيضاً في العصر الحديث، يركز نقض عبدالقاهر لكقول بأسبقية اللفظ على مقولة محورية، منطقية بالدرجة الأولى، كنت قد توقفت أنا شخصياً عندها في أثناء استعراض موقف ما بعد الحداثة الغربية

من ثنائية اللغة - الوجود في المرأيا المحدية. يقول الجرجاني: «فنه محال أن يكون اللفظ قد نصب دليلاً على شيء ثم لا يحصل منه العلم بذلك الشيء، إلا لا معنى تكون الشيء دليلاً إلا إفادته إياك العلم بها هو دليل عليه» [التأكيد من عندي]. ما يتوله عبدالقاهر، وهو منطقي بالدرجة الأولى، أنه من المستحيل أن تتفق الجماعة المتكاملة على أن تدل اللفظة على شيء لم يكن قد سبق لهذه الجماعة العلم بوجوده، فالقول بأن اللفظة هي التي تؤكد وجود الشيء من عدمه يعني، منطقياً مرة أخرى، نفي الاتفاق الاعتباري على علاقة إشارة بين الدال والمندلول، بين صوت «شجرة» وفكرة الشجرة، وهي العلاقة التي لا توجد اللغة من دونها، وذلك ما لا يقوله عاقل، كما يشاعل عبدالقاهر، وبالنطق نفسه في موقع آخر: «فكيف تصور أن تسبق المعاني وأن تنقسمها في تصور النفس؟ إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء وقيل أن كانت، وما أدري ما أقول في شيء يجر الذاهبين إليه إلى أشباه هذا من فنون المحال، وردية الأحوال»^(١٠٠). هل معنى ذلك أننا نواجه في البلاغة العربية بموقفين متناقضين لا لقاء بينهما؟ لا شك في أن لدينا حلاً توفيقياً يقارب بين الموقفين، دعونا نحدد أولاً معالم موقف عبدالقاهر نفسه، ولا نكتفي بتعريف موقفه بالسلب أي الاكتفاء، بتحديد «ما ليس موقفه»، كما فعل في نقضه لما ذهب إليه اللفظيون. إن عبدالقاهر يحدد معالم موقفه هو، في مقابل الموقف اللفظي، في عشرات المواضع في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، وفي بعض الأحيان يقوم عبدالقاهر، وهو يحدد موقفه، بتقديم الحل التوفيقى الذي أشرنا إليه، وإن كان يفعل ذلك بطريقة غير مباشرة:

«الدلالة على الشيء هي لا محالة إعلامك السامع إياه، وليس بدليل ما أنت لا تعلم به مدلولاً عليه، وإذا كان ذلك كذلك مما يعلم ببدياته والمعتول أن الناس يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده، فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره وما هو؟ أم أن يعلم السامع وجود المخبر به من المخبر عنه؟ أم أن يعلمه إشارات المعنى المخبر به للمخبر عنه؟ فإن قيل: إن المقصود إعلامه السامع وجود المعنى من المخبر عنه فإذا قال: ضارب زيد، كان مقصوده أن يعلم السامع وجود الضرب من زيد وليس الإتيان إلا إعلامه السامع وجود المعنى»^(١٠١).

الواقع أن عبد القادر في سياق تأكيد سبق الوجود على اللغة أو الشيء أو فكرته على اللفظ الذي يشير إليه أو يدل عليه، يقدم تعريفا عربيا مبكرا للغة باعتبارها أداة اتصال communication ويتحدث بمفردات عربية لا تختلف عن مفردات سوسير وياكوبسون، فبدلا من الحديث عن الرسالة والمرسل والمستقبل، وهي المفردات الحديثة في علوم اللغة والسميائية الحديثة، يستخدم الجرجاني مفردات الخبر والمخبر والمخبر به، ثم ينتقل لإثبات موقفه المبني مقدما نموذجا لغويا بسيطا هو «ضرب زيد»، وهي جملة يهدف المخبر عنها، أو قائلها، إلى توصيل معناها. وهو الخبر المثبت، إلى المخبر به، وليس المقصود بأي حال من الأحوال، من وجهة نظر عبد القاهر، تقديم دليل على حدوث فعل الضرب أو على وجود زيد، خاصة أننا لو نطقنا كل ركن من ركني الجملة على حدة، فسوف يدل على شيء هو فعل الضرب في الأول واسم شخص هو زيد في الثاني، دون أن يعني شيئا أو يقدم خبرا يتم توصيله، سيكون كل ركن منفردا، كما يريد الجرجاني مرارا، مجرد صوت. وفي جميع الأحوال فإن فعل الضرب موجود، وزيد موجود، والشجرة موجودة ولا يحتاج أي منها إلى حدوث المعنى أو حضوره داخل نسق لغوي أو نطم لإثبات ذلك الوجود. كل ما في الأمر أن النسق اللغوي يقوم بتوصيل خبر إلى مستقبل له أو مخبر به، ويستمر عبد القاهر، بالانتقال القوي نفسه، في تأكيد أن الألفاظ في النسق اللغوي، أو «الجمال المؤلفة» تقوم بوظيفة اتصال أو إخبار، ولكنها ليست في حد ذاتها دليلا على وجود المخبر عنه أو عدم وجوده، إذ إن وجود هذه الألفاظ في حد ذاته دليل قوي على وجود مسبق للأشياء، ثم الاتفاق الاعتيادي على أن تكون الألفاظ دالات عليها؛

«لا يتصور أن تقتصر المعاني في المدلول عليها بالجمال المؤلفة إلى دليل يدل عليها زائد على اللفظ، كيف وقد أجمع العقلاء على أن العلم بمقاصد الناس في محاوراتهم علم ضرورة. ومن ذهب مذهبا يقتضي أن لا يكون الخبر معنى في نفس المتكلم ولكن يكون وصفا للفظ من أجل دلالته على وجود المعنى من الشيء أو فيه أو انشاء وجوده عنه، كان قد نقض منه الأصل الذي قدمناه من حيث يكون قد جعل المعنى المدلول عليه باللفظ لا يعرف إلا بدليل سوى اللفظ، ذلك لأننا لا نعرف وجود المعنى المثبت والانتفاء المنفي باللفظ، ولكننا نعلمه بدليل يقوم لنا زائد على اللفظ»^(١٠٢) [التأكيد من عندي].

إننا نقترّب من الحل التوفيقي الذي وعدنا القارئ به.

في موضعين منفصلين على الأقل، يقدم عبدالقاهر الجرجاني تفسيراً للرأي «الفاسد» الذي يقول بأن المعاني تُعَمِّد للألفاظ وليس العكس. التفسير في رأيه أننا نؤسس لهذه العلاقة المغلوطة على سلطة الاستماع، وننظر إلى الترتيب من وجهة نظر السامع، وداعلم، يكتب عبدالقاهر في الموضع الأول، «أنه إن نظر ناظر في شأن المعاني والألفاظ إلى حال السامع، فإذا رأى المعاني تقع في نفسه من بعد وقوع الألفاظ في سمعه، ظن لذلك أن المعاني تُعَمِّد للألفاظ في ترتيبها»^(١٠٢). ثم يقول في موضع آخر من دلائل الإعجاز: «وشبهه بهذا التوهم فهم أنك قد ترى أحدهم يعتبر حال السامع، فإذا رأى المعاني لا ترتب في نفسه إلا بترتيب الألفاظ في سمعه، ظن عند ذلك أن المعاني تُعَمِّد للألفاظ، وأن الترتيب فيها مكتسب من الألفاظ ومن ترتيبها في نطق المتكلم، وهذا ظن فاسد ممن يظنه»^(١٠٣). وقد قلنا منذ البداية إن ما يفعله عبدالقاهر هنا هو محاولة إيجاد تفسير للخطأ الذي يقع فيه اللغويون دون أن يبرره لأنه يرفضه ابتداءً، والتفسير الذي يقدمه الجرجاني له منطوقه أيضاً، فالاستماع الذي يتلقى رسالة: «حضر عمرو متأخراً»، يتلقى أولاً، في رأي عبدالقاهر الرسالة الصوتية، أي الألفاظ متلفظاً بها داخل نسق أو نظم، وهكذا، وحينما يتم تلقي وحدات الرسالة الصوتية حسب نظمها، وبعد أن يتم ترتيبها في العقل، يحدث المعنى. والخطأ الذي ارتكبه اللغويون، ومن ساروا على منوالهم في القبول بأسبقية اللفظ على معناه، أو اللغة على الوجود، في رأي عبدالقاهر، أنهم اعتمدوا سياق تلقي الرسالة الصوتية أولاً، ثم تحقق المعنى ثانياً دليلاً على ذلك السياق، بينما يرى عبدالقاهر أننا في تحديد الأسبقية لهذا أو ذاك، يجب أن نعتد بالمرسل وليس المستقبل. لأن النظر إلى العلاقة بين اللغة والفكر أو اللغة والوجود من منظور السامع أو المتلقي، ظن فاسد:

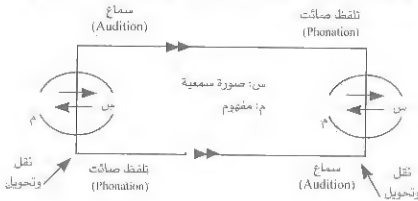
«وهذا ظن فاسد ممن يظنه، فإن الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والمُؤَلِّف له، والواجب أن ينظر إلى حال المتعاني معه لا مع السامع، وإذا نظرنا علمنا أنه محال أن يكون الترتيب فيها تبعاً لترتيب الألفاظ، ومكتسباً عنه؛ لأن ذلك يقتضي أن تكون الألفاظ سابقة للمتعاني وأن تقع في نفس الإنسان أولاً ثم تقع المعاني من بعدها وتالية لها بالعكس مما يعلمه كل عاقل إذا هو لم يؤخذ عن نفسه، ولم يضرب حجاب بينه وبين عقله»^(١٠٤).

المرئيا المقررة

وحيثما يتوقف عبد القاهر عند مرسل الرسالة أو واضعها يخلص إلى أن مفردات الرسالة تبدأ داخل عقل المرسل، ويتم ترتيبها ونظمها أيضا داخل العقل قبل أن يعبر عنها بالعلامات الصوتية، فلا يتصور:

«أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبيا ونظما، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك فإذا تم لك ذلك أتبعته الألفاظ وفتوت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتاج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجددها فتترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولا حقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق»^(١٠٦).

لكن هذه المقتضفات التي نوقفنا عندها في بعض الإطلاة، إلى جانب أنها تؤكد سبق الفكر أو الوجود على اللغة، إلا أنها، ودون ادعاء مدرك من جانب الجرجاني، تكمل دائرة الاتصال في المفهوم اللغوي الحديث. لقد توقف عبد القادر عند سياق التلقي من جانب المستمع الذي يتلقى رسالة صوتية. يحولها إلى معنى، ثم توقف عند المرسل وسياقه، وكيف تبدأ الرسالة بمفهوم أو معنى يترجم إلى رسالة صوتية. وليس من الصعب، بأي حال من الأحوال أن نخلص إلى أن المستقبل إذا أعاد إرسال الرسالة نفسها فسوف يعكس السياق؛ وهكذا يتم تبادل حتمي لدور المرسل والمستقبل. وهذا منطق لا يختلف في كثير أو قليل عن الدائرة المغلقة closed circuit التي يقدمها سوسير بعد ذلك بما يقرب من عشرة قرون والتي صورها على النحو التالي:



النظرية اللغوية العربية

«فالمرسل يبدأ بصورة ذهنية، ثم الاتفاق المسبق على دلالاتها بصورة عنوية، وثبتت هذه الدلالة عن طريق العرف والاستخدام، يحوّلها إلى صورة صوتية acoustic image عن طريق التلفظ الصائت. تصل الصورة السمعية إلى آذن المتلقي فيحوّلها إلى الصورة الذهنية الملتق عليها عقولاً. وحين يجيء دوره للكلام يحول الصورة الذهنية إلى صورة سمعية عن طريق التلفظ الصائت: ويتلقاها المستمع بنفس الطريقة السابقة»^(١٠٧).

ونصل أخيراً إلى المنطقة الوسطى ليس فقط بين عبدالقاهر الجرجاني واللفظيين الذين تمرد عليهم، بل بينه وبين اللغويات الحديثة. وقد سبق لنا في هذا الفصل أن أثبتنا وجود تقارب بين المقولة الحديثة بوجود العالم في اللغة أو عند وعينا به داخل اللغة وبين مقولة الجاحظ بأن «المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم... والحادثة عن فكرهم تبقى مسقورة خفية، وبعبدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه»، وتحوي هذه الأفكار، ويتم معرفة ضمير الإنسان لصاحبه «ذكرها والإخبار عنها، أي التعبير عنها باللغة. وقد قلنا آنذاك إننا نستطيع تفسير كلمات الجاحظ بمعنى أن الأفكار والخواطر لا تدرك إلا في اللغة. ماذا عن الجاحظ والجرجاني؟ هل يتباعد موقفهما بالصورة التي يتصورها عبدالقاهر؟ الواقع إن الكلمات السابقة نفسها للجاحظ تؤكد أن تقاربهما عند ثنائية اللفظ والمعنى أكثر من تباعدهما. فالجاحظ حينما يؤكد أن الإنسان، قبل التعبير عن حاجته وما في مكنون نفسه لغوياً، «لا يعرف ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه»، يتحدث عن اللغة كأداة اتصال، تماماً كما قال عبدالقاهر. إنهما بالتقطع يفقدان حول وظيفة اللغة، أي أن الجاحظ، بمعنى آخر، لا يقول بأن اللغة أو الألفاظ دليل على وجود الأفكار، بل إنها أداة نقلها وتبادلها، وهو، على وجه التحديد، ما يقول به عبدالقاهر الجرجاني.

وفي الوقت نفسه، فإن ما يقوله عبدالقاهر من أن اللغة ليست دليلاً على وجود الأشياء وليس الدليل على وجود المعنى، ومن ثم سبق اللفظ على المعنى لأننا لا نستطيع أن نثبت وجود المعنى في اللفظ قبل التسليم بوجود علاقة اعتبارية بين الصوت وشيء ما أو فكرته، يمكن تطبيقه، في جزء منه

على الأقل، على مقولات الفلسفة الظاهرية والهرمنيوطيقية عن الوجود واللغة. فالتأكيد الحداثي وما بعد الحداثي يقوم على إدراك الوجود - وجود الأشياء، وجود العالم الخارجي - عند الوعي بها داخل اللغة، وهكذا نستطيع أن نقول إن الموقف الحديث يعني، في جزء منه هو الآخر، أن اللغة ليست هي دليل وجود الأشياء والمعاني، بل أداة إدراكها.

أذن اتنا توقفنا بما فيه الكفاية عند استخدام اللفظ على الحقيقة ماذا عن استخدام اللفظ على المجاز؟

مما لا شك فيه أن علم البيان العربي لم يشغل بقضية كما انشغل بقضية المجاز. ثم إن اللغة العربية كانت من أكثر لغات البشر انشغالا بالبيان، وخاصة فيما يتعلق بكل قضايا المجاز. وقد خص عبدالقاهر الجرجاني قضايا البيان عامة والمجاز خاصة بكتاب كامل هو أسرار البلاغة، وإن كان ذلك لا يعني أن دلائل الإعجاز لم يتعرض للقضايا نفسها، وفي استفاضة أحياناً. وقد كان تعريفه للمجاز هو نقطة الارتكاز في تاريخ البيان العربي التي انطلق منها البلاغيون والبيانويون العرب من بعده، يضيفون إليه ويعدلونه ويحورونه في جزئيات لم تمس التعريف في جوهريه. وسوف يكون توقفنا عند «استخدام اللفظ على المجاز» موظفاً بالدرجة الأولى لخدمة هدف هذه الدراسة، وهو إثبات وجود مكونات في تاريخ البلاغة العربية تكفي لتكوين نظرية عربية لغوية، ولهذا سنتحاشى الخوض في متاهات علم البيان العربي الذي يمثل بحراً واسعاً لا أدعي أنني قادر على السباحة فيه، ثم إن هذه السباحة الطموح ستبعدنا بالقطع عن شطآن الدراسة الحالية الواضحة المعالم. ولهذا أيضاً سوف يكون تركيزنا هنا، وفي الفصل التالي عن النظرية الأدبية العربية، على آليات المجاز ذات الصلة الوثيقة باللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره، لأن هذا هو جوهر المجاز كما عرفه عبدالقاهر. والتركيز على وظيفة أو وظائف المجاز كما يحددها علم البيان العربي سوف يمكننا من إقامة المقارنات بين كثير من القضايا التي انشغل بها علم اللغة الحديث، والتي أشرنا إليها من قبل، وعلى رأسها تعدد الدلالة ومراوغة المدلول للدال واللعب الحر للعلامة، وبين القضايا المماثلة التي ارتبطت بوظائف المجاز، ليس فقط في نظرية اللغة، بل في النظرية الأدبية أيضاً.

هل يحتاج الأمر هنا إلى التذكير بأن استخدام اللفظ على المجاز، هو الذي

بميز لغة الأدب عن لغة الإخبار والتقرير والعلوم؟ وأنتا حينئذ ندخل دائرة المجاز نخرج من دائرة الموضوعة وشفافية اللغة؟ لا أظن أننا بحاجة إلى ذلك. لنبدأ بتعريف المجاز كما قدمه عبدالقاهر في أكثر من موضوع في الأسرار والدلائل:

«وأمّا المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها بين الثاني والأول فهي مجاز، وإن شئت قلت: كل كلمة جرت بها منا وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعا للملاحظة ما تجوز بها إتيه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز»^(١٠٨).

ثم يبسط الجرجاني بعد ذلك بصفحات قليلة معنى المجاز بإرجاع المصطلح إلى جذره اللغوي: «المجاز مفعول من جاز الشيء، يجوزّه إذا تعناه، وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً»^(١٠٩). ومرة أخرى يجد المؤلف نفسه في موقف لا يحسد عليه، فقد تكفلت عشرات، بل مئات المؤلفات التراثية والحديثة، بدراسة أدق وقائق البيان العربي، ولم يبق جانب من جوانب المجاز المختلفة لم تقم هذه الدراسات قديما وحديثا بدراسته وتوضيحه. وهكذا، فإن من السفة عبور الجسر الذي عبره البلاغيون وعلماء البيان العربي مئات المرات قديما، وعدد من النقاد العرب المحدثين الذين أغنوا المكتبة العربية بدراسات متميزة حول تراثنا اللغوي والنقدي، وعلى رأسهم محمد مندور وعز الدين إسماعيل ومحمد عابد الجابري وجابر عصفور، على سبيل المثال لا الحصر. لا يوجد جانب واحد لم تنطرق تلك الدراسات إليه. ماذا يفيدنا في السياق الحالي أن نتوقف عند تعريف التشبيه والاستعارة والكناية على سبيل المثال، أو الفارق بين الاستعارة كما يبرقها بلاغي متقدم مثل الجاحظ وبلاغي وسيط مثل الجرجاني وبلاغي متأخر مثل السكاكي؟ أو إذا كان المشبه في الاستعارة يدخل في جنس المشبه به أم أن المشبه به هو الذي يدخل في جنس المشبه؟ وإذا كان التجاوز المقصود تجوز المشبه أو المشبه به؟ من ثم لن نحاول تحقيق ما حققه العشرات من الدارسين وبكفاءة قد لا نملكها، وسوف نكتفي بالتوقف فقط، عند أهمية المجاز في النظرية اللغوية العربية القديمة، وعند أي أوجه تشابه محتملة بين

وظيفة المجاز في اللغة العربية والمفردات المماثلة في النظرية اللغوية الحديثة. دعونا نبدأ، إذن، حيث انتهى الآخرون، ومدخلنا إلى هدهنا الذي حددناه في السطور السابقة مباشرة هو وظيفة المجاز، سواء كان كناية أو استعارة أو تشبيهاً. المجاز هو الآلية اللغوية والتخيلية التي تمكن المبدع من الابتعاد عن لغة التقرير والإخبار، أو استعمال القبط على الحقيقة، إلى لغة الإيحاء والإيماء connotation وتعدد الدلالة في النص الإبداعي، وقد حرص عبدالقاهر على تأكيد هذه الفوارق، مؤكداً أهمية اعتماد الفصاحة والبيان على الإخفاء والإيحاء، بعيداً عن المباشرة التي يصف بها لغة القدماء، أما المحدثون، في رأيه، فقد ابتعدوا عن المباشرة:

«أما البديع فهو أنك لا ترى نوعاً من أنواع العلوم إلا وإذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة والتصريح أغلب من التلويح، والأمر في علم الفصاحة بالاضد من هذا فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله أو كله رمزاً ووحياً [connotation] وكناية وتمريضاً وإيماء إلى الغرض من وجه لا يظن له إلا من قلغل الفكر وأدق النظر. ومن يرجع من طبعه إلى المعية يقوى معها على الغامض ويصل بها إلى الخفي حتى كان يسلا حراماً أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لا نقاب لها وبادية الصنعة لا حجاب دونها وحتى كان الإفصاح بها حرام وذكرها إلا على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ»^(١١٠) [التأكيد من عندي].

ورغم نفمة السخرية الخفيفة التي تميزج بالكلمات الأخيرة من سطور عبدالقاهر، إلا أن موقفه الواضح والنهائي مع لغة الإيحاء والرمز والتعريض والإيماء إلى الغرض، اللغة التي تحتاج من القارئ إلى أن يقلغل الفكر ويمعن النظر، «فحرام» أن يكشف المعنى عن وجهه دون نقاب أو حجاب، بل إن حرص عبدالقاهر على استخدام لغة المجاز كآلية للإبداع بهدف البعد عن المباشرة وشمافية اللغة وتحدي قدرات القارئ أو المتلقي على الفهم عن طريق الإيحاء أو التلويح والرمز يفسر تقسيمه للمجاز إلى نوعين: الاستعارة المبتذلة والاستعارة النادرة: «أعلم أن من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها التفضيلة وأن تتفاوت التفاوت الشديد. أفلا ترى في الاستعارة العامي المبتذل كقولنا: رأيت أسداً، ووردت بحراً، ونشيت

النظريّة اللغوية العربية

بدرا. والخاصّي النادر الذي لا تجده إلا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال كقوله: وسالت بأعناق المطي الأباطح^(١١١) الاستعارة المبتدلة عند الجرجاني، مثل استعارة الشجاعة للرجل، أو العلم أو الجود لآخر، أو الجمال للمرأة في قولنا: رأيت أسدا، ووردت بحرا، ولقيت بدرا، هي الاستعارة التي كادت تتحول إلى مواضعة لغوية من كثرة استخدامها. فقد حوّلت دلالات تلك الاستعارات إلى معانٍ مباشرة لكثرة ترديدها، ولم يعد المتلقي بحاجة إلى إعمال فكره أو تدقيق بصره لفك شفرتها، وهكذا اقتربت من المواضعة اللغوية، أما الدلالة الخاصة النادرة التي لا يقدر عليها إلا الفحول فهي التي تفعّل المتلقي بقرابتها وندرته - دون غموض مشعمد أو مقصود - والتي تتطلب جهدا وإعمالا للعقل. وهكذا يتوقف الجرجاني عند الشطر الثاني من البيت المشهور:

«أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح»

لهي فصاحة عجز بلاغيون سابقون عن إدراكها، فالصورة المركبة التي يقدمها الشطر الثاني من البيت تقدم استعارة عقلية رائعة تمتزج فيها صورة أعناق البعير مهتزة في سرعة متراصة مع البطاح فتتحول الحركة في ذهن المتلقي إلى سبل يتهادى سريعا حثيثا في السهول مبتعدا عن منى، ويمضي لتقديم صورة أخرى مركبة مماثلة، ولا تقل عنها غرابة وجدة، ولكنها هذه المرة صورة تمتد عبر شطري البيت في

«سألت عليه شعاب الحي حين دعا أنصاره يوجوه كالدنانير»

وقد استخدمنا لفظ «عقلية» أكثر من مرة في السياق السابق، في معرض الحديث عن الاستعارتين (المصورتين) الشعريتين عن قصد وعمد، لأن عبد القاهر نفسه قسم المجاز بأنواعه المختلفة إلى لفظي وعقلي، مع تمييز واضح ومفهوم من جانبه للمجاز العقلي، مادامنا نتحدث عن الاستعارة الخاصة والنادرة التي تحتاج إلى إعمال العقل والبصيرة لفك شفراتها، والمجاز اللفظي هو «الكلمة المفردة كقولنا اليد مجاز في النعمة، الأسد مجاز في الإنسان وكل ما ليس بالسبع المعروف كان حكما أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة لأننا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداء في اللغة وأوقعها على غير ذلك إما تشبيها وإما لصلة وملازمة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه»^(١١٢). أما المجاز

العقلي، فهو المجاز الذي لا تقدمه اللقطة منفصلة أو مفردة، بل ذلك الذي يحدده القائل داخل السياق في تعالق وحداته حسب أصول النظم وأحكام النحو، ويفك المتلقي شفرته عن طريق إعمال العقل. فالعقل هنا هو أداة تأليف الجملة أو البيت أو النص، لأن المعاني ترتب داخله أولاً قبل أن يعبر عنها بعلامات لغوية منظومة، وهو أداة فهم دلالة الاستعارة أو التشبيه أو الكناية. ويعرّف عبدالقاهر المجاز العقلي كما يلي: «ومتى وصفنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً عن طريق المحقول دون اللغة وذلك أن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل لا يصح ردها إلى اللغة ولا وجه تنسيبها إلى واضعها لأن التأليف هو إستناد فعل إلى اسم، أو اسم إلى اسم، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم»^(١١٣).

المجاز العقلي إذن مقياس القيمة لأنه يبعد اللغة الإبداعية عن المباشرة ويضع المتلقي في موقف يتحدى فيه المجاز قدراته على فك شفرات الاستعارة أو الكناية، لأن المجاز لا يحقق الفصاحة «إلا أنه لم يراع ما يحضر العين، ولكن ما يستحضر العقل، ولم يعن بما تتال الرؤية بل مما تعلق الرؤية، ولم ينظر إلى الأشياء من حيث توعد فتحويلها الأمكنة، بل من حيث تعيها القلوب القطننة»^(١١٤). في ظل هذه النظرة الناضجة لطبيعة المجاز ووظيفته، لم يكن غريباً أن يرى عبدالقاهر الجرجاني جمالاً و«فصاحة» في «وسالت بأعناق المطي الأباطح»، بعد أن كان بعض البلاغيين السابقين قد أدانوا الصورة الشعرية على أساس سطحيّتها وعدم تقديمها الجديد، فالمجاز الجديد. كما يرى الولي محمد، «هو الطاقفة الخلاقة التي ترغم الأشياء على أن تقول ما لا تبوح به في واقعيتها»^(١١٥).

وغا دوماً نتحدث عن العقل باعتباره صاحب القدرة على خلق المجاز أو تركيبه ثم عن فك شفراته فإن أحد أنواع الاستعارة عند عبدالقاهر هي تلك التي يتم فيها تشبيه المعقول بالمعقول، أي استعارة صفة عقلية، من التشبيه به لصنعة عقلية في التشبيه - هل يحتاج الأمر إلى تذكير القارئ بأن «المعقول» عند عبدالقاهر وغيره من البلاغيين العرب يعني ما يدرك بالعقل - وحيث إن تلك هي الاستعارة الثالثة بعد تشبيه المحسوس بالمحسوس وتشبيه المعقول بالمحسوس، فإنها أكثر تحدياً بالطبع لقدرات

النظرية اللغوية العربية

المبدع والمتلقي على السواء. ونطمئن القارئ هنا بأننا لسنا بصدد النكوص في وعدنا والدخول في تفاصيل حول المجاز في البيان العربي يعرفها الجميع جيداً، لكن الاستعارة الثالثة التي يذكرها عبد القاهر تضعه فجأة في قلب القرن العشرين بكل الثورات اللغوية التي عاشها. وقد سبق أن قلنا إن أهم إنجازات سوسير مؤسس علم اللغة الغربي الحديث هو حديثه عن الكلام باعتباره وحدات لغوية يجمعها نسق تحكمة شبكة علاقات أفقية ورأسية، لكن أبرز ما قدمه عالم اللغة السويسري المؤسس هو تركيزه على أن تلك العلاقات ليست علاقات تشابه بقدر ما هي علاقات اختلاف، وكان حديثه عن الثنائيات المتعارضة binary oppositions هو محور البنيوية اللغوية ثم البنيوية الأدبية، ونعتذر عن بعض الإطالة هنا، لكن تفاصيل ما قاله سوسير عن علاقات الاختلاف تهما في تأسيس شرعية ما قاله عبد القاهر وسبقه إليه في الوقت نفسه، لقد ضرب سوسير مثلاً للتدليل على هذا الجزء من نظريته وهما دلالات الألوان ودلالات قطع الشطرنج والقواعد التي تحكم حركتها فوق اللوحة. فالبتي مثلاً لا تتعدد قيمته في ذاته، بل في اختلافه عن الأبيض والأسود والأحمر والأخضر... إلخ، أي أن دلالاته تتحدد «بما ليس هو» باختلاف، والشيء نفسه مع قطع الشطرنج، فالرخ تتحدد دلالاته بما هو ليس بقية قطع اللعبة، ماذا يقول عبد القاهر الجرجاني في هذا السياق حتى نتحمس له كل هذا الحماس؟ يكتب عبد القاهر في أسرار البلاغة:

«وإذا كان هذا هو الطريق المهيمن [الواسع] في الوضع في الشيء وترك الاعتداد به والتفضيل له والمبالغة في الاعتداد به، فكل صفتين تضادتا ثم أريد نقص الفاضلة منهما عبر عن نقصها باسم ضدها فجعلت الحياة العارية من فضيلة العلم والقدرة موتاً والبصر والسمع - إذا لم ينتفع صاحبهما بما يسمع ويبصر فلم ينهم معنى السموع ولم يعتبر الميصر أو يعرف حقيقته - عى وصمماً، وقيل للرجل، هو أعى وأصم - يراد أنه لا يستفيد شيئاً مما يسمع ويبصر فكأنه لم يسمع ولم يبصر، وسواء عبرت عن نقص الصفة بوجود ضدها أو وصفها بمجرد العدم وذلك أن في إثبات أحد الضدين وصفا للشيء ونقياً للضد الآخر لاستحالة أن يوجد معاً

فيه، فيكون الشخص حياً ميتاً معاً، أصم سميعاً في حالة واحدة..
فقولك في الجاهل: هو ميت، بمنزلة قولك ليس بحي، وإن الوجود
في حياته بمنزلة العدم،^(١١٦) [التأكيد من عندي].

إن مثل هذه الومضات النقدية التي تطلعننا بين أن وآخر، وفي تواتر لا
يمكن وصفه بالتدرة عند عبد القاهر. هي التي تدفع مؤلف المرايا المقعرة
إلى حماس يقترب، كما سيقول البعض، من الجنون. لقد أكدنا في إحالتنا
إلى كلمات الجرجاني موقفين، سنبدأ بشأنيهما: «فقولك في الجاهل، هو
ميت، بمنزلة قولك ليس بحي.. هل تختلف كلمات البلاغي العربي الذي قدم
تلك الكلمات في القرن الحادي عشر الميلادي، عن كلمات هرديناوند دي سوسير،
اللغوي السويسري، في بداية القرن العشرين؟ هل يختلف وصف الرجل بالموت
يعني أنه ليس بحي عن وصف سوسير لشيء بأنه ليس ما هو أبيض أو أصفر أو
أسود... الخ؟، أو عن وصفه للرخ في لعبة الشطرنج بأنه ليس ما هو فيل؟ أليس
العمود الفقري للتضاد الثاني أو الثنائيات المتعارضة يقوم على «أن في إثبات
أحد الضدين وصفاً للشيء، ونفياً للآخر لاستحالة أن يوجد معاً فيه؟» إنني
على يقين من أن البعض، بدلاً من التسليم بعبقرية العقل العربي الميكرة بل
عصريته، سوف يقولون إن مؤلف المرايا المقعرة لم يفهم سوسير أو
الجرجاني أو كليهما معاً!

أما الموقف الأول الذي جاء في سمطور الجرجاني وأجلنا الحديث فيه
فتعتبر عنه كلمات: «فكل صفتين تضادتا ثم أريد تقص الفاضلة منهما عبر
عن نقصها باسم ضدها»، وهذا موقف آخر لا نملك إلا أن نقف أمامه في
غير قليل من الانهيار بعبقرية العقل العربي، وليس الغربي بالطبع. دعونا
نقصّل أو لنقل نبسط مقولة عبد القاهر حتى نقرّبها من ذهن القارئ،
حينما نتحدث عن صفتين متضادتين فمن الواضح أننا نتحدث عن صفة
حاضرة وصفة غائبة، صفة وردت في النص اللغوي وأخرى لم ترد فيه
ولكننا نستدعيها بمجرد تلقى الصفة الحاضرة، فالرجل أو الشيء لا يمكن
أن يوصف بالشيء ونقيضه في آن، وهذا هو جوهر الثنائيات المتضادة في
علم اللغة الحديث، أي أننا نتحدث عن تحقق الدالة على المستوى الراسي
أو ما يسميه الحداثيون بالمستوى الاستبدالي، لكن ذلك ليس سبب
اهتمامنا بتلك المقولة على كل حال، فاهتمامنا ينصب على «إذا أريد نقص

النظرية اللغوية العربية

الفاضلة فيها عبر عن نقصها باسم مندها». ومرة أخرى دعونا نلجأ إلى التبسيط، إذا حدث أن أدرك المتلقي للكلام أو اللغة أو الصفة «الحاضرة» أي التي وردت في النص، ناقصة، فإن إدراكه للصفة الغائبة التي لم ترد في النص سيكمل النقص في دلالة الصفة الحاضرة، كأن عمليات تحقق المعنى، «منذ ترتيبها داخل العقل»، كما قال الجرجاني مبكراً، ثم التعبير عنها صوتياً في الكلام، ثم تحويلها إلى علامات منقوشة أو مكتوبة هي سلسلة مستمرة من النقص والإكمال. بقليل، قليل جداً من التأويل الذي يحتمله النص التراثي، هل يختلف هذا المفهوم القديم عن مفهوم دريدا الذي أثار جدلاً نقدياً في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، الذي افترض به بعض كتاب ما بعد الحداثة العرب عن اللغة باعتبارها كملاً supplement يكمل شيئاً ويحتاج في الوقت نفسه إلى ما يكمل نقصه وهو ما شرحناه من قبل بالتفصيل في الجزء الأول من الدراسة الحالية، ولا نملك إلا أن نحيل القارئ إليه حاملاً معه تساؤلنا، ربما يجد إجابة تؤيد تأويلنا واجتهادنا أو تنقضهما.

المهم أنه بصرف النظر عما إذا كانت الاستعارة من نوع تشبيه المعقول بالمعقول أو تشبيه المعقول بالمحسوس، فإن ما يهم عبد القاهر، كما سبق أن أشرنا، هو تعليق قيمة الشعر على أصالة المجاز وخصوصيته، فالمجاز المبتذل أو المستهلك لا ينجح في رفع المعنى إلى مرحلة الخصوصية الشعرية، أما المجاز الخاص وغير المطروق فيحول المعنى العادي، بل المعنى الغفل، إلى «در في قعر بحر لا يد له ممن يتكلف الغوص عليه، وممتعاً في شاطئ لا يتاله إلا من يتجشم الصعود إليه»^(١١٧)، بل إن أصالة المجاز وخصوصيته وجدته هي معيار المفاضلة بين قصيدة وقصيدة:

«نعم إذا كان هذا شأنه، وهنأ مكانه، وبهذا الشرط يكون إمكانه الذي يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية وأن يجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد وأن يثنى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين وأن أحدهما أكمل من الآخر. وأن الثاني زاد على الأول أو نقص عنه وثرى إلى غاية أبعد من غايته أو انحط إلى منزلة هي دون منزلته»^(١١٨).

وعندما يتخذ عبدالقاهر من خصوصية وجدة «وجه الدلالة» على الغرض «مقياساً فإنه في حقيقة الأمر يؤكد أهمية الصورة الشعرية كمعيار للجودة والمفاضلة، بل إنه، كما يرى الولي محمد، يحدد موضوع علم البيان بصورة تضعه مرة أخرى في قلب اللغويين والبلاغيين المعاصرين. موضوع علم البيان، كما يراه المعاصرون، وكما رآه عبدالقاهر قبل ذلك بمئات السنين، هو التشكيل الشعري أو الصناعة الشعرية. «وهي جميع الأحوال»، يؤكد الولي محمد، «هذان الطرفان: الجرجاني والمعاصرين يتفقان على أهم الفرضيات العامة المتعلقة بالتشكيل الشعري. إنهما يتفقان على أن الشاعر يتناول معنى غفلاً، وأن هذا المعنى يخضع لعملية تشكيل أو تصوير يعطيه صفة شعر، وأن هذا المعنى، مجرداً من هذا التصوير يبقى معنى نثرياً، وأن هذا التصوير يعتمد أداة حاسمة هي الصورة القائمة على المشابهة وخصوصاً الاستعارة»⁽¹⁹⁾. تأسيساً على هذا المفهوم يتوقف عبدالقاهر عند عدد من النماذج التطبيقية التي يحفل بها أسرار البلاغة على وجه التحديد من آيات القرآن الكريم وآيات الشعر العربي، الآية التي يتوقف عندها الجرجاني مراراً، والتي يتوقف عندها بلاغيون عرب كثيرون، هي قوله تعالى «واشتعل الرأس شيباً»، ويقارنها بعناها البسيط في «اشتعل شيب الرأس» و«اشتعل الشيب في الرأس». ونضيف نحن المعنى في أبسط تكويناته وهو «انتشر الشيب في شعر الرأس»، ويتوقف عبدالقاهر طويلاً عند مناقشة أوجه الفصاحة والبلاغة في «الصورة» الرائعة التي تقدمها الآية الكريمة.

ومن بين النماذج الشعرية العديدة التي يتوقف عندها عبدالقاهر نختار نموذجاً واحداً لإيضاح أهمية التشكيل أو التصوير الشعري عن طريق المجاز وجهاً للدلالة على الغرض:

اليومُ يومانٌ مذْ غُيِّبَ عَنْ بَصْرِي نفسي فداؤك ما ذنبي فاعتذر
أمسى وأصبح لا ألقاك وأحزنا لقد تأذيت في مكروهي القدر

والبيان، كما يقدمهما الجرجاني، نموذج لما يستطيع المجاز الجيد أن يحققه في الشعر وللشعر، فالبيت الأول بشعرية يقدم جملتين تقريريتين مباشرتين عاديتين، بمعنى أنهما لا يقدمان معنى يلفت النظر إليه أو يوجب مجرد التوقف عنده، والشئ نفسه في الشطر الأول من البيت الثاني، ثم

النظرية اللغوية العربية

هجة يلقي علينا الشاعر بصورة استعارية فريدة وخاصة تجمع كل ما يعنيه عبدالقاهر بالخصوصية والتفرد . القدر يتصرف كأنسان يرتدي أفضل ما لديه، حتى يبدو في كامل أناقته، لا لأنه على وشك القيام بهنئة إنسان آخر أو الاشتراك في مناسبة سعيدة، بل لأن المناسبة السعيدة مناسبة هو، فهو «يشمت» في تعاسة الحب. إن تعدد دلالة الصورة موضوع يغري بالاستمرار في الكشف عن طبقات دلالتها المتعددة. لكننا سنكتفي بإثارة الرغبة لدى القارئ فقط، لكن أجمل ما في هذه الصورة متعددة الدلالة أنها أيضا تعطي معنى لما سبقها في البيتين، إن الصورة (المجاز - الاستعارة)، كما يتضح من النموذجين السابقين، تثبت المعنى وتؤكد، من ناحية، وتحرر الكلام من قيود المواضع وتمكّنه من التلميح والتلويح والإيحاء، كما قال عبدالقاهر، من ناحية ثانية.

وهكذا نعود إلى الإيحاء والتلميح بديلا عن التقرير والتصحيح، أي إلى تعدد الدلالة ومراوغة المدلول للدال بالمصطلح الحداثي وما بعد الحداثي. ومرة أخرى نذكر بأن مفهوم مراوغة المدلول للدلالة بمعنى تعدد الدلالة الدقيق لم يكن غريبا على الإطلاق على علم البيان العربي والبلغيين العرب مادامنا نتحرك داخل سياق التمييز بين لغة التقرير والإخبار ولغة العلم ولغة الأدب، دون أن يعني ذلك لانهائية الدلالة الذي نتخذ منه موقفا نقضيا صريحا حددناه في إسهاب في المرايا المحدبة باعتباره التسليم النهائي بموت النص - ونحن لا نسلم بذلك - ثم باعتباره فوضى التفسير التي وصلت إليها مدارس ما بعد الحداثة النقدية. ولهذا يمكن أن نتفق إلى حد ما مع تعميم محمد مفتاح، اقتفاء لأثار ميشيل ريفاتير، بأن الأدب، خاصة الشعر، «لعب لغوي»، إذا كان يقصد بذلك قدرة اللغة الأدبية على الإيحاء وتعدد الدلالة خارج قيود المواضع، لكنه للأسف - وهنا نختلف معه بالقطع - يمضي ليؤكد أن «اللعب الاضطرابي أو الاختياري إذن هو صميم العملية اللغوية بعمامة، والأدبية بخاصة. والشعر بكيفية أخص»^(١٢٠)، لأن ذلك التأكيد على «اللعب اللغوي» باعتباره صميم العملية اللغوية، هو المدخل الأول لفوضى لانهائية الدلالة.

لكن الثابت أن علم البيان العربي توقف كثيرا عند تعدد الدلالة، من ناحية ووضع القواعد والضوابط التي تحول دون تطورها إلى فوضى لانهائية

الدلالة، من ناحية ثانية، وفي هذا سوف نتوقف عند محطات ثلاث أساسية هي محطات الجرجاني والساكبي والقرطاجني،
إن الريادة الحقيقية لعبد القاهر الجرجاني تتمثل في جانب كبير منها في تقديمه المبكر لمصطلح مألوف في الدراسات اللغوية والأدبية في القرن العشرين وهو معنى المعنى، وفي الوقت نفسه فقد كان الجرجاني أيضا محددا وصريحا في وضع ضوابط سلسلة التبدليل حتى لا تتحول إلى فوضى اللانهاية. في مرحلة مبكرة من دلائل الإعجاز، وفي سياق تعريف الكناية، يحدد الجرجاني الطاقة الكامنة في لغة الشعر والإبداع المتمثلة في تحقيق تعدد الدلالة: «والمراد بالكناية ههنا» يكتب عبد القاهر، «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيؤمن به إليه، ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم: «هو طويل النجاد» وكثير رماد القدر» يعنون كثير القرى^(١٢١)، ثم يتوقف في إطالة فيما بعد عند نموذج التماذج عنده وهو «كثير رماد القدر»، وتتوقف نحن أيضا معه لنعرف ما يقصده مرة أخرى باستخدام اللفظ على الحقيقة، واستخدام اللفظ على المجاز باعتباره المدخل إلى معنى المعنى وتعدد الدلالة، بل الإيجاء بمراوغة المدلول وتحوله أكثر من مرة إلى دال يشير إلى مدلول جديد:

«لا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم: هو كثير رماد القدر، وعرفت منهم أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ ولكنت عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت: إنه كلام قد جاء عنهم في المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصب له القدرور الكثيرة ويطبغ فيها للقرى والضيافة، وذلك أنه إذا كثر الطبخ في القدرور كثر إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة، وهكذا اتسبل في كل ما كان كناية»^(١٢٢).

فلنتمثل الخطوات التي مرت بها عملية تحقيق معنى المعنى في النماذج عند عبد القاهر، وفي ذلك لن نفعل أكثر من إعادة ترتيب ما قاله الجرجاني ومله بعض الفجوات بخطوات يحتملها النص، وفي ذلك أيضا سوف نبين الفارق بين الدلالة أو المعنى حينما تحققه المواضع اللغوية

النظرية اللغوية العربية

لنموذج، حيث يصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، كما يقول الجرجاني، تماماً كما هي «خرج زيد» ومعنى المعنى الذي نصل إليه خارج قيد المواضع. حينما نقول في وصف أعرابي «إنه كثير رماد القدر»، فإن الصورة الأولى التي يجب أن ترتب على تلقي الرسالة الصوتية هي مجرد صورة لرجل موقده أو كانونه مليء بالرماد، وإذا توقفنا عند تلك الدلالة، فقد يعني ذلك أشياء ترتبط بالدلالة الوضعية إلى حد ما، بعيداً عن الكناية، مثل كثرة الرماد تعني أنهم يحرقون حطباً كثيراً في تلك المواقف تحت القدر، وقد تعني أيضاً، وبالقدر نفسه، أن الزوجة مهملة فهي لا تقوم بتنظيف الموقد مما يؤدي إلى تراكم الرماد تحت القدر، وقد تعني أيضاً، في غرض أو سياق مختلف، أن تلك الزوجة مسرفة فهي تستهلك حطباً كثيراً، وقد تعني أن عملية الطبخ أو إعداد الطعام لا تتوقف مما لا يتيح للمرأة وقتاً لتنظيف الرماد والتخلص منه، وهي بالقطع تعني أن هذه الأسرة تقوم بإعداد الطعام كثيراً، وبصورة لا تكاد تتوقف، وهكذا تعني أيضاً أن تسيوف ذلك الرجل كثيرون! بعد القراءة الأولى: القراءة التي جاءت على حقيقة ما وضعت الألفاظ من أجله، تبدأ عمليات تدليل يتضح منها الآتي: أولاً، الابتعاد المستمر عن قراءة المواضع. ثانياً، كلها قراءات يتحول مدلول كل قراءة منها إلى دال على مدلول آخر هو القراءة التالية. ثالثاً، جميع هذه القراءات، باستثناء القراءة الأخيرة، لا أهمية لها، رابعاً، بالقراءة الأخيرة فقط نكون قد قطعنا شوط الابتعاد عن استخدام اللفظ على الحقيقة حتى نهايته ووصلنا إلى القراءة المجازية. خامساً، القراءة الأولى، قراءة المواضع، هي المعنى، والقراءة الأخيرة، هي معنى المعنى الذي يسميه عبدالقاهر بشكل صريح ومحدد. ولا يترك عبدالقاهر، في هذا السياق، مجالاً للشك حول ما يعنيه، وهو تحول المدلول إلى دال، ونحن حينما نقول ذلك نؤكد أنه على الرغم من أن عبدالقاهر لا يستخدم هذا التعبير الحديث - الحدائي، فإن المفهوم واحد إلى حد التطابق، ثم إنه لا يفتح الباب على الإطلاق أمام لانهائية تحول المدلول إلى دال، كما يقول أصحاب التأويل والتلقي والتفكيك، وكلمات عبدالقاهر الجرجاني حول تطابق المفهومين لا تترك مجالاً للشك: «فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي

يوجبه ظاهره [وهنا يتعدى المدلول الأول] ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك [وبهذا يكون المدلول الأول قد تحول إلى دال] كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضاف^(١٢٢).

إن المفهوم الحديث أو الحدائي لمراوغة المدلول للدال لا يعدو أن يكون صياغة براهنة لمفهوم وظيفة اللغة في استخدامها على المجاز، والجرجاني لا يكل، سواء في أسرار البلاغة أو دلائل الإعجاز، في تأكيد أهمية غرض المتلقي في بحر اللغة ليخرج منه بلألى المعاني، فالمعنى البليغ هو ذلك المعنى الذي يمثل عملية تحد مستمر للمتلقي بسبب امتناعه وتحجيه:

«إن المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينبغي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر والهمة في طلبه وما كان منه اللطف كان امتناعه عليك أكثر وإياؤه أظهر واحتجاجة أشد، ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعالجة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالمزية أولى، فكان موقفه من النفس أجد واللطف، وكانت أفن وأثقف»^(١٢٣).

كتبنا منذ قليل أن علم البيان العربي حينما اهتم في تلك الفترة المبكرة بقضية تعدد الدلالة، وضع في الوقت نفسه القواعد التي تحول دون تطورها إلى فوضى لانهائية الدلالة. وقد كان عبدالقاهر الجرجاني من بين رجال البيان العربي الذين حرصوا على تحديد تلك القواعد أو الضوابط، خاصة أنه اتخذ موقفا معارضا لمذهب أبي تمام في كتابة الشعر في تكلفه صياغة المعنى وتعتيده وإيهامه، كان شرط عبدالقاهر الأول في تبني المجاز آلية في التعبير والصياغة الشعرية أن يكون المعنى الذي تقدمه القصيدة والتي تحتاج إلى أعمال العقل وتحريك الخاطر في فك شفراتها أن يكون أولا معنى يستحق عناء تتبع الدلالة: «هذا - وإنما يزيد الطلب فرحا بالمعنى وأتسابه وسرورا بالتوقف عليه إذا كان لذلك أهلا، فأما إذا كنت معه كالغائص في البحر يحتمل المشقة العظيمة، ويخاطر بالروح، ثم يخرج الخرز، فالأمر بالضد مما بدأت به، ولذلك كان أحق أصناف التعقيد لدم ما يتبعك ثم لا يجدي عليك، ويؤرقك ثم لا يروق لك»^(١٢٤). ويشهد الجرجاني بيت شعر كنموذج للمعنى الذي يزهتك الحصول عليه ثم تكتشف في نهاية الأمر أنه لم يكن يستحق كل ذلك

النظرية اللغوية العربية

العناء، أي أن جهدك كان أكثر مما تستحق النتيجة؛ «وإنما ذم هذا الجنس لأنه أجوجك إلى فكر زائد على المقدار الذي يجب في مثله وكذلك بسوء الدلالة وأودع المعنى لك في قالب غير مستو ولا معلس، بل خشن مضرس، حتى إذا أردت إخراجها منه عسر عليك وإذا خرج، خرج مشوه الصورة ناقص الحسن»^(١٢٦)، وما يقوله الجرجاني في حقيقة الأمر درس كنا نتمنى أن يعرفه أو يعيه بعض شعرائنا، وحتى نقادنا، الذين فهموا الحداثة باعتبارها تعمد الغموض والإبهام من أجل الغموض والإبهام.

فإذا انتقلنا إلى موقف بلاغي عربي متأخر مثل السكاكي (سراج الدين يوسف بن أبي بكر السكاكي - ٦٢٦هـ) من البيان وجدنا أن موقفه من الحقيقة والمجاز لا يختلف في جوهره عن موقف عبد القاهر فتعريفه لاستخدام اللفظ على الحقيقة يتفق مع تعريف عبد القاهر القائل إنه استخدام اللفظ فيما وضع له، وهو نفسه ما يقوله السكاكي: «الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع»، ثم يؤكد المعنى نفسه مكرراً ألفاظ الجرجاني نفسها: «الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة». أما بالنسبة لاستخدام اللفظ على المجاز، فهو أيضاً يتفق مع الجرجاني في أن الدلالة المجازية هي دلالة عقلية يتم التوصل إليها عن طريق القرائن اللفظية داخل النظام أو النسق اللفوي، فبينما يقوم الاستخدام على الحقيقة على المعنى المعجمي للفظ، دون قرينة لفظية، يعتمد الاستخدام المجازي على القرائن اللفظية داخل النص. من ثم فإن «إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبانقضاء» حسب تعريفه لعلم البيان، «إنما يكون في الدلالات العقلية، مثل أن يكون لشيء تعلق بآخر ولثان ولثالث، فإذا أريد التوصل بواحد منها إلى المتعلق به، فعمى تعاونت تلك الثلاثة في وضوح التعلق وخصائصه صح في طريق إفادته إلى الوضوح والخفاء»^(١٢٨).

إن الاختلافات بين مفهومي استخدام اللفظ على الحقيقة واستخدام اللفظ على المجاز عند السكاكي وعبد القاهر اختلافات هامشية لا تتعلق بالجزئيات في معظم الأحيان، وعلى الرغم من ذلك يبقى فارق جوهري بين الاثنين في منهج الفكر، فالسكاكي ينتمي إلى القرن السابع الهجري، أي

إلى فترة كان تأثير الفكر والمنطق اليونانيين أقوى من أن يكتفي في شؤونه بالحدس والتخمين، وإذا كان هناك شبه إجماع على أن عبدالقاهر قد استبدل النحو وتعليق اللفظ على اللفظ بالمنطق الأرسطي، فإن السكاكي تخطى هذه المرحلة واعتمد على مفردات المنطق الأرسطي في طريقة تفكيره وإثباته أو نقضه للأمور، وقد كان تأثيره بالاستدلال المنطقي كبيراً إلى درجة أنه أفرد للمنطق ميحاً مستقلاً في مفتاح العلوم. وهكذا يحل السكاكي نماذج التشبيه والاستعارة والكناية باعتبارها أمثلة للقياس المنطقي وهو ما يسمى في المنطق باسم القياس المضمر أو المقتضب. ولا بد أن نذكر هنا أن هذا التقنين الدقيق والالتزام بالقواعد التي تفرض أحياناً من ميادين غريبة على اللغة والبلاغة العربيتين كانت نقطة بداية عصر الانحدار في تاريخ البلاغة العربية.

وسوف نتوقف بالقطع عند حازم القرطاجني وآرائه في التصوير والمحاكاة والتخييل في الفصل القادم من هذه الدراسة، إذ إن أفكار هذا البلاغي العربي المتأخر تستحق التوقف عندها في بعض الأناة في سياق حديثنا عن مفردات النظرية الجمالية العربية. يكفينا مؤقتاً التوقف السريع عند مفهوم المعاني الأول والمعاني الثواني عند حازم ثم مفهوم «بناء الاستعارة المركبة» وترادف المحاكاة الذي يقول جابر عصفور في دراسته التراثية القيمة مفهوم الشعر إن حازم طور بهما مفاهيم سبقه إليها بلاغيون عرب. مفهوم «ترادف المحاكاة»، مثلاً أصله قدامة بن جعفر في القرن الرابع الهجري. وإن كان عصفور في الحقيقة لم يشر إلى أن ترادف المحاكاة كما شرحه القرطاجني في منهاج البلقاء، وكما أصله قدامة من قبله، لا يبتعد عن سلم أفلاطون المشهور لتدرج عملية المحاكاة، صعوداً من الن من الأشياء من حولنا ثم إلى عالم المثل الذي يحتوي الحقائق، ومن ثم خلس أفلاطون إلى حكمه المشهور بكذب الشعر وزيفه باعتبارها محاكاة لمحاكاة الحقيقة. والسلم الأفلاطوني هنا لا بد من أن يذكرنا بحديث حازم عن الدمية وانعكاسها في المرأة والمرأة التي يفترض أن المحاكاتين فوق سلم التخيل الشعري، تمثلانها. وإن كان سياق حازم وهدفه هنا يختلف عن السياق الأفلاطوني والنتيجة التي توصل إليها المفكر الإغريقي بنفي الشاعر من جمهوريته الفاضلة. أما

مفهوم «بناء الاستعارة المركبة» ومازلنا مع جابر عصفور، فقد أصله ابن سنان في القرن الخامس الهجري. والاستعارة المركبة، هي جزء غير يسير منها، هي ما يهمنا الآن ونحن نتحدث عن المعنى بالمواضع، والذي يمكن وصفه بأي من المصطلحات التي استخدمناها حتى الآن دون عناء: «استخدام اللفظ على الحقيقة» أو «المعنى» أو «المعنى الأول» ثم عن «استخدام اللفظ على المجاز» أي «معنى المعنى» أو المعنى الثاني، وبهنا، هي هذا الموقف، ما يعنيه حديث القرطاجني عن الاستعارة المركبة من تعدد الدلالة:

«المعاني الشعرية فيها ما يكون مقصودا في نفسه بحسب غرض الشعر ومعتمدا إيراد، ومنها ما ليس بمعتمد إيراد، ولكن يورد على أن يحاكي به ما اعتمد من ذلك أو يحال به عليه أو غير ذلك. ولتسم المعاني التي تكون من الكلام ونفس وغرض الشعر المعاني الأول. ولتسم المعاني التي ليست من الكلام ونفس الفرض ولكنها أمثلة لتلك واستدلالات عليها أو غير ذلك لا موجب لإيرادها في الكلام غير محاكاة المعاني الأول بها أو ملاحظة وجه يجمع بينهما على بعض الهيئات التي تتلاقى عليه المعاني ويصار من بعضها إلى بعض المعاني الثواني فتكون معاني الشعر منقسمة إلى أوائل وثوان» (١٢٩) [التأكيد من عندي].

وهكذا نستطيع أن نمد خطا واضحا من الجرجاني، بل من شامة، إلى القرطاجني مروراً بابن سنان وعبدالقاهر والسكاكي يطور ويعمق ويعدل من وظيفة المجاز في البيان العربي، خاصة التضميه والاستعارة والكناية، وهو خط لا نستطيع أن نقول إنه لم يعد إلى الظهور في الدراسات اللغوية الحديثة منذ بداية القرن العشرين، بعد فترة انقطاع بدأت قبلنا بأجيال، ثم قام جيلنا بتأكيد تلك القطيعة وتعميقها،

وبعد إن تتبع الخيوط بعد تحديدها والتعرف عليها هو ما حاولنا تحقيقه في هذا الجزء من الدراسة، لم ندع أننا نقدم دراسة تراثية شاملة لأعلام البلاغة العربية، أو حتى دراسة شاملة تعلم واحد من الأعلام. ونحنما توقفنا في إمالة واضحة عند عبدالقاهر الجرجاني، لم

نعمل ذلك بهدف تقديم دراسة لبلاغة عبدالقاهر، كنا دائماً نبحث عن خيوط أساسية ونحاول تتبعها في علوم البيان والمعاني العربية التراثية، ثم امتداداتها - ولنقل مثيلاتها - في الدراسات اللغوية والأدبية في العصر الحديث، وفي ذلك تجاهلنا الكثير في الفكر البلاغي العربي، وغضضنا الطرف عن كثير من التناقضات، وفي تتبع تلك الخيوط البارزة حاولنا إثبات ثراء البلاغة العربية بدرجة تكفي لتحديد معالم نظرية لغوية عربية تعاملت مع القضايا التي شغلت لغويي القرن العشرين. وكان التعامل مع هذه القضايا في التراث العربي لا تعوزه البصيرة والعصرنة في أحيان كثيرة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن هدفنا الثاني كان محاولة إثبات أن تلك الخيوط البارزة والأساسية، كان يمكن لنا، لو أننا لم نختار القطيعة المعرفية مع التراث، تطويرها إلى نظرية لغوية عربية، أو علم لغويات عربي متكامل وتاضج.



النظرية الأدبية العربية

أولاً، هل أقرز العقل العربي، في أثناء العصر الذهبي للبلغة العربية، نظرية أدبية؟

لقد توقفت طويلاً أمام اختيار عنوان الفصل الحالي من الدراسة. فكرت في البداية في إعطاء الفصل عنوان «النظرية النقدية العربية»، خاصة أن ذلك هو الاتجاه الذي تشير إليه فصول الدراسة منذ البداية، بل إنني بالفعل استخدمت مصطلح «النظرية النقدية» أكثر من مرة في سياق الحديث عن النظرية اللغوية، لكن النظرية النقدية مصطلح يعني من شأن النقد على الأدب، ويوحى بأن النظرية نشأت من فراغ، وكان التطوير سبق الإبداع في المشهد الثقافي العربي، وهذا غير صحيح، بالنسبة للثقافة العربية أو أي ثقافة أخرى. ناهيك عن أن «النظرية» كمصطلح في حد ذاته قد اكتسبت منذ النصف الثاني من القرن العشرين سمعة غير طيبة بعد ارتباطه بالحدادة وما بعدها. وأذكر القارئ هنا بالرسم الساخر عن النظرية والمنظرين الذي أحلنا إليه في الجزء الأول.

«إن ما أنتجه العقل العربي من الطليعة الإبداعية للأدب، وبرغم كل ذلك الاستشغال الواضح بالفكر اليوناني في الشعر والخطابة والمنطق، تخطى بمراحل كثيرة كل ما كتبه لرسماء حول الطبيعة الإبداعية للمحاكاة وبصورة تجعل من الظلم البين لرجاع إنجازات البلغة العربية إلى التأثير الأرسطي.»

المؤلف

والمتابع لحركة التراث الأدبي والنقدي العربي يعرف جيداً أن النشاط البلاغي النقدي ازدهر بعد أن انتهى العصر الذهبي للشعر العربي. وفكرت أيضاً في النظرية الجمالية العربية كاختيار ثانٍ. وسرعان ما صرفت النظر عن ذلك الاختيار لأن الدراسة الجمالية تركز على دراسة النص من داخله بالدرجة الأولى مما أكسبها، خطأً، في العالم العربي على الأقل، سمعة سيئة لقسوة طويلة خاصة بين دعاة الواقعية الاشتراكية الذين ربطوا بين الدراسة الجمالية ومذهب الفن للفن الذي قالوا إنه يعني الفصل بين الأدب والقوى الاجتماعية والاقتصادية التي تسهم في إنتاجه. ثم إن الرقعة التي أطمح إلى تغليفها ستكون أوسع بكثير من الدراسة النصية.

ولم يبق إلا التفكير في مظلة أوسع، مظلة تشع للدراسة النصية الجمالية ودراسة اللغة الأدبية، وظروف إنتاج النص. والآراء المختلفة حول أدبية الأدب، ولم أجد أمامي إلا التفكير في نظرية للشعر العربي أو حتى علم الشعر بما تحمله اللفظة الإنجليزية التي افتتن بها الحداثيون وما بعد الحداثيين العرب لسنوات الآن وهي Poetics. وحيث إنني، كما أشرت في الجزء الأول، لست من المنبهرين بالمصطلح الغربي في ترجمته الحرفية «بوطيقا الشعر»، وإنني أتخذ موقفاً به الكثير من الحذر من استخدام مصطلح «علم» في وصف الشعر، فقد اخترت المصطلح الواسع الذي يعبر عن مناطق التداخل بين كل هذه الاختيارات غير المريحة. من هنا كان عنوان الفصل الحالي: «النظرية الأدبية العربية».

في الحديث عن نظرية أدبية عربية نواجه أول ما نواجه بأزمة مصطلح حادة. لا ترجع إلى فقر في المصطلح الأدبي أو اللغوي أو تدرته، بل تعدده وتضخمه السباحة به من ناحية، وإلى التداخل الواضح بين بعض المصطلحات «المفاتيح» أو الجوهرية من ناحية ثانية. وقد استعلمنا حتى الآن تحاشي هذا التداخل الذي يصل في أحيان كثيرة إلى حد الفوضى والإرباك باستخدام مصطلح «البلاغة» في حرية واضحة لم يكن مؤلف المرايا المقعرة في الواقع أول من مارسها. فقد كنا نستخدم «البلاغة» في سياقات لغوية وأدبية أحياناً أخرى، وهو ما فعله عدد غير قليل من المحدثين والقديماء على السواء، فأحمد مطلوب، مثلاً، يكتب في مجلة المجمع العلمي العراقي في سياق تعريفه للنقد العربي الذي ينظر إليه باعتباره مجموعة «قواعد بلاغية لا يمكن معرفة الأحكام النقدية إلا من خلال أصولها»⁽¹⁾، ثم يخلص، بناءً على ذلك

النقدية الأدبية العربية

المزج بين النقد والبلاغة، إلى رهفz الفصل بين النقد والبلاغة وحصر التحليل بالجملة أو العبارة، وعلى هذا الأساس، كما يقول مطلوب، فقد حلت البلاغة محل النقد، على أساس أنهما يمارسان نشاطاً مشتركاً هو التحليل: النقد يحلل النص والبلاغة تحلل العبارة. وسوف نتوقف فيما بعد عند العلاقة بين التحليل اللغوي والتحليل الفني أو النقدي للنص، أما محمد زكي السماوي، ففي سياق تحديده لأهداف الدراسة التي يقدمها في قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، يؤكد الآتي:

«سادساً: ألا تفصل بين مفهوم النقد والبلاغة. ولا بين وظيفتهما، أو أهدافهما وقيمتهما في الحياة؛ فالبلاغة كالنقد من أهم وأخطر الدروس في حياتنا الفنية والأدبية، وهي، كالنقد، وسيلتا في إدراك ما في الأدب من قيم، وما فيه من حقائق، وهي وسيلتا في الكشف عن ذوق الأمة وتجاربها وخبراتها، كما أنها السبيل إلى إرضاء حاجات الناس الماطفية والروحية، وهي، فوق هذا كله، طريقنا الوحيد لتبصير الأدياء والشعراء بالصالح فيقتضونه، وتحذيرهم من الفساد فيجتيثونه»⁽³⁾.

وقد توقف جابر عصفور في دراسته القيمة عن مفهوم الشعر ملويلاً عند تعريف البلاغة وكيف اختلف تعريفها، مثلاً: عند حازم الذي ينظر إليها بمعنى «نقد» عنه عند السكاكي. هذه فقط مجرد نماذج من بين عشرات النماذج التي تتداخل فيها مفاهيم البلاغة والنقد، بل حتى مفاهيم علمي البيان والمعاني، جناحي البلاغة العربية، وحيث إننا لا نهدف في الدراسة الحالية إلى التوقف في عجالة أو إطالة عند تلك المصطلحات البلاغية والنقدية، لأنها ليست موضوع اهتمامنا من ناحية، ولأننا لن نستطيع أن نضيف شيئاً للدراسات التراثية المتميزة الذي شهدها النصف الثاني من القرن العشرين، والتي قام بها بعض النقاد الكبار فسوف نتوقف فقط عند محاولة تحديد مكونات النظرية الأدبية العربية، أو على الأقل، سوف نتبع الخيوط الرئيسية، في ظهورها وانقطاعها، التي يمكن أن تجدل معاً نظرية أدبية، والتي كان من الممكن أن تطور هي الأخرى إلى نظرية أدبية عربية متكاملة لو لم نختر القطيعة مع التراث العربي، وهنا أيضاً، سوف نعيد قراءة التراث العربي في حضور خلفية معاصرة، تماماً كما فعلنا مع النظرية اللغوية.

في حديثنا عن نظرية الأدب العربي، إذن، سوف نحاول تحديد أركان النظرية وألياتها، انطلاقاً من وجود أدب أو حركة إبداع أدبي نشطة ممثلة في العصر الذهبي للشعر العربي، تعامل معها البلاغيون والنقاد العرب. التعامل مع الأدب يعني ببساطة: أن هؤلاء البلاغيين والنقاد كانت لديهم نظرة خاصة بهم عن ماهية الشعر - بوصفه النوع الأدبي الغالب آنذاك - ووظيفته وطوره في ضوئها آليات للتعامل مع النص. وهذا أبسط تعريف يمكن أن نقدمه لنظرية الأدب التي سنتعامل معها في المرحلة الحالية من الدراسة. أي أننا سنحاول تعريف الشعر وتحديد وظيفته وأليات التعامل مع النصوص الشعرية الفردية، من تفسير وتحليل وتأويل، هذه المفردات مجتمعة هي ما أسميه الأركان النظرية والتطبيقية للنظرية الأدبية العربية. وفي هذا سنتوقف طويلاً عند هذه الأركان من الزوايا الثلاث المعروفة: وهي زاوية الإنشاء، وزاوية التلقي - ولا نقصد التلقي هنا بمعنى الحداثي أو ما بعد الحداثي - وأخيراً من زاوية المنطقة الوسطى وهي النص الشعري أو الأدبي. وهكذا سنقدم خارطة مفصلة بقدر الإمكان للنظرية الأدبية في التراث العربي القديم تضم كل مفردات أي بوطيقاً أو نظرية شعر حديثة، مثل الشعر أو الأدب بين المحاكاة والإبداع، الطبع والصناعة (الموهبة والتقليد). العلاقة بين الأدب والواقع، علاقة الشاعر بالقوى الاجتماعية المحيطة، وعلاقة النص بمنشأه من ناحية ومتلقيه من ناحية ثانية، ومفاهيم الخيال والمخيلة، والتخييل والتخييل، وعلاقة الأدب بالغايات الجمالية والأخلاقية والعملية، ووظيفته، والنقد، وآليات تحقق الدلالة، والشكل والمضمون والسرقات الأدبية (التناص). باختصار، لا توجد مشكلة نقدية توقفت عندها نظرية/نظريات الأدب الحديثة لم يتوقف عندها العقل العربي منظرًا وممارسة. وهذا على وجه التحديد هو ما نقصده بالخلفية الدائمة الحضور للمذاهب الأدبية والنقدية الحديثة والمعاصرة التي سندرس النقد التراثي العربي في ضوئها.

ليس معنى ثنائية الأمامية والخلفية أننا ستحاول إثبات أن النقد العربي أتى بكل ما أتى به المعاصرون، أو أنه سبق النقد الحديث - طوال القرن العشرين على الأقل - إلى هذه أو تلك من الموضوعات الحديثة والمعاصرة. أو أننا نبحث عن أوجه الاتفاق بين القديم والجديد في تجاهل الاختلاف، فهذه كلها مداخل مرفوضة، أو على الأقل، ليست من بين أهدافنا الأساسية. مرة

النظرية الأدبية العربية

أخرى نذكر بسؤالنا المبدئي: «من قال بوجوب الاتفاق بين الجديد والقديم؟ فالاختلاف بين المذاهب الأدبية والنقدية التي احتشد بها القرن العشرون أكبر بكثير من الاتفاق، ثم إن البلاغيين والنقاد يختلفون إلى حد التناقض أحيانا داخل المذهب الأدبي الواحد، وتلك إحدى السمات البارزة لفكر القرن العشرين. إذا كنا لا نبدأ من منطلق إدعاء سبق البلاغة العربية، ولا نبحت عن الاتفاق، فما الهدف؟ الهدف مرة أخرى، هو تأكيد نظرية عربية للأدب تختلف أصحابها حول أركانها بقدر اختلافهم مع المحدثين من ناحية، وبالقدر نفسه الذي يختلف فيه المحدثون حول أركان نظرياتهم، من ناحية ثانية.

ونعود إلى سؤالنا المبدئي، هل أفرز العقل العربي، أثناء العصر الذهبي للبلاغة العربية، نظرية أدبية؟ هل عرف العرب النقد؟

ويسارع أحمد درويش في التراث النقدي، قضايا ونصوص إلى تقديم إجابة حماسية تعتمد على المنطق الذي يقوم بعد ذلك بتوثيقه: «ولا يمكن للمرء أن يتصور أن تراثا حضاريا كالتراث العربي اعتمد في معظم فتراته التاريخية المعروفة لنا على «الكلمة» قد خلا من محاولة تقويم هذه الكلمة والنقاش حولها، ومحاولة التطور بجمالياتها وتأثيرها، مما يمثل في نهاية المطاف مراحل في تاريخ الفقد الأدبي»⁽³⁾.

وهي ملاحظة منطقية تماما، لكننا نحتاج في هذه الأمور، كما يدرك أحمد درويش جيدا، إلى أكثر من منطق التاريخ. نحتاج إلى شواهد وقرائن، ويرى جابر عصفور أن التركيبية الفكرية في نهاية القرن الثالث الهجري، والجدل الذي صاحب التوتر بين القديم والجديد، أفرزا نقدا أدبيا محدثا:

«وبقدر ما كان هذا الوجه الإبداعي قريين الوجه الفكري في رؤية متعقدة، تسعى إلى التحول عن عالم قديم وأبتداع عالم تاريخي جديد، كانت التصلة وثيقة بين المستويات المتعددة لهذه الرؤية، على نحو جعل أهل العقل في الفكر سندا لطرائق المحدثين في الإبداع، بالتقدير الذي تجاوزت به دوال الإبداع وحوال الفكر لتتعلق دلالة المنظور الاجتماعي المتحول الذي يحتوي الفكر والإبداع مما، يل على نمع التقى: فيه الفكر والإبداع في مستوى يتوسط بينهما، فتولد نقد أدبي، محدث، صاغ فيه أهل العقل الأصول الجديدة للإبداع أقرانهم من المحدثين، مدافعين عنها ومبررين حركتها في الوقت نفسه»⁽⁴⁾ [التأكيد من عندي].

وعلى الرغم من تحفظ عصفور الواضح هنا في حديثه عن النقد الأدبي الذي لا يذكره في حالة تعريف بل تنكير إلا أنه يؤكد أن المعركة بين القديم والجديد في ذلك القرن الثالث، والمعركة الفكرية التي اشترك فيها أنصار العقل من المتكلمين إلى جانب التجديد أفرزت «نقدا أدبيا محدثا» صاغ فيه أهل العقل من المتكلمين الأصول الجديدة لإبداع الشعراء المحدثين، وقاموا بالدفاع عن هذه القواعد وتبريرها، وتجدر الإشارة هنا إلى أن التحفظ الذي أشرنا إليه في سياقنا الحالي لا يمثل موقفا مبدئيا عند جابر عصفور، ففي مواقع أخرى يخرج الرجل عن تحفظه ويعبر عن حماسه الشديد أحيانا للنقد العربي القديم. حدث ذلك على سبيل المثال لا الحصر، عند حديثه عن أهمية ما حققه قدامة بن جعفر في القرن نفسه، في كتابه مفهوم الشعر حيث يرى عصفور أن قدامة بن جعفر قدم «بكتابه نقد الشعر محاولة منهجية فذنة يمكن أن نتعاطف معها أو نحترمها بغض النظر عن اتساقنا أو اختلافنا مع النتائج التي توصلت إليها هذه المحاولة»، ويمضي جابر عصفور مضيفا إلى إنجازات قدامة: «فمنذ الصفحة الأولى من نقد الشعر نشعر أننا إزاء ناقد يعاني فوضى الأحكام النقدية، ويحاول أن يخلص معاصريه من هذه الفوضى بتأصيل نظري صارم للشعر. يحدد به معيارا متميزا يهدي عملية التذوق والحكم على السواء، ويشد العملية النقدية إلى عنصر محدد للقيمة الشعرية»^(٥) [التأكيد من عندي].

وتولت معركة أخرى مختلفة في طبيعتها تفذية حركة النقد الأدبي وتطویرها في القرن التالي، أي الرابع الهجري، وهي أشهر المعارك الأدبية والنقدية قاطبة في العصر الذهبي للبلاغة العربية، والتي كان محورها الخصومة المعروفة بين أنصار أبي تمام والبحتري وبين مذهبهما في كتابة الشعر، وهي خصومة قصمت البلاغيين أياها إلى فريقين: أنصار الطبع وأنصار الصنعة. وسوف نتاح لنا حينما نخرج من المرحلة التمهيدية الحالية الفرصة للدخول في تفاصيل تلك المعركة النقدية بين الطبع والصنعة. وقد استخدمنا لفظة «معركة» هنا عن قصد وتعمد، إذ إن ما شهدته ساحة البلاغة العربية آنذاك كان معركة أدبية كبرى بكل ما تحمل اللفظة من معنى. ويضيف العشماوي إلى تلك الخصومة خصومة أخرى ساهمت في تطوير النظرية الأدبية:

النظرية الأدبية العربية

«على أن هذه الخصومة العنيفة التي نشبت بين أنصار أبي تمام... والبحتري... لم تكن وحدها التي جعلت انقذ في القرن الرابع يبلغ هذه الدرجة من التفتيح والازدهار، فقد كان إلى جانب هذه الخصومة خصومة أخرى لم تكن أقل حماسة من الخصومة الأولى، ألا وهي الخصومة التي قامت حول شاعر كبير ترك في المعاصرين له أثرا بالغا. وكان لشعره دوي غطى على أصوات الشعراء في عصره، ذلكم هو المتنبّي الذي أثار بقرعته الفذة على صياغة الشعر مجالا خصباً لحركة نقدية مماثلة لتلك التي أعقبت الخصومة حول أنصار أبي تمام والبحتري»^(١).

دعونا ننظر إلى الصورة في كليتها من مسافة زمانية تقترب من عشرة قرون أو تزيد وتخيّل في هدوء المشهد الأدبي من القرن الثالث حتى السابع الهجري على الأقل. وإذا احتج إنسان بأننا بهذا ننظر إلى الصورة من خارجها وليس من داخلها، وأننا لهذا السبب لا نعرف عن قرب مكونات المشهد الأدبي دعوني أقل. وإننا بهذا البعد عن الصورة، ومن حيث نحن خارجها، نستطيع تصوّر المشهد بصورة كلية وأن نعي الواقع الأدبي أكثر من وعي المشاركين فيه أنفسهم به، فنحن نتحدث عن عصر لم تكن الثقافات قد عرفت فيه الطليعة والانتشار السريع بعد، فقد كان المشاركون في قضية أدبية واحدة بحاجة حقيقية إلى مسافة اقتراب مكاني حتى يتفاعل الواحد منهم مع الآخر، متأثرا به أو رافضا لموقفه، من داخل الصورة التي افتتحت أجزاءها وسائل النشر التي تجمعها. لم يكن باستطاعة أحد من البلاغيين العرب آنذاك أن يكون صورة متكاملة للمشهد الأدبي. جزئيات المشهد بالنسبة لنا، من هذه المسافة الزمنية هي: بضعة قرون لا يتعدى عددها أصابع اليد الواحدة تقدم عشرات، نعم عشرات من الكتب في علوم النحو والبلاغة والبيان والمعاني ونقد الشعر ومناهج البلغاء، ناهيك عن كتب الفلسفة والفقه والكلام والمنطق والهندسة والجبر والثلث. كان الواحد من هؤلاء يؤلف مخطوطا في البيان فيرد عليه آخر مبدلا أو مضيقا أو ناقضا رأيه ليقدم الرأي المخالف. وحيث إننا نتحدث، كما أشرنا، عن عصر لم يعرف الطليعة والانتشار السريع، بل اعتمد على المخطوطات المحدودة العدد، فإننا لكي نقارن ذلك المشهد بهمثّل له في القرن العشرين لابد من أن نضرب هذا النشاط في ألف على أقل تقدير

لنحقق للصورة بعض توازئها. فلنضرب هذه المؤلفات التي أفرزتها العقول العربية خلال أربعة قرون أو خمسة في ألف، ماذا يحدث؟ يحدث أن صورة المشهد الأدبي في تلك القرون لا يمكن أن تكون أهل حيوية وحياة عن حيوية وحياة القرن العشرين الميلادي. إن صورة المشهد الأدبي القديم، بعد العظيمة الحسابية التي قمنا بها، تموج بالجدل والفكر والفكر المضاد، والرأي والرأي الآخر حول أمور عديدة على رأسها البلاغة والنقد.

وعلى الرغم من أننا في محاولة تتبع الخيوط الأساسية في علوم البلاغة والبيان والمعاني العربية لن نحاول، كما سبق أن أكدنا، تأكيد السبق للنظرية الأدبية العربية، أو حتى إثبات أوجه الاتفاق مع أبرز مقولات النقد الحديث والمعاصر، إلا أننا بالقلم سنتوقف عند علامات طريق بارزة لم يكن فيها العقل العربي أقل عصريّة أو عصريّة من العقل الغربي في القرن العشرين. قد يرى البعض أن إنجاز العقل العربي عاد مبكراً إلى المصادر نفسها التي عاد إليها من بعده العقل الغربي في عصر النهضة، وهي مصادر الفكر اليوناني القديم، وأن بعض الخيوط التي سوف نتبعها في محاولة التأسيس لنظرية أدبية قديمة تمتد إلى الفكر اليوناني القديم عامة، وأفكار أرسطو خاصة في الشعر والخطابة والمنطق. وقد كان تأثير الفكر اليوناني القديم في البلاغة العربية من الموضوعات التي حظيت باهتمام أبرز أعلام الفكر العربي الحديث، وعلى رأسهم طه حسين وشكري عياد الذي تعتبر أطروحته لدرجة الدكتوراه عام ١٩٥٢، والتي قدم فيها ترجمة عربية محققة لكتاب أرسطوطاليس في الشعر مع دراسة ممتازة عن تأثير ذلك الكتاب في البلاغة العربية، من أبرز الدراسات التي تناولت ذلك الموضوع حتى الآن، هل هذا موضوعاً في الدراسة الحالية؟ ليس هذا موضوعنا بالقلم.

لكننا سنبدأ من نقطة النهاية حتى نتركها وراء ظهرنا، نعم، لقد تأثر العقل العربي، في القرون الخمسة المعنية بالبلاغة والمنطق ونظرية الشعر التي أفرزتها الثقافة اليونانية بدرجات متزايدة ابتداء من بداية العصر الذهبي إلى نهايته. فمن شكوك حول تأثير ميكروميكرو من طريق ملخصات رديئة في الفترة المبكرة إلى تأثير مباشر عن طريق الاحتكاك بالنصوص الأصلية وفي قراءات لا تتم عن سوء فهم كبير لها في الفترة المتأخرة عند حازم والسكاكي. وماذا في ذلك؟ إن التأثير بالفكر اليوناني ونقله إلى

النظرية الأدبية العربية

العربية في فترة كانت منابع ذلك الفكر مجهولة ومعطلة في عصور أوروبا المظلمة بحسب للعقل العربي لا عليه.

في دراسة أخيرة لمستشرق إنجليزي يقوم بتدريس الثقافة العربية والإسلامية في جامعة «إكستر» بعنوان: **الفارابي ومدرسته: Al - Farabi And His School** (١٩٩٢) يتحدث إيان ريتشارد نوتون Neuton Ian Richard عن أسفار العلماء العرب، صحيح أن الهدف الأول في مرحلة مبكرة، كان جمع الأحاديث وتحقيقتها، لكن رحلة البحث لم تتوقف أبداً عند الهدف الديني أو تقتصر عليه، لقد تحول البحث عن الحديث إلى بحث عن المعرفة بأنواعها المختلفة:

«المعرفة التاريخية، والمعرفة الفلسفية، والمعرفة الدينية، والمعرفة الصوفية... كان من الواضح أن المعرفة الفلسفية تختلف نوعاً ما عن المعرفة التقليدية، لكن كلتا المعرفتين كانتا قادرتين على إنتاج نظرية خاصة عن المعرفة epistemology، وفي ذلك لم يحدث أن أهملت المعرفة الحسية أو التجريبية، ومن ثم لم يجد الفكر الإسلامي نفسه مضطراً إلى مشاركة أفلاطون شكه في المعرفة المكتسبة عن طريق الحواس ورفضه لها»^(٧).

لقد سعى الفكر الإسلامي إلى المعرفة وارتحل من أجلها واتسعت دائرة معارفه من مجرد الرغبة في جمع الحديث وتحقيقه إلى مجالات المعرفة كافة، وفي ذلك وصل نضجه العقلي إلى درجة رفض الشك الأفلاطوني في الواقع الحسي وثقته المطلقة في عالم المثل، مثل هذا العقل الناضج المتفتح لم يكن ليرفض تأثير أرسطو الأكثر عقلانية. وإن كان ذلك لا يعني إرجاع أفضل ما في البلاغة العربية، سواء في شقيها اللغوي أو الأدبي، إلى منطلق أرسطو ونظريته في الشعر. فقد أدى سوء الفهم المبكر لبعض مقولات أرسطو في نظرية الشعر إلى ارتباك واضح في نظرية الشعر العربية، خاصة في الحالات التي تحدث فيها أرسطو عن أنواع أدبية لم يكن لها مقابل في الأدب العربي، وهذا ما حدث مع الكوميديا والتراجيديا التي حولها المترجمون السريان ثم العرب إلى شعر الهجاء والمديح. وفي مرحلة لاحقة عندما افتتن العقل العربي بالمنطق الأرسطي، كانت تلك بداية النهاية، كما حدث في حالة السكاكي الذي فسّر اللغة باعتبارها قواعد و قوالب منطقية جامدة، وهو التفسير الذي ساهم في دفع البلاغة العربية في اتجاه الانحطاط.

التأثير اليوناني على العقل العربي حقيقة تاريخية لا نستطيع إنكارها، ويجب، في الوقت نفسه، ألا نخجل منها أو نعتذر عنها. لكن ما يجب أن نعترف به هو فضل الفكر اليوناني غير المباشر في تطوير نظرية أدبية عربية تقنن للإبداع الشعري وتحكم شروط إنتاجه وتقويمه. وهذا ما يؤكد شكري عياد في بحثه العلمي الممتاز عن كتاب **فن الشعر لأرسطو**. إذ يؤكد عياد أن اتصال المفكرين العرب بإنتاج الفكر اليوناني بصفة عامة، وانهيار البعض بأفكار أرسطو بصفة خاصة، دفع البلاغيين العرب، ليس بالضرورة إلى رفض التأثير اليوناني، بل إلى مقاومته بإنتاج بديل عربي. لقد شعر البعض أنهم بذلك الانصياع لأراء أرسطو في الشعر يتروكون للفكر اليوناني مهمة التقنين للإبداع العربي، ومن ثم تحركوا في اتجاه إنتاج نظرية شعر عربية، ومن ناحية ثانية، فقد جاء التأثير اليوناني، حينما جاء، في وقته تماماً، في المرحلة التي كانت فيها حركة التجديد في الشعر العربي تخوض معركة حاسية مع أنصار القديم والتراثي. وقد قدم الفكر اليوناني آنذاك مبادئ التفكير العلمي التي رحب المجددون بها كأسلحة في معركة التجديد، وخلص شكري عياد الموقف كله في سطور:

«ومهما يكن من شيء فقد شعرت الحياة الأدبية للعرب لشعورا قويا بهذه المحاولة من الفكر اليوناني أن يقنن للشعر العربي، ولا غرابة في ذلك فقد كانت هذه المحاولة مسابقة لاتجاه الحياة العلمية كلها نحو تأصيل الأصول وتثقيف للقواعد، ومع أن طبيعة الشعر تنافي هذا الاتجاه التقني فقد كانت له في العصر الذي نتحدث عنه هذه الميزة: وهي أنه كان مباشرا بتخليص البلاغة المعاصرة من سلطان الأقدمين، إذا كان - على الأقل - يقيس القدماء والمحدثين بمقياس واحد، فلا يجعل أحد الطرفين تابعا والآخر متبوعا، ولا يجعل فضيلة المتأخرين هي الجري في مضمار المتقدمين في معانيم وأساليبهم»^(٨).

ثم يضيف شكري عياد بعد ذلك بقليل أنه لم يكن مستغربا «أن تلتقي حركة إخضاع النقد للتأثير اليوناني بمحاولة التجديد في الشعر العربي، فيؤلف قدامة كتابا في «الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام»، كما ألف الأمدي من بعد كتاب «الموازنة» منتصرا لليجرتي، وممثلا ذوق «المدرسة العربية» في نقد الشعر»^(٩).

النظرية الأدبية العربية

من هذا المنطلق نفسه الذي يحدده شكري عياد والذي يؤكد أن التأثير اليوناني جاء في وقته تماما حينما قدم دعما منهجيا وعلميا للمجدين في معركتهم مع أنصار القديم. ثم، على أساس أن الفكر اليوناني ولد لدى البلاغي والبياني العربي رغبة في تطوير فكر عربي مماثل، من هذا المنطلق نفسه يقول بعض الدارسين المعاصرين المتميزين إن العقل العربي، حتى في أكثر مراحلها تأثرا بالفكر اليوناني لم يكن فكرا تابعا، بل كان فكرا موازيا طور البيان العربي قياسا على النموذج الأرسطي. وهذا ما يدفع به محمد عابد الجابري في دفاعه عن السكاكي الذي تجمع الدرامات الحديثة تقريبا على أن تبعيته للفكر الأرسطي، والمنطلق على وجه التحديد، كانت بداية عصر الانعطاف في البلاغة العربية، ويصل الجابري، وهو عادة لا يقع في فخ الحماس أو المبالغة، بل يعتمد على التفكير الهادي المنطقي والمؤثق، إلى درجة من الحماس - غير مسبوقه تقريبا عنده - في دفاعه عن السكاكي والبيان العربي الذي طوره:

«والحق أن هناك ما يبرز هذه المماثلة بين «مفتاح» السكاكي و«أورجانون» أرسطو، ليس لأن السكاكي كان «متأثرا» بالمنطق الأرسطي كما يدعي البعض، ولا لأنه ربط و «خلط» بين مباحث البلاغة ومباحث المنطق حينما توج دراسته للبيان بـ «تكملة في الحد والاستدلال»... كلا إن السكاكي لم يصدر عن منظور أرسطي أبدا، ولا كان يفكر بتوجيه من المنطق الذي ضيقه أرسطو... لا، إن علاقة السكاكي بأرسطو لم تكن علاقة متأثر ومؤثر، بل كانت علاقة مماثلة، بمعنى أن كل ما كان «يربط» السكاكي بأرسطو هو أنه عمل على ضبط العلوم البيانية العربية وتقنياتها، وبعبارة أخرى، إنه إذا كانت العلوم الفلسفية اليونانية قد بلغت منتهاها حينما دفع بها تطورها الذاتي إلى الكشف عن منطقها الداخلي مع أرسطو وعلى لسانه، فإن العلوم البيانية العربية قد كشفت هي الأخرى عن منطقها الداخلي مع السكاكي وعلى لسانه، حينما دفع بها تطورها الذاتي إلى ذلك دفعا... وإن فليس السكاكي هو الذي «خلق» الحياة في البلاغة العربية بتمثيلاته وتقنياته، كما يزعم البعض»⁽¹⁾.

وحيث إننا قد أكدنا أننا لسنا في مجال الدفاع عن البلاغة والبيان العربيين ضد اتهام مجتمعاتنا أو الأخذ عن الفكر اليوناني، ولسنا أيضا

في مجال الاعتذار عن التأثر بذلك الفكر، نعود مرة أخرى إلى تساؤلنا المبدئي: هل طور العقل العربي القديم نظرية في الأدب؟ من الواضح أن هذا ما يقول به الجابري، الذي يرجع إلى أحد البيانين المتأخرين، والذي يتفق الجميع على أنه كان أكثر المقول العربية تأثراً بالمنطق الأرسطي، فضل المشاركة في دفع العلوم البيانية العربية «للكشف عن منطقها الداخلي». وسوف نقوم في مرحلة التفصيل الموثق فيما بعد بتتبع الخيوط الأساسية في نظرية أدبية عربية تمتد من الماضي إلى الحاضر المعاصر، حتى لا تكاد توجد قضية نقدية معاصرة لم تتطرق إليها تلك النظرية العربية المبكرة. وسوف نتوقف مؤقتاً عند نموذجين تطبيقيين لإثبات وجود «نظرية» للأدب، كان يتم في ضوءها التعامل التطبيقي مع النصوص.

والواقع أن الإنسان لا يملك إلا أن يتوقف في غير قليل من العجب عند بعض الآراء التي تقول بافتقار الدراسات العربية القديمة إلى النقد التطبيقي، وفي بعض الأحيان يلحق ذلك الاتهام بإنتاج عبد القاهر الجرجاني على وجه التحديد. وهذا اتهام باطل، سواء أكفنا نتحدث عن عبد القاهر أم غيره من البلاغيين والبيانين العرب، صحيح أننا، ونحن نتحدث عن عصر لم يكن قد تم له بعد هذا الفصل أو التمييز بين «التنظير» والتطبيق، نندر أن نجد نصاً تراثياً يقوم بالدرجة الأولى والأخيرة على التعامل التطبيقي مع قصيدة قديمة أو جديدة، لكن صفحات دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، على سبيل المثال لا الحصر، تشهد بعمليات انتقال مستمرة من النظرية، في جزئية منها، إلى التطبيق على بيت شعر أو أبيات أو على آية قرآنية كنموذج للإعجاز. ولهذا سنتوقف عند نموذجين: الأول نص هراشي والآخر شعري، يقوم عبد القاهر في الحاليتين بالانتقال من النظرية إلى التطبيق في قصيدة ووعي كاملين بما يقول ويفعل.

النموذج الأول الذي يتوقف عنده عبد القاهر في دلائل الإعجاز هو الآية الكريمة: «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين» (سورة هود، ٤٤). يكتب عبد القاهر، والإطالة هنا مطلوبة لتأكيد أهمية التعامل النقدي التطبيقي مع النص:

النظرية الأدبية العربية

«هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأضردت، لأذت من الفصاحة ما تؤديه وهي هي مكانها من الآية؟ قل: «ابلمي» واعتبرها وحدها من غير أن تنتظر إلى ما قبلها وما بعدها... وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن تؤدبت الأرض، ثم أمرت، ثم هي أن كان النداء «يبأ: دون «أي، نحو، يا ابتها الأرض» إضافة «الماء» إلى «الكاف». دون أن يقال: ابلمي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل: «وغيض الماء»، فجاء الفعل على صيغة «فعل، الدالة على أنه لم يفيض إلا بأمر وقدر قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: «وقضي الأمر»، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور. وهو: استوت على الجودي»، ثم انضمرا «السقينة» قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة «فعل» في الخاتمة بـ «قيل» من الفاتحة؟ أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتُحضرُك عند تصوورها هيئة تحيط بالنفس عن أقطارها تعلقاً باللفظ، من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق، أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟»⁽¹¹⁾

في النموذج السابق يتحد التطهير والتطبيق بصورة تدحض كل الدعاوى بأن البلاغة العربية لم تعرف النقد التطبيقي. دعونا نحدد الجانبين التطهيري والتطبيقي في سطور الجرجاني. السياق التطهيري الذي ينطلق منه عبد القاهر هو رفضه لموقف اللفظيين الذين يقولون بأن المعاني في الألفاظ، وأن الفصاحة، بالتحالي، في الألفاظ في حد ذاتها، البديل الذي يقدمه عبد القاهر هو «النظم»، تلك النظرية التي ارتبطت باسمه أكثر من ارتباطها باسم أي بلاغي آخر في تاريخ البيان العربي. والنتيجة التطهيرية التي يتوصل إليها الجرجاني، بعد التحليل التطبيقي لمفردات الآية هي: أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك... روعة... تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ الإجابة، النظرية في ضوء التحليل المفصل والرائع للآية القرآنية، أن «الروعة» و «الهيئة» اللتين أبرزهما في تحليله التطبيقي، ترجعان إلى «ما بين معاني الألفاظ من الاتساق

العجيب»، أي العلاقات القائمة داخل النظم والتي تؤكد أحكام النحو. أما النموذج الثاني فبيّنت شعر توقف عنده عبدالقاهر أكثر من مرة، كما توقف عنده بلاغيون آخرون من قبله ومن بعده، وهو:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المحلي الأباطح

لقد توقف عبدالقاهر عند الصورة التي يجسدها الشطر الثاني، «وسالت بأعناق المحلي الأباطح» في سياق حديثه عن الاستعارة، وكيف تتمتع الفضيلة فيها على غرابة التشبيه، مادامت تلك الغرابة لا تؤدي إلى الغموض المقصود لذاته وفي ذاته، وهو أمر يحرص عبدالقاهر على تأكيده أكثر من مرة. يكتب عبدالقاهر في تفسير غرابة الاستعارة في ذلك الشطر من البيت:

«وذلك أنه لم يُخرب لأن جعل المحلي في سرعة سيرها وسهولته

كالماء يجري في الأبطح، فإن هذا شبه معروف ظاهر، ولكن الدقة

واللطف في خصوصية إقادها، بأن جعل «سالت» فعلا للأباطح، ثم

عداه «بالباء»، بأن أدخل الأعناق في التبيين. فقال: «بأعناق المحلي»، ولم

يقول: «بالمحلي». ولوقال: سالت المحلي في الأباطح» لم يكن شيئا^(١١).

الأساس النظري الذي ينطلق منه تحليل عبدالقاهر هو آراؤه، بل نظريته التي يسهب في شرحها عن المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه، ويكاد يشردها كتاب أسرار البلاغة. معك الجودة في الاستعارة هو غرابتها التي تقوم على أنه كلما بعدت المسافة بين المشبه والمُشَبَّه به كانت الاستعارة أفضل، سوف نتوقف عند الصورة الشعرية في أمثلة فيما بعد. لكننا هنا نكتفي بتأكيد وجود إثمار نظري في عقل عبدالقاهر الجرجاني، يمكن وصفه في ضوء النموذجين اللذين تعاملتا معهما فقط، بأنه نظرية نظم أو «بناء» للنص الشعري، تعتمد على الاستخدام الخاص - التخريفي - للغة. وما يحدد أدبية الأدب هو النظم أو الاستخدام الخاص للغة أو اللتين معا، بل يقدم نموذجا آخر لا تتوافر له غرابة الاستعارة، حيث إنها، كما يسميها، مبتذلة مطروقة، وعلى الرغم من ذلك يقوم النظم وحده بتحقيق أدبية بيت المتنبّي:

«وقيدت نفسي في نراك محبة ومن وجد الإحسان قيّدا تقيدا»

الذي يعلق الجرجاني عليه قائلا: «الاستعارة في أصلها مبتذلة معروفة، فإنك ترى العامي يقول للرجل بكثير إحسانه إليه وبيره له، حتى يألفه ويختار المقام عنده: قد قيدني بكثرة إحسانه إليّ إحسانه وجميل فعله معي حتى

النظرية الأدبية العربية

صارت نفسي لا تملأ عني على الخروج من عنده، وإنما كان ما ترى من الحسن بالمسلك الذي سلك في انظم والتأليف»^(١٣). الجرجاني إذن يبدأ من داخل الإطار النظري لمفهومه عن الشعر ووظيفته واللفظ ووظيفتها. وهو الإطار الذي يتعامل مع النصوص على أساسه.

هل نستطيع القول إن ثقافة أفرزت بلاغيا مثل عبد القاهر الجرجاني لم تطور نظرية في الأدب خاصة بها؟ وهل نستطيع أن نقول إن هذه النماذج التي توقفنا عندها لا تكفي لتأكيد وجود نظرية عربية للأدب، بدأت قبل عبد القاهر واستمرت بعده إلى نهاية العصر الذهبي؟ ألا تكفي هذه النماذج الثلاثة، وعشرات الأمثلة الأخرى عند الجرجاني، لتتحسس له بالقدر نفسه الذي تحسس له به العشماوي؛ «وإذا كان في تاريخ النقد العربي والبلاغة العربية شيء يقارب ما انتهى إليه الفكر الحديث في الدراسات النقدية والبلاغة فهو منهج عبد القاهر»^(١٤). والواقع أن قراءة النموذجين السابقين وحدهما تؤكد رؤية عبد القاهر للشعر ووظيفته. والتمعن في الآيات التي استخدمها مع الآية القرآنية ومع شطر البيت الشعري يؤكد أن الجرجاني لم يكن فقط قريبا من الفكر النقدي الحديث في عموميته، بل إنه كان قريبا جدا من المدارس النقدية التي أفرزها القرن العشرون باستثناء التفكيكية. فالنموذجان يقدمان قراءة لصيغة للنص كالمصق ما تكون القراءة في النقد الجديد التحليلي والنقد البنوي. ففي الوقت الذي يعتمد فيه عبد القاهر نهج تحليل النص من داخله يعتمد أيضا - وبالقدر نفسه - تحليل البنية أو البنى اللغوية ويزاوج بين الآيتين في اقتدار واضح. هل يستطيع منصف أن ينكر مثلا أن عبد القاهر يقترب من المعالجة البنيوية للنصوص بقدر اقتراحه من المنهج التحليلي للنقد الجديد؟ وقد سبق أن قلنا إن نظرية النظم في جوهرها صيغة موسيرية وبنوية مبكرة، فهو حينما يتحدث مثلا عن ارتباط «الروعة والهيئة» اللتين يولدهما فينا النص القرآني بما «بين سعاني الأنفاظ من الاتساق العجيب» يتحدث عند شبكة العلاقات بين العلامات على المحور الأفقي، وهو ما أسميناه من قبل بعلاقات المجاورة وحينما يتحدث في تعامله مع شطر البيت الشعري عن استخدام الشاعر للفظ كذا وعدم استخدامه كذا فهو يتحدث في الواقع عن شبكة العلاقات التي تربط بين العلامات على المستوى الاستبدالي أو الأفقي وهو ما أسميناه بعلاقات الاختيار. الحديث عن عبد القاهر الجرجاني كناقذ بنيوي بالدرجة الأولى ليس

جديدا، وقد سبق أن قال كمال أبو ديب بذلك، ولكنه فعل ذلك لتأسيس شرعية البنيوية الحديثة، وليس لتأسيس شرعية عبدالقاهر نفسه، والواقع أن وصفاً منهج عبدالقاهر بالبنيوية فيه افتتات واضح على البلاغي العربي القديم! إن بنيوية الجرجاني تقوم على التعامل مع اللغة كنظام من العلاقات تحكمه شبكة علاقات مركبة، علاقات تعالق واختلاف. وهو أيضاً، كما تشهد بذلك عشرات الأمثلة التي يتعامل فيها مع نصوص شعرية وغير شعرية، يناقش بالتفصيل آليات الدلالة، وعلاقات الوحدات اللغوية بعضها مع بعض داخل البنية اللغوية أو الجملة أو النسق في ضوء أحكام النحو. لكن على وجه التحديد كان مقتل البنيوية الحديثة، كما شرحنا بالتفصيل في المرآيا الحديثة، لقد كان توقف الناقد البنيوي عند كيفية تحقق الدلالة وعدم اهتمامه بماهية الدلالة هو بداية النهاية للبنيوية، بعد أن أصبح الناقد البنيوي سجين اللغة، وفي الحالات التي كان الناقد البنيوي ينتقل فيها من آلية الدلالة إلى ماهيتها كان يخرج من دائرة المشروع البنيوي ليدخل دائرة التحليل الذي ارتبط بالنقد الجديد. وقد بينا ذلك بالأمثلة والنماذج في كتابنا السابق. لكن الممارسات التطبيقية عند عبد القاهر الجرجاني تثبت أنه لم يتوقف قط عند آلية الدلالة. وفي النموذجين اللذين أحلنا القارئ إليهما منذ قليل مصداق لهذا الرأي، فالرجل يتحدث عن آلية الدلالة على معنى يناقشه في استفاضة ولا يتركه غفلاً، وبصورة تجعل الفصل بين آلية الدلالة وماهيتها أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً، خلاصة القول: إن ما نريد تأكيده في هذه المرحلة المبكرة من الحديث عن نظرية عربية للأدب هو أن اهتمام عبدالقاهر بالمعنى يوسع دائرة بنيويته المبكرة ولا ينفيها، إذ إن بنيويته أكثر ديناميكية من التعامل البنيوي الحديث مع النصوص الأدبية والذي لا يقدم، في أفضل الأحوال، أكثر من نحو تلك النصوص.

لكن الحديث عن الدراسة اللغوية للنص الأدبي يحتاج منا إلى وقفة أكثر أناة مما فعلنا حتى الآن، ولابد هنا أيضاً من تحذير القارئ في هذه المرحلة المبكرة في دراسة النظرية الأدبية العربية. فعلى الرغم من أننا أضرنا فضلاً مطولاً للنظرية اللغوية العربية، إلا أن حديثنا عن اللغة لم ينته، إذ لا يمكن لنا دراسة النظرية الأدبية العربية بمعزل عن النظرية اللغوية العربية لسببين جوهريين.

النظرية الأدبية العربية

الأول، لقد أصبحت الدراسات الأدبية في القرن العشرين، منذ قدم سوسير علم اللغة الحديث، دراسات في اللغة قبل أن تكون أي شيء آخر، وهي حقيقة تؤكدُها المحطات الثلاث الرئيسية في حركة النقد الحديث والمعاصر طوال القرن العشرين، وهي النقد الجديد، والبنوية، وما بعد البنوية من تلقى وتمكيك. صحيح أن النقد الجديد، التي تزامنت بداياته تقريبا مع صعود نجم علم اللغة الحديث، لم يؤسس على الدراسات اللغوية الحديثة، كما فعلت البنوية فيما بعد. وربما يكون ذلك التزامن أحد أسباب «إفلات» النقد الجديد من تأثير الدراسات اللغوية الحديثة، فقد كان الأمر يحتاج إلى بعض الوقت حتى تتحول آراء فرديناند دي سوسير إلى نظرية مؤثرة في الفكر الأدبي والنقدي الغربي. لكن ذلك لا يعني أن التحليل اللغوي كان غريبا على أصحاب النقد الجديد، إذ إن القراءة اللصيقة للنص الأدبي وتحليله من داخله - وهي أبرز سمات النقد التحليلي - كانت تعني أيضا قدرا من التحليل اللغوي للنص والتوقف عند الآليات اللغوية لتحقيق الدلالة. أما البنوية وما بعدها فالأمر معهما لا يحتاج حتى لمجرد التوقف العاجل للحديث عن أهمية اللغة كمدخل أساسي إلى عالم النص الأدبي. ومن نافذة القول هنا التذكير بأن علم اللغة الحديث، كما قدمه سوسير، هو العمود الفقري للدراسات النقدية والأدبية التي جاءت بعد النقد الجديد، سواء اتفقت مع جميع آرائه أو بعضها، أو نقضت البعض الآخر. وهذا ما دفع واحدا من أكبر النقاد المعاصرين. وهو جوناثان كلر، إلى تعريف الأدب، في نهاية القرن العشرين، باعتباره تكاملا لغويا بالدرجة الأولى:

«إن الأدب لغة تجمع عناصر النص المختلفة ومكوناته داخل علاقة مركبة. فحينما ألقى خطابا خطابيا بالتبرع لقضية خيرة، لا يحتمل أن أجد الصوت صدئ للمعنى، أما في الأدب فهناك علاقات - علاقات دعم أو تعالق أو علاقات تعارض واختلاف - بين بنى المستويات اللغوية المختلفة: بين الصوت والمعنى، بين الترتيب النحوي وأنماط التيمات، فالقافية حينما تجمع بين لفظتين (suppose/knows) تجمع أيضا بين معنييهما»⁽¹⁾.

إننا في حقيقة الأمر، ونحن نقرأ كلمات كلر في نهاية القرن، نعيد قراءة كلمات سوسير في بدايته.

الثاني، إن البلاغة العربية، سواء في علم البيان أو علم المعاني، قامت على الدراسة اللغوية للنص، وقد سبق أن أشرنا في معرض الحديث عن واحدة من أهم ثنائيات البلاغة العربية، وتعني بها ثنائية اللفظ/المعنى، إلى أن الدراسة اللغوية للنص بدأت كاتجاه مكر في علم أصول الفقه الذي أكد أهمية ضبط العلاقة بين اللفظ والمعنى كمدخل لدراسة النص القرآني ونص الحديث، على أساس أن ذلك الضبط محوري في دراسة وجود دلالة الأدلة على الأحكام الشرعية، وقد قلنا أيضا، تأسيسا على هذا المبدأ، إن البحوث الفوقية كانت واحدة من أبرز السلطات المرجعية في علم الفقه، وهو الذي جعل أحد الفقهاء يقول إنه ظل يفتي الناس في شؤون دينهم لمدة ثلاثين عاما معتمدا على كتاب سيبويه في نحو اللغة العربية، ويزيد محمد عايد الجابري هذه العلاقة العضوية بين البحث اللغوي والبحث الفقهي إيضاحا: «فهو يرى أن البحث الفقهي الأصولي أساسا بحث في دلالة النص ودلالة معقول النص؛ أما البحث في دلالة النص فتوابعه عملية استقراء واسعة لأنواع الملاحظات التي تقوم بين اللفظ والمعنى في الخطاب البياني بقصد ضبطها وصياغتها في قواعد. وأما البحث في دلالة معقول النص أو «معنى الخطاب»... فيدور حول محور رئيسي واحد هو القياس والقياس الفقهي هو تمديد حكم «الأصل» (= ما ورد فيه نص) إلى «الفرع» (= ما لم يرد فيه نص)، باعتماد معقول ذلك النص نوعا من الاعتماد، وإذن هناك مستويان متمايزان، ولكن متكاملان، في البحث الأصولي: المستوى الذي محوره اللفظ/المعنى، في علاقتهما الثنائية كزوج، والمستوى الذي محوره الأصل/الفرع، الذي يحفل فيه الزوج اللفظ/المعنى موقع الأصل»^(١٦).

ولهذا لم يكن غريبا، بعد هذا الاهتمام المبكر بأهمية ضبط معنى النص ودلالته في مجال من مجالات العقيدة، أن يكون تعامل البلاغي العربي مع النص الشعري أيضا من مدخل لغوي في المقام الأول، وكانت النقلة من الحديث عن إعجاز النص القرآني إلى بلاغة النص الشعري تمر بالجسر اللغوي نفسه، وربما تكون اللغة العربية، دون كثير ادعاء، هي اللغة الوحيدة بين لغات الأرض التي ارتبطت عندها الحاجة لضبط الدلالة على مستوى محور أو ثنائية اللفظ والمعنى بوازع ديني، مما يعد في حد ذاته ردا قويا ضد الاتهامات بالتقصير الذي يرفعها البعض في وجه اللغة العربية من آن لآخر.

النظرية الأدبية العربية

إذا كان التحليل اللغوي للنص، إذن، هو مدخل التعامل النقدي مع النصوص في المذاهب النقدية الحديثة والمعاصرة التي أسست على علم اللغة الحديث، فإن البلاغة العربية توقفت منذ مئات السنين عند كثير من قضايا التعامل النقدي مع النص التي توقف عندها النقاد البنيويون وما بعد البنيويين الذين يتعاملون مع النص الأدبي باعتباره نصا لغويا بالدرجة الأولى، يقوم الناقد في تعامله معه باستكشاف إمكانات اللغة وتجيورها: «وُلِعَ من أهم التصورات التي قدمتها المنهجية اللسانية»، يكتب محمد الأمين، «التأكيد على ضرورة اللجوء إلى اللغة، والإصغاء إليها، ومحاولة تجسيدها لمعرفة أبعادها وكوامنها. فهذه الطريقة وحدها تم تجاوز الدائرة التاريخية في البحث اللغوي، والاستعاضة عنها بمناهج الدائرتين البنيوية وما بعد البنيوية»^(١٧).

إن تعامل البلاغي العربي مع النص يقدم نموذجا نقديا لا يختلف في جوهره عن النموذج البنيوي مع فارق جوهري هو: أنه لا يتوقف في جمود عند آلية تحقق الدلالة أو عند «كيف يتحقق المعنى»، بل يتخطاها إلى المعنى نفسه وماهيته، وهكذا جاءت الممارسة النقدية العربية مريضا مبكرا من النقد التحليلي والنقد البنيوي.

لقد أصبحت إعادة قراءة التراث البلاغي العربي من منظور حديث ضرورة، لا لفهم التراث فقط، بل لفهم الإمكانيات الفنية للغة العربية ذاتها. في عصر أصبحت فيه الدراسات الأسلوبية هي المنطقة الوسط الجديدة بين الدراسات اللغوية والنقد الأدبي، كما يرى شكري عياد. فالحضر في كنوز اللغة العربية هو المدخل الأول لتطوير علم أسلوب عربي. في محاولة لتطوير علم أسلوب عربي، يكتب عياد في اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي (١٩٨٨):

«ومن ثم فسيكون علينا أن نحضر عند الجذور، أي أننا سنبحث عن الخصائص الفنية للغة العربية من خلال كتابات اللغويين، قبل أن نبحث عنها في التراث البلاغي الصرف... ونحن نعترف دائما بأننا لن نستطيع فهم القديم... إلا إذا نظرنا إليه بعينين معاصرة، ولا يقتصر ذلك على الوعي بمشكلات الحاضر ومطالبه، ولكنه يستخدم وسائل الفكر المعاصر أيضا»^(١٨).

خلاصة القول إنه إذا كان كل شيء في النقد الحديث والمعاصر يشير في اتجاه اللغة، فقد كان كل شيء في البلاغة العربية يشير أيضا في اتجاه اللغة،

ويكفي القارئ أن يتوقف عند عبدالقاهر الجرجاني وحده ليدرك ذلك الانشغال شبه المطلق بكيف تقوم اللغة بالدلالة من ناحية، وماهية الدلالة أو المعنى الذي تدل عليه تلك اللغة من ناحية أخرى. «فاللغة عنده»، كما يكتب العشماوي، «وحدة لا تفصل فيها الصورة الشعرية عن التعبير الأدبي، بل هي جزء لا يتجزأ منه. لا تستمد قيمتها إلا من النظم، ولا تكتسب فضيلتها إلا من السياق بل إن تفسيرها وفهم معناها لا يمكن تحقيقه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته»^(١٩).

بقيت لنا علامة طريق واحدة في هذه المحطة المبكرة للنظرية الأدبية العربية، وهي مفهوم الشعر عند البلاغيين العرب، إذ إننا لا نستطيع أن نتحدث عن طبيعة الأدب ووظيفته، ثم آليات التعامل النقدي مع النص الأدبي، دون تحديد مفهوم للشعر، بل إننا، في حقيقة الأمر، لا نستطيع أن نتحدث عن النظرية الشاملة للشعر Poetics في مناخ فكري لا يقوم أولاً، وفي مرحلة مبكرة، بتعريف «الشعر» الذي نوسع نحن معناه ليعطي الإبداع الأدبي. وقد قدم العقل العربي منذ البداية تعريفه الخاص للشعر، وظل يضيف إليه ويعدله ويمطوره في أثناء العصر الذهبي للبلاغة العربية.

كان من الطبيعي أن يحاول البلاغيون تقديم تعريف/تعريفات للشعر، سواء هؤلاء الذين لحقوا بنهايات العصر الذهبي للشعر العربي أو أولئك الذين لحقوا ببدايات عصر التراجع والانحطاط، ابتداءً بابن طباطبا العلوي وقدامة بن جعفر، وانتهاءً بعازم القرطاجني وابن خلدون، وربما تكون كتب البلاغة التي حاول أصحابها تأصيل مفهوم الشعر والتي وصلتنا أقل بكثير من تلك التي لم تصلنا، ويقدم جابر عصفور في دراسته التراثية المتميزة مفهوم الشعر قائمة طويلة بالمؤلفات التي لم تصلنا من إنتاج القرن الرابع الهجري وحده، والتي تشترك جميعاً في محاولة التأسيس النظري لمفهوم الشعر في ذلك القرن الظاهرة. وسوف نتوقف عند ثلاثة تعريفات للشعر، تنتمي، كما قلنا، إلى بداية عصر ازدهار الدراسات البلاغية مع نهاية العصر الذهبي للشعر، وإلى بداية عصر الانحطاط في الإبداع والتخيل. وهنا نعود إلى التذكير بأننا لا نهدف إلى تقديم دراسة جامعة لكل ما كتب عن مفهوم الشعر في البلاغة العربية، بل إلى إثبات وجود مثل هذا المفهوم وبتنوعاته ثابنت حسب المتغيرات والقوى المؤثرة في العقل العربي. فتعريف قدامة بن جعفر وابن طباطبا العلوي للشعر

النظرية الأدبية العربية

في القرن الرابع الهجري حينما كان تأثير الفكر اليوناني في الشعر والخطابة في بدايته يختلف عن تعريف ابن سينا ثم عن تعريف حازم القرطاجني حينما أصبح من الصعوبة بمكان الحديث عن قضايا البيان والمعاني بمعزل عن المؤثرات الأجنبية. وقد سبق أن تخطينا جسر التأثير بالفكر اليوناني القديم على أساس أنه ليس في ذلك ما يثني العقل العربي أو يقلل من أهمية إنجازاته، ولا نلن أننا في حاجة إلى تأكيد ما هو يدهي، وهو أن الجهد التنظيري، أي محاولة تأسيس نظرية شعرية (أدبية) لم تسبق الجهد الإبداعي، فالعكس هو الصحيح، ليس في تاريخ الفكر العربي فقط، بل في كل الثقافات الإنسانية. فالإبداع هو الذي يقن للإبداع، والتظهير جهد تال يقن للإبداع كما قن الإبداع لذاته، وتلك حقيقة ينساها بعض الذين يرفضون المفهوم العربي التراثي للشعر، فاسن وسط ذلك الرفض، أن ذلك المفهوم لا يقن مسبقا للشعر بالأمس واليوم، بل يقوم على استقراء تلك القواعد من روائع الشعر العربي القديم، وليس بالطبع، من الشعر الحديث، أو الحر مثلا.

أشهر تعريف مبكر للشعر تعريف استخدمه البلاغيون العرب كخليفة دائمة الحضور وتناولوه بالتفسير والتعديل والتطوير، وهو تعريف قدامة بن جعفر الذي يصف الشعر بـ «أنه قول موزون مقفى يدل على معنى» ويفصله هو نفسه في العبارات التالية:

«فقولنا (قول) دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر، وقولنا (موزون) يفصله مما ليس بموزون، إذ كان من القول موزون وغير موزون، وقولنا (مقفى) فصل بين ما له من الكلام الموزون قواف وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع، وقولنا (يدل على معنى) يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى»^(٢٠).

في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ البلاغة العربية لم يكن ممكنا تقديم تعريف للشعر أفضل من تعريف قدامة وأكثر شمولاً للطبيعة الشكلية للشعر على الأقل. ولا بد من الإشارة هنا إلى أننا أمام تعريف عربي خالص لم تدخله بعد تلك التعقيدات التي جاءت مع الاحتكاك الأكثر مباشرة ووضوحا بالفكر اليوناني. كما سيتضح في تعريفات ابن سينا وحازم وابن خلدون. لكن

قدامة، في ظل هذا الإدراك الأساسي للطرف التاريخي الذي أفرز ذلك التعريف، يقدم تعريفاً يتدرج من العام إلى الخاص، فصفة القول، مثلاً، صفة تشترك فيها جميع الخطابات الأدبية، ومن ثم ينتقل قدامة إلى خاصية أكثر تحديداً وهي الوزن. لكن الوزن هو الآخر ليس مقصوراً على الشعر، لهذا ينتقل إلى أكثر الخصائص التصاقاً بالشعر وهي الثقافية. ثم يشتتم قدامة تعريفه بخاصية يمكن ربطها بالصفة الأولى وهي القول، فكل قول، لكي يكون خطاباً أدبياً، لابد أن يكون له معنى. وتلك إحدى البدهيات في بلاغة انشغلت كل ذلك الانشغال بقضية اللفظ والمعنى.

لم يقل أحد - ولا يمكن لأحد أن يقول - إن تعريف قدامة للشعر تعريف جامع مانع، بل إن التذكير بالطرف التاريخي الذي أفرز ذلك التعريف، والتعريفات المماثلة، مثل تعريف إن طباطبغا، مثلاً، ليس تبريراً كافياً للتغاضي عن قصوره. لكن، ليس معنى ذلك التقليل من أهمية التعريف باعتباره، من ناحية، محاولة مبكرة لتأسيس علم «لتمييز جيد الشعر من رديئه»، ثم باعتباره دليلاً مبكراً على بدايات واضحة لنظرية عربية للأدب، من ناحية أخرى، «وأول خطوة لتمييز جيد الشعر من رديئه»، كما يقول جابر عصفور، «هي تحديد المادة الشعرية، التي يمكن أن يتجاوزها الحكم بالجودة والرداءة». ويتم ذلك عن طريق «الحد» أو التعريف الذي يقوم على «الجنس» ثم «الفصل» فيصبح الحد أو التعريف جامعاً مانعاً للمادة^(٢١). وعلى الرغم من حماس جابر عصفور الذي سبقت الإشارة إليه لعملية تعريف الشعر عند قدامة، إلا أنه لا يتجاهل أوجه القصور في ذلك التعريف المبكر: «هذا التعريف جامع مانع للمادة فحسب، بمعنى أنه لا يتطوي على أي تحديد للقيمة، ولا يميز ما يمكن أن نسميه «الشعر الحق» مما ليس كذلك، أو بعبارة أخرى - لا يميز الشعر عن مجرد النظم الوزني»^(٢٢).

لكن إدراكنا لقصور ذلك التعريف المبكر، بل اختلافنا معه، لا يعني بأي حال من الأحوال احتقاره أو رفضه باعتباره دليلاً على محدودية العقل العربي وانغلاقه أو تخلفه، ففي الوقت الذي قدم فيه قدامة هذا التعريف، كانت أفكار أفلاطون وأرسطو عن الشعر والمحاكاة ذهنية في أكوام الذاكرة المظلمة للعقل العربي، ثم، من قال، للمرة الأولى، إن القول بوجود نظرية أدبية عربية يعني أننا نتفق معها في كل أركانها أو حتى جزئياتها؟ لكننا نتحدث عن حق الاختلاف

النظرية الأدبية العربية

وليس الاحتقار الذي عبر عنه أدونيس في مقدمة الشعر العربي: «الشعر هو الكلام الموزون المقفى، عبارة تشوّ الشعر، فهي العلامة والشاهد على المحدودية والانغلاق. وهي إلى ذلك معيار يناقض الشعرية العربية ذاتها، فهذا الطبيعة عفوية، فطرية، انبثاقية، وذلك حكم عقلي منطقي»^(٢٣). والواقع أن موقف أدونيس هنا، شأنه شأن دعاة التجديد في القرن العشرين الميلادي، يضع العربية أمام الحضان في معالطة مؤسسية، فهو حينها يقول إن تعريف قدامة يناقض الطبيعة الشعرية العربية ينسئ أن ذلك التعريف لم يسبق الشعر العربي أو الشعرية العربية، وأن قدامة فعل ما فعله المنظرون من قبله ومن بعده، حينها استمد النظرية أو التعريف من الإبداع الشعري من حوله، هكذا فعل أشهر المنظرين للتراجيديا في تاريخ الفكر الإنساني وهو أرسطو، حينما أقام نظريته في التراجيديا على أساس الإبداع الدرامي القائم، وبخاصة أوديب ملكا لسفوكل. وقد أثبت تاريخ الدراما عبر ما يقرب من خمسة وعشرين قرناً، أن تعريف أرسطو للتراجيديا لم يكن ملزماً لأحد، وأن تطور الإبداع الإنساني يمثل عملية تفتين نظرية يمارسها الإبداع نفسه تسبق التطوير النقدي الذي يسازع بصفة مستمرة لتكليف نظرياته مع كل إبداع جديد. وهذا ما يجب أن ندركه، وننصرف على أساسه، في تعاملنا مع التراث النقدي العربي؛ فختلف معه، ونطوره، ونعدله، دون أن ندير له ظهورنا في احتقار.

في الثلث الأول نفسه من القرن الرابع الهجري الذي قدم فيه قدامة بن جعفر نقد الشعر قدم ابن طباطبا العلوي (٢٢٢ هـ) كتابه المعروف عيار الشعر، وقدم أيضاً تعريفاً مطولاً للشعر سبق به تعريف قدامة، وإن كان تعريف الثاني هو الذي علق بذاكرة البلاغة العربية أكثر من أي تعريف آخر. يعرف ابن طباطبا الشعر على أنه:

«كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به النظم الذي إن عدل عن جهته مجتبه الأسماء، وقصد على الذوق، ونظمه معلوم محدد، فمن صح طبعه وذكوه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفه العروض والحقق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالتطبع الذي لا تكلف معه»^(٢٤).

أركان التعريف المبدئية هي التي حدها قدامة، ولا تعرف إذا كان الأخير قد استقاد من تعريف ابن طباطبأ أم لا. وإذا كان البعض يعيب على تعريف قدامة أنه شكلي بالدرجة الأولى، فإن تعريف ابن طباطبأ أكثر شكلياً وتعميماً، فقد أكد قدامة على الأقل أهمية أن يدل القول الموزون على معنى. لكن تعريف ابن طباطبأ يضيف شيئاً لافتاً للانتباه في تلك الفترة المبكرة، فهو ينتقل من مادة الشعر إلى العملية الإبداعية نفسها creative process ويتحدث بكلمات عن الطبع والصنعة، وهو موضوع سنتوقف عنده طويلاً عندما نناقش العملية الإبداعية ودور الموهبة والتقاليد، قديماً وحديثاً. يكفي أن نشير هنا إلى أن الشعر الذي يصح طبعه وذوقه، بالنسبة لابن طباطبأ، لا يحتاج حقيقة إلى كثير صنعة أو تكلفها، فالموهبة لن توجهه إلى دراسة العروض، أما الشاعر الذي اضطرب عليه الذوق، ولم يمتلك الموهبة فلن تقديم دراسة العروض وتكلفها، لكن ذلك لا يعني، كما قد يخلص البعض في عجلة، نفي ابن طباطبأ لدور الصنعة متمثلة في العروض، لكن النموذج الذي يتحدث عنه هو نموذج الشاعر المطبوع الذي تتحد عنده الموهبة والقواعد دون تكلف، هو النموذج الذي تصبح العروض عنده جزءاً من موهبته «حتى تعتبر معرفته الاستفادة كالميلب الذي لا تكلف معه». المهم أن كتاب عيار الشعر يعتبر علامة طريق مبكرة في رحلة العقل العربي مع النظرية الأدبية، وهذا ما يؤكد جابر عصفور: «أي أن الكتاب ليس كتاباً فيما نسميه بالنقد التطبيقي، الذي يتركز حول النقد الموضوعي معتمداً على الموازنة، أو قياس الأشياء على النظائر، وإنما هو كتاب في النقد النظري، الذي يعني بتحديد أصول الفن، وتوضيح قواعده، وبالتالي تحديد معيار للقيمة»^(٢٥).

المحلة الثالثة تقدم لنا آخر التعريفات وأكثرها أهمية وعمقاً، ونقصد بها تعريف حازم القرطاجني الذي ورد في منهاج البلغاء وسراج الأدباء. وحينما نصل إلى محطتنا الأخيرة تكون مياه كثيرة قد مرت تحت جسر البلاغة العربية، ويعدد جابر عصفور بعض التغيرات التي كانت قد طرأت على الأمة العربية، خاصة في جانبها الفكري، والتي أعطت لحازم تلك المكانة الفريدة التي يحتلها في تاريخ البلاغة العربية:

«لقد جاء القرن السابع للهجرة، بعد قرنين من وفاة آخر الشعراء الكبار في التراث، وبعد حملة عداء للشعراء قادتها طوائف من أهل النقل باسم التقوى والأخلاق... وكان وعيه بانهيار الأندلس، موطنه، يواكب وعيه بانهيار الشعر. ولقد اختار العقل في عصر يعادي العقل. واختار الفلسفة في عصر يشك في الفلسفة، واختار الارتباط بالماضي المتقدم في عصر لم يعد يعي إلا التخلف... لم يكن أمامه من سبيل إلا التواصل مع الإنجازات الأصلية من قبله، فبدأ من حيث انتهى قدامه... حتى وصل إلى آفاق فريدة، مكنته من صياغة أنضج مفهوم للشعر في تراثنا النقدي... وإذا كان ابن طباطبا وقدامه يمثلان مرحلة «تشكيل المفهوم»، فلا شك في أن حازما يمثل مرحلة «تكمال المفهوم»^(٢٦).

ومن بين المياه الكثيرة التي مرت تحت جسر البلاغة العربية في الفترة من ابن طباطبا وقدامه إلى حازم القرطاجني وضوح العلاقة بين الثقافة اليونانية القديمة والثقافة العربية، وهي علاقة كانت بصمات تأثيرها قد زادت وضوحا مع ابن سينا في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريين. وقد وصلت قوة ذلك التأثير إلى حد التقارب اللافت للنظر بين أسس الهجوم الذي قاده أهل النقل ضد الشعر العربي والهجوم العنيف المبكر الذي قاده أعلامون من قبلهم في كتاب الجمهورية ضد الشعر والشعراء. والطريف أيضا، أن الدفاع عن الشعر اعتمد في جزء كبير فيه أيضا على دفاع أرسطو عن الشعر، وما على المرء إلا أن يقرأ كلمات حازم القرطاجني في الدفاع عن الشعر ليدرك عمق تأثير الفكر اليوناني في مفهوم حازم الناضج عن الشعر:

«كثير من أنزال العالم - وما أكثرهم - يمتدح أن الشعر نقص وسفاهة. وكان القدماء من تعظيم صناعة الشعر واعتقادهم فيه ضد ما اعتقد هؤلاء الزعافنة، على حال قد نبه عليها أبو علي ابن سينا فقال: كان الشاعر في القديم ينزل منزلة النبي فيعتقد قوله، ويصدق حكمه، ويؤمن بكلماته، فانظر إلى تفاوت ما بين النحاليين: حال كان ينزل فيها منزلة أشرف العالم وأفضلهم، وحال صار ينزل فيها منزلة أخس العالم وانتقصهم»^(٢٧).

نعم، كان القدماء يسمون الشاعر «vales» ومعناها نبي أو قادر على التنبؤ، وهو الدفاع الذي قدم في سياق الرد على اتهام أفلاطون للشعراء بالكذب. المهم أنه إذا كان تعريف حازم للشعر يمثل الحلقة الأخيرة في تعريفات البلاغة العربية للشعر، وهي حلقة تمثل مرحلة النضج في مفهوم الشعر، كما سنرى، فإن التأثير اليوناني يجعل من ذلك التعريف امتدادا للنقطة البداية اليونانية، كأنه الثمرة الأخيرة لجهود المفكرين اليونان والعرب على السواء. فكتاب حازم يعتبر «حلقة في تراث نقدي ممتد؛ حلقة يمكن تتبع أصولها منذ القرن السابع للهجرة (الثالث عشر الميلادي)، إلى القرن الرابع قبل الميلاد عند الإغريق. ويتضح المقصود بذلك عندما نأخذ في الحسبان أن إنجاز حازم النقدي ينتمي - في نهاية المطاف - إلى نظرية المحاكاة التي سادت الفكر النقدي في العصور القديمة والوسطى»^(٢٨).

أعتقد أننا أصبحنا مستعدين بما فيه الكفاية للتعامل مع تعريف حازم القوطاني للشعر، ذلك التعريف الذي يفترض أنه نقطة النضج الأخيرة التي اجتمعت عندها كل جهود العقل العربي لتطويره، مستقلا ثم متأثرا بالفكر اليوناني، لتعريف ناضج وشبه نهائي للشعر:

«الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحجب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو مقصورة بحسن هيئة تأليف الكلام، أو قوة صدقه أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك»^(٢٩).

من الواضح أن حازما يؤسس تعريفه، عند نقطة انطلاقه، على التعريف صاحب المصادقية الأولى، ونعني به تعريف قدامة بن جعفر، فالشعر، تماما كما عرفه قدامة، «كلام موزون مقفى»، لكنه يضيف إلى التعريف العمدة الكثير مما تعلمه عن طبيعة الشعر ووظيفته ثم طبيعة العملية الإبداعية ذاتها. وأخيرا علاقة الشعر بالواقع، من المؤثرات اليونانية التي أصبحت بشكل واضح جزءا من نسج العقل العربي. هكذا يحدد حازم وظيفة الشعر: «أن يعجب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل على طلبه أو الهرب منه»، إن هذا في الواقع جوهر التعريف الكلاسيكي (اليوناني) لوظيفة الشعر، ولم يكن ينقص حازما إلا أن يضيف إلى هذا

النظرية الأدبية العربية

المقطع من تعريفه لفظتي «الفضيلة» أو «الرذيلة» ليتفق تعريفه لوظيفة الشعر مع التعريف اليوناني لها، فالشعر، في ذلك المفهوم السابق، يحض على الفضيلة ويحببها إلى النفس ويفر من الرذيلة ويدفعها إلى الهرب منها. وسوف نتوقف بتفصيل كامل عند وظيفة الشعر ومفهوم «التعليم» الكلاسيكي، بل الوظيفة الأخلاقية له وحدودها عندما ندرس أركان النظرية الأدبية العربية في إسهاب.

أداة الشعر في تحقيق وظيفة الشعر هي «المحاكاة والتخييل»، ومن الواضح أن حازما يستخدم مصطلح «التخييل» هنا بمعنى المبرر في البلاغة العربية وهو «المحاكاة» وحينما ينتقل القرطاجني في الجزء الأخير من التعريف إلى معيار القيمة يعني ارتباطا واضحا ربما يرجع إلى تعدد المدخلات التي اشتركت في صياغة تعريف الشعر، مدخلات تغطي المؤثرات البلاغية العربية ابتداء بقدامة وتعريفه، وعبد القاهر ونظريته في النظم، والمحاكاة الأرسطية، ثم الواقع التاريخي الذي عاشه القرطاجني والذي شهد أعنف هجوم أخلاقي على الشعر والشعراء. مع هذه المدخلات المتشابهة جاء المنتج النهائي مرتبطا متناقضة جزئياته «حسن التخييل» يرتبط في ذلك المقطع الأخير من التعريف «يحسن هيئة تأليف الكلام»، ومن ثم تكون المحاكاة، القصيدة، «مستقلة بنفسها»، لكن حازما، الذي يتحرك من إدراك واضح للتيارات المعادية للشعر، وهي تيارات أخلاقية بالدرجة الأولى، يقدم مع استقلال المحاكاة بنفسها اعتمادا على «حسن هيئة تأليف الكلام» أو «النظم» بدلا آخر. وهو اعتماد معيار القيمة على قوة صدق أو شهرة - أي درجة القبول والذيع - المادة التي يقصد تحبيب الناس فيها أو تنفيرهم منها. وهكذا يُعطى الاختيار أو البديل الثاني البديل الأول، وهو استقلال النص؛ لكننا لا نستطيع أن نحكم على أهمية مفهوم حازم القرطاجني للشعر ووظيفته بمعزل عن الظرف التاريخي الذي عاشه ذلك البلاغي العربي الأشهر، والواقع أن جابر عصفور يقدم مثل هذا التبرير دون قصد في مقارنته الدقيقة بين الظرف التاريخي - البلاغي بالدرجة الأولى - الذي أفرز نقد الشعر والظرف التاريخي المقابل الذي أفرز منهج البناء، فهو يرى أن القرن الرابع الهجري الذي ألف فيه قدامة كتابه «كان يعاني فوضى الأحكام النقدية»، أو القرن السابع الذي أفرز كتاب حازم فقد كان «يعاني فوضى القيم واضطرابها المصاحب لمعوقات الحضارة وانهيار الجماعة» ويمضي عصفور:

«ولقد كان قدامة يؤلف كتابه في فترة ازدهار لم تكن قائمة في عصر حازم على مستويات عدة. وبالتالي كانت مشكلة قدامة... هي تحديد علم يضبط خطى الازدهار... أما حازم فكان عليه أن يواجه الإحساس العام بهوان الشعر، وقلة جدواه؛ في مجتمع ينهار ما فيه من أصالة، ويذبل فيه كل غصن من إنجازات الماضي. وكان على حازم - أيضا - أن ينفي صفة الشعر عن كثير من منظومات عصره، في حالة من الوعي، أدرك معها أن تصحيح وضع الشعر يعني تصحيح وضع المجتمع في جانب مهم من جوانبه»^(٢٠) [التأكيد من عندي].

لكن الثابت أن أي تناقضات أو اضطرابات في تعريف حازم للشعر، لا تنفي أن مفهومه عن الشعر يمثل مرحلة النضج الأخيرة في البلاغة العربية، وأن كتابه منهاج البلاء «هو ثمرة النضج الأخير الذي امتزجت معه الجهود العقلية والنقلية لنقد الشعر عند العرب، أو الجهود الخاصة بعلوم العرب التي صاغها البلاغيون والفنانيون، وعلوم الأوائل التي طرحها شراح الفلسفة اليونانية ومفسروها»^(٢١).

عود على بدء، هل طور العقل العربي نظرية للأدب؟

أعتقد أن الصفحات التمهيدية السابقة تكفلت بالإجابة بالإيجاب عن تساؤلنا المبدئي. لقد طور العقل العربي، في العصر الذهبي للبلاغة، نظرية للأدب، جمعت بين التنظير الأصيل والتأثر الصنعي بفكر الآخر والتطبيق على نصوص أدبية كانت دائما نقطة انطلاق التنظير من ناحية، ثم نقطة العودة للتطبيقات الفردية، من ناحية ثانية، فما أركان هذه النظرية؟

سوف نتوقف عند تلك الأركان في ضوء المحور الذي حددناه منذ البداية: محور المنشئ والنشأة ثم التلقي والتعامل مع النص، وبينهما النص المبدع، وهنا نذكر القارئ أيضا بأن هذا المحور ليس ملزما لأحد لأن مفرداته في الواقع سوف تتباعد وتتقارب، بل تتداخل في أحيان كثيرة، إذ أين يمكن أن نضع حدا قاصدا ملزما، على سبيل المثال، بين الحديث عن ثنائية اللفظ والمعنى وبين ثنائية الشكل والمضمون؟ أو بين ألوان المجاز المختلفة والصورة الشعرية؟ ولهذا لابد أن نعكس الصفحات القادمة كل أشكال التداخل التي لا يمكن تحاشيها والتي تتحدى جميع محاولات الفصل التعسفي بين القضايا التي يتناولها الفصل الحالي.

النظرية الأدبية العربية

وفي الوقت نفسه لا نظن أن القارئ بحاجة إلى تذكيره بصعوبة الفصل بصفة عامة بين ما هو لغوي وما هو أدبي أو نقدي في العصر الحديث. ولكن الصعوبة تتحول إلى ما يشبه استحالة الفصل بين ما هو لغوي صرف وما هو أدبي أو نقدي صرف حيثما نتحدث عن البلاغة العربية التي قامت منذ البداية على الطموح لضييق المعنى والدلالة والتحديد الدقيق للملاقة بين اللفظ والمعنى باعتبار ذلك الضيق شرطاً من شروط صحة الفتاوى الفقهية.

ضامياً: أركان النظرية الأدبية العربية

أ- الأدب بين المحاكاة والإبداع

لم ينشغل النقد الأدبي منذ بداية وعيه بذاته، وخاصة منذ السنوات المبكرة من القرن العشرين، بقضية نظرية كما انشغل بقضية المحاكاة التي بدأت عند سقراط، وحظيت باهتمام كبير من جانب أفلاطون في مرحلته المتأخّرة؛ مرحلة الحماس للشعر والدفاع عنه ثم مرحلة رفضه ونفيه من جمهوريته، وأخيراً بعد أن وضعها أرسطو في قلب النظرية الأدبية، ولا نعتقد أننا نستطيع إضافة أي جديد اليوم إلى الجدل حول نظرية المحاكاة *mimesis* الأرسطية. وحينما نتعرض لأراء أرسطو في هذا الموضوع سيكون ذلك من زاوية البلاغة العربية والمفهوم العربي للمحاكاة، أي بقدر ما يساعدنا أرسطو على فهم النظرية في صيغتها العربية.

معنى هذا أننا افترضنا منذ البداية أن الصيغة العربية للمحاكاة ارتبطت بطريقة أو أخرى بالصيغة اليونانية عامة وبالصيغة الأرسطية خاصة؛ نعم، إن الربط قائم والملاقة أقوى من أن يتجاهلها أحد. وقد حظيت هي الأخرى باهتمام الباحثين العرب الذين قدموا دراسات علمية متميزة حول تأثير الفكر اليوناني في العقل العربي. وفي الساحة المصرية وحدها تعاقبت أجيال ثلاثة على الأقل لعقول انشغلت بهذا التأثير، بدءاً بطه حسين ومروراً بمحمد مندور وشكري عباد وزكي نجيب محمود وأخيراً جابر عصفور، وتعددت الآراء وتباينت حول درجة التأثير بالفكر اليوناني، خاصة أفكار أرسطو حول الشعر، وحول التواريخ المحتملة لبداية ذلك التأثير، وما إذا كانت الترجمات المبكرة قدّمت صورة صحيحة أو مشوهة لأراء أرسطو، أو تكفلت الملاحظات العربية

بتحقيق ذلك، ومرة أخرى، لن نتوقف عند ذلك الجدل هو الآخر إلا بالقدر الذي يخدم فيه التوقف موقفنا، لن نتوقف عن جهود الترجمة والتلخيص التي قام بها العديد من الباحثين العرب من متى بن يونس إلى الفارابي وابن سينا وابن رشد وآخرين، إلا بقدر تأثير هذه الجهود في نظرية الإبداع العربية، ولن نعتذر عن تأثر العقل العربي بأفكار أرسطو أو أفلاطون عن المحاكاة، إذ إن موقفنا المبدئي أنه لا يوجد ما نعتز عنه في التراث العربي من ناحية، ثم، إن هذه الترجمات والتلخيصات وإحياءها داخل العقل العربي النشط المنتج، هي التي سحبت هذا الفكر اليوناني من قلب الذاكرة المهيئة للعصور الوسطى الأوروبية وأثقت عليها الضوء وأعدتها لتبني عليها أوروبا فيما بعد نهضتها الثقافية، وفوق هذا وذاك، لقد كانت آراء أفلاطون وأرسطو عن الشعر والخطابة والمنطق هي نقطة البداية التي أثمرت الفكر الغربي المعاصر، ما اتفق منه وما اختلف مع تلك الآراء. ومن ثم كان طبيعياً أن يتأثر بها العقل الذي اكتشفها في تلك الفترة المبكرة. ولا يجد جابر عصفور غضاضة، ليس فقط في القول بالتأثر كأمر مسلم به وحقيقة تاريخية لا يمكن نكرانها، بل في التسليم بأن العقل العربي في محاولته «للتأصيل النظري للشعر» سعى عن إدراك كامل وراء ذلك التأثير الصغي:

«ولقد طور ابن الهيثم - في هذا المجال - محاولات الكندي والفارابي وابن سينا برسائله الضائعة عن طبيعة الشعر، ... وواصل ابن رشد هذه المحاولة حتى وصل بها إلى خاتمتها الطبيعية في شرحه كتابي «الشعر» و«الخطابة» لأرسطو، أو في شرحه «جمهورية أفلاطون». ولقد قدمت هذه المحاولة المتواصلة للفلاسفة مادة خصبة، أفاد منها حازم القرطاجني في القرن السابع، واستغلها في متابعة التأصيل النظري لمفهوم الشعر، فأعانتته على الوصول إلى مفهوم متكامل، لا نجد له مثيلاً في التراث النقدي»^(١٧) [التأكيد من عندي].

وببقى هنا سؤال افتراضي بالدرجة الأولى: هل كان من الممكن للبلاغة العربية أن تطور بجهودها الذاتية، بعيدة عن التأثير اليوناني، نظرية أدبية خاصة بها، قد تكون نظرية المحاكاة والإبداع، واحدة من أركانها، أو لا تكون؟ وعلى الرغم من أن السؤال افتراضي وجدلي بالدرجة الأولى تؤكد الشواهد

النظرية الأدبية العربية

المادية الم صرفة، ونقصد بها إنتاج العقل العربي، أن ذلك كان أمرا حتميا، وأن التأثير اليوناني كان عرضا تاريخيا لم يكن من الممكن تفاديه، ولكنه لم يكن سببا في عبقرية البلاغة العربية. صحيح أننا لو غربلنا، مع الاعتذار لتعظيمه، إنتاج حازم من آراء أرسطو حول الشعر، وآراء السكاكي أيضا من الكثير من منطق الفيلسوف نفسه، لما تبقى فيها الكثير. لكن البلاغة العربية التي قدمت الجاحظ قبل أن يعرف الفكر العربي الفكر اليوناني، ثم ابن طباطبا وقدامة بن جعفر، حينما كان التأثير في بدايته ولا يرجع إليه أفضل ما قدمه البلاغيان الميكران، وأخيرا عبد القاهر الجرجاني الذي يختلف مع آراء أرسطو أكثر مما يتفق معها، هذه البلاغة كانت تسير في اتجاه كان محتما أن يؤدي إلى تطوير نظرية أدبية متكاملة سواء حدث التأثير اليوناني أو لم يحدث. ثم إن مناقشة بعض جوانب نظرية المحاكاة العربية، كما سنرى بعد قليل، تؤكد أن من حسن حظ البلاغة العربية أن عمليات ترجمة الفكر اليوناني ونقله إلى العربية تعرضت لعمليات سوء فهم وتشويه خدمت الفكر العربي في أحيان كثيرة. من هنا جاءت مناطق الاختلاف مع مفهوم المحاكاة الأرسطية التي طوّر فيه البلاغيون العرب وعدلوا فيه وأضافوا إليه.

دعونا من التساؤلات الافتراضية الجدلية ولننتقل إلى حقائق الفكر العربي. الثابت أن البلاغيين العرب تأثروا بآراء أرسطو وفتحوا عقولهم لها بطريقة متزايدة ابتداء من القرن الرابع الهجري حتى نهاية العصر الذهبي مع السكاكي وحازم، بل إن رصد درجة التأثير بآراء أرسطو عند حازم الشرطاجني على وجه التحديد توحى بأن تطور النظرية الأدبية العربية بهتل درجة اعتماد متصاعدة على أفكار المفكر اليوناني، وعلى الرغم من كل محاولات حازم في إعادة النظام إلى عالم عربي إسلامي سادته الفوضى قبل الإسقوط وأن محاولته تقنين النقد، كما فعل السكاكي من قبله، كانت من قبيل الضداثية الفردية، إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل أن ذلك الاعتماد شبه الكلي على أرسطو والفكر اليوناني كان، في جانب منه، بداية النهاية للعصر الذهبي للبلاغة العربية. وقد حاول البعض تبرير ذلك الترحيب من جانب البلاغيين العرب لفكرة المحاكاة، وسوف نتوقف هنا عند رأيين فقط يلتقيان في تفسيرهما لذلك الترحيب وهما صلاح رزق ونوال الإبراهيم. يكتب الأول:

«وراء المحاكاة - بمفهومها الأرسطي المعدل - الفلسفة والمفكرين والنقاد العرب، وعنوا بتطبيقها في مجال الشعر والإبداع الفني خاصة أنها... تقترب من دلالة التخيل والتمثيل والقياس الخادع في الفكر النقدي السابق، وما يتصل بذلك من حديث الغلو والإيهام وتصوير الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، وتغيرهما من المفاهيم البلاغية التي كان يعتمد عليها في مواجهة كثير من النصوص الشعرية والدينية منذ جيل قدامة وابن طباطبا. ثم تمت كثيرا بعد ذلك» (٣٢).

وقبل التوقف عند معقولية هذا التفسير، دعونا أولا نصصح مفهوما يردده المؤلف لأرسطو، وتعني به «تصوير الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل»، لأن ذلك المفهوم يمثل التعديل الذي أضافه البلاغيون العرب إلى مفهوم أرسطو الأصلي؛ فجعل الجميل قبيحا والقبيح جميلا لم يقل به أرسطو الذي تحدث عن محاكاة القبيح بصورة أكثر قبيحا والجميل بصورة أكثر جمالا، وبستان بين النظريتين، وسوف نتوقف عند نصوص تراثية عربية تؤكد ذلك بعد قليل. بعد هذا التصويب، دعونا نعود إلى أهمية التبرير ومعقوليته، معقولية التبرير تقوم على القول بأن نظرية المحاكاة الأرسطية جاءت لتقديم الإطار النظري الفلسفي لممارسات عربية قائمة بالفعل مثل التخيل والقياس الخادع والتمثيل والغلو والإيهام، وتضيف أيضا مسائل الصديق والكذب في شعر الهجاء والمدح العربي. أما أهمية ذلك التبرير فتتمثل في أن ما يقوله صلاح رزق يعني أن تلك الأمور اللغوية والأدبية في علمي البيان والمعاني العربيين كانت موجودة بالفعل يمارسها الشعراء العرب كل يوم قبل تعرف النقد العربي على نظرية المحاكاة الأرسطية. وهكذا نعود إلى الإجابة عن سؤالنا الافتراضي؛ لقد كانت البلاغة العربية تسهر في اتجاه كان محتما أن يؤدي إلى تطوير نظرية أدبية متكاملة سواء حدث التأثير اليوناني أو لم يحدث.

لكن كلمات رزق تؤكد أيضا الوظيفة «الأخلاقية» - سوف نختلف حول معنى المصطلح بما فيه الكفاية فيما بعد - للشعر. وهذا ما تؤكدته كلمات نوال الإبراهيم بصورة مباشرة، وإن كان الحديث هذه المرة ليس عن أسباب الترحيب بالمحاكاة، بل عن أسبابه في بلاد النشأة نفسها؛

النظرية الأدبية العربية

«وكان السبب الثاني لسيادة نظرية المحاكاة في الفكر القديم أن مفكري تلك العصور قد اهتموا اهتماماً واضحاً بمعضلة السلوك البشري والطبيعة القيم، وكانوا يقومون بحلول المعرفة والفكر والإبداع على أسس أخلاقية، لذلك طلب أولئك المفكرون من فن الشعر وجهاً أخلاقياً يتصل بالأثر الذي يترتب على الوجه المرفي منه؛ عندما يجمل الشعر - بأدواته الفنية - ما هو جميل ويقبح ما هو قبيح في عملية المحاكاة التي يحاكي بها الشاعر الجميل ليحببه إلى نفس الملتقي، أو يحاكي القبيح لينفر منه»^(٢٦).

ويصرف النظر عن التفسير الضيق للغاية المزدوجة للمحاكاة التي حددها أرسطو باعتبارها التعليم والإمتاع، وهو التفسير الذي قسر الجانب التعليمي حتى عهد قريب باعتبارها هدفاً أخلاقياً، فإن ما يهمنا هنا، في كلمات صلاح زرق على وجه التحديد، أن مفهوم المحاكاة صاذف هوى لدى البلاغيين العرب لأنه قدم لهم إطاراً فلسفياً، يتسم بالعلمية إلى حد كبير، لممارستهم البلاغية التي يمكن أن تندرج تحت ذلك الإطار النظري بسهولة.

لكن البلاغة العربية تعاملت مع مفهوم المحاكاة الأرسطية بحرفية واضحة أحياناً، وبحرية كبيرة في أحيان كثيرة، جاءت نتيجة عمليات تكيف مقصودة ومدركة للمفهوم الأرسطي لمقتضيات البلاغة العربية وواقع الإبداع العربي من ناحية، ولسوء فهم المحاكاة بسبب تشوه الترجمة والنقل من ناحية أخرى.

كان أحد أسباب سوء فهم المصطلح سوء نقله المبكر إلى العربية، فقد كانت الترجمة المبكرة للفظ الأصلي mimesis هي «التخييل» وبعد ذلك، وفي مرحلة لاحقة، استخدم لفظ «محاكاة»، وفي ذروة التأثير بفكر أرسطو استخدمت الترجمات معاً، كمرادفين، وكان من الطبيعي أن ترتبط الترجمة المبكرة، حتى قبل أن نصل إلى آراء نقاد محدثين مثل كوليردج وريتشاردز من الخيال، والخيال الأولي والخيال الثانوي، والوهم، كان من الطبيعي أن ترتبط بمصطلحات عربية أخرى مثل «المنخيلة» و«التخييل» و«الخيال»، وهي مصطلحات توحي، حتى في البلاغة العربية القديمة، بمعانٍ تختلف عن المعنى المقصود بالمحاكاة. وقد أدى ذلك الخلط الحتمي بين «مفهوم الخيال» بالمعنى الحديث، وكما فهمه عبدالقاهر الجرجاني في جزء منه على الأقل، وبين

مفهوم التخييل كمحاكاة بالمعنى الأرسطي، إلى بعض المواقف المتضاربة عند عبدالقاهر الجرجاني نفسه، فهو يعرف الخيال في أسرار البلاغة باعتباره «ما يشته فيه الشاعر أمراً غير ثابت أصلاً، ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويربها ما لا ترى»^(٢٥). في هذا السياق يربط عبدالقاهر صراحة بين الخيال أو التخييل والكذب، وهو ربط يرفضه عبدالقاهر في الصفحتين السابقتين على هذا النص من أسرار البلاغة، لكنه في موقع آخر من الكتاب نفسه يقدم تعريفاً مفصلاً للتخييل بمعناه الأرسطي، أي كمحاكاة، ويربط بين المحاكاة والإبداع في خمس ظاهر:

«إن الصنعة إنما تهد باعها. وينشر شعاعها ويتسع ميدانها، وتتفرع أفنانها، حين يعتمد الاتساع والتخييل، ويدعي الحقيقة بما أصله التقريب والتمثيل... وهناك يجد الشاعر سبيلاً أن يبدع وي زيد، ويبدأ في اختراع الصورة ويعيد. ويصادف مضطرباً كيف شاء وأسماء، ومدداً من المعاني متتابعاً، ويكون كأنه عثر من غدير لا ينشئ والمستخرج من معدن لا ينتهي»^(٢٦) [التأكيد من عندي].

وعبدالقاهر لا يتردد في سياق آخر، في الربط بين المحاكاة في الشعر، والمحاكاة في الرسم والتصوير:

«فالاختلال والصنعة في التصورات التي تروق السامعين وتروعوهم، والتخييلات التي تهز المدحجين وتحركهم، وتُفعل فعلاً شبيهاً بما يقع في نفس الناظر إلى التصوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش، أو بالنحت والنقش، فكما أن تلك تعجب وتخلب وتروق وتوق، وتدخل النفس من مشاهداتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها... كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ويشكله من البديع، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يتوهم بها الجامد الصامت في صورة الحي الناطق، والموات الأخرس، في قضية الضمير المحرب، والبين المميز، والعدم المفقود في حكم الموجود المشاهد... حتى يكتسب الداني رفعة، والفاضل القدر نباهة. وعلى العكس يغض من شرف الشريف، ويظلم من قدر ذي العزة المنيف... ويخدش وجه الجمال ويتخونه... ويصنع من المادة الخمسية بدعاً يغلو في القيمة ويعلو»^(٢٧) [التأكيد من عندي].

لقد توقفت مؤكداً بعض مقاطع الجرجاني في السياقين السابقين لأن تلك المقاطع لا تمثل مفاتيح أساسية في مفهوم عبد القاهر من المحاكاة، وإلى أي حد تتفق وتختلف مع المفهوم الأرسطي فقط، بل باعتبارها مفاتيح نظرية أدبية كاملة يتحدث فيها البلاغي العربي القديم عن جوانب الإبداع والتلقي ووظيفة الشعر، وهي جوانب سوف نتاح لنا فرصة التوقف عندها بتفصيل كامل في مواقع لاحقة من الفصل الحالي لتأكيد عصريّة عبد القاهر وتعرضه لمعظم القضايا التي أصبحت محاور أساسية للجدل طوال القرن العشرين. وسوف نشرح أيضاً، في حينه، التعديل الذي أدخله الجرجاني، وبلاغيون عرب آخرون، على مفهوم المحاكاة الأرسطي ليتواءم مع أنواع الشعر العربي الذي لم يعرف بعض الأنواع التي تحدث عنها أرسطو. يكفي هنا الآن إبراز التناقض الذي وقع فيه عبد القاهر الجرجاني، نموذجاً لبلاغيين عرب آخرين، بسبب سوء نقل المصطلح الأرسطي إلى العربية، ومن منطلق الإحساس بالتشتت بين ترجمة المفهوم مبكراً إلى «تخييل» ثم إلى «محاكاة» في مرحلة لاحقة يستخدم حازم القرطاجني في نهاية العصر الذهبي للفطنين مترادفين في السياق نفسه في مواضيع كثيرة من منهاج اللفاء: «وتنقسم التخائيل والمحاكيات بحسب ما يقصد بها إلى: محاكاة تحسين، ومحاكاة تقبيح، ومحاكاة مطابقة»^(٢٨). وينتهي الولي محمد إلى القول بأن الأمر ليس أمر مرادفة، ولكنه التباس واضح في مفهوم القرطاجني عن المحاكاة: «إن حديث حازم عن المحاكاة والتخييل كان ملتبساً، ومما زاد في هذا التباس كونه يعطف أحدهما على الآخر مما يوهم بترادفهما كان الأمر يتعلق بالمعنى نفسه متحققاً في لفظين مختلفين»^(٢٩). ومن الواضح أن مفهوم الولي محمد هنا عن «التخييل» مفهوم حديث أفرزته كل التراكمات التي أضافها علماء النفس والنقاد والمبدعون عن الخيال والتخييل، وهو ما لا يقصده حازم أو يرمي إليه، فالتخييل عنده بالفعل ردف للمحاكاة، بل إنه يذهب إلى الربط بين التخييل والكذب، تماماً كما فعل عبد القاهر من قبل، مما يدخلنا في دوائر لا نهائية من اللبس: «لما كانت النفوس على التنبيه لأتواء المحاكاة واستعمالها والالتئاذ بها منذ الصبا وكانت هذه الجيلة في الإنسان أقوى منها في سائر الحيوان - فإن بعض الحيوان لا محاكاة فيه أصلاً، وبعضها فيه محاكاة يسيرة - وإنما بالثمن كالبغايا. وإما بالشمائل كالقرد - اشد ولوغ النفس بالتخييل وصارت شديدة الانفعال له حتى إنها ربما تركت التصديق للتخييل»^(٣٠).

وربما كان هذا اللبس بين مصطلحي «التخييل» و«المحاكاة» أحد الأسباب التي حدثت بمفكر كبير مثل زكي نجيب محمود إلى رفض فكره تأثر البلاغة العربية القديمة بكتابات الشعر لأرسطو، فنقول ربما كان ذلك اللبس أحد الأسباب، لأن زكي نجيب توقف عند جانب آخر، سبقت الإشارة إليه، وهو أن المحور الرئيسي لكتاب أرسطو يدور حول التراجيديا والكوميديا، أو الشعر الدرامي، وهو نوع أدبي لم يعرفه العرب في البلاغة القديمة، وقد أشرنا من قبل إلى أن اختفاء هذا النوع من التأليف الشعري في الثقافة العربية بل عدم معرفته به أصلاً كان السبب في التحريف أو التعديل الذي أدخله العرب على وظيفة المحاكاة بالمفهوم الأرسطي. في إيجاز شديد، في سياق حديثه عن البطل التراجيدي، اشتراطاً أرسطو في ذلك البطل أن يكون أكبر من الحياة «Bigger than life»، وقد أسس رايه ذلك على ملاحظاته لروائع المسرح الإغريقي آنذاك، حيث كان البطل «غير عادي»، فهو إما إله مثل «زوس» أو «بروميثيوس»، وإما نصف إله مثل «هرقل»، وإما ملك مثل «أوديب»، ولهذا يتصف البطل التراجيدي الأرسطي بأنه «أفضل مما هو عليه في الواقع «Better than he really is»، على أساس أنه كلما زاد قدر البطل وتبله وسموه زاد تعاطفنا معه عند سقوطه. وفي المقابل، فإن البطل الكوميدي، من منظور أرسطو، يوضع حيث نضحك عليه ونسخر منه، وهو رد فعل يصبح ممكناً من الناحية الجمالية حينما يضع المشاهد بينه وبين الشخصية مسافة عاطفية أو حاجزاً يبعده عنه ويمكنه من السخرية منه في الوقت نفسه. لهذا يتصف البطل الكوميدي، كما يحاكيه الفن، بأنه أسوأ أو أخس مما هو عليه في الواقع «Worse than he really is». لهذا كانت وظيفة المحاكاة الأرسطية تقديم التبل أكثر نبلاً أو الشجاع أكثر شجاعة في التراجيديا، والخسيس أكثر خسة والجهل أكثر جيتاً في الكوميديا. مفتاح الشخصية في الفن، من منظور أرسطو، هو المبالغة، إيجاباً أو سلباً. لكن الفن لا يقدم ما لا وجود له أو، بمعنى أدق، لا يقدم التبل حيث لا يوجد، أو الخسة حيث لا توجد.

وحينما ووجه البلاغي العربي بهذا النوع من التأليف الشعري الذي لم يعرفه وحد بين التراجيديا وشعر المديح العربي وبين الكوميديا وشعر الهجاء، وفي المديح يقوم الشاعر برفع قدر الموضوع، بينما يفض من شرف الشريفة في الهجاء؛ ذلك هو التكيف الذي أدخله العقل العربي على وظيفة المحاكاة

النقدية الأدبية العربية

الأرسطية، وهو تكييف فرضته ظروف الإبداع العربي. لكن هذه الظروف هي التي دفعت مفكرا كبيرا مثل زكي نجيب محمود إلى نفي حدوث التأثير بالفكر اليوناني، وهو نفي لا نملك إلا أن نختلف معه بشأنه:

«وإن الدارس لتأخذ الدهشة للوهلة الأولى كيف يكون لكتاب الشعر أثر في الثقافة العربية، مع أن مدار اهتمامه هو شعر الملاحم والتراجيديا، وقد خلت الثقافة العربية منهما، نعم، إن كتاب الشعر قد ترجم إلى العربية - ترجمة أبو بشر متى بن يونس - وتُخصه تلخيصا وإهيا ابن سينا وابن رشد وغيرهما من فلاسفة المسلمين، لكن هؤلاء كانوا يعدونه جزءا من المنطق، إذ عدوه صناعة ترمي إلى تسليم السامع بما يتولاه القائل، ومن ثم فهو لاحق بالجدل والخطاب، مما يدل على بعد ما بين كتاب الشعر فيما قصد إليه أرسطو من جهة، وما فهمه منه العرب من جهة أخرى»^(٤١).

إن ما حدث، وتؤكد البلاغة العربية، هو أن العقل العربي كيف تعريف أرسطو لينتق مع الأنواع المعروفة للشعر العربي، ومن ثم لا تتفق مع رأي زكي نجيب القائل بأن ذلك التأثير لم يحدث أو لم يكن ممكنا على أساس أن العقل العربي لم ينتج الملاحم والتراجيديا ولم يعرفها.

ونعود إلى مفهوم المحاكاة كما عرفه البلاغيون العرب، مقتبعا مستعازا أو مطورا وبصرف النظر عن سوء الترجمة وسوء الفهم، لتتوقف عند تعريفهم للمحاكاة وتوظيفها في تطوير نظرية أدبية عربية، دون أن يعني ذلك إرجاع ازدهار الدراسات البلاغية العربية إلى اكتشاف أرسطو وكتبه. والمؤسي أن البعض فعل ويفعل ذلك في كثير من الإجحاف لقدرة البلاغة العربية على الوقوف على قدميها، كما فعل طه حسين في مقولته المشهورة في مقدمة نقد النثر التي صنف بها عبدالقاهر الجرجاني باعتباره فيلسوفا يجيد شرح أرسطو والتعليق عليه^(٤٢). ولا يتوقف طه حسين عند ذلك، إذ يمضي ليرد أفضل ما كتبه الجرجاني في «أنفس ما كتب في البيان العربي» ويعني أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، إلى أرسطو الذي تعرف عليه البلاغي الأشهر ولابد، كما يرى طه حسين، عن طريق ترجمات وتلخيصات ابن سينا، ثم يصل في حكمه النهائي المتحامل ضد عبدالقاهر: إلى «وإننا لنجد في كتابه المذكور [يقصد أسرار البلاغة] جراثيم الطريقة التقريرية التي أودت بالبيان العربي

في القرن السادس^(١٢). وفي المقابل هناك من يسلم بقدر واضح من التأثير الصحي الذي تعرضت له البلاغة العربية، وفي مقدمة هؤلاء شكري عياد الذي يرى أن المقارنة بين الكتابات النقدية العربية حتى أوائل القرن الثالث الهجري والكتابات التي أفرزها العقل العربي بعد ذلك التاريخ تؤكد حدوث ذلك التأثير. إذ يخلص عياد في تحقيق وترجمة كتاب أرسطوطاليس في الشعر إلى أن الممارسات النقدية العربية حتى ذلك التاريخ المفصلي كانت نقدا ذوقيا يفتر إلى العمق والتركيب والأحكام القيمة العامة، وهي خصائص تنصت بها الكتابات النقدية بعد ذلك التاريخ، خصائص تعلمها العقل العربي، ولاشك من احتكاكه بالفكر اليوناني عن طريق الترجمة والتلخيص، ورغم المقارنة التي يعتمدها شكري عياد بين النقد العربي قبل وبعد الاحتكاك بالثقافة اليونانية إلا أنه يتوقف عند الجاحظ ليؤكد أن البلاغي العربي الأول لا يقدم في كتابيه دليلا على التأثير بأراء أرسطو. ويصرف النظر عن المقولة المستنزة التي وردت في الحيوان حيث يرى الجاحظ، أن الشعر «حديث الميلاد، صغير السن» وأنه بدأ بامرئ القيس بن حجر والمهلل بن ربيعة، وكتب أرسطوطاليس وسعلمه أفلاطون، ثم بطليموس. وديمقراطس، «ثم يقتصر فضيلة الشعر على العرب وعلى من يتكلم بلسان العرب» فإن المقولة، إذا تخاضعنا عن استقرازياتها، تؤكد أن الرجل لم يكن على دراية، أي دراية، بوجود شعر غير عربي، وتضيف نحن هنا أن جهود الكندي الذي عاصر الجاحظ، وقدم أولى المحاولات للتعريف بكتاب الشعر وبعض جوانب البلاغة اليونانية تفسر وجود تلك الإشارة إلى أرسطوطاليس وأفلاطون وبطليموس، والذي لا يمكن أن تكون معرفة الجاحظ بهم تخملت مرحلة الأسماء، خاصة أن خطابه أرسطو لا يمكن أن يكون قد لخص أو ترجم إلى العربية قبل منتصف القرن الثالث الهجري، أي قبل أو بعد وفاة الجاحظ (٢٥٥هـ) بسنوات قليلة.

ها نحن قد نسئنا ما وعدنا القارئ به وانزلقنا إلى متاهة الدفاع عن البلاغة العربية على الرغم من أن موقفنا المبدئي هو أن تأثر البلاغة العربية بالفكر اليوناني ليس شيء ما يوجب الدفاع أو الاعتذار عنه، لأن التأثير واضح وثابت، وفي أكثر من مرة استعار البيانيون العرب تعريف أرسطو للمحاكاة حرفيا تقريبا. من التعريفات المبكرة التي اعتبرت مرجعا يحيل إليه البلاغيون العرب لسنوات طويلة ذلك التعريف الذي قدمه ابن سينا للمحاكاة:

النظرية الأدبية العربية

«إن السبب المؤلد للشعر في قوة الإنسان شيئان: أحدهما الالتذاذ بالمحاكاة، واستعمالها منذ الصبا... وللمحاكاة في الإنسان فائدة، وذلك في الإشارة التي تحاكي بها المعاني فتقوم مقام التعليم فتتقن موضع سائر الأمور المتقدمة على التعليم. وحتى إن الإشارة إذا اقتترنت بالعبارة أوقعت المعنى في النفس إيقاعاً جلياً، وذلك لأن النفس تتبسط وتلتذذ بالمحاكاة فيكون ذلك سبباً لأن يقع عندها الأمر أفضل موقع»^(١٤).

إن مفردات المحاكاة الأرسطية في تبسيط شديد هي: الشعر محاكاة: الإنسان يحاكي لأنه يولد بميل غريزي للمحاكاة من ناحية، ولأنه يستمد لذة من المحاكاة، من ناحية ثانية، غاية المحاكاة هي تحقيق التعليم والامتع، هل تختلف مفردات المحاكاة كما فهمها ابن سينا عن المحاكاة كما قدمها أرسطو؟ لا أظن أننا بحاجة إلى مناقشة تعريف ابن سينا لتدرك مدى التطبيق بين المشهورين، وفي مرحلة تالية يقدم ابن رشد هو الآخر تعريفاً للمحاكاة، في جانب منها، كما فهمها في كتاب الشعر وبمفردات تقترب من مفردات أرسطو أكثر من اقتراب ابن سينا منها، فهو يرى أن طبع الإنسان يحوي عِلتين يتولد عنهما الشعر:

«أما العلة الأولى: فوجود التشبيه والمحاكاة للإنسان بالطبع من

أول ما ينشأ...

وأما العلة الثانية: فالتذاذ الإنسان، أيضاً، بالوزن والألحان. فإن الألحان يظهر من أمرها أنها مناسبة للوزن عند الذين في طباعهم أن يدركوا الأوزان والألحان. فالتذاذ النفس، بالطبع، بالمحاكاة والألحان والأوزان هو السبب في وجود الصناعات الشعرية، وبخاصة عند النظرة الفائقة في ذلك»^(١٥).

إن تعريفي ابن سينا وابن رشد، في حقيقة الأمر، لا يمكن ردهما إلى البلاغة العربية بأي حال من الأحوال، فهذه مفاهيم نقلها الأثنان عن أرسطو، وقد توقفتنا عندهما كثيراً من أنهما ابتداء من أواخر القرن الرابع على الأقل وبداية القرن الخامس الهجري كان أمام البلاغيين العرب وأبرزهم عبد القاهر وحازم ترجمة عربية دقيقة لمفهوم المحاكاة الأرسطي يختلف في دقته وتحديد عن محاولات الترجمة والتلخيص السابقة التي اتسمت

بسوء الفهم والتشوش، وما يهتما الآن أن نتحول إلى توظيف البلاغيين العرب - هابن سين وأبن رشد، في سياقنا الحالي على الأقل، كانا ناقلين لمفهوم المحاكاة الأرسطية إلى العربية - لمفهوم المحاكاة في نظرية الشعر العربية، إبداعاً وتقديراً.

ومن الواضح أن العقل العربي كان أكثر استعداداً لتقبل آراء أرسطو عن المحاكاة من استعداده لتقبل آراء أفلاطون لأسباب مختلفة أبرزها: أولاً، لقد كان العقل العربي، كما أشار نتون Netton في سياق سابق، أميل إلى رفض الشك الأفلاطوني في عالم الحواس، وهو الشك الذي وضع الحقيقة عند نهاية السلم الصاعد، في عالم المثل، ثانياً، إن أفلاطون، حينما يصل في نهاية المطاف إلى رفض الشعر ونفي الشاعر خارج جمهوريته الفاضلة، يقول بأن الفن محاكاة للأشياء المحسوسة، وعالم الحسن في سلمه يحتل أدنى مرتبة في الوجود، باعتبار الأشياء الموجودة في العالم الحسي محاكاة أو نسخاً لا يعتد بها للحقائق المثالية العليا، أما أرسطو فلم يقل بأن الشعر أو التراجيديا محاكاة للأشياء في صورتها الحسية، بل محاكاة لأفعال وسلوك. ومن ثم كان ذلك التوحد الأرسطي بين السلوك والشخصية. وقد صادف ذلك هوى لدى البلاغي العربي لأنه يخدم أغراض الشعر العربي وفي مقدمتها المدح والهجاء بالطبع.

كيف وظف الميانيون العرب إذن مفهوم المحاكاة الأرسطي؟ وماذا أضافوا من تعديلات أو مواءمات حتى يتفق مع ملييعة البلاغة العربية؟ ثم، ماذا كانت رؤيتهم النهائية للعلاقة بين الأدب والواقع الذي يحاكيه؟ وهنا يكمن إنجاز علم البيان العربي الحقيقي.

ماذا فعل البلاغيون بمفهوم المحاكاة كما نقل إليهم وكيف وظفوه في تطوير نظريتهم الشعرية؟

قدامة بن جعفر، على سبيل المثال، ذلك البلاغي العربي المبكر الذي كان تعريقه للشعر باعتباره «كلام موزون مقفى يدل على معنى» السلطة الإحالية التي أشار إليها البلاغيون العرب من بعده بالتأكيد والتعديل والاختلاف، يحتل مركزاً فريداً باعتباره مارس شرح الفلسفة، ومن ثم كان على اتصال أكيد ومبكر بالفكر اليوناني، ومارس التنظير النقدي الذي يمثل نقد الشعر ذروته في القرن الرابع الهجري، وقد سبق أن قلنا إن قدامة قد تأثر بصورة

التقنية الأدبية العربية

شكلية ببعض أفكار أرسطو. ورغم توقف كل من شكري عباد وجابر عصفور عند تأثير الفكر اليوناني على إنتاج قدامة بن جعفر، إلا أنهما يسلمان في نهاية الأمر، وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة، بضعف ذلك التأثير. فشكري عباد يرى أن دراسة الفلسفة اليونانية ساهمت في تطوير منهج البحث الذي تبناه قدامة في نقد الشعر. «وكتابه - نقد الشعر» يكتب عباد، «مؤلف على طريقة الفلاسفة، يبدأ بعد الشعر وبيان أقسامه (الفصل الأول) ثم يصف نعوت كل قسم (الفصل الثاني) ثم عيوب كل قسم (الفصل الثالث) وهذه محاولة واسعة المدى لتنظيم علم الشعر تنظيمًا أشبه بالعلوم العقلية، وتحويله عن الدراسة الجزئية والموازنت الجزئية إلى أن يكون علماً معيارياً يوقف به على تمييز جيد الشعر من رديته بوجه عام»^(٤٦)، ونحن نحاول شكري عباد تتبع تأثير كتاب الشعر لأرسطو على وجه التخصيص، وهو الكتاب الذي كان يجب أن يكون في مقدمه المؤثرات في كتاب قدامة في نقد الشعر، يخلص إلى نفي تأثير قدامة بكتاب أرسطو، خاصة أن تعريف قدامة للشعر - «كلام موزون مقفى يدل على معنى» - قد خلا من صفة الشعر الذاتية التي ذكرها أرسطو، وهي «المحاكاة»^(٤٧). ويصل شكري عباد إلى النتيجة نفسها عندما يتوقف عند أحد الأركان البارزة في بلاغة قدامة، كما قدمها في نقد الشعر، وهي العلاقة بين المادة والصورة الشعرية، فالتأثير هنا، كما يقول عباد، فلسفي أيضاً، وبعيد بشكل واضح عن كتاب الشعر لأرسطو.

ويرغم أن جابر عصفور يحاول إثبات تأثير كتاب الشعر في فكر قدامة، على أساس أن متى بن يونس، الذي قدم أول ترجمة معروفة لكتاب أرسطو، كان معاصراً لقدامة بن جعفر، إلا أنه يخلص في نهاية الأمر إلى موقف لا يختلف عن موقف شكري عباد، فهو يوسع دائرة التأثير الأرسطي إلى ما يسميه الفلسفة الأرسطية الشاملة، ويتوقف، وبالتركيز نفسه، عند العلاقة بين مادة الشعر وصورته:

«ومن الواضح أن تركيز قدامة على الشكل لا يعتمد على الأفكار التقنية لأرسطو في كتابه عن الشعر والخطابة فحسب، بل يعتمد - بالمثل - على الفلسفة الأرسطية الشاملة، وبخاصة ما يسمى منها بالفلسفة الأولى؛ حيث التمييز بين الشكل أو الصورة، وبين المادة أو الهولي، والكشف عن العلاقة بينهما»^(٤٨).

ولا نملك، في هذه المرحلة، إلا أن نتفق مع رأي عصفور الذي أشرنا إليه من قبل، والقائل بأن تأثير الفكر اليوناني في تلك المرحلة من تاريخ البلاغة العربية يتمثل في تقديم الإطار المنهجي والعلمي لتأصيل البلاغة العربية وتقنياتها. أما موضوع العلاقة بين مادة الشعر وصورته فله حديث آخر. فإذا تحولنا إلى البلاغي الأكبر، عبدالقاهر الجرجاني، واجهتنا حالة فريدة ونموذج فذ للعقل العربي الذي خير قديم البلاغة العربية ووعاء: ولا يمكن أن يكون قد انفصل بالكامل عن تيار الفكر اليوناني من حوله، عن طريق الترجمة والتلخيص ابتداء بالكندي، ومرورا بالشارابي ثم قدامة بن جعفر نفسه وأخيرا ابن سينا. ورغم ذلك استطاع أن يصل بالبلاغة العربية إلى مرحلة من النضج تمثلت في تطوير مذهب لغوي عربي وآخر أدبي أو نقدي تختفي المسافة بينهما وبين أبرز قضايا اللغة والنقد في قلب القرن العشرين الميلادي. وقد سبق أن توقعنا عند التناقض الذي تعبر عنه كتابات الجرجاني فيما يتعلق بمعنى التخيل، من هنا سنتوقف في سياقنا الحالي عند توظيفه لمفهوم المحاكاة، سواء استخدمنا هذا المصطلح أو مصطلح التخيل. والواقع أن ما حققه الجرجاني في توظيفه العربي الخالص لمفهوم المحاكاة الأرسطي يعتبر نموذجا يعتدّ لتأصيل الفكر الواحد داخل الثقافة العربية ثم تحقيق نقلة نوعية لا نملك إلا أن نقف أمامها في احترام وإعجاب. لقد حول الجرجاني مفهوم المحاكاة أو التشبيه أو المشابهة إلى نظرية «ابتداء» عربية ترى أن الشعر إبداع قبل أن يكون محاكاة أو مشابهة، ونرجو أن يغير لنا القارئ إحالته إلى نص سبق إحالته إليه وذلك بسبب أهميته البالغة في السياقين، السابق والحالي:

«فلا احتفال والصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروّعهم، والتخيلات التي تهزّ المصوحين وتحركهم، وتفعّل فعلا شبيها بما يتع في نفس الناظر إلى التماوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش، أو بالبحث والنقر: فكما أن تلك تعجب وتغلب وتروق وتوقّ، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، وبغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه، ولا يخفى شأنه... كذلك حكم الشعر. فيما يصنعه من الصور، ويشكله من البعد، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يهوم بها الجامد الصامت في صورة

النظرية الأدبية العربية

الحي الناطق، والموات الأخرى في قضية الفصيح العربي، والمبين المميز، والمعدن المقتود في حكم الموجود المشاهد، كما قدمت القول عليه في باب التمثيل»^(٤٩).

لقد وجدت صعوبة في تحديد أي المقاطع يمكن تأكيدها في النصف السابق، إذ إننا نتعامل هنا مع نص يدخل في صميم النظرية الأدبية العربية وتتواتر الأفكار فيه في تركيز منير للإعجاب، لهذا سنؤكد معا مفاتيح ما يتحدث عنه الجرجاني. إننا أمام رجل على دراية كاملة بمفهوم المحاكاة الأرسطي، ولا يمكن لقارئ أن ينكر ذلك، وهذه حقيقة تؤكد مصطلحات مثل: «التصورات» و«التخييلات»، وهي الوقت نفسه فإن المحاكاة التي يتحدث عنها عبد القاهر هنا خرجت من دائرة المفهوم الأرسطي إلى دائرة النقد الجديد والحديث الذي يرى المحاكاة إبداعاً كاملاً. فنحن في تعاملنا مع نظرية المحاكاة الأرسطية عادة نجهد أنفسنا، ونقصد فكرنا، ونلجأ إلى الكثير من التاويل والتحميل وقراءة ما بين السطور، لنثبت أن المحاكاة عند أرسطو لا تعني «إعادة إنتاج الواقع في سلبية»، ولكنها تعني أيضاً قدراً محدوداً من الإبداع، وليس الأمر كذلك مع عبد القاهر الجرجاني الذي يقدم تفسيراً بالغ العصرية للأدب كإبداع كامل، كأن الرجل، بعد أن تعرف على محاكاة أرسطو، نطرح إليها في مسافة نقدية كانت كاشية لإعادة تفسيرها كإبداع كامل. ولماذا نقول «إعادة تفسيرها»؟ إننا أمام نظرة عربية، باللغة «العصرية»، للمحاكاة باعتبارها إبداعاً. هل يمكن أن يكون هناك حماس لتفسير المحاكاة كإبداع أكثر من حماس عبد القاهر وكلماته؟ فالمعاني، في النص الشعوري، تحول «الجامد الصامت» إلى «حي ناطق»، والموات الأخرى إلى «فصيح» و«العدم» أو «ما لا وجود له إلى «موجود مشاهد»، ولهذا لم يكن غريباً أن «يحور» الجرجاني كثيراً في مفهوم المحاكاة الأرسطية التي تهدف إلى تصوير النبل أكثر نبلاً، والجميل أكثر جمالاً، والتبجح أكثر قبحاً، إلى «إكساب الدني رفعة والغامض القدر نباهة. وعلى العكس يفض من شرف الشريف، ويطل قدر ذي العزة المنيف ويخشد وجه الجمال ويتخونه»، أي إلى إيجاد الشيء حيث لا يوجد، لقد تحولت المحاكاة عند عبد القاهر إلى نظرية إبداع متكاملة.

وربما يكون هذا التفرد الذي يتمتع به إنجاز عبد القاهر الجرجاني في تاريخ البلاغة العربية وراء التضارب الواضح في القراءات الحديثة للإنتاج. وقد توقفنا من قبل عند رأي طه حسين في بلاغة عبد القاهر الذي يرى أنه

لم يكن أكثر من شارح للفلسفة اليونانية، ثم إنه لم يتأثر بأرسطو، ولم يكن ليتأثر به البلاغيون العرب الآخرون لأنهم اعتمدوا على ترجمات ابن سينا المحرقة لكتابي أرسطو في الشعر والخطابة، كما يرى طه حسين؛ وإن كان ذلك لم يمنع طه حسين من إبداء إعجابه الصريح بإنجازات عبدالقاهر: «ولا يسع من يقرأ دلائل الإعجاز إلا أن يعترف بما أتفق عبدالقاهر من جهد صادق خصب في التأليف بين قواعد النحو العربي وآراء أرسطو العامة في الجملة والأسلوب والفصول. وقد وفق عبدالقاهر فيما حاول توفيقاً يدعو إلى الإعجاب»⁽⁵⁰⁾. وهو أيضاً ما دفع باحثاً مثل أحمد مطلوب إلى تأكيد تنسرد عبدالقاهر كعقريّة بلاغية أصيلة:

«وإذا كان الأمر كذلك فلن يستطيع الباحث إلا أن يفترض أن عبدالقاهر قد اطلع على التراث اليوناني المترجم وأنه قرأه ولكنه لم يتخذ منه أساساً في كل ما كتب، ولذلك يبقى قمة البلاغة والنقد. تجمعت عنده الروافد العربية فأحالتها نهراً متدفقاً يزخر بكل جديد، ولو كتب للبلاغة والنقد رجل آخر مثله لتطوّروا كثيراً»⁽⁵¹⁾.

ويتخذ شوقي ضيف موقفاً أكثر تحديداً من إنجاز الجرجاني الذي يرى أنه استوعب ما قرأه من خطابة أرسطو من خلال ابن سينا واطلع على ما فيه من حديث عن «صحة تأليف الكلام وما ينبغي أن يراعى فيه من الروابط ومن التقديم والتأخير ومن الاتساق بحيث لا تظهر فيه معاطلة...،

«ولسنا نزع أن شيئاً من ذلك كله دفع عبدالقاهر لإحداث نظريته وما استخرجه من قواعد المعاني الإضافية، وإنما نزع أنه قرأ ذلك كله واستوعبه استيعاب الحاذق البصير. ومن المؤكد أن ما كتبه نجاة العرب من سببويه في خصائص التعبيرات النحوية شيء يفوت الحصر وإن عبدالقاهر أفاد مما كتبه هاندة كبرى في دراسته التي انتهت به إلى وضع نظريته في المعاني الإضافية وصور الأداء النحوية للكلام»⁽⁵²⁾.

أي أن عبدالقاهر الجرجاني استوعب جيداً ما قرأه من أرسطو، لكنه حينما ألف في البلاغة العربية جاء ما كتبه في المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه ونظرية النظم التي تقوم على إعمال أحكام النحو اعتمد على التراث النحوي العربي، وجاء إنتاجه تطويراً لجهود النحاة العرب منذ سببويه، وفي هذا تكمن عبقرية عبدالقاهر وأصلته، وهي الأصالة التي يؤكد بها أيضاً محمد خلف الله

النظرية الأدبية العربية

أحمد في دراسته من **الوجهة النفسية في دراسة الأدب** حيث اكتفى بمقولة طه حسين بأن الجرجاني لا يد أنه قرأ ترجمة ابن سينا لكتابي الخطابة والشعر ليقرر أصالة إنجاز البلاغي العربي؛ «ولن تعطينا النظرة السريعة التي نظرناها في كتاب الشعر لأرسطو أكثر من ترجيح أن عبيد القاهر متأثر بأرسطو على العموم في منزعه النفساني في فهم ظواهر الأدب. وتأثره في هذا إنما هو تأثير العالم بما يصل إليه من ثقافات وليس التأثر أو التقليد المباشر الذي ينقي عن صاحبه الأسالة في البحث العلمي»^(٢٧) [التأكيد من عندي].

فإذا انتقلنا إلى حازم القرطاجني (٦٠٨ - ٦٤٨ هـ، ١٢١١ - ١٢٨٥ م) نجد أنفسنا نتعامل مع بلاغي وناقد مسلم يحاول وحيداً أن يعيد النظام، ليس إلى عالم مضطرب قوضوي فحسب، بل إلى حضارة على حافة الهاوية، وهو ما يفسر حرص حازم الواضح على أن يقنن في تفصيل شديد للإبداع والصناعة الشعرية، مستفيداً، كما لم يستند بلاغي من قبل، من إنجازات كل من البلاغة العربية والبلاغة اليونانية. هكذا جاء مفهوم القرطاجني، ليس أكثر تفصيلاً وتركيباً وعمقاً من المفاهيم العربية السابقة فحسب، بل من مفهوم أرسطو نفسه. وقد كانت استفادته من معطيات علم النفس القديم وراء ذلك التقيد الذي شهده المفهوم لأول مرة باعتباره تخيلاً بالمعنى التقليدي للمحاكاة، وباعتباره نشاطاً للملكات «الخيال» والمخيلة بمعانيها الحديثة، كما قدمها كوليرج وريتشاردز. ليس معنى ذلك، كما قد يتوهم البعض، أن الخلوط، الفاصلة بين المفاهيم والتعريفات عند حازم كانت واضحة محددة. لكن العكس هو الصحيح، وفي أحيان كثيرة يشعر القارئ لحازم القرطاجني أن قراءته لأرسطو قد حملت بأكثر مما تحتل من التأويل، وبالقدر نفسه الذي تغري فيه آراء حازم نفسه بتحميلها أكثر مما تحتل، وربما يكون تذبذب حازم في تحديد دلالة مصطلح التخيل وراء التأويلات المختلطة للمصطلح في بعض القراءات الحديثة والتي تنقل التخيل من دائرة «الإنشاء» أو الإبداع إلى دائرة التلقي على أساس التمييز الواضح بين المحاكاة والتخيل باعتبارهما نشاطين عقليين مختلفين: الأول نشاط يمارسه المبدع والثاني نشاط يمارسه المتلقي، وهو ما يخلص إليه الولي محمد في الصورة الشعرية استناداً إلى كلمات يجيل إليها لجابر عصفور في مفهوم الشعر، والذي اعتبره شخصياً أفضل ما كتب عن نظرية الشعر عند حازم القرطاجني. «تخلص بعد هذا»، يكتب الولي

محمد، «إلى مجرد التأكيد: أن المحاكاة علاقة النص بالعالم الذي تصفه وصفا جماليا، أما التخيل فعلاقة النص بالمتلقي وبعبارة أدق استجابة المتلقي أمام النص المحاكى، وأن التوفيق الأدبي في لحظة المحاكاة يترتب عليه الفوز في لحظة التخيل لدى المتلقي وهذا يتضمن حتما صياغة النص في ذاته صياغة لائقة»^(٤٧). ويصرف النظر عما إذا كانت نظرية المحاكاة كما فهمها حازم تحتمل هذا القراءة أم لا، فإننا حينما نفرق بين النشاطين بهذا الشكل، ونربط المحاكاة بالإبداع أو الإنشاء، فإننا نشرب في تفسيرنا للتخيل من معنى الخيال الحديث، وهو بهذا المعنى قدرة لا تقتصر ممارستها على فعل التلقي فقط، بل يجب توافرها في فعل الإنشاء، ويقدّر أكبر. لكننا لا نريد أن ندخل في مباحثات تبعدنا عن خطتنا الأساسي وهو تحديد مساهمة حازم القرطاجني في تطوير نظرية أدبية عربية، ويكتفي أن نحيل القارئ الذي يسعى إلى أكثر من هدفنا المحدد إلى كتاب حازم نفسه منهاج البلغاء وإلى الدراسة القيمة التي قدمها جابر عصمتور حول النظرية النقدية لحازم. أثبت أن منهاج البلغاء يمثل أفضل ما أفرزه العقل العربي في مجال النقد الأدبي، وأنه، بالرغم من كل التناقضات والتداخلات، يقدم نظرية عربية في الأدب تتناول في تفصيل غير مسبوق عملية الإبداع وشروط تحققها وآلياتها وطبيعتها بين المحاكاة والإنشاء أو الخلق، ووظيفة الأدب، ووظيفة اللغة، وخصايها الموهبة والتقاليد والشكل والمضمون والتحليل اللغوي للنص.

وقد سبق لنا أن توقفنا في سياق مختلف عند تعريف حازم للشعر، ولكننا نعود في سياقنا الحالي إلى التعريف نفسه لتوقف عنده مرة أخرى لغرض جديد. وهنا لابد من الإشارة إلى أن القرطاجني حينما يعرف الشعر باعتباره محاكاة في السياق المشار إليه فإنه لا يكتفي بذلك التعريف، بل يعود إلى الموضوع نفسه أكثر من مرة في سياق كتابه ليضيف جديدا هنا، ويعدل جانباً هناك وقد سبق أن أشرنا إلى أن حازم استطاع بهذا الشكل أن يقدم أكثر التعريفات شمولاً وتفصيلاً للشعر في تاريخ البلاغة العربية. الشعر عنده «كلام موزون مقفى من شأنه أن يجيب إلى النفس ما قصد تحييه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه لتعمل بذلك على طلبة أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخيل له ومحاكاة، مستقلة بنفسها أو مقصورة بحسن تأليف الكلام أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو

بمجموع ذلك»^(٢٤). وإذا كنا في السياق السابق قد توقفنا عند التناقضات والتداخلات في تعريفه للشعر فإننا هنا نتوقف عند شمولية تعريفه للمحاكاة، فحازم، على عكس ما قد يرى البعض، لم يكن مجرد بؤرة التفت فيها، في نهاية العصر الذهبي للبلاغة العربية، جميع خيوط التأثير اليوناني، فقد كان إنتاجه امتداداً قوياً لتيارات البلاغة العربية منذ بدايتها حتى القرن السابع، بل إنه لم يستطع في الكثير مما كتبه أن يبتعد عن تيارات الحياة المضطربة من حوله. ولهذا لم يكن غريباً أن يبدأ تعريفه بمفردات قدامة بن جعفر نفسها التي عرّف بها الشعر من قبل، أو يتوقف قرب نهاية التعريف عند «حسن تأليف الكلام»، الذي يضع تعريفه للشعر في قلب نظرية النظم عند الجرجاني. من هنا تجيء أصالة تعريفه، وفي الوقت نفسه، فإن مفهومه عن المحاكاة ووظيفتها يضعه، بالقدر نفسه، في قلب التعريف الأرسطي حينما يحدد الغاية من المحاكاة الشعرية على أنها تحبيب ما قصد تحبيبه إلى النفس، وتفقيرها مما قصد تكريهها له.

وبعضي حازم ليتحدث في تفصيل شديد عن طبيعة المحاكاة وآلياتها والعلاقة بين العمل المحاكي والمادة المحاكاة، وهو إنجاز لم يسبقه إليه بلاغي عربي، وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة أننا نتفق، أو يجب أن نتفق، مع كل ما كتبه حازم. وقد حددنا منذ البداية أن الحديث عن نظرية أدبية عربية وتحديد أركانها لا يعني الاتفاق مع كل جزئياتها، ويكفي هنا فقط أن نثبت وجودها. وهكذا يتحدث حازم القرطاجني عن دائرة التخيل والمحاكاة بلغة لا تختلف في جوهرها عن لغة الدائرة نفسها أو الدوائر الحداثية:

«كل شيء له وجود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق ما أدرك فيه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك، أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصور الذهنية في أذهان السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ فإذا احتيج إلى وضع رسوم من الخط تدل على الألفاظ لمن لم تنهياً له سمعها من الملتقط بها، صارت رسوم الخط تتيم في الأذهان هيئات الألفاظ، فتقوم بها في الأذهان صور المعاني، فيكون لها أيضاً وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليه»^(٢٥).

وكلام حازم هنا يمكن التعامل معه، بل لا نملك إلا أن نتعامل معه، من مدخلين: واحد لغوي والآخر نقدي. المدخل اللغوي في حد ذاته يضع حازم القرطاجني في قلب علم اللغة الحديث، إذ إن دائرة الإرسال والتلقي والشقفة اللغوية (المنطقية والمكتوبة) المستخدمة لا تختلف في أي من جزئياتها عن دائرة سوسير المغلقة التي سبق أن أشرنا إليها في سياق حديثنا عن النظرية اللغوية العربية. فالمرسل يكون صورة ذهنية للشيء المحاكى، وحينما يحتاج إلى نقل هذه الصورة الذهنية إلى ذهن متلقٍ، في عملية التوصيل اللغوي، يمر عن تلك الصورة بلفظ أو ألفاظ، هو التلفظ الصوتي عند سوسير فيما بعد. هذا التلفظ الصوتي هو ما يستقبله المتلقي ويقوم، من ثم، بتحويله داخل ذهنه إلى الصورة، أو الدلالة المتفق عليها، وإذا كانت الدائرة السوسيرية لا تكتمل عند حازم، لأنه يتوقف عند إرسال الرسالة وتلقيها، ولا ينتقل إلى إعادة إرسال الرسالة من جانب المتلقي إلى المستقبل نفسه، فإن ذلك أمر مسلم به ولا ينفي وجود الدائرة المغلقة في فكر القرطاجني. في داخل هذه الدائرة أيضاً يكون التركيز على اللفظ، أي على التلفظ الصوتي أو الكلام parole قبل الكتابة. ويمكن في ضوء كلمات حازم رسم دائرة أخرى يتم فيها محاكاة الكلام كتابة ونقله إلى متلقٍ كان غائباً، أي «لم يتهياً له سماعها من المتلفظ الأول بها»، كما يقول حازم، فيقوم وعي المتلقي بتحويل الصورة الخطية (الكتابة) إلى صورة صوتية تحاكي الشيء المحاكى أصلاً.

أما المدخل النقدي الذي يحدد العلاقة بين الشيء المحيل والصورة المتخيلة والأداة منقطة انطلاقه لغوية صرفة. ولقد سبق أن أكدنا أن البلاغة العربية. من بين علوم البلاغة المختلفة، تقدم نموذجاً للارتباط الوثيق بين ما هو لغوي وما هو أدبي. في سياقنا الحالي، يؤكد حازم ما أكده البلاغيون العرب الآخرون، ونعني به الجانب اللغوي للمحاكاة. فالشقفة المستخدمة ليست الألوان أو الخطوط أو إشارات الأيدي أو تعبيرات الوجه، بل مفردات اللغة منقطة أو مكتوبة. ومن هنا فإن الحديث عن نظرية عربية للأدب لا يمكن أن ينفصل عن الحديث عن اللغة، وسوف نعود إلى عبور العديد من الجسور التي عبرناها عند حديثنا عن النظرية اللغوية حينما نتحول إلى بقية أركان النظرية الأدبية العربية. لكن ذلك يردنا إلى أنواع المحاكاة أو التخييل كما يفهمها حازم القرطاجني وكما يقدمهما في منهاج البلاغة، إن السطور التي

أحلنا إنها في تعريف المحاكاة والتخييل حددت العلاقة بين الشيء المحاكي وصورته، والأدوات المستخدمة سواء كانت الفاظاً أو كلمات. لكنها تدور حول درجة المماثلة بين الشيء وصورته. ونعود إلى عبور جسر سبق أن عبرناه، لتتوقف عند توصيف حازم القرطاجني لنوعي المحاكاة، وهو توصيف نجد أنفسنا مضطرين للتوقف عنده في إطلالة، لأن ما يقوله القرطاجني هنا يحتل موقعا محوريا في نظرية الأدب العربية:

«وتقسم المحاكاة من جهة الشيء بواسطة أو بتغير واسطة قسمين: قسم يخيل لك الشيء نفسه بأوصافه التي تحاكيه، وقسم يخيل لك الشيء في غيره. وكما أن المحاكي باليد قد يمثل صورة الشيء نحتاً أو خطأ فتعرف المصور بالصورة، وقد يتخذ مرة بيدي لك بها تمثال [لا بد أنه يقصد هنا العكاس الشيء في المرآة] تلك الصورة فتعرف المصور أيضاً بتمثال [انكاس] الصورة المتشكل في المرآة، فكذلك الشاعر يخيل لك صورة الشيء بصفاته نفسها، وثارة يخيلها لك بصفات شيء آخر مماثلة لصفات ذلك الشيء. فلا بد في كل محاكاة من أن تكون جارية على أحد هذين الطريقين، إما أن يحاكي لك الشيء بأوصافه التي تمثل صورته، وإما بأوصاف شيء آخر مماثل لك الأوصاف»^(٥٦) [التأكيد من عندي].

وعلى الرغم من أن حازم يعتمد على السلم الأفلاطوني الصاعد من الفن مروراً بالواقع الحسي أو الطبيعة إلى عالم المثل حيث توجد الحقيقة، وكما فهمه من الفارابي، رغم أنه يستخدم ذلك السلم محرفاً من ناحية، وفي غير موضعه من ناحية أخرى، إلا أن تقسيمه للمحاكاة يقدم أحد الأركان الأساسية في نظرية الأدب العربي، ونعني به جانب الإبداع في الفن والأدب. وقد سبق أن قلنا إن التركيز العربي على الجانب الإبداعي أو الإبتداعي في المحاكاة يمثل أفضل ما أضافه العقل العربي إلى مفهوم المحاكاة الأرسطي الذي كنا نجهد أنفسنا في قراءته لنبرز جانب الإبداع، وتكرر وتعيد قراءة مقولة أرسطو المعروفة من أن الأدب أو الشعر لا يحاكي ما كان أو ما هو كائن بل ما ينبغي أن يكون أو يحتمل أن يكون باعتبارها أساس الإبداع في نظرية المحاكاة، وهكذا، وتأسيساً على المقولة التي أكدها كل من ابن سينا والفارابي من أن المحاكاة ليست هي إيراد الشيء بل مثيله، تحيز حازم بشكل واضح

للمحاكاة غير المباشرة أو محاكاة المشابهة، وتعريفها ببساطة: المحاكاة التي لا تهدف إلى تحقيق التمثيل الحرفي للمحاكي. ويتوقف جابر عصفور عند محاكاة المشابهة باعتبارها أساس الإبداع، وحيث إن اللغة، في المحاكاة، هي أداة التخيل، المباشر وغير المباشر: قلن الإبداع يعتمد بالدرجة الأولى على الاستخدام الخاص للغة، «معرفة» أو «محوّرة»، أي استخدامها على المجاز حتى تتعد عن مباشرة الدلالة بالمواضعة أو على الحقيقة، وهذا ما يقوله جابر عصفور في تحديد ودقة. فبينما تضعنا المحاكاة المباشرة في حضرة الموضوع، وتشف عنه كما تشف الأنبة البلورية - وهي صورة معروفة ومتكررة في البلاغة العربية عند الحديث عن العلاقة بين اللفظ والمعنى - تقوم المحاكاة غير المباشرة أو التشبيهية بتقديم الشيء من خلال غيره:

«أما المحاكاة التشبيهية فتجعلنا نتعرف الموضوع من خلال غيره، أو تدل عليه بلفظ غيره، أي أنها لا تعرضه في عزلة واكتفاء ذاتين وإنما تعرضه بواسطة سلسلة من الإشارات إلى موضوع آخر متميز عن ذلك الموضوع. ولكنه يمكن أن يرتبط به بنحو من الاتكاء. ومعنى ذلك أن المحاكاة التشبيهية تقوم على ضرب متميز من العلاقات المجازية، تربط بين طرفين أو أكثر، هذه العلاقات يسميها حازم «الإقتران»، ويراء خاصية أساسية في المحاكاة التشبيهية مادامت تقرر الشيء بغيره، وتظهر ذلك من المحاكاة في حسن الإقتران أن يقرن بالشيء الحقيقي في الكلام ما يجعل مثالا له مما هو شبيه على جهة من المجاز تمثيلية أو استعارية»⁽⁵⁷⁾.

وبهذا نكون قد انتقلنا إلى الشق الثاني من ركن «الشعر بين المحاكاة والإبداع». لقد توقفنا عند المحاكاة طويلا، وأن لنا أن نتحول إلى النظرة العربية المقابلة: درجة الإبداع في المحاكاة الشعرية كما يراها أو يحددها البيانيون العرب، وعند الحديث عن الإبداع في النظرية الأدبية العربية نبدأ بالعلاقة بين المادة التي يحاكيها الشاعر والقصيدة النهائية، بين المادة وصورتها التي تقدمها اللغة. وهنا تنداعى الأسئلة الفرعية وتتداخل بشكل حتمي: ما طبيعة المادة المحاكاة وماذا يحدث لها أثناء عملية التخيل؟ وما العلاقة بين الصورة النهائية ومكوناتها الأولى؟ ما مدى حرية المبدع في تعامله مع مادته؟ وما القوى التي تتدخل في تحديد درجة الإبداع؟ وهي أسئلة

تتطلب إجاباتها في أحيان كثيرة عمليات مقارنة مستمرة مع إنجازات النقد الحديث، لا يفرض إثبات شرعية ذلك النقد، ولكن يفرض إثبات شرعية التراث النقدي العربي ذاته.

حينما نتحدث عن القواعد التي تحكم عملية التحول التي تمر بها المادة الأولى المحاكاة، سواء كانت شيئاً أو معنى، قبل أن تصبح صورة، لابد لنا من التوقف عند أرسطو، المفكر الذي ارتبط اسمه أكثر من أي إنسان آخر بنظرية المحاكاة. وقد قلنا، وقال غيرنا، مزاراً إن المحاكاة الأرسطية لا تعني، عند أرسطو نفسه، النقل الحرفي للمادة المحاكاة. وتؤكد ذلك مقولتان أساسيتان عند المفكر اليوناني: أولاً، إن الشاعر لا يحاكي الأشياء كما هي أو كما كانت، كما تحدث أوكما حدثت، بل إنه يحاكي ما يحتمل أو ينبغي أن يكون. ثانياً: إن القول بأن الشاعر الملحمي أو التراجيدي يصور الأشخاص أفضل أو أخس مما هم في الواقع يعني صراحة أنه يغير في مفردات أو علاقات أو قيم المادة المحاكاة، سواء كانت معاني أو أفكاراً أو شخصاً أو أحداثاً، ليقدّم صورة جديدة، صورة فيها من الابتداع أكثر مما فيها من النقل. ونرجو أن تكون هذه آخر مرة نتوقف فيها عند محاكاة أرسطو التي يعرفها جيداً كل من له اهتمام معقول بالأدب والنقد.

أما في البلاغة والبيان العربيين فقد عرفت الممارسة الإبداعية هذه الحقيقة قبل أن تجيء البلاغة العربية نفسها إلى الوجود كعلم نظري، وقبل أن يعرف البلاغيون العرب أرسطو، محرفاً أو غير محرف. لم تكن العلاقة بين المادة أو المعنى والصورة الشعرية النهائية عند الشاعر العربي علاقة نقل حرفي أو سلبى، بل كانت دائماً علاقة ابتداع تقوم على خلق علاقات جديدة، و«تاسبات» لا وجود لها في الواقع. وسوف نتوقف في عجالة سريعة عند بعض الصور الشعرية التي أنتجها العقل العربي قبل أن يتعرف على آراء أرسطو أو في بداية ذلك التعرف، والواقع، إن هذا في حد ذاته يعتبر خطيئة في حق الإبداع العربي، إذ يجب ألا ننكر أصلاً بهذه الطريقة كان أرسطو، واتفق المبدع العربي أو اختلافه معه، هو أساس حكمنا بالقيمة على الشعر العربي. لكنها نماذج توقف عندها البلاغيون العرب أكثر من مرة على كل حال. النموذج الأول هو أبيات عتبة بن كعب بن زهير التي اختلفت الآراء حول قيمتها الفنية، من ابن قتيبة إلى قدامة إلى الجرجاني:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
 وشدت على حذب المهاري رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو راح
 أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح
 ما مكونات أو مفردات الموقف الذي يحاكيه ابن زهير هنا؟ إنه موقف
 بسيط لم يتجن ابن قتيبة حينما اعتبره نموذجاً للون من الشعر «حسن لفظه
 وحلا فإذا فتشته لم تجد هناك طائلاً». الموقف الأول أو المادة الأصلية التي
 تعامل معها الشاعر هو مشهد الحجيج وهم مرتحلون عن منى بعد انتهاء
 مناسك الحج فوق ظهور مطاياهم. وليس هناك من التفاصيل الواقعية أكثر
 من ازحام الطريق المبتعد عن منى، والحجيج يتجاذبون أطراف الحديث، وهنا
 يكمن خطأ ابن قتيبة الفاحش: لقد أسس حكمه على الأبيات الثلاثة على هذا
 المشهد قبل تأليف أو نظم القصيدة. ومن ثم وجده سطحي المعنى تأفه القيمة.
 لكن ذلك الموقف المبدئي ليس هو القصيدة، ليس هو تلك الصورة الشعرية
 الرائعة التي توقفت عندها عبد القاهر الجرجاني، بعد أن تحول عن المادة الخام
 إلى صورتها في الأبيات. إن «وسالت بأعناق المطي الأباطح» كصورة شعرية لا
 وجود لها في الواقع إلا بقدر وجود القصة أو الذهب في الخاتم.
 أما النموذج الثاني فهو بيتان لابن المعتز يتوقف عندهما عبد القاهر
 الجرجاني في إعجاب واضح:

ولأزوردية ترهو بزرقتها بين الرياض على حمر البواقيت
 كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت

والواقع أن البيتين يقدمان بالفعل نموذجاً يحتذى لوظيفة الشاعر
 الإبداعية في تعامله مع مادته. مفردات الواقع الذي بدأ به ومنه الشاعر
 حديثة ألوان يغلب عليها لونان فقط، هما الأزرق والأحمر، الأزرق هو لون
 أزهار البنفسج والأحمر أي نوع آخر من الزهور الحمراء. ليس هناك في
 مفردات الواقع، المادة الخام، الهولي، أكثر من ذلك. ما صورة هذا الواقع في
 البيتين؟ الواقع الجديد، الصورة الشعرية شيء آخر. شيء ابتدعه الشاعر ولا
 يمكن إرجاعه إلى أصله الأول، على الأقل لا يمكن تقويمه إلا في صورته
 الجديدة المتدعة. هناك الاستعارة الافتتاحية، استعارة الفعل «ترهو» فؤرة
 البنفسج هنا تشبه بانسان أو حتى حيوان يختال بجماله بين أقرانه. لكن
 الابتداع يصل إلى أروع ذروة له في الصورة المركزة التي يجسدها الشطر

الأخير في تركيز بالغ وفي جدة كاملة لا وجود لها في المادة الأصلية. إنه يشبه زهرة الينفسج بلونها القوي كأنها أوائل النار، الطرف المشتعل لمود كبريت، والمعنى هنا، وهو لا وجود له أصلاً في الواقع الحسي، لا يمكن إدراكه في ومضة واحدة خاطفة، إنه معنى تتسع دوائره وإيعاءاته كلما فكرنا في الصورة، معنى يقوم فيه المدلول بمراوغة الدال بصورة تجعل تثبیت الدلالة أمراً صعباً. وقد مهد عبدالقاهر لعملية الإيحاء المستمرة بالمعنى الذي يصعب تثبيته، وللجانب الإبداعي الذي تقوم عليه الصورة مؤكداً جانبياً «الاستغراب» و«التعجب» اللذين سيتوقف عندهما حازم القرطاجني فيما بعد. إن عبدالقاهر يحدد شمول نجاح الاستعارة الجيدة، وهو التباعد بين المثبة والمثبة به:

«وهكذا إذا استقرت التشبيهات وجدت التباعد بين الشبيهين كلما كان أشد. كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب، وكان مكانها إلى أن تحسنت الأريحية أقرب، وذلك أن موضع الاستحسان، ومكان الاستظراف، والمشير للدفين من الارتباح، والمناثف للناظر من المصرة، والمؤلف لأطراف البهجة، أنك ترى الشبيهين مثليين متباينين، ومؤلفين مختلفين، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض، وفي خلقه الإنسان وخلال الروض، وهكذا طرائف تتال عليك إذا فصلت هذه الجملة وتبعت هذه اللمعة»^(٥٨) [التأكيد من عندي].

والنموذج الثالث أبيات ثلاثة لابن الرومي:

إن أنس لا أنسى خبازاً مرز به يدحو الرقاقة وشك اللحم بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قُبُوراً كالقمر
إلا بمقدار ما تداح دائرة في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

المكونات الأولية للصورة الشعرية المركبة لا تزيد على منظر الخباز وهو يحول، في مهارة لافتة للنظر، كرة العجين إلى قرص رقيق، صحيح أن التشبيه الأول الذي يرد في الشطر الثالث والذي يشبه فيه القرص الرقيق بالتقصر، تشبيه بين متقاربين بشكل واضح ولا يمكن أن يقال إن فيه كثير ابتداع أو أصالة، لكن التشبيه بين المتباعدين يتضح في شطري البيت الثالث، عندما يكتمل التشبيه المركب بين الفترة الزمنية التي يستغرقها تحول كرة العجين إلى

قرص رقيق وبين الفترة الزمنية التي تستغرقها عملية اتساع الدوائر التي يحدثها إلقاء حجر في الماء. وبرغم أن الصورة الأولى التي قد تثيرها الأبيات في ذهن المتلقي تقوم على تشبيه محتمل بين متباعدين هما قطعة العجين التي يقوم الخباز بتحويلها إلى قرص أو دائرة تتسع ودائرة الماء التي تتسع، وتتابع أقطارها في أعقاب إلقاء الحجر في الماء، إلا أننا سرعان ما ندرك أن ذلك التشبيه مراوغ مخادع، فالمقارنة مقارنة حركة وليست مجرد مشابهة بين محسوس ومحسوس آخر. فنحن نتحدث عن تجربة حسية أولى لابد أن الشاعر توقف أمامها مرة، ولابد أن ذلك التوقف استغرق من الوقت أطول بكثير مما عبرت عنه الصورة الحركية في النهاية، ثم استرد من ذاكرته الحافظة تجربة حسية أخرى لا تتفق في شيء مع الصورة الأولى إلا في تحول نقطة مركزية إلى دوائر وأقراص تتسع عند محيطها، وفي السرعة التي يتم بها ذلك، ومهما كان المعنى الذي نثبتته في نهاية الأمر، في أي قراءة للأبيات، للصورة الشعرية، فإنه معنى لم يكن موجوداً، على الأقل بتلك الصورة النهائية، في الموقف الأصلي.

لقد كان التوقف الذي قد يعتبره البعض من نوع المصادرة على المطلوب، كما يقولون في المنطق، ضرورياً، فالعقل العربي المبدع، لم ينتظر عبقرية الفكر اليوناني وتعميقه للمحاكاة، لينتج شعراً بدأ عصره الذهبي وانتهى تقريباً، قبل أن يسمع الشعراء العرب عن أرسطو وآرائه في المحاكاة. ومن ثم نحن لا نستطيع، ل مجرد أن البلاغيين والبيانيين العرب تأثروا في مرحلة لاحقة بأفكار أرسطو عن المحاكاة والإبداع، أن نرجع إنجاز العقل العربي في هذا السياق، ولو في جزء منه، إلى أرسطو وآرائه، بل إن ما أنتجه العقل العربي عن الطبيعة الإبداعية للأدب، وبرغم كل ذلك الانشغال الواضح بالفكر اليوناني في الشعر والخطابة والمنطق، تخطى بمراحل كثيرة كل ما كتبه أرسطو حول الطبيعة الإبداعية للمحاكاة وبصورة تجعل من الظلم البين إرجاع إنجازات البلاغة العربية إلى التأثير الأرسطي.

لقد سبق العقل العربي المبدع تنظير البلاغيين، وفي هذا لا تختلف الثقافة العربية عن الثقافات الأخرى، فمأذا عن الجانب التنظيري؟ كيف رأى البلاغيون العرب العلاقة بين المادة والسورة، بين المعنى واللفظ، الذين تأثروا منهم بالفلسفة اليونانية والذين لم يتأثروا بها؟

عند الحديث عن هذه الثنائية والعلاقة بين طرفيها نذكر بأن ما نتحدث عنه ليس إلا تنويعات على الثنائية الأولى التي انشغل بها البلاغيون العرب منذ البداية وهي ثنائية اللفظ والمعنى. وفي سياقنا الحالي كانت لأراء قدامة بن جعفر في تعريف الشعر أهمية خاصة، وهو التعريف الذي يمثل العمود الفقري للتعريفات التالية حتى نهاية العصر الذهبي. ولم تكن آراؤه حول ثنائية اللفظ والمعنى أقل تأثيراً فيمن جاؤوا بعده وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني، خاصة فيما يتعلق باعتبار الشعر، كالتصور، صناعة تغير من صورة المادة الأولى الهولي:

«ومما يجب تقديمه وتزليله قبل ما أريد أن أتكلّم فيه أن المعاني كلها معرضة للشاعر، وله أن يتكلّم منها فيما أحب وأثر، من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية، والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة من أنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها، مثل الخشب للتجارة، والقضبة للصياغة؛ وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعف، والرفق والنزاهة، والبذخ والفناعة، وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الشنيعة أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك الغاية المطلوبة»^(٥٤)

ونتوقف عند نقطتين أساسيتين: الأولى أن المعاني كلها، بالنسبة لقدامة، معرضة للشاعر، وله أن يتكلّم منها فيما أحب وأثر، دون أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، وهذا مبدأ نقدي عصري بكل ما تحمل العصرية من معنى، إذ إن قدامة هنا يسبق الرومانسية والنقاد الجدد حينما يرفض القول بوجود «موضوعات شعرية» تصلح أغراضاً للشعر، وأخرى غير شعرية، لا تصلح مادة للإبداع الأدبي. وهو بذلك، وفي وعي كامل تؤكد النقطة الثانية، يؤسس الحكم النقدي على التجربة الشعرية أو الأدبية، لأنها هي معيار الحكم القيمي الوحيد على الإبداع في نهاية الأمر. وسوف نتوقف فيما بعد عند شواهد أكثر صراحة ومباشرة في البلاغة العربية تؤكد سبق البلاغة العربية للنقد الجديد، ولإليوت على وجه التحديد، فيما يتعلق بالنظرية الموضوعية impersonal theory التي أقام عليها ت. س. إليوت نظريته النقدية، والتي تفرق بين التجربة الحياتية أو الواقعية والتجربة الفنية كما ترد في قصيدة

شعر أو أي عمل أدبي آخر. والنقطة الثانية توضح الشرعية للنقطة الأولى فحينما يؤكد قدامة أهمية «الصناعة» و«التجويد» فإنه يشير، بطريقة غير مباشرة، إلى التحول الذي تمر به المادة الخام قبل أن تصبح صورة شعرية في القصيدة. ولتقريب ذلك يحيل قدامة بن جعفر إلى أكثر المقارنات شيوعاً في البلاغة العربية، وهي ما يحدث للخشب قبل أن يتحول إلى باب أو الفضة قبل أن تتحول إلى خاتم «قالباية»، كما يشير عصفور، أي الصنعة التي تجعل الباب باباً، و«الخاتمية»، أي ما يجعل الخاتم خاتماً، ليستا صفتين موجودتين في الخشب أو الفضة، لكنهما صفتان ينجع الصانع في فرضهما على الخشب والفضة فيحول الأول إلى باب والثانية إلى خاتم.

هل يهم بعد ذلك إذا كان قدامة بن جعفر لم يتأثر حقيقة بكتاب الشعر، بقدر تأثره بالفلسفة اليونانية عامة، وفلسفة أرسطو خاصة فيما يتعلق بالعلة الأولى والعلة الثانية، أو حتى إذا كان الآمدي في موازنته، والذي سيتوقف عند الفخنية نفسها في مفردات لا تختلف عن المفردات السابقة، سيكون موزعاً بين تأثير محتمل لقدامة وسوء فهم للفلسفة اليونانية؟ المهم، وهذا ما يؤكد شكري عباد في دراسته القيمة التي أحققها بترجمته لكتاب الشعر، أن حقيقة الشعر هي صورته:

«هأنت ترى أن قدامة لم يضطرب في معرفة العلة المادية والعلة الصورية والعلة التمامية للشعر، لأنه اعتمد في ذلك على تعريفه للشعر بأنه «كلام موزون متشبي يدل على معنى»، فأصبحت العلة المادية أو الهيولانية هي المعاني المدلول عليها بالانفاط، والعلة الصورية هي الشعر نفسه، والعلة التمامية هي التجويد والإتقان، واستطاع أن يخرج من ذلك بأن الشعر لا يستجد أو يستتبع لأنه يصور فضيلة أو ذليلة، إذ كانت معاني الشعر الفاضلة والذلة هي مادته فحسب، وإنما حقيقة الشعر هي صورته، هي فضائله الخاصة التي يبلغ بها شأنه درجة التجويد والإحسان»^(١٧) [التأكيد من عندي].

وما أكثر المواضع التي يتوقف فيها عبدالقاهر الجرجاني، في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، عند الصناعة مستخدماً مفردات قدامة بن جعفر نفسها ومقارناً بين الصناعات الحسية اليدوية والإبداع الشعري وموقف عبدالقاهر من علاقة الصورة بالمادة الأولى، ومن اللفظ بالمعنى ليس فتحت

النظرية الأدبية العربية

أكثر تحديدا وإلحاحا من مواقف البلاغيين العرب السابقين عليه، ولكنه يكتسب قوة من موقفه المبدئي القائم على رفض اللغظيين القائلين بوجود المعنى في اللفظ، وتطويره لنظرية النظم المحورية التي ترى أن المعنى يتحقق فقط داخل سياق أو نسق لغوي، أو شبكة علاقات تحدد علاقاتها أحكام النحو وقواعده. هذه العناصر مجتمعة أو مجمعة تؤكد الابتداع أو الإبداع في الشعر، وأن حقيقة الشعر، كما يقول عياد، هي صورته وليس مادته. وقد سبق أن توقفنا أكثر من مرة عند نصوص للجرجاني يمكن إعادة قراءتها من منظور المادة والصورة ودرجة الإبداع التي يمارسها الشاعر في تعامله مع مادته الأصلية أو الأولى - الهيولي، ويستطيع القارئ أن يعود إلى بعض تلك النصوص، إذا شاء، في القصول السابقة من الدراسة الحالية. لكننا نحيله الآن إلى نص آخر يعبر في دقة بالغة عن موضوعنا ويحدد نوع العلاقة التي يقصدها الجرجاني بين المادة والصورة. يكتب عبد القاهر في دلائل الإعجاز:

«ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ منه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ودرأته أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة - كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه. وكما أنا لو فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود أو فضة أنفس لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم. كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه أن لا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام وهذا قاطع فاعرفه»^(٦١) [التأكيد من عندي].

لقد سبق أن توقفنا عند السطور نفسها في معرض حديثنا عن شائبة اللفظ والمعنى، وقد توقفنا عندها مرة أخرى في سياق قادم ولاشك حول قضية الشكل والمضمون، وهي كل مرة نقرأ السطور نفسها من زاوية مختلفة، مما يدل على ثراء النص وأهمية القضايا التي يثيرها، سواء في البلاغة العربية آنذاك، أو في تيار النقد الأدبي طوال القرن العشرين الميلادي. زبما يحسن التوبة هنا، قبل قراءة النص من منظور المادة والصورة، إلى أن

عبدالقاهر في حديثه عن المعنى يقترب كثيراً من موقف الجاحظ الذي اعتبره كبير اللغويين بسبب مقولته المشهورة: «المعاني ملقاة في الطريق»، إذ إن عبدالقاهر حينما يقول: «كذلك إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه أن لا يكون تفضيلاً له من حيث هو شعر وكلام»، يضع نفسه عند أقرب نقطة من مقولة الجاحظ، فالحكم الذي ينتهي إليه الجرجاني يصبح ممكناً فقط إذا سلمنا بأن المعاني ملقاة أو مطروحة في الطريق، مما يعني أن عبدالقاهر كان أقرب إلى الجاحظ، مما ظن، ويؤكد، من ناحية أخرى، أننا قرأنا الجاحظ ومقولته المثيرة للجدل بطريقة خاطئة.

أما رأي عبدالقاهر في الطبيعة الادبائية أو الإبداعية للمحاكاة الشعرية فهو قاطع لا يتردد الرجل بإنهائه بـ «وهذا قاطع شاعره». ما مفردات هذا الرأي القاطع إذن؟

مفردات ذلك الرأي هي مفردات رأي قدامة بن جعفر نفسها التي توقفنا عندها منذ قليل، ومن ثم، فإن الأمر لا يحتاج إلى التوقف عندها مرة أخرى، لكن ما يضيئه عبدالقاهر إلى رأي قدامة، يضعه مرة أخرى في قلب تيار النقد الحديث في القرن العشرين الميلادي. فنحن حينما نتوقف عند خاتم لم يتوافر له «تمام» الصنعة أو «تجويد»ها، ثم تصدر حكماً بالقيمة على أساس أنه على الرغم من رداءة الصنعة فإن لذلك الخاتم قيمة لأنه مصنوع من ذهب أو فضة ثمينة أو أنه محمل بفص ثمين فإننا بذلك لا نحكم على الخاتم باعتباره خاتماً أو متقن الصنعة والتصوير، بل نحكم عليه باعتباره فضة أو ذهباً أو فصاً ثميناً. الشيء نفسه عند تقويمنا لقصيدة رديئة لا تتوافر لها مقومات الشعر الجيد. فإذا حكمنا عليها على أساس ما تعبر عنه من أفكار جديدة أو قيمة أو عميقة فإننا بذلك لا نحكم عليها كقصيدة، بل نحكم عليها باعتبارها فلسفة أو موعظة أو أخلاقاً، والناقد الذي يجيد استخدام أدواته النقدية يجب ألا يخلط بين الحكمين. إن ما يتولاه الجرجاني هنا، وهو بالغ الأهمية، يعني أن واجب الناقد أن يتعامل مع الصورة النهائية، مع القصيدة، باعتبارها قصيدة شعرية بالدرجة الأولى، وأن المعاني والتجارب الذاتية أو الحياتية التي انطلق منها الشاعر قد تحولت، أثناء عملية المحاكاة والتخييل، إلى تجارب جديدة لا وجود لها إلا داخل القصيدة، ومن ثم يجب ألا نرجعها إلى مكوناتها الهيولائية الأولى. هل حملنا نص عبدالقاهر أكثر مما يحتمل؟

النظرية الأدبية العربية

على من يظن ذلك أن يعيد قراءة النص ويتمعنه جيدا ليدرك أن ما قدمناه حتى الآن ليس سوى قراءة مباشرة للنص التقدي الجرجاني، وإذا كان ذلك كذلك، فما المسافة الحقيقية بين ما يقوله نص عبدالقاهر وما تقوله المذاهب النقدية في القرن العشرين بصيغ تختلف في ظاهرها وتلتقي في جوهرها عن دراسة العمل من داخله، أو كما هو «as in itself it really is» في النقد الجديد أو النص المغلق closed text الذي يؤمن به شريحة من البنيويين الذين يتعاملون مع النص الأدبي باعتباره أنساقا لغوية مغلقة أو، أخيرا، عند نقاد التلقي والتفكيك الذين يرفضون وجود أي سلطة خارج النسق اللغوي؟ بل إن عبدالقاهر يتحدث في موقع آخر من دلائل الإعجاز عن الطبيعة الإبداعية للمحاكاة والتخييل في كلمات أكثر تحديدا من الكلمات السابقة مؤكدا أهمية خلق «تناسبات» و «علاقات» جديدة تحقق ما توقفت عنده طويلا النقاد المحدثون، ابتداء من الشكليين الروس، ونعني به جعل المألوف غير مألوف أو كسر الألفة defamiliarization:

«وانما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش فكما أنك ترى الرجل قد تهدى في الأصباغ التي عمل منها الصورة، والنقش في ثوبه الذي تسج إلى ضرب من التخير والتدبير في أنفاس الأصباغ وفي مواقعها. وفي مقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبها إياها إلى ما لم يتهد إليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيها معاني النحو، ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم»^(١٢).

فلنقم معا بعمليتين بسيطتين واحدة منطقية تماما، تتمشى مع منطق كلمات عبدالقاهر، والأخرى ليس فيها أي اختلات على كلماته أو تحريف لها، العملية الأولى مجرد ملء فجوة صغيرة في النص، فالمقارنة في حالة الرسم أو النقش بين «الرجل... وصاحبه» وفي حالة الشعر بين «الشاعر والشاعر»، وحتى تكون المقارنة عادلة بين عمل الرسام والرسام أو بين الشاعر والشاعر فلا بد أن تكون المادة الأولى، الهيبولي، واحدة، ففي حالة الشعر لا بد أن تكون المقارنة بين قصيدة وأخرى في الغرض الشعري نفسه أو حول المعنى نفسه، هذا ما لم يقله الجرجاني، لكن منطق النص التقدي يحتمله تماما، أما العملية الثانية فهي عملية إحلال بسيطة نسحب فيها

مقالته عبدالقاهر عن الرسم والنقش على مالم يقله عن الشعر. أحد الرسامين «تهدي إلى ضرب من التخير والتدبير في اختبار أنفاس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبها إياها إلى مالم يتهد إليه صاحبه فجاء نقشه... أعجب، وصورته أغرب». هذا هو أساس المقارنة والحكم بالإجادة على عمل الرسام الأول وعدم الإجادة على عمل الرسام الثاني. فلنقرأ النص نفسه بعد عملية إحلال تتفق مع المقارنة بين شاعرين: أحد الشعراء «تهدي إلى ضرب من التخير والتدبير في أنفاس المعاني... إلى آخر الجملة. ما الفارق، إذن، بين القصيدتين اللتين تدوران حول الغرض نفسه أو المعنى نفسه؟ أحد الشعراء لم يهتد فقط إلى أنفاس المعاني؛ بل أجاد نظمها - هذا ما تعنيه كلمات: «كيفية مزجها لها وترتيبها إياها» - فجاءت قصيدته أكثر عجباً وغراباً. أما الثاني، فقد بقيت معانيه المألوفة مألوفاً، باختصار: لقد «أبدع» الأول و«نقل» الثاني متوقفاً عند حدود المحاكاة، الإبداع، إذن، هو محك الحكم القيمي. وفي السطور التي سبق أن توقفنا عندها من أسرار البلاغة لا يترك عبدالقاهر مجالاً للشك في أن الإبداع الكامل هو ما يقصده طوال الوقت، أي ابتداء أشياء وعلاقات لا وجود لها في المادة: «كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور، ويشكله من البدع، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يتوهم بها الجامد الصامت؛ في صورة الحي الناطق، والموات الأخرس، في قضية الفصيح المصرب، والمبين المميز، والمعدوم المفقود في حكم الموجود المشاهد»^(٦٢)، هل يمكن أن يشك أحد في أن إنطلاق الجوامد، ومنح الموات الأخرس القصاحة والبيان، ثم جعل المعدوم المفقود - أي ما لا وجود له - حاضراً مشاهداً تعني، فرادى ومجتمعة، القدرة الإبداعية الكاملة التي يتمتع بها الشاعر ويمارسها في تعامله مع الهولي؟ وحينما يمارس الشاعر تلك القدرة الكاملة على الابتداء يحقق لشعره أو قصيدته «العجب» و«الغرابية»، التي تروق السامعين وتروعهم... وتهز الممدوحين وتحركهم... وتدخل النفس من مشاهدتها [في حالة التصويرات] حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، وينشأها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه، ولا يخفي شأنه»^(٦٣). لم يشوقت بلاغي عربي عند ثنائية المحاكاة والإبداع كما توقف عندها حازم القرطاجني، فقد توقف أكثر من غيره عند طبيعة المادة المحاكاة في

النظرية الأدبية العربية

انقسامها إلى «الممكن» و«المتع» و«المستحيل»؛ كما توقف عند التخيل والقوى الفكرية التي تحكم تحققها مثل «القوة الحافظة» و«القوة المائزة» ثم قوة «التخيل»، بالطبع، وعند درجة الوعي واللاوعي في أثناء عملية التخيل أو الإبداع الأدبي، ثم التجربة الفنية النهائية أو الصورة وعلاقتها بالمادة أو العلة الأولى وهل هي علاقة نقل حرفي أم توازن، علاقة تطابق أم مشابهة، وأدى انشغال حازم بثنائية المحاكاة والإبداع بصفة جوهرية إلى عدم توقفه طويلاً عند ثنائيات أخرى لا تقل أهمية مثل ثنائية اللفظ والمعنى التي تعامل معها القرطاجني، حينما تعامل، من مدخل ثنائيته المحورية، المحاكاة والإبداع، مما يضعه عند نقطة في تاريخ البلاغة العربية هي أقرب للنظرية الأدبية منها إلى النظرية اللغوية، وهي هذا كله تصب آراء حازم القرطاجني وأفكاره في قلب نظرية أدبية تمتد، برغم قرون الفرجاء وحواجز القطيعة، إلى قلب القرن العشرين الميلادي.

يرى الولي أن من أبرز إنجازات حازم القرطاجني أنه يتف في منطقة وسط بين موقفين متناقضين في تاريخ نظرية الشعر، قديمها وحديثها، بل إنه، في زاياه، يقدم بديلاً ثالثاً:

«نستطيع أن نميز في تاريخ نظرية الشعر بين موقفين بشأن مادة الشعر وصورته. يذهب الأول إلى أن هذه المادة تلعب دوراً مهماً في شعرية النص، ويذهب الثاني إلى أن الذي يلعب هذا الدور هو صورة التعبير لا المادة الدلالية، يمكن تسمية الموقف الأول بأنه «جوهري» substantialiste والثاني شكلائي، formaliste، ومع هذا فإن هناك إمكانية لتصوير موقف ثالث يجمع بين الموقفين السابقين، ويمكن تأطير موقف حازم ضمن هذا الموقف الثالث الأخير،^(٦٥)

ويؤسس الولي رأيه في الموقف الثالث الذي يرى أن حازم يتبناه على أساس تحيز الأخير الواضح للمادة أو المعاني المشتركة بين الناس باعتبارها هدف المحاكاة أو التخيل الأول. «فالتصورات»، يكتب القرطاجني، «التي هي قطرة النفوس ومعتقداتها العادية أن تجد لها فرحاً أو ترحاً أو شجواً هي التي ينبغي أن نسميها التصورات الأصلية. وما لم يوجد ذلك لها في النفوس ولا معتقداتها العادية فهي التصورات الدخيلة»^(٦٦).

وحازم بذلك يحدد المعاني - المادة الخام - التي يفضل قيام الشاعر بمحاكاتها. إذن فهو، بهذا المعنى، يتفق جزئياً مع أصحاب المعنى أو المادة، وبالتالي لا يقتصر القيمة على الشكل كما يقول الشكليون. ولكنه حينما يقتصر المعاني موضوع المحاكاة على المعتقدات العادية أو المشتركة بين الناس يخفف من درجة التركيز على المعاني ويقترب بذلك من موقف الشكليين، فليست وظيفة الشاعر أن يبحث عن المعاني الجديدة وغير المطروقة، بل إن حازماً يرفض الأفكار التي تفرزها العلوم والصناعات على أساس أنها قد تهم البعض ولا تهم مجموع الناس وتثير فيهم المشاعر المشتركة مثل الفرح أو الترح؛

«وما لم يوجد ذلك لها في النفوس ولا معتقداتها العادية فهي المتصورات الدخيلة، وهي المعاني التي إنما يكون وجودها بتعلم وتكسب كالأغراض التي لا تقع إلا في العلوم والصناعات والمهن، فالمعاني المتعلقة بهذه الطرق الخاصة ببعض الجماهير لا تحسن في المقاصد العامة المألوفة التي ينحى بها نحو ما يستطيعه الجمهور أو يتأثرون له بالجملة»^(١٧).

واللافت للانتباه أن المصطلح الذي يستخدمه حازم لوصف المادة الأولى أو المعنى الذي يصوره الشاعر يؤكد الطبيعة الإبداعية للمحاكاة الشعرية، وهو في ذلك يقسم المادة التي يجسدها التعبير الشعري إلى «الاختلاق الإمكانى» و«الاختلاق الامتناعى» ويستبعد من معاني الشعر «الاختلاق الاستعالي»، مستخدماً كلمة «اختلاق» حتى في وصف الممكن. وهو هنا يتفق في تعريفه للمعنى الشعري مع تعريف أرسطو له في جانب منه، ويختلف معه في جوانب أخرى. يتفق مع أرسطو في أن الشاعر يتعامل مع ما هو ممكن أو محتمل حدوثه وإن كان الهدف يختلف عند الاثنين، ففي حديثه عن محاكاة الشاعر للممكن أو المحتمل كان هدف أرسطو هو تأكيد الاختلاف بين الشعر والتاريخ الذي يتعامل مع ما حدث أو يحدث. أما حازم فيفضل التعامل مع الممكن أو المحتمل بسبب حسن الموقع في النفوس. فهو يرى أنه «كلما توفرت دواعي الإمكان كان الوصف أوقع في النفس وأدخل في حيز الصعة». ويختلف مع أرسطو في الوقت نفسه أولاً في توسيع مظلة الممكن أو المحتمل

النظرية الأدبية العربية

لتغطي كلا من المحتمل الأرسطي والممتنع. ثم يضيف فئة ثالثة في وصفه للمعاني أو المادة الأولى وهي «الاختلاق الاستحالي»، وهي إضافة فرضتها طبيعة التراث العربي ذاته والذي خلا من الأساطير، ومن ثم وجد العقل العربي صعوبة في تقبل الأساطير اليونانية التي سماها خرافات مستحيلة الحدوث، ولم يستطع أن يفهم كيف ومنعها العقل اليوناني المبدع داخل دائرة الاحتمال أو الإمكان. أي أنه في الوقت الذي عارض فيه أرسطو بين ما هو ممكن أو معتمل (مادة الشعر) وبين ما هو كائن أو كان بالفعل (مادة التاريخ) عارض فيه حازم بين ما هو ممكن أو ممتنع (مادة الشعر) وإن كان فضل الأول ولم يستبعد الثاني) من ناحية، وبين ما هو مستحيل (وقد رفضه مادة للشعر)، من ناحية ثانية، وقد توقف شكري عياد بما فيه الكفاية عند أنواع الاختلاق الثلاثة، وفعل ذلك بصورة أكثر تفصيلاً جابر عصفور الذي ناقش أنواع الاختلاق الثلاثة في تفصيل وافٍ، والشيء نفسه يمكن قوله عن توال إبراهيم، وإن كان شكري عياد قسم معاني الشعر إلى ممكن وممتنع فقط، والممتنع في هذه الحالة هو المستحيل. ولهذا سوف نكتفي هنا بتعريف أنواع الاختلاق في إيجاز شديد.

الاختلاق الإمكانى هو ما لا يوجد في النص المبدع ولا في الواقع الخارجي ما يثبت كذبه، كأن يتصور الشاعر محبوبية ويتغزل فيها دون أن يكون لتلك المحبوبة وجود حقيقي. أما الممتنع فهو، كما يعرفه حازم، ما لا يقع في الوجود، ولكنه متصور في الذهن كتركيب يد أسد على رجل. أما الاختلاق المستحيل فهو ما لا يمكن إدراجه تحت أي من النوعين السابقين، فلا هو ممكن في عالم الواقع، ولا هو ممكن مجرد تصوره عقلياً.

ما يهمنا التوقف عنده هنا أن عملية التخيل أو المحاكاة كما يقدمها حازم القرطاجني تتارعها قوتان، فهو يحدد المحاكاة منذ البداية بأنها «اختلاق» أي ابتداع أو إبداع مما يؤكد تحرر الشعر بالكامل من قيود حرفية النقل والمحاكاة، وفي الوقت نفسه، فإن هذه الحرية ليست حرية مطلقة إذ تحكمها قيود يفرضها العقل والممارسات الشعرية، ويحدد جابر عصفور هذه الحركة على محور الحرية/التقيد في مفهوم الشعر على النحو التالي:

«والإشارة إلى العقل تفرض السؤال المهم، وهو: إلى أي مدى تتحرر الذات المدركة للشاعر في تعاملها مع موضوعات إبداعها؟ هنا تظهر المشكلة. إن ذات الشاعر المدركة - عند حازم - حرة في تعاملها مع موضوعات إبداعها وبالتالي في تشكيلها هذه الموضوعات، ولكن من خلال مجموعة من القيود يفرضها إطار التقييم التي تشد إليه المحاكاة كلها... منها المعايير الأخلاقية، وقواعد العقل الناقد، والاستجابة إلى الأصول الكبرى التي صنعتها تقاليد الشعراء الفحول، ولذلك يشترط حازم في الثقل من بعض المعاني الذهنية إلى غيرها «أن يكون ذلك غير خارج عن الهياكل التي وقّعت للعرب»، ويشترط في تشكيل صور الشعر أن تكون على نحو يقبله العقل، فلا تتجاوز - في مخالفتها الواقع الحرفي - حد القضايا الواقعة في الوجود، مما تقدم به الحس والمشاهدة أو آقره العقل^(١٨).

كان ذلك، في إيجاز، أبرز ما قاله حازم القرطاجني عن المعنى أو المادة الخام التي تتحول إلى صورة شعرية، وطبيعة هذه المادة، ما القوى التي تعامل مع هذه المادة حتى تحولها في نهاية الأمر إلى قصيدة أو صورة شعرية؟ وبعبارة أخرى كيف تتم عملية الإبداع أولاً في ذهن المبدع، ثم معبرا عنها في نص لغوي؟ في الواقع أن حازم القرطاجني يحصر عشرة قوى تمثل في رأيه جميع الأنشطة الذهنية التي يمارسها العقل في أثناء عملية التخيل، بعضها أنشطة مدركة وإعنية والبعض الآخر تتم ممارستها بصورة غير مدركة. أبرز هذه القوى أو الملكات: قوة التخيل والقوة الحافظة والقوة الماثرة ثم القوة الصانعة. وهنا عودة لأجد منها إلى الدائرة المغلقة التي فصلها حازم وتوقفنا عندها من قبل قائلين إنها لا تختلف عن الدائرة المغلقة التي يعبر بها سوسير عن خطوات أو مراحل توصيل الدلالة. لكننا هذا المرة سنحاول تحديد المواقع التي يمارس عندها العقل وطاقات هذه الملكات أو القوى الأربعة في أثناء عملية المحاكاة الخلاقة أو الإبداعية:

«كل شيء له وجود خارج ذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في ذهن تطابق ما أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك، أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة في أذهان السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة

النظرية الأدبية العربية

الألفاظ، فإذا احتيج إلى وضع رسوم من الخط نذل على الألفاظ لمن لم يتبين له سمعها من المتلفظ بها، صارت رسوم الخط تقيم في الألفاظ هيئات الألفاظ، فتقوم بها في الأذهان صور المعاني، فيكون لها أيضا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليه،^(١٨)

وحيث إن حازم يتحدث عن مستويين لتحقيق الدلالة داخل دائرته المغلقة، وهما مستوى التلفظ أو الكلام ومستوى الكتابة الخطية فسوف نناقش المستوى الأول باعتبار أنه هو المستوى الأساسي الذي يتوقف عنده القرمطاجني بالتفصيل. المرحلة الأولى بالطبع هي مرحلة إدراك وجود الأشياء، وهو إدراك يحدث عن طريق الذهن وداخله، كأن يدرك الشاعر أن الوردة حمراء، ويدرك في وقت آخر أن خد فتاة جميلة يانعة الشباب أيضا أحمر، أو أن البنفسج لونه أزرق زاه، دون أن يربط بين أي من هذه المدركات الحسية. وهذه المرحلة هي ما سوف يسميه الفيلسوف الواقعي جون لوك بعد ذلك بشرون الانطباعات الحسية التي تخلقها أو تحدثها الأشياء داخل العقل impressions. ماذا يحدث لهذه الانطباعات أو المدركات؟ هنا يجيء دور القوة الحافظة التي تتولى حفظ هذه المدركات/الانطباعات حسب ترتيب حدوثها أو إدراكه، والقوة الحافظة نشاط عقلي يمارسه البشر الأسوذا جميعا، ويكتفينا من البشر جميعا رجلا: رجل عادي وشاعر - سوف نتحدث عن المهبة التي تميز الشاعر عن الرجل العادي فيما بعد، إذا أراد الإنسان العادي أن يوصل إدراكه بهذه الأشياء إلى وعي أو عقل إنسان آخر فسوف يترجم تلك المدركات - وحسب دائرة حازم المغلقة - عن طريق مواضع لغوية بسيطة ومباشرة، دون زيادة أو نقصان، وهكذا يمكن أن يقول إنه شاهد وردة حمراء، وقد يصف خد الصبية بأنه أحمر، أما إذا قال في وصف الفتاة «إنها وردة» فلم يعد رجلا عاديا، بل أصبح شاعرا، وعند هذه النقطة يكون ذلك الشاعر قد مارس بالفعل جميع القوى التي حددها حازم القرمطاجني، لقد مارس بالفعل قوة التخيل بمعناها الحديث وليس بمعنى التخيل أو المحاكاة حينما قدم التشبيه، القائم على استعارة المحسوس للمحسوس بالمعنى الذي قصده حازم حرفيا. ومارس أيضا القوة المائزة القائمة على اختيار اللفظ/الصورة التي تلائم المعنى وهو وصف الصبية بالجمال والنضارة والشباب. ولم يفعل كما فعل آخر في سياق المديح هائلا: «أنت في وهائك

كالكلب، وقد مارس، بالطبع، القوة الأخيرة وهي أهم تلك القوى جميعا، وهي القوة الصانعة التي تعتمد على كل القوى السابقة، من حفظ واسترجاع وتمييز ليربط بين متباينين عن طريق الضم والتنظم. وبهذا قدم علاقة لا وجود لها في المادة أو الواقع خارج القصيدة، لقد أدخل جزئيات أو انطباعات استدعاها خياله من مخزون الذاكرة وأدخلها في علاقات جديدة تماما. لقد قدم شيئا جديدا. لقد حقق فعل الإبداع.

لكن الحديث عن الإبداع في ضوء السياق السابق، يؤثر تساؤلا جوهريا: ما العلاقة بين المنشج الجمالي النهائي ونقطة البداية؟ أو، ما العلاقة بين التجربة داخل القصيدة أو النسق اللغوي والتجربة الأولى الهولانية؟ في ضوء المثال السابق الذي يصل إلى أن الإبداع يعتمد على خلق علاقات جديدة وإن كانت محتملة، وفي ضوء مقولات حازم القرطاجني الصريحة، فإن الواقع الفني، أي التجربة داخل القصيدة، ومن حيث إنها ليست نقلا حرفيا للتجربة الأولى، يمثل كيانا جديدا، وفي كلمات نوال الإبراهيم تأكيد لهذا الموقف المبدئي:

«وليس العلاقة بين الحقيقة الواقعية والحقيقة الفنية لصور الشاعر علاقة تناقض، بل هي - بالأحرى - علاقة تكامل، يضيف فيها الفن إلى الواقع بالإضافة التي تجعل الفن وسيلة من وسائل تقديم الواقع وتعرفه. ولهذا السبب يقول حازم إن المحك في الصناعة مرتبط بحسن المحاكاة، الذي يعني «إقامة صور الأشياء في ذهن»^(٧٠). وإذا كانت إقامة صور الأشياء في ذهن فريقة التخيل فإن هذا التخيل «لا يناهي اليقين» ذلك «لأن الشيء قد يتخيل على ما هو عليه. وقد يتخيل على غير ما هو عليه»^(٧١).

إن تخيل الشيء «على غير ما هو عليه» لا يعني فقط اختلاف الصورة عن الأصل، بل جدتها بالكامل مادام خيال الشاعر يتحرك بين طرفي الحرية والعقل، أو بين الحرية واثرة «الهيئات التي وقعت للعرب»^(٧٢) أي أن الحرية يحكمها العرف الأدبي وأحكام العقل فقط، وفي ذلك ذهب حازم إلى القول بأن الفنان يستطيع أن يعدل في مفردات الواقع ويضيف إليه، ولم يكن من قبيل المصادفة أن يورد حازم القرطاجني في المنهاج نسا أفلاطونيا معروفا من كتاب السياسة يقول فيه: أفلاطون «إننا لا نلوم مصورا إن صور صورة إنسان فجعل جميع أعضائه على غاية الحسن، فنقول له إنه ليس يمكن أن يكون إنسان على هذه الصورة، وذلك

النظرية الأدبية العربية

إن المثال ينبغي أن يكون كاملاً، وأما سائر الأشياء التي هو لها مثال فحسنها بقدر مشاركتها لذلك المثال^(٧١)، وهذا هو الموقف الذي يتبناه حازم في كل ما كتبه عن التخيل الذي ينطلق من الواقع. وبهذا المعنى فهو محاكاة للواقع، لكنه يعدل فيه ويضيف إليه، وفي ذلك لا يهم أن يكون المثال كاملاً وبصورة لا يمكن وجودها في الواقع، مادام إمكان وجوده يعتمد على أن تلك الصفات المجتمعة في الصورة أو المثال يمكن أن توجد مفردة في الواقع. أي يكفي أن تتصف امرأة بجمال العينين وأخرى بحمرة الخد، وثالثة باعتدال القوام... إلخ، لكي يصور الشاعر، بيدع بالكمال، امرأة جديدة تجمع كل هذه الصفات ولا وجود لها في الواقع. وبالشئ نفسه بالطبع، مع النموذج المضاد، إذ يقول حازم: «لا يخلو الشئ من أن يقصد تخيله على الكمال أو يقتصر على أدنى ما يخيله»^(٧٢) [التأكيد من عندي]. أي أننا نستطيع تطبيق الحكم نفسه «بالاختلاق الإمكانى» في حالة تصوير إنسان كامل الفبح، إن ما نتحدث عنه بصراحة، هو أحد مفاهيم النقد الجديد الذي يمكن ربطه أيضاً بمفهوم النص المغلق عند البنيويين ورفض وجود أي سلطة خارج النسق اللغوي عند أصحاب التلقي والتفكيك ونقصه به رفض لإرجاع التجربة الفنية إلى التجربة الواقعية بغرض المقارنة بين التجريتين أو حتى إصدار حكم بالصدق أو الكذب على التجربة الفنية في علاقتها بالواقع. وهذا ما حرص حازم على تأكيده في أكثر من موضوع دون أن يستخدم مصطلحات النقد الحديث والحداثي وما بعد الحداثي بالطبع. ففي تعريفه لطبيعة المحاكاة وأهدافها، وهو تعريف سبق أن بينا أنه تعريف أرسطي، يضيف مبدأً جديداً لا يمكن قراءته أو تفسيره إلا بمقارنته بمفاهيم نقد القرن العشرين الأكثر بريقاً، ليس إلا، يكتب حازم:

«لما كانت النفوس قد جبلت على التنبه لأنحاء المحاكاة واستعمالها والالتذاذ بها منذ الصبا. وكانت هذه الجيلة في الإنسان أقوى منها في سائر الحيوان... اشتد ولوع النفس بالتخيل، وجمارت شديدة الانفعال له حتى إنها ربما تركت التصديق للتخيل، فأما عات تخيلها وألفت تصديقها، وجملة الأمر أنها تتشغل للمحاكاة انفعالا من غير رؤية، سواء كان الأمر الذي وقعت المحاكاة فيه على ما خيلته لها المحاكاة حقيقة، أو كان ذلك لا حقيقة له، فيبسطها التخيل للأمر أو يقبضها عنه»^(٧٣) [التأكيد من عندي].

ومرة أخرى لا يملك المرء إلا الوقوف أمام هذه الكلمات بكثير من العجب والإعجاب. وما أكثر ما يحدث ذلك عندما تتعامل مع إنتاج العقل العربي في بعض الإنصاف. مصدر الإعجاب أننا - للمرة الكم؟ - نقف أمام نص نقدي وبلاغي عربي يعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي، ورغم ذلك لا نجد صعوبة، كبيرة أو صغيرة، في وضعه في قلب تيارات النقد الغربي في القرن العشرين، ذلك النقد الذي أنبهر به الكثيرون، ومؤلف المراسل المقعرة من بينهم. بعد أن أدركنا ظهورنا بالكامل لمنجزات العقل العربي! وسوف تكون لنا وقفة في موضع لاحق عند قضية الصدق والكذب والربط بين الأدب والغايات المختلفة الغربية عن طبيعتها، لكننا هنا نتوقف عند احتمالات، بل المعاني الصريحة، الحديثة والمعاصرة، لما قاله القرطاجني في القرن الثالث عشر الميلادي، كل ما ينقصه هو المصطلح النقدي الباهر.

التخيل الجيد، في رأي حازم القرطاجني، يدفع المثقفين إلى الانفعال بالصورة الجديدة لدرجة أنهم، في حضور ذلك التخيل الجيد، «يتكئون التصديق للتخيل» و«يطعمون تخيلهم ويلغون تصديقهم»، ثم إنهم في انبساطهم لما يتم تخيله أو انقباضهم عنه، لا يهمهم إذا كان الأمر «الذي وقعت المحاكاة فيه على ما خيلته لهم المحاكاة حقيقية أو كان ذلك لا حقيقة له». إن ما يقوله حازم ببساطة باللغة العصرية، إننا لا يجب أن نرد التجربة الشعرية إلى التجربة الواقعية، وإن المقارنة بين التجريتين غير واردة ولا طائل وراءها، حتى في قضايا الصدق والكذب. مرة أخرى لقد تغيرت التجربة الحياتية أو الواقعية وتحولت بالكامل إلى تجربة جديدة، تماماً كما قال إلبوت بعد ذلك بسبعة قرون كاملة حينما شبه العملية الإبداعية بعملية تفاعل كيميائي ينتج عنها مركب جديد، بالكامل، مركب يختلف عن مكوناته الأصلية الأولى ولا يمكن إرجاعه إليها، ومرة أخرى: ما وجه الاختلاف بين ما يقوله حازم هنا ومصطلحات ومفاهيم القرن العشرين عن النظرية الموضوعية Impersonal theory والتصف المعلق Closed text وغياب أي سلطة مرجعية موثوق بها خارج النص اللغوي Authoritative reference؟ بالقطع هناك اختلافات، ولا يستطيع إلا جاهل أعماه الحماس لتراثه القومي أن ينكر وجود اختلافات. لكننا هنا أمام نظريتين أدبيتين تفصلهما سبعة قرون كاملة. ولو قدر لتلك المدرسة العربية البعيدة بعض الاستمرارية، أو لو أننا منذ بدأتنا

النظرية الأدبية العربية

الاتجاه إلى الغرب في السنوات المبكرة من القرن العشرين، كنا قد تعهدها بالتطوير لكنا الآن قد قدمنا مدرسة عربية حديثة، وإن كان ذلك لا يعني بالطبع أنها ستصل إلى النتائج نفسها التي توصلت إليها المذاهب الغربية . وقد أدرك بعض الدارسين الجادين مدى حداثة أو عصريته حازم القرطاجني، وإن كانوا للأسف لم يستمروا مع الخيط حتى نهايته. وقد سبق أن قلنا إن هناك الشطارا لافتا للنظر عند بعض من درسوا التراث النقدي والبلاغي العربي بعمق وجدية كاملتين، لكنهم بعد أن يفرغوا من دراساتهم يضعون هذه الدراسات في ركن بعيد ويعودون إلى حداثة الغربية بالإنهار نفسه كأنهم لم يفرغوا لتوهم من فتح كنوز التراث العربي. فعل ذلك جابر عصفور الذي وضع يده بشكل رائع على أصل النظرية الموضوعية أو حتى النص المغلق ثم لم يستفد منه في تأسيس شعرية التراث، فهو يكتب في مفهوم الشعر:

«ولا يعني هذا أن الشاعر عليه أن يمر بكل تجربة يعالجها في إبداعه، إن القدرة التخيلية تمكن الشاعر من إعادة تشكيل تجاربه التي مر بها بشكل أو بآخر؛ بحيث يخلق منها تجارب جديدة، قد لا يكون عانها واقعا، وإن غانها تخيلا. ومن هنا يجعل حازم أولي قوى «الطبع» هي «القوة على التشبيه فيما لايجري على المسجية ولا يصد عن قريحة بما يجري على المسجية ويصدر عن قريحة». ومن المهم أن نفهم «القوة على التشبيه» بالمعنى الشامل الذي يقرنها بقدرة الشاعر على تجاوز ذاته، في فعل من أفعال «التعامل» و«التقص» لا يقارن قدرة التخيل على خلق تجارب مستقلة، لا تتطابق حرفيا مع حياة الشاعر المتعينة»^(٧٤).

كان هذا موقف العقل العربي من قضية المحاكاة والإبداع، وبصرف النظر عن تأثير البلاغة والبيان العربيين بالفلسفة اليونانية عامة وبكتاب الشعر خاصة، بل على الرغم من ذلك التأثير، استطاع العقل العربي أن يحدد موقفا خاصا به، معتمدا في ذلك على «الاستعارات» التي لا يمكن إغفالها وعلى خاصية الثقافة العربية وأغراض الشعر العربي الخاصة. ومن هنا استطاع أن يطور موقفا أصيلا من ناحية، ومعاصرا لا نجد كثير عناء في وضعه داخل تيار النقد العالمي في القرن العشرين، من ناحية أخرى.

بـ الركن الثاني: الإبداع باللغة

ترددت كثيراً قبل اختيار عنوان للمدخل الحالي رغم أن المدخل في حد ذاته واضح عندي تمام الوضوح. بل إن كل ما قلناه حتى الآن عن النظرة الأدبية العربية يشير في اتجاه مدخلنا الحالي. فقد تحدثنا عن النظرة العربية إلى الشعر باعتباره محاكاة، وتوقفنا طويلاً عند الطبيعة الإبداعية لفعل المحاكاة، وكيف كان البلاغيون العرب في الواقع أكثر جرأة من صاحب نظرية المحاكاة نفسه في تأكيد الجانب الإبداعي لما أسماه العرب تخيلاً حيناً ومحاكاة حيناً آخر. وإذا كان الرسام أو المصور كما يسميه البلاغيون والبيانويون العرب يستخدم الأصباغ والألوان والخطوط أدوات للمحاكاة؛ فإن أدوات الشاعر هي الألفاظ وقلنا أيضاً إن الشعر يختلف عن العلم في استخدام اللغة. ففي الوقت الذي تقوم فيه «المواضعة» في عملية التوصيل العلمي على استخدام اللفظ على الحقيقة، يقوم الشعر في استخدامه الخاص للغة، سواء عن طريق التحوير أو التحريف deviation عن الدلالة بالمواضعة، إلى استخدام الألفاظ على المجاز. أي قيمة «جاز فيه اللفظ»، وقلنا أيضاً إن البلاغة العربية تكاد تفترق بين البلاغات الأخرى باعتمادها الكامل على اللغة. ربما يكون أحد أسباب ذلك أن الأدب العربي قام على الشعر فقط، ولم يعرف الأنواع الأدبية الأخرى التي عرفتها الثقافة اليونانية أو حتى الرومانية مثل الملحمة والمسرحية أو الدراما حيث تعدد أركان النظرية الأدبية ولا تقتصر على الاستخدام الخاص والإيحائي للغة اليونانية أو اللاتينية، لأن اللغة في حالة الملحمة والدراما ركن واحد في منظومة؛ فهناك الحدث وتطوره، وهناك البناء، وتصوير الشخصيات، وعلاقة الشخصية بالحدث، فإذا أضفنا إلى هذه الاعتبارات أن الوحدة المعنوية، أو وحدة المعنى في الشعر العربي، تتوقف في الغالب الأعم على نسق البيت الشعري الواحد، وبصورة تجعل الحديث عن وحدة تنظم القصيدة كلها وتعتمد على التطور صعباً إن لم يكن مستحيلاً، تأكد لنا أهمية اللغة والتحليل اللغوي كمدخل وحيد للتعامل النقدي مع النص الشعري. ولهذا يعجب المرء كثيراً عندما يستبعد البعض التحليل اللغوي الذي يمارسه البيانويون العرب مع القصائد العربية من دائرة النقد التطبيقي باعتباره مجرد «تحليل لغوي»

النقدية الأدبية العربية

لا يرقى إلى النقد؛ ومرة أخرى لا أضع نفسي في موقف الاعتذار عن قصور في علم البيان العربي، لكن الحقيقة أنه لم يتوافر أمام الناقد التطبيقي العربي إلا ذلك التحليل اللغوي في ظل التركيبة الثقافية الخاصة للأدب العربي، ثم، وهو الأهم، لقد أدت أحادية المدخل النقدي هذه إلى أن حظيت اللغة العربية، كما لم تحظ أي لغة قبلها، أو بعدها حتى عهد قريب، بكم هائل من الدراسات النظرية والتطبيقية في علوم البيان والمعاني والبدع لا نجد لها مثيلاً في تاريخ البلاغة في العالم. وقد سبق أن نبهنا إلى أن تلك الحركة النشطة حدثت في وقت لم يعرف فيه الإنسان الطباعة ووسائل البشر والانتشار السريع. ولنا أن نتخيل درجة ذلك النشاط لو توافرت له ما تتوافر اليوم للدراسات اللغوية والنقدية من وسائل الانتشار.

لماذا يحل للبنيويين في جميع بقاع الأرض التعامل مع النص الأدبي من مدخل لغوي ويحرم ذلك على البيان العربي، على الرغم من أن التحليل البنيوي اللغوي يتوقف عند آية تحقق الدلالة ولا يكثر للدلالة نفسها بينما يحقق التحليل اللغوي العربي الاثنين معاً؟

دعونا نتوقف للحظات عند نموذج تحليل يتعامل فيه الناقد مع بيت الشعر من مدخل لغوي لئلا نرى ما يحققه، وإن كان يرقى إلى مرتبة النقد التطبيقي أم أنه مجرد «تحليل لغوي» نُنظر إليه في استعماله، يتوقف الجرجاني عند بيت للبحتري ليحلله في باب «القول في الحذف»، والبيت مأخوذ من قصيدة مدح يمتدح فيها الشاعر محاسن ممدوحه «ودفاعه عنه وصيانيته له ودفعه نوابه الزمان عنه»:

«وكم دُدت عني من تحامل حادث وسورة أيام حَزَزْنَ إلى العظم
الأصل لا محالة حَزَزْنَ اللحم إلى العظم إلا أن في مجيئه به
محدوفاً وإسقاطه له من النطق وتركه في الضمير مزية عجيبة
وضائفة جلية، وذلك أن من حَقَّق الشاعر أن يوقع المعنى في نفس
السامع إيقاعاً يمنعه به من أن يتوهم في بدء الأمر شيئاً غير المراد،
ومعلوم أنه لو أظهر المضمون فقال: وسورة أيام حَزَزْنَ اللحم إلى
العظم لَجَازَ أن يقع في وهم السامع إلى أن يجيء إلى قوله «إلى
العظم» أن هذا الحز كان في بعض اللحم دون كله وأنه قطع ما يلي
الجلد ولم ينشأ إلى ما يلي العظم، فلما كان ذلك كذلك ترك ذكر

اللحم وأستقله من اللفظ ليبرئ السامع من هذا ويجعله بحيث يقع
 هي أنف الفهم [أول الفهم] ويتصور في نفسه من أول الأمر أن الحرَّ
 مضى في اللحم حتى لم يردّه إلا العظم، أفهيكون دليل أوضح من
 هذا وأبين وأجلى في صفة ما ذكرت لك من أنك قد ترى ترك
 الذكر أفصح من الذكر، والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير
 أحسن للتصوير» (٧٥).

وإذا كان بعض القراء يشعرون بأن الإحالة طويلة بعض الشيء فدعوني
 أذكر هؤلاء أن تلك السطور الطويلة لم يكتبها عبدالقاهر في تحليل بيت من
 الشعر، بل في تحليل الوظيفة الجمالية والدلالية التي أداها حذف كلمة
 واحدة في البيت، وهي المفعول به في «حززن إلى العظم»، لم يتعرض
 الجرجاني بالمناقشة إلى نظم البيت أو حتى لمناقشة الضورة الشعرية. ولنا أن
 تتصور ماذا كان سيكتب عبدالقاهر، والصفحات التي كان سيملؤها تحليله
 للبيت نفسه من جميع جوانب النظم، ولغة المجاز، والموسيقى. ثم، وبعرض
 الأناء، أليس اللفظ المحذوف هنا هو المسكوت عنه the unsaid في لغة النقد
 الحدائي وما بعد الحدائي اليوم؟ ألا يخلق المسكوت عن «اللحم» هنا «فجوة»
 يقوم المتلقي بملئها، بالمعنى ما بعد الحدائي أيضاً؟ أليس هذا على وجه
 التحديد ما يعتبه عبدالقاهر الجرجاني حينما يحول الحذف إلى مبدأ نقدي
 مبيح إليه نقاد النصف الثاني من القرن العشرين؟: «أفهيكون دليل أوضح من
 هذا وأبين وأجلى في صفة ما ذكرت لك من أنك قد ترى ترك الذكر أفصح
 من الذكر». وفوق هذا وذلك، فإن عبدالقاهر يقدم تحليلاً لغوياً بالدرجة
 الأولى للبيت، لكنه لا يتوقف عند حدود التحليل اللغوي أو لماذا تحدث الدلالة
 هكذا بدلاً من هكذا، بل يقدم الدلالة أو المعنى أيضاً في حركة مكوكية يخرج
 بها من التحليل اللغوي ليدخل المعنى ثم يعود مرة أخرى إلى اللغة، وهكذا.
 وهو ما لا يفعله بنويو القرن العشرين الميلادي. وأمام المضعف الذي لا
 نستطيع إنكاره نحو عبقرية عبدالقاهر الجرجاني، فالشواهد في المرآيا
 المقعرة حتى الآن أقوى من أي إنكار، نتوقف عند نموذج آخر، من أسرار
 البلاغة هذه المرة، وفي إطالة لا يمكن تحاشيها أيضاً، يمارس فيه البلاغي
 العربي النقد التطبيقي الموضوعي في ظل مفهوم واضح لوظيفة اللغة والمجاز
 في تحقيق الدلالة، بل تحقيق «الزيادة» من مستوى لغوي إلى آخر، يورد

النظرية الأدبية العربية

عبدالقاهر أربانتا ثلاثة لثلاثة شعراء، تدور كلها حول مادة هيلولية واحدة، ثم يناقش صياغتها الشعرية عند الشعراء الثلاثة. الأبيات هي بيت بشار:

كأن مشار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكب
ثم بيت المتنبّي:

يزور الأعادي في سماء عجاجة أسنته في جانبيها الكواكب
وأخيرا بيت عمرو بن كلثوم:

تبني سنابكها من فوق أروسهم سقفا كواكب البيض المباتير
ويناقش الجرجاني الدلالة وآليات تحققها معا في مقارنة نقدية
تطبيقية رائعة:

«التفصيل في الأبيات انشائية كأنه شيء واحد لأن كل واحد منهم يشبه لعمان السيوف في الغبار بالكواكب في الليل، إلا أنك تجد لميت بشار من الفضل ومن كرم الموضع ولطف التأثير في النفس، ما لا يقل مقداره، ولا يمكن إنكاره، وذلك لأنه راعى ما لم يراعاه غيره وهو أن جعل الكواكب تهاوى فآتم الشبه، وعبر عن هيئة السيوف... وهي تعلق وترسب، وتجيء وتذهب، ولم يقتصر على أن يريك لعمانها في إنشاء العجاجة كما فعل الآخران وكان لهذه الزيادة التي زادها حظ من الدقة تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل، وذلك أننا وإن قلنا إن هذه الزيادة - هي إفادة هيئة السيوف في حركتها - إنما أتت في جملة لا تفصيل فيها فإن حقيقة تلك الهيئة لا تقوم في النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة، وذلك أن تعلم أن لها في حال احتدام الحرب، واختلاف الأيدي بها في الضرب، اضطرابا شديدا وحركات بسرعة، ثم إن تلك الحركات جهات مختلفة، وأحوالا تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة، والارتفاع والانخفاض، وإن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل، وتتبع بعضها في بعض، ويصطدم بعضها مع بعض.

ثم إن أشكال السيوف مستطيلة، فقد نظم هذه الدقائق كلها في نفسه ثم احضرك صورها بلقطة واحدة ونبه عليها بأحسن التشبيه وأكمله بكلمة وهي قوله (تهاوى) لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها في تهاويتها نواقع وتداخل، ثم إنها بالتهاوي تستعمل أشكالها، فإما إذا لم تزل عن أماكنها فهي على صورة الاستدارة. (أسرار البلاغة، ص ٧٤١)

إن ما يحققه عبدالقاهر الجرجاني في السياق السابق يبرر الإطالة غير المسيبوة حتى الآن، فالبلاغي العربي القديم يقدم نموذجاً بالغ النضج والموضوعية للنقد التطبيقي الذي يتوقف عند صورة شعرية واحدة، هي «واسيفنا ليل تهاوى كواكبه» ليحولها إلى لوحة مكانية ولقطة زمنية للمعركة تقارن فيها حركة السيوف في استطالتها وارتضاعها ونزولها في تداخل ونشأبك، بل في قوضى تلك الحركة مع حركة الكواكب في حالة تهاويها: مستطيلة، متقرفة الاتجاهات، وهي الحالة التي لا يمكن أن تتحقق لها - وهذا ما لم يقله شطر البيت - في حالة سكونها قبل التهاوي، لقد حول الناقد هنا وصف تلك اللحظة من المعركة، بعد أن التقطتها عين الشاعر وركزتها غاية التركيز، إلى مشهد يعج بالحياة: صوتا وصورة وألوانا وحركة. هل يمكن أن يقول مكابر، مهما بلغ انهياره بإنجاز العقل الغربي، إن عبدالقاهر الجرجاني هنا لم يكن ناقداً تطبيقياً من الطراز الأول؟ لكن عبدالقاهر لم يكن في الواقع ناقداً تطبيقياً فقط، لأنه يتحرك في تحليله لجزئيات الصورة المثنية السمعية - audio - visual من نظرة لا تقل نضجاً للشعر ووظيفة اللغة والمجاز - ويستطيع من يشاء أن يعيد قراءة تلك السطور العبقريّة ليحدد حسب قدرته مفهوم الإبداع الشعري باعتباره تركيزاً concentration كسا قال إليوت، ومفهوم الزيادة، ومدى اتقائه واختلاطه مع مفهوم «الزيادة» و«الإكمال» والمعنى الذي قصده دريدا؟

هل يمكن أن نستبعد هذين التحليلين؛ وعشرات غيرهما يزخر بها أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز باعتبارها لتحليلات لغوية غير نقدية؟ موضوع هذا الركن من أركان النظرية الأدبية، إذن، هو الإبداع باللغة، ولنقل استخدام اللغة على المجاز كمدخل النظرية الأدبية العربية. وتواجهنا، مرة أخرى، مشكلة المصطلح البلاغي في تلك الفترة المبكرة من تاريخ البلاغة، وهي مشكلة قد لا تحتاج من القارئ للبلاغة العربية أولاً، ثم المرايا المقعرة، ثانياً، إلا لبعض التفهم وسعة الصدر، ومن دونهما سنقرأ بالقطع من يهتمون مؤلف المرايا المقعرة بعدم فهم المصطلح العربي فهما دقيقاً، فهو يخلط بين الدراسة اللغوية والبلاغية، ثم يتحدث عن النقد باعتباره مدخلا بلاغياً، ثم يخلط مرة أخرى بين مصطلحات البلاغة والبيان والمعاني والبدیع، وبين البلاغة والفصاحة. وحيث إن حيرته لا تنتهي، فهو لا يدرك الفوارق الدقيقة بين المجاز

النظرية الأدبية العربية

والتشبيه والاستعارة والكناية. وتحسبا لهذا الاهتمام القادم ودعوا له دعونا نذكر الجميع بأن أزمة المصطلح البلاغي - النقدي، واللغوي - الأدبي ليست في الحقيقة أزمة مؤلف المراسم المعصرة، من قريب أو بعيد، لكنها أزمة البلاغة العربية ذاتها والبلاغيين العرب في العصر الذهبي أنفسهم. فالمصطلحات تتغير دلالتها من بلاغي إلى آخر بشكل واضح، وتتداخل مفاهيمها من بلاغي إلى آخر بشكل مربك. ولهذا فإن التعامل مع المصطلح التراثي يحتاج إلى بعض التفهم وسعة الصدر. فنحن نتحدث عن بلاغة تعود إلى عشرة قرون مضت، ورغم ذلك استطاعت أن تقدم أفكارا لغويا وأدبيا ونقديا بهذا الشراء اللافت للنظر. وما علينا إلا أن نتجاوز تلك التحولات والتدخلات في أحيان كذلك وننتقل إلى جوهر القضايا، سواء كنا نتعامل مع البلاغة العربية ذاتها، أو مع الجانب الذي يقدمه المؤلف الحالي منها.

وسوف نتوقف في عجالة عند نماذج لتلك التحولات والتدخلات، لا يفرض الإشارة، ولو من طرف بعيد، إلى قوضي مصطلح قائمة في التراث البلاغي العربي، لكن بغرض إثبات أننا لا نطلق الكلام والأحكام جزافا. هناك مثلا شبه اتفاق على أن علم البلاغة يقوم على ركنين: الأول هو علم المعاني وموضوعه في اختصار شديد دراسة خصائص تراكيب الكلام، والثاني هو علم البيان وموضوعه صياغة المعاني، وقد يضاف إلى الاثنين ركن ثالث هو علم البيديع الذي يدرس المحسنات اللغوية والمعنوية (أي من ناحية المعنى). أي أن البلاغة هي المظلة الكبرى التي تظل هذه العلوم الثلاثة. لكن عبد القاهر يعتبر أن علم البيان هو المظلة الكبرى التي تظل البلاغة، فالبيان عنده هو المصطلح الأعم الذي تندرج تحته البلاغة: «ثم إنك لا ترى علما أرسخ أصلا، وأبسط قرعا، وأحلى جنى، وأعذب ورذا، وأكرم نتاجا، وأنور سراجا، من علم البيان الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي، ويصوغ الحلبي، ويلفظ الدر، وينقث السحرة...»^(٧١)، ولا يتوقف الأمر عند تبادل الأدوار بين البلاغة والبيان. إذ حدث تبادل مماثل للأدوار بين البلاغة والبيديع، وهو ما يؤكد صلاح رزق في أدبية النص حيث يرى:

«أن البيديع عند البلاغيين... هو العلم الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام. وهو الفن المعني بزخرفة الصياغة الشكلية وتزيينها بضروب الحلبي المخططة، كالجناس والتطابق والمضالفة والتورية

والنفويف... وغيرهما لكنه، عند النقاد والشعراء المبكرين بما في ذلك ابن المعتز، كان يشمل كل الفنون البلاغية المتعلقة ببنية الأداء والتصوير بما في ذلك التشبيه والاستعارة والكناية^(٧٧).

والواقع أن تبادل الأدوار الذي يتحدث عنه رزق لا يتوقف عند البديع والبلاغة بل يتعداهما إلى البيان أيضا، وهي مرحلة لاحقة، وخاصة عند السكاكي، ويسبب التأثير القوي الذي كانت دراسة منطق أرسطو قد بدأت ممارسته على البلاغة العربية، حدث ربط مغل بين المنطق الأرسطي من ناحية، وعلمي البيان والمعاني من ناحية ثانية.

من هنا كان اختيار مؤلف المرايا المقعرة منذ البداية، وحيث إن دراسة التراث البلاغي العربي في حد ذاته لم تكن من بين أهدافه، أن يستخدم كلمة البلاغة في مروة واضحة، مروة لا تزيد كثيرا عن المروة التي مارسها شكري عباد في تعامله مع التراث.

وقد حدثت تحولات وتداخلات مهيمنة بين مصطلحات يفترض أن تكون أكثر تحديدا ودقة مثل المجاز والتشبيه والتمثيل والاستعارة، وبين الأسئلة اللانهائية والأجوبة المتناقضة: هل التشبيه مجاز أم حقيقة؟ وهل المجاز تشبيه؟ ولماذا يفرق عبد القاهر بين المجاز من ناحية والاستعارة والكناية من ناحية ثانية؟ إن الإجابات تقدم، في أفضل الأحوال، تعريفات لا يكاد المرء يستشف الفوارق بينها، وتعبير، في الغالب الأعم، عن حالة تقترب من القوضي وهل أخذ العرب المجاز، كما يرى طه حسين، عن أرسطو حيث إنهم لم يعرفوا قبل التأثر بالفكر اليوناني إلا التصوير الشعري القائم على التشبيه؟ وهل يهمننا، في سياق دراستنا، أن نقابل رأي طه حسين الذي يذكره في مقدمة في نقد النثر والتي يقول فيه: «لقد كان تصور هؤلاء المؤلفين من العرب للتشبيه والمجاز والمناسبة ووزن الكلام والفصول مما نجده في الموضوع المذكور من كتاب الخطابة، نعم إنهم تحاشوا أن ينقلوا عن المعلم الأول جميع الأمثلة التي كان يمثل بها لا شيء أكثر من أنهم لم يفهموا هذه الأمثلة»^(٧٨)، هل يهمننا أن نقابل ذلك الرأي برأي الجاحظ في الآيات القرآنية التي لا يشك أحد في استخدام المجازي الواضح للغة فيها مثل «أكلون للسحت» و«إنما ياكلون في بطونهم نارا» وعشرات الأمثلة الأخرى التي ترد في القرآن قبل أن يسمع العرب بأرسطو؟ إن الدراسة، لحسن الحظ، ليست معنية بأي من هذه الأسئلة، ولهذا، وكما فعلنا في استخدام لفظ البلاغة كاختيار يخدم

النظرية الأدبية العربية

غرض الدراسة، ولم تكن وحدنا في ذلك، سنفعل الشيء نفسه حين نتحدث عن الإبداع في اللغة وبها، إذ إن الحديث في هذا المجال يدور في مجال الاستخدام الخاص للغة وليس على الحقيقة، أي استخدام اللغة على المجاز. ومن ثم سوف نستخدم لفظ المجاز في مرونة تخدم غرضنا، وإن كان ذلك لا يعني أن المناقشة نفسها لن تفرض علينا أن نستخدم هذه المصطلحات بمعانيها محددة بقدر الإمكان في المواقف التي تتطلب ذلك التحديد.

وحيثما نتحدث عن الاستخدام الخاص للغة، أو المجاز، نجد أنفسنا في قلب النظرية الأدبية العربية من ناحية، وفي قلب كل الجدل الذي عاشه نقد القرن العشرين، من ناحية ثانية. مرة أخرى لا نبالغ إذا قلنا إنه لا تكاد توجد قضية تشغل بها الحاضر النقدي لم ينشغل بها، أو يتوقفت عندها على الأقل، لعقل العربي من القرن الثالث وحتى نهاية العصر الذهبي للبلاغة العربية. على رأس هذه القضايا، على سبيل المثال لا الحصر: موضوعية الأدب، الأدب والغايات العملية والأخلاقية، التجسيد في مقابل التقرير، المعادل الموضوعي، النص المغلق والنص المفتوح، المعنى ومعنى المعنى أو تعدد الدلالة، الموهبة والتقليد، قوة الرجل وقوة اللحظة، مراوغة المدلول للدال، المجاز كمكمل للمعنى أو زيادة عليه (بالمفهوم الدريدي)، التحليل اللغوي للنص الأدبي، وعشرات الموضوعات الأخرى التي تشغل بها نقاد القرن العشرين.

دعونا نبدأ بنموذج فاتح للشهية، شهيتنا، لما نحن مقدمون عليه، وهو نموذج للتجسيد الذي يحققه الاستخدام المجازي الخاص للغة، سواء عن طريق التشبيه أو الاستعارة والتي تحقق دلالة المعقول بالمحموس.

«إن ما يقتضي كون الشيء على الذكر، وثبوت صورته في النفس أن يكثر دورانه على العيون، ويدوم ترده في مواقع الإبصار، وأن تتركه الحواس في كل وقت أو أغلب الأوقات، وبالعكس وهو أن من سبب بعد ذلك الشيء عن أن يقع ذكره بالخاطر، وتعرض صورته في النفس قلة رؤيته، وأنه مما يحس بالفيلة بعد اثنيته، وفي الفرم بعد الفرم وعلى طريق النفرة. وذلك أن العيون هي التي تحفظ صور الأشياء على النفوس وتجدد عهدها بها، وتحرسها من أن تدرثر وتمنعها أن تزول، ولذلك قالوا: من غاب عن العين غاب عن القلب»^(١٧٤) [التأكيد من عندي].

لم أستطع أن أمنع نفسي من تأكيد كل كلمة في نص الجرجاني لما يمثله النص كله من أهمية بالنسبة للتصوير المجازي والصورة الشعرية ومبدأ التجسيد الذي يجمع بينهما، ليس في البلاغة أو البيان العربي، أو حتى نظرية الأدب العربي، فقط، بل في النقد الجديد والحداثي على السواء في القرن العشرين، دعونا نتوقف عند المبادئ الثلاثة التي يحددها نص عبدالقاهر. أولاً، إن بناء الشيء وثبوت صورته في النفس يعتمد على «دورانه على العيون» ودوام «ترده في مواقع الإبصار» أي تجسيده حسياً؛ ثانياً، يحدث العكس، فيبعد الشيء عن خاطر، ويتدر الإحساس به، إلا في الفرض بعد الفرض، إذا قلت رؤيته؛ ثالثاً، إن العيون، والتجربة الحسية هي التي تحفظ صورة الأشياء في الذاكرة وتحفظها من الاندثار والزوال. ولتأكيد ذلك كله يلخص عبدالقاهر ذلك في موقع آخر في كلمات تؤسس للمبدأ النقدي كاملاً: «ليس الخير كالمعينة».

هل نختلف آراء عبدالقاهر الجرجاني هنا عن آراء ت.س. إليوت، عمدة التحليليين، حول التجسيد الذي شك له مصطلحاً نقدياً هو «المعادل الموضوعي» The objective correlative؟ لا أظن أن القارئ، خاصة قارئ الدراسة الحالية، يحتاج إلى تذكيره بالمصطلح ودلالته، وإن كانت المقارنة تفرض علينا ذلك في عجلة، فالمعادل الموضوعي، كما قدمه إليوت، هو الأداة البلاغية الإبداعية التي يستخدمها الشاعر حتى لا يقع في فخ التفسير أو الإخبار أو التعبير المباشر عن العاطفة، وبدلاً من المباشرة يبحث الشاعر عن صورة حسية تجسد العاطفة وتعبّر عنها، أي تعادلها. وحينما يتلقى القارئ أو المستمع هذه الصورة الحسية، ذلك المعادل الموضوعي للعاطفة، فإنها تثير فيه العاطفة التي يجسدها المعادل الموضوعي أو الصورة الحسية. ومن مفردات ذلك المفهوم أيضاً أن المباشرة قد تثير في المتلقي مشاعر قوية، لكنها مؤقتة ومؤقتة لا يمكن اختزانها في الذهن أو الذاكرة، أما الصورة الحسية فتعلق بالذاكرة. وكلما استرجع المتلقي الصورة في ذهنه أثارت فيه المشاعر المرتبطة بها. هل أضاف إليوت، حقيقة، جديداً، أي جديد، لما سبقه إليه عبدالقاهر الجرجاني. البلاغي العربي بقرون طويلة؟ وللتدليل على ذلك، فإن القارئ لن يجد صعوبة في تطبيق آراء عبدالقاهر، بعيداً عن معادل إليوت الموضوعي، على واحدة من أبرز نماذج ذلك المعادل الموضوعي في شعر إليوت نفسه، ومن

النظرية الأدبية العربية

أبرز قصائده على الإطلاق، هي «الأرض الخراب The Waste Land»، ترد الصورة النموذج في افتتاحية القصيدة:

What are the roots that clutch, what branches grow Out of
the stony rubbish?

حيث يتحدث الشاعر عن إحباطات العصر الحديث، وأحلام المدينة الحديثة المضيق، وبدلاً من أن يقرر ذلك صراحة بنحت صورة تجسد الجهد الضائع والمبني والإحباط المطبق لجذور تحاول أن تضرب في الصخر وأثرع تحاول أن تفقه. ذلك هو جوهر المعادل الموضوعي كما قدمه إليوت، وكما قدمه عبدالقاهر من قبله دون أن يستخدم المصطلح النقدي الهراق.

وقد سبق أن قلنا أن الإنسان يضطر في أحيان كثيرة، وفي مواجهة نص كالنص العربي السابق، أن يوقف نفسه عن الاسترسال حتى لا يتهم بالجنون. لكننا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا في أحيان أخرى - وما زلنا في مرحلة فتح الشهية - من الدهشة والعجب المطلقين أمام بعض القراءات المعاصرة التي تقصد نصاً أو نصوصاً كالنص السابق قيمتها في عملية تسطيح تقترب من العبثية. فوسط انبهار الكمال بإنجازات البلاغة العربية - وهذا ذنب اعترف به بارتكابه عن طواعية - أقرأ تفسير مصطفى ناصف الغريب في النقد العربي، نحو نظرية ثنائية (٢٠٠٠) لكلمات عبدالقاهر الجرجاني عن وظيفة وأهمية تجسيد المعقول بالمحسوس، ولقولة البلاغي العربي: «ليس الخبر كالعبارة» بكثير من الدهشة:

«إن عبدالقاهر من خلال كلامه عن الأنس بالمشاهدة يكاد يحرك أخلاطاً من القلق حول التنازع الذي أصبررت عليه حين العودة المؤقتة الخاطفة إلى اليقين الداهي الذي يحتضننا أو لحضنه، وهذا الواقع الذي تشغله في صعوبة لا تخلو من أسى فتطارد ويطاردنا، لتقل إن الأنس بالمشاهدة أنس بعالم غير العالم. إننا لا نكاد نشاهد أنفسنا إلا قليلاً. ولن نشاهد أنفسنا إلا على حساب جوانب أخرى. مشاهدة أنفسنا ينبغي أن تكون فيما أكلن هي المقصودة بكلمة الطبع والرؤية وما إليها. إننا في أنماط الاحتجاج العقلي لا نكاد نستمتع استمتاعاً بريئاً بأنفسنا، عبدالقاهر لا يخلو من ومضة صوفية محبوبة في هذا الموقف أيضاً»^(٨).

دعونا نفترض أن كاتب هذه السطور قد دخل مرحلة من التصوف الروحي، دعونا نفترض أيضا - وهو افتراض لا أساس له - أن عبدالقاهر الجرجاني كان صوفيا وأنه «لا يخلو من ومضة صوفية محببة»، فهل معنى ذلك أننا مطالبيون بإعادة قراءة دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة على أساس أن عبدالقاهر كان يعني غير ما كتب، وأننا مطالبيون بتفسير يقين المشاهدة الحسية، وهو بفيض الإخبار أو الخبر، بأنه اليقين المطلق بمعناه الميتافيزيقي؟ إننا بهذا لا نفرغ كتابي عبدالقاهر من مضمونهما، بل نفرغ البلاغة العربية كاملة، وبلا استثناء، من مضمونها، ثم، ألا يتناقض ذلك مع كل ما قالته البلاغة، العربية وغير العربية، القديمة والحديثة، عن الصورة، لغوية كانت أم شعرية؟ إن مقولة عبدالقاهر هي بساطة شديدة لا تعني أكثر من أن الشاعر المبدع يقوم بتقريب المعاني المعقولة أو التي تدرك بالعلل، عن طريق التجسيد الحسي، وكلماته هنا وفي سياقات كثيرة أخرى، بل في السياق الذي اعتمد عليه مصطفى ناصف في قراءته الجديدة والمستفزة لا تعني - ولا يمكن أن تعني - أكثر من ذلك. وقد كان ذلك سر تعقيرة ذلك البلاغي العربي. دعونا نقم بتجربة قد لا تخلو من الطرافة نحاول فيها قراءة النص نفسه الذي اعتمد عليه ناصف قراءة صوفية، بالطريقة نفسها التي قرأها بها ناصف، ثم نقرأه بالمعنى المتفق عليه في كل ما قدمه البشر من دراسات في البلاغة، لنبدأ بنص عبدالقاهر:

«فأول ذلك أن أنس النفوس متوقّف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وأن تُردها في الشيء تُعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم - نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وبما يعلم بالتفكر إلى ما يعلم بالإضطرار والطبع، لأن العلم المستشاد من طرق الحواس أو المركز فيها من الطباع وعلى حد الضرورة يفضل المستشاد من وجهة النظر والفكر في القوة، ويلوّل الشبهة فيه غاية التمام، كما قالوا: ليس الأخير كالمعاني، ولا الظن كاليقين، فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس - من جهة الاستحكام والقوة»^(٨١).

وسوف نترك للقارئ تجربة القراءتين، القراءة الصوفية التي تحول يقين المعاني أو المشاهدة إلى يقين ميتافيزيقي مطلق، ثم القراءة كما قرأها كل

النظرية الأدبية العربية

البلاغيين بعد عبدالقاهر حتى اليوم، على أساس أن تشبيه المعقول بالمحموس، كما يقول عبدالقاهر، «يفتح إلى المعقول من قبلك باباً للعقل» إلى هنا انتهى فاتح الشهية، فلتحول إلى الطبق الرئيسي.

ما دما قد تحولنا إلى الطبق الرئيسي فلنبداً بالمجاز باعتباره جوهر البلاغة، ولنبدأ أيضاً بتعريف حديث للعلاقة بينهما، ثم نعود بخطواتنا إلى الوراء لنرى مدى اتفاق البلاغيين العرب في دراساتهم المطولة للمجاز، أو اختلافهم، مع المفهوم الحديث مبسوطاً، التعريف الحديث المبسط يقدمه جوناثان كلار:

«لقد اهتمت النظرية الأدبية كثيراً بالبلاغة، ويتجادل المنطويون حول طبيعة الصور البلاغية ووظيفتها، لقد تم تعريف الصور المجازية باعتبارها، صفة عامة، تحويلاً عن الاستخدام العادي أو انحرافاً عنه، على سبيل المثال في: «My love is a red, red rose» يستخدم لفظ rose لا تعني الوردة، بل شيئاً جميلاً وثنياً (وتلك هي الاستعارة). «The Secret Sits» يجعل المرء إنساناً قادراً على الجلوس»^(٨٧) [يقصد الاستعارة في النعل].

ثم يتم اختيار كلمات كلور هنا لأنها أوردت صورة شعرية إنجليزية من قصيدة للشاعر الإنجليزي روبرت بيرنز الذي يكمل تشبيه محبوبته في بيت ثانٍ لتصبح الصورة مكتملة على النحو التالي:

«O my love's like a red, red rose, That's newly sprung in June» وهي الصورة التي تردت كثيراً في البلاغة العربية والتي يرى البعض أنها، بعد أن حول كلار التشبيه إلى استعارة، تعتمد على القياس التضميني في المنطق، لكن السبب في اختيار تلك الكلمات لجوناثان كلار لا بد أن يكون واضحاً وضوح الشمس. فالتعريف الذي يقدمه الناقد الأمريكي الكبير في نهاية القرن العشرين لطبيعة المجاز ووظيفته لا يختلف في أي من جزئياته عن تعريف البلاغيين العرب لطبيعة المجاز في اللغة والأدب ووظيفته.

ونستطيع التوقف عند عشرات الأمثال في البلاغة العربية يعرف فيها المجاز (استخدام اللفظ أو اللغة على المجاز، مقارنة بالاستخدام على الحقيقة) باعتباره «تحويلاً عن الاستخدام العادي أو انحرافاً» عن استخدامه على الحقيقة. لكننا تحدثنا في إطالة كاملة عن تعريف المجاز وطبيعته في الفصل الخاص بالنظرية

اللغوية، أما وظيفة المجاز فهي موقع القلب في النظرية الأدبية العربية التي تعتمد على استخدام اللفظ على المجاز أو تحويل اللغة عن الاستخدام العادي وانحرافها عنه. لكن الحديث عن وظيفة الاستخدام المجازي للغة في الأدب لا يعني أننا لن نعرِّج - مضطرين - بين أن وآخر على طبيعة المجاز، وسوف نحاول أن نجعل ذلك في أضيق الحدود الممكنة.

ونعود، كما نفعل دائماً، إلى عبد القاهر الجرجاني الذي يحدد وظيفة المجاز أو استخدام اللغة على المجاز في النص الأدبي، وهو، حينما يفعل ذلك في القرن الخامس الهجري، يضع يده مرة أخرى على الكثير من القضايا التي انشغل بها النقد في القرن العشرين الميلادي، مثل المباشرة والتجسيد، والتقرير والتصوير، ومراوغة المدلول للمدال وتعدد الدلالة، فهو يقارن بين معنيين: المعنى المباشرة الذي تحققه المواضع اللغوية أو استخدام اللغة على الحقيقة، والمعنى غير المباشر الذي يعتمد على تحويل اللغة وتحريفها عما وضعت له، أي استخدامها على المجاز، ويصل في مقارنته إلى نتيجة تستحق الوقوف عندها:

«وإن كان مما ينتهي إليه المتكلم ينظر وتدبر، ويناله بطلب واجتهاد، ولم يكن كالأول في حضوره إياه وكونه في حكم ما يقابله الذي لا معاناة عليه فيه، ولا حاجة به إلى المحاولة والمزاولة والقياس والمباحثة والاستنباط والاستتارة، بل كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر، وعليه كم [الكم بكسر الكاف هو الغلاف الذي يحيط بالثمر والزهر وينشق عنه] يفتقر إلى شقه بالتفكير وكان درا في قعر بحر لا بد له من تكلف الفوص عليه، وممتنعاً في شأقه لإيناله إلا بتجشم الصعود إليه، وكأمننا كالنار في الزند لا يظهر حتى يقتدحه، ومشتابكا لغيره كعمروق الذهب التي لا تتبدى صفحتها بالهويثا بل تنال بالحقفر عنها، ويعرق الجبين في طلب انتمكن منها»^(٨٢).

المعنى الذي تحققه المواضع اللغوية أو استخدام اللغة على الحقيقة، وحيث إن القارئ لا يحتاج في إدراكه إلى «طلب واجتهاد»، معنى عديم الفائدة، - والحكم بالنائكة أو عدمها حكم يستخدمه الجرجاني كثيراً في بلاغته - أما المعنى الذي يتحقق عن استخدام اللغة على المجاز، فهو المعنى الذي يجهد القارئ نفسه للوصول إليه، لأنه معنى محتجب يحتاج النظرة الثاقبة القادرة على خرق الحجب، وهو الدر في قاع البحر يحتاج لنواص ماهر ليخرجه، وهو الممتنع في

شامق يحتاج مثققة الصعود إليه، وهو عرق ذهب مشابك لغيره يحتاج من يحفر عنه، إن ما يتحدث عنه عبدالقاهر هنا هو اللامباشرة والتجسيد اللذين يحققهما استخدام اللغة على المجاز. ولكنه يتحدث أيضا عن المراوغة، دون أن يستخدم المصطلح التقدي الحداثي البراق، ويتحدث أيضا عن تعدد الدلالة الذي يشغل حيزا لا بأس به في البلاغة العربية تحت مظلة المعنى ومعنى المعنى أحيانا، والمعاني الأول والمعاني الثانوي، أحيانا أخرى. لكن صور الحجب التي تحتاج لمن يشقها والأصداف التي تحتاج لمن يفتحها وصور الفوص والحفر، جميعها تعني أن تحقق الدلالة يمثل عملية كشفت مستمرة لمليقات جديدة من المعنى تحت ووراء المعنى الظاهر على السطح.

ويصل إيمان عبدالقاهر، في الواقع، بأهمية وظيفة الاستخدام المجازي للغة في الأدب، إلى اتهام ممن يتوقفون عند المعنى الظاهر بالجهل والضلال؛

ومن عادة قوم ممن يتعاملو التفسير بغير علم أن توهموا أبدا في الألفاظ الموضوعية على الجواز والتمثيل أنها على ظواهرها فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الفرض ويمنعوا أنفسهم والسماع فهم العلم بموضوع البلاغة ويمكن الشرف وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثررون في غير طائل! هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه، وزند ضلال قد حواه فيه،⁽⁴¹⁾ [التأكيد من عندي].

بل إن الجرجاني يخرج المجاز الذي لا يحتاج القارئ معه لتنظر وتدبر ومعاينة من دائرة المجاز المفيد، تماما كما فعل مع الاستعارة «المبتذلة» أو المطروقة، والتي اقتريت لكثرة تردها واستخدامها من العرف اللغوي أو المواضع اللغوية، كأن تصف إنسانا كريما بأنه بحر أو فتاة جميلة بأنها بدر.

ولهذا يقف الإنسان في ذهول أمام قصور كل من العقاد والمازني في فهم وظيفة المجاز، وارتكاب الإثم الذي حذر منه عبدالقاهر الجرجاني وهو تفسير استخدام اللغة على المجاز تماما كما يفسر استخدامها على الحقيقة، وهكذا وقفا عند الصور المجازية في شعر شوقي موقف الرفض والإدانة، ناهيك عن أن ما كتبه في ذلك لا علاقة له بالنقد من قريب أو بعيد، وإذا كان المرء يجد صعوبة في تقبل نغمة التهجم بل التذلف والسباب التي تسود صفحات الديوان، فإنه يجد صعوبة أكثر في فهم أسباب ذلك القصص البين في فهم وظيفة المجاز، فعندما يتوقف العقاد أمام قصيدة شوقي في رثاء محمد فريد

يتعامل مع مفرداتها من منطلق ذلك القصور المؤسي ثم يؤسس حكمه على شعر شوقي وآخرين على ذلك القصور، وحينما يتوقف، في ضوء ذلك القصور، عند بيتي شوقي:

تطلع الشمس حيث تطلع صبحا وتتحسب المنجل حصاد
تلك حمراء في السماء وهذا أعوج النصل من مراسي الجراد
يكتب في سخرية و«جهل» - مع الاعتذار لعبد القاهر - مؤسرين:
«أنهم لا تخشى بفتة الأجل في كل حين! فالشمس لا تخرج بدم
فتلاها إلا حيث تطلع صبحا (أي حين تطلع حمراء في السماء، أما
إن طلعت في الأرض فهذا شيء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصادا
إلا في أيام الأهلة أو المحاق وفيما عدا ذلك من الأوقات لا قتل ولا
حصاد فمن مات ظهرا أو عصرا أو عشرين بقين أو ماضين من شهر
عربي فلا تصيقوه فإن موته باطل.

إلا أن شعرا يسف إلى هذا المجال لجزيرة لم يجنحها على لغة
العرب إلا زغل الصناعة لا جزى الله صانعها خيرا. جعلوا التشبيه
غاية قصروا إليه همهم ولم يتوسلوا به لإجلاء معنى أو تقريب
صورة ثم عادوا فزاحجوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات
المشبه به كان الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكان الناس فقدوا
قدرة الإحساس بها على ظواهرها»^(٨٥).

ربما يكون العقاد على حق في نفوره من الصورة الشعرية كلها والصورة
المجازية (الاستعارة في تشبيه القمر بالمنجل الحصاد) ولكن موضوعنا ليس
جمال الصورة أو قبحها، بل الموقف النقدي الذي يقفه العقاد، خاصة حينما
يعيب على الشعر الاستخدام المجازي «وكان الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية،
وكان الناس فقدوا قدرة الإحساس بها على ظواهرها». ذلك هو الضلال الذي
يتحدث عنه عبد القاهر. إن ما يشعله العقاد والمنازني هو خطيئة قراءة
المجازيات على ظواهرها، فعلا ذلك مع شوقي ومع شكري وشعلال أيضا في
بعض نماذج من الشعر العربي القديم. أهمية ذلك تتمثل في تأكيد أن
موقفهما لم يكن موقفا خاصا بشوقي والشعراء المعاصرين لكنه موقف خاص
باستخدام اللغة على المجاز. وإذا كانت كلمات الديوان كله تنطق بتأثير الشعر
الرومانسي وحرية الكاتب في التعبير عن ذاته ورواملته الذاتية، إلا أن أحدا

النقدية الأدبية العربية

لا يمكن أن يدعي أن الشعر الرومانسي، برغم كل المباشرة وتدفق العواطف overflow of powerful feelings كان خلواً من المجاز والصور الشعرية التي تحتاج لإعمال الفكر والخيال لتحقيق دلالتها. المهم أن عوقف العقاد والمازني من المجاز موقف عام، وفي سياق تمزيق قصيدة شوقي في رثاء فريد يحيل العقاد القارئ إلى بيتين لابن المعتز يصور فيهما الهلال مشبهها إياه بالمنجل أيضاً. البيتان هما:

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجا نرجسا

ويمزق العقاد البيتين تمزيقاً انطلاقاً من الموقف القريب نفسه الذي يرفض جوهر البلاغة العربية من أساسه، وهو استخدام اللغة على المجاز. «فالهلال»، يكتب في استغفاف غريب، «منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم نرجس، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله؟ هنر في هنر. وجاء شوقي فقال إنه منجل يحصد الأعمار فأخطأ حتى التشبيه الحسي لأن الأعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل فحسب. وأما في سائر الأيام فلا يكون القمر منجلاً في شكل ولا في حقيقة»^(٨٦).

من هنا، لم يتردد مندور في تصحيح مفهوم المازني والعقاد عن الاستخدام المجازي للغة مؤكداً أهمية التصوير الحسي في الشعر وهجرة المجاز على تجسيد الجمال من ناحية، والتعبير من ناحية أخرى، عن الحقائق النفسية الكامنة خلف الأعراض الظاهرة، مستعيناً في ذلك بنماذج من الشعر العربي القديم ترد في جذ ذاتها على سوء فهم العقاد والمازني الصارخ:

«وفي الحق أنه مهما حاولت الرمزية العقلية أن تظلم من قدر التصوير الحسي في الشعر والحرص على الأغراض، فإنها لن تستطيع أن تذهب بروعة كل تلك الصور الحسية الجميلة، ولا بما لها من قدرة عاتية على تجسيم الجمال، أو على التعبير عن الحقائق النفسية أو العضوية، هال الشاعر القديم الذي يتحدث عن الصحراء بقوله: «فبراء ثقات الأحاديث ركبتها» والأعشى عندما يعبر عن وقت الظهيرة بقوله: «وقد انتعلت المطي ظلالها»... إنما يرسم صورة حسية أي عرضاً، ومع ذلك يخلق صورة شعرية جميلة أو يعبر عن حقيقة نسبية وعضوية ضخمة»^(٨٧).

لا نعرف على وجه البقعة ماذا كان يمكن أن يقول العقاد والمازني عن صورة الأعشى: «وقد انتعلت المطي ظلالها» حيث يقدم الشاعر في جملة من فعل وفاعل ومفعول صورة لغوية رائعة هي الاستعارة في فعل «انتعلت» ثم صورة شعرية - لغوية بالطبع - تتفجر فيها اللغة بدلالات في تعدد دلالة يكاد يكون لا نهائياً ويصيرف النظر عما كان يمكن للعقاد والمازني أن يقولاه لو أنهما توقفا عند صورة الأعشى، فإن الجملة القصيرة المركزة تقدم نموذجاً فريداً لوظيفة المجاز.

وإذا كان العقاد والمازني قد فشلوا بهذا الشكل الغريب في قراءة الصورة المجازية البسيطة ومن ثم الصورة الشعرية التي تقوم على تجسيد ما يدرك بالعقل أو ما أسماه البلاغيون العرب بالمعقول عن طريق المحسوس وارتكبا خطيئة القراءة السطحية الأولى للصورة في سياقها الحسي فقد كان من المحتم أن يفشلا في قراءة الصور الأكثر تركيباً والتي تعتمد على تراسل الحواس أو تبادل الحواس للأدوار، وهو لون مركب حديث يعتمد، كما يؤكد سيد البحراوي، على بدائيات علم النفس، وتراسل الحواس أصبح سمة مألوفة ومقبولة في الشعر الغربي الحديث، نقدم نموذجاً واحداً له من قصيدة تصف غياب الاتصال البشري في الحروب الحديثة في اعتمادها على الآلية التي تمكن المقاتل من إصابة عدوه دون أن يراه. يقول بيرنز في قصيدة بعنوان: «The Unseen Fire» في وصف موقف الطيار داخل الطائرة التي تغير بها على أهدافه في عزلة تامة عن إنسانية عدوه:

This is a damned unnatural sort of war:
The pilot sits among the clouds, quite sure
About the values he is fighting for
He cannot hear beyond his veil of sound.

إن عزلة الطيار كإنسان تكتمل بتلك الصورة التي تراسل فيها حاساً السمع والإبصار، فطنين أو أزيز محركات الطائرة (حاسة السمع) عالٍ إلى درجة يطنى فيها على أنين وصراخ من يقدفهم بتنايله، لكن اكتمال هذه العزلة يتحقق حينما يتحول الطنين أو الأزيز إلى حجاب أو نقاب (حاسة البصر) يكاد يرى، ليس في الصورة كثير جمال أو براعة، باستثناء تلك القدرة الواضحة على تركيز المعنى وتجسيده، وحينما يواجه المازني بصورة مماثلة يسارع إلى اتهام شكري بالجنون

المتنثل في تداخل الحواس. وما يكتبه المازني في ذلك السياق يتخطى بكثير مجرد التحامل الذي يصل إلى حد القذف ضد شاعر معاصر. إنه في حقيقة الأمر فشل فاجع في فهم صورة شعرية مركبة ووظيفتها الجمالية:

«إن شكري على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وهو... مرض يجعل صاحبه يتوهم أنه يسمع أصواتاً أو يرى أشباحاً... فإذا أصاب العين رأت ما لا وجود له في الأذن» [9] سمعت ما لم يصدر فعلاً من الأصوات. وقد قال شكري... تعليقاً على بيته هذا: أو كنور النهر فضاها له وتر في القلب فغني النغم «ما رأيت القمر إلا أحسست كأن نواقيس تحلن في أدني. وإن ألد الأنعام رنة الفضة المجوفة».

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتفخيز وهي قاطعة في أنه في كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطلن) في أدنه صوت نواقيس فضية⁽⁸⁸⁾.

إن قراءة صورة شعرية مركبة تقوم على تداخل للحواس باعتبارها هذيان شاعر مجنون تشير إلى أن صاحبي الديوان لم يكونا على اتصال كافٍ بالبلاغة العربية القديمة، وأنهما فشلا في إدراك القيمة الجمالية والقادرة على الدلالة التي يحققها المجاز اللغوي والتصوير الشعري. وهي قيمة تمثل العمود الفقري للدراسات البيانية والبنائية في البلاغة العربية. هل نقول هنا بأن العقاد والمازني لم يكونا على علم بالبلاغة العربية؟ أخشى أن الإجابة بنعم، ويحتمل أن ما كتباه عن الصناعة والتمادي في استخدام البديع يؤكد أنهما قرأا البلاغة العربية في عصر الانحطاط، في ظل قطيعة معرفية طويلة تعرضت لها البلاغة العربية الحقبة. وحينما يكتبان، كما سبق أن أشرنا، «إلا أن نتمتعاً يصف إلى هذا المجال لجريرة لم يجنهما على لغة العرب إلا زغل الصناعة لا جزى الله صناعها خيراً. جعلوا التشبيه غاية ففسروا إليه همهم ولم يتوسلوا به لإجلاء معنى أو تقريب صورة»، نقول إنهما حينما يكتبان ذلك ربما لا يعرفان أن ما يكتبانه لا ينطبق على البلاغة العربية في عصرها الذهبي حينما قدمت معاور ناضجة لنظرية لغوية وأخرى أدبية لا تقل في تماسكها عن أحدث النظريات الحديثة. ربما لم يكونا يعرفان أن من أبرز مآخذ الأمدي على أبي تمام - وهو من هو في الشعر العربي - أنه قد افترض في استخدام البديع، بأنواعه الثلاثة وهي الاستعارة والجناس والمطابقة، وكان

ذلك موقفاً من التجديد أكثر منه موقفاً من إفراط أبي تمام في استخدام البيديع، وقد أثبت الزمن بعد ذلك أن أبا تمام كان من أفضل من استخدم المجاز اللغوي والصور في الشعر العربي. وما نريد قوله هنا إن البلاغة العربية في عصرنا الذهبي لم ترحب بالمبالغة في الصنعة أو بجعل التشبيه غاية في ذاته، وإن ما يتحدث عنه العقاد هو عصر الانحطاط.

أما البلاغة العربية الحقبة فقد عرفت للمجاز ووظيفته حقهما منذ البداية، بل إنه في مرحلة معينة، وعلى وجه التحديد، ابتداءً بعيد القاهرة الجرجاني في القرن الخامس، وبعد أن كانت المعركة بين القديم والجديد قد حسمت بشكل واضح لمصلحة الجديد، أصبح المجاز بجميع أشكاله هو الأداة الأولى في تحويل المادة أو المعنى النثري إلى شعر. قبل عبدالقاهر كان هناك من ينظر إلى المجاز، والصور الشعرية على وجه الخصوص، باعتباره «زيادة» أو شيئاً زائداً على المعنى. والزيادة هنا ليست زيادة دريدا supplement التي تكمل شيئاً ناقصاً في اللغة، فعل ذلك ابن طباطبا الذي سلم، كما يعلق جابر عصفور، «بأن الشاعر يفكر مرتين في القصيدة: مرة من حيث هي أفكار مجردة، وأخرى من حيث هي صياغة تزخرف هذه الأفكار عن طريق الصور، أي أن الصورة وسيلة شارحة لمعنى، لا تعدو أن تكون أمراً شكلياً يمكن استخلاصه بعيداً عن المحتوى الأخلاقي الذي يؤثر ابن طباطبا»⁽⁸⁹⁾. وهناك من اعتبر الاستخدامات المجازية للغة إفراطاً في استخدام البيديع مثل الاستعارة والجناس والمطابقة، كما فعل الأمدى في حكمه على أبي تمام. لكن مع بداية القرن الخامس، لا بد أن الموقف من المجاز كان قد تغير تماماً، وهكذا أصبح استخدام اللغة على المجاز، خاصة في الاستعارة، أساس تحول المادة أو المعنى النثري إلى شعر أو أدب. بل إننا لا نبالي إذا قلنا إن المجاز أصبح مع عبدالقاهر أساس نظرية الشعر العربية poetics ويؤكد الولي محمد أهمية الاستعارة في بلاغة عبدالقاهر بعد أن تحولت عنده إلى نقطة الإحالة الثابتة التي يعود إليها في سياق مناقشته لألوان المجاز المختلفة. «ولهذا» يكتب الولي «كما نجد الجرجاني حتى حينما يتضرع لمناقشة الأجناس التصويرية الأخرى، لم يكن ينسى مقارنتها بالاستعارة... وحتى عندما كان الجرجاني يتناول مواضيع تبدو بعيدة عن الاستعارة لم يكن الجرجاني يعدم نافذة، هناك، يطل منها على الاستعارة»⁽⁹⁰⁾.

النظرية الأدبية العربية

وهكذا نطلق مع عبد القاهر في محاولة لتحديد وظيفة/وظائف المجاز من منظور الشعر بعد أن خرجنا من مرحلة النظرة السلبية السابقة أثناء معركة أبي تمام/البحتري على وجه التحديد، ونعود إلى نقطة البداية المحورية في حديثنا عن المجاز وهي تعدد الدلالة التي تعتبر سببا ونتيجة للاستخدام المجازي للغة، إن تعدد الدلالة يؤسس شرعية المجاز من ناحية، ويحدد وظيفته، من ناحية ثانية.

في سياق حديثه عن التشبيه القائم على « أخذ المحسوس للمحسوس»، يتوقف عبد القاهر الجرجاني عند نموذج رائع لتعدد الدلالة التي تولدها المشابهة بين محسوس ومحسوس، وكيف يشترك الاثنان في تقديم شبه عقلي، وهو إحدى صيغ التشبيه المركبة التي تتطلب من القارئ، كما شرح عبد القاهر من قبل، معاناة وجهدا لتتبع طبقات الدلالة التي تحققها:

«ومثال الأصل الثاني وهو أخذ الشيء من المحسوس للمحسوس ثم الشبه عقلي قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إياكم وخضراء الدمن» الشبه مأخوذ للمرأة من النبات كما لا يخفى وكلاهما جسم إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته ولا مشاكل ذلك ولا ما يسمى طبعها كالحرارة والبرودة المنسوبتين في العادة إلى العقاقير وغيرها مما يسخن بدن الحيوان ويبرد بحصوله فيه ولا شيء من هذا الباب بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسناء في المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة وهو حسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن، وطبيب الفرع مع خبث الأصل،⁽⁴¹⁾ [التأكيد من عندي].

أركان التشبيه ومصدر ملامته بل قوته هي تحقيقه لوظيفتين أساسيتين هما: التركيز الشديد والقدرة على الإيحاء أو تعدد طبقات الدلالة التي يجب أن تنتجها في كلمات النبي (صلى الله عليه وسلم) وكشفت عن الطبقة مسترة أو «محتجبة» تحت الطبقة، وهذا ما يقصده المحدثون بالتعجب المستمر للغة، لتتبع آلية تحقيق ذلك التشبيه/المجاز لوظيفته البلاغية الفريدة. إن التحذير يقدم شيئين حسيين منفصلين في البداية، النبات المورق اليناع الذي يغني جذرا خبيثا، والمرأة الجميلة المظهر الخبيثة الأصل- المعنى الذي يرتبط بظاهر الشيء الأول يقوم على ضرره، ومن ثم التحذير من تناوله، لكن لا يعقل أن

يكون الرسول قد قصد تحذيرنا من ضرر ذلك النبات، فالضرر أوضح من أن نحذر منه، وإذا كان ذلك التحذير هو المقصود فهو تحذير كان من الممكن أن يصدر عن مزارع أو فلاح خبير بأمور الزراعة والنباتات، المعنى الحسي أو الظاهري الثاني خاص بالمرأة الجميلة المظهر الخبيثة المخبر أو المنشأ، والتحذير مع الارتباط يمثل هذه المرأة هو المعنى الذي قصد إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم). فماذا فعل مرسل الرسالة، مع التذكير بأننا نتحدث طوال الوقت عن المشابهة بين موجودين حسيين متباعين لا توجد علاقة بينهما؟ أخذ الصفة الغالبة، وهي الضر أو السم، في النبات ونقله إلى المرأة، وهكذا حول الشبه بين محسوسين إلى شبه عقلي بين المرأة الحسنة في المنبت السوء وتلك النابتة على الدمنة، وهو معنى معقول، أي يدرك بالعقل، ماذا حققت المشابهة المجازية في هذا السياق؟ لقد حققت تركيزا حسيا أكسب التحذير قوة إقناع لم تكن لتتوهر من دون ذلك التشبيه المجازي، ثم إنه أيضا قدم للمعنى العقلي صورة حسية - معادلا موضوعيا - قادرة على الإحياء بالمعنى نفسه كلما توقفت عندها عقل المتلقي أو تذكرها، وفوق هذا وذاك، حقق نقلة من مدرك أو معنى عقلي خاص هو التحذير من المرأة الجميلة التي يشبه ضرر الارتباط بها تناول نبات ضار أو سام إلى معنى عقلي أعم وأشمل، لم تكن لتتوصل إليه من دون ذلك التشبيه المجازي، وهو، كما يقول عبدالقاهر حرقيا: «حسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن، وطلب الفرع مع خبث الأصل». إن التحذير هنا ضد الانخداع بالمظاهر بصفة عامة. ذلك هو تعدد الدلالة الذي يعقبه استخدام اللغة على المجاز.

قد يرى البعض أن النموذج السابق - والذي توقفنا عنده في إطالة - ليس نصا شعريا، وعلى الرغم من أن البلاغيين العرب عامة تعلموا أسرار المجاز، طبيعته ووظيفته، من النصوص القرآنية، وعبدالقاهر بصفة خاصة، حيث كان يدخله لدراسة للبلاغة المربية بل للتقنين لها، هو النص القرآني، إلا أن البلاغيين بلا استثناء طبقوا ما تعلموه من إعجاز النص القرآني على النصوص الشعرية فيما كتبوه عن المجاز. لكننا لا نكتفي بذلك التفسير ردا على الاعتراض المحتمل. ولهذا نحيل إلى نموذج شعري للكتابة لا نستطيع أن نقنع فيه بالمعنى الظاهر للفظ:

النظرية الأدبية العربية

«وهكذا السبيل في كل مكان كناية فليس من لفظ الشعر عرفت أن ابن هرمة أراد بقوله «ولا أبتاع إلا قريبة الأجل» التمدح بأنه مضيف، ولكنك عرفتته بالنظر اللطيف وبأن علمت أنه لا معنى للتمدح بظاهر ما يدل عليه اللفظ من قرب أجل ما يشتريه فطلبت له تاويلا فعلمت أنه أراد أنه يشتري ما يشتريه للأضياف، فإذا اشترى شاة أو بعيرا كان هذا اشترى ما قد دنا أجله لأنه يذبح ويحجر عن قريب»^(٩٢).

إن التوقف عند المعنى الظاهر للفظ هنا يحول الكناية إلى ذم للمدوح فقريبة الأجل من الأغنام أو البعير قد تكون مريضة أو مسنة، على حين أن المعنى المكنى أنه يشتريها في حالة نضج، أي في حالة اكتمال وسمنة كناية عن احتضائه بضيوفه.

والواقع أن أفكار البلاغيين العرب عن المعنى ومعنى المعنى أو المعاني الأول والمعاني الثواني لا تختلف في جوهرها عن تعدد الدلالة بالمعنى الحديث، خاصة عند النقاد الجدد. بل إن البعض يذهب إلى أن تحديد المعاني الثواني أو معنى المعنى يتطلب درجة واضحة من مشاركة القارئ أو المتلقي في إنتاج الدلالة، تماما كما يقول أصحاب نظرية التلقي وإستراتيجية التفكيك، وأن الفارق بين القديم والحديث هنا أكثر من فارق درجي. ولم يترك عبدالقاهر الجرجاني فرصة، سواء في دلائل الإعجاز أو أسرار البلاغة دون أن يؤكد خطأ التوقف عند الدلالة الظاهرة للفظ وضرورة الحفر عند جذور اللغة للوصول إلى ما وراء المعنى الظاهر أو ما تحته. صحيح أن البلاغة العربية لم تسلم من بعض الارتباك الواضح في تحديد المقصود بالمعاني الأول والمعاني الثواني، ففي الوقت الذي يحدد فيه عبدالقاهر المقصود بالمصطلحين في دقة لا تقبل التشكيك، على أساس أن معنى المعنى، أو المعاني الثواني هو غرض الشاعر ومقصده، يقوم حازم القرطاجني بقلب المعادلة لتصبح المعاني الثواني هي المعاني الفرعية. فالتوقف عند عبدالقاهر أولا، حيث تقدم إلى تعريف لمعادلة المعاني الأول والمعاني الثواني يشترط بشكل واضح من معنى المعنى The meaning of meaning كما قدمه نادف حنيث مثل ريتشاردز. الكلام بالنسبة للجرجاني على ضربين: «ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ، وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخرج على الحقيقة فقلت خرج زيد»، في هذا النوع من الكلام لا نستطيع أن

تحدث عن المعنى ومعنى المعنى، فليس هناك إلا معنى واحد، هو المعنى الذي تحققه المواضع اللغوية التي تعتمد على استخدام اللغة على الحقيقة، استخدام اللغة على المجاز هو الذي يحتم علينا فك شفرة المجاز، استعارة كان أو كناية، لنصل إلى المعنى الثاني أو المعاني؛

«وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل... هنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تحني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو غرضك كمعرك من كثير الرماد أنه مضياف... وإذا قد عرفت هذه الجملة فما هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى تعني بالمعنى المقهور من قاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة ويعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفهم بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي هُتِر،^(٩٢) [التأكيد من عندي].

زيادة في التأكيد، مع ما يعني ذلك من تبسيط مغل، دعونا نحدد «المعنى» و «معنى المعنى» أو «المعنى الأول» و «المعاني الثواني». وهنا نذكر أن محور كلمات الجرجاني يدور حول الكناية المعروفة في البلاغة العربية وهي وصف الرجل الكريم بـ «كثير رماد القدر»، والتي ناقشنا آلية تحقق دلالتها في سياق سابق، بالمعنى الأول هو ذلك الذي نصل إليه بدلالة اللفظ وحده، ودلالة اللفظ وحده تقوم على العلاقة الاعتبارية بين الدال المدلول أو بين اللفظ والمعنى. وهذه الدلالة لا تحتاج إلى (عمل للعقل، فهي دلالة غير عقلية، لكن المهم هنا أن تلك الدلالة الأولى أو المعنى الأول، أو «المعنى» كما سيؤكد الجرجاني في نهاية السطور، ليست هي الغرض الذي تحمله الرسالة، أما المعنى الثاني الذي يؤكد الجرجاني أنه «غرضك» فهو عملية استدلال عقلي تتخطى المواضع اللغوية والعلاقة الاعتبارية، إذ إن ما يحدث هو «أن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو غرضك»، ويعد تأكيد آلية الاستدلال العقلي نفسها في النهاية حيثما يحدد

النظرية الأدبية العربية

معنى المعنى بالمقردرات نفسها. معنى المعنى، إذن، كما يقول الجرجاني، هو «أن تغفل من اللفظ معنى ثم يقضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر».

وقد توقف حازم القرطاجني أيضاً، وفي إطالة، عند المعاني الأول والمعاني الثواني. لكن الأمور عنده، وفي ظل التشبث الواضح بين التراث البلاغي العربي منذ بداية القرن الثالث الهجري على الأقل حتى بداية عصر الانحلال والتراجع، وبين المؤثرات الوافدة التي جاءت مع الاحتكاك الأكثر قرباً بالثقافة اليونانية، في ظل ذلك التشبث كانت الأمور عنده أكثر تداخلاً يحتاج معها المرء إلى عملية غريبة وفُرز دقيقة حتى نضع أيدينا في نهاية الأمر على شيء يقترب من المعاني الأول والمعاني الثواني كما عرفها عبد القاهر الجرجاني. يكتب حازم في المنهاج:

«والمعاني الشعرية منها ما يكون مقصوداً في نفسه بحسب غرض الشعر ومعمداً إيراده ومنها ما ليس بمعتمد إيراده، ولكن يورد على أن يحاكم به ما اعتمد من ذلك، أو يحال به عليه، أو غير ذلك، لنسم المعاني التي هي من الكلام ونفس غرض الشعر المعاني الأول، ونسم المعاني التي ليست من متن الكلام ونفس الغرض - ولكنها أمثلة لتلك واستدلالات عليها أو غير ذلك، لا يجب لإيرادها في الكلام غير محاكاة المعاني بها، أو ملاحظة وجه يجمع بينهما على بعض الهيئات، التي تتلاقى عليها المعاني ويصار من بعضها إلى بعض - المعاني الثواني، فتكون معاني الشعر منقسمة إلى أوائل وثوان»^(٩٤).

ومهما بذلنا من جهد في غربة الكلمات السابقة فلن نستطيع أن نصل إلى فهم كامل لما يقصده حازم القرطاجني بالمعاني الأول والمعاني الثواني. وما على القارئ إلا أن يقوم بتحليل المعنى نفسه المكثي في «كثير رماد القدر» في ضوء ما يقوله عبد القاهر مرة وما يقوله حازم مرة أخرى، على أساس أن المعنى المقصود أو الغرض الذي تجسده الكناية هو «الكرم»، وأن الصورة المجازية هي التعبير اللغوي. الأمور عند عبد القاهر واضحة لا لبس فيها. فالمعنى الأول الذي تشير إليه الألفاظ هو كثرة الرماد في موهب أو كانون ذلك الأعرابي، وهذا معنى لا قائدة منه. أما المعنى الثاني أو الثالث أو الرابع فهو ما يوصلنا إلى غرض الشاعر وهو وصف الرجل بالكرم. وقد قلنا إن ذلك هو تعدد الدلالة، ومهما حاولنا، في تتبع المعنى الأول والمعاني الثواني في الكناية اللغوية نفسها حسب

منهج حازم فلن نصل إلى النتيجة نفسها، إذ لا يوجد بين مفهومي عبدالقاهر وحازم عن المعاني الأول والمعاني الثواني أي التقاء اللهم إلا في استخدام المصطلح نفسه، ولهذا اختلف مع محاولة جابر عصفور للتوفيق بين الموقفين في قوله: «وفي عبارات حازم تباعد عن عبدالقاهر يكاد يوحى بالمخالفة، لكن فكرة التحول في الدلالة والانتقال من معنى إلى آخر تظل قائمة، بعد أن تكيفت مع تصور حازم للمحاكاة التشبيهية»^(٩٥). هالموقفان لا يلتقيان.

موقف عبدالقاهر، إذن، أكثر تحديدا ودقة من موقف أي بلاغي عربي آخر. لكن الحديث عن المعاني الأول والمعاني الثواني، أو المعنى ومعنى المعنى يثير تساؤلا حتميا: من الذي يفك شفرة الصورة اللغوية، المجازية ليصل إلى معنى معناه الظاهري أو المعنى الثاني الذي يكمن أو يحتجب خلف القراءة السطحية؟ لا جدال في أنه القارئ أو المتلقي في عملية «قلب» للعبارة التي تم بها تشفير المعنى، فإذا كان الشاعر قد بدأ بالمعنى العقلي وهو الكرم ثم بحث عن صورة مجازية، لغوية، جسدت بها المعنى قبل أن يقوم بإرساله إلى المتلقي، فإن الأخير يتلقى الصورة المجازية أولا، «كثير رماد القدر»، ثم يحفر عند وتحت الجذور اللغوية ليصل إلى الغرض أو المعنى وهو الكرم، ليس معنى ذلك أننا نقترّب مع البلاغة العربية القديمة من جوهر نظرية التلقي، وهي مساهمة المتلقي أو القارئ في إنتاج الدلالة؟ نعم؛ وهي الإجابة نفسها التي أكدها محمد عابد الجابري الذي يرى أن كلمات عبدالقاهر السابقة «تجعل السامع يسهم في إنتاج المعنى المقصود، بدل إعطائه إياه مرة واحدة وترك الحرية له للشك والجدال»^(٩٦). «وبعبارة أخرى إن «أسرار البلاغة»، «ودلائل الإعجاز» في الكلام العربي المبين كامنة في كون الأساليب البلاغية العربية تجعل المخاطب أو المتلقي يسهم في إنتاج المعنى المقصود بواسطة عملية استدلالية ينتقل فيها من خلال اللفظ ومعناه المتعارف عليه، إلى المعنى الذي يقصده المتكلم»^(٩٧).

وفي الوقت نفسه فإن الحديث عن معنى المعنى، كما حذره عبدالقاهر الجرجاني في الإحالة السابقة التي توقفت عندها، يفرض تساؤلا آخر لابد منه. إذ إن واقع النقد العربي المعاصر، أو التقد الحديث وما بعد الحديث العربي، يظهر أنه لم يحظ، مصطلحان نقديان غربيان بالاهتمام الذي حظي به مصطلحا «الحضور» و«الغياب»، اللذان ارتبطا بها أسماء دريدا بـ «ميتافيزيقا الحضور»، ولا شك أن مفردات مثل «ميتافيزيقا» و«حضور»

و«غياب» بريقا خاصا أعمى المنبهين عن رؤية الحقيقة الواضحة: إن ما قاله عبدالقاهر الجرجاني، قبل دريدا بثمانية قرون، لا يختلف كثيرا عن مفهوم الناقد التفكيكي، أو كبير كهنة التفكيك، فحينما ينهي عبدالقاهر شرحه المطول للمعاني الأول والمعاني الثواني قائلا: «فها هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تمقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك إلى معنى آخر» فإنه بذلك يضع الأساس الأول لجوهر «ميتافيزيقا الحضور» والمفهوم «الحضور» و«الغياب» دون أن يستخدم المصطلح الفلسفي الهرمنيوطيقي الجذاب أو المصطلح النقدي الباهر، هل نعمل عبدالقاهر الجرجاني والبلاغة والبيان العربيين أكثر مما يحتملون؟

لنناقش كناية عبدالقاهر المحورية، «كثير رماد القدر»، من منظور الحضور والغياب. إن الكرم، وهو معنى القول أو غرضه ليس موجودا، لأنه نائب محتجب خلف أو وراء البنية اللغوية. ولكنه أيضا حاضر خلف هذه البنية، ومن دون هذه البنية المجازية القائمة على الكناية لا نستطيع أن نصل إلى ذلك المعنى، فحضوره في حضورها ذاتها، وغيبتها بسبب حضورها، وفي غيبة ذلك المعنى، أو في غيبة حضوره على السطح لا بد أن نقوم نحن بعملية كشف أو عمليات متعددة حتى تصل إلى ذلك المعنى الحاضر الغائب. وفي الوقت نفسه فإن غياب المعنى سببه حضور اللغة، من ناحية، ثم إن حضوره يرتبط بحضور اللغة، باختصار شديد، فإن البنية اللغوية المجازية - الكناية - والتي هي «كثير رماد القدر» تحجب المعنى وتكشف عنه في آن. ولا يمكن إلا لكاتب أن يقول إن مفهوم الحضور والغياب هنا يختلف كثيرا عن آراء هارولد بلوم وجاك دريدا عن المصطلحين أنفسهما.

والبلاغة العربية، خاصة بلاغة عبدالقاهر الجرجاني، تربط بين القدرة على الإيحاء الذي تحققه أنواع المجاز اللغوي، ومن ثم ما نحمله نحن لهذه القدرة الإيحائية من مضاهيم معاصرة مثل تعدد الدلالة، ومراوغة المدلول للدال، ثم الحضور والغياب وبين عدد من الشروط المحددة، مثل تباعد العلاقة، عند نقطة البداية، بين المتشابهين، ثم معقولية العلاقة التي يقيمها الشاعر بين المتباعدات، وعدم تكلف الغموض من أجل الغموض، ثم، ضرورة أن يستحق المعنى عناء البحث عنه والحق عند جذور اللغة من أجله.

لنتوقف عند هذه الشروط الأربعة بالمناقشة.

فيما يتعلق بالتباعد بين المتشابهين في المجاز اللغوي أو بين المادة والصورة فإن عبدالقاهر يؤكد أهمية ذلك التباعد فيما يشبه الإلحاح:

«وهكذا إذا استقرت التشبيهات وجدت التباعد بين الشبيهين كلما كان أشد، كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب... وذلك أن موضع الاستحسان، ومكان الاستنراف، والمثير للدين من الارتياح... أنك ترى بها الشبيهين مثلين متباينين، ومؤثفين مختلفين، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض. وفي خلقه الإنسان وخلال الروض. وهكذا هراتف تتأل عليك إذا فضت هذه الجملة وتبعت هذه اللمعة، ولذلك تجد تشبيهه بالفسح في قوله: ولازوردية تزهو برزقهها بين الرياض على حمر البواقيت كأنها فوق قاسات ضعفت بها أوائل النار في أطراف كبريت أغرب وأعجب، وأحق بالولوع واجدر...»^(٦٨).

إن ما يقوله الجرجاني عن وظيفة التشبيه في الجمع بين شئيين متباينين مختلفين، وأنه كلما كان التباعد بين المشبه والمشبه به أكبر، ووجه الاختلاف أبين كان ذلك أعجب إلى النفوس وأطرب، هذا القول لا يحتاج إلى تعليق أو شرح، خاصة أنه يختتم شرحه بصورة شعرية تجسد مقصده أبلغ تجسيد في الجمع بين متباينين ابتعدت المسافة بينهما إلى أقصى درجات الابتعاد. وهما أزهار النرجس يانعة فوق أعناقها ورؤوس الكبريت مشتعلة فوق أعوادها. إن أزهار النرجس في الواقع الحسي لا علاقة لها بأعواد الكبريت، وما حققه ابن المعتز هنا أنه أقام علاقة لم تكن قائمة. وما يقوله الجرجاني هنا، مرة أخرى مبدأ نقدي ميكز سبق نقد القرن العشرين الذي يقول بأن النشاط الإبداعي، في جانب منه، عملية «توفيق بين الأضداد opposites reconciliation of opposites، يقرب المتباعدات ويجمع بين المتباينات في تكوينات وعلاقات جديدة. ولنا حاجة إلى التنبه إلى أن ما يتحدث عنه عبدالقاهر هنا لا علاقة له بالمفهوم اللغوي والأدبي الحديثي للثنائيات المتضادة binary oppositions والتي تقوم على أن معنى اللفظ في السياق اللغوي يحده اللفظ المضاد والمقابل، على المحور الراسي الذي يبدو أننا نقيمه مع كل كلمة جديدة في السياق، وهو لفظ لا يرد في النص، إن ما يتحدث عنه عبدالقاهر هو قدرة المجاز على الجمع بين المتباعدتين أو

المتناقضين داخل الصورة الواحدة، وما يحققه ذلك من بلاغة للنص الأدبي. وهو ما يخصص به التمثيل أكثر من غيره:

«وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تآليف المتباينين حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المشرق [من أتى من الشام] والمعرق [من أتى من العراق] وهو يريك للمعاني الممثلة بالأرواح شبيها في الأشخاص المائلة، والأشباح القائمة، وينطق لك الآخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد ويريك التمام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين والماء والنار مجتمعين»^(٤٣) [التأكيد من عندي].

ويذهب عبدالقاهر في تأكيد أهمية وفائدة المجاز في الشعر والإبداع إلى تقديم نموذج تطبيقي يقارب فيه بين المعنى الثوري لميت شعر قامت الاستعارة هذه المرة بالتأليف داخله بين متباينين شليدي التباين والمعنى كما جسده الاستعارة، فالاستعارة في بيت الشعر حققت أهداف المجاز الأساسية وهي الغرابة والجدة والمفاجأة. وحينما تفك شفرة الصورة الشعرية/المجازية وتحول دلالتها إلى معنى ثوري يصبح التشبيه غثا منفرا:

«وأعلم أن من شأن الاستعارة أنك كلما زدت إيرادك التشبيه إخفاء إزادات الاستعارة حسنا، حتى أنك تراها أغرب ما تكون إذا كان الكلام قد ألف تأليفا إن أردت أن تفصح فيه بالتشبيه خرجت إلى شيء تعافه النفس، ولفظته السمع، ومثال ذلك قول ابن المعتز:

أثمرت أغصان راحته بجنان الحسن عتابا

ألا ترى أنك لو حملت نفسك على أن تظهر التشبيه وتفصح به احتجت إلى أن تقول: أثمرت أصابع يده التي هي كأغصان لطلالي الحسن شبيه العتاب من أطرافها المخطوبة. وهذا ما لا تخفى غلاله»^(٤٤).

إن الفارق الذي يتحدث عنه عبدالقاهر هنا بين الصورة الشعرية ومماها الثوري هو جوهر ما أسماه الحداثيون الغربيون بأدبية الأدب literariness أو ما يجعل الأدب أدبا.

إن التباين بين طرفي التشبيه أو التمثيل أو الاستعارة، والذي يوليه عبدالقاهر كل تلك الأهمية إلى الحد الذي يرفض معه المجاز المألوف الذي

تحول فيه التشبيه إلى علاقة ظاهرية، هذا التباعد هو أساس غرابة الصورة وجديتها؛ وإن كان مفهوم «الغريبة» والعجب أمرا لا يفرض به عبد القاهر الجرجاني إذ يمكن تتبعه، على الأقل، من الجاحظ مروراً بابن طيالب العلوي وعبد القاهر الجرجاني وانتهاء بحازم القرطاجني، مع تنويعات جزئية لا تمس جوهر غرابة الصورة المجازية والشعرية، لكن رؤية عبد القاهر لوظيفة المجاز الجيد أكثر تحديداً وشمولاً وتفصيلاً عنها عند أي بلاغي آخر، فالوظائف المختلفة التي يحددها الجرجاني للمجاز تتفق مع تعريفه له وطبيعته. المهم إن التقريب بين المتابعين والتأليف بين المتناقضين يحقق للصورة الغريبة والحدة ثم، كما يقول جابر عصفور، «القدرة على المباغته»، إذ إن خلق علاقة لم تكن موجودة بين متباعدين أو متباينين، وهو أساس المجاز الخلاق، يحقق للصورة المجازية هذه الصفات مجتمعة ودفعة واحدة. وقد توقف عبد القاهر في مواضيع مختلفة من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز عند تلك الصفات، كل على حدة، وتوقف عندها مجتمعة أيضاً. فعل ذلك عندما توقف عند بيتي ابن المعتز الساقطين اللذين يشبه فيهما أزهار النرجس فوق اعتاقها برؤوس كبريت مشتعلة عند نهاية أعواد الثقاب، حيث يخلص إلى أن ذلك التشبيه:

«أغرب وأعجب، وأحق بالولوع وأجدر، من تشبيه النرجس
بعدها من در حشوه من عتيق... على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم
يعهد ظهوره منه، وخرج من موضع ليس يعهد له، كانت صبابة
النفوس به أكثر، وكلن بالشغف منها أجدر، فسواء في إثارة التعجب،
وأخراجك إلى روعة المستغرب، وجودك الشيء في مكان ليس من
امكنته، ووجود شيء لم يوجد ولم يعرف من أصله في ذاته وصفته،
ولو أنه شبه البنفسج ببعض الثنيات، أو صادف له شبهها
في شيء من المقنونات، لم تجد له هذه الغرابة. ولم ينل من
الحسن هذا الحظ»^(١٠١) [التأكيد من عندي].

من الواضح أن ابن المعتز لم يشبه ثبات البنفسج بنبات آخر. ولكنه اختار شيئاً يختلف كلية عن زهرة البنفسج الجميلة وهو ثقاب كبريت مشتعل، ولو أنه قارن الثبات بنبات آخر لما كان في تشبيهه غرابة أو كان مثاراً للعجب والمباغته، ثم إنه خلق علاقة لا وجود لها على مستوى الواقع مما جعل شيئين عاديين مأكوفين، هما زهرة البنفسج وثقاب الكبريت،

النظرية الأدبية العربية

واللذان يزاهما المرء عشرات أو مئات المرات، كلا على حدة، دون أن يتوقف عندهما، جعلهما غير مألوفين، وهنا تكمن عصرية وحداثة البيان العربي الذي سبق المدارس النقدية الحديثة، بل منذ بداية المدرسة الرومانسية، إلى مفهوم كسر الألفة الذي يحتل موقعا مهما في الفكر الغربي: عند الرومانسيين والشكليين والنقاد الجدد. والمفهوم في جوهره يقوم على أنه ليست من بين وظائف الأديب اكتشاف أفكار أو معانٍ جديدة، فهذه وظيفة العالم، ومن ثم تقوم وظيفة المبدع على إدخال المعاني القائمة في علاقات جديدة، تجعل المألوف غير مألوف أو غريب أو جديد. هذا هو جوهر كسر الألفة defamiliarization.

أمام هذا الإنجاز الميكرو للبلغة العربية يتوقف الإنسان في غير تصديق أمام قراءة مصطفى ناصف لعبد القاهر وأمام تفسيره الغريب لمفهوم القراءة، وهو تفسير لا يخرج فقط على الواضح عند عبد القاهر ويفرغ إنجاز الرجل من كل معناه، بل يخرج أيضا على المألوف في قراءة البلاغة عامة، وهكذا يعود ناصف إلى التفسير الصوفي في قراءته للجراني، وعندما يقول عبد القاهر في أسرار البلاغة: «والمعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود مما لا ينزع إليه الخاطر، ولا يقع في الوهم عند بديهية النظر إلى نظيره الذي يشبه به»، ينسب مصطفى ناصف هذه الكلمات على النحو التالي:

«عبد القاهر يبحث عن أشياء لم ترها عين، ولم تسمعها أذن، ولكننا حساة لا نرحم عبد القاهر ولا نتأتى له في رفق، عبد القاهر مقترّب، والشاعر مقترّب» والدنيا من حول عبد القاهر مقترّبة، وربما كنا الآن بعد هذا المدى المديد مقترّبين، أفطن الناس قد تمسكوا بعبارات عبد القاهر والشعر الذي أورد عبد القاهر لأنهم وجدوا غذاء لهذه الغربة، لرفض ما يرون والبحث عن دنیا لا تستقيم إلا في الوهم، ماهذا الخالص الذي يراود عبد القاهر، ويراد قارئيه المعجبين به الذين لا ينفون عنه جولا يراودنا أيضا»^(١٠٢).

لنترك هذه التهويمات الصوفية ولنعد إلى متابعة شروط الإبداع في النظرية الأدبية العربية، إن الحديث عن التباعد بين عنصري التشبيه المجازي ثم غرابة الصورة الناتجة قد يغري بالغموض. لكن الغموض فخ كان البلاغي العربي حريصا على ألا يقع فيه، ولم يتردد البلاغيون العرب في رفض

الغموض الذي يطلب لذاته على حساب تحقق الدلالة والمعنى. فعل ذلك ابن المعتز وابن سنان وعبد القاهر وحازم. وقد حدد ابن المعتز ميكرًا سبب رفض الغموض، فعلى الرغم من التسليم الكامل بأهمية البديع في الشعر العربي إلا أننا يجب ألا نقس أن معيار البيان الجيد هو أداء المعنى، ومن ثم يجب ألا يكون البديع عائقًا أمام الفهم، وقد كان ذلك هو الأساس المشترك الذي أقام عليه البلاغيون والبيانيون العرب تحذيرهم من الغموض. وكما كان عبد القاهر الجرجاني أكثر البلاغيين العرب تأكيدًا لأهمية الجمع بين المتباينات والتوفيق بين الأضداد، كان أيضًا أكثرهم وعيًا بمزالق الغموض الذي يعنيه مبدأ الغرابة. وقد ربط في ذلك بين التعقيد والغموض:

«لأنه إذا كان اللفظ سويًا والتأليف مستقيمًا كان وصول المعنى إلى قلبك تلو وصول اللفظ إلى سمعك، وإذا كان على خلاف ما ينبغي وصل اللفظ إلى السمع وبقيت في المعنى تطلبه وتتعجب فيه. وإذا أقررت الأمر في ذلك صار إلى التعقيد الذي قالوا إنه يستهلك المعنى، وأعلم أن لم تصق العبارة ولم يتحصر اللفظ ولم يتغلق الكلام في هذا السبب إلا لأنه قد تناهى في الغموض والخفاء إلى أقصى الغايات»^(١٠٣).

لقد قارن بعض النقاد بين رأي عبد القاهر هنا ورفضه للغموض والتعقيد ورأيه في أسرار البلاغة حينما كتب: «ومن المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وبالمزية أولى فكان موقعه من النفس أجل وألطف وكانت به اضمين وأشفق» وخلصوا إلى أن هناك تناقضًا واضحًا في موقف عبد القاهر، فهو مرة يتحازر للغموض لذاته (الأسرار) ومرة يرفض الغموض والتعقيد (الدلائل). والواقع أن القول بالتناقض يمثل حكمًا سطحيًا متعجلًا. لأن عبد القاهر لم يقل: في مقتطف الأسرار بالغموض والإبهام، وإنما كان يتحدث عن شروط تحقق المجاز الجيد وهو التباعد بين المشبه والمشبّه به. وقد أشرنا من قبل إلى أن النقد الحديث في القرن العشرين يتحمس لمبدأ التوفيق بين الأضداد reconciliation of opposites كمبدأ جمالي. ولم يقل أحد إن ذلك يعني الغموض. وربطنا أيضًا بين ماكنية البلاغي العربي وفكرة تعدد الدلالة الحديثة. وحينما يرفض الجرجاني مبدأ التعقيد والغموض فإنه في حقيقة

الأمر يبدأ في وضع سلسلة من الضوابط التي تحكم، ويجب أن تحكم، أداء البديع والصور المجازية، أول هذه الضوابط التي يؤكدُها عبدالقاهر أساساً للتأليف بين المتباينات أن يكون هناك سبب معقول للمشابهة. صحيح أن المعنى كالدُر الذي يستوجب الغوص عليه، ولكنه موجود. بل إن الجرجاني يذهب إلى تأكيد أهمية وجود وجه للتشابه لا يقل معقولية عن سبب التأليف نفسه، وفي ذلك يتحدث عبدالقاهر في تفصيل من يدرك أنه يؤسس لمبدأ نقدي نظري بالغ الأهمية، لأننا هنا نتحرك بين قطبين أحدهما تحقيق البديع للدلالة والآخر حجية تلك الدلالة:

«وأعلم أي لست أقول لك إنك متى ألفت الشيء ببعب عنه في الجنس على الجملة فقد أصبت وأحسنت، ولكن أقوله بعد تقييد وشروط. وهو أن تصيب بين المختلفين [في] الجنس وفي ظاهر الأمر شيها صحيحاً معقولاً، وتجد للملاءمة والتأليف السوي بينهما عذبا واليهما سبيلا، وحتى يكون اتلافهما الذي يوجب تشبيهك من حيث العقل والجسد. في وضوح اختلافهما من حيث العين والجسد. فاما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوّره حيث لا يتصور فلا، لأنك تكون في ذلك بمنزلة الصانع الأخرق. يضع في تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه، حتى تخرج الصورة مضطربة وتجيء فيها تنوّ [تنوّ] ويكون للعين من تفاوتها نبوء»^(١٠٤) [التأكيد من عندي].

وعبدالقاهر هنا حريص على ألا يعني القول بوجود وجه معقول للتشابه في ألوان البديع فساد مبدأ التأليف بين المتباعدين ولا تقضيه، فالعلاقة المعقولة، أو وجه الشبه الذي يتحدث عنه، يتطلب هو الآخر الغوص عليه وإجهد العقل في تحديده، وهو في ذلك يرفض الوضوح الكامل والمباشرة الصريحة، بالقدر نفسه الذي ينفر فيه من الغموض القائم على اختلاق علاقات وهمية لا وجود لها، أو تصعب استساغتها، «ولم أريد بقولي» يستدرك الجرجاني، «إن الحق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الاختصاص أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل في العقل، وإنما المعنى أن هناك تشبيهات خفية يدق المسلك إليها». ويدلل على رأيه في أن العلاقة أو وجه التشبيه ليس شيئاً تراه العين على السطح، وأنه قد يكون

خفيا يصعب الوصول إليه ويتطلب القوص عليه من جانب المتلقي أو القارئ - نظرية التلقي الحديثة مرة أخرى - فيقدم تحليلًا نقديًا لأحد أبيات ابن المعتز تقوم التشابه في الصورة المجازية فيه، لا على أساس التشابه في صفات حسية قريبة أو بعيدة، بل على أساس التشابه في الحركة، أو «الوفاق بين الهيئة والهيئة، والهيئة مجردة من الجسم»، ويرجع الجرجاني حسن الصورة في هذه الحالة إلى أن الاتفاق بين المشبه والمشبه به «كان خفيا لا يتجلى إلا بعد التألق في استحضار الصور وتذكرها وعرض بعضها على بعض». واستحضر صور الحركة وتذكرها وعرضها هو ما فعله عبدالقاهر تحديدا في تعامله مع بيت ابن المعتز:

وكان البرق مصحف فار فانطياقا مرة وانفثا

الذي يعلق عليه الجرجاني قائلا:

«لم ينظر [ابن المعتز] من جميع أوصاف البرق ومعانيه إلا إلى الهيئة التي تجدها العين له عن انبساط يعقبه انقباض، وانتشار يتلو انضمام، ثم فكر في نفسه عن هيئات الحركات لينظر أيها أشبه بها فأصاب ذلك فيما يفعله القارئ من الحركة الخاصة في المصحف إذا جعل يفثحه مرة ويطيغه أخرى ولم إعجاب يكن [لا بد أن صحتها: لم يكن إعجاب] هذا التشبيه لك وإيناسه إليك لأن الشئيين مختلفان في الجنس أشد الاختلاف فقط، بل لأن حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كاحسن ما يكون مواءمة، فمجموع الأمرين - شدة ائتلاف في شدة اختلاف - حلا وحسن - وراق وقتن» (١٠٥).

حينما ينتهي الجرجاني إلى أن موقع الحسن وسبب الحلوة في التشبيه في بيت ابن المعتز يرجع إلى «شدة ائتلاف في شدة اختلاف» يتأكد لدينا أن الرجل كان يعي جيدا ما يتوهمه، وأنه لا تناقض بين موقفه القائم على أهمية التباين بين طرفي التشبيه ورفض الغموض والتعقيد الناتج عن خلق علاقات لا يقبلها العقل.

ويقترب حازم القرطاجني في رفضه للغموض من موقف عبدالقاهر الجرجاني نفسه والضمان الأول الذي عبرت عنه صيغة الجرجاني، «شدة الائتلاف في شدة الاختلاف» وإن كان حازم يعدل في الضمان السابق، كان

النظرية الأدبية العربية

عبد القاهر يشترط أن تكون العلاقة بين طرفي التشبيه، مهما تباعدا أو بلغت شدة اختلافهما، علاقة يقبلها العقل أو معقولة، أي علاقة يتحمل التشبيه إثباتها، أما حازم فقد كان أكثر تضييقاً لدائرة الاحتمال وربما أكثر حرصاً كذلك حينما أكد أهمية التشبيه الحسي، وإن كان ذلك لا يعني أن ذلك مبدأ بياني وضعه حازم، فقد انشغل عبد القاهر من قبله، وبصورة أكثر إلحاحاً، بتشبيه المعقول بالمحسوس. لكن حازماً ربط بين تحقق الدلالة وتجسيد المعقول بالمحسوس، لأن المعاني المعقولة أو العقلية لا يمكن تخيلها، ومن ثم إدراكها، إلا بما يكون دليلاً عليها، أي التجسيد الحسي:

«فيكون تخيل الشيء من جهة ما يستتبعه الحس من آثاره والأحوال اللازمة له حال وجوده، وانتهيات المشاهدة لما التمس به ووجد عنده، وكل مالم يحدد من الأمور غير المحسوسة بشيء من هذه الأشياء... بل اقتصر على إتمامه بالاسم الدال عليه، فليس يجب أن يعتقد في ذلك الإقحام أنه تخيل شعري أصلاً»^(١٠٦).

وكان ابن طباطبا العلوي قد سبق كلا من عبد القاهر وحازم إلى تأكيد أهمية التجسيد concretization، أي تشبيه المعقول بالمحسوس، ليس فقط كأداة بديعية تحقق الدلالة أو المعنى بل كمدخل أدبي متعدد النتائج والاحتمالات، فالتجسيد الحسي للمعاني العقلية لا يحقق المعنى فقط، أو ما يسميه ابن طباطبا، انكشاف غطاء الفهم، ولكنه أيضاً المدخل الأساسي للإبداع الشعري، وإقامة علاقات جديدة، وجعل المألوف غير مألوف، بل إن ابن طباطبا، وهو يكتب ما كتبه في نهاية القرن الثالث وبدايات القرن الرابع، وفي ظل وجود لا شك فيه لآراء أرسطو ملخصة ومترجمة ومشروحة، يقدم الصيغة العربية للمحاكاة باعتبارها إبداعاً كاملاً يجعل التقييح جميلاً والجميل قبيحاً. ويجمع ابن طباطبا كل هذه الآراء في سطور قليلة، إن محاكاة المعقول تحقق كشف غطاء الفهم عندما يجمد الشعر:

«صفات صادقة وتشبيهات موافقة وأمثالاً مطابقة تصاب حقائقها، ويطلق في تقريب البعيد منها، فيؤنس الناظر الوحشي حتى يعود مألوفاً محبوباً، ويبعد المألوف المألوس به يصير وحشياً غريباً، فإن السمع إذا ورد عليه ما قد مله من المعاني المكررة والصفات المشهورة التي قد كثرت وزودها عليه مبعه وثقل عليه وعبه»^(١٠٧).

ويضيف عبدالقاهر شرطاً آخر للتأليف بين المتباعدين أو «شدة الاختلاف»، وهو أن تكون المعاني التي تجسدها الصورة المجازية تستحق غناء البحث عنها والفصوص عليها. فليس من المعقول أن يجهد المتلقي أو القارئ خياله ويقدح ذهنه في فك شفرات النص الشعري الذي يعتمد إلى تحقيق شدة الاختلاف ليصل في النهاية إلى معنى تافه لا يستحق كل هذا الغناء. ومثل ذلك المعنى تكون معه «كالغائص في البحر يحتمل المشقة العظيمة. ويخطر بالروح، ثم يخرج الخرز [يدلاً من الدر الذي توقعه] فالأمر بالضد مما بدأت به. ولذلك كان أحق اصناف التعقيد لذم ما يتبعك ثم لا يجدي عليك، ويؤزّحك ثم لا يروق لك»^(١٠٨)، ويحيلنا عبدالقاهر في كل من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز إلى بيت المتنبي:

«ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل»

فالمعنى الذي يقدمه المتنبي هو تفسير تسمية أغطية العيون بالجفون، والجفن يعني غمد السيف أي غطاءه. وهنا يقيم المتنبي تشبيهه المعقد: إن العيون التي تغطيها الجفون تشغل فعل السيف الذي يغطيه أو يخفيه جفنه أو غمده، أي أنهما يشتركان في صفة واحدة وهي القتل أو الذبح. ولهذا السبب، كما يقول المتنبي، سميت الجفون، تلك الأغطية التي تحجب العيون وتخفيها، جفوناً تشبيهاً لها بغمد السيف. وبصرف النظر عن التشبّه الواضح بين المعنيين اللذين يحتمل أن المتنبي قصد إليهما، (هل يريد أن يقول إن ذلك الغطاء سمي جفنًا لأنه يخفي عينًا تقتل، تماماً كما يخفي الغمد السيف الفتاك؟ أم يريد أن يقول إن عين حبيبته فتاكة كالسيف، ولهذا سمي غطاؤها جفنًا؟)، بصرف النظر عن هذا التشبّه الذي يخلقه بيت المتنبي، فإن المعنى، في رأي عبدالقاهر الجرجاني، لا يستحق كل هذا الغناء. فالتعقيد الذي يرجع إلى التشبيه من ناحية، وإلى سوء النظم من ناحية أخرى، مذموم، لأن عملية الغوص عليه أخرجت خرزاً لا قيمة له:

«وأما التعقيد فبأنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب

الترتيب الذي يهتله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع

أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه من غير الطريق...

وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار

النظرية الأدبية العربية

الذي يجب في مثله، وكذلك بسوء الدلالة، أودع المعنى لك هي قالب غير مستو ولا مملس بل خشن مضرس، حتى إذا رمت إخراجك منك عسر عليك، وإذا خرج [خرج] مشوه الصورة ناقص الحسن»^(١٠٩).

أما الشرط الأخير لتحقيق الدلالة بعيداً عن الغموض فيتفق عليه كل من عبدالقاهر الجرجاني وحازم القرطاجني دون كثير اختلاف. صمام الأمان ضد فوضى الدلالة، وهي فوضى تجيء بلا شك مع غموض التشبيه المجازي، هو نقل أو استعارة صفة غالبية من المشبه به للمشبه. وهذا شرط واجب التحقيق، عند عبدالقاهر، حتى مع المبالغة القائمة على التباعد بين طرفي التشبيه، والصفة الغالبة هنا تعني ارتباط المشبه به في العرف الاجتماعي اللغوي بصفة جرت العادة اللغوية على ربطه بها. لكن ذلك قد يعني وجود تناقض مبدئي في موقف عبدالقاهر الذي يرفض إبراز العلاقات المجازية التي تحولت بسبب كثرة الاستعمال إلى ما يشبه العرف اللغوي، وهو المجاز الذي وصفه الجرجاني في موقع آخر بأنه ميتدل عديم الفائدة لأنه لا يكلف المتلقي عناء البحث عنه. والتناقض، من ناحية المبدأ، قائم لا يمكن إنكاره. وقد سلمنا منذ بداية الدراسة أن بلاغة عبدالقاهر تحتاج إلى قراءة فاحصة تفريغها من كثير من تداخلاتها وتنقيها من كثير من تناقضاتها. وفي الوقت نفسه فإن هذا التناقض، في رأي مؤلف المراسم المتعبرة، تناقض سطحي فقط سرعان ما يختفي مع أي قراءة متعمقة، إذ إننا يجب ألا نتوقف عند مبدأ الصفة الغالبة وندرسه في عزلة عن بقية سياقات النظرية البلاغية عند عبدالقاهر، ومن ثم فإن الصفة الغالبة أو المهيمنة التي توحى، مفردة معزولة، بالسلطحية والألفة، تتحول إلى شيء آخر حينما ينظر إليها في الوقت نفسه مع مبدأ «شدة الاختلاف» الذي أكدّه الجرجاني. ثم إننا حينما نحدد صفة «النور» كصفة غالبية في الشمس فإن المحك هنا ليس في ألفة الصفة في حد ذاتها، بل في بعد المسافة بين تلك الصفة الغالبة والمشبه الذي سنستعيرها له أو تشبهها به. وفي الوقت نفسه علينا أن نتذكر أن البديل لمبدأ الصفة الغالبة هو الغموض وفوضى الدلالة، لأن تجاهل الصفة الغالبة ونقل صفة غير معروفة من المشبه به إلى المشبه يعني الغموض ما دام المرسل والمستقبل ليسا متفقين على كون تلك الصفة من صفات المشبه به. على كل حال، موقف عبدالقاهر، كما يعبر عنه في استمرار البلاغة، واضح وصريح:

«إن الشبه إذا كان وصفاً معروفاً في الشيء قد جرى العرف بأن يشبه من أجله به، وتعرف كونه أصلاً فيه يقاس عليه، كالنور والحسن في الشمس... والطبيب في المسك والحلاوة في العسل... وما شاكل ذلك في الأوصاف التي لكل وصف منها جنس هو أصل فيه، ومقدم في معانيه - فاستعارة الاسم للشيء على معنى ذلك الشبه تجيء سهلة متباددة، وتقع مأثومة معتادة، وذلك أن هذه الأسماء قد تعرف كونها أصولاً فيها»^(١١١).

ويتبنى حازم الموقف نفسه تقريباً حينما يتحدث عن المحاكاة الشعرية وضرورة أن تؤخذ من الشيء «أوصافه المتناهية في الشهرة والحسن إن قصد التحسين، وفي الشهرة والقبح إن قصد التقييح. ويبدأ في الحسن بما أن ظهور الحسن فيه أوضح وما النفس بتقدمه أغنى، ويبدأ في الذم بما ظهور القبح فيه أوضح والنفس بالانتفات إليه أغنى»^(١١٢). صحيح أن حازماً يتحدث هنا عن المحاكى أو المشبه وليس المشبه به، لكن ليس من الصعب سحب ما يقوله هنا على التشبيه ونقل صفة الحسن أو القبح من المشبه به إلى المشبه.

تلك هي الضوابط الثلاثة الأساسية التي أكدها البلاغيون العرب، خاصة عبد القاهر الجرجاني، لاستخدام المجاز بصورة تحقق أكبر قدر من الحرية في الإيحاء بتعدد الدلالة والمعنى، وهي ضوابط تضمن عدم انزلاق الشعر المبدع إلى هوة الغموض وفوضى الدلالة. وإذا كنا نقوم طوال الوقت، في تبييننا للمعناور الأساسية للنظرية الأدبية العربية، بنقل أبرز مقولات علمي البيان والمعاني العربيين إلى قلب القرن العشرين، لا لتأكيد سبق البلاغة العربية، بل لتأكيد وجود نظرية عربية، لغوية وأدبية، كان من الممكن تطويرها لتصل بنا إلى نفس ما نقلناه عن الغرب، أو حتى تتجاوزه، إذا كنا نضع ذلك طوال الوقت، فإن ضوابط استخدام المجاز التي توقفنا عندها تخرج علم البيان العربي، والنظرية الأدبية: من دائرة التفكير، خاصة فيما يتعلق بفوضى الدلالة، القراءة التفكيرية للنص الأدبي، مثلاً، تقوم على البحث عن البيئة الفلانة ثم خلطتها بئهاار البناء من أساسه حتى يعيد تركيبه ناقد آخر. وفي أثناء ذلك لا يوجد مركز إحالة أو سلطة مرجعية مؤثقة خارج النص، ولا يوجد مركز ثابت داخل النص نفسه، إذ إن كل إعادة قراءة - كل إعادة كتابة للنص يقوم بها القارئ في الواقع - تحقق تحويل المركزي إلى

النظرية الأدبية العربية

هامشي تنفيه إلى محيط الدائرة، وكل قراءة - كل إساءة قراءة - جديدة للنص تنفي المركز الجديد إلى محيط الدائرة وتستدعي نقطة من المحيط إلى المركز^(١١٢). وعلى الرغم من أننا لم نتردد في مواقع كثيرة في الفصل الحالي من التوقف عند الكثير في البلاغة العربية الذي يمكن أن يوضع في قلب إستراتيجية التفكير، إلا أن فوضى الدلالة لم تكن أبدا حلما من أحلام البلاغة العربية، وحينما يؤكد البلاغيون العرب رفضهم للتعقيد والغموض، بل وأهمية الصفة الغالبة، فإنهم بذلك يتعدون بصورة صحيحة ومعمودة عن فوضى الدلالة التي تتولد عن غياب المركز. الصفة الغالبة في المجاز، مثلا، مركز إحالة وتديل يحمي من عبث التفكير.

وحيث إن موقفنا المبدئي يقوم على أن ما جاءت به الحداثة الغربية وما بعد الحداثة ليس خيرا كله، كما أنه، بالقطع، ليس شرا كله، دعونا نتوقف، تأكيدا لمقولتنا أنه ليس كل ما جاءت به الحداثة الغربية شرا كله، من ناحية، وأن البلاغة العربية قادرة على ميافتتنا بالكثير، من ناحية ثانية، دعونا نتوقف عند إحالة أخيرة في سياقتنا الحالي، إلى عيد القاهر الجرجاني، وهي إحالة لا نملك إلا أن نتوقف عندها في إطالة لا بد منها. إن الجرجاني في السياق الذي نحيل إليه يقوم بتحليل أبيات ثلاثة يشبه فيها رجلا مصلوبا إلى جذع شجرة بإنسان «يتمطى» رغبة في النعاس. وذلك في باب «الجمع بين الشكل وهيئة الحركة في التشبيه»:

لم أر صفا مثل صف الزمط. تسعين منهم صلبوا في خط
من كل عال جذعه بالشمط. كأنه في جذعه المشتط
أخو نعاس جد في التمطي. قد خامر النوم ولم يفتح

ويعلق عبد القاهر على مشهد المصلوبين التسعين الهنود من طائفة الزمط على النحو التالي:

«وإذا كان ذلك كذلك كان المستفاد من هذه العبارة (الآبيات) صورة التمطي وهيئته الخاصة وزيادة معنى وهو بلوغ الصفة غايته ما يمكن أن يكون عليها. وهذا كله مستفاد من الأولى ثم فيه زيادة أخرى ما يتصدد من صفة المصلوب وهي الاستمرار على الهيئة والاستدامة لها فأما قوله بعد: «قد خامر النوم ولم يفتح» فهو وإن كانه يحاول أن يرينا هذه الزيادة من حيث يقال إنه إذا أخذ

النفس تتمطلي ثم خامر النوم فإن الهيئة الخاصة له من جده في التمثلي تبقى له فليس يبالغ قوله: «مواصل لتمطيه»^(١١٣).
 إن مناقشة عبدالقاهر لوظيفة هيئة الحركة في «جد في التمثلي» باعتبارها «زيادة» معنى وبلوغ الصفة غاية ما يمكن أن يكون عليها «تدخلنا في معنى الزيادة supplement كما يفسرها دريدا باعتبارها إكمالاً للمعنى. فصورة التمثلي وحدها توحى بالحركة المؤقتة التي يقوم بها من يداعب النوم عينيه أو يخامره النوم، لكن هيئة الحركة تلك، ومن حيث إنها مؤقتة، سوف تتغير بعد لحظة أو لحظات، فالإنسان الذي يتمطلي سوف يغير من هيئة حركته إما بحركة أخرى وإما إلى حركة أخرى تملئها اليقظة التامة أو النوم. لكن هيئة الحركة في «جد في التمثلي» تكمل المعنى السابق وتزيد عليه ليصبح تجسد الحركة، فالمتأثر الذي نتحدث عنه مصلوب ميت، ولن يغير من حركته، والشئ نفسه في الصورة الثانية: «خامر النوم ولم يغط» فهو في حالة نوم دائم، في حالة سكوت هي الموت، وقد اكتمل المعنى بالزيادة التي حققها «لم يغط»، إذ لم يتردد نفسه صاعداً إلى خلقه بصورة مسموعة. وكان التعبير دائماً في حالة نقصان تكتمل بالصورة الشعرية. ولتأكيد الزيادة بهذا المعنى الدريدي يقارن عبدالقاهر هيئة الحركة في الأبيات الثلاثة السابقة بهيئة حركة مماثلة يجسدها ابن الرومي في بيته:

كأن له في الجو حبلاً بيوعه إذا ما انقضى حبلى أتبح له حبل
 يعانق أنفاس الرياح مودعا وداع رحيل لا يحس له رجل
 ويعلق عبدالقاهر على صورة الرجل مرفوعة يده إلى أعلى في حالة دائمة كأنسان يرتفع أمامه حبل إلى السماء يقوم بيوعه أي يقيسه بالباع، والحبل لا ينتهي ومن ثم فهو لا يغير وضع أو هيئة حركة ذراعه ميّناً ما تحقّقه الزيادة من إكمال للمعنى:

«فاستراطة أن يكون له بعد التحيل الذي ينتهي ذرعه [قياسه بالذراع] حبل آخر يخرج من يوع الأول إليه كقبوله» «مواصل لتمطيه من الكسل» استيقاء الشبه والتبني على استدامته لأنه إذا كان لا يزال ييوع حبلاً لم يقبض بأعه ولم يرسل يده. وفي ذلك بقاء شبه المصلوب على الاتصال فأعره»^(١١٤).

النظرية الأدبية العربية

فالقول بأن التشبيه الأول «جد في التمثلي» أكمل المعنى الأصلي وزاده - «مواصل لتمطيه من الكسل» - وأن التشبيه الثاني، «إذا ما انقضى حبل أنتج له حبل» أكمل المعنى الأصلي وهو «مواصل لد ذراعته» ليس يعيدا عن مفهوم «دريدا» عن وظيفة الإكمال التي تقوم بها كل مرحلة من مراحل اللغة.

هل حملنا عبد القاهر أكثر مما يحتمل؟ ربما. لكن من الواضح أن قراءة تراثنا البلاغي والنقدي يضعنا في مواجهة كنوز دفيئة تتطلب عمليات تنقيب مستمر لتكشف عن نفسها. وقد فعل الولي محمد في دراسته للصورة الشعرية الشيء نفسه حينما تعامل مع بعض أبيات تراثية بأسلوب أو منهج لا يمكن أن يختلف في شيء منه عن أسلوب أو منهج عبد القاهر الجرجاني في تعامله مع الأبيات التي أشرنا إليها. وإذا كان تحليل الولي يوحى، بحكم قراءاته المتوسعة في الثقافة الفرنسية، بتأثره بفهم دريدا أكثر من عبد القاهر، فإن هذا لا يبطل النتيجة النهائية أو ينفىها، وهي أن تعامل عبد القاهر نفسه مع الأبيات لا يختلف كثيرا عن تعامل دريدا مع الأبيات نفسها لو أتيج له التعامل معها، وذلك في ضوء قراءاته بالزيادة للمراحل المختلفة لعلاقة جان جاك روسو بحيويته في الاعترافات والتي سبق أن توقفنا عندها طويلا. يرى الولي محمد أن الصورة الشعرية تختلف اختلافا جوهريا عن الصورة الفوتوغرافية أو الوصف اللغوي المباشر. والوصف اللغوي الذي يعنيه الولي هنا هو ما يقصده الجرجاني بـ «مواصل لتمطيه من الكسل»، أما الصورة الشعرية فهي «جد في التمثلي» التي تضيف للوصف اللغوي الثوري وتزيد عليه وتكمله. هكذا كتب الولي محمد:

«لا أن هذا الشيء، المصور» يخضع لتحويل بواسطة اللغة، ينتج عنه

صورة شعرية، فعندما يقول أبو الطيب المتنبّي:

بناها فأعلى والقنا بقرع القنا وموج أنفنا حولها متلاطم

تجدّه يصف واقعة معينة هي تحقّق الموت ومثوله بأفادار معينة

حول التلعة، ولكن المتنبّي وهو يصف هذه الواقعة أخضعها لتحويل

أنتج صورة بمعنى شيء مرثي هو، الموج... متلاطم». هذه الصورة أي

الموج للمتلاطم لم تصبح شعرية إلا بسبب التحول الذي تمثله.

ولأنهما من زاوية أخرى تكون زائدة وفضلة مقابل المعنى الذي يراد

توسيله، إن المعنى المقصود هو أن القطعة كانت ميدانا لكثير من الضحايا، أما الموج المتلاطم فشيء زائد، وبهذا استحق اسم «صورة شعرية»^(١١٥) [التأكيد من عندي].

هل هناك شك في أن الزيادة التي يتحدث عنها الولي محمد في السياق السابق هي زيادة دريدا؟ وإن كان استخدم الولي لإحدى ترجمات نداء supplement إلى العربية وهي «الفضلة» يؤدي إلى بعض الارتباك في المعنى. صحيح أن «فضلة» ترجمة واردة معجما للفظلة الفرنسية، مع ترجمات أخرى مثل «مكمل» و «زيادة» والإكمال هنا، عن طريق الزيادة على الشيء، هو المعنى الذي قصد دريدا، أي أن المعنى في الصورة الشعرية وليس المعنى قبل الصورة الشعرية وخارجها، يكتمل بالصورة. أما استخدام مصطلح «فضلة» فوجه الارتباك الذي يحدثه أن الفضلة شيء يمكن الاستغناء عنه وهذا ممكن أيضا إذا كنا سنتقني بالمعنى الأول خارج الصورة الشعرية، أما داخل تلك الصورة فلا يمكن اعتبار المجاز اللغوي هنا شيئا يمكن الاستغناء عنه، والواقع أن الولي يوضح معناه في تركيز أفضل عندما يتوقف مع صورة أخرى مأخوذة من قصيدة شعرية مشهورة للمتنبى:

«ومن هذا قول المتنبى أيضا:

وأموأه يصل بها حصاما
صليل الحلي في أيدي الفواني

إن «صليل الحلي في أيدي الفواني» وصف زائد على «جسد»

المحتوى المراد توصيله، ذلك لأن ما يراد توصيله هو صوت الحصص

المتربب على حركة المياه وليس «صليل الحلي» وبهذا كان الشطر

الثاني صورة شعرية لأنها فضلة»^(١١٦).

مشكلة استخدام «فضلة» هنا أيضا في سياق تحليل بيت المتنبى ترجع إلى ارتباط معناها بزاوية النظر إليها. فإذا كنا نتحدث عن المعنى الأول أي «جسد المحتوى المراد توصيله» فإن «صليل الحلي في أيدي الفواني» تصبح فضلة، بمعنى أنها شيء زائد يمكن الاستغناء عنه، لكننا لا نكون بذلك نتحدث عن بيت الشعر كشعر، بل كمادة أو كعمان أول. وهنا تتأكد أهمية زاوية النظر الثانية والتي تنظر إلى التشبيه نفسه داخل البناء الشعري. وبهذا لا يصبح التشبيه هنا زيادة بمعنى الفضلة التي يمكن الاستغناء عنها. وقد سبق أن أكدنا أن المعاني الثواني هي ما يقصد به داخل الشعر وليست المعاني الأولى.

النظرية الأدبية العربية

وبصرف النظر عن ذلك الجدل حول وظيفة الزيادة بالمعنى الذي قصده دريدا، فإن ما يهمنا هنا أن تحليل الولي محمد لا يختلف في جوهره عن تحليل عبدالقاهر الجرجاني للأبيات، بل إنه يكاد يستخدم مصطلحات الناقد العربي القديم نفسها في حديثه عن وظيفة الزيادة المجازية في الشعر، ومرة أخرى لابد أن نفكر في كثير من الأناة قبل أن نقول إن قراءتنا لتحليل الجرجاني للأبيات حملت ذلك التحليل أكثر مما يحتمل.

جسد الركن الثالث: الصدق والكذب

ناقشنا في الركنين السابقين من أركان النظرية الأدبية قضايا المحاكاة والإبداع واللغة كأداة للإبداع ودور المجاز في تحقيق ذلك، ويرتبط بقضية العلاقة بين المادة المحاكاة أو المعنى والصورة أو اللغة قضية أخرى انشغلت بها البلاغة العربية، وكان لابد لها أن تشغل بها منذ البداية، وهي قضية الصدق والكذب. وإذا كانت المدارس النقدية العربية منذ السنوات المبكرة من القرن العشرين على الأقل، قد نعت قضية الصدق والكذب جانباً وتخطتها أو ارتفعت فوقها بدرجات متفاوتة، فقد اكتسبت تلك القضية أهمية خاصة في الثقافة العربية وفرضت نفسها فرضاً على حركة النقد العربي في ربع القرن الأخير من القرن العشرين. وقد كان ذلك الواقع الخاص بالثقافة العربية مسؤولاً، في جانب كبير منه، عن «ثقافة الشرح» أو الصدع أو الفصام الثقافي الذي افتتحتنا به الدراسة الحالية. وقد اتسم الجدل الدائر حول تلك القضية بالسخونة والحدة إلى الحد الذي أصبح الحديث والخوض في مزالقه مناصرة كبرى بل فدائية. إذ إنك، في ظل ثقافة الشرح تلك، إذا تبنت موقفاً يميل إلى المحافظة ويقوم على إدراكه لخصوصية الثقافة العربية والمشهد الثقافي فسوف يتهكم أصحاب الشطر الثاني أو المعكسر الآخر، بالرجعية والأصولية. وإذا أظهرت ميلاً إلى اتخاذ موقف يحذر الإبداع من هيود الحكم بالصدق أو الكذب اتهمك أصحاب الشطر الثاني أو المعكسر الآخر بتهم أقلها الردة والفرجة. هل هناك موقف وسعة وإذا لم يكن لهذا الموقف الوسط وجود في البلاغة العربية، هل نستطيع أن نظور نحن موقفاً وسطاً يتفق مع خصوصية الثقافة العربية من ناحية، وكونها مكوناً من مكونات الثقافة العالمية القادمة بل القائمة بالفعل، من ناحية أخرى.

دون أن يقدفنا أصحاب أحد المعسكرين أو كليهما بالحجارة؟ وتلك، بالطبع، ليست حيرة مؤلف المرايا المقعرة وحدها ثم، وهو الأهم، ما موقف البلاغة العربية القديمة من قضية الصدق والكذب؟ وهل عانى البلاغيون العرب أيضاً، وقد تَمَرَّقُوا إلى حد ما بين السلفية والمحافظة وبين المؤثرات الأجنبية الوافدة، شرخاً ثقافياً مماثلاً للشرخ الذي نعيشه نحن منذ بداية القرن العشرين على الأقل؟ وإذا كان هناك وجود لمثل ذلك الشرخ، مهما كان ضئيلاً، فهل تطور العرب موقفاً وسطاً جعلهم يتعايشون مع قول امرئ القيس:

فمئلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيته عن ذي تئامم محول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول

وإذا كانوا قد طوروا مثل هذا الموقف الوسط، فهل نستطيع نحن، أبناء القرنين العشرين والحادي والعشرين، أن نُؤسس عليه ونطور موقفاً وسطاً صعباً ترأب به الصدع والشرخ دون أن نتعرض للقدف بالحجارة من أي من أصحاب المعسكرين؟

إن الإجابة عن كل الأسئلة السابقة، فرادى ومجموعة، واجب لا مهرب منه، لكن طموحنا الأول الذي يجب أن نذكر القارئ به أننا لا نهدف إلى إثبات صحة هذا الموقف أو ذلك، أو حتى خطأ أي منهما، لكننا نهدف بالدرجة الأولى والأخيرة إلى إثبات وجود موقف بلاغي عربي متعدد من قضية الصدق والكذب، قد يتفق البعض مع هذا الموقف وقد يختلف معه البعض الآخر، وهذه قضية لا تهمنا في كثير، المهم أن العقل العربي طور موقفاً تقدياً يمثل خيطاً واضحاً في ضئيرة النظرية الأدبية العربية.

وسوف نثبت في الواقع، ودون أن يكون في قولنا مصادرة مبكرة على المطلوب، كما يقول المناطقة، أن العقل العربي طور موقفاً واضحاً من قضية الصدق والكذب كان فيه من أوجه الاتفاق أكثر مما فيه من أوجه الاختلاف، وأنه في ظل تعددية واضحة استطاع تطوير موقف وسط لم يسمح للإزمواجية الطبيعية أن تتحول إلى شرخ مدمر أو محيط.

ولكن، عن أي صدق وأي كذب نتحدث؟ هل نعني بالصدق مجرد الإفادة بأمر تثبت الشواهد الحسية والأدلة العقلية صحته؟ وهل نعني بالكذب، بالطريقة نفسها، الإفادة بأمر تثبت الشواهد الحسية والأدلة العقلية عدم صحته؟ لو كان هذا ما تعنيه قضية الصدق والكذب لما تجشمتنا، ولما تجشمت

النشئة الأدبية العربية

أحد، مشقة التوقف عندها، إن قضية الصدق والكذب، كما سنتوقف عندها، وبالفعل كما نتوقف عندها البلاغيون العرب، أكبر وأخطر من ذلك بكثير، إنها مظلة عريضة واسعة تدرج تحتها كل القضايا الخاصة بعلاقة الأدب بالواقع الخارجي. بل وبصورة أكثر تحديداً، بالغايات العملية والأخلاقية العربية على طبيعة الإبداع. من هنا، في مناقشة الصدق والكذب، سنتوقف طويلاً عند علاقة الأدب بالغايات العملية ووظيفته الأخلاقية والدينية والاجتماعية والسياسية. وحتى لا نكون كمن يضع العربة أمام الحصان، لأنه قد يفهم أننا نسلم بداية بوجود هذه الوظيفة/الوظائف، فإن ما سنحاول الإجابة عنه هو: هل للأدب مثل هذه الوظيفة/الوظائف؟

الواقع التاريخي لتطور علوم البلاغة والبيان والمعاني العربية يقول إن البلاغي العربي كان يتحرك، وينتج، على محورين: محور الدين الذي بدأت البلاغة موظفة في خدمته وتبيان إعجاز كتابه السماوي، ومحور التأثير الأجنبي الذي جد فيما بعد، وخاصة نظرية المحاكاة ومبادئ المنطق كما قدمها أرسطو. والواقع التاريخي، أيضاً، يؤكد أن البلاغي العربي شق طريقه بين المحورين في براعة واضحة مكنته من تحاشي الصدام المحتمل في أكثر من موقع، وطور موقفاً وسطاً ناضجاً.

ومرة أخرى نبدأ بفتح شهية. يتوقف العقاد أمام مرثية أحمد شوقي لمصطفى كامل وقد أمسك بمعيار الحقيقة، الحقيقة الجغرافية والتاريخية، يقيس به قيمة القصيدة المراثية. يتوقف مثلاً عند:

لما نعتت إني الحجاز مشى الأسى في الزائرين وروع الحرمان
السكة الكبرى خيال ربابهما منكوسة الأعلام والقضبان

وبصرف النظر عن وابل القذف والسباب الذي يعطر به شوقي وشاعريته، إلا أنه لا يتورع في تحليله للقصيدة - إذاً جاز لنا أن نسمي ما يفعله تحليلاً - عن استخدام معيار الصدق الجغرافي، أو الحقيقة الجغرافية - فالحديث عن خطوط السكك الحديدية، على قدر علمنا، ينتمي إلى علم الجغرافيا - ليصل في النهاية إلى الحكم على شوقي وقصيدته بالكذب:

«ولقد أتم فيها امتساخ المطابع بمخاتفة الواقع فجاءت معرضاً مختاراً
من الأغلاط، وسملاً مرفقاً من التشوُّر والاختباء. وما كان يسعه أن
يخرج نفسه خلتاً آخر هيأتني بالمستوى من الشعور وهو غير مستوى،

ويستقيم في أغراضه ومعانيه وهو ملتو، ولكن كان يسهه أن يعلم أن السكة الحجازية لم تصل إلى مكة فلا يقول [ثم يورد البيهقي]، والحرمان في الحجاز هما الحرم المدني والحرم المكي وكل قارئ للصحف ولا سيما لندن وفاة مصطفي كامل يعلم أن ليس حبال ربي مكة سكة كبرى ولا صغرى، وكذلك هي حتى الساعة»^(١١٧).

ماذا فعل العقاد حقيقة من منظور نقدي؟ ما فعله، باختصار شديد، أنه تعامل مع «رثاء مصطفي كامل» لأحمد شوقي، لا باعتبارها قصيدة شعرية تقوم على الإبداع والتخيل والتخييل في تعاملها مع الواقع، ولكن باعتبارها كتاباً في جغرافية الجزيرة العربية، وحينما توقف عند القصيدة باعتبارها درساً في الجغرافيا سرعان ما اكتشف خطأ جغرافياً فاحشاً، وهو أن السكة الحجازية أو خط السكة الحديدية لم يصل بعد إلى مكة أو رباها، ومن ثم أصدر حكمه على الشاعر بأنه كاذب وبأن القصيدة ذاتها «جاءت معرضاً مختاراً من الأغلام»، الجغرافية، بالطبع.

وكان الكذب الجغرافي لم يكن كافياً لاتهام شوقي بالكذب وشعره بالتلفيق. فالشاعر، في رأي الناقد، يجهل أيضاً أمور التاريخ ويكذب في نقله لها، وهكذا يمضي؛

«وكان في مقدوره أن يعلم أن الحسين لم يشيع في موكب حاشد كما شيع مصطفي كامل فلا يقول في وصف نعشه.

وكانه نعش الحسين يكربلًا يختال بين يكي وبين حنان

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة، ومن العامة من يستظهر

خبره ويعلم كيف أنه قاتل حتى أضغ بالجرح وأنه لا خيا الله

قاتليه - مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأكثر من أربعين ضربة ثم

دس بالخيول ورض جسده واحتز رأسه وطلوه ابن زياد الكوفة ثم

أرسله إلى يزيد... وإني لمن يموت هذه الميته أن تحتشد له الجنائز

ويطاف بنعشه في المراكب»^(١١٨).

ما فعله العقاد أنه تعامل أولاً مع المراثية لا باعتبارها شعراً، بل باعتبارها كتاباً في الجغرافيا والتاريخ، ثم قام بإرجاع الواقع الشعري داخل القصيدة إلى الواقع الخارجي، الجغرافي والتاريخي، في تجاهل مؤسراً لأبسط قوانين الإبداع، وهي أن التجربة الشعرية شيء، والتجربة الواقعية،

النقد الأدبي العربي

خارج القصيدة، شيء آخر. ونحن لا نتحدث من منظور النقد الأدبي الحديث فقط، بل من منظور البلاغة العربية القديمة، التي أثبتنا، في سياق حديثنا عن الإبداع منذ صفحات قليلة مضت، أنها توصلت إلى اقتناع كامل ببدء الفصل بين التجربة الواقعية والتجربة الفنية أو الأدبية. ولا يكفي أن نرجع ذلك الجهل بأبسط مبادئ النقد الحديث والتقديم، إلى التحامل الواضح الذي انطلق منه العقاد في تقييمه لإنتاج شوقي ومعاذيره، الشعري والنثري منه على السواء.

وما دمنا نتحدث عن العقاد فدعونا نخرج على موقف لا يخلو من المرافقة وهو نقد توفيق الحكيم، الذي كان قد قضى سنوات في فرنسا تعرف فيها ولا بد على الفهارس النقدية والأدبية الأوروبية، لرواية العقاد، سارة. الطريف هنا أن توفيق الحكيم يقوم، في سخرية لا تخفى على أحد، باتهام العقاد بالقصور كبسبب صفة الكامل، فهو يرى أن العقاد في روايته « يضع تحت أنظارنا صورة امرأة لا شك عندها في أنها حقيقية، وأنه قد التقى بها وجها لوجه، وأنه انتفع بها كثيرا في دراسته لخلق المرأة وطباعها، وأنها قد أثرت في مجرى حياته بعض التأثير، وعملت وأضافت إلى علمه بالحياة الشيء الكثير، ووجه يقيني بكل هذا أن العقاد كاتب صادق قليل الالتجاء إلى الخيال والاختراع» [التأكيد من عندي]^(١١٤). وما فعله الحكيم هنا في دهاء شديد أنه استخدم السلاح نفسه الذي شهره العقاد في وجه الجميع، واتهمه بالصدق، ومن ثم حرمة كلية من الموهبة والقدرة الإبداعية.

لنعد إلى البلاغة العربية القديمة وموقفها من قضية الصدق والكذب بمعناها الواسع. وإن كان من الضروري التنويه هنا إلى أن البلاغة العربية توقفت عند الجانب الأخلاقي والديني من قضية الصدق والكذب. أما توسيع مظلة الصدق والكذب فمسؤوليتنا ومسؤولية النقد الحديث كله. ونحن حينما نفعل ذلك تأسيما على موقف البلاغي العربي من قضايا الصدق والكذب في أمور الدين والأخلاق، فإننا نسحب النتائج التي توصلت إليها البلاغة العربية على غايات أخرى ربما لا يكون لها الأهمية نفسها التي أولاهها البلاغي القديم لا اعتبارات الصدق والكذب في أمور الدين والأخلاق. من هنا، وبصورة منطقية صرفة، فإننا نسحب موقف البلاغيين العرب من قضايا مهمة على أقل قضايا أهمية.

كان من الطبيعي والمنطقي أن يربط الشعر في صدر الإسلام بعجلة الصدق الديني والأخلاقي وأن تعتمد الأحكام النقدية على الشعر على درجة الصدق والكذب، وهو ما يؤكدّه أحمد طاهر:

«هذا على حين أننا خلال الحقبة المبكرة نطهّر الإسلام، وحتى أواخر القرن الثاني الهجري تقريباً، نجد مبادئ نقدية تواهت لها صفة التوثيق.... ولكنها في عمومها تتركز حول بعض المبادئ الإسلامية: العقيدة الإسلامية: وأهم ما تعتمد عليه هو الصدق: صدق المسلم في عيشته، وصدقه مع إخوانه، ونبل العاطفة وتساميها بما يرفعها إلى الإطوار الذي رسمه الإسلام لتحرك المسلم، والعفة أو الخلق أو التقوى بصفة عامة»^(١٢٠).

ويمضي أحمد طاهر ليضع النقاط فوق الحروف في تأكيد الربط المبدئي بين الشعر والقيم الأخلاقية والدينية، وهو صدق تراجع أمامه الصدق الفني وتحول بالطبع إلى محك للأحكام النقدية. وقد تأسس ذلك الموقف الأخلاقي، في رأي طاهر، على الحديث النبوي الشريف: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان». بل إن أحمد طاهر يذهب في قراءته للبلافة العربية القديمة إلى القول بأن الانقسام المبكر الذي صاحب ظهور الدعوة الإسلامية وانقسام الناس إلى فريقين: فريق مع الرسول صلى الله عليه وسلم وفريق ضده وما ارتبط بذلك الانقسام من مضاربات أدى إلى ظهور البذرة النقدية المبكرة، وهي الموازنات معتمدة في موازنات الأُمّدي في القرن الرابع الهجري، بل إن فكرة الموازنات النقدية ترجع في جوهرها، كما يقول طاهر، إلى فكرة التقابل التي تجد نماذجها في القرآن الكريم أو في الحديث النبوي: «ففي القرآن الكريم كثير من النماذج التي تقارن حال فئة ما بحال فئة أخرى. وخذ على سبيل المثال قوله تعالى: فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى، فسنيسره لليسرى»^(١٢١).

في ظل هذا الموقف المبدئي القائم على توظيف الشعر في خدمة القيم الدينية والأخلاق وتقويمه، ومن ثمّ، في ضوء صلب الشاعر أو كذبه، ظل الشعر يحتل موقعا متدنيا لردج غير قصير من صدر الإسلام. وقد وصل الأمر، وإن كان ذلك في حالات محدودة، إلى تكفير الشاعر الذي يخرج على

القيم الدينية، كما حدث مع الشاعر قيس بن ذريح الذي كُفّرهُ الخليفة عبد الملك بن مروان. وقد اتخذ الفقهاء موقفاً لا يقل تحفظاً من الشعراء استناداً إلى ما يلحقونه بالآخرين من إساءة، وقد أورد جابر عصفور في أحد مؤامش مفهوم الشعر موقف الإمام الشافعي والإمام مالك من الشاعر ومضى تردّ شهادته ومضى لا تردّ. وهو هاشم تحمّن الإشارة إليه في تمامه:

«تردّ شهادة الشاعر عند الشافعي في حالة «من أكثر الوقية بين الناس على الغضب أو الحرمان حتى يكون ذلك ظاهراً كثيراً مستعلناً، وإذا رضي مدح الناس بما ليس فيهم حتى يكون ذلك كثيراً مستعلناً كذباً محضاً... ومن شيب بامرأة بعينها ليست مما يحل له وطؤها حين شيب فأكثر فيها وشهرها وشهر مثلها بما يشيب - وإن لم يكن زنى - ردت شهادته» (الأم ٦/ ٢١٢ طبعة دار الشعب).

وعند مالك تردّ الشهادة إن كان الشاعر «ممن يؤذي الناس بهجوهم إذا لم يعطوه ويمدحهم إذا عملوه». أما إذا كان الشاعر «ممن لا يهجو الناس وممن إذا أعطي شيئاً أخذه وليس يؤذي بلسانه أحداً، وإن لم يعط لم يهجوهم، فأرى أن تقبل شهادته إذا كان عدلاً (المدونة الكبرى ١١/ ٦٢ - ١٢/ ٢ - ١٣/ ٢)» (١٢٢).

إن فتوى الشافعي ومالك برّد فتوى الشاعر وعدم الاعتداد بها فتوى مشروطة وليست مطلقة، فهي ترتبط بأغراض الشعر التي تلحق الأذى، علنا وبصورة متكررة، بالآخرين؛ سواء كان شخصا يهجو الشاعر أو امرأة يشيب بها. وما يلتفت النظر أن القيود التي يفرضها الفقيهان هنا على الشعر لم تتعرض بصورة مباشرة أو صريحة لأمر الدين، معنى ذلك أن العقاب الذي يفرضه الشافعي ومالك نوع من النبذ الاجتماعي لا يصل إلى درجة التكفير. والموقف الفقهي من الشعر والشعراء في صدر الإسلام كان أقل صرامة وتشجبا بشكل واضح من موقف المتطهرين Puritans الأوروبيين منذ منتصف القرن الخامس عشر الذي قام على رفض جميع أنواع الإبداع باعتبارها محقة للذة، مما لا يتفق مع طبيعة العذاب المفروضة على كل أبناء آدم باعتبارهم حمالين للخطيئة الأولى، خطيئة العصيان. ولم يستثن من ذلك الحظر إلا الكتابات الدينية والشعر الديني، ليس هذا من باب التخفيف من قسامة الصورة الأولى للمشهد الإبداعي والتقدي، لأنها لم تكن أصلا بما تتصوره من قسامة.

على كل حال، لم يستمر المشهد بتلك الجهامة، فمع بداية القرن الرابع الهجري على الأقل، أو مع بداية العصر الذهبي للبلاغة العربية، بدأت تتسرب إلى المشهد أفكار جديدة فرضها الاحتكاك بالثقافة اليونانية. وقد كان التحول لمصلحة الشعر والشعراء، وامتد بداية العصر الذهبي جذريا على الرغم مما صاحبه من حذر متوقع، ربما يكون ذلك في جانب منه نتيجة للتأثر المباشر بأفكار أرسطو حول طبيعة المحاكاة ووظيفة الشعر، وهي أفكار أخرجت الشعر مبكرا من دائرة التصديق والتكذيب اللذين يجب أن يخضع لهما على وجه التحديد المؤرخ الذي يرى أرسطو أنه يحاكم ما كان أو ما هو كائن، ومن ثم فإن مصداقية المحاكاة التاريخية تقوم على الإحالة المستمرة إلى الواقع الخارجي (التاريخي) وممارسة محك الصدق والكذب. وربما يكون التحول، في جانب آخر منه، نتيجة إلى وصول الإبداع الشعري إلى ذروة ازدهاره وفرض نفسه كواقع قائم تمرديا لفاعل على معايير الصدق والكذب الضيقة والمقيدة. وقد يكون بالطبع نتيجة للاثنين معا. لكن الثابت أن القرن الرابع الهجري لم يشهد فقط تمردا على معيار الصدق والكذب والربط بين الشعر والاعتبارات الدينية والأخلاقية، بل دفاعا قويا عن الشعر ضد اتهامات أفلاطون ذاته، وهو دفاع يصل إلى ذروته عند الفارابي عندما يقدم دفاعا توفيقيا ضد اتهام أفلاطون للشعر بالكذب على أساس ابتعاده عن الحقيقة بمرتبين، وإن كان الفارابي في رفضه للهجوم الأفلاطوني قد تسلى بالكثير من آراء أرسطو الذي يرى نيتون «أن شبحه الطويل يحلق فوق الكثير من إنجازات الفارابي، وفوق نظريته في المعرفة بأكملها»^(١٣٣).

دعونا نتبع، في إيجاز أحيانا وإطالة أخرى، خطوات ذلك التحول قبل أن نصل إلى ذروته عند حازم القرطاجني الذي يمكن القول بأن آراءه حول قضية الصدق والكذب تقدم مذهبيا جماليا غريبا مبكرا لا يقل عن أفضل ما قدمته جماليات نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين المبالدين. وفي هذه الأثناء سوف نحاول أن نضع أيدينا على مكونات ذلك المذهب النقدي الجمالي ومحور وسميته بين القيم الدينية والأخلاقية وبين الحرية الجمالية المطلقة. أي كيف طور العقل البلاغي العربي، باختصار، موقفا نقديا لا يتخذ موقف الرفض من القيم الدينية والأخلاقية ويحرر الإبداع من قيود الحكم القيمي على أساس تلك القيم في الوقت نفسه.

النظرية الأدبية العربية

كان قدامة بن جعفر أول بلاغي عربي حاول أن يقنن نقد الشعر بكتابه المنهم، نقد الشعر. وفي محاولة التقنين المبكر تلك انتهى إلى رفض استعارة أحكام غريبة على طبيعة الشعر لتطبيقها عليه، ومن ثم رفض تطبيق الأحكام الأخلاقية بالصدق والكذب على الإبداع. ويلخص جابر عصفور في مفهوم الشعر موقف قدامة من الربط بين الشعر والأخلاق بصورة جيدة:

«ولكنه - استجابة للمنهج الذي حدده - يؤكد أن أي حكم أخلاقي (خارجي) على الموضوعات التي يعالجها الشعر لا قيمة له بالنسبة إلى نقد الشعر، لسبب بسيط مؤداه أن ذلك الحكم الأخلاقي تابع من معايير علم متميز عن نقد الشعر، وهو علم الأخلاق الذي كان يعرفه ويفيد منه، إن أي موضوع من الموضوعات، أو معنى من المعاني، ما دام قد صيغ صياغة شعرية، يتجاوز أي معيار خارجي يرتبط بعلم الأخلاق أو غيره، ويدخل مجالاً خاصاً متميزاً، ويندرج في مجموعة من العلاقات مع مجموعة من العناصر... ومعنى ذلك أن علينا أن نحكم على المعنى، أو نميز جوده من رديته، لا باعتباره معنى أخلاقياً وإنما باعتباره معنى شعرياً في المحل الأول»^(١٢٤).

إن أهمية ما نتحدث عنه هنا لا تتمثل في الفصل الذي يؤكد قدامة بن جعفر بين الأخلاق والشعر فقط، بل في تأكيد مبدأ جوهري في نظرية الجمال الحديثة كما قدمها الفيلسوف والمفكر الإيطالي بتديتو كروتشه، وهو العلاقة بين الكل الأدبي وأجزائه. المبدأ الجمالي الحديث يقوم على أساس أن قيمة الكل هي التي تحدد قيمة الجزء أو الأجزاء^(١٢٥). فكلية «طين» على سبيل المثال، حينما يتصوت بها أو تنطق في سياق غير شعري أو مفردة قد تثير في المتلقي إحساساً بالقبح. لكنها داخل بيت شعر إيليا أبي ماضي: «نسي الطين ساعة أنه طين حقير فصال تبها وعريد» لا يمكن أن تثير في المتلقي الإحساس بالقبح نفسه الذي أثارته في المتلقي خارج «الكل» والسبب، في تبسيط شديد لذلك المبدأ الجمالي، يقوم على أن الكلمة خارج «الكل» أو النسق الشعري، قد تثير فينا إحساساً بالقبح أو الجمال. لكنها حينما تخرج من سياق الواقع وتصبح جزءاً من كل جديد تكتسب جمالها أو قبحها من جمال أو قبح النسق الجديد وهو الإبداع. وهذا على وجه الدقة هو ما يعير عنه عصفور في عرضه الموجز لأفكار قدامة بن جعفر: «إن أي موضوع من

الموضوعات... ما دام قد صيغ صياغة شعرية، يتجاوز أي معيار خارجي يرتبط بعلم الأخلاق أو غيره»^(١٦) لأنه، داخل الصياغة الشعرية، يدخل مجالاً خاصاً، ويندرج في مجموعة من العلاقات «الجديدة»، ومعنى ذلك، أن تحكم على المعنى، «لا باعتباره معنى أخلاقياً بل باعتباره معنى شعرياً». والواقع أن كروتشه يذهب إلى تأسيس مبدأ جمالي سيقفه إليه البلاغيون العرب بقرون طويلة، وهو أن اللفظ أو المعنى خارج «النظم» الشعري أو السياق اللغوي ليس جميلاً أو قبيحاً في حد ذاته، لأن هاتين صفتان يحدداهما الكل الجديد، الشعري.

لكن أهم ما يؤكد ذلك الموقف البلاغي المبكر، وهو موقف سيظل معنا طوال العصر الذهبي، هو أنه لا حجر على الشاعر في اختيار مادته أو معانيه، فليست هناك معانٍ تصلح وأخرى لا تصلح مادة للشعر. كل المعاني، بما في ذلك المعاني الأخلاقية، تقع داخل دائرة اختيار الشاعر لمادته. المهم أن نتعامل مع هذه المعاني، داخل القصيدة، باعتبارها معاني شعرية. فالقصيدة قصيدة وليست موعظة أخلاقية تخضع لمعايير الصدق والكذب. ذلك هو الموقف الوسط، والذي يدخل البلاغة العربية، من هذا المنظور، إلى مدارس النقد الحديثة والحداثيّة من أوسع أبوابها. إن قدامة يصل في نهاية الأمر إلى تأكيد واضح لرفض تعليق قيمة الشعر والمعاني على صدقها أو كذبها الأخلاقي، فضلاً عن كل الموضوعات السابقة، في عبارات محددة، إذ يكتب في سياق حديثه عن المبالغات الشعرية، مدافعاً عن بيتي امرئ القيس اللذين بدأنا بهما هذه المرحلة من الدراسة ضد ما اتهمهما به البعض من فحش:

«لا ضير على الشاعر فيما يسوق من معانٍ، رقيقة كانت أم
وضيعة، وحسنة كانت أم ذميمة، وحقا كانت أم كذبا. ذلك أن
المعاني كاللادة للشعر والشعر فيه كالصورة، فليس فحش المعنى في
نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب النجاسة رداءة
الخشب في ذاته»^(١٧).

ويذهب الولي محمد في الواقع إلى القول بأن ما كتبه قدامة في دفاعه عن بيتي امرئ القيس ونفي فحش الشعر بسبب فحش المعنى كان أكثر حزمًا وحسماً من موقف عبد القاهر الجرجاني فيما بعد: «إن قدامة يؤكد ما أشار إليه الجرجاني مع العلم بأن صاحب نقد الشعر أكثر حسماً لأنه ينص على أن

النظرية الأدبية العربية

المعنى قد يكون فاحشاً ومع ذلك فإن الشعر قد يكون على الرغم من ذلك جيداً. ومثل هذا الحسم الصريح والانحياز الصارخ إلى جانب الصورة لا نجده عند عبدالقاهر^(١٢٧).

ويرى شكري عياد أنه بينما ينقسم الفلاسفة وأصحاب العقائد إلى فئتين: فئة تخضع الأدب للعلم والأخلاق وأخرى تدعي للأدب تأسيس العلم والأخلاق، فإن الشعراء أنفسهم، وكذلك النقاد المنقطعين للشعر والأدب، «فقلما نظروا إلى الفن الأدبي من جانبه العلمي أو جانيبه الخلقى، فهذا البحتري يقول عائياً بعض النقاد المتفلسفين في عصره:

كلفتمونا حدود منطلقكم في الشعر يعني عن صدقه كذب
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه...

وهذا القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني يرد على بعض نقاد المتنبّي قائلاً:

«والعجب ممن ينتقص أبا الطيب ويغض من شعره لأبيات تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة... فلو كانت الديانة عاراً على الشعر وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من السوابق. ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات، وكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، أو من تشهد الأمة عليه بالكفر... ولكن الأمر متباين، والدين يعزل عن الشعر» (الوساطة، ص ٥١، ٤٩) (١٢٨)

هل فتحنا بوابة الجحيم حينما أشرنا إلى مقولة القاضي الجرجاني المشهورة؟ ليس بالضرورة، خاصة إذا قرأنا كلمات القاضي الجرجاني، والذي تتلمذ على أفكاره وأحال إليها مرات كثيرة مؤلف دلائل الإعجاز القرآني وأسرار البلاغة، داخل سياقها النقدي وحددنا المبدأ الجمالي الذي تؤسس له، ولم نتوقف عند الدلالة أو المعنى السطحي الذي قد يراه البعض، بالقطع، مستترا من الناحية الدينية، الأمر يحتاج إلى وقفة متأنية، بعيدة عن التشنج والعصبية، حتى نستطيع، في نهاية الأمر، أن نحدد ذلك الموقف الوسط الذي وعدنا القارئ به، وإذا كانت كلمات القاضي قد فتحت باباً، فإنه ليس باب الجحيم، بل باب التقدير الحديث بكامله، ونظريته الجمالية.

وحتى نحدد المعنى الذي قصد إليه البلاغي العربي القديم، والذي لا أظن أن بمقدور أحد أن يثهم بالإلحاد أو التجديف، فقد عمل الرجل قاضياً في

ظل الشريعة الإسلامية، وهو منصب أهله له ولا شك دراية متميزة بشؤون الدين والفقه والفتوى، نعود إلى الوراء قليلاً إلى موقف سابق أشرنا إليه، ونعني به واقعة تكفير الخليفة عبد الملك بن مروان لقيس بن ذريح بسبب بيته: نباح كلب بأعلى الواد من شرف أشهى إلى النفس من تآذين أيوب. وهي الواقعة التي أوردها أحمد طاهر في بحثه القصير (فصول ١٩٨٥)، ويورد أحمد طاهر السياق الذي ذكر فيه البيت: وقد تحريت هذه الواقعة بميل شديد إلى معرفة موقف الشاعر فيها فوجدت أن سياق القصة قد يشع له:

«كان رجلان في طريقهما إلى قباء، وبعد أن جهدا من السير، وكان الجبل ما يزال بعيداً عنهما، تمنى أحدهما أن لو قصرت الشقة وظهر لهما قباء على أي صورة، ومع هذه الأمانة والتشوق والتشوق اتبعتهما رغبة غامرة في أن يتسبعا ولو حتى نباح كلب يريجهما مما هما فيه من غناء»^(١٢٩).

إن استخدام لفظ «الشفاعة» هنا يعني بصورة لا يمكن اعتبارها ضمنية تسليم أحمد طاهر بارتكاب ابن ذريح لخطأ أو كذب ديني. وبهذا يكون طاهر قد تحاشى المبدأ الجمالي/البلاغي الذي كان يجب تطبيقه في التعامل مع بيت الشعر، أحكام هذا المبدأ في سياقاتنا الحالية هي بالدرجة الأولى المبالغة، وتحديد قصد الشاعر داخل السياق ثم النظر إليه في ذاته، أي الحكم عليه كبيت شعر بالدرجة الأولى وليس شيئاً آخر، أي شيء آخر في الواقع. المعنى داخل السياق اللغوي/الشعري يساهم في تحديده الظرف الواقعي أو الحياتي الذي قيل فيه: فالرجلان قد أجهدهما السير وأرهقهما السفر، وبلغ بهما الإرهاق مبلغاً ربما لم يعودا قادرين على احتماله، ومن يدري، ربما كانا يشعران بأنهما مشرقتان على الموت، وقباء، الهدف البعيد الذي لا يقتربان منه، هو نهاية كل ذلك اليلاء، هو الحياة. في هذا الموقف الصعب، لا يعدل وصولهما شيء آخر، أي شيء حتى لو كان ذلك الشيء - وهنا يجيء دور المبالغة الواضح - هو صوت أيوب العذب يرتفع بالأذان. إننا نتحدث هنا عن مبالغة شعرية فرضتها، داخل النسق الشعري اللغوي، غريزة البقاء *instinct for survival*، فإذا تركنا هذا كله وركزنا على المقارنة المعزولة كلية عن سياقها بين نباح الكلب وصوت أيوب وهو يرفع الأذان فإننا بذلك نكون قد

النظرية الأدبية العربية

تعاملاً مع النص الشعري الذي يعتمد المقارنة المبالغ فيها أداة للصورة، باعتبارها نصاً دينياً، وهو ليس كذلك، فلم يدع أحد، ولا ابن زريع ادعى، أن بيته نص ديني حتى يعامل باعتباره كذلك!

وهذا هو المبدأ الذي يفصله القاضي الجرجاني في مقولته التي تبدو - على السطح فقط - مستفزة، وهكذا تعود إلى المبدأ الجمالي الذي يؤسس له القاضي بالوضوح والتحديد أنفسهما اللذين أسس بهما علماء الجمال والنفاد للمبدأ نفسه في القرنين التاسع عشر والعشرين.

نفدياً وجمالياً، ما قاله القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني لا يزيد ولا يقل، في جوهره، عما قاله قدامة بن جعفر في دفاعه عن بيتي امرئ القيس حينما أكد أنه «لا ضير على الشاعر فيما يسوق من معانٍ، رفيعة كانت أم وضعية» ليخلص إلى: «فليس فحش المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب التجارة رداءة الخشب في ذاته»، وهو المعنى نفسه الذي سيؤكداه أيضاً الإمام عبدالقاهر بعد ذلك، لتتوقف عند باب صنعه نجار حاذق، وأتقن صنعته، من خشب رديء أو رخيص. هل يجد الناظر إلى الباب، المتقن في صناعته، صعوبة في استحصان الصنعة أو الباب - المنتج النهائي - على الرغم من رداءة الخشب الذي صنع منه؟ وهل سيتغير حكمنا على صنعة ذلك الباب إذا قارناها بصنعة باب آخر صنعه النجار نفسه من خشب جيد؟ الإجابة أوضح من أن تذكر. وإذا تحولنا عن الصناعة أي الصورة النهائية، إلى الخشب، أي المادة، واعتبرنا رداءة الخشب أو جودته معيار حكمنا على الباب، فإننا بذلك لا نقيم الباب كحقيق ومهارة وصناعة، بل كخشب، وتصبح للمسؤال المقابل شرعيته: هل جودة الخشب في باب رديء الصناعة تجعل الباب أفضل من الباب الأول؟ الإجابة لمبعاً بالنفسي. والتقييم الأخير، بالطبع، من حق أي إنسان، مادامت الأحكام عنده لا تتداخل، أي مادام يدرك جيداً أنه يقيم الخشب أو المادة. و الشيء نفسه مع بيت الشعر، مع الأدب، وهذا ما يقوله قدامة بن جعفر ويقولوه القاضي الجرجاني ويقولوه عبدالقاهر الجرجاني بألفاظ ومفردات تكاد تتراصف.

إن ما نتحدث عنه، وما يتحدث عنه القاضي الجرجاني، بعيداً عن الاستفزاز الظاهري، هو أدبية الأدب Literariness أو ما يجعل الأدب أدباً في مصطلح النقد الحديث والمعاصر. وهو أيضاً المبدأ الجمالي الذي يعتبر مبدأ مشتركاً في المدارس

النقدية الحديثة والمعاصرة، ونعني به «التعليق أو التأجيل الإرادي للشك» *The willing suspension of disbelief* الذي قدمه كوليردج لأول مرة في كتابه *Biographia literaria*.

ربما يجد البعض في إشارة القاضي (إلى حالة أبي نواس وشعره) أمراً يقبل الجدل معه أو ضده، فقد يجد البعض صعوبة في تقبل ما تقبله القاضي بضرورة الفصل بين مجون أبي نواس الإنسان وفحش معانيه وبين قيمة شعره أو صور تلك المعاني. ولهذا يذكر القاضي حالة شعراء الجاهلية، هل رفض العرب بعد أن دخلوا الإسلام الشعر الجاهلي، وهل غيروا رأيهم في المعلقة لأن من أيدعوها لم يكونوا مسلمين أو كانوا كفاراً مشركين؟ مرة أخرى، السؤال لا يحتاج لإجابة، لأنها أوضح من أن تذكر! إذا كنا كعرب مسلمين لا نرفض شعراً أنتجه عقل كافر، بل لا نرفض شعراً اليوم أنتجه عقل يختلف معنا في العقيدة، بل نذوقه ونوفيه قدره من النقد والتعريض، حينما يستحق ذلك، فما التفسير النفسي والجمالي؟ ما المبدأ الذي يحكم تلك الموضوعية الرائعة؟ المبدأ والتفسير هما «التأجيل الإرادي للشك» الذي تنبه له البلاغيون العرب دون أن يستخدموا المصطلح الحديث، مرة أخرى. فإنا حينما نتعامل مع قصيدة، أي قصيدة، سواء أفرزها عقل مسلم راسخ الإيمان، أو عقل تختلف عقيدته عن عقيدتي، لا أقرأها باعتبارها كلاماً أو نصاً دينياً، بل كقصيدة، قصيدة فقط، أي أنني أثناء قراءتي لتلك القصيدة أؤجل الشك أو الاختلاف وأتعامل مع القصيدة كقصيدة، من داخلها فقط. أما قبل قراءة القصيدة وبعدها، فلا يطلب مني أن أؤجل اختلافي، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإن قصيدة يكتبها شاعر لا يتقن صنعته تصبح جيدة لأن الشاعر يتعامل مع معاني دينية، وهذا غير صحيح، وحينما يحدث ذلك فإنني أتعامل مع القصيدة كموعظة أو درس ديني، تماماً كما تعاملت مع الباب كخشب جيد أو رديء.

ونعود إلى قضية الصدق والكذب - وإن كنا لم نخرج منها للحظة واحدة! - لننوه منذ أبرز شرح أرسطو ونأقليه وهو ابن سينا، يلخص شكري: عياد في دراسته المتميزة التي ألحقها بترجمته لكتاب أرسطو في الشعر موقف ابن سينا من قضية الصدق والكذب، وهو الموقف الذي تظهر أصداؤه في موقف عبدالقاهر بعد ذلك، ثم يشكل جوهر موقف حازم في القرن السابع، وتنتج أهمية موقف ابن سينا من القضية في تحوله إلى

انعمود الفقري لموقف حازم النقدي والذي يمثل مذهباً جمالياً متكاملًا أو يبالغ النضج. وموقف ابن سينا، في حد ذاته، كما يرى عياد، يمثل موازنة عربية لها أهميتها لموقف أرسطو من القضية نفسها. يكتب شكري عياد:

«وقد رأينا كيف أن وصل الشعر بالمنطق قد دُعا ابن سينا إلى التمييز بين التخيل والتصديق من حيث دلالة كل منهما على حال الموجود... فالتصديق يزد به دلالة الكلام على حقيقة الموجود، وينظر فيه إلى حال المقول فيه» أما التخيل فيعتبر فيه القول نفسه، دون النظر إلى مطابقته لحال المقول فيه، فالعبرة في الشعر إذا ليست بصدقه أو كذبه، ليست بمطابقته للحقيقة، بل باستعداد النفس لقبوله، ولا شك أن ابن سينا يتشرب بهذا التحليل الذي يسوقه في عباراته هو، بين يدي تلخيصه لكتاب الشعر... من فكرة أرسطو التي أشرنا إليها فيما سبق، وإن لم تجد في التلخيص نفسه: ولا في ترجمة متى بسطا واضحا لهذه الفكرة، في الموقع الذي ترد فيه الأصول اليونانية»^(١٢٠).

إن المبدأ الذي يقيمه ابن سينا في السياق السابق، وحسب تفسير شكري عياد، أمام التمييز بين الصدق والكذب في القول الشعري، فالصدق يعني مقارنة المقول بحقيقة المقول فيه، فإذا قلت إن الشمس ساطعة في يوم مشمس خالي من السحب والغيوم، فهذا القول صادق، والنبي نفسه إذا قلت إن القمر هلال في وصف القمر في إحدى الليالي الأولى من الشهر العربي، فالقول صادق، وما علينا في الحالين إلا أن نعود إلى حال المقول فيه وهو الشمس في الأولى والقمر في الثانية. والعكس صحيح بالطبع فالقول الأول كاذب إذا قيل عن الشمس في يوم ملبد بالغيوم، والثاني أيضا إذا قيل في منتصف الشهر، حينما يكون القمر بدرا مكتملا. أما التخيل «فيعتبر فيه القول نفسه، دون النظر إلى مطابقته لحال المقول فيه».. وهكذا إذا قلت، كما قال أحمد شوقي في رثاء محمد فريد:

طلع الشمس حيث تطلع صيحا وتنجي المنجل حصدا
تلك حمراء في السماء وهذا أعرج النصل من مراس الجلاد
فإنك لا تستطيع أن تقرر صدق القول عن شكل القمر داخل القصيدة
بمعيارته بالقمر - كما فعل العقاد - في طرف السماء، فإذا رأيت في القمر

الفعلي ما يشبه المنجل الحصاد أو سيف الجلال حكمت بأن القول الشعري صادق، أما إذا لم تر شيئاً من هذا، وكانت وفاة محمد فريد قد وقعت في نهاية الشهر، حكمت، تماماً كما حكم العقاد، على القول الشعري بأنه كاذب. إن صدق القول الشعري وكذبه داخل القول الشعري نفسه وليس خارجه. وسوف يؤكد عبدالقاهر الجرجاني المعنى نفسه فيما بعد حينما يقول إن الصدق والكذب لا يرتبطان بالمقول فيه، فليست العبارة إذا كان المصدوح يستحق ذلك المديح أو لا يستحقه، وإنما العبارة «بما يركبه الشاعر إلى غرضه من موافقة للعقل في مقاييسه، أو احتيال على خداعه وتضليله». وهذا ما لم يدركه العقاد حينما حكم على صورة القمر عند شوقي بالكذب، على هذه الأسس يجيء تعريف ابن سينا للتخييل والمخيل. والتعريف يميل إلى الإطالة بشكل واضح ولا تملك اختزاله بسبب أهميته الجوهرية في تكوين الكثير من فكر البلاغيين العرب الذين جاؤوا من بعده، وأهمهم في ذلك السياق، هو حازم القرطاجني، وهو الذي يورد تعريف ابن سينا في منهاج البلاغة في كليته.

«والمخيل هو الكلام الذي تدعن له النفس فتبسط لأمر أو تقبض عن أمور من غير رؤية وفكر واختيار. وبالجملية تتفعل له أفعالا نفسياً غير فكري سواء كان القول مصدقاً به أو غير مصدق به، فإن كونه مصدقاً به غير كونه مخيلاً أو غير مخيل. فإنه قد يصدق بقول من الأقوال ولا يفعل عنه، فإن قيل مرة أخرى أو على هيئة أخرى انفعلت النفس عنه، طاعة للتخييل لا للتصديق... لكن الناس أطوع للتخييل منهم للتصديق... وللمحاكاة شيء من التعجب ليس للصدق لأن الصدق المشهور كالمنشور منه، ولا طرأه له. والصدق المجهول غير ملتفت إليه، والقول الصادق إذا حُرف عن العادة والحق به شيء تستأنس به النفس فربما أفاد التصديق والتخييل معاً، وربما شغل التخييل عن الالتفات إلى التصديق والشعور به»^(١٢١).

إن مفاتيح موقوف ابن سينا من الصدق والكذب، كما نقله عنه حازم، واضحة لا تحتاج إلا لجرد تأكيدها. إن النفس تتفعل بالقول الشعري بصرف النظر عن كونه مصدقاً به أو غير مصدق به بمقارنته بالواقع الخارجي، خارج التخييل، وفي ذلك قد تتفعل النفس، نفس المثلقي، لقول

كاذب ولا تتفعل لقول صادق، بل إنها قد تستكره ما يصدق به من القول وتفر منه لأنه لا يحقق التعجيب أو الغرابة أو المبالغته، باعتباره شيئاً مألوفاً ومفروغاً منه. المبدأ العام الذي يحكم كل جزئيات هذا التعريف، كما يرى ابن سينا، هو «أن الناس أطوع للتخيل لا للتصديق»، وأن النفس البشرية تتفعل «طاعة للتخيل لا للتصديق».

وقبل الوصول إلى محطتنا الأخيرة وأهمها جميعاً في سياق الصدق والكذب لنا وقفة أخيرة عند محطة عبدالقاهر الجرجاني في محاولة لتحديد موقف البلاغي العربي الأشهر من القضية نفسها. وموقف عبدالقاهر المبدئي لا يختلف في جوهره عن موقف ابن سينا من قبله وحازم من بعده، بل إنه يقرّد مساحة لا بأس بها من الجزء المبكر من دلائل الإعجاز للدفاع عن الشعر ضد اتهامات معاصريه له وأبرزها: أولاً، «أن يكون رفضه له وذمه إياه من أجل ما يجده فيه من هزل وسخف، وهجاء وسب وكذب باطل على الجملة»، ثانياً، «أن يذمه لأنه موزون مقفى ويرى هذا بمجرد عيبا يقتضي الزهد فيه والقرء عنه»^(١٣٢). والإشارة هنا إلى أن الوزن والقافية يقرّيان الشعر من الموسيقى والغناء اللذين كان البعض يعتبرهما حراماً. فيما يخص التهمة الأولى، وهي لا تختلف عن تهمة مماثلة ضد الشعر سابقها أفلاطون في الجمهورية، فإن الجرجاني يرى: أن الهزل والسخف والكذب والباطل ليست صفات مقصورة على الشعر، فهي موجودة في النثر كما هي موجودة في الشعر مع فارق جوهري، «فمنثور كلام الناس على كل حال أكثر من منظومه»، خاصة أن الشعراء «في كل عصر وزمان معدودون». ومن ثم، إذا كان لابد من الذم، «فينبغي أن يذم الكلام كله»^(١٣٣). أما من حيث رفض الشعر بسبب اقترابه من الغناء فإن عبدالقاهر يرى أن وظيفة الشعر أسمى كثيراً من وظيفة الغناء، ونحن، كما يقول الجرجاني، لا نهتم بالشعر من أجل «غنائيته»، بل من أجل «اللفظ الجزل، والقول القصل، والمنطق الحسن، والكلام البين، وإلى حسن التمثيل والاستعارة، وإلى التلوين والإشارة، وإلى صنعة تعتمد إلى المعنى الخسيس فتشرفه، وإلى الضئيل فتفخمه، وإلى النازل فترفعه، وإلى الخامل فتتوه به، وإلى العاطل فتعطيه، وإلى المشكل فتجليه»^(١٣٤). ويبلغ حماس عبدالقاهر للشعر ذروته حينما يربط بين القدرة على إدراك

الاعجاز البياني للقرآن، وهو نقطة انطلاق دلائل الاعجاز، و القدرة على تذوق الشعر:

«وذلك: أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر. ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيها قصب الزهانة، ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل. وزاد بعض أشعر على بعض، كان الصاد من ذلك صناد عن أن تعرف حجة الله تعالى» (١٣٤).

بعد هذا الدفاع المبدئي عن الشعر، ماذا يقول عبدالقاهر في قضية الصديق والكذب؟ ولم يكن موقف عبدالقاهر الجرجاني من هذه القضية المحورية أقل وضوحاً وتحديداً وحسماً من موقف قدامة بن جعفر أو القاضي عبد الجبار أو ابن سينا ثم حازم القرطاجني، ويمزج فيهم محسوس من مغالطة المنطق الأرسطي ومعاييره وتأثر لا يخفى على القارئ المدرب بنظرية المحاكاة أو التخييل، ثم يكثر من نظريته في النظم التي تكتسب الألفاظ بمقتضاها معانيها داخل البنية اللغوية وليس خارجها أو في ذاتها، يرفض عبدالقاهر ربط عجلة الشعر بعجلة التصديق والتكذيب على أساس البنية التي تردنا بالضرورة إلى صدق القول فيمن يقال فيه أو كذبه، أو «الرجوع إلى حال المذكور واختياره فيما وصف به، والكشف عن قدره وخسسته، ورفعته أو ضعته»، دعونا نحدد مكونات هذا المزيج الذي يركبه عبدالقاهر بقدرته الخاصة:

«وعلى هذا موضوع الشعر والخطابة أن يجعلوا اجتماع الشئين في وصف علة الحكم بريدونه وإن لم يكن في المعقول، ومقتضيات المعقول. ولا يؤخذ الشاعر بأن يصحح قوله ما جعله أصلاً وعلة كما ادعاه فيما يبرم أو يتقش من قضية، وأن يأتي على ما صيره قاعدة وأساساً بينة عقلية، بل تسلم مقدمته التي اعتمدها بينة... وكذلك قول البحراني:

كلفتمونا حدود منطقكم في الشعر يكفي عن صدقه كذبه
أراد كلفتمونا أن تجري مشاييس الشعر على حدود المنطق.

ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق، حتى لا ندعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان قاطع... (مع أن الشعر يكفي فيه التخيل، والذهاب بالنفس إلى ما تترتاح إليه من التعليل) ولا شك أنه إلى هذا النوع قصد، وإياه عمد، إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح خطأ من الفضل والسؤدد ليس له. ويبلغه بالصنف خطأ من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله. لأن هذه الكذب لا يبين بالجمع المنطقية، والقوانين العقلية، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور واختباره فيما وصف به،^(١٣٦) [التأكيد من عندي]

وعلى الرغم من التشوش الواضح الذي نتج عن مزج عبدالقاهر لهذه العناصر المتباينة من منطق وتخيل ونظم في سياق واحد وفشل في تحديد مناطق الالتقاء أو الاتفاق بينهما، إلا أننا نستطيع، ببعض الجهد، أن نضع أيدنا على المفاتيح الأساسية لموقفه من قضية الصدق والكذب، فعبدالقاهر يرى أننا يجب ألا نأخذ على الشاعر تعامله مع أمور أو قضايا تهرم أو تنقض، أي تحتل الصدق والكذب، إذا إن ما يعتد به هو الصدق أو الكذب داخل التخيل أو النسق أو النظم الشعري، ومحاولة إثبات صدق أو كذب ما ورد فيه القول الشعري خارج نطاق الحجج العقلية المنطقية. أما سياق النظم فيعني عدم الرجوع إلى ما يرد القول الشعري فيه خارج التخيل، أي العودة إلى الواقع المادي الخارجي واختبار صحة القول أو كذبه على أساسه. والواقع أن عبدالقاهر الجرجاني في سطور ثالثة يقدم تعريفًا أكثر دقة وأقل تشوشًا ليؤكد أن مفهوم الكذب لا يعني المقارنة بين واقع من جاء أقول فيه وصورته داخل التخيل الشعري، وبهذا يمكن للكذب التخيلي أن يكون صدقًا. هكذا يفسر عبدالقاهر الجرجاني القول المعروف: «خير أو أصدق الشعر أكذبه»: «فهذا مراده لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلًا ونقصًا وانحطاطًا وارتقاعًا بأن ينحل الموضوع من الرفعة ما هو منه عار أو يصف الشريف بنقص وعار، فكم جواد يخلو الشعر ويخيل سخاء، وشجاع وسمه بالجين وجبان ساوى به الليث... وغبي قضى له بالفهم... ثم لم يعتبر في الشعر نفسه حيث تنفذ دنائره، وتشتد دبابيجه، ويمتق مسكه فيضوع أريج»^(١٣٧).

ونصل إلى محطتنا الأخيرة في رحلة الصدق والكذب لتتوقف عند حازم القرطاجني، وقد سبق أن أشرنا إلى الطرف التاريخي الذي عاشه حازم، فقد

عايش فترة ما قبل السقوط بالنسبة للحضارة العربية بعد أن تآكلت الدولة الإسلامية من الداخل وتكالب عليها الأعداء من الخارج، أما الثقافة العربية فلم تكن، وسط التشرد والتشيع، أفضل حالا. ولهذا كان هم حازم هو محاولة إعادة النظام إلى عالم مضطرب اشتد فيه الهجوم على الشعر بدعوى اللاأخلاقية، هذا الطرف التاريخي، حضاريا وثقافيا، يفسر بعض جوانب التناقض التي نرصدها في نظرية البيان عند القرطاجني، والتي تعتبر يحق تنويعا لنشاط، محموم للعقل العربي في شتى مناحي البلاغة وعلومها. ويعيد عن هذه التناقضات فإن ما قدمه القرطاجني يمثل مدرسة نقدية، لغوية وجمالية، قاربت الاكتمال إن لم تكن مكتملة النضج. أبرز هذه التناقضات هو الحذر الواضح في حديث حازم عن الشعر والأخلاق، وهو حذر يتغلى عنه بشكل واضح حينما يتحدث عن الربط بين الشعر كنشاط إبداعي تخيلي والغايات الخارجية. وفي هذا، كان حازم القرطاجني أول بلاغي عربي يولي كل ذلك الاهتمام للعلاقة بين الجمال والقيم داخل العمل المخيل والجمال والقيم في الواقع الخارجي، خارج القصيدة. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن حازم القرطاجني قد قدم في منهاج البلاء نظرية جمالية سبق بها كل من بوازنيك وكرونتشه اللذين ارتبط علم الجمال الحديث باسميهما بعد اكتمال انتقاله من الفلسفة إلى النقد الأدبي.

إن موقف حازم من الصدق والكذب فيهما يختص بالغايات الأخلاقية للأدب ربما يكون هو الحل الوسط الذي تبحث عنه وسط اضطرابات عالمنا المعاصر، في القرن الخامس عشر الهجري، موقف لا يطالب بتحويل العمل بالضرورة إلى موضعة أخلاقية أو دينية، ولا ينظر إليه باعتباره كذلك، لكنه موقف يقوم على رسم خطوط حمراء يطالب الإبداع بعدم تجاوزها أو تخيلها. وهذا ما دفع ناقدًا مثل جابر عصفور إلى تفسير وظيفة الشعر كما يحددها حازم باعتبارها تأسيسًا لشرعية الحل أو الموقف الوسط، ولا تقول هنا إن عصفورا حمل نص/نصوص القرطاجني أكثر مما تحتمل، لأن تفسيره لتلك النصوص محاولة منطقية، ومعقولة لتحديد معالم الحل الوسط الذي نبحث عنه جميعًا، يفتح جابر عصفور فصله الثالث «الأساس الأخلاقي لمهمة الشعر» من كتابه الجاد مفهوم الشعر بتعريف القرطاجني لوظيفة الشعر: «الأقويل الشعرية... القصص بها استجلاب المنافع واستدفاع المضار، ببسطها

النظرية الأدبية العربية

التفوس إلى ما يراد من ذلك وقبضها عما يراد، بما يخيّل لها فيه من خير أو شر^(١٢٨). ولاشك أن تعريف حازم لوظيفة الشعر هنا يحمل آثاراً واضحة من تعريفات أرسطو وابن سينا والجرجاني وبلاغيين عرب آخرين، حتى فيما يتعلق بالحديث عن المنافع والمضار، وهو بذلك، وفي جوهره ليس جديداً. لكن الإضافة الجديدة في تعريف حازم هي الربط بين «المنافع والمضار» وبين قيمتي «الخير والشر»، وفي هذا يكمن أساس الحل الوسط الذي يقدمه حازم القرطاجني. فهو، من ناحية، يربط، بما لا يقبل الشك، بين الشعر والقيم الأخلاقية. لكن ذلك الربط، من ناحية أخرى، من العمومية التي تضمن عدم تحول القصيدة إلى موعظة أخلاقية أو دينية أو تقويمها باعتبارها كذلك، وتجدر الإشارة هنا إلى أن «الخير والشر» في تعريف حازم لا يختلفان عن «الفضيلة والرذيلة» في مفهوم أرسطو في عموميتها ومروريتها الكاملة. هذه هي الحقائق الأساسية التي وضع جابر عصفور يده عليها ليزيد معالم الحل الوسط عند حازم إيضاحاً. يتوقف عصفور أولاً عند النافع والمضار في تعريف حازم: «والنافع في الفن لا يد أن يكون نافعا في الحياة، لأنه لا يمكن أن يتعارض النافع في الفن مع النافع في الحياة، ما دامت غاية الفن تعين على تحقيق غاية الحياة... النافع في الحياة شبيه بالنافع في الفن، كلاهما أشبه بوجهي العملة لشيء واحد متصل بغاية الإنسان وسعيه وراء الكمال^(١٢٩)». ثم يتحول عصفور من النافع والمضار إلى الخير والشر مضيفاً قيمة أخرى هي الجمال، مؤسسا ثقافته على أنه «مادام الشعر نشاطاً إنسانياً يرتبط بسعي البشر إلى الكمال، فإنه لا يمكن إلا أن يكون أحد الأنشطة الإنسانية الراقية:

«وبذلك تصبح القيمة الأخلاقية مصاحبة للقيمة الجمالية وغير مفارقة لها. إن الجميل خير بالضرورة. والأفعال الجميلة قرينة الفضائل. والأجمل هو الوجه الآخر للأفْع. طالما ارتبطا بالكيفية التي تعين الكائن الإنساني على الوصول إلى الكمال. ومن المنطقي - والأمر كذلك - أن يشد الشعر إلى إطار من القيم الطبقية، قائم بالضرورة خارج مجال الفن، وأن تحدد مهمة الشعر في ضوء محيطه الأخلاقي يمثل إطار القيم المسلم بقيمتها. ويبدأ هذا الإطار بالثنائية التي تفصل بين النفس والبدن، وترفع من شأن

الأولى على حساب الثاني. مستندة في ذلك إلى تراث يمكن التوفيق بين ما فيه من حكمة وشريعة،^(١٤) [التأكيد من عندي]:

وهكذا يحقق عصفور النقلة التي قصد إليها حازم من النفع إلى الخير ومن الضرر إلى الشر، ثم يخلص، وفي حماس واضح نؤكد أنه كله حماس حازم، إلى المقولة التوفيقية reconciliatory التي توصل إليها حازم رداً على الهجوم العنيف على الشعر في عصره، عصر بداية الانحلال، وهي المقولة التي يعتبرها البعض اليوم الموقف الوسط، وإن كانت ثقيلة الوطأ، سواء كانت من صياغة حازم القرطاجني أو جابر عصفور: «ومن المنطقي... أن يشد الشعر إلى إطار من القيم الخلقية، قائم بالضرورة خارج مجال الفن، وأن تحدد مهمة الشعر في ضوء مخطط أخلاقي يمثل إطار القيم المسلم بقيمتها». وقد قلنا إن المقولة شديدة الوطأ، وعزاؤنا هنا أن حازم القرطاجني، وجابر عصفور، سيخففان من ثقل ذلك الوطأ حينما يتحولان إلى الحديث عن الجمال في الفن والواقع، وذلك مدخلنا الأساسي لنظرية الأدب عند حازم القرطاجني. إن مفهوم حازم القرطاجني عن طبيعة الشعر وآرائه عن الجمال والقيم في الفن والواقع تمثل مجتمعة جوهر نظريته الأدبية التي وصلت بتلك النظرية، عبر بضعة قرون هي عمر البلاغة العربية في عصرها الذهبي، إلى درجة من النضج تضعها في مصاف أي نظرية حديثة أو حديثة غربية أظهرنا بها جميعاً في القرن العشرين. ويجب علينا، ونحن نتحدث بكل الثقة التي تقرب من المبالغة والتفاخر، أن ننظر إلى ما قام به حازم من ربط تقبل بين الفن والغايات الأخلاقية باعتباره ضرورة توازن فرضها الطرف التاريخي. ثم إن مفهومه عن الشعر، ونظريته الجمالية، يضافان من ثقل القيد الأخلاقي من ناحية، ولا يبطلانه من ناحية ثانية، وأما شخصياً مع التخفيف لا الإبطال، إذ إن ربطاً ما، ربطاً قد لا يتعدى رسم خطوط حمراء لا يتجاوزها الكاتب، قد يكون هو جوهر الحل الوسط، دون أن تحول هذه الخطوط إلى قيود ثقيلة، ودون أن نحولها أيضاً إلى معايير حكم قهري يثاب المبدع أو يعاقب على أساسها. يجب ألا تتحول تلك الخطوط التحذيرية إلى معايير للمصادرة والتبذ والسجن، لأننا بذلك نطالب الشعر بأن يكون شيئاً آخر غير الشعر، ثم نحاسبه على ذلك الأساس. وعلينا أن نتذكر مقولة إمام جليل كان رائداً في الكثير من

النقدية الأدبية العربية

إسهامات البلاغة العربية وهو عبدالقاهر الجرجاني، انتهى في دفاعه المبكر عن الشعر في دلائل الإعجاز ضد اتهامات «الهزل والسخف والكذب والباطل» إلى تقديم نصيحة، تقدمها بدورنا للقارئ المعاصر:

«ثم إنك لو لم ترو من هذا الضرب شيئاً قط ولم تحفظ إلا الجد المحض، وإلا مالا محاب عليك في روايته وفي المحاضرة به وفي نسخته وتدوينه لكان في ذلك غنى ومندوحة، ولوجبت طلبتك وتلت مرادك، وحصل لك ما شئت ندعوك إليه في علم القصاحة، فاختر لنفسك وقع ما تكره إلى ما تحب»^(١٤١) [التأكيد من عندي].

وربما يكون مبدأ اختيار القارئ لما يقرأ أحد أبرز العلامات في المنطقة الوسطى بديلاً عن النبذ والطرذ والمصادرة، وإذا كان أحد البلغاء المسلمين، الذي كرس جزءاً غير يسير من حياته لدراسة دلائل الإعجاز القرآني، وجد عنده القدرة على التسليم بصريّة المبدع، وهي حرية لا يحد من ممارستها إلا اختيار القارئ، إذا كان هذا البلاغي المسلم قد حقق ذلك في القرن الخامس الهجري، فكيف يعجز بعضنا اليوم، بعد عشرة قرون كاملة، عن تقيل المبدأ نفسه؟

فلنعد إلى مفهوم حازم عن الشعر، من منظور التصديق والتكذيب، في الفصل الذي يخصه حازم من منهاج البلغاء للتعريف بهامية الشعر وحقيقته يكتب القرطاجني:

«فاضطل الشعر ما حسنت محاكاته وهيبته، وقويت شهرته أو صدقه أو خفي كذبه، وقامت غرابته، وإن كان قد يعد حذفاً للشاعر اقتداره على ترويح الكذب وتوحيه على النفس، وإعجالها إلى التائر له قبل إعمالها الروية فيما هو عليه، فعنداً يرجع إلى الشاعر وشدة تخيله في إيقاع الدلسة للنفس، في الكلام، فاما أن يكون ذلك بشيء يرجع إلى ذات الكلام فلا»^(١٤٢) [التأكيد من عندي].

لقد وصلنا مع حازم، إذن، بمثل النص السابق ونصوص أخرى كثيرة في منهاج البلغاء، إلى ذروة قضية المصدق والكذب. وعند هذه النقطة عند الذروة تلتقي كل المؤثرات التي أثرت في نظرة حازم إلى الشعر والأدب، أفضل الشعر، كما يقول حازم، هو ما يؤثر في النفس دون إعمال للروية، وهو ما قاله نفسه ابن سينا في تعريفه، ومن ناطلة القول الإشارة هنا إلى أن حازماً اعتمد

بصفة أساسية على ابن سينا، سواءً في ذلك ما قاله ابن سينا نفسه في شروحه وتعليقاته على مقاولات أرسطو، أو ما نقله ابن سينا عن أرسطو. وهكذا تنتقل إلى التأثير الثاني، والذي اعتمد في مرة أخرى على ابن سينا، وهو تأثير أرسطو. أما التأثير الثالث فهو بالقطع تأثير البلاغة العربية، وخاصة بلاغة قدامة وعبدالقاهر حول وظيفة الشعر وقضية الصدق والكذب. وموقف حازم هنا لا يحتاج لكثير إيضاح. فبرغم تأكيدهم على أن أفضل الشعر هو ما قويت شهرته أو صدقه، إلا أنه يستلزم ليضيف: «أو خفي كذبه» بل إنه يربط حذق الشاعر «باقتداره على ترويض الكذب وتمويهه على النفس»، ويضيف أيضاً أن قوة تأثير الشعر في النفوس ترتبط، ليس فقط «بشدة التخيل» بل بإيقاع الدلسة في النفوس وخداعها. وهكذا يخلص إلى النتيجة العامة وهي أن الكلام الشعري لا يكون صادقاً أو كاذباً لذاته، وهي عودة بالفاظ مختلفة، إلى النظم بمفهوم الجرجاني. ولهذا يستلزم القرطاجني بعد ذلك بصفحات قليلة لإيضاح جانبين في تعريفه السابق: أولاً، إن حديثه عن الكذب وترويضه والخداغ والدلسة يجب ألا يفسر باعتباره دعوة إلى ممارسة الكذب في الشعر، كأن الكذب سبب التخيل. وهذا تفسير يتنافى بالقطع ويشكل مبدئي، مع موقفه الأخلاقي العام؛ ثانياً، إن مقولته الأخيرة تتحدث عن النظم والتأليف والنظام:

«ولنما احتجت إلى إثبات وقوع الأقاويل الصادقة في الشعر لأرفع الشبهة الداخلة في ذلك على قوم. حيث ظنوا أن الأقاويل الشعرية لا تكون إلا كاذبة، وهذا قول فاسد... لأن الاعتبار إنما هو التخيل في أي مادة اتفق، لا يشترط في ذلك صدق أو كذب. بل أيهما انتقلت الأقاويل المخيلة منه فيالعرض. لأن صنعة الشاعر هي جودة التأليف وحسن المحاكاة وموضوعهما الألفاظ وما تدل عليه، فالصدق والكذب والشبهة والظن أشياء راجعة إلى المفهومات التي هي شطر الموضوع. فنسبتهما إلى المبدولات التي هي المعاني كسبية العمومية والحوشية والحال الوسطى بينهما إلى الأدلة التي هي الألفاظ» (١١٣).

لم يكن حديث حازم القرطاجني في الإحالة الأولى إذن، دعوة إلى تأسيس التخيل الشعري على الكذب، أما المقولة الثانية، «فأما أن يكون ذلك بشيء

النظرية الأدبية العربية

يرجع إلى ذات الكلام فلا» والتي كانت تحتل سوء التفسير، فقد فسرها حازم بإرجاع كلماته إلى مبدأَي التخيل والنظم. الجملة الأولى كان تحتل سوء التفسير التالي: إن الصديق والكذب أمران لا يرجعان إلى القصيدة. وهذا تفسير أو سوء تفسير واضح خطؤه وفساده، خاصة إذا فسرناه بمعنى: «إن القصيدة هي ذاتها أو الحقيقة الشعرية في ذاتها، ليست صادقة أو كاذبة»، مما يعني منطقياً إن صدقها أو كذبها تحددهما الأشياء والحقائق الخارجية. بهذا المعنى غير الصحيح نكون قد نسفنا أحد الأركان الأساسية التي قامت عليها البلاغة العربية منذ القرن الرابع على الأقل، بما في ذلك بلاغة حازم نفسه! وهكذا يردنا القرطاجني إلى الثنائية المبدئية، ثنائية اللفظ والمعنى والتي اتفق البيانيون، باستثناء اللفظيين، على أن اللفظ في نفسه «لا يعني»، إنه يعني فقط داخل النسق أو النظم، النسق، الائتلاف اللغوي، كما يقول حازم هو الذي يحدد صدق الحقيقة الشعرية أو كذبها، ولا يترك القرطاجني مجالاً للشك في أي معنى يقصد: «إن الأقاويل الشعرية يحسن موقعها من النفوس من حيث تختار مواد اللفظة وتنتمي أحضلها وتركيب تركيب المتلائم المتشاكل وتستقصي بأجزاء العبارات الدالة على أجزاء المعاني المحتاج إليها على أن تكون حسنة إعراب الجملة والتفاصيل عن جملة المعنى وتراكيبه»⁽¹¹⁴⁾.

في ختام هذا الاستعراض السريع لموقف البلاغيين العرب من قضية الصديق والكذب والعلاقة بين الأدب والغايات العملية والأخلاقية لا يسعنا إلا أن نلخص الموقف جملة كما لخصه ابن وهب، فالشاعر يراود منه حسن الكلام بينما يراود الصديق من الأنياء.

في الحديث عن جماليات حازم القرطاجني يجب التنويه إلى موقف البلاغة عامة من الجمال والقبح في الشعر والواقع، لأن الموقف الجمالي الذي طوره حازم تخطى به سابقة من البلاغيين العرب، واستبق به علماء وفلاسفة الجمال بشكل يستحق الإعجاب. هذا الموقف لا يتفصل عن الموقف العام للبلاغة العربية التي عدلت من مفهوم أرسطو عن محاكاة الجمال والقبح. وقد أشرنا من قبل إلى المبدأ الجمالي الذي يحكم علاقة المحاكى بما يحاكي به، فالشعر الدرامي، في نظر أرسطو، يصور الأشخاص والأفعال better than they really are. أحضل مما هم عليه في الواقع: أي أشجع

وأقبل أو أجمل مما هم عليه في الواقع (التراجيديا)؛ ويصورهم worse than they really are أي أخس أو أجبن أو أقبح مما هم عليه في الواقع (الكوميديا). ورغم أن ذلك أحد مداخل تفسير المحاكاة الأرسطية باعتبارها إبداعاً لا مجرد نقل حرفي أو سلبى للواقع، إلا أن ذلك المبدأ الاستيعابي لا يوجد الجمال في الفن حيث لا يوجد في المادة الهيولي، ولا يوجد القبح حيث لا يوجد، فالشجاع والنبيل والجميل شجاع ونبيل وجميل أيضاً في الفن، وإن كان بدرجة أكبر يقوم على مبادئ الاختيار والاستبعاد Selection and elimination والمبالغة التي يمارسها الشاعر المبدع في تعامله مع مادته، والشئ نفسه يقال عن الخسة والجبن والتبحر في الكوميديا.

أما التعديل أو التكييف العربي المبكر للمبدأ نفسه، وقد توقفنا عند نماذج مثقولة له في مرحلة سابقة، فقد أسس لاتجاه جمالي محوري داخل البيان العربي، وهو اتجاه فرضته طبيعة الشعر العربي وأغراضه، خاصة شعري المديح والهجاء، وهما غرضان انفرد بهما الشعر العربي واعتبرهما البعض النسخة العربية للتراجيديا والكوميديا اليونانيتين، من ناحية، وأسقطهما البعض، من ناحية أخرى، على الكوميديا والتراجيديا اليونانيتين باعتبارهما المقابل اليوناني للمديح والهجاء في الشعر العربي، من ناحية ثانية. المهم أن هذا التكييف فرضته طبيعة المديح والهجاء في الشعر العربي اللذين لم يتوقفا عند مدح الخليفة أو الوالي بالمبالغة في صفاته الحميدة طمعاً في عمله، أو الاكتفاء بهجاء مثالبه وتقائصه عندما يشع عملاً، لقد اعتمد المديح والهجاء على إيجاد الجمال حيث لا يوجد، والقبح حيث لا يوجد. هل كان كافور الأخشيدي، مثلاً، بالخسة نفسها والتذالة التي صور بهما المثقب في بيته المشهور:

لا تشتر العبد، إلا والعصا معه إن العبد لأنجاس مناكيد؟

ربما لو رجعنا إلى تفاصيل حياته لوجدناه إنساناً يتسم بالشهامة والكرم والسخاء، وكل نقائصه أنه لم يحقق طموحات المثقبي السياسية؛ وهل كان ممدوح «ابن الرومي» في بيته:

هو الرجل المشرك في جل ماله ولكنه بالمدح والحمد مفرد

حقيقة بهذا الكرم وهذا المجد والسؤود؟ هل كان حقيقة كريماً، مجرد كريم؟ ربما لم يكن يمتلك من الكرم والمجد شيئاً لقد فرضت أغراض الشعر

النظرية الأدبية العربية

العربي، إذن، خاصة في المديح والهجاء، تكييفاً للمبدأ الجمالي المستتر والواهن عند أرسطو. لكننا بذلك نعطي لأرسطو أكثر من حقه، فالشاعر العربي مأسس الكتابة في المديح والهجاء قبل أن يسمع عربي واحد باسم المفكر اليوناني. ولهذا نعدل مقولتنا هنا على أساس أنها مقارنة بين إنجاز أرسطو وإنجاز البلاغة العربية..

وهكذا استنتج البلاغة العربية لنفسها، قبل أرسطو وبعبدا عن تأثيره، وبعد أن كانت الممارسة الشعرية قد سبقتها إلى ذلك، المبدأ الجمالي القديم/الحديث الذي يقوم على التخيل فيوجد الجمال حيث لا يوجد ويوجد القبح حيث لا يوجد، بل إنه يجعل الجميل قبيحا والقبح جميلا. من هنا كتب عبدالقاهر الجرجاني:

«كذلك حكم الشعر فيما يصنع من الصور، ويشكله من البدع، ويوقعه في النفوس من المعاني يثوم بها الحامد الصامت، في صورة الحي الناطق، والموات الآخرى، في قضية الفصيح المعرب، والمبين المميز، والمعدوم المقفود في حكم المشاهد... حتى يكسب الدني رفعة، والغامض القدر نباهة.

وعلى العكس ينض من شرف الشريف، ويطأ من قدر ذي العزة المنيف، ويطلم الفضل ويهضمه، ويخدش وجه الجمال ويتخونه [ينقص منه]، ويعطي الشبهة سلطان الحجة ويزد الحجة إلى صيغة الشبهة، ويصنع من المادة الخسيسة بدعا يعلو في القيمة ويعلو»^(١٤٤).

ذلك هو التكييف الدربي، أو التأسيس العربي الواضح لأسس علم الجمال الأدبي، وحينما يتحدث عبدالقاهر عن الانقلابات التي يحدثها التخيل في مادة الشعر والتي يتحول بها الدنيء إلى رفيع، والشريف إلى خسيس، فإنه بالقطع يعني أيضا تحول الجميل إلى قبيح والقبح إلى جميل. وهو يقول ذلك صراحة في: «يخدش وجه الجمال ويتخونه». وهذا أيضا ما يقوله حازم القرطاجني، حينما ينتقل عن ابن سينا ويتفق معه بالطبع، مقارنة بين الوحوش المفترسة الكريهة في الواقع وصورها منقوشة أو مرسومة، فإن صور الحيوانات المثيرة في المثلقي إحساسا بالهجة والنرج، الحيوانات نفسها التي ينفرون منها في سياقاتها الواقعية خارج الصورة، وهذا هو لب المبدأ الجمالي الذي

يلخصه حازم: «ومن التذاذ النفوس بالتخيل أن الصور القبيحة المستبشرة عندما تكون صورها المنقوشة والمخطوطة والمنحوتة لذيدة إذا بلغت الغاية القصوى من الشبه بما هي أمثلة له، فيكون موقعها من النفوس مستلذاً، لا لأنها حسنة في أنفسها بل إنها حسنة المحاكاة لما حوكي بها عند مقايستها به»⁽¹¹⁷⁾، ربما نستطيع في مناسبة أو مؤلف آخر أن نتوقف بالتفصيل عند سبق حازم القرطاجني لأساطين علم الجمال مثل بوزانكيه وكروتشه، لكن يكفي هنا إبراز دلالة ما يقوله البلاغي العربي القديم وأهمية المبدأ الذي يرسخه بصفة نهائية وهو تحول القبيح في الواقع إلى جميل في الفن، بل إنه يرسخ مبدأ سوف يعود إليه كروتشه فيما بعد وهو أن مكن الجمال، في حالة تصوير مادة قبيحة، قد يعتمد بالدرجة الأولى على محاكاة القبح ذاته، أي أن جمال الصورة في هذه الحالة يعتمد على قبيحها.

هـ - الركن الرابع: السرقات الأدبية / التناهي

لم ينشغل أصحاب البلاغة والبيان العرب منذ بداية القرن الثالث على الأقل حتى نهاية القرن الخامس بقضية قدر انشغالهم بقضية السرقات الشعرية. ويؤكد كم المؤلفات التي وصلتنا، ناهيك عن تلك التي لم تصلنا، على الرغم من ثبوت تأليفها، أنه لا يكاد يوجد بلاغي عربي معروف لم ينشغل، بدرجة أو بأخرى، بقضية السرقات بين الشعراء: سرقات المحدثين من القدماء، وسرقات المعاصرين بعضهم من بعض. وبرغم أننا نتوقف في أحيان كثيرة عند ما يبدو في بعض الأحيان أموراً تافهة، كان البلاغيين العرب لم يجدوا ما يشغلهم من أمور الأدب وشؤون البلاغة شيئاً أهم من سرقات أبي تمام، أو تداعيات الأفكار بين هذا الشاعر وذلك. فإن الحقيقة، أن قضية السرقات، بكل ذلك الثراء والتشعب، والتوقف عند تفاصيل اللغة الدقيقة، كان لها من الإيجابيات أكثر من السلبيات، هذا إذا كانت لها سلبيات تذكر. إن الجدل الذي انشغل به البلاغيون العرب مبكراً حول سرقة المعاني وتدايعها، واقتباس الصور أو تقاربها كان البداية الحقيقية للنقد التطبيقي القائم على قراءة لمصيقة للـ close reading. وأهمية ذلك تاريخياً أن الحديث في أمور السرقات الشعرية في تلك المرحلة المبكرة، وقبل أي تأثير حقيقي بالأنظريات والأفكار الواحدة، سواء في علم المنطق أو نظرية المحاكاة، أصل

النظرية الأدبية العربية

الممارسات التطبيقية تأصيلاً كاملاً في الفكر العربي وثقافته. ثم إن ذلك الجدول التطبيقي هو الذي فتح الباب أمام التنظير البلاغي والتقدي فيما بعد، مما يعني أن الانتقال من مرحلة التطبيق إلى التنظير - لاحظ الترتيب الذي يسبق فيه التطبيق التنظير - كان محتملاً حدوثه، سواء تم نقل أفكار أرسطو إلى العربية أو لا. وهذا، كما يذكر القارئ ولابد، هو موقفنا المبدئي في الدراسة الحالية. وحيث إن المحورين الأساسيين للجدول حول السرقات الشعرية هما المعاني والألفاظ، أو المادة والصورة، فقد كان من الطبيعي أن يتحول البلاغي العربي، في خطوة ثانية من القراءة الصيقة للنص وتحليله على أساس هذين المحورين، إلى تقنين العلاقة بين ما يفترض أنه مسروق وما هو مسروق منه، أي إلى التنظير النقدي الكامل الذي دفع البياني العربي في اتجاه ضبط العلاقة بين المعنى واللفظ، أو المادة والصورة. وقد كانت تلك هي البداية الحقيقية، وليس أي شيء آخر، للنظرية الأدبية العربية. وقد سبقنا إلى هذا الرأي، بالطبع، أساتذة كبار. يكتب محمد زكي العشماوي في قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث:

«ولعلنا لا نغلو في القول إذا قلنا بأن ميدان السرقات كان يمثل في تلك الحقبة لب الدراسة النقدية. فقد كانت السرقات الشعرية هي الباب الذي تنفذ منه أغلب القضايا المتصلة بالنقد. هذا إلى أن السرقات قد مهدت بطبيعتها إلى النقد التحليلي وإلى الموازنة والمقارنة بين الشعراء. فقد كان من الطبيعي قبل أن يمرض الناقد السرقة أن يأخذ أولاً في دراسة الأبيات عند كل من السارق والمسروق منه ثم دراسة أوجه الشبه بينهما.

ومن هنا نشأت فكرة الموازنة بين الشعراء. ثم اتسع ميدانها لأكثر من موضوع السرقة، فأخذت تتطور عندما تناولت أكثر من جانب من جوانب الدراسة بين الشاعرين، كما حدث في كتاب الأمدي، عندما تعرض للأخطاء التي وقع فيها كل شاعر، وكانت هذه مجالاً خصباً لتناول كثير من الشعر بالدراسة والتحليل»^(١٤٧).

والمتابع لقضية السرقات الشعرية في البلاغة العربية لابد له أن يرمد التصاعد السريع ثم الهبوط السريع أيضاً. لهذا الاهتمام، من ابن طباطبا، مروراً بالأمدي والعسكري وقدامة والقاضي الجرجاني، إلى عبد القاهر، أي

في الفترة من قرب نهاية القرن الثالث إلى قرب نهاية القرن الخامس. ويعد ذلك لا تكاد نسمع عن قضية السرقات، أو على الأقل لم تعد القضية بالأممية التي كانت عليها في هذين القرنين، فلم تعد تحتل ما يقرب من ثلث أحد المؤلفات؛ كما في موازنة الأمدي، أو نصف آخر، كما في أسرار عبدالقاهر. فماذا حدث حتى يتراجع الاهتمام بالسرقة نفسها التي ظهر بها تقريرا؟ ونحن لا نستطيع هنا إلا الاعتماد على التخمين الذي تؤيده الشواهد. كان البلاغيون العرب، انتهاء بعبد القاهر الجرجاني، قد قتلوا الموضوع بحثا وجدلا، ووصلوا في نهاية الأمر إلى تقنين شبه محدد إلى ما يمكن اعتباره تأثرا وما يمكن اعتباره نقلا وسرقة. وهكذا لم يعد هناك مجال لإضافة الجديد حول القضية، أما أسباب ذلك الاهتمام فهي معروفة وبصورة تجعل الجدل حول السرقات وطبيعتها أمرا محتوما ولا مهرب منه. ويربط شكري عباد بين تصاعد الاهتمام بتلك القضية وطبيعة «الرواية» التي اعتمد عليها نقل الشعر وتداوله، من ناحية، والمعرفة بين القدماء والمحدثين، من ناحية أخرى:

«ونحن نرى في بحث السرقات الذي شغل ما شغل من عنابة الأمدي والجرجاني ومعاشرهما نقرأ واضحا للنيار العربي النقدي القائم، المعني بالجزئيات المعجب بالتقديم. وهذا لا ينفي افتراض تأثره بالمعركة بين القدماء والمحدثين، إذ تشد الأمدي والجرجاني وأمثالهما من أنصار القديم إلى إحصاء سرقات أبي تمام على الخصوص حين ادعى هذا الشاعر لنفسه وادعى له أنصاره فضل السباق إلى اختراع المعاني وابتداع الأفكار»^(١٤٨).

والواقع أن المعركة بين القديم والجديد من ناحية، ثم ظهور قضية السرقات وتصاعد الجدل حولها بتلك الصورة الحادة من ناحية ثانية، وضع الشعراء والنقاد جميعا، في رأي مصطلقي ناصف، في مازق واضح أو مفارقة غريبة. ففي بداية المعركة بين القديم والجديد، بين المحدثين والقدماء، أتى حينها كانت كفة القديم راجحة بشكل لا شك فيه، وجد الشاعر المحدث نفسه في موقف لا يحسد عليه، فقد كان مطالباً «بأن يجاري القدماء في أوصافهم وتشبيهاتهم، لا يستعس إلا ما استعسوه ولا يذم إلا ما يذمونه، ولا يثبه إلا على طريقهم، ولا يستعير إلا على أساليبهم». معنى ذلك، ليس فقط توارد أفكار طليبييا بين المحدث والقديم، ولكن تشابه حتمي في بعض آليات التصوير والكثير من

النظرية الأدبية العربية

الصور الشعرية. وهنا يتدخل سلاح السرقات المشهر في وجه الجميع، «هَذَا وافق الشاعر المحدث بعد ذلك شاعرا متقدما في معنى أو أسلوب فهو أخذ وهو مسبوق، وربما رمى بهذه اللفظة البشعة؛ لفظة مسروقة»^(١٤٨). وهذا، على وجه التحديد، ما أكدّه أبو الطيب المتنبّي في رده في مناقرة، قد تكون وهمية. دافع فيها عن اتهامه بممارسة السرقات الشعرية:

«رويدا، أما ما نعيته عليّ من السرقة، فما يدريك أنني اعتمدته وكلام العرب أخذ بعضه برقاب بعض، وأخذ بعضه من بعض، والمعاني تختلف في الصدور، وتخطر للمتقدم تارة، وللمتأخر أخرى، والأنفاذ مشتركة مباحة. وهذا أبو عمرو بن العلاء مثل عن الشاعرين يتفقان في اللفظ والمعنى مع تباين ما بينهما، وتضاف المسافة بين بلادهما. فقال: تلك عقول رجال نوافقت على السنن. وبعد فمن هذا الذي تعري من الإتياع، وتفرّد بالاختراع والإيتاع، لا أعلم شاعرا جاهليا ولا إسلاميا إلا وقد احتذى واقتضى، واجتنب»^(١٤٩).

وتعبدا كلمات المتنبّي: «لا أعلم شاعرا جاهليا ولا إسلاميا إلا وقد احتذى واقتضى» إلى سؤال كان يجب أن نسأله منذ البداية وهو: لماذا الحديث عن السرقات في سياق الدراسة الحالية؟ وهل يقدم المرايا المعرّة حقيقة دراسة في السرقات الأدبية أو الشعرية؟ أننا بالفعل لا نهدف إلى تقديم دراسة في السرقات الشعرية لسببين: الأول، أن غيرنا من دارسي البلاغة العربية قد فعلوا ذلك باقتدار لا نظن أننا قادرون على الإضافة إليه، والثاني، أن دراسة السرقات الأدبية، كأشياء أخرى في الدراسة الحالية، ليست هدفا في حد ذاتها، لكنها مدخل آخر تؤسس عن طريقه لشريعة المدرسة الأدبية العربية. وفي هذا نقول إن السرقات الأدبية التي انشغل بها البلاغيون انشغالا كبيرا لمدة قرنين على الأقل هي البداية الحقيقية للمنهج ما بعد الحداثي والمصطلح النقدي الباهر الذي استخدم للدلالة عليه هو «التناص»، أو «البينصمية» Intertextuality، ثم، وهذا سبب ثالث نضيفه، إن ما توصل إليه البلاغيون العرب، بعد قرنين كاملين من الجدل والجدل المضاد، من تعريف للسرقة الأدبية، ولما يمكن اعتباره سرقة وما لا يمكن اعتباره كذلك، والقواعد التي تحكم هذا وذلك، يعتبر تقنيا كاملا، وتظليرا أدبيا يحكم عمليات التأثير

والتأثر ويحمي النص في نهاية الأمر، من فوضى «اجتياح حدود النص» التي جاء بها مفهوم التناص. وتلك بالتقطع تقطة تحمد للنظرية الأدبية العربية. وعلى الرغم من أننا ناقشنا مفهوم التناص أو البينصية في تفصيل كاف في دراستنا السابقة، المرايا المحدبة، وهو تفصيل نحيل إليه القارئ إذا شاء ذلك. إلا أننا سنتوقف مرة أخرى، وبالضرورة، عند بعض الأفكار ما بعد الحداثة عن التناص بما يخدم هدف الدراسة الحالية. لكن ذلك بالطبع، يستدعي التوقف في بعض التفصيل الضروري عند قضية السرقات الشعرية قبل أن تبدأ المناقشة. وتؤكد أهمية الوفتين، مع التناص والسرقات، في ضوء الانقسام الواضح في الرأي بين النقاد العرب المعاصرين حول ذلك الموضوع، فهناك من يرى أن التناص ليس هو ما عرفه العرب بالسرقات، وهناك من يرى أن السرقات هي جوهرها تناص مبرر.

لقد تمحور الحديث عن السرقات الشعرية وشرط تحققها أو انتفاءها حول محور المعاني والألفاظ، أو المادة والصورة. وكان ذلك أمراً طبعياً تماماً. وسوف يكتسب المحور نفسه، كما سنرى بعد قليل، الأهمية نفسها في مفهوم البينصية في المذهب ما بعد الحداثة. هناك اتفاق واضح على أن السرقات لا تكون في المعاني في حد ذاتها لسببين: الأول، أن المعاني ليست ملكاً خاصاً بشاعر دون آخر، فهي موجودة أمام الجميع. وربما تجدر الإشارة هنا إلى مقولة الجاحظ بأن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي. وأن التداعي بين المعاني أو الاشتراك فيها كان أمراً طبعياً ومتوقفاً ولا نستطيع اعتباره سرقة. بل إن هذا التداعي أو الاشتراك كان أمراً محتوماً ولا يمكن تجنبه في ظل الاعتقاد السائد آنذاك بأن السابقين، كما يرى ابن طباطبا، «غلبوا عليها»، فضائق الطريق أمام المحدثين، ولم يعد باستطلاعهم التوصل إلى معاني لم يسبقهم إليها القدماء، ومن ثم لم يكن هناك بد من الأخذ والتقليد. أما السبب الثاني فيرجع إلى أن الشاعر الجديد، في الواقع، كان يوجه إلى ذلك في فترة ميكرة، فالنصيحة التي كان يقدمها له الجميع هي قراءة أشعار السابقين وتأملها وإطالة النظر إليها «لتعلق معانيها بفهمه وترسخ أصولها في قلبه»، في ظل هذه التركيبة الخاصة، لا نستطيع أن نقول إن تداعي المعاني، أو الاشتراك فيها يعتبر سرقة. فهذا باب ما تعرى منه متقدم ولا متأخر حسب قول الأمدي، وإذا كنا سنعتبر دواعيات المعاني

النظرية الأدبية العربية

والاشتراك فيها سرقات فإن معنى ذلك أن تلك التهمة ستلصق بالجميع دون استثناء، وهذا موقف يتفق عليه جمهوره البلاغيين العرب من ابن طباطبغا إلى عبدالقاهر، فهم يرون أن الاشتراك في معنى من المعاني هو استعادة مقبولة، وقد حصر القاضي الجرجاني السرقات، رغم اعترافه المبدئي باستحالة الحصر الحقيقي الجامع مانع، في الإغارة والغصب والاختلاس والإلمام والملاحظة، ثم المشترك بين الشعراء، وهو ما لا يجوز الادعاء فيه بالسرقة، والمبتذل الذي ليس أحد أولى به، وقد خلص القاضي إلى أن المعاني المشتركة لا تعتبر سرقة:

«فمن نظرت فرايت أن تشبيه الحسن بالشمس والبدن والجواد بالغيث والبحر، والبلبل بالطي، بالحجر والحصار، والشجاع الماضي بالنسيب والنار، والصب المستهمل بالمخبول في حيرته والسليم في سهره والسقيم في آنيته وتامله، أمور متشبهة في النفوس متصورة للعقول يشترك فيها الناطق والأبكم والفصيح والأعجم والشاعر والمفحم، حكمت بأن السرقة عنها متغصية والأخذ بالاتباع مستحيل ممتنع»^(٨٥١).

ويورد البلاغيون العرب النماذج تلو النماذج للاشتراك في المعاني التي لا يجوز الادعاء فيها بالسرقة، باعتبارها معاني «متشبهة في النفوس متصورة للعقول يشترك فيها الناطق والأبكم والفصيح». يورد ابن طباطبغا، مثلا قول دحبل:

أحب الشيب لما قيل ضيفُ كعبي للضيوف النازلينا
الذي يرى أنه أخذ معناه، أو اشترك فيه، من بيت الأخوص:

فبان مني شيبابي بعد لذته كأنما كان ضيفا نازلا رجلا

ويبطل المبدأ نفسه اتهام أبي هلال العسكري لابن الرومي بأنه سرق البيتين الآتيين:

يقتر عيسى على نفسه وليس بباقي ولا خالد
ولو يستطيع للتقير تمس من منح واحد

من قول الجاحظ في البخل: «إن بعضهم قبر إحدى عينيه، وقال إن النظر بهما في زمان واحد من الإسراف»^(٨٥٢). ويدافع العشمائي عن ابن الرومي ويرفض اتهامه بالسرقة (عملا للبدء البلاغي الذي استقر عليه رأي البلاغيين

العرب، فهو يرى أن ذلك الاتهام مجعّف ومتعسف لأن قيمة بيتي ابن الرومي «لا ترتد إلى الفكرة التي استقأها أو استوحاها من الجاحظ بقدر ما ترجع إلى صياغة بيتيه على هذه الصورة التي لو قارناها بمباراة الجاحظ لما وجدنا مجالاً للمقارنة، فليس من شك في أن في بيتي [ابن الرومي] من عناصر الصياغة ما يحدد الفكرة ويلونها، بل يضيف إليها إضافات كثيرة، تمنحها القدرة على الإحياء بموقف مختلف، بل تكسيها روحاً مميزاً جديداً»^(١٥٢). وموقف البلاغة العربية الصريح في هذا الأمر هو على وجه التحديد ما فات العقاد حينما قال إن بيت أحمد شوقي في رثاء مصطفى كامل:

فأرفع لنفسك يمد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

مسروق من بيت المتنبي:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما فاته وقضول العيش أشغال

وتهمد تلك الإسهامات المبكرة في الجدل حول السرقات الشعرية لمرحلة التقنين النهائية عند عبدالقاهر. وحينما نتحدث عن إسهامات البلاغيين العرب قبل عبدالقاهر الجرجاني فإننا في الواقع نقصد أن ما فعله عبدالقاهر في هذا المجال، برغم انشغاله أكثر من غيره بقضية السرقات، لم يكن أكثر من تجميع وتنظيم لمقولات سابقة، فهو في حقيقة الأمر لم يضيف جديداً إلى القضية. لقد كان النانون العام الذي يحكم عملية النقل عن الآخر ومتى يمكن اعتباره سرقة ومتى لا يمكن اعتباره سرقة قد تم التوصل إليه بالفعل، خاصة في موازنة الأمدي بين شعر أبي تمام والبحتري، فالسرقة، كما يرى الأمدي، وكما يؤكد عبدالقاهر من بعده، تكون في البديع الذي ليس للناس فيه اشتراك،

المهم أن عبدالقاهر ورث هذه الأفكار وعكف عليها ليحولها إلى قواعد وقوانين أكثر تحديداً وتفصيلاً. وفي تقنيته للملاقة بين الناقل والمنقول عنه وحكمها يفرق عبدالقاهر الجرجاني بين الاتفاق في الغرض والاتفاق في وجه الدلالة على الغرض على أساس أن ذلك هو محصور الاتفاق أو الاختلاف الوحيد في مقارنتنا بين قول شعري وآخر؛ «اعلم أن الشاعرين إذا اتفقا لم يخل ذلك من أن يكون [في] الغرض على الجملة والعموم أو في وجه الدلالة على الغرض»، ثم يهضي ليعرف الاثنين:

«والاشتراك في الغرض على العموم أن يقصد كل واحد منهما

وصف ممدوحه بالشجاعة والسخاء، أو حسن الوجه والبهاء، أو

النظرية الأدبية العربية

وصف غرضه بالسرقة أو ما جرى هذا المجرى. وأما وجه الدلالة على الغرض فهو أن يذكر ما يستدل به على إثباته له الشجاعة والسخاء مثلاً وذلك ينقسم أقساماً منها التشبيه بما يوجد هذا الوصف فيه على الوجه اليلغ والغاية البعيدة كالتشبيه بالأسد ويأبجر في إنباس والجود...^(١٥٤)

إننا حينما نتحدث عن الاتفاق - والاختلاف، من ثم - بين شاعر وشاعر فإن ذلك يكون اقضاً في المعنى، أو «الغرض»، أو المادة التي يبدأ بها الشاعر، مثل أن يكتب الشاعران في غرض واحد كالشجاعة أو السماحة أو الجود. الاحتمال الثاني لوجه الاتفاق هو وجه الدلالة على الغرض: أي «مجموع الوسائل البلاغية التصويرية المتوسل بها للتعبير عن هذا المعنى»^(١٥٥) كما يقول الوبي، ونضيف هنا احتمالاً ثالثاً يشير إليه بعض البلاغيين وسرعان ما يستبعدونه، وهو الاتفاق في الغرض ووجه الدلالة عليه، وهذا يحدث في حالات السرقة المريعة التي يقوم فيها شاعر بنسبة بيت شاعر آخر لنفسه. وفي تاريخ الأدب العربي حالات غير قليلة حدث فيها ذلك بسبب اعتماد انشعر على الرواية الشفاهية. النوع الأول، أي اتفاق شاعرين في المعنى، ينتهي البلاغيون العرب وبصورة تكاد تكون حادة إلى عدم اعتباره سرقة شعرية، خاصة إذا كان من النوع الذي للناس فيه اشتراك:

«فأما الاتفاق في عموم الغرض فمما لا يكون الاشتراك فيه داخلًا في الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة، لا ترى به من حسن يدعي ذلك ويأبى الحكم بأنه لا يدخل في باب الأخذ وإنما يقع الغلط من بعض من لا يضمن التحصيل ولا ينعم التعامل فيما يؤدي إلى ذلك حتى يدعي عليه في الحاجة أنه بما قاله قد دخل في حكم من يجعل أحد الشعاعين عيالا على الآخر في تصور معنى الشجاعة وإنما مما يمدح به، وأن الجهل مما يذم به، فأما أن يقوله صريحاً ويرتكبه قسداً فلا»^(١٥٦)

إن الاتفاق في الغرض، إذن لا يعتبر سرقة، إلا إذا تعمد الشاعر الناقل نقل المعنى وقصد إلى ذلك. فالمعاني، على حد قول الجاحظ، مرة أخرى، مطروحة في الطريق، وهي من الشيوخ بين الشعراء والناس بحيث لا يمكن نسبها إلى شاعر بعينه؛ فإذا جاء بها آخر اعتبر ناقلًا لها عن الأول. ثم إنها، بعد هذا،

ليست أساسا للمفاضلة بين الشعراء. أما الاتفاق بين شاعرين في وجه الدلالة على الغرض فهو نوعان: نوع ينطبق عليه الحكم السابق بانتفاء السرقة لأنه «مما اشترك الناس في معرفته وكان مستقرا في العقول والعادات»، ومن ذلك التشبيه بالأسد في الشجاعة وبالبهر في السخاء، وبالبدر في النور والبهاء، وهي تشبيهات تكاد تقترب، بسبب تكرار تداولها، وتحديد دلالاتها، من المواضع اللغوية، ومن هنا لا يمكن ادعاء خصوصية هذا التشبيه أو ذلك، ولا يمكن الادعاء بالسبق في هذه الصورة أو تلك. والشئ نفسه عند اشتراك شاعرين في وصف إنسان أو شيء يخلصه اشتهار بها أو صفة، «لأن هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم، ولا يحتاج في العلم به إلى رؤية واستنباط وتدبر وتأمل، وإنما هو في حكم الثرائز المركوزة في النفوس»^(١٥٧) أما النوع الثاني من أنواع وجه الدلالة على الغرض فهو الذي تتحق له درجة من الخصوصية تجعل الاشتراك فيه سرقة أكيدة:

«وإن كان مما ينتهي إليه المتكلم بنظر وتدبر، ويناله بطلب واجتهاد. ولم يكن كالأول في حضوره إياه وكونه في حكم ما يقايله الذي لا معاناة عليه فيه ولا حاجة به إلى المحاولة والمزاولة والقياس والمباحنة والاستنباط والاستشارة، بل كان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقته بالأنظر وعليه، كم [الغلاف أو القشرة] ينتشر إلى شقه بالتفكر، وكان درا في فعر بحر لا يد له من تكلف القوص عليه... فهو الذي يجوز أن يدعي فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولوية، وأن يجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد، وأن يقضي بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين، وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر، وأن الثاني زاد على الأول ونقص عنه، وقرقى إلى غاية أبعد من غايته، أو اتخذ إلى منزلة هي دون منزلته»^(١٥٨).

وإذا كان الاتفاق في عموم الغرض، بل والاتفاق في بعض أوجه الدلالة على الغرض إذا كانت من الصيغ أو التراكيب أو الصور المشتركة، لا يعتبر سرقة، بل مجرد «احتذاء» كما يسميه الجرجاني، فإننا من باب أولى، لا نستطيع أن نتحدث عن سرقات يمكن أن تقع في الألفاظ، وهذا جانب يذهب فيه أصحاب القاص منهيا بعيدا. وهذا أمر يرتبط بالطبع، بنظرية عبدالقاهر في النظم التي تقوم على أن الألفاظ لا تعني في ذاتها وإنما داخل بنية لغوية تحدد العلاقات بين

النقدية الأدبية العربية

وحداتها/ألفاظها أحكام النحو وقواعده. ونذكر هنا للمرة الثالثة بالمعنى الذي تحققه الكلمات منظومة في: «فما نيك من ذكرى حبيب ومنزل»، وهو معنى لا تحققه إذا أعيد ترتيبها حسبما اتفق ودون تطبيق لأحكام النحو.

لقد أصبحنا الآن، بعد هذا الاستعراض السريع لقضية السرقات الشعرية ثم التقنين النهائي الذي توصلت إليه البلاغة العربية، مستعدين للتوقف عند التشابه الذي أراه أكبر من يتجاهل بين مفهوم السرقات، ومفهوم التناص أو البينصية كما نحتته أو صاغته جوليا كريستيفا التي يرجع إليها المؤرخون للنقد المعاصر استخدام المصطلح الجديد، وإن كان المفهوم في ذاته يعود إلى باخтин ودائرتة.

إن نتوقف عند التناص هنا إلا بالقدر الذي تحتاج إليه المقارنة مع قضية السرقات الأدبية وأوجه الاتفاق والاختلاف بينهما، خاصة أنه لا يكاد يوجد ناقد حديثي عربي معاصر، أو بعد حديثي، لم يتوقف عند المفهوم ودلالاته ونتائجه، وقد توقفنا نحن أيضا عنده في إطالة كافية في المراسل المحببة، وإن كان ذلك من موقف النقض. وقد أرجعنا مفهوم البينصية آنذاك، لا إلى باختين، بل إلى هايديجر وفلسفته التأويلية التي ترى أن كل نص جديد يجيء إلى الوجود باعتباره «بينصا». فهو محمل برماد ثقافي يعيده إلى نصوص سابقة. لكن ذلك بالقطع أكثر التعريفات العمومية بل وأكثرها أمنا. والواقع أن هناك الكثير في التناص *intertextuality* الذي يمكن فهمه في ضوء المفهوم الضد، وهو النصية *textnity* الذي ارتبط في البداية بالمشروع النيو، ثم قام البعض بسحبه، بأثر رجعي، على جوهر النقد الجديد. النصية تعني شيئا واحدا: النص الأدبي منتج مغلق، وهو نسق نهائي يمكن تحليله وتفسيره في ضوء علاقات وحداته داخل نسقه الأصغر (النص) بعضها ببعض، وفي ضوء علاقته كنسق بالنسق الأكبر أو نظام النوع الذي ينتمي إليه ويحدد قواعده تشكيله، وإن كانت البنيوية التوليدية تفتح نسق النص أمام أنظمة أخرى اجتماعية واقتصادية. أما البينصية فهي نقض ذلك تماما، لأنها ترى أن النص ليس تشكيلا مغلقا أو نهائيا، لكنه كيان مفتوح، وحش أمطوري في حالة تكون مستمرة، يحمل آثار *traces* نصوص سابقة، وحيث إنه غير مغلق ومحمل بأثار نصوص أخرى، من ناحية، وحيث إن القارئ هو الآخر يجيئه بأفق توقعات تشكله، في جزء منه على الأقل،

التصووس التي قراها، من ناحية أخرى، فمعنى ذلك في حقيقة الأمر أنه لا يوجد نص. الموجود هو «بين - نص» فقط، ذلك الكائن المتغير والمراوغ الذي ينتج الحوار بين المنتج الأول والقارئ. وبهذا يكون التناص، وهنا وجه خطورة المفهوم ما بعد الحدائي، وهو المدخل الأول لـ «لا نهائية» الدلالة في (استراتيجية التشكيك) (١٥٩).

وإذا نقينا مفهوم التناص المعاصر من بعض شطحاته التي تفتح ما أسمىه أبواب الجحيم، وأبرزها كون النص كيانا مراوغا دائم التغير والتحول، ولا نهائية الدلالة، أي بعد ترويض المفهوم وتقليم أظفاره وأظلاله الجارحة، يصبح التناص في الواقع هو الصياغة ما بعد الحدائية البراقة للسرفات الأدبية المقتنة والتي عرفها عبد القاهر الجرجاني بـ «الاحتذاء». المعطيات التي نقيم عليها هذا الحكم أساسية، ولا أظن أنها تقبل النقض. قضية السرفات الشعرية في البلاغة العربية انتهت إلى حتمية الاحتذاء في المعاني، وفي الألفاظ، بل حتى في التراكيب والصور المجازية ذات الطبيعة المشتركة. والتناص، هو الآخر، يرى أن الاتفاق في المعاني تناص. أما فيما يتعلق باللغة، فقد ذهب أصحاب التناص في ذلك إلى مبالغتها يجدها البعض غير مقبولة، بل عيشية إلى حد كبير. فديدا مثلا، وهو يتحدث عن الاقتطاف citation لا يتوقف بذلك المفهوم عند حد التركيبات اللغوية الكاملة، كان يقتطف الأديب المتأخر جملة كاملة أو بيت شعر كاملا أو شطرًا منه، كما يفعل اليون في «الأرض الخراب» بل ينهب إلى أن الاقتطاف، ومن ثم التناص، يحدث مع كل لفظة في النص الأدبي لأنها سبق استخدامها من جانب كتاب آخرين، ويسرر فستنت ليش في كتابه Deconstructive Criticism عيشية المعادلة المتصورة في هذه الحالة والتي تنتهي إلى لانهائية التناص:

«إن استخدام أي كلمة سبق استخدامها يعني «الاقتطاف»، ولما كانت كل كلمة في قواميسنا غير المختصرة موت بمرآحل الاستخدام ولها بذلك التاريخ تناصها، فإن كل كلمة تجسد إمكانية اقتطافها في كل مرة نطق أو تكتب... إن كل كلمة داخل نص تحمل هذه الإمكانية، وخطوط التناص، حينما تضرب في إمكانية اقتطافها، تتعدى كل احتمالات التصور... معادلتنا هي: مجموع الاقتطاف (التكرار) لكل كلمة مضروبا في عدد الكلمات في نص ما يساوي

النظرية الأدبية العربية

كمية التناص، وحيث إننا لا نستطيع تحديد تاريخ الاختلاف فإن معادلتنا الزائفة عديمة الفائدة»^(١٦١).

والى هنا يصعب القول بأي اختلافات جذرية بين مفهوم السرقات أو الاحتذاء في البلاغة العربية والتناص، وقد قلنا «إلى هنا» لأن التناص لا يكتسب بعد هذه النقطة في تفسيره أبعاداً ليست مختلفة جذرياً عن مفهوم الاحتذاء أو حسن المأخذ فقط، بل إنه يفتح باب فوضى القراءة والنقد إلى درجة يحمّد للبلاغة العربية القديمة أنها لم تطرقة، وهناك شبه اتفاق واضح على نطاق الالتقاء بين مفاهيم السرقة المقتنة والتناص، وإن كان ذلك لا يعني اختفاء الأصوات المعارضة لهذا الرأي. فعبد الملك مرتاض، على سبيل المثال، يرى، في مجلة علامات السعودية (١٩٩١)، في بحث يخصه لموضوع «فكرة الأدبية ونظرية التناص»، أنه لا توجد علاقة ترادف بين مفهوم التناص بمعناه الدريدي المتطرف والسرقات في البلاغة العربية، كأنه بذلك يرد على رأي سابق لعبد الله الغدامي يذهب فيه في الربط بين التناص والسرقات إلى آخر الشوط، محملاً فكرة السرقات أحياناً أكثر مما تحتمل، خاصة حينما يربط بين مفهوم «الاحتذاء» عند القاسمي الجرجاني و«الأثر» الدريدي، ليخلص إلى أن مفهوم الاحتذاء نفسه يعني الإشارة أو العلامة اللغوية من منظور تفكيكي:

«في كل قراءة لقصيدة أو نص أدبي، نجد أصداً بارزة المعالم لقراءات سابقة. وغالغ أدباؤنا السالفون هذه الظاهرة في مباحث سموها (المبرقة) وتلخف بعضهم وسموها (حسن المأخذ). ولكن الإمام عبدالقاهر الجرجاني يسمو بفكره فوق كل ذلك ويطلق عليها (الاحتذاء)، وهو بذلك يأخذ بهمة (الأثر) الذي هو نتيجة لتحرر الإشارة (الكلمة)، وقدرتها على ابتكار مدلولات متنوعة قد يتلاقى بعضها فيثير في النفس ذكرى لمثلها. وهذا ما تدل عليه كلمة (الاحتذاء) التي تشير إلى أن الشاعر يملك بتعبه مساراً يحذو فيه مسار إشارات سابقة عليه»^(١٦٢).

والواقع أنني لا أفهم كيف يفسر الاحتذاء، أي أن يملك الشاعر بنصه مساراً يحذو فيه مسار إشارات سابقة، على أساس أنه تحرير للعلامة اللغوية (اللفظية)، ومن ثم، وبطريقة حتمية، باعتباره لا نهائية الدلالة. وإن كان ما يقوله الغدامي في مجمله يعبر عن نقطة الالتقاء الأساسية بين السرقة

والتناص. وهو أيضا ما يلخصه مصطفى ناصف في اقتدار، بعيدا عن القراءة الصوفية لعبدالقاهر الجرجاني، حينما يقول إن النقد العربي في مجمله كان «نمطا من تداخل النصوص، وتسرب بعضها في بعض، كان يتعقب أسرار الكلمات من مبدئها إلى منتهاها، إن كان لها منتهى... كان النقد العلمي - في جوهره - هو هذا التداخل الذي لا يغني فيه موقف عن موقف، ولا عبارة عن عبارة، يحتاج الناقد أو الشارح العربي دائما إلى أن يقدو إحساسه بالتاريخ. تاريخ الكلمات وتجلياتها. وكان استنباط المعنى عملا مشتركا بين كثيرين... كان مظهر النقد العملي اجتماع التراث في بؤرة، وكان تداخل النصوص على هذا الوجه أساسيا»^(١٧٢). وربما كانت لفظة «تداخل» و«تسرب» اللتان استخدمتهما ناصف في السياق السابق أقرب وصف للعلاقة بين السلف والخلف، سواء كنا نتحدث عن السرقة كما قتنها البلاغيون العرب في نهاية الأمر، أو عن التناص حتى المرحلة التي توقفنا عندها حتى الآن، إذ بهذا المعنى «المقيد» للتناص قبل أن تتحول إلى مرحلة فوضى الدلالة، تعبر كلمات القاضي الجرجاني منذ القرن الخامس أفضل تعبير عن مفهوم السرقة المقتنة والتناص «المتيد» أفضل تعبير، فالقاضي الجرجاني لا ينكر على الشاعر اللاحق فضيلة أو «مزية الاختراع والإبداع ما دام يمارس نوعا من حسن التصرف مع ما يأخذه عن الشعر القديم:

«والسرق - أي ذلك الله - ذاء قديم، وعيب عتيق، وما زال الشاعر يستعين بباطن الآخر، ويستمد من قريحته، ويعتمد على معناه ونقطه، وكان أكثره ظاهرا كائنوا... وإن تجاوز ذلك قليلا في الغموض لم يكن فيه غير اختلاف اللفاظ، ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب، وتغيير المنهاج والترتيب، وتكلفوا جبر ما فيه من التقيصم بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال. والتصريح في حال أخرى، والاحتجاج والتعليل، فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقصر عنه عن اختراعه وإبداع مثله»^(١٧٣).

قلنا إن تقنين السرقة بالشكل الذي يحدث عند القاضي الجرجاني وعبدالقاهر من بعده يتفق مع نقلة البداية في مفهوم التناص. وهي نقطة يتفق فيها القديم والجديد حول حتمية التأثر والنقل والتداخل والتسرب في المعاني والألفاظ على السواء. لكن الجدل حول السرقات والذي استمر لمدة

قرنين كاملين، بينما كان يهدف إلى تأسيس شرعية التناص عن طريق تقنين التأثير والتأثير، وضع أيضا حدا لذلك الجدل من ناحية، ووضع ضوابط لرفع تهمة السرقة في وجه كل محدث تأثر بالقديم وأخذ عنه، من ناحية ثانية. وبالمناسبة، فإننا، وفي ضوء الحثييات السابقة، نختلف مع مقولة جابر عصفور المبكرة حول موضوع السرقات الشعرية في سياق دراسته لأراء قدامة بن جعفر: «هذه النتيجة جعلت قدامة يحسم الأمر تماما في قضية السرقات التي أهدرت طاقة الناقد القديم في غير طائل»^(١٦٢)، إذ من الصعب الاتفاق معه في أن الجدل حول السرقات أهدر طاقة الناقد القديم في غير طائل وقد قلنا إن تلك المقولة مبكرة، في تطور فكر عصفور، أي الفترة السابقة على تعرفه على الحداثيات الغربية، كما سبق أن أشرنا، وقبل أن يسمع عن مفهوم التناص من قريب أو بعيد، كما تشير إلى ذلك مقدمة الكتاب التي كتبها في منتصف أغسطس ١٩٧٧. ولو أنه توقف عند الموضوع نفسه بعد تحوله الحداثي لربما كان له رأي آخر في السرقات الشعرية. كان التداخل والتأثر والنقل والتسرب في البلاغة العربية موضوعات تحتاج إلى تقنين وضبط، وهذا على وجه الدقة ما انتهى إليه البلاغيون العرب. وقد سبق أن أشرنا إلى أن ذلك في حد ذاته كان إنجازا يعتمد للبلاغة العربية. ناهيك عن أن حديث السرقات في البلاغة العربية قدم مدرسة في النقد التطبيقي تعتمد على تحليل النص عن طريق القراءة للصيغة له، وإلى هنا تنتهي نقطة الالتقاء بين السرقة والتناص؛ لأن أهداف القول بالتناص والجدل الذي أشيد منذ أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات تقريبا حول أهمية التناص حتى العقد الأخير من القرن العشرين اختلفت في كل شيء تقريبا عن أهداف الجدل حول السرقات الشعرية في البلاغة العربية. فلم يكن من بين أهداف الجدل البلاغي القديم، أبدا، الدعوة إلى فوضى القراءة وموت النص؛ وحتى نعرف قيمة التقنين والضبط اللذين وضعهما البلاغيون العرب للسرقة/التناص لابد لنا من التوقف عند الرعب القادم بل القائم مع فوضى الدلالة وموت النص. وقد توقفنا في الجزء الأول عند جانب واحد من ذلك الرعب الثقافي حينما عرجنا على آخر دعوات الحركة النسوية الغربية وارتباطها بالاتجاهات اللغوية والنقدية لما بعد الحداثة. ونكمل الآن صورة الفوضى بالإحالة إلى ما أوصلتنا إليه قضية التناص، وتذكر هنا بأننا لا نقول

تقول ببطالان التناص أو ندعو لرفضه ، ففي الوقت الذي نرفض فيه التناص في صيغته النهائية، فإننا نتفق معه من حيث المبدأ وعند نقاط الانطلاق. ومن ثم لا نجد كثير صعوبة في تقبل كلمات جفري هارتمان، في مقدمته لما عرف بـ «مانفستو التفكيك»، كما عبر عنه نقاد بيل في مجموعة من الدراسات بعنوان التفكيك والنقد (1979) deconstruction and Criticism. فهارتمان يرى «أن كل نص هو مستقر لنصوص أخرى مر خلال عملية استيعاب باللغة الذكاء شكلها موضوع دراسة التحليل النفسي والنقد البلاغي. إن كل ما اعتبرناه روح النص، أو معنى يمكن فصله عن حرف النص يظل داخل مجال بيئتي»^(١٦٥)، إلى هنا ينتهي أقصى ما نستطيع قبله في التناص الذي لا يمكن فصله عن بقية مبادئ التلق والتفكيك والتي تشير جميعا في اتجاه واحد: فوضى الدلالة. أخطر هذه المبادئ هو القول باجتماع حدود النص الذي شرجه جاك دريدا في دراس متأخرة له بعنوان «Living on: Border Lines»، نشرت ضمن دراسات التفكيك والنقد.

يقول دريدا في تلك الدراسة إن هناك مفهومين للنص: مفهوم قديم ومفهوم جديد. المفهوم القديم هو المفهوم التقليدي الذي يرى النص كيانا محدد المعاني والحدود، نص له بداية ووسط ونهاية، له وحدة كلية ومضمون يمكن قراءته داخل النص، له عنوان ومؤلف وهوامش، وله أيضا قيمة مرجعية حتى إن لم يكر محاكاة لواقع خارجي. كل هذه الأشياء تمثل «حدود النص»، والكلمة المستخدمة هنا لا تترك مجالاً للشك في دلالتها الجغرافية، وهي borders. أما المفهوم الجديد الذي يقدمه دريدا فهو بداية الطوفان الذي جاء مع أواخر الستينيات وهو طوفان أحدث انقلابا جذريا في مفهومنا عن النص:

«ما حدث، إذا كان قد حدث، هو عملية اجتياح storming... أبطلت كل هذه الحدود والتقسيمات وأرغمتنا على توسيع المفهوم المتفق عليه... لما استمر في تسميته «نص» لأسباب إستراتيجية... «نص» لم يعد منذ الآن جسما كتابيا مكتملا، أو مضمونا يحده كتاب أو هوامشه، بل شبكة مختلفة، تسبح من الآثار التي تشير بصورة لا نهائية إلى أشياء» ما غير نفسها، إلى آثار اختلافات أخرى. وهكذا يحتاج النص كل الحدود المعينة له حتى الآن»^(١٦٦)

النظرية الأدبية العربية

إن الاجتياح الذي يتحدث عنه دريدا يحدث في اتجاهين في الوقت نفسه. هناك أولا الاجتياح من الخارج إلى الداخل والذي يقوم على أن النص كيان غير نهائي وغير مغلق، فهو مفتوح أمام آثار الاختلافات الأخرى بصفة دائمة. وفي الوقت نفسه هناك الحركة أو الاتجاه من الداخل إلى الخارج الذي يرى بلانهاية الدلالة وأن كل قراءة هي إساءة قراءة للنص. إن ما يتحدث عنه دريدا هنا لا يعدو أن يكون تطويرا لمقولة سابقة لرولان بارت في «موت المؤلف» والتي تصل إلى عملية اجتياح حدود النص نفسه، وفتح بصفة دائمة أمام ما أسماه بارت بالكتاب الأكبر The Book الذي يضم كل ما كتب بالفعل. أي أن النص الحاضر يحمل في ضمرائه بقايا وآثارا وشذرات من ذلك الكتاب الأكبر، وأنه جزء من كل ما تمت كتابته حتى وقت كتابة النص الجديد.

وهكذا يعول مفهوم التناص بمعناه ما بعد الحداثي النص الأدبي إلى كيان لا نهائي لا ينتهي، بل إلى الوحش القبيح المرعب الذي صور به باختين في تأكيده لفكرة «رفض النص لئلتهاء»، وهي بالقطع ترجمة ركيكة، وإن كانت دقيقة للفظ الإنجليزي الذي ارتبط بمفهوم باختين وهو unfinalizability. ووحش باختين، في حقيقة الأمر، هو على وجه التحديد ما حالت عمليات الضبط والتثقين التي قامت بها البلاغة العربية دون تحقيقه. أظن أننا نستطيع أن نؤكد أهمية الاختلاف بين السرقة الأدبية في البلاغة العربية والتناص في صورته الكاملة بتذكير القارئ بوحش ميخائيل باختين:

«ذلك الجسم الغريب grotesque... جسم في حالة ميوزة، إنه لا ينتهي ولا يكتمل أبدا. إذ تتم عملية تشكيله وخلق بصفة مستمرة، وهو يقوم بتشكيل وخلق جسم آخر. علاوة على ذلك، فإن الجسم يمتلك العالم ويبتلعه العالم... ولهذا يرتبط الدور الرئيسي بتلك الأجزاء في الجسم الغريب التي تتخطى نفسها في النمو وتخرج على حدود جسمها نفسه، والتي تحمل في جسم جديد ثانٍ. وتعني به المعدة وعضو الشوكير... بل إنها تستطيع أن تنفصل عن الجسم لتعيش حياة مستقلة... بعد المعدة والأعضاء التناصية يأتي الفم الذي يدخل العالم من خلاله لأتباعه، بعد ذلك تأتي فتحة الشرج. إن كل تلك التعقيدات تشترك في صفة واحدة، فهي داخليا يمكن التغلب على الحدود بين الأجسام والحدود بين الجسم والعالم: هناك عملية تبادل وتفاعل».

«الركن الخامس: الموهبة والتقاليد»

كانت المحاور الأربعة السابقة تدور حول طرف واحد من ثالوث الإبداع - المبدع - المتلقي وهو طرف الإبداع أو ما أسميناه من قبل «الإنشاء»، وهكذا ناقشنا الإبداع بين المحاكاة أو النقل والإنشاء، وعلاقة العمل الإبداعي أو الصورة بعادتها، ثم علاقة الشعر بالقيم الغربية عن طبيعته، وأخيرا قضية التأثير والتأثر التي عرفتها البلاغة العربية باسم السرقات الشعرية، نتحول في محورنا الجديد، محور الإبداع بين الموهبة والتقاليد، إلى المبدع نفسه لنناقش سؤالاً واحداً محورياً واحداً لا أظن أن البلاغة، عربية كانت أم غير عربية، توقفت عند غيره في هذا السياق، لقد انشغلت علوم البلاغة التي عرفها الإنسان، قديماً وحديثاً بالسؤال: ما الذي يجعل الشاعر شاعراً؟ واللافت للنظر أن علوم البلاغة، قديماً وحديثاً، اتفقت على أن الشاعر، لكي يكون شاعراً، يجب أن تتحقق له الموهبة الضرورية والاتصال، بل الدراية الكاملة، بتقاليد الشعر، وهو قول ينطبق على ألوان الإبداع الأخرى، ولم يكن الاختلاف بين بلاغة وبلاغة، أو عصر وعصر، أكثر من اختلاف في المصطلح ليس في المفاهيم، فهي الموهبة والتقاليد في النقد الغربي منذ حدد إثيوت ذلك في مقاله الذي يحمل العنوان نفسه في السنوات المبكرة من القرن العشرين، وهي قوة الرجل وقوة اللحظة عند ماثيو آرنولد في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وهي «الطبع» و«الصناعة» أو «الصناعة» في البلاغة العربية القديمة. ومرة أخرى تؤكد البلاغة العربية ريادتها المطلقة في تطوير وعي مبكر بهذا الركن من أركان النظرية الأدبية، واللافت للنظر في هذا السياق أن مفهومي الموهبة والتقاليد، كما نعرفهما اليوم، توافر لهما اتفاق بين البلاغيين العرب يقترب من الإجماع، من الجاحظ إلى حازم القرطاجني، فلنتوقف في البداية مع ابن طياملنا ونصيحته للشاعر لتحديد معاً أركان تلك النصيحة. إنه يطالب الشاعر بأن

يديم النظر في الأشعار... لتلتصق معانيها بفهمه، وترسخ أصولها

في قلبه، وتصير مواد لطبعه، ويذوب لسانه بألفاظها، فإذا جاش

فكره بالشعر أدى إليه نتائج ما استفاد مما نظر فيه من تلك

الأشعار، فكانت تلك النتيجة كسبيكة مشرقة من جميع الأصناف التي

النظرية الأدبية العربية

تخرجها المعادن، وكما قد اُغتربا من واد قد روتها سيول جارية من شعاب مختلفة، وكطيب تركب من أخلاط الطيب كثيرة، ويذهب في ذلك إلى ما يحكى عن خالد بن عبد الله القسري الذي قال: (حفظني أبي ألف خطبة ثم قال لي، تناسها، فتناسيتها، فلم أر بعد شيئا من الكلام إلا سهل علي)، فكان حفظه لتلك الخطب رياضة تفهمه، وتهذبا لطبقة، وتلقحها لأذهنه، ومادة لضماعته، وسببا لبلاغته ولسنه وخطابته،^(١٦٨) [التأكيد من عندي].

ولو قمنا بتجربة بسيطة، بالغة البساطة في الواقع، نقوم فيها بنسيان اسم البلاغي العربي القديم، ونسيان تاريخ كتابة عبار الشعر، إما في نهاية القرن الثالث وإما في بداية القرن الرابع الهجريين، وزدنا على ذلك تبسيط تراكيب الجملة وتقريبها من قارئ العصر الحديث وجدداً أنقشنا أمام نص معاصر في النقد الأدبي يحدد معنى التقاليد وطريقة اكتسابها ثم فائدتها للشاعر. وقد لا تختلف الصورة في نهاية الأمر كثيراً عن شرح إليوت للتقاليد وطريقة اكتساب العلم بها، لقد قدم إليوت اختيارات ثلاثة رفضها الواحد تلو الآخر ليصل بعد ذلك إلى البديل الأخير الممكن. قال مثلاً إن اكتساب معرفة بالتقاليد لا يعني مطالبة الشاعر المبتدئ بقراءة التراث الشعري كله ودون تمييز لأن ذلك أمر مستحيل وغير عملي، ثم قال إن اختيار شاعر واحد، أو شعراء عصر واحد اختياران غير كافيين لتحقيق تلك المعرفة. أما البديل الذي قدمه إليوت فهو وعي الشاعر المبتدئ بالنتائج الرئيسية للإبداع الشعري، وهي النصيحة نفسها التي قدمها الأب لابنه في القصة التي يوردها، لم يطلب ابن طباطبغا من الشاعر المبتدئ أن ينظر في الشعر كله، كما لم يطلب الأب من ابته أن يحفظ كل الخطب الموجودة، بل عين له ألف خطبة فقط لابد أنه اختارها بعناية لتمثل تصاليد الخطابة، هذا هو الركن الأول في مفهوم التقاليد في العصر الحديث، ثم إن الأب، بعد أن تأكد من حفظ ابنه للألف خطبة، طلب منه أن ينساها، وهذا مكون آخر أساسي في مفهوم التقاليد عند إليوت الذي يتشدد في تأكيده: أن الدعوة للوعي بالتقاليد لا تعني الدعوة للمحاكاة والتقليد، ولو كان ذلك ما يفهمه البعض من دعوته، فإنه في تلك الحالة يفضل الجودة على التقليد، إن الوعي بالتقاليد، عند إليوت لا يعني محاولة تكرار إنجازات الماضي وزوائعه في وعي وعن قصد، فالهدف هو أن

تصبح التقاليد جزءاً من موهبة الشاعر، تماماً كما حدد ابن طباطبا بكلماته «لتلتصق معانيها بفهمه، وترسخ أصولها في قلبه وتصير مواد لطبعة». ولهذه عاب إليوت على الكثير من الشعراء المعاصرين له والمحدثين بصفة عامة أنه في أثناء عملية الإبداع، يكونون في حالة وعي حيث يجب أن يكونوا في حالة لاوعي، وفي حالة لاوعي حيث يجب أن يكونوا في حالة وعي. لكننا نكسر بذلك قد دخلنا دائرة الموهبة والتقاليد من أوسع أبوابها، إذ إن رأي إليوت حول درجة الوعي ودرجة اللاوعي اللتين يشترط وجودهما معاً ومتزامنين في أثناء فعل الإبداع ثرماً في حفرة واسعة عبر الزمن إلى مفاهيم، الطبع، ومفاهيم الصنعة حينما تعني التكلف أو الوعي حيث يجب اللاوعي، ثم الصنعة بمعنى السبيل والصياغة والتصوير أو craftsmanship. فلنعلن الخلق قليلاً إذن.

لنتوقف أولاً عند مفهوم مبدع «الطبع»، وتعريف مبدع للشاعر المطبوع! يمكن تفسيره إلا بمعنى الشاعر الموهوب أو صاحب الموهبة، وأهمية التعريف ترجع إلى أنه يعود إلى بداية القرن الثالث الهجري، أي قبل أن تبدأ مرحلة الإنتاج عند الجاحظ الذي يجمع مؤرخو البلاغة العربية على أنه نقطة البداية للعصر الذهبي. والنص المذكور أورده الجاحظ نفسه في البيان والبيان وهو «يشير بن المعتمر» (٢١٠ هـ) الذي يقدم نصيحته لمن يحاول قرض الشعر:

«فإن كنت تجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصل إلى قرارها وإلى حقاها من أماكنها المقسومة لها، والنقابة لم تحل في مراكزها وفي نصابها، ولم تحصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أومائها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون لم يعبك بترك ذلك أحد، فإن أنت تكلفت ولم تكن حاذقاً ومعبوعاً، ولا محكما تسانك يصيرا بما عليك وما لك، صابك من أنت أقل منه، فإن لم تسمح لك الحظ في أول هلة، فلا تعجل ولا تضجر وعادود عند نشاطك، وفراغ بالك، فإنك لا تعدم الإجابة والموتاة، فإن تمنع عليك بعد ذلك، فتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك» (١٦٩) [التأكيد من عندي].

الحاضر الغائب هنا هو الموهبة talent، ربما يقول قائل: إن تأكيد أهمية الموهبة كشرط للإبداع أمر مفروغ منه وتحصيل حاصل، وأنه لا يستحق كل

النظرية الأدبية العربية

هذا الاهتمام من مؤلف المراسم المقمرة، والاعتراض، في جوهره، له وجاهته. لكن ما نفعه في الدراسة الحالية هو تتبع كل المكونات، سواء كانت أمورا مفروغا منها أو لا، التي تشكل في مجموعها نظرية عربية للأدب. ثم إن ثابث الموهبة - التقاليد - الصناعة، احتل أهمية كبيرة منذ نشر إليوت مقالته المشهور، ولم يعد بالإمكان منذ ذلك الوقت الحديث عن الموهبة في عزلة عن التقاليد، وإذا تحولنا إلى التقاليد، كما سنفعل بعد قليل، فتحدث ولا حرج. فالتقاليد ركن جوهري في النقد الجديد وفي الفلسفة الهرمنيوطيقية الألمانية والتي لا يمكن دراسة الكثير من النظريات اللغوية والاتجاهات النقدية الحديثة دون فهم عميق لموقف الفلسفة الألمانية الحديثة من التقاليد، يتساوى في ذلك هوسبرل وهابجر وجادامر. كان هذا تنويها لازما نعود بعده إلى تلك النصيحة المبكرة التي قدمها بشر بن المعتمر، النصيحة واضحة بالغة التحديد: «إذا وجدت ما كتبت ليس شعرا لأن الألفاظ لم تقع موقعها، والقافية قلقة لم تحل في مراكزها، فلا تكره الألفاظ أو القافية على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها، لأن ذلك هو التكلف بعينه، فمن الأفضل ترك الشعر، وإن يعيبك أحد بذلك أو يعيرك به، أنت ببساطة لست شاعرا. فإذا أردت التأكد من أنك لست شاعرا مطبوعا، وأنت لا تملك ملكة الشعر، فحاول الكتابة مرة أخرى، وفي ظروف مواتية، حتى لا تتعلل بالظروف فإن تمنع عليك الشعر وفشلت مرة أخرى فالأفضل لك أن تتحول من صناعة الشعر إلى أي صناعة أخرى تجيدها، إنك ببساطة لا تملك الموهبة».

واللافت للنظر أن البلاغيين درجوا منذ البداية على استخدام الطبع والمناعة مقترنين، ونادرا ما يشار إلى لفظة دون الإشارة إلى الأخرى في عملية ربط توجي بأن كل قسرة من القدرتين ضمان تحسن أداء الأخرى، فالطبع تلزمه صنعة والصنعة يلزمها طبع. وقد حدث ذلك الربط بين القوتين منذ البداية، منذ الجاحظ على وجه التحديد، وقد توقف شكري عباد أمام مقولة الجاحظ المشهورة بأن معيار القيمة في الشعر ليس هو المعاني، فالمعاني مطروحة في الطريق، لكنه «صنعة الطبع وكثرة الماء وجوده السبيل»:

وهي صفات لا يشرحها الجاحظ ولا أحد ممن جاؤوا بعده...

إلى أن جاء عبدالقاهر الجرجاني فترجمها بصطلح «النظم»، ولكن هل دلت هذه الترجمة على كل ما أراد الجاحظ ونقاد الشعر من

بعدد؟ يبدو أن «المائية» و«حسن السبك» صفتان مختلفتان، وقد تكونان متناقضتين، فاما المائية فتفيد ضد الجفاف (التجديد)، كما تفيد الجريان (الحركة)، وسرعة التمثيل في الجسم، والسيولة والشغافية بحيث تأخذ شكل الإناء الذي توضع فيه ولونه (إذا كان شفافاً)، وأما حسن السبك فيعطي معنى التشكيل، والأرجح أنه مستعار من صنعة الصائغ^(١٧٠).

ورغم أن شكري عياد توقف عند «المائية» و«حسن السبك» في سياق حديثه عن اللغة التي تهذيبها الحضارات، إلا أنه قدم تفسيراً لمصطلح المائية الذي ارتبط بالجاحظ بما يتفق مع مفهوم «صحة الطبع» أو الموهبة، قد يجد البعض صعوبة في تقبل التفسيرات المختلفة للمائية، لكن تلك التفسيرات تكتسب تحديدها من اللفظ المضاد وهو الصنعة، أي أن ما يتحدث عنه الجاحظ في نهاية الأمر هو ما يجيء الشاعر بحكم طبيعه وموهبته، وما يجنيه بحكم إتقانه لصناعته، ويخاطب جابر عصفور القضية بصورة أكثر مباشرة، ويجمع بين الطبع والصنعة في قراءته لعملية الإبداع كما يراها الجاحظ الذي رد قيمة الشعر، في قراءة عصفور، للمقولة نفسها المعروفة للجاحظ، إلى الجهد الإنساني الذي يكابده الشاعر في «إقامة الوزن وتخير اللفظ وجودة السبك»

بعد أن تتوافر للشاعر «صحة الطبع» التي هي مجرد مبدأ أولي يقوم به الشعر ولا يقوم به وحده، قال الشعر - عند الجاحظ - «صناعة»، والصناعة جهد إنساني يقع في مادة هي المعاني المطروحة في الطريق، التي «يعرفها العجمي والعربي والهندي والقروي»، ويقدر ما يقع هذا الجهد على مادة «المعاني» فإنه يقوم على استخدام أدوات مخصوصة. بكيفية تتحول معها المادة المطروحة في الطريق - خلال ممارسة هذا الجهد - إلى نظم فريد في تالفه الصوتي والدلالي، الذي يشبه - في أثره - تالف عناصر «النسخ»، أو تالف أصباغ «التصوير»^(١٧١).

إن قراءة جابر عصفور لمقولة الجاحظ يمكن قراءتها، هي الأخرى، في أكثر من سياق غير سياقنا الحالي، لكن ما يهمنا في تلك القراءة تأكيد أن «صحة الطبع» مجرد مبدأ أولي يقوم به الشعر ولا يقوم به وحده، وهكذا

النظرية الأدبية العربية

يضيف الصنعة التي تشترك مع الطبع في تحويل المعاني - المادة - المطروحة في الطريق إلى نظم فريد هو العمل الشعري. وبقدر ما يجمع الجاحظ، في قراءة عصفور، بين المهوبة والصنعة كشرطين لتحقيق الإبداع، فإنه أيضا، بمقارنته المعروفة بين الفضة أو الذهب والخاتم الذي يصنع من إحدى المادتين، يقدم نظرية إبداع حديشة بالمعنى الكامل للإبداع «والمحدثاة» أو العصرية،

وتعيدنا جولتنا السريعة إلى نقطة البداية، إلى ابن طباطبا العلوي وحديثه المفصل عن أهمية التقاليد، دون أن يذكرها بالاسم، وأهمية اكتساب الوعي بها كوسيلة لتهذيب الطبع نفسه، ويستمر ابن طباطبا في عيار الشعر مع مفهوم التقاليد التي يصفها «بالأدوات» اللازمة لفعل الإبداع، «الشعر»، كما يقول ابن طباطبا، «أدوات يجب إعدادها قبل مراسه، وتكلف نظمه، فمن تعست عليه أداة من أدواته، لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبأن الخلل فيما ينتظمه، وإحققه العيوب من كل جهة... فمنها التوسع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لفنون الآداب، والمعرفة بأيام الناس وأنسائهم، ومثابهم ومثالبهم، والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر، والتصرف في معانيه، وفي كل ما قالته العرب فيه»⁽¹⁷⁷⁾ [التأكيد من عند]. لا شك أن كلمات ابن طباطبا السابقة دعوة صريحة للمعرفة، فهو يدعو الشاعر إلى الاتصال الجيد بكل ما يتصل بالعملية الإبداعية نفسها وبالعلوم المختلفة التي تمتد بمعانيه مثل معرفة أيام الناس وأنسائهم، ومثابهم ومثالبهم. ولكنه يؤكد في الوقت نفسه أهمية الوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر، أي كيف يكتيون الشعر. كيف يكتب الشعر هو جوهر تقاليد الشعر.

وقد تبني الأمدي تعريفا مختلفا لمصطلحي «الطبع» و«الصنعة» في موازنته بين شعر أبي تمام والبحتري. ولهذا نخرجه من دائرة البحث في المهوبة والتقاليد، فهو حينما يدافع عن البحتري لأنه في رأيه أعراحي مطبوع، وعلى مذهب الأوائل، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام. وهي صفات تؤكد أن شعر البحتري، من وجهة نظر الأمدي، كان بعيدا عن التعقيد بعكس شعر أبي تمام الذي كان يميل إلى الصنعة والتكلف والاعتماد الزائد على ألوان البديع.

أما حازم القرطاجني، آخر البلاغيين العرب الكبار، فهو الأقرب إلى

مفهومنا المعاصر عن الموهبة الفردية والتقاليد، وأكثرهم تشدداً في ضرورة وجودهما معاً، قد يكون للاهتمام بالتقاليد الموروثة عن السلف سبب سياسي أو تاريخي يرى جابر عصفور. أنه مرتبط بالظرف التاريخي الذي عاشه القرطاجني، وهو يرى سقوط الأندلس وتراجع الحضارة العربية والإسلامية في أنحاء متفرقة من الدولة الإسلامية، ومن ثم فقد كانت العودة إلى التراث بالنسبة له عودة إلى أمجاد الأمة الإسلامية، «ولا سبيل عند حازم لمواجهة الانحسار والسقوط في الحاضر، إلا بالعودة إلى تقيضها في الماضي. ومن ثم تأكيد الأمجاد القديمة، التي صاحبت انتصار العرب وفتوحهم وقوتهم، وصاحبت ازدهار الشعر وقوته، في آن»^(١٧٢). ولكن هذا الدافع السياسي التاريخي لا يقلل من أهمية التقاليد التي اعتبرها حازم مكمل للموهبة أو الطبع الذي يراه في حالة احتياج دائمة للتقويم. وفي هذا أيضاً، يرى حازم القرطاجني أن الظرف التاريخي الذي عاشه وعاشته الحضارة العربية في القرن السابع الهجري أثر في الطبع الشعري الذي داخله الكثير من الفساد، وفي تأكيد على أهمية التقاليد الفنية تحرك حازم على محورين: الأول، علاقة الشاعر بالشعر؛ والثاني علاقة الشاعر بالنقد التنظيري. أما عن علاقة الشاعر بالشعر فقد بين حازم أهمية ملازمة الشاعر المبتدئ للشاعر الفحل والشعراء الفحول كوسيلة لاكتساب الوعي الضروري بالتقاليد الفنية:

«وَأَنْتَ لَا تَجِدُ شَاعِرًا مَجِيدًا مِنْهُمْ إِلَّا وَقَدْ لَزِمَ شَاعِرًا آخَرَ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ، وَتَعَلَّمَ مِنْهُ قَوَائِنَ التَّحْلُمِ. وَاسْتَفَادَ عَنْهُ الدَّرِيَّةَ فِي التَّصَارِيفِ الْبَلَاغِيَّةِ، فَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ أَخَذَ الشَّعْرَ عَنْ جَمِيلٍ، وَأَخَذَهُ جَمِيلٌ عَنْ هَدِيبَةَ بْنِ خُشْرَمٍ، وَأَخَذَهُ هَدِيبَةُ عَنْ بَشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ. وَكَانَ الْحَقِيقَةُ قَدْ أَخَذَ عِلْمَ الشَّعْرِ عَنْ زُهَيْرٍ وَأَخَذَهُ زُهَيْرٌ عَنْ أَوْسَ بْنِ حَجَرٍ. وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الشُّعْرَاءِ الْعَرَبِ الْمَجِيدِينَ الْمَشْهُورِينَ»^(١٧٣).

في غيبة وسائل النشر كما نعرفها، وضيقة دائرة رواية الشعر، مهما كان اتساعها، مقارنة بالطباعة والنشر، فإن ملازمة الشاعر المبتدئ للشاعر الفحل المتمرس في صناعته، والذي لازم هو الآخر في شبابه، كما يقول حازم، شاعرا فحلا آخر، وهكذا إلى نقطة البداية غير المرتبة، كانت هذه الملازمة الوسيلة الأولى لتحقيق معرفة بالتقاليد الأدبية، أو الشعرية. وهنا لابد من نقلة، نساعدنا

النظرية الأدبية العربية

في إبراز أهمية ما قاله البلاغي العربي القديم في القرن الثالث عشر الميلادي، فني بداية مقاله المشهور عن «التقاليد والموهبة الضردية» يعيب إليوت، على النقاد المعاصرين ميلهم، عند تقييمهم لإنتاج الشاعر الجديد، إلى البحث عن الجديد في شعر الشاعر، عن مواطن الاختلاف مع الشعراء الآخرين، من السابقين عليه والمعاصرين له، وعزل ذلك الجديد المختلف وتقييم الشاعر على أساس اختلافه وجدته. وفي رفضه لذلك الاتجاه الخاطئ يؤكد إليوت أن النظرة الموضوعية إلى القصيدة الجديدة سوف تؤكد أن أكثر مكوناتها إثارة للاهتمام، بل أكثرها ذاتية وفردا، هي تلك الأجزاء التي يؤكد فيها السلف وجودهم، والملازمة التي ينادي بها حازم تحقق، من بين أمور كثيرة، وجود طابور السلف الطويل في إبداع الشاعر الجديد أو المتأخر، بمعنى إليوت نفسه.

أما المحور الثاني، وهو علاقة الشاعر بالنقد التطويري، فهي نقطة اختلاف مع المفاهيم الحديثة قد تحسب لحازم القرطاجني بمعنى، وقد تحسب عليه، بمعنى آخر. النقد التطويري الذي نتحدث عنه هو القواعد التي تحكم الإبداع الشعري كما وضعها البلاغيون، ومعرفتها تعتبر علما بالشعر «لو تتبعه متابع متمكن من الكتب الواقع فيها ذلك لاستخرج علما كثيرا موافقا للقوانين التي وضعها البلغاء في هذه الصناعة»^(١٧٤). ما يحسب لحازم هنا أنه حرص على التقنين والتعقيد في عصر مهدد بشوش ما قبل السقوط وهنا، كما قلنا، يمكن أن نقول إن حازم القرطاجني، البلاغي العربي القديم، كان أكثر حداثة من الناقد الأمريكي - الإنجليزي، لأنه كان أكثر حرصا على تعلم الشاعر للقوانين التي تحقق علمية الشعر. وفي الوقت نفسه فإن شغف القرطاجني الواضح بالتقنين والتعقيد هو نقطة الضعف نفسها في نظريته الأدبية، لأن الثابت منذ عرف الإنسان الإبداع والنقد أن الإبداع هو الذي يقن لتقسمة بالدرجة الأولى، وإن كان يخفف من ثقل ذلك الولوج بالقوانين من جانب حازم أنه يربط بين الخبرة بالتقاليد ومعرفة القواعد، وبين الطبع أو الموهبة التي لا تصلح الخبرة أو القواعد من دونها ولا تكفي لإبداع شعر جيد.

لكن الربط بين الموهبة والتقاليد عند حازم ليس مجرد تلازم حتمي، بل توجد كامل تتحول معه التقاليد والقواعد والقوانين إلى جزء لا يتجزأ من الطبع أو الموهبة. فالموهبة وحدها لا تكفي لإنتاج شعر جيد، وهذا ما أكدته إليوت في القرن العشرين حينما قال إن الحس التاريخي ضروري بالنسبة لمن

يريد الاستمرار في الكتابة بعد سن الخامسة والعشرين، وقد قصد بذلك التجديد إلى أن الشاعر المهتدي قد ينتج في شبابه عملاً أو عملين جيدين اعتماداً على الموهبة وحدهما، لكنه، إذا أراد الاستمرار، يحتاج إلى الحس التاريخي والتقاليد، والتقاليد وحدها، أي القوانين التي تحكم الإبداع، لا يمكن أن تنتج شعراً جيداً من دون موهبة. إنها تنتج صنعة وتكلفاً فقط، حينما يطالب حازم القرطاجني بأن تصبح التقاليد، والقواعد التي تحكم فعل الإبداع «كالطبع الذي لا تكلف معه»، يكون كمن يتحدث بلسان إليوت في رأيه عن درجتي الوعي واللاوعي اللتين يتطلبهما فعل الإبداع. لقد أشرنا في بداية الحديث عن التقاليد والموهبة الفردية إلى ما يأخذم إليوت على شاعر يكون واعياً حيث يجب أن يكون غير واعٍ، وغير واعٍ حيث يجب أن يكون واعياً، ثم يترك إليوت مقولاته الجهورية دون تفسير، هنا يصبح التفسير ضرورياً لفهم ما يفنيه التوحد بين الموهبة والتقاليد عند كل من ت. س. إليوت وحازم القرطاجني، إن ما يتحدث عنه إليوت في الواقع يرتبط بالفصل الذي قد يرى به البعض أو يمارسه بين الموهبة (الطبع) والتقاليد، فلنتخيل شاعراً لا يملك إلا موهبة متفردة في كتابة الشعر، وحينما يمارس ذلك الشاعر فعل الإبداع فإنه يكون غير واعٍ، ولا نقصد هنا درجة من الغيبوبة أو الحلم التي يتحدث عنها أفاطلون في حوار المعروف «Ion»، لكن اللاوعي الذي يقصده إليوت هنا هو أنه لا يعرف لماذا يختار هذه اللفظة دون تلك، ولماذا يركب الصورة بهذا الشكل، إنه يفتقر إلى «القوة المانزة» التي يحددها حازم القرطاجني كواحدة من ملكات الشاعر الثلاث: «القوة الحافظة والقوة المانزة والقوة الصانعة»، ما نقصده أن الشاعر يحتاج، بالإضافة إلى درجة اللاوعي التي تأتي مع الموهبة، إلى درجة من الوعي النقدي بما يفعل. أما إذا كان الشاعر لا يمتلك الموهبة الأساسية، ويعتمد على التقاليد وما يتعلمه من قواعد النظم والإبداع، فإن فعل الإبداع سيكون بالنسبة له عملية وعي فقط تقتصر إلى لاوعي الموهبة، ومن هنا نجى عملية التوحد بين الموهبة والتقاليد عند إليوت وحازم، وهو توحيد يجعل الشاعر، في أشاء فعل الإبداع، واعياً حيث يجب أن يكون واعياً، ولا واعياً حيث يجب أن يكون لاواعياً.

بعد ذلك الاستعراض السريع لقضية التقاليد والموهبة الفردية لا أظن أن هناك من يستطيع أن ينكر، أن تلك القضية، تمثل خيطاً واضحاً في ضفيرة النظرية الأدبية العربية.

و- الركن الأخير: الشكل والمضمون

سوف يتساءل البعض، ولا شك، حول جدوى التوقف عند قضية الشكل والمضمون باعتبارها قضية منتهية ومحلولة. ومؤلف المراسم المقصرة يسلم بشرعية التساؤل إذا كان القصد منه أن الحديث عن الشكل والمضمون لم يعد بالسخونة التي كان عليها في الربع الأول من القرن العشرين في العالم الغربي، والشرقي أيضا، وحول منتصف القرن في العالم العربي حينما كانت المعركة بين أصحاب الواقعية الاشتراكية وأصحاب النقد الجديد على أشدها. عندئذ كان للحديث عن قضية الشكل والمضمون شرعيته، ولكن التسليم بذلك لا يعني أن القضية لم تكن حتى عهد قريب جدا موضوعا للجدل تبودلت بسببه الاتهامات والانتهاكات المضادة، كما كتب شكري عياد، ثم إن ذلك لا يعني أيضا أن القضية، بكل تنويعاتها الحديثة، لم تكن في موقع القلب من البلاغة العربية منذ أطلق الجاحظ قوله المشهورة: «والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي». ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن الكثير من القضايا التي سبق لنا التوقف عندها في الدراسة الحالية، سواء في النظرية اللغوية أو النظرية الأدبية، تصب بشكل مباشر في قضية الشكل والمضمون، التي تصب بدورها في تلك القضايا، وبصرف النظر عن سخونة القضية أو برودتها، فإننا لا نعيد قراءة التراث البلاغي العربي لنؤسس شرعية نقد حديث قد يكون ساخنا أو غير ساخن، بل لنؤسس شرعية التراث ذاته، ولنؤكد أن معظم مكونات النظريات النقدية الحديثة لم تكن غريبة تماما على البلاغة العربية القديمة. وهذا في حد ذاته سبب كاف للتوقف عند قضية الشكل والمضمون في تراثنا العربي.

ثم من قال إن الجدل حول الشكل والمضمون قد تراجع؟ ما علينا إلا أن ننظر حولنا في العالم العربي فقط لتتأكد أن القضية لم تفقد في نهاية القرن الماضي شيئا من السخونة التي اتصفت بها في بدايته. وعلى الرغم من الادعاء بأن البنيوية قد انتهت - وقد انتهت بالفعل في بلاد النشأة - إلا أن النقاد العرب ما زالوا يمارسونها جهارا، حتى هؤلاء الذين يدعون أنها قد انتهت، والواقع أن البنيويين العرب في موقف لا يحسدون عليه بأي حال من الأحوال، فقد انبهروا في فترة ما، في بداية الثمانينيات على وجه التحديد

بالبنيوية ووقعوا ضحايا «فُتنتها»، ثم ما لبثوا، وبسرعة شديدة، أن أدركوا أن البنيوية انتهت، بل كانت قد انتهت بالفعل في بلاد النشأة قبل أن يفتتوا هم بها. وبدأ البعض يكتب في التفكيك بالفعل ويترجم فكره منذ منتصف الثمانينيات، أي بعد سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة من صدور العدد الأول من فصول. وحتى ذلك الوقت كانت النقلة من البنيوية إلى التفكيك أمرا طبيعيا ما دعنا منبهرين بانتاج العقل الغربي، ويصرف النظر عن أننا بدأنا النقل عن المشروعين النقديين بعد أن كنا قد ازدهرنا وانتهينا بالفعل في بلاد النشأة. لكنهم سرعان ما اكتشفوا أن الإمبراطورية النقدية الجديدة، وهي التفكيك، تقدم لملتقى العربي مجموعة من المزالق والمحاذير التي لا يستطيعون الدخول فيها. وقد أشرنا إلى هذه المحاذير في الجزء الأول من الدراسة الحالية. وهكذا، وكما يحدث في قصص الخيال العلمي، تجسد البنيويون العرب، في أثناء رحلة التحديث، داخل نفق الزمن عند نقطة غير محددة. فهم لا يمكن إلا الاعتراف بنهاية البنيوية. وهم لا يستطيعون دخول متاحف التفكيك، ومن ثم يعودون إلى البنيوية: يعترفون بانتهاكها ويمارسون مبادئها تطبيقا ويؤسسون عليها تنظيرا. وهكذا، وفي مقابل سجن اللغة الذي تحدث عنه فريديريك جيمسون كأحد سلبيات المشروع البنيوي، وجد البنيويون العرب أنفسهم سجناء الزمن دون أن يلوح في الأفق منفذ يخرجهم من ورطتهم. وإذا رأى البعض في ذلك التحليل تحاملا، فليجحدوا لنا المذهب النقدي، العربي أو غير العربي، الذي يتبعونه منذ فترة غير قصيرة! لكن نقد البنيوية ونقضها ليس موضوعنا، وقد قمنا بذلك بما فيه الكفاية في المرايا المحدبة.

موضوعنا الحالي هو البنيوية التي مازالت معنا، حتى عهد قريب، على الأقل - حتى لا يغضب البعض - وقضية الشكل والمضمون. لقد أعاد المشروع البنيوي، بشقيه اللغوي والصرف والتوليدي، الجدال حول الشكل والمضمون إلى دائرة الضوء من جديد. وحينما «يقارب» البنيوي النص الأدبي من المنظور اللغوي ويجسم نفسه عناء تحديد العلاقة بين الوحدات اللغوية داخل البنية أو الجملة، ثم العلاقة بين الأساق الصغرى والأساق أو الأنظمة الكبرى، وكيف تحدث الدلالة عند سقوط المحور الراسي على المحور الأفقي، مركزا في أثناء ذلك كله على كيفية تحقق الدلالة وليس

النظرية الأدبية العربية

ماهيتها، فإنه بذلك يتعامل مع التهمة الشكلية للنص. وفي المقابل، فإن أصحاب البتيوية التوليدية حينما يفتحون النص أمام البنى والأنظمة الثقافية الأخرى، مثل علوم السياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس، فإنهم بذلك يتحولون في اتجاه المضمون، وإن كانوا يظلون مقيدين بكيفية حدوث الدلالة، ربما لا يتحدث أحد عن قضية الشكل والمضمون في أثناء ذلك كله، لكن القضية تمثل الحاضر الغائب.

من هنا تأتي أهمية إرجاع القضية برمتها إلى التراث النقدي. ومرة أخرى سوف يدهش القارئ للنظرة الشاملة والمفصلة التي تناول بها البلاغيون العرب قضية الشكل والمضمون في كل تشعباتها وبطريقة تجعل ذلك الجدول القديم جديدا في كل شيء. وفي الوقت نفسه، فإننا نذكر القارئ بأننا لا نمتلك مناقشة قضية الشكل والمضمون بمعزل عن القضايا الأساسية التي توقفتنا عندها في تطور علمي المعاني والبيان العربيين. فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن الشكل والمضمون بمعزل عن ثنائية اللفظ والمعنى، أو الصور والمادة، أو الأدب والأخلاق، أو نظرية النظم والضم. وفي ظل ذلك الرابط الحتمي بكل تلك القضايا، بل بسببه، تعددت مواقف البلاغيين العرب، تماما كما تعددت مواقف النقاد المحدثين في القرن العشرين، من العلاقة بين الشكل والمضمون؛ فمنهم من تهمس للشكل على حساب المضمون أو الصورة على حساب المعنى، ومنهم من حاول إمساك الغصن من منتصفها بين هذا وذاك، ومنهم من قال إننا لا نستطيع أن نتجاهل المضمون في تقويمنا للشعر، ومنهم من تبني موقفا بالغ التضيق قائلا بأن الشكل والمضمون وجهان لعملة واحدة، ولا يمكن مناقشة جانب بمعزل عن الآخر.

لنبدأ بنموذج لأحد هذه المواقف قبل أن نتحول إلى مناقشة المواقف جميعا ببعض التفصيل. نمولجنا هذه المرة لعبد القاهر الجرجاني الذي توافر أكثر من غيره من البلاغيين العرب على دراسة قضية اللفظ والمعنى في الشعر، والذي قدم في نهاية الأمر موقفا نقديا لا يقل عن حدائنه ونضجه عن أي موقف نقدي آخر في القرن العشرين؛ في معرض الحديث عن العلاقة بين المعنى والصنعة، أو المادة - الهيولي - والصورة، يكتب الجرجاني في دلائل الإعجاز:

«إن سبيل المعاني سبيل أشكال التحلي كالخاتم والشنف والسوار.
فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غُفلاً ساذجاً لم
يعمل صانعه فيه شيئاً أكثر من أن يأتي بما يقع عليه اسم الخاتم إن
كان خاتماً والشفن إن كان شنفاً، وأن يكون مصنوعاً بديعاً قد أغرب
صانعه فيه، كذلك سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غُفلاً ساذجاً
عامياً موجوداً في كلام الناس كلهم ثم تراه نفسه وقد ععد إليه
الهمير بشأن البلاغة وإحداث الصور في المعاني فيصنع فيه ما
يصنع الصانع الحاذق حتى يغرب في الصنعة ويدق في العمل ويبذل
في الصياغة»^(١٧٦).

يقارن عبدالقاهر بين الصانع أو الصائغ الحاذق وما يفعله في مادته،
وبين الشاعر وما يفعله في معانيه. وفي الحديث عن الفضة والصائغ
يقارن الجرجاني بين صائغ لا يتقن صنعته فيجبه الخاتم أو السوار غُفلاً
ساذجاً، ربما تكون قيمته الوحيدة في الفضة أو الذهب الذي صنع منه
وبين صائغ حاذق يحول الذهب أو الفضة إلى خاتم أو سوار بديع الصنع.
قيمته لم تعد في مادته بل في صنعته أو «شكله»، والشيء نفسه مع المعنى
حينما يستخدم اللفظ على الحقيقة ولا تتعدى وظيفته نقل معنى غفل
ساذج عامي أو معروف، وحينما يصنع منه شاعر حاذق بيت شعر جيد.
وهكذا يستطرد عبدالقاهر مقدماً نموذجاً للمعنى خارج الشعر والمعنى
نفسه داخل الشعر:

«وشواهد ذلك حاضرة لك كيف شئت، وأمثلة نصب عينيك من
أين نظرت، تنظر إلى قول الناس: الطبع لا يتغير، ولست تستطيع أن
تخرج الإنسان عما جيل عليه؛ فترى معنى غُفلاً عامياً معروفاً في
كل جيل وأمة، ثم تنظر إليه في قول المتنبي:
يراد من القلب نسيلكم وتابى الطباع على انتقال
فتجده قد خرج في أحسن صورة، وتراه جوهرة بعد أن كان خرزة، وصار
أعجب شيء بعد أن لم يكن شيئاً»^(١٧٧) «[التأكيد من عندي].

لقد تحول المعنى البسيط و«العامي»، أي الذي يعرفه عامة الناس، في
بيت الشعر إلى جوهرة بعد أن كان خرزة تافهة، وصار أعجب شيء بعد أن
كان لا شيء. وهكذا حينما نتعامل نقدياً مع بيت المتنبي، فإننا، في رأي

النظرية الأدبية العربية

عبد القاهر، يجب ألا نقيم تقييمنا له وحكمنا عليه على أساس معناه، أو مضمونه، بل على البيت كبيت شعر، كخطم، أو كشكل، لكننا بهذا المدخل المبكر نكون قد قصصنا النظرية الأدبية العربية على النقد الشكلاني وحققنا فصلا تعسفيا بين الشكل والمضمون. وهذه ليست حقيقة النظرية الأدبية العربية، بل إنها ليست حقيقة النظرية الأدبية عند عبد القاهر الجرجاني نفسه. لتعد إذن إلى البداية لتقوم باستعراض سريع للموقف من قضية الشكل والمضمون بعيدا عن التسيط المخل.

كان الجاحظ، بلا شك، من البلاغيين العرب الأول الذين وقعوا في فخ الفصل بين الشكل والمضمون بعبارته المشهورتين اللتين رددتهما البلاغيون العرب من بعده حتى نهاية العصر الذهبي تقريبا مما يؤكد تأثيرهما العميق في تحديد هذا الركن من أركان النظرية الأدبية العربية. والمقولاتان لا يمكن الفصل بينهما لأن كل واحدة تحدد معنى الأخرى ودلالاتها. المقولة الأولى: «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي... إلخ». والثانية: «وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ... وسهولة الخرج، وصحة الطبع... وجودة السبك... وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير». قد يبدو معنى المقولتين، للوهلة الأولى، واضحا صريحا مباشرا لا يحتمل اللبس، خاصة إذا تعاملنا معهما بالتعديد نفسه الذي مارسه عبد القاهر فيما بعد في تعامله مع المعنى والصورة، وما نقصده نحن بالمضمون والشكل، على هذا الأساس، نكون المعاني أو المادة الهيولي. كما هي الحال في المعنى الثقل الذي بدأ به ومنه المتنبى في البيت الذي ذكره عبد القاهر، منفصلا عن الصورة أو الشكل، لكن الأمور في تلك الفترة المبكرة من تاريخ البلاغة لم تكن يمثل هذا الوضوح بل إن ما يقوله الجاحظ في الحيوان بشأن هذه القضية يعدله في البيان والتبيين. وقد توقف العشماوي عند ذلك الغموض محذرا من التسرع في فهمها فهما سطوحيا:

«وفي عبارة الجاحظ على شهرتها وكثرة تداولها، بل وتأثيرها الشديد فيمن جاوزوا بعد الجاحظ من نقاد غموض واضح فهي لم تحدد التعديد الصحيح لمفهوم المعنى عند الجاحظ وفصلت فصلا ممارما بين اللفظ والمعنى.

أما عن غموض العبارة فنأشئ من أن الجاحظ قد نفذ عن المعنى كل أهمية، وذلك في كلماته الأولى التي تبدو انفعالية حاسمة،

وذلك عندما نقى الحسن في الكلام عن المعنى بأن جعل المعاني مطروحة في الطريق... فهل المقصود من هذا أن المعنى شيء وصياغته شيء آخر أم المقصود أن العبرة في الشعر بصيغته وليست بأفكاره أو معانيه؟^(١٧٨)

وبرغم الغموض الذي أشار إليه العشماوي، إلا أننا لا نستطيع إنكار الجاحظ الواضح لـ «جودة السبك» وهو ما لا يتعارض مع آراء الجاحظ في الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم، فهو لا ينفي أهمية المعاني في القرآن، ولا يمكن أن يكون قد قصد إلى ذلك، لكن المتفق عليه أن القرآن جاء معجزاً بلغته وبلاغته، ولهذا رفض البلاغيون العرب ميكراً مبدأ «الصرفة» الذي قال إن العرب كانوا قادرين على الكتابة بلغة لا تقل بلاغة عن لغة القرآن لو لم يصرههم الله عن ذلك. فالقرآن ببلغ بلغته التي لا يقدر عليها العرب مهما أوتوا من بيان، لهذا اهتم البلاغيون بدراسة الإعجاز اللغوي دون أن يعني ذلك على الإطلاق التقليل من أهمية معانيه، وهو ما يؤكد صلاح رزق في أدبية النص حيث يرى أن موقف الجاحظ بصفة عامة يقوم على أن القرآن معجز من حيث تميز بديع نظمته وبلاغة تأليفه عن كل نظم وناليف، «وتدل يهوئه [الجاحظ] الموزعة في كتبه المتعددة على أن سبيل التأكيد من ذلك واستكشاف معالنه تلتبس في الكيفية الخاصة لتعبيره عن المعاني على نحو يبلغ الغاية من توظيف المجاز في اللفظ والتركيب وتحقيق فاعلية التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز الدقيق في موضعه»^(١٧٩).

وعلى الرغم من توقف ابن طباطبا عند شخصية الشكل والمضمون واستخدامه لفردات أكثر اقتراباً من استخدامنا المعاصر للمصطلحين، إلا أن موقفه لا يخلو من التشوش الذي يقترب من التضارب الصريح أحياناً، وهو تشوش يفرضه موقفه المبدئي الذي يربط بين الشعر والوظيفة الأخلاقية، إذ إن هذا الربط المبدئي بين الشعر والأخلاق يدفع ابن طباطبا إلى القول بأهمية المعنى داخل الصياغة الشعرية وخارجها، ومن ثم، فإن ذلك المعنى يقبل الحكم التقييمي بمفرده. وهذا الفصل الصريح بين المعنى والتقصيدة، بين الشكل والمضمون يتعارض مثلاً مع مقولة ابن طباطبا المعروفة: «والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه، كما قال بعض الحكماء: للكلام جسد وروح، فجسده التطق وروحه معناه»^(١٨٠). مما

النظرية الأدبية العربية

يعني استحالة الفصل بين الشكل والمضمون، تماماً كما يستحيل الفصل بين الجسد والروح. ولا يستطيع الإنسان أن يفهم رأي ابن طباطبغا النهائي إلا في ضوء فهمه لأهمية الوظيفة الأخلاقية للأدب، وهي وظيفة قد تفسر، دون أن تبرر، رأي ابن طباطبغا في إمكان نشر معنى القصيدة الشعرية دون أن يفقد ذلك النثر جودة المعنى، ويتوقف جابر عصفور في مفهوم الشعر عند محاولة ابن طباطبغا لتحقيق درجة من التوازن بين الموقفين المتناقضين:

«أي أن ابن طباطبغا يحاول الموازنة بين رد حسن الشعر إلى الصياغة وضرورة الاهتمام بالمعنى، وبذلك يوازن بين تصوراته الأخلاقية عن المعنى وتسليمه بأهمية الصياغة ودورها الأساسي في صنعة الشعر، فلا يتعارض مع التسليم بأن المعنى الواحد يمكن أن يعبر عنه بطرائق متعددة... وعلى هذا الأساس يمكن أن يصبح محتوى القصيدة أفكاراً ضائعة بذاتها، لها وجودها المستقل، ومستوياتها متباينة المغزى والجوى، فإن القيم من هذه الأفكار يحدث تأثيراً أقوى من خلال صياغة - هي بدورها - كيان مستقل، توشى به المعاني كما يوشى التوبى بالتطريز، وتبرز به الأفكار كما تبرز الجارية من أحسن معرض»^(١٨١).

وفي بعض الأحيان يقف الإنسان في حيرة أمام بعض مقولات ابن طباطبغا التي توحى بالكثير مما تقول وبالكثير مما قصد إليه البلاغي العربي نفسه، من هذه المقولات قوله «للمعاني الفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض، وكمن معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكمن معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح البسمة»^(١٨٢). هل يتحدث ابن طباطبغا هنا، كما يرى عصفور، عن «ملاءمة معاني الشعر لمبانيه» أم عن عكس قراءة عصفور، وهو «ملاءمة مباني الشعر لمعانيه» أم عن الاثنين معاً؟ كلمات العلوي تشي بأنه يتحدث عن الاثنين معاً، خاصة حينما يتحدث عن المعنى الحسن الذي شين بمعرضه والمعرض الحسن الذي ابتذله معنى رخيص، وبهذا يعيدنا ابن طباطبغا إلى صورته الأولى عن الجسد والروح والشكل والمضمون اللذين لا يمكن عزل الواحد منهما عن الآخر. وتزداد

حيرتنا مع الشطر الأول من المقولة حيث يقول: «للمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتفتح في غيرها»، وهذا مبدأ يفرض علينا إعادة قراءة الشطر الثاني من متطور مختلف، لكن السؤال الذي يفرض نفسه علينا فرضاً هنا: هل يعني ابن طباطبا أن كل معنى يفرض صورته التي يحسن تجسيده بها؟ هل يفرض المعنى شكله؟ وقيل أن تسرع في الإجابة دعونا نحذر القارئ بأن العلوي هنا لا يقصد «بالألفاظ» الألفاظ مفردة، ولكننا، ومن داخل منظومة المعنى واللفظ التي انشغلت بها البلاغة العربية، نقصد بالألفاظ الصورة أو التجسيد أو كل ما يدخل في تكوين المعرض، أي الصورة النهائية، إذن، فحينما يقول ابن طباطبا «أن للمعاني ألفاظ تشاكلها» فلا بد أنه يعني أن المادة تفرض الشكل الذي يفاسبها، وهذا مبدأ نقدي حديث توصل إليه النقد حتى يخرجوا من ازدواجية الشكل والمضمون إلى التوحد الكامل بين الشكل والمضمون، هل هذا هو ما توحى به كلمات ابن طباطبا في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجريين؟

ويقرب قدامة بن جعفر من موقف النقد الحديث بخطبة ثابتة فيما يتعلق بقضية الشكل والمضمون. لقد ابتعد تماماً عن تأرجع ابن طباطبا بين الشكل والمضمون وعن الغموض الذي لازم موقفه وهو يحاول إمساك العصا من وسطها. وفي تلك المرحلة المبكرة من تاريخ البلاغة العربية يطور العقل العربي موقفاً مكتمل النضج يقوم على الربط الذي لا انفصام له بين الشكل والمضمون، خاصة بعد أن فصل بين قيمة الشعر كشعر ووظيفته الأخلاقية بصورة واضحة، وهو الفصل الذي سيؤسس عليه بعد ذلك مباشرة كل من القاضي الجرجاني وعبد القاهر موقف البلاغة العربية النهائي من العلاقة بين الشعر والغايات الأخلاقية والعملية، وما علينا إلا أن نذكر، بداية، بموقف قدامة من بيتي امرئ القيس:

فمثلك جيلي قد طرقت ومروض فآلهيتها عن ذي تائم محول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق ونحتي شقها لم يحول

وكيف دافع عن البيتين ضد تهمة فحش المعنى باعتبار أن ذلك حكم أخلاقي لا علاقة له بالشعر كشعر، فليست «فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلاً رداءته في ذاته». وقد توقفنا في ركن سابق عند نضج النظرة الجمالية التي يعبر

النظرية الأدبية العربية

عنها موقف قدامة. ما يهمنا في السياق الحالي أنه إذا كان ذلك هو موقف قدامة من المعنى فإنه يعني اهتماماً أكثر بالصياغة والصناعة والصورة، أي الشكل. وهكذا نتوقف مرة أخرى عند كلمات لقدامة سبقت إحالة القارئ إليها، وإن كنا هذه المرة ندرسها من منظور مختلف:

«إن المعاني كلها معروضة للشاعر وله أن يتكلم فيها فيما أحب وأكره من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة من أنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصورة منها مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة، وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعفة والرفث والنزاهة والبذخ والقناعة والمده وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة»^(١٨٢) [التأكيد من عندي].

هنا يقدم قدامة بن جعفر نظرية جمالية وتقديرية كاملة في سطور قليلة. وسوف نتقبل مخاطرة التكرار في بعض الجزئيات ونحن نحدد مكونات هذه النظرية التي نقول بتكاملها، يؤكد قدامة حرية المبدع في الكتابة في أي موضوعات يشاء «من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه». ثم يعود في نهاية السطور لتأكيد تلك الحرية ورفض الحظر حينها يقول إن تلك المعاني قد تكون «من الرفعة والضعفة والرفث والنزاهة والبذخ والقناعة». ومن الواضح هنا أنه ينطلق من موقف رفض تقييم الشعر في ضوء «أخلاقية» أو «لا أخلاقية» معانيه. وبيتا شعر امرئ القيس بالطبع ماثلاً في ذهنه لأنه سيحيل إليهما ويديلهما برأيه في فحص المعنى أو عدم فحصه بعد سطور قليلة من نقد الشعر. كان ذلك هو المكون الأول في النظرية. أما المكون أو الجزء الثاني فيها فهو نتيجة تترتب على الأول، وهو أن معك القيمة في التعامل مع الشعر هو «البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة»، والتجويد الذي يعنيه قدامة هو تجويد صناعة الصورة، تماماً كتجويد النجار في صناعة الباب والصائغ في صناعة الحلبي، وهذا أمر طبيعي، فإذا كان قدامة قد رفض الحكم على الشعر باعتباره معنى أو مضموناً فمن الطبيعي أن يؤسس حكمه على الشعر باعتباره تصويراً أو شكلاً. وإلى هنا فإن موقف قدامة بن جعفر لا ينقصه النضج النقدي، لكنه، وفي منتصف المقتطف الذي أحطنا إليه،

يدخل عنصر أو مكونا ثالثا إلى نظريته الأدبية أهميته القراءات الحديثة للتراث حتى الآن بشكل غريب ولافت للنظر. فبين الحديث عن الشعر والمعنى، من ناحية، والنجارة والخشب، من ناحية ثانية، يكتب قدامة: «كما يوجد في كل صناعة من أنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها مثل الخشب للنجارة والفضة للصائغ». عم يتحدث قدامة بن جعفر هنا؟ إن الجملة، مبسطة، تعني أنك لا تستطيع أن تشكل شيئا لا وجود له، وأنه، لكي يتم التشكيل، لابد من وجود مادة تقبل ذلك التشكيل. إنه يتحدث بوضوح، وإن كان موجزا، عن ارتباط الشكل بالمضمون والمضمون بالشكل بصورة لا يمكن معها الفصل بينهما، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ يقول إنه لا وجود للشكل من دون مضمون ولا وجود للمضمون - (إذا كنا نتحدث عن المعنى داخل القصيدة، وليس المعنى غفلا عاما - دون شكل، فاللباب الذي يصنعه النجار، وهو أساس الحكم على صنعيته ومدى تجويده قيمها ومقياس حذفه المهني Craftsmanship، لا يمكن أن يجيء إلى الوجود دون مبادئه الأولى، وهي الخشب، والشئ نفسه مع الخاتم أو السوار والصائغ والفضة أو الذهب، ويسحب قدامة العلاقة نفسها والحكم على العلاقة بين القصيدة والشاعر والمعنى، فالقصيدة لا تأتي إلى الوجود مفرغة من المعنى، والمعنى الشعري هو الآخر، لا يوجد إلا في القصيدة، في الشكل أو الصورة الفنية. وإذا كان هناك من يقول إننا حملنا جملة واحدة قصيرة كل هذا المعنى، فعليهم أن يتذكروا أن الكثير على القضايا النقدية المعاصرة تعتمد أحيانا على جمل لا تزيد على جمل قدامة بن جعفر!

ويصل موقف البلاغة العربية القديمة من قضية الشكل والمضمون إلى ذروة حدائتها - بمعنى عصريتها فقط modernity - عند عبدالقاهر الجرجاني. ومن نافلة القول هنا التذكير بأن موقف عبدالقاهر من الشكل والمضمون لا يتفصل عن آرائه في النظم وثباتية اللفظ والمعنى - والشئ، نفسه في الواقع يمكن أن يقال عن جميع أركان النظريتين اللغوية والأدبية عند عبدالقاهر، فهي جميعها أجزاء من تسجيح نظرية النظم. وقد توقفنا في بداية الحديث عن الشكل والمضمون عند كلمات لعبد القاهر يؤكد فيها أهمية النظم مقارنة بالمعنى، وقد اعتمد عبدالقاهر في تأسيسه لتلك الأولوية وذلك التفضيل على المقارنة المطروقة، والتي اعتمد عليها البلاغيون العرب جميعا

تقريباً، وهي المقارنة بين الصناعة: صناعة النجار أو الصائغ أو الصباغ أو النسيج وبين «صناعة الشعر»: كذلك سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غفلاً ساذجاً عامياً [يشارك فيه عموم الناس] موجوداً في كلام الناس كلهم ثم تراه نفسه وقد عمد [إليه البصير بشأن البلاغة وأحداث الصور في المعاني فيصنع ما يصنع الصنَّعُ الحاذق حتى يغرب في الصنعة ويبدق في العمل ويبدع في الصياغة]^(١٨٤)، وقد قلنا في حينه إن تلك كلمات تؤسس الأولوية بشكل قاطع للصورة أو الصناعة أي الشكل. لكن موقف عبدالقاهر الحقيقي من قضية الشكل والمضمون ليس بهذه البساطة، فهو يطور موقف قدامة بن جعفر السابق الذي يشي أو يوحي بالربط بين الشكل والمضمون إلى موقف نقدي وجمالي متكامل يجيء تنويجاً لآراء البلاغيين العرب السابقين من ناحية وتهجيلاً تاضجاً للموقف المائل من قضية الشكل والمضمون في عصرنا الحديث، من ناحية ثانية.

ويعيدنا الموضوع إلى نقطة البداية - وهي أيضاً نقطة النهاية - عند عبدالقاهر، وهي شائفة اللفظ والمعنى كمحور جوهري لنظرية النظم. ولن نغير الجسور نفسها التي عبرناها أكثر من مرة من قبل، وإذا فعلنا فسوف يكون ذلك من قبيل التذكرة الموجزة. من المقولات التي تعتبر إجازاً رائعاً لنظرية النظم عند عبدالقاهر وعلاقتها بثائية اللفظ والمعنى، والتي سبق أن توقفنا عندها قول الجرجاني: «وجملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة للفظه مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكننا نوجبها لها موصولة بغيرها، وملقاً معناها بمعنى غيرها».

لقد كان عبدالقاهر، في رفضه لموقف اللفظيين، حريصاً على تأكيد أن المعاني لا توجد في الألفاظ مفردة، بل إنه من بين البلاغيين الذين أثبتوا مبكراً اعتباطية العلامة، فالحروف لا ترتب في اللفظة حسب معنى مسبق، أي أننا لا نستطيع أن نتحدث عن نظم للحروف في كلمات. ومن هنا كان من الممكن أن يتعارف على أن التصوت «رب ض» يشير إلى فعل الضرب بدلاً من «ض ر ب»، وأنه في نهاية الأمر إلى أن الألفاظ تشير، كعلامات، إلى أشياء متفق مسبقاً على إشارتها إليها، ولكنها مفردة لا تحدث معنى، أي معنى، من جهة ثانية فإن تطبيق أحكام النحو وقوانينه ليس كافياً لتحقيق المعنى. فالتنوع ليس قوالب مفرغة أو جامدة، لكنه أداة أساسية لتمكين «النظم» أو البنية

اللغوية، من تحقيق دلالة ومعنى، بل، وهذا هو المهم، إن البنية اللغوية تنظم وحداتها، وتقام العلاقات بين تلك الوحدات حسب أحكام النحو؛ لكن ذلك النظم وتلك العلاقات يحددهما المعنى المسبق في العقل، وهنا يكمن أخطر ما يقوله الجرجاني في قضية الشكل والمضمون:

وهنا لابد من عبور جسر سبق لنا أن عبرناه، ربما أكثر من مرة، لكننا كدأبنا حتى الآن، نعبده نحو غاية جديدة، وتعامل مع الإحالة نفسها من منظور مختلف، يفرق الجرجاني، ويلح في ذلك في أكثر من موضع في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، بين نظم اللفظة مفردة وعلاقتها بالمعنى، ونظم الألفاظ داخل بنية لغوية وعلاقة ذلك النظم بالمعنى، وفي ذلك يكتب عبدالقاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز:

«وذلك أن نظم الحروف هو توأليها في التطق فقول وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا النظم لها بمقتضى ذلك رسماً من العقل أن يتحرى في نظمها لها ما تحراه قلو أن واقع اللغة كان قد قال «ريض» مكان ضربه لما كان في ذلك ما يؤدي إلى حساد . وأما نظم الكلام فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيها حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. وكذلك كان عندهم نظير النسخ والتأليف والتصياغة والبناء والوشى والتجوير وما أشبه ذلك مما يجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع حلة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح»^(١٨٥) [التأكيد من عندي].

قبل مناقشة دلالة سطور عبدالقاهر، يستطيع القارئ أن يقارن مناطق التأكيد في السطور نفسها من موقف إلى آخر، وسوف يرى أنها تختلف من سياق إلى سياق، ماذا يقول عبدالقاهر إذن؟ من الواضح أن السطور الأخيرة حيث يتحدث عبدالقاهر عن النظم ويقارنه بالتأليف والتصياغة والبناء والوشى والتجوير وما أشبه ذلك تعيدنا بوضوح إلى المربع رقم «واحد»؛ وهو أهمية الشكل. أما أن الشكل مهم بالنسبة لعبدالقاهر، فهذا أمر مفروغ منه، ولم يحدث في تاريخ البلاغة العربية أن كتب بلاغي عن النظم والتصياغة والتصوير كما كتب عبدالقاهر. لكن

النظرية الأدبية العربية

أهمية النظم لا تنسخ أو تلغي أهمية المعنى عند عبدالقاهر. ونستطيع أن نقول أيضا إنه لم يكتب بلاغي عربي عن المعنى بالقدر نفسه الذي كتبه عبدالقاهر. والأهم من هذا وذاك، أن حديثه عن النظم جاء مقرونا طوال الوقت بالمعنى، أي أن تحقق المعنى والزيادة فيه شرط تحقق النظم الجيد، وتحقق النظم الجيد طريق تحقق المعنى، ولا فصل بين الاثنين. ويكفي أن نذكر هنا مرة ثالثة أو رابعة بشطر البيت المشهور: «فما نيك من ذكرى حبيب ومنزل» منظوما حسب أحكام النحو، ثم «حسب المعاني» في النفس، وكيف تفشل الكلمات نفسها في تحقيق أي دلالة مرتبة، كما يقول الجرجاني، كيف جاء واتفق».

فلنتوقف، إذن، عند المسابيح الجديدة في نص عبدالقاهر السابق. **المفتاح الأول:** لماذا لا تحقق اللفظة مفردة معنى؟ يقول عبدالقاهر إن اللفظة مفردة لا تحقق معنى لأنه لا وجود لمعنى، أي معنى، سابق على نظم حروف اللفظة، لأن النظم في هذه الحالة لا يحدث «بمقتضى» عن معنى ولا الناظم بمقتضى في ذلك رسما من العقل أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه. فاللفظة لا تعني، أنها تدل أو تشير فقط إلى شيء اتفق اعتباطيا وبما يشبه العرف الاجتماعي على إشارتها إليه، ولا يسبق التصوت بها «رسم من العقل» أو معنى مسبق في النفس. ويتضح ما يقصده عبدالقاهر في هذا الشق الأول من النظم، وهو نظم الحروف، حينما ينتقل إلى نظم الوحدات اللغوية (الألناظ) داخل بنية لغوية (بيت شعر أو حتى جملة منثورة). ونتحول إلى **المفتاح الثاني:** ما أهمية المعاني في النظم الشعري؟ يرى عبدالقاهر أن الحال في نظم الكلمات يختلف عنه في نظم الحروف. لأن الشاعر في نظمه لكلمات البيت الشعري «يقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس»، وهذا هو على وجه الدقة ما يحدد مواضع الكلمات داخل البنية المنظومة «حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح». إن ما يقوله عبدالقاهر هنا إنه لا يوجد نظم أو شكل من دون معنى أو مضمون، بل إن المعنى سابق للنظم، وما يفعله الشاعر حقيقة في أثناء فعل الإبداع أنه يرتب - ينظم - الفاظه على حسب ترتيب المعاني في العقل، ونذكر مرة أخرى بدائرة التوصل التي حددها عبدالقاهر والتي لا تختلف

عن الدائرة السوسيرية المغلقة، فعملية التوصيل تبدأ من داخل العقل، من الصور والمعاني العقلية والتي يقوم المرسل بترجمتها إلى كلام منطوق، قد ينقشه أو يخطه، والرسالة الصوتية هي ما يتلقاه المستقبل ليحوّله إلى الصور والمعاني العقلية التي بدأ بها ومنها المرسل، ويرتبط بأهمية المعنى تأكيد عبدالقاهر، في حديثه على الاستعارة، أن الاستعارة عقلية أو معنوية وليست لفظية.

ماذا يعني كل ما سبق؟ أنه يعني أمرا واحدا: إن الأدب ليس معنى فقط أو شكلا فقط، لكنه بناء عضوي من الاثنين يصعب، إن لم يكن من المستحيل، الفصل بينهما.

ذاك هو موقف البلاغة العربية القديمة من قضية الشكل والمضمون ويهمننا هنا أن نثبت مبدئين: أولاً، إن الموقف من قضية الشكل والمضمون وصل إلى درجة الربط الكامل بينهما ولأسباب لا تختلف كثيرا عما توصل إليه المحدثون، ثانياً، إن تعدد المواقف من هذه القضية وتباين الآراء فيها، من تحيز للشكل على حساب المعنى، وللمعنى على حساب الشكل، ليس أمرا انفردت به البلاغة العربية القديمة، ولم يكن أبدا من علامات ارتباكها، لأن التعدد نفسه والاختلاف في الآراء كان وما زال سمة أساسية من سمات النقد الحديث.



مما لاشك فيه أن مشروع التنوير في العالم العربي له شرعيته، وهي شرعية سيظل محتفظا بها لبضعة أجيال قادمة. وليس الأمر متصورا على منطقتنا، إذ إن شرعية التنوير قائمة وضرورية في أي منطقة من العالم تحارب شعوبها معركة، تختلف في حدتها وضراوتها من منطقة إلى أخرى، ضد الخرافة والتفكير الخرافي من أجل العلم وسيادة العقل. والقول بغير ذلك حكم أكيد بالموت في عالم يأكل فيه القوي الضعيف، ثم إن البحث عن الهوية الثقافية لا يعني العزلة وإغلاق النوافذ والأبواب - حتى لو افترضنا أن هذا اختيار ممكن - ورأب الصدع والخروج من مأزق ثقافة الشرخ لا يعنيان أن ندفن رؤوسنا في الرمال متظاهرين بأن العالم من حولنا، العالم الذي يموج بالتحولات والتغيرات، لا وجود له. فهو موجود بكل تحولاته وتغيراته، من ناحية، ويقول النظام العالمي الجديد والعولمة بفرض هذه التحولات والتغيرات علينا شئنا أم لم نشأ، من

لم تكن الثقافة العربية فلسفة، ولم يكن العقل العربي، قط، متخلفا. كل ما حدث اننا في انهيارنا بإنجازات العقل الغربي وضعنا إنجازات البلاغة العربية أمام مرآة مقعرة صغرت من حجمها وقللت من شأنها.

المؤلف

ناحية ثانية. وإذا لم نتعامل مع حقائق الواقع الجديد فسوف يتحول النسخ إلى قبيلة تفجرنا من الداخل.

لكننا ونحن نؤكد شرعية مشروع التنوير، نلقت النظر، في الوقت نفسه، إلى الدعوة القوية التي ارتفعت في قلب الحضارة الغربية ذاتها إلى تصفية المشروع التنويري بعد أن أوصلت سيادة العقل والعلم هذه الحضارة إلى طريق مسدود أبرز علاماته كبت الذات، التي قام المشروع التنويري لتحريرها أصلاً، بالإضافة إلى سيادة القيم المادية، قيم السوق ورأس المال، والتفتت والتشردت والتراجع المؤسسي للقيم الروحية. من أبرز ملامح الدعوات لتصفية المشروع التنويري الغربي تلك الدعوة القوية التي ظهرت في السنوات الأخيرة من القرن العشرين للعودة إلى القيم الروحية التقليدية، أو لضرورة تطوير حداثة لا تفصل بالضرورة بين سيادة العقل والفكر العلمي وبين الدين. وهذا اختيار مازال، لحسن الحظ، قائماً بالنسبة لنا. مشروع التنوير الغربي استغرق أكثر من ثلاثة قرون في تاريخ الفكر الغربي قبل أن يدرك العقل الغربي صلاية الحائط الذي يواجه الحضارة الغربية في نهاية الطريق. أما نحن فما زالت أماننا حرية الاختيار والانتقاء، على الأقل؛ اختيار ألا نلقي بأنفسنا في أحضان الحداثة الغربية في انبهار كامل وعمى شامل عن مأزق تلك الحداثة نفسها.

الواقع أن الاختيارات أماننا كثيرة، بل إن البعض قد اتخذ قراره بالفعل بشأنها تحت ضغوط الرغبة المحمومة في «التحديث»، وكلما زادت انكسارات العقل العربي وهزائمه اندفعنا في طريق تحديث ذلك العقل في حماس يفسينا أي حسابات متأنية. ومما لا شك فيه أن التحديث قدرنا، وهو قدر يحتمه الطرف التاريخي للحضارة العربية، لكن كون التحديث قدراً شيء، وتحول ذلك التحديث إلى حداثة غربية شيء آخر. ويهملنا هنا أن نؤكد أننا لا نتخذ موقفاً ضدياً من «التحديث» أو «الحداثة» في حد ذاتهما، لكننا بالقطع نرفض الارتواء في أحضان الحداثة الغربية في تجامل شبه كامل لورطتها ومازقتها من ناحية، ولخصوصية الثقافة العربية، من ناحية أخرى، ورطة الحداثة الغربية تتمثل في أنها، بعد سنوات طويلة من سيادة العلم الذي تحكمه قوانين المادة والتجريب

الإمبريقي، وصلت إلى مرحلة أدرك معها العقل الغربي أن العلم، بهذا المعنى المحدد، فشل في تفسير كل ظواهر الوجود، بل فشل في تحقيق السعادة للإنسان وتحول إلى الشك الكامل والشامل في كل شيء، ولم تعد هناك سلطة تعلو على سلطة الذات الفردية. ولن تعود هنا إلى فلسفات الظاهراتية والتأويل التي تؤسس الوجود داخل وعي الذات به، أو إلى إستراتيجية التفكير التي ترفض وجود أي مركز إحالة مرجعي، فيزيقي أو ميتافيزيقي، خارج النص اللغوي، بل نتوقف هنا عند واحدة من أكثر مسرحيات الكاتب المسرحي العبثي الأمريكي، إدوارد أولبي، تعقيدا وغموضا، ونعني بها أليس الصغيرة Tiny Alice، والتي لا يمكن قراءتها إلا باعتبارها تجسيدا للمأزق الأخير للعقل الغربي في ظل سيادة علم تحكمه قوانين المادة فقط. فمأساة البطل « جوليان »، وهو قسيس، أنه رجل دين نموذجي في عالم تسوده قيم مادية شاملة. وهو، في إيمانه المبدئي والمحوري بعالم الغيب والميتافيزيقي، يتمسك بسلم أفلاطون المعروف القائل بأن الواقع المادي من حولنا ليس أكثر من محاكاة غير حقيقية لعالم المثل العلوي، عالم الحقيقة الوحيدة، وحينما شك جوليان في يوم، سابق على بداية أحداث المسرحية، في وجود ذلك العالم الغيبي، فقد عقله وقضى سبع سنوات كاملة في مصحة للأمراض العقلية. إيمان الرجل، إذن، هو العقل والتوازن، وشكه هو الجنون وفقدان التوازن، ويدخله المؤلف في سلسلة من التجارب الجديدة التي تطالبه بأن يعكس السلم الأفلاطوني، وينزل من عالم الميتافيزيقي إلى عالم المادة، ويصغر بدلا من أن يكبر. ويفضل جوليان في نهاية الأمر أن يموت، على أيدي قوى التصغير نفسها، على أن يهبط من أعلى إلى أسفل ليصغر diminutize. ويقبل التصغير باعتباره الحقيقة الوحيدة. طبعاً، لا يرد ذكر لأفلاطون أو لسلمه الصاعد، ولكن أفلاطون وسلمه هما الإطاران المرجعيان الوحيدان اللذان يحققان معنى المسرحية الرائعة. هنا تتجسد أزمة العقل الغربي، الأزمة التي أوصلته إليها قيم العلم والمادة.

أول الاختيارات المطروحة أمامنا أن نبداً حيث انتهى العقل الغربي من رفض للعلم بذلك المعنى الضيق. أرجو ألا يتسرع أحد ليتهم مؤلف المراسيا المتعرة بالتخريف أو الارتداد عن قيم العلم والعقل. العلم الذي نرفضه،

والذي وصل العقل الغربي نفسه إلى رفضه أخيراً في مواجهة الهوة التي لا قرار لها، أو الحائط الصلب في نهاية الطريق؛ هو العلم الذي لا يخضع إلا لقوانين المادة، العلم الذي يفسر كل الظواهر على أساس مادي تجريبي، فيقبل ما يثبت التجريب الإمبريقي وجوده وصحته، ويرفض ما يثبت التجريب الإمبريقي عدم وجوده أو صحته، أو حتى ما لا يقبل القياس أو الحكم التجريبي. وقد أدرك شكري عياد ذلك منذ سنوات حينما كتب في المذاهب الأدبية عند العرب والغربيين (١٩٩٢)، وحيث وسع مظلة العلم بشكل واضح لتشمل كل معرفة منظّمة وناظمة من ناحية، ولم يقصره على المعرفة الحقيقية، من ناحية ثانية:

«كلمة «العلم» يمكن أن تطلق على كل معرفة منظّمة، أو كل معرفة نافعة، وبعض الناس يتصورون أيضاً أن المعرفة يجب أن تكون يقينية لتكون علماً. ولكن من المرجح أن يجمع كل هؤلاء على أن العلم بموضوع ما يجب أن يشتمل على قضايا كلية، يمكن أن نسميها أحكاماً عامة، أو قواعد، أو قوانين، تنطبق على كل حالة خاصة يمكن أن تعرض مما يدخل تحت هذا الموضوع» (ص ١٥).

بهذا المفهوم يؤسس عياد «العلم» ويقيمه داخل ميادئ التفكير العلمي ومنهجه، ثم إنه يرفض تطبيق قواعد العلوم الطبيعية والتطبيقية على أمور لا تخضع لهذا القياس ولا ينبغي إخضاعها له. وعلى هذا الأساس أيضاً تصبح أحكام عبد القاهر في البلاغة، وشروط المجاز والاستعارة والتشبيه والكناية، «علمية» بالمعنى الكامل للكلمة، بل إنها لا تقل علمية عن علمية التحليل البنيوي للنص الأدبي، تلك العلمية التي يتشدد بها البعض كأنها إنجاز غير مسبوق، لأن الدارس الأدبي، كما يرى شكري عياد، «إذا نظر إلى عمله على أنه وضع قواعد أو اكتشاف قواعد، كانت وجهته الأولى في تناول الأعمال الأدبية الخاصة هي تقييم هذه الأعمال، أي الحكم بمدى مطابقتها للقواعد» (ص ١٦). هل يعني تعريف شكري عياد الموسع نقي وجود معارف تخضع لقوانين المادة فقط، ولا يمكن قياس الصحة أو الخطأ في نتائجها إلا بالتجريب والقياس المادي والتجريبي؟ لا يمكن، بالطبع، لفكر أن يقول بهذا. لكن أهمية ما يقوله عياد هو

الخاتمة

التحذير من تطبيق «تعميمات التاريخ الطبيعي»، «أو قوانين الفيزياء» على مادة أو مواد لا تخضع للتجريب والقياس العلمي بهذا المعنى. فالعلم إذا كان قادراً على تفسير الموجودات الحسية فهو يقف عاجزاً عن التفسير الكثير، الكثير جداً، من الظواهر الميتافيزيقية، وهذا ما أدركه العقل الغربي أخيراً.

نرجو ألا يفسر أحد الحديث عن العلم، بمفهوميته السابقتين، باعتباره دعوة للردة إلى عصور الجهالة والظلام، فقد حقق العقل البشري، باستخدامه لمناهج التفكير العلمي ثم بتمسّخه نتائجها في تطبيقات تكنولوجية، الكثير للبشرية، وحاجتنا نحن إلى العلم، في عالم لا مكان فيه للضعفاء، أكبر من أن نحد، خاصة أن تحديث العقل العربي وواقعه ضرورة ملحة، إن ما نحدّز منه على وجه التحديد هو ذلك الخط الواضح بين «التحديث» و«الحدأة» في صورتها الغربية. ما نتحدث عنه هو ضرورة وضع ضوابط للتحديث والتدقيق في الأخذ عن الثقافة الغربية، بل «ضبط» عملية الانبهار بالغرب»، كما يقول شكري عزيز الماضي في من «شكائيات النقد العربي الجديد»، بعد أن وصل الانبهار بالفكر الغربي إلى درجة تهدد بخاطر مزدوج: هو انمحاء الهوية الثقافية العربية من ناحية، وتأكيد التبعية للثقافة الغربية وترسيخها، من ناحية ثانية:

«وكل هذا يؤكد الأزمة واستفحالها في الربع الأخير من القرن العشرين. وأحسب أن هذه المخاطر نتاج لأسباب عديدة (تقنية، ثقافية، مجتمعية)، كما أحسب أنها تقرض ضرورة تجسيد خصوصية الصوت الأدبي والنقدي العربي، وضبط عملية الانبهار بالغرب: لأن هذه العملية تؤدي إلى مفهوم مسطح للعالمية وتبديد طاقات إبداعية كبيرة. مع التأكيد بأن تجسيد خصوصية الصوت العربي والنقدي أمر لا يتعارض ولا يتنافى مع الانتماء للحركة النقدية، بل تؤدي، أو يجب أن تؤدي، إلى إنمائها. وفي المقابل فإن تقييد الخصوصية يعني الاندماج بالآخر وهو أمر يتقاطع، ويلتقي بالتحليل الأخير، مع الانغلاق» (ص ١٤٥ - ٤٦).

ولا أكون مبالغاً، إذا اعترفت هنا، بأن موقف شكري عزيز في السطور السابقة، يلخص موقف مؤلف المرايا المتعصرة من «أفقه» إلى «يائه»، إذ إن

الدراسة في جوهرها صرخة من القلب، صرخة استغاثة موجهة للمثقفين ورجال الفكر العرب بقدر ما هي رفض لما يحدث حولنا، والموقف الذي تبناه مؤلف المرايا المقعرة يقوم على إدراك كامل لتلك النقطة الدقيقة عند مفترق الطرق، حيث يجب أن نختار ونحدد من نحن وماذا نريد وفي أي اتجاه يجب أن نتحرك، مدخلات الموقف التي يجب أن تحدد اختيارنا أو اختياراتنا هي: أولاً، نحن لا نستطيع، حتى لو أردنا، أن نتفصل عن الواقع العالمي الجديد والمولة القادمة والقائمة، وقد أصبحت العزلة، كما نكرر دائماً، ثرفاً مستحيلًا، فنحن جزء من هذا العالم. ثانياً، إنجازات العقل الغربي خاصة من مسافة الحضارات الأقل تطوراً، إنجازات باهرة بكل المقاييس، وهو انهيار كليل بحجب سلبيات تلك الإنجازات. ثالثاً، إن لواقعنا الثقافي خصوصية لا نستطيع أن نتجاهلها بحجة أننا جزء من العالم بنظامه الجديد، من ناحية، وأن واقعنا الثقافي واقع متخلف، من ناحية ثانية؛ زايماً، إن اختيار اتجاه الحداثة الغربية يعني القطيعة مع تراثنا وإدارة ظهورنا له تماماً، لأن القطيعة مع الماضي والتهمرد عليه جوهر الاختيار الحداثي؛ خامساً وأخيراً، إن كوننا جزءاً من العالم الجديد وإدراكنا لحتمية المولة وأننا، كما تقول الشواهد حتى الآن، هي القدر الداهم، تؤكد حاجتنا إلى تأكيد خصوصيتنا في مواجهة الأخطار القادمة والقائمة، أخطار التبعية وأنحاء الهوية القومية، تلك هي «مدخلات» الموقف الذي يجب أن نخرج منه باختيار واضح وسليم وإلا فلنواجه الطوفان!

الأصالة والمعاصرة. نعم الأصالة والمعاصرة هي الحل. ولكن عن أي أصالة ومعاصرة نتحدث؟ هل نتحدث عن الشعار الذي فرغ من معناه ولم تعد العلاقة بين شطريه، كما حذر شكري عياد ميكراً، تتعدي، وأو العطف؟

إن الأصالة التي نتحدث عنها، في مواجهة المعاصرة، لا يقصد بها، ولا ينبغي أن يقصد بها، العودة للتراث ودراسته وقلته بحثاً، ثم تجميده فوق رف من رفوف الذاكرة الثقافية البعيدة والمنسية. وقد حددنا ميكراً في الدراسة أن هذا أفضل ما استطاع الجادون المتميزون من نقادنا تحقيقه: إذ إن هؤلاء يعودون إلى التراث ليلقوا الضوء على كنوزه ويضعوا أيديهم على أفضل إنجازاته، لكنهم حينما يتحولون إلى التطوير - وما أقله - أو

التطبيق - وما أكثره - يستخدمون المصطلح النقدي الغربي الباهر برغم أنهم يدركون جيداً، وأكثر من غيرهم، أنهم كانوا يستطيعون استخدام مصطلحات عربية أصيلة، أو تطوير مصطلح نقدي عربي، بدلاً من نقل المصطلح الأجنبي بموافقته المعرفية أو قيمه المعرفية cognitive values الغربية إلى الثقافة العربية. ولا يمكن أن نسمي تلك الممارسات «أصالة» بأي معنى من معانيها. إن ما نتحدث عنه هو الأصالة التي تمكن العقل العربي اليوم من تطوير «هوية واقية»، كما نيه عباس العقاد منذ منتصف القرن العشرين، في مواجهة الأخطار القادمة مع النقل عن الغرب دون تمييز، بعد أن «تبين أن الهوية الواقية كانت ألزم للعالم العربي في هذا الدور (المتصف الثاني من القرن العشرين) مما كانت في جميع الأدوار الماضية منذ ابتداء النهضة في العصر الحديث. فإن الدعوات العالمية خليقة أن تجور على كيان القومية وأن تؤول بها إلى فناء كفاء المقلوب في الغالب (دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، ص ٩). وأهمية كلمات العقاد لا ترجع إلى أهمية التحذير في حد ذاته فقط، بل إلى أن صاحبها أيضاً أبرز مفكري الجيل الميكر الذي تبني الدعوة للانفتاح على الثقافة الغربية، ولم تخل كلماته في الفترة المبكرة من نغمة احتقار واضحة للثقافة العربية والمؤسسي حقاً أن ما تخوف العقاد من حدوثه، حدث بالفعل في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، بعد أن أدت معادلة الانبهار بإنجازات العقل الغربي والاحتقار المقابل لإنجازات العقل العربي إلى فقدان الثقافة العربية لهويتها الواقية.

وقد حدث ذلك في سياق مفارقة غريبة يرفض الكثيرون من الحداثيين العرب أن يعترفوا بها بل يسارعون إلى اتهام كل من يواجههم بها بالجهل والرجعية والأصولية والانعزالية، الجانب الأول من المفارقة يتمثل في أن التحول من التراث العربي وإنجازات العقل العربي إلى الثقافة الغربية وإنجازات العقل الغربي يعنى التسليم صراحة بإفلاس الثقافة العربية وتخلف العقل العربي. أما الطرف الآخر في المفارقة فيتمثل في فشلهم في تقديم بديل مقنع يملأ الفراغ الذي خلقه تحولهم، فالمبدأ النقدي، على وجه الخصوص، التي أفرزها الفكر الحداثي وما بعد الحداثي الغربي، كانت إنجازاتها في بلاد النشأة ذاتها، إنجازات ضئيلة ومتواضعة، لم

تتجاوز إعادة تغليف مقولات نقدية قديمة في لسانف جديدة أكثر بريقاً ولفتاً للأنظار، وليس هذا هو رأي مؤلف المرايا المعقّرة وحده، لأنه رأي أجمع عليه من قاموا بنقض تلك المشاريع والإستراتيجيات النقدية من داخل البيت الغربي، وقد ناقشنا قصور تلك المشاريع والإستراتيجيات في استفاضة كافية في مؤلفنا السابق: المرايا المحدبة: من البنيوية إلى التفكيك، ويستطيع القارئ، إذا شاء، أن يرجع إليه. ومن ثم لا نستطيع الخوض في تفاصيل ذلك النقض مرة أخرى. وفي الوقت نفسه، فقد كانت العزلة والغموض قدر تلك المشاريع والإستراتيجيات في بلاد النشأة منذ البداية. ولم يكن حظ تلك المشاريع والإستراتيجيات المستوردة أفضل في الثقافة العربية منها في الثقافات التي أفرزتها، بل إنها أسوأ حالا وحظا. لقد تحول الغموض الأصلي إلى معميات وملاسم زاد من إبهامها سوء الفهم، وسوء النقل وسوء الترجمة، بالإضافة إلى نقطة الضعف المبدئية في النقل عن الحدائث الغربية، وهو أن المصطلح النقدي والمفهوم الذي يعبر عنه كان مقديراً له بمجرد نقله بوالقه المعرفية أن يجيء غريباً إلى الثقافة العربية، وإذا كان من نقضوا المذاهب النقدية داخل الثقافة الغربية ذاتها اتهموا أصحاب تلك المذاهب بأنهم نخبة يكتبون لأنفسهم فقط، فقد كانت الحال أسوأ في الواقع الثقافي العربي. وقد توقفنا في الجزء الأول من الدراسة الحالية عند نماذج منقولة إلى العربية لا تتحدى فهم القارئ فقط، بل تتحدى أفهام ناقلتيها أنفسهم. وهكذا أضاف الحداثيون العرب إلى الأزمة الأصلية للحدائث الغربية أزمة خاصة بهم. وإذا كان البعض يلتمس العذر للحداثيين العرب في حماسهم لإنجاز العقل الغربي باعتباره المخرج المعقول - آنذاك - للعقل العربي من ورطته بعد هزيمة ٦٧، فإن ما حققه الحداثيون العرب بعد ذلك جاء عكس توقعاتهم جميعاً، إذ كان من المفروض أن تكون «الحدائث» - مدخلا «للتحديث» العقل العربي وبداية نهضة ثقافية وتكنولوجية جديدة، وهي نهضة تتطلب التفاف القاعدة العريضة حول قادة الفكر هؤلاء، حتى يتحقق التحديث الشامل. ولكنهم، بسبب سوء النقل والغموض من ناحية، وفشلهم في إدراك خصوصية الثقافة العربية من ناحية ثانية، انتهوا إلى تكريس ثنائية أو ازدواجية الثقافة العربية وتعميق «الشرح» بدلا من رأب الصدع، بعد أن فشلوا في إغراء الجماهير

الخاتمة

العربية العريضة بالسير وراءهم، وأصبحوا في نهاية الأمر مجموعة منعزلة يكتفون لأنفسهم فقط!

لكن الطرف الأول من تلك المفارقة، ونعني به التسليم بإفلاس الثقافة العربية وتخلّف العقل العربي، الذي يعنيه الاختيار الحداثي، كان هو الحافز الأول والأخير للتفكير في الدراسة الحالية، وهو بالفعل محور اهتمامنا منذ بداية الكتاب إلى نهايته. وحتى حينما توقفنا في بعض الإمثلة في الجزء الأول عند الحداثة الغربية منقولة - محرفة ومشوشة ومشوهة ومساءً فهمها - إلى العربية كان ذلك بهدف إثبات أن ما نقلناه عن الحداثة الغربية لم يكن خيرا كله، تمهيدا لمحوّرها الأساسي وهو نقي تهمني إفلاس الثقافة العربية وتخلّف العقل العربي. وهكذا تركّز الدراسة على تحديد معالم النظرية اللغوية العربية والنظرية الأدبية العربية لدحض التهمتين الظالمتين، ولا نخفي أننا تحمسنا في أحيان غير قليلة أثناء رحلتنا مع البلاغة العربية في عصرها الذهبي منذ بداية القرن الثالث الهجري وحتى نهاية القرن السابع. لكن ذلك الحماس لم يكن أبداً دون مبررات قوية وواضحة.

كانت أبرز المزالق التي حاولنا تحاشيها في هذه القراءة الحداثية لتراث البلاغة العربية هي:

١- أن ننزلق في غمرة الحماس للثقافة العربية، ومحاولة تحديد معالم نظرية بلاغية عربية بشقيها اللغوي والأدبي، إلى فتح التناحر الأجوف والتغني بأمجاد الماضي، مما يعني إثبات إنجازات حيث لا توجد من ناحية، وغض الطرف، عن سلبيات البلاغة العربية، من ناحية ثانية.

٢- العودة إلى التراث البلاغي زائرين، كما فعل البعض، رغبة في تأسيس شرعية النظريات اللغوية والأدبية المعاصرة. فلم يكن الهدف - في أي وقت - الاستعانة بشواهد من الماضي لتأكيد شرعية الحاضر، بل الإقامة المطولة داخل بيت التراث البلاغي العربي، لفترة تكفي للتعرف عليه من الداخل، وإذا كان لا بد من تأسيس شرعية ما، فإن الشرعية التي وضعناها نصب أعيننا طوال الوقت هي شرعية التراث نفسه، شرعية الماضي. معنى ذلك، أن الدراسة محاولة لتحديد نقطة ما في تاريخ الفكر البلاغي العربي، ثرية بما فيه الكفاية، لنتخذ منها نقطة انطلاق لتطوير

نظرية لغوية ونظرية أدبية عربيتين، نقطة بداية نستطيع أن نقف فوقها في ثمة قائلين: نعم، هنا نقطة بداية كانت كفيلة، لو لم ندر لها ظهورنا في شرون التراجع الطويلة، ثم في عصر القطيعة الحداثيّة مع التراث، بأن تطور نظرية لغوية وأدبية لا تقل إبهارا وثراء عن النظريات الغربية التي انبهرنا بها. وفي ذلك كله لم يعمنا الحماس الذي لازمنا للبلاغة العربية عن حقيقة أن العصر الذهبي للبلاغة العربية بعيد عن الفكر العلمي الحديث فترة تمتد من عشرة قرون إلى ستة على الأقل. ولهذا لا ينبغي أن نتوقع. ونحن نحاول التأسيس للنظريتين في الفكر البلاغي العربي، أن نضع أيدينا على نظريتين متكاملتين نقيتين خالصتين من الشوائب والتناقضات والتداخلات، فهذا طموح مستحيل لا يأخذ المسافة الزمانية في الاعتبار. وفي الوقت نفسه، وبرغم كل الشوائب والتداخلات والتعارضات، وبرغم المسافة الزمانية، كنا نتوقف عند بعض مقولات البلاغيين العرب بمزيج من العجب والإعجاب. وفي كثير من هذه المقولات كنا نتوقف عند نضج العقل العربي في تلك الفترة البعيدة في دهشة، وكان سبق ذلك العقل في مجالات الدراسات اللغوية والأدبية يكاد يدفعنا إلى الجنون. وقد وصل الأمر بالصيديق الوحيد الذي تابع مع المؤلف قراءة مخطوط الكتاب أن عبر هو الآخر عن الدهشة نفسها، وكان رايه: إن التشابه بين بعض المقولات البارزة في علم اللغويات الحديث، والسبق العربي الواضح في هذا المجال يؤكد أن الأوروبيين لا يد أنهم قرأوا البلاغة العربية القديمة، وأنه يصعب عليه تصور أن يكون سوسير، في حديثه عن اعتبارية العلاقة بين شقي العلامة اللغوية وتحديد له دائرة الدلالة المغلقة Closed circuit، لم يقرأ ما كتبه عبد القاهر في الموضوعين ذاتيهما ولم يؤسس عليه!!

ومن اللافت للانتباه أن الاتجاهات النقدية، ابتداء من البنيوية، بل من النقد الجديد، إلى التلقي والتفكيك، اعتمدت التحليل اللغوي للنص مدخلا أساسيا للتعامل مع الإبداع الأدبي. وقد شجع على ذلك الاتجاه اللغوي صعود نجم الدراسات اللغوية منذ الستينات المبكرة من القرن العشرين من ناحية، ثم حلم النقد لتحقيق علمية تضمن التعامل الموضوعي مع النصوص الأدبية، تأسيسا على النموذج اللغوي من ناحية ثانية. وهذه حقيقة تحتم

الخاصة

علينا العودة إلى تراث البلاغة العربية التي انطلقت منذ البداية من الدراسة اللغوية للنص القرآني، ثم فعلت الشيء نفسه بعد ذلك مع النص الشعري. وليس من قبيل المبالغة القول بأن التحليل اللغوي هو العمود الفقري للبلاغة العربية، والمضافة بين بلاغة تعتمد على اللغة إلى ذلك الحد والدراسات اللغوية والتعامل اللغوي مع النصوص الأدبية في العصر الحديث، لا يمكن أن تكون بعيدة. فقد توقفنا في رحلتنا المطولة مع النظرية اللغوية والنظرية الأدبية العربيتين عند محطات كثيرة تؤكد أن مناطق اللقاء بين القديم العربي والحديث الغربي أكثر من مناطق التباعد، بل إن القديم العربي قد سجل، عند أكثر من محطة، سبقاً لا شك في نسبه للقديم الغربي.

لم تكن الثقافة العربية، إذن، مفلسة، ولم يكن العقل العربي، قطعاً، متخلفاً. كل ما حدث أننا في انبهارنا بإنجازات العقل الغربي وضعنا إنجازات البلاغة العربية أمام مرآة مقعرة صغرت من حجمها وقللت من شأنها.

المواضع والمراجع

الجزء الأول

(١١)

- ١ - سيد البصري: البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث (القاهرة، دار شرقيات، ١٩٩٣)، ص ١١٠.
- ٢ - يوسف الخال: نحن والعالم الحديث، مدخل كتاب الحداثة في الشعر (بيروت، ١٩٧٨)، ص ٦.
- ٣ - شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر (١٩٥٧)، ط ٨ (القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣)، ص ١٤ - ١٥.
- ٤ - سيد الجراوي: مصدر سابق، ص ٦١.
- ٥ - شكري عزيز الماضي: بين إشكاليات النقد العربي الجديد (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٧)، ص ١٨٠ - ١٨١.
- ٦ - جابر عصفور: «مقدمات منهجية»: قراءة التراث النقدي، ط ١ (القاهرة، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢)، ص ٦٢ - ٦٤.
- ٧ - شكري عياد: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والفرسيين (الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٢)، ص ٤٥.
- ٨ - المصدر السابق، ص ١٧ - ١٨.
- ٩ - ميخائيل نعيمة: الغربال (١٩٣٣) (مصر، دار المعارف للطباعة والنشر، ١٩٤٦)، ص ٣٩.
- ١٠ - المصدر السابق، ص ٤٠.
- ١١ - المصدر السابق، ص ٢٣.
- ١٢ - عباس العقاد وإبراهيم المازني: ديوان، ط ٤ (القاهرة، ١٩٩٧)، ص ١٢١.
- ١٣ - محمد مندور: في الميزان الجديد، ط ٣ (القاهرة، ذ.ت)، ص ٤٨.
- ١٤ - القويان: مصدر سابق، ص ٤١.
- ١٥ - سامي سويدان: جسور الحداثة المعلقة: من طواجر الإبداع في الشعر والرواية والدرج (بيروت، دار الآداب، ١٩٩٧)، ص ١٢.
- ١٦ - شكري عزيز الماضي: مصدر سابق، ص ١٠٥.
- ١٧ - المصدر السابق، ص ٩٤.
- ١٨ - جابر عصفور: هبة البنيوية، نظريات معاصرة (القاهرة، مكتبة الأسد، ١٩٩٨)، ص ٧٠٧.

- ١٩ - عبدالله النديم: الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشرحيية (Deconstruction) - ط٤ (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨)، ص ٨.
- ٢٠ - المصدر السابق، ص ٨ - ٩.
- ٢١ - من الطريف أن أحد القراء كتب إلى دار النشر التي قامت بنشر المراسل الحديثة بعد ظهوره بأيام قلائل يعني على المؤلف افتقاره إلى الدقة العلمية قائلا إن « المراسل الحديثة» تعبير خاطئ، إذ إن هناك فقط « عدسات محدبة» و « عدسات مقعرة».. وهاتئنا اطمئن القارئ الحريص على الدقة العلمية - والذي يبدو أن العنوان هو كل ما أفت انتباهه - بأن هناك مراسل محدبة وعدسات محدبة وما عليه إلا أن ينهب إلى بيت المراسل في أحد «ملاهي الألفاظ» ليرى كيف تقوم مرآة بتغيير صورته بينما تقوم أخرى بتصغيرها!
- ٢٢ - عباس العقاد وإبراهيم المازني: التبيان، مصدر سابق، ص ١٢١.
- ٢٣ - محمد مندور: التقفد النهجي عند العرب (القاهرة، نهضة مصر)، ص ٣٣٦.
- ٢٤ - انظر للمؤلف المراسل الحديثة: من البنيوية للتفكيك (الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٨)، ص ٢٨ - ٢٩.
- ٢٥ - شكرى عياد: المذاهب الأدبية والنقدية، مصدر سابق، ص ٧٠ - ٧١.
- ٢٦ - جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ط١ (القاهرة، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢)، ص ٣٧ - ٤٨.
- ٢٧ - المصدر السابق، ص ٤٦.
- ٢٨ - سامي سويدان: جسور الحدائة المعلقة، مصدر سابق، ص ١٢ - ١٣.
- ٢٩ - حامد أبو أحمد: في نقد الحدائة (الرياض، كتاب الرياض، ١٩٩٤)، ص ٢٧ - ٢٨.
- ٣٠ - كمال أبو ديب: «مقدمة» جدلية الخفاء والتجلي (بيروت، ١٩٩٧)
- ٣١ - انظر المؤلف: المراسل الحديثة، مصدر سابق، ص ١٦ - ١٧.
- ٣٢ - كمال أبو ديب: «مقدمة» جدلية الخفاء والتجلي، مصدر سابق، ص ٩.
- ٣٣ - عبد الرحمن حامد حمد: «فرضية احتمالية التقوية واللغة العربية»، عالم الفكر، المجلد ٢٨، العدد ٢٢ (يناير/ مارس ٢٠٠٠)، ص ١٠.
- ٣٤ - شوقي ضيف: في الأنيب والنقد، القاهرة (دار المعارف، ١٩٩٩)، ص ١١٢.
- ٣٥ - شكرى عياد: المذاهب الأدبية والنقدية، مصدر سابق، ص ٦٩.
- ٣٦ - إلياس خوري: المذاكرة المنقودة (بيروت، ١٩٨٢)، ص ٣٥.
- ٣٧ - جاك دريدا: «التفكيك والعلوم الإنسانية هي الند»، بحث ألقى في المجلس الأعلى للثقافة المصرية - فبراير ٢٠٠٠، ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، ص ٣.
- ٣٨ - شكرى عياد: مقدمة في أصول النقد (القاهرة، دار إلياس، ١٩٨٦)، ص ٨٢.

- 39 - Roland Barthes, "The Death of the Author" (1968) in Image - Music - Text, ed. and trans., Stephen Heath (New York: Hill and Wang, 1977), P. 147.
- ٤٠ - شكري عياد: مقدمة في أصول النقد مصدر سابق، ص ١٨٠.
- ٤١ - آلان تورين: نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧)، ص ٢٩.
- ٤٢ - أنظر سيد الهراوي: البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث، مصدر سابق، ص ١٠٨ - ١٠٩.
- ٤٣ - شكري عياد: المذاهب الأدبية والنقدية، مصدر سابق، ص ١٢ - ١٤.
- ٤٤ - ريموند ويليامز: «المدينة وظهور الحداثة» في: بيتر بروكر (إعداد وتقديم)، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة عبدالوهاب علوب، (الإمارات: المجمع الثقافي في أبو ظبي، ١٩٩٥)، ص ١٤٦ - ١٤٧.
- ٤٥ - عياد: الغذاء، الخلفية والتكثير، مصدر سابق، ص ٨٥.
- ٤٦ - فريدريك جيسن: «ما بعد الحداثة والمجتمع الاستهلاكي»، في الحداثة وما بعد الحداثة، مصدر سابق، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.
- ٤٧ - آلان تورين: مصدر سابق، ص ٢٤٧.
- ٤٨ - المصدر السابق.
- 49 - Wallace Martin, "Introduction" The Yale Critics: Deconstruction In America. (Minneapolis: U. of Minnesota P., 1983), p. xxv.
- ٥٠ - آلان تورين: نقد الحداثة، مصدر سابق، ص ٢٤٧.
- ٥١ - المصدر السابق، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.
- 52 - Thomas S. Kuhn, The Structure of Scientific Revolutions (Chicago: U. of Chicago P., 1962).
- ٥٢ - آلان تورين: نقد الحداثة، مصدر سابق، ص ٤٧٢ - ٤٧٣.
- ٥٤ - المصدر السابق، ص ٢٣.
- 55 - Jonathan Culler, Literary Theory: A Very Short Introduction (Oxford, New York: Oxford UP, 1997), p. 95-97.
- ٥٦ - المصدر السابق، ص ١٠٢.
- ٥٧ - جاك دريدا: «التفكيك والعلوم الإنسانية في النقد»، مصدر سابق، ص ٢٦.
- ٥٨ - آلان تورين: مصدر سابق، ص ٢٨١.
- ٥٩ - محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ط١ القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤)، ص ٧.
- ٦٠ - شكري عياد: المذاهب الأدبية والنقدية، مصدر سابق، ص ١٢.

الهوامش والمراجع

- ٦١ - محمد مفتاح: «مدخل إلى قراءة النص الشعري»، فصول، المجلد السادس، العدد الأول (صيف ١٩٩٧)، ص ٢٤٩.
- ٦٢ - قسطنطين الجمعي: منهل التوارد في علم الانتقاد (القاهرة: ١٩٠٧)، ١/١، أورد في: جابر عصفور: قراءة التراث النثري، مصدر سابق، ص ١١١.
- ٦٣ - جابر عصفور: المصدر السابق، ص ١١٠.
- ٦٤ - شكري عباد: المذاهب الأدبية والنقدية، مصدر سابق، ص ١٢٦.
- ٦٥ - تورين: مصدر سابق، ص ١٨٨.
- ٦٦ - المصدر السابق، ص ١٨٨ - ١٨٩.
- 67 - Frances Stonor Saunders, Who Paid the Piper?: The CIA and Cultural Cold War (London: Granta Books, 1999), p. 1
- ٦٨ - المصدر السابق، ص ٧.
- ٦٩ - المصدر السابق.
- ٧٠ - المصدر السابق، ص ٤: الإشارات هنا إلى عشرات التولائق التي اقتطعت منها البياضة، وقد رأينا الاكتفاء بالإشارة إليها حيث وردت في كتابنا باعتباره مصدراً ثانياً يقوم بمهمة المصدر الأول بالنسبة للتراث المتعرة.
- ٧١ - المصدر السابق، ص ٩٨.
- ٧٢ - المصدر السابق، ص ٢٦٠.
- ٧٣ - المصدر السابق، ص ٩٨.
- ٧٤ - المصدر السابق، ص ٢٤٩.
- ٧٥ - أنظر: محمد جمال بازوت: «من العصرية إلى الحداثة»، في قضايا وشهادات، الحداثة ٢ (نيقوسيا، شتاء ١٩٩١)، ص ١٦٧.
- ٧٦ - شكري عباد: المذاهب الأدبية والنقدية، مصدر سابق، ص ٧٤.
- ٧٧ - شوقي ضيف: الأدب العرب المعاصر في مصر: مصدر سابق ص ٢٨.
- ٧٨ - ريموند وليامز: «المدنية وظهور الحداثة»، مصدر سابق، ص ١٥٠.
- ٧٩ - سامي سويدان: جسور الحداثة المعلقة، مصدر سابق، ص ١٧.
- ٨٠ - شكري عباد: المذاهب الأدبية والنقدية، مصدر سابق، ص ٦٧ - ٨٦.
- ٨١ - صانع غرم الله زياد: «المصطلح الأدبي: بين غناه بالمعركة وغناه بالتاريخ»، عالم الفكر، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثالث (يناير/مارس ٢٠٠٠)، ص ٩٩.
- ٨٢ - محمد غناني: المصطلحات الأدبية الحديثة: دراسة ومعجم إنجليزي - عربي (القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ١٩٩٦)، ص ٨.
- ٨٣ - حاتم الصكر: ترويض النص: دراسة لتحليل النظم المعاصر، أجزاء ١، ٢، ٣ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨)، ص ١١٠ - ١١١.

المراجع المقترحة

- ٨٤ - صالح غرم الله زيد، «المصطلح الأدبي»، مصدر سابق، ص ١٠٢.
- ٨٥ - مصطفى ناصف، النقد العربي: نحو نظرية ثنائية (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٠)، ص ٩.
- ٨٦ - مؤاد زكريا: التفكير العلمي (الكويت، ١٩٨٩)، ص ٢٢.
- ٨٧ - المصدر السابق، ص ٦٦.
- ٨٨ - محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، مصدر سابق، ص ٩١.
- ٨٩ - شكرتي عياد، المذاهب الأدبية والنقدية، مصدر سابق، ص ١٥٦ - ١٥٧.
- ٩٠ - صالح غرم الله زيد: «المصطلح الأدبي»، مصدر سابق، ص ١١٠.
- ٩١ - محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، مصدر سابق، ص ٢.
- ٩٢ - المصدر السابق، ص ٥، ٦.

(٢)

- ١ - حامد أبو أحمد: نقد الحداثة (الرياض، كتاب الرياض، ١٩٩٤)، ص ٦٥.
- ٢ - محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري: استراتيجيات التناص، ط ٢ (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢)، ص ٢١.
- ٣ - حامد أبو أحمد: نقد الحداثة، مصدر سابق، ص ٦٢.
- ٤ - آلان تورين: نقد الحداثة، مصدر سابق، ص ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩.
- ٥ - حامد أبو أحمد: نقد الحداثة، مصدر سابق، ص ١٦.
- ٦ - سليمان عثمان: «قراءة القراءة: الخطاب القرآني... وأدب القراءة والتلقي»، مجلة تجليات الحداثة (وهران: معهد اللغة العربية بجامعة وهران، يونيو ١٩٩٦)، ص ١٧٥ - ١٧٦.
- ٧ - أنظر لطفي إبراهيم برهم، «اتجاهات تلقي الشعر في النقد العربي المعاصر»، مجلة علامات، المجلد التاسع، الجزء ٢ (ذو القعدة ١٤٢٠/ مارس ٢٠٠٠)، ص ٢٨٠.
- ٨ - لطيفة إبراهيم برهم: المصدر السابق، ص ٢٦٢.
- ٩ - عبد الرحمن بسميسو: «قراءة النص في ضوء علاقته بالنصوص المصادر: قصيدة القناع نموذجاً»، فصول، المجلد السادس عشر، العدد الأول (صيف ١٩٩٢)، ص ٨٦.
- ١٠ - حامد أبو أحمد: نقد الحداثة، مصدر سابق، ص ٥٢.
- ١١ - جابر عصفورا: مفهوم الشعر: دراسة في التراث النقدي، الطبعة الخامسة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥)، ص ٣٦.
- ١٢ - المصدر السابق، ص ١٤.

الهوامش والمراجع

- ١٢ - جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، ط١ (القاهرة: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣)، ص ٢٥ - ٢٦.
- ١٣ - محمد عناني، المصطلحات الأدبية، مصدر سابق، ص ١٩٦.
- ١٤ - لم يشأ عناني، في هذا السياق، أن يضيف الاحتمالات الممكنة للتركيب العربي، الغطاء البحثي، لو أن المترجم أو الناقل كان يقصد بالفعل استخدام كلمة COVER بمعنى «غطاء الشيء»، وهو المعنى الثاني للقطعة الإنجليزية، وفي تلك الحالة الأخيرة يصبح المعنى الذي يتصده المترجم «غطاء البحث» أي ما يغطيه أو يخفيه؛ وتلك عبثة حقيقية. ومن ثم، فإن التفسير المحتمل الذي أبرزه محمد عناني، وقضمه في سخرية، وهو التفسير الوحيد الذي فتسد إليه المترجم.
- ١٥ - محمد عناني، المصطلحات الأدبية، مصدر سابق، ١٩٦ - ١٩٧.
- ١٦ - المصدر السابق، ص ٣٠.
- ١٧ - حامد أبو أحمد: نقد الحداثة، مصدر سابق، ص ٥٤.
- ١٨ - عبدالله القدسي: الخلفية والتكفير، مصدر سابق، ص ٨٣.
- ١٩ - محمد عناني، المصطلحات الأدبية، مصدر سابق، ص ١٢٨ - ١٢٩.
- 20 - Vincent Leitch, *Deconstructive Criticism: An Advanced Introduction* (New York: Columbia UP, 1983), p.208.
- ٢١ - الطريف: بل اشتهر، أن غالبية الحداثيين العرب درجوا على ترجمة لفظ authoritative في النصوص الحداثية وما بعد الحداثية اتني بتوقفين عندما إلى «سلطوي» وهي ترجمة أقل ما يقال عنها إنها «مضللة» إذ إن «سلطوي» تحمل معنى ممارسة سلطة قد تكون جمعية أو قاهرة، على الرغم من أن لفظ authority يعني، من بين ما يعني، «السلطة» بالمعنى الذي ترجمه الحداثيون العرب، إلا أن أحد معانيه الأخرى التي لم يغطها إليه، هو من يتمتع بسلطة مرجعية فنقول إن فلانا مرجع أو سلطة في تخصص كذا، أي أن كلمته أو رأيه في أمر من أمور التخصص «موثوق به» وهي الترجمة التي اخترناها.
- ٢٢ - عبدالمعز حمودة: المزايا المحددة، من البنيوية إلى التفكيك (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٨)، ص ٢٨.
- 23 - Jacques Derrida, *Positions* (Paris: Minuit, 1972). English trans: (Chicago: U. of Chicago P, 1981), p.37-38).
- ٢٤ - ورد في: Jacques Derrida, *Of Grammatology* (Baltimore: Johns Hopkins UP, 1976), p.152.
- ٢٥ - المصدر السابق، ص ١٥٧.
- ٢٦ - المصدر السابق، ص ١٥٨ - ١٥٩.

- ٢٧ - محمد عناني: المصطلحات الأدبية، مصدر سابق، ص ٧.
- ٢٨ - عبدالله الغذامي: الخطيئة والتكفير، مصدر سابق، ص ٩٢.
- ٢٩ - المصدر السابق، ص ٥٩.
- ٣٠ - المصدر السابق، ص ٨٨.
- ٣١ - المصدر السابق، ص ١٢٣.
- ٣٢ - حاتم الصكر: ترويض النص، مصدر سابق، ص ١١٢.
- ٣٣ - انظر: عبدالعزيز حمودة: المرايا الجديدة، مصدر سابق، ص ٤٤٥.
- ٣٤ - Ihab Hassan, "From Postmodernism to Postmodernity: The local Context," *op.cit* بحث أقيم في المؤتمر الدولي الثاني للتند، جامعة عين شمس (٢٠٠٠)، ص ٢٠٢.
- ٣٥ - المصدر السابق، ص ٣.
- ٣٦ - المصدر السابق، ص ٧.
- ٣٧ - عبدالله الغذامي: الخطيئة والتكفير، مصدر سابق، ص ٢٢-٢٣.
- ٣٨ - المصدر السابق، ص ٢٧-٢٨.
- ٣٩ - محمد عناني: المصطلحات الأدبية، مصدر سابق، ص ١٣٥.
- ٤٠ - محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري: إستراتيجية التناص، الطبعة الثالثة (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢)، ص ١٦٧.
- ٤١ - محمد مفتاح: مداخل إلى قراءة النص الشعري: المفاهيم معالم، فصول، المجلد السادس عشر، العدد الأول (سيف ١٩٩٧)، ص ٢٤٨-٣٦٧.
- ٤٢ - كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي، مصدر سابق، ص ١١.
- ٤٣ - Robert Scholes, *Structuralism in literature: An Introduction* (New Haven and London: Yale UP., 1971), P.22.

الجزء الثاني

مداخل

- ١ - ميخائيل نعيمة: الغريال، مصدر سابق، ص ٤٢.
- ٢ - المصدر السابق، ص ٤٣.
- ٣ - عبدالعظيم أمين ومحمود أمين العالم: في الثقافة المصرية، ط ٣ (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٩)، ص ٣٩.
- ٤ - المصدر السابق، ص ٤٠.
- ٥ - آلان تورين: نقد الهداية، مصدر سابق، ص ٢٧٠.

الهوامش والمراجع

- ٦ - عباس العقاد: «الوجودية: الجانب المريض منها»؛ بين الكتاب والناس، (القاهرة، ١٩٥٢)، ص ٢٠.
- ٧ - إلياس خوري: «الذاكرة المفقودة»، مصدر سابق، ص ٢٥.
- ٨ - سامي سويدان: جسر الحداثة المعلقة، مصدر سابق، ص ١٣.
- ٩ - يوسف الخال: «نحن والعالم الحديث»، الحداثة في الشعر (بيروت، ١٩٧٨) ص ٥.
- ١٠ - شكري عياد: المذاهب الأدبية والنقدية، مصدر سابق، ص ١٢.
- ١١ - مصطفى تاصف: الله العربي: نحو نظرية ثانية (الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٠)، ص ٢٢.
- ١٢ - المصدر السابق، ص ٩٤.
- ١٣ - الولي محمد: انصودة الشعرية في الخطاب البلاغي النقدي (بيروت، المركز الثقافي، ١٩٩٠)، ص ٦٦.
- ١٤ - المصدر السابق، ص ١٦٩ - ١٧٠.
- ١٥ - المصدر السابق، ص ١٧٣.
- ١٦ - شكري عياد: اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي (القاهرة، ١٩٨٨)، ص ٩.
- ١٧ - جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، مصدر سابق، ص ٤٨.
- ١٨ - المصدر السابق، ص ١١٣ - ١١٤.
- ١٩ - جابر عصفور: «مقدمة»، مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٩.
- ٢٠ - المصدر السابق، ص ١٣.
- ٢١ - عز الدين إسماعيل: «أما بعد» فصول، المجلد السادس (أكتوبر/نوفمبر، ديسمبر ١٩٨٥)، ص ٤.
- ٢٢ - محمد عابد الجابري: نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٢)، ص ١٦.
- ٢٣ - جابر عصفور: «مقدمة»، قراءة التراث النقدي، مصدر سابق، ص ١٤.
- ٢٤ - عبد السلام المندي: التفكير اللساني في الحضارة العربية (تونس، ١٩٨١)، ص ١٢ - ١٣.
- ٢٥ - حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب (بونس، ١٩٨١)، ص ١١.
- ٢٦ - عبد الله الخداسي: الخلطية والتفكير، مصدر سابق، ص ٣٢٩ - ٣٢٨.
- ٢٧ - حامد أبو أحمد: نقد الحداثة، مصدر سابق، ص ٧٣ - ٧٤.
- ٢٨ - جابر عصفور: «مقدمات منهجية»، قراءة التراث النقدي، مصدر سابق، ص ١١٤.
- ٢٩ - محمد سالم ولد محمد الأمين: «مفهوم الحجاج عند «بيزمان» وتطوره في البلاغة المعاصرة»، عالم الفكر، المجلد الثامن والعشرون، العدد الثالث (يناير/مارس ٢٠٠٠)، ص ٩٢.
- ٣٠ - محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، (إستراتيجية التناص)، ط ٢ (الدار

- البليضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٦)، ص: ١٤ - ١٥.
- ٣١ - سيد البحراوي: البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث، مصدر سابق، ص: ١٤٤.
- ٣٢ - شكري عزيز الماطي: من إشكاليات النقد العربي الجديد، مصدر سابق، ص: ٢٠.
- ٣٣ - المصدر السابق، ص: ٢١.
- ٣٤ - شكري عباد: دائرة الإبداع، مقدمة في أصول النقد (القاهرة: دار الياس المصرية، ١٩٨٦)، ص: ٨٢.
- ٣٥ - المصدر السابق، ص: ٦.
- ٣٦ - أحمد طاهر حسن: حول زوايد النقد الأدبي عند العرب: نظرة تحليل وتأميل، فصول. العدد الأول، مجلة ٦ (أكتوبر/ نوفمبر/ ديسمبر ١٩٨٥)، ص: ١٣.
- ٣٧ - محمد مندور: في الأدب والنقد، (القاهرة، ١٩٥٢)، ص: ١٠٤ - ١٠٥.

(١١)

- ١ - "Theory", in London Dictionary of Contemporary English, ed. 1995.
- ٢ - علي عزت: الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، ط١ (القاهرة: شركة أبو الهول للنشر، ١٩٩٦)، ص: ١.
- 3 - Jonathan Culler, Literary Theory, op. cit., p. 60-61.
- ٤ - جوناثان كلر: فرديناند دي سوسير: (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات). ترجمة، عز الدين إسماعيل (القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٠)، ص: ٧٧.
- ٥ - عز الدين إسماعيل: «مقدمة المترجم»، المصدر السابق، ص: ١٠.
- ٦ - علي عزت: الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، مصدر سابق، ص: ١.
- ٧ - شكري عباد: اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي (القاهرة، ١٩٨٨)، ص: ٤٩.
- ٨ - جوناثان كلر: فرديناند دي سوسير، مصدر سابق، ص: ٨١.
- ٩ - انظر المصدر السابق، ٨٠ - ٨٩.
- ١٠ - عز الدين إسماعيل: «مقدمة المترجم»، فرديناند دي سوسير، مصدر سابق، ص: ٤٤.
- 11- Richard, Superstructuralism: The Philosophy of Structuralism and Poststructuralism (London & New York: Methuen, 1987), p. 11-12
- انظر: عز الدين إسماعيل، «مقدمة المترجم»، مصدر سابق، ص: ١٢.
- ١٢ - جوناثان كلر: فرديناند دي سوسير، مصدر سابق، ص: ٨٤.
- ١٣ - المصدر السابق.
- ١٤ - عز الدين إسماعيل: «مقدمة المترجم»، مصدر سابق، ص: ١٨ - ١٩. الإحالة داخل

الهوامش والمراجع

- سطور عز الدين (إسماعيل إلى):
 Jorge Larín, *The Concept of Ideology* (London, Hutchinson, 1979), p. 131.
 ١٥ - شكري عياد: اللغة والإبداع، مصدر سابق، ص ٤٩.
 16 - Jonathan Culler, *Literary Theory*, op. cit., p. 58
 17 - Ferdinand De Saussure, *Course in General Linguistics* (London: Collins, 1974), p. 112.
 ١٨ - عز الدين (إسماعيل): مقدمة المترجم، فرديناند دي سوسير، مصدر سابق، ص ٣٠.
 ١٩ - شكري عياد: اللغة والإبداع، مصدر سابق، ص ٤٩.
 ٢٠ - ورد في شكري عياد: اللغة والإبداع، مصدر سابق، ص ٤٦، J.R. Palmer.
 21 - المصدر السابق، ص ٤٦ - ٤٧.
 ٢٢ - جابر عصفور: «مقدمات منهجية»، قراءة انتقراث النقدى، مصدر سابق، ص ١٠٩ - ١١٠.
 ٢٣ - محمد عابد الجابري: «اللفظ والمعنى في البيان العربى»، فصول، العدد الأول، مجلد ٦ (أكتوبر / نوفمبر / ديسمبر ١٩٨٥)، ص ٤٠.
 ٢٤ - محمد زكى العشماوى: قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديثة، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤)، ص ٢٢٦.
 ٢٥ - محمد عابد الجابري: «اللفظ والمعنى في البيان العربى»، مصدر سابق، ص ٢٦ - ٢٧.
 ٢٦ - المصدر السابق (٢٢ - مآخولا من: الزجاجى، الإيضاح في علل النبو، تحقيق مازن المبارك (بيروت، دار الفناش، ١٩٨٢)، ص ٨٩.
 ٢٧ - محمد عاتنى: المصطلحات الأدبية، مصدر سابق، ص ٧١.
 ٢٨ - محمد مندور: في الميزان الجديد، مصدر سابق، ص ١٤٧.
 ٢٩ - محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، ط١ (القاهرة، د. م)، ص ٣٢٦.
 ٣٠ - صلاح زرق: أدبية النمس (القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٨٩)، ص ١٠.
 ٣١ - الجاحظ: الحيوان، ج ١، تحقيق عبدالمسلم محمد هارون (القاهرة: الحلبي ١٩٤٨)، ص ٢١.
 ٣٢ - الجاحظ: البيان والتمهين، ج ١ (القاهرة: المطبعة التجارية، ١٩٤٧)، ص ٩٠.
 ٣٣ - المصدر السابق، ص ٨١.
 ٣٤ - جازم القرطاجنى: مناهج العلماء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة (بيروت: دار الغرب الإسلامى، ١٩٨١)، ص ٣٤٤.
 35 - Robert Scholes: *Structuralism in Literature*, op. cit., p. 14 - 15.
 ٣٦ - الإمام عبدالقاهر الجرجانى: أسرار البلاغة: في علم البيان، صححها وعلق عليها

المراجع المقررة

- ١ - محمد رشيد رضا ، طب (القاهرة: مكتبة محمد علي صبيح، ١٩٥٩)، ص ٢ (فاتحة).
- ٢٧ - أحمد مطلوب: عبدالقاهر الجرجاني: بلاغة ونقد (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٢)، ص ٣٤ - ٣٥.
- ٣٨ - المصدر السابق، ص ٥٦.
- ٣٩ - ورد في المصدر السابق، ص ٥٣.
- ٤٠ - الجاحظ: الحيوان - ج ٢، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: مطبعتي البابي الحلبي، ١٩٤٨)، ص ١٢١ - ١٢٢.
- ٤١ - محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، مصدر سابق، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.
- ٤٢ - الولي محمد: الصورة الشعرية في الخطاب النقدي البلاغي، مصدر سابق، ص ٥٠.
- ٤٣ - ابن سنان الخفاجي: ستر النصيحة (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢)، ص ٦٦.
- ٤٤ - المصدر السابق، ص ٧٣.
- ٤٥ - المصدر السابق، ص ٧٧.
- ٤٦ - المصدر السابق، ص ٦٤.
- ٤٧ - بيان إعجاز القرآن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرباعي والخطابي وعبدالقاهر، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد مندور و زغلول سلام (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦)، ص ٢٦ - ٢٧.
- ٤٨ - محمد عابد الجابري: «اللفظ والمعنى في البيان العربي»، مصدر سابق، ص ٤٠.
- ٤٩ - القاضي عبدالجبار: المعنى في أبواب التوحيد والتفيل، ج ١٦، تحقيق أمين الخولي (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٠)، ص ١٩٩.
- ٥٠ - محمد خلف الله أحمد: من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقد، طب (القاهرة، ١٩٧٠)، ص ١٠٧.
- ٥١ - الإمام عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز (في علم المعاني)، تحقيق محمد عبده ومحمد الشنقيطي: تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا (بيروت: دار المعركة للطباعة، ١٩٧٨)، ص ٢.
- ٥٢ - المصدر السابق، ص ٣٥ - ٣٦.
- ٥٣ - المصدر السابق، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.
- ٥٤ - المصدر السابق، ص ٢٢.
- ٥٥ - المصدر السابق، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.
- ٥٦ - مصطفى ناصف: النقد العربي: نحو نظرية ثانية، مصدر سابق، ص ٢٨.
- ٥٧ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مقمطر شافق، ص ٤٠٥.
- ٥٨ - المصدر السابق: «مقدمته»، ص: ت.

الهوامش والمراجع

- ٥٩ - المصدر السابق ص ٢٢ - ٢٤.
- ٦٠ - محمد عابد الجابري: «اللفظ والمعنى في البيان العربي»، مصدر سابق، ص ٢٣.
- ٦١ - ورد في المصدر السابق، ص ٢٣.
- ٦٢ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٦٥.
- ٦٣ - المصدر السابق، ص ٢٢٠ - ٢٢٩.
- ٦٤ - شكري عياد: اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، مصدر سابق، ص ٤٩.
- ٦٥ - عبدالله الغذامي: الخطيئة والتكفير، مصدر سابق، ص ٢٥.
- ٦٦ - كمال أبو ديب: الرؤى المقتنة: نحو منهج يتجوز في دراسة الشعر الجاهلي للرماني والخطابي وعبدالقاهر، مصدر سابق، ص ٢٦ - ٣٧.
- ٦٧ - محمد عابد الجابري: اللفظ والمعنى في البيان العربي، مصدر سابق، ص ٤٩.
- ٦٨ - الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبدالقاهر، مصدر سابق، ص ٢٦ - ٢٧.
- ٦٩ - الباقلائي: في إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد ضقر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧)، ص ١٨٤.
- ٧٠ - عبدالله الغذامي: الخطيئة والتكفير، مصدر سابق، ص ٤٠.
- ٧١ - ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج١، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة، ١٩٣٩)، ص ١٤.
- ٧٢ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٣٨.
- ٧٣ - ورد في: محمد زكي العشماوي: فضاء النقد الأدبي، مصدر سابق، ص ٢٩٢.
- ٧٤ - الإمام عبدالقاهر الجرجاني: أسرار البلاغة: في علم البيان، صحتها وعقل عليها محمد رشيد رضا، طبعة (القاهرة: مكتبة محمد علي صبيح، ١٩٥٩)، ص ٣٠٠.
- ٧٥ - الولي محمد: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي التقدي، مصدر سابق، ص ١٠٨.
- ٧٦ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٤٠.
- ٧٧ - الجاحظ: البيان والبيان، تحقيق وشروح عبدالسلام هارون (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨)، ١/٧٨.
- ٧٨ - المصدر السابق، ٧٩/١ - ٨٠.
- ٧٩ - شكري عياد: اللغة والإبداع، مصدر سابق، ١١٧.
- ٨٠ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٤١ - ٤١.
- ٨١ - المصدر السابق، ص ٤٥.
- ٨٢ - انظر: محمد عبدالمنطلي: «مفهوم ل/العلامة في التراث»، فضول، العدد الأول، مجلد ٦ (أكتوبر / نوفمبر / ديسمبر ١٩٨٥)، ص ٦٧.
- ٨٣ - السكاكي: مفتاح العلوم ص ٧٠.

- ٨٤ - عبدالقاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ١٠٩-١١١.
- ٨٥ - عبدالعزيز حمودة: المرايا المحدبة، مصدر سابق، ص ٢٦٩.
- ٨٦ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٢٣٠.
- ٨٧ - محمد عابد الجابري: «اللفظ والمعنى في البيان العربي»، مصدر سابق، ص ٢٩.
- ٨٨ - عبدالقاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص ٢٨١ - ٢٨١.
- ٨٩ - المصدر السابق، ٢٨١ - ٢٨٢.
- ٩٠ - شوقي ضيف: في الأدب والنقد، مصدر سابق، ص ٦٥.
- ٩١ - الجاحظ: الحيوان، ج٣، مصدر سابق، ص ١٢١ - ١٢٢.
- ٩٢ - أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج٤ (القاهرة: دار انشعاب، ١٩٦٩)، ص ١٤٥٠.
- ٩٣ - في صلاح زرق: أدبية النص، مصدر سابق، ص ٨٧ - ٨٨.
- ٩٤ - أبو هلال العسكري: كتاب الصناعات، تحقيق مفيد قميحة، بيروت: (دار الكتب العلمية، ١٩٨١)، ص ٧١.
- ٩٥ - محمد زكي العشماوي: قضايا النقد بين القديم والحديث، مصدر سابق، ص ٢٥٩.
- ٩٦ - محمد عابد الجابري: «اللفظ والمعنى في البيان العربي»، مصدر سابق، ص ٢٨.
- ٩٧ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ١٩٦.
- ٩٨ - محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، مصدر سابق، ص ٢٨٩.
- ٩٩ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٤٠٧.
- ١٠٠ - المصدر السابق، ص ٤٢٠.
- ١٠١ - المصدر السابق، ص ٤٠٨.
- ١٠٢ - المصدر السابق، ص ٢٨٥.
- ١٠٣ - المصدر السابق، ص ٤٠٨.
- ١٠٤ - المصدر السابق، ص ٣١٩ - ٣٢٠.
- ١٠٥ - المصدر السابق، ص ٣٢٠.
- ١٠٦ - المصدر السابق، ص ٤٤.
- ١٠٧ - عبدالعزيز حمودة: المرايا المحدبة، مصدر سابق، ص ٢٧١ - ٢٧١.
- ١٠٨ - عبدالقاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ٢٢٨ - ٢٢٨٢.
- ١٠٩ - المصدر السابق، ص ١٠٨.
- ١١٠ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.
- ١١١ - المصدر السابق، ص ٥٨.
- ١١٢ - عبدالقاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ٢٢٧.

- ١١٣ - المصدر السابق.
- ١١٤ - المصدر السابق؛ ص ١٢٨.
- ١١٥ - الولي محمد: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي التقني. مصدر سابق، ص ٩٥.
- ١١٦ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ٥٥.
- ١١٧ - المصدر السابق، ص ٢١٤.
- ١١٨ - المصدر السابق، ص ٢١٤ - ٣١٥.
- ١١٩ - الولي محمد: الصورة الشعرية، مصدر سابق، ص ٥٤ - ٥٥.
- ١٢٠ - محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، مصدر سابق، ص ٤٠.
- ١٢١ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٥٢.
- ١٢٢ - المصدر السابق، ص ٣٢٠ - ٣٢١.
- ١٢٣ - المصدر السابق، ص ٢٠٣.
- ١٢٤ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ١٢٦.
- ١٢٥ - المصدر السابق، ص ١١٢.
- ١٢٦ - المصدر السابق.
- ١٢٧ - أبو يعقوب المسكاكي: مفتاح العلوم (بيروت: دار الكتب العلمية) ١٩٨٣، ص ٣٥٨.
- ١٢٨ - المصدر السابق، ص ١٤٠.
- ١٢٩ - حازم القرطاجني: منهاج اليلقاء وسراج الأدياء، مصدر سابق، ص ٢٢.

(٢)

- ١- أحمد مطلوب: «التقني البلاغي»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج ٢٠٢ (بغداد: يونيو ١٩٨٧)، ص ١٩٦.
- ٢- محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين التقليد والحديث، مصدر سابق، ص ١٠.
- ٣- أحمد درويش: التراث التقني: قضايا ونصوص (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٨)، ص ٧.
- ٤- جابر عصفور: قراءة محبشة في نقد قديم: ابن المعتز، فصول. العدد الأول، مجلد ٦ (أكتوبر/ نوفمبر/ ديسمبر ١٩٨٥)، ص ١١١.
- ٥- جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٩١.
- ٦- محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين التقليد والحديث، مصدر سابق.

ص ٣٤٢.

7 - Ian Richard Netton, *Al - Farabi and His School* (London and New York: Routledge, 1992), p.32.

٨- شكري عياد: تحقيق وترجمة كتاب أرسطو طلائيس في الشعر (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣)، ص ٤١١.

٩- المصدر السابق، ص ٢١٤.

١٠- محمد عابد الجابري: «اللفظ والمعنى في البيان العربي»، مصدر سابق، ص ٤٤ - ٤٥.

١١- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٣٧ - ٣٨.

١٢- المصدر السابق، ص ٦٠.

١٣- المصدر السابق، ص ٨٣.

١٤- محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي، مصدر سابق، ص ٢٧٧.

15 - Jonathan Culler, *Literary Theory*, Op.cit, p. 29.

١٦- محمد عابد الجابري: «اللفظ والمعنى في البيان العربي»، مصدر سابق، ص ٢٨.

١٧- محمد سالم ولد محمد الأمين: «مشهوم الحجاج عند بيرلمان، وتطوره في البلاغة المعاصرة»، مصدر سابق، ص ٥٥.

١٨- شكري عياد: اللغة والإبداع: مبادئ علم الأساليب العربي، مصدر سابق، ص ٦.

١٩- محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، مصدر سابق، ص ٣١٩.

٢٠- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ص ٦٤.

٢١- جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٩٣.

٢٢- المصدر السابق.

٢٣- أدونيس: مقدمة الشعر العربي، دار العودة، ص ١٠٨.

٢٤- ابن طباطبا العلوي: تيار الشعر، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام (القاهرة: المكتبة التجارية، ١٩٦٥)، ص ٤٣.

٢٥- جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ١٩.

٢٦- المصدر السابق، ص ١٢-١٣.

٢٧- حازم القرطاجني: منهج البلاغة، سراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة (بيروت: دار اقرب الإسلامي، ١٩٨١)، ١٢٤.

٢٨- نوال الإبراهيم: «طبيعة الشعر عند حازم القرطاجني»، فضول: العدد الأول، مجلد ٦ (أكتوبر/ ديسمبر ١٩٨٥)، ص ٨٢.

٢٩- حازم القرطاجني: منهج البلاغة، مصدر سابق، ص ٧١.

الهوامش والمراجع

- ٣- جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ١٦٧.
- ٢٦- نوال الإبراهيم: «طبيعة الشعر عند حازم القرطاجني»، مصدر سابق، ص ٨٢.
- ٢٧- جابر عصفور: مفهوم الشعر - مصدر سابق، ص ١٥٥.
- ٢٢- صلاح رؤف: أدبية النص، مصدر سابق، ص ٧٤.
- ٢٤- نوال الإبراهيم: «طبيعة الشعر عند حازم القرطاجني»، مصدر سابق، ص ٨٢ - ٨٤.
- تحال هذه الكلمات، دون تحديد إذا كانت ترجمة حرفية أم لا، إلى:
- Bate, Walter Jackson (ed.) Criticism, 'The Major Texts' (New York, 1952), p.5ff.
- ٣٥- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ٢٢١.
- ٣٦- المصدر السابق، ص ٢١٩.
- ٣٧- المصدر السابق، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.
- ٣٨- حازم القرطاجني: متاهج اللفاء، مصدر سابق، ص ٩٢.
- ٣٩- الولي محمد: الصورة الشعرية، مصدر سابق، ص ١٢٦.
- ٤٠- حازم القرطاجني: متاهج اللفاء، مصدر سابق، ص ٧٧.
- ٤١- زكي نجيب محمود: «تقديم»، شكري عياد، تحقيق وترجمة كتاب أرسطوطاليس في الشعر، مصدر سابق ص (ي).
- ٤٢- فله حسين: «مقدمة»، نقد النثر، فداء (القاهرة ١٩٣٨)، ص ٩٤.
- ٤٣- المصدر السابق، ص ٢٩.
- ٤٤- عبد الرحمن بدوي: ترجمة فن الشعر لأرسطوطاليس: مع شيوخ النازاري ابن سينا وابن رشد (بيروت دار الثقافة، ١٩٧٢)، ص ١٧١ - ٧٢.
- ٤٥- ابن رشد، تلخيص كتاب أرسطوطاليس: في الشعر، تحقيق محمد سليم سالم (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧١)، ص ٦٩.
- ٤٦- شكري عياد: تحقيق وترجمة كتاب أرسطوطاليس في الشعر، مصدر سابق، ص ٢٢٢.
- ٤٧- المصدر السابق.
- ٤٨- جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ١٠٢.
- ٤٩- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ٢٧٦ - ٢٧٥.
- ٥٠- فله حسين: مقدمة في نقد النثر، مصدر سابق، ص ٢٠.
- ٥١- أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني: بلاغته ونقده (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٢)، ص ٣٠٥.
- ٥٢- شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥)، ص ١٧٨.
- ٥٣- الولي محمد: الصورة الشعرية، مصدر سابق، ص ١٢٨.
- ٥٤- حازم القرطاجني: متاهج اللفاء، مصدر سابق، ص ٧١.

المراجع المتفرقة

- ٥٥- المصدر السابق، ص ١٩-١٨.
- ٥٦- المصدر السابق، ص ٩٥-٩٤.
- ٥٧- جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٢٨٩-٢٩٠.
- ٥٨- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق ص ١٠١-.
- ٥٩- هدامة بن جعفر: نقد الشعر، مصدر سابق، ص ٥٤.
- ٦٠- شكري عباد: تحقيق وترجمة كتاب أرسطو طلائس في الشعر، مصدر سابق، ص ٢٢٧-٢٣٨.
- ٦١- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ١٩٦-١٩٧.
- ٦٢- المصدر السابق، ص ٧٠.
- ٦٣- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ٦٧٥-٦٧٦.
- ٦٤- المصدر سابق، ص ٢٧٥.
- ٦٥- الولي محمد: الصورة الشعرية، مصدر سابق، ص ١٢٣، لنا وقفة عند ترجمة substantialisme إلى «جوهري» في العربية، فعلى الرغم من أن الكلمة، في الفرنسية والإنجليزية، على السواء تعني: ما يتعلق باللمادة على أساس أن جذرها هو substance، كما تعني أيضاً «جوهري» أو «حتى أساسي» إلا أن السياق الذي أوردته إثني كان يفرض عليه استخدام المعنى الأول حيث يتحدث عن موقفين نقديين متعارضين أحدهما «شكلي» وبالتالي: فلا بد أن يكون الثاني «مادي» أو يراثيت بمادة الشعر وليس شكله.
- ٦٦- حازم القرطاجني: منهاج البقاء، مصدر سابق، ص ٢٢.
- ٦٧- المصدر السابق.
- ٦٨- جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٢٤٧.
- ٦٩- حازم القرطاجني: منهاج البقاء، مصدر سابق، ص ١٨ - ١٩.
- ٧٠- نوال الإبراهيم: «طبيعة الشعر عند القرطاجني»، مصدر سابق، ص ٨٦.
- ٧١- حازم القرطاجني: منهاج البقاء، مصدر سابق، ص ١١٩.
- ٧٢- المصدر السابق، ص ٩٩.
- ٧٣- المصدر السابق، ص ١١٦.
- ٧٤- جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٢٣١.
- ٧٥- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٣٢.
- ٧٦- المصدر السابق، ص ٥.
- ٧٧- صلاح رزق: أدبية النص، مصدر سابق، ص ١١٢-١١١.
- ٧٨- طه حسن: مقدمة في نقد النثر، مصدر سابق، ص ١٢.
- ٧٩- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ١٢٣.

الهوامش والمراجع

- ٨٠ - مصطفى ناصف: النقد العربي: نحو نظرية ثانية (الكويت: عالم المعرفة: ٢٠٠٠)، ص ١٥٣.
- ٨١ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ١٢١.
- 82 - Jonathan Culler, *Literary Theory*, op.cit.p.71.
- ٨٢ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ٧٧٢.
- ٨٤ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٢٢٦.
- ٨٥ - عباس العشاد وعبد القادر المازني: الديوان، مصدر سابق، ص ١٧.
- ٨٦ - المصدر السابق، ص ١٨.
- ٨٧ - محمد بشور: الشعر المصري بعد شوقي، ج١ (القاهرة: مكتبة نهضة مصر)، ص ٢٥-٣٦.
- ٨٨ - العقاد وأمازي: الديوان، مصدر سابق، ص ٧١-٧٢.
- ٨٩ - جابر عصفور: الصورة الفنية، مصدر سابق، ص ٦٢.
- ٩٠ - الولي محمد: الصورة الشعرية، مصدر سابق، ص ٦٦.
- ٩١ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ١٧.
- ٩٢ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٢٢١.
- ٩٣ - المصدر السابق، ص ٢٠٢-٢٠٣.
- ٩٤ - حازم القرطاجني: منهاج اللفاء، مصدر سابق، ص ٢٢.
- ٩٥ - جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٢٨٢.
- ٩٦ - محمد عابد الجابري: «اللفظ والمعنى في البيان العربي»، مصدر سابق، ص ٢٦.
- ٩٧ - المصدر السابق، ص ٤٤.
- ٩٨ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ١٠١.
- ٩٩ - المصدر السابق، ص ١٠٢.
- ١٠٠ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٢٤٦.
- ١٠١ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ١٠١-١٠٢.
- ١٠٢ - مصطفى ناصف: النقد العربي: نحو نظرية ثانية، مصدر سابق، ص ١٥٧-١٥٨.
- ١٠٣ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٢١٠.
- ١٠٤ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ٢٢١.
- ١٠٥ - المصدر السابق، ص ١٢٢ - ١٢٣.
- ١٠٦ - حازم القرطاجني: منهاج اللفاء، مصدر سابق، ص ٩٨ - ٩٩.
- ١٠٧ - ابن طياتيا: عيار الشعر، مصدر سابق، ص ١٢٢.
- ١٠٨ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ١١٢.
- ١٠٩ - المصدر السابق.

المرايا المقعرة

- ١١٠ - المصدر السابق، ص ٢٠٦.
- ١١١ - حازم القرطاجني: منهاج البلقاء، مصدر سابق، ص ١٠١.
- ١١٢ - أنظر، عبد العزيز حمودة: فصل «التفكيك والرقص على الأجناب»، المرايا الحديثة، مصدر سابق.
- ١١٣ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ١٥١ - ١٥٢.
- ١١٤ - المصدر السابق، ص ١٥٢ - ١٥٣.
- ١١٥ - الولي محمد: الصورة الشعرية، مصدر سابق، ص ٩٠.
- ١١٦ - المصدر السابق.
- ١١٧ - العقاد والمناوي: النيران، مصدر سابق، ص ١٥٣ - ١٥٤.
- ١١٨ - المصدر السابق، ص ١٥٤.
- ١١٩ - توفيق الحكيم: مجلة النقاش، إبريل ١٩٢٩، ورد في: شكري عياد، المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب، مصدر سابق، ص ١٢٦.
- ١٢٠ - أحمد طاهر: «حول روافد النقد الأدبي عند العرب»، مصدر سابق، ص ١٤.
- ١٢١ - المصدر السابق.
- ١٢٢ - جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٤٧.
- 123 - Ian Richard Netton, Al - Farabi and His School, op. Cit., p:40.
- ١٢٤ - جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٩٧.
- ١٢٥ - أنظر للمؤلف: علم الجمال والنقد الحديث (١٩٩٣)، ط٢، القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠.
- ١٢٦ - فداء بن جعفر: نقد الشعر، مصدر سابق، ص ٤٦.
- ١٢٧ - أنولي محمد: الصورة الشعرية، مصدر سابق، ص ٤٩.
- ١٢٨ - شكري عياد: مقدمة في أصول النقد، مصدر سابق، ص ٨٢ - ٨٤.
- ١٢٩ - أحمد طاهر: «حول روافد النقد الأدبي عند العرب»، مصدر سابق، ص ١٥.
- ١٣٠ - شكري عياد: تحقيق وترجمة كتاب أرسطو طلائين في الشعر، مصدر سابق، ص ٢٦٧ - ٢٦٨.
- ١٣١ - ورد في: حازم القرطاجني، منهاج البلقاء، مصدر سابق، ص ٨٥ - ٨٦.
- ١٣٢ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٩.
- ١٣٣ - المصدر السابق.
- ١٣٤ - المصدر السابق، ص ٢٠.
- ١٣٥ - المصدر السابق، ص ٧.
- ١٣٦ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ٢١٧ - ٢١٨.
- ١٣٧ - المصدر السابق، ص ٢١٨.

الهوامش والمراجع

- ١٢٨ - حازم القوطايجي: منهاج اللفاء، مصدر سابق، ص ٢٣٧.
- ١٢٩ - جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٢٠٨.
- ١٤٠ - المصدر السابق، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.
- ١٤١ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٩ - ١٠.
- ١٤٢ - حازم القوطايجي: منهاج اللفاء، مصدر سابق، ص ٧٧.
- ١٤٣ - المصدر السابق، ص ٨١.
- ١٤٤ - المصدر السابق، ص ١١٩.
- ١٤٥ - عبدالقاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.
- ١٤٦ - حازم القوطايجي: منهاج اللفاء، مصدر سابق، ص ١١٩.
- ١٤٧ - محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، مصدر سابق، ص ٢٤٤.
- ١٤٨ - شكري عياد: تحقيق وترجمة كتاب أرسطو طاليس في الشعر، مصدر سابق، ص ٤٢٠ - ٤٢١.
- ١٤٩ - مصطفى تاسف: النقد العربي: نحو نظرية ثانية، مجلد سابق، ص ٢٣٤.
- ١٥٠ - ورد في: محمد مصطفى هدار: الأبعاد النظرية لقضية السرفقات وتجلياتها في النقد العربي القديم، فصول، العدد الأول مجلد ٦ (أكتوبر/ نوفمبر/ ديسمبر ١٩٨٥)، ص ١٢٠.
- ١٥١ - القاضي الجرجاني: الوساعة، ورد في: أحمد مطلوب، عبدالقاهر الجرجاني، مصدر سابق، ص ٢٦٤.
- ١٥٢ - ورد في: محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، مصدر سابق، ص ٢٦٤.
- ١٥٣ - المصدر السابق، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.
- ١٥٤ - عبدالقاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ٢٧١.
- ١٥٥ - الولي محمد: الصورة الشعرية، مصدر سابق، ص ٥٣.
- ١٥٦ - عبدالقاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص ٢٧٢.
- ١٥٧ - المصدر السابق، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.
- ١٥٨ - المصدر السابق، ص ٢٧٢.
- ١٥٩ - انظر للمؤلف: الرايا المحدية، مصدر سابق، ص ٣٦١ - ٣٦٢.
- ١60 - Vincent B. Letch. Deconstructive Criticism: An Advanced Introduction (London: Hutchinson, 1983) p. 160 - 161.
- ١٦١ - عبدالله الغدامي: الخطيئة والتكفير، مصدر سابق، ص ٣٢١.
- ١٦٢ - مصطفى تاسف: النقد العربي: نحو نظرية ثانية، مصدر سابق.

المراجع المقرة

- ١٦٣ - القاضي الجرجاني: الوساطة، ورد في: أحمد مطلوب، عبدالقاهر الجرجاني، مصدر سابق، ص ١١٦.
- ١٦٤ - جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٩٩.
- ١65 - Geoffrey Hartman (ed.), "Introduction," *Deconstruction and Criticism* (London, 1979) p. viii.
- ١66 - Jacques Derrida, "Living on: Border Lines," in *Deconstruction and Criticism*, Ibid., p. 83-84.
- ١67 - Mikhail Bakhtin, *Rabelais and His World*, trans. H. Iswolsky (Bloomington, Indiana UP 1984), p. 317.
- ١٦٨ - ابن طباطبا: عيار الشعر، مصدر سابق، ص ٢٠.
- ١٦٩ - الجاحظ: البيان والتبيين، مصدر سابق، ج١، ص ١٣٥.
- ١٧٠ - شكري عباد: المذاهب الأدبية والنقدية، مصدر سابق، ص ٢٠٩ - ٢١٠.
- ١٧١ - جابر عصفور: «قراءة مجلدة في ناقد قديم: ابن المعتز»، فصول: العدد الأول، مجلد ٦ (أكتوبر/ ديسمبر ١٩٨٥)، ص ١١١.
- ١٧٢ - ابن طباطبا: عيار الشعر، مصدر سابق، ص ٤١ - ٤٢.
- ١٧٣ - جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ١٦٦.
- ١٧٤ - حازم القرطاجني: منهاج اللغاة، مصدر سابق، ص ٧٧.
- ١٧٥ - المصدر السابق، ص ٢٩.
- ١٧٦ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٢٢٤.
- ١٧٧ - المصدر السابق.
- ١٧٨ - محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، مصدر سابق، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.
- ١٧٩ - صلاح رزق: أدبية النص، مصدر سابق، ص ٢٠.
- ١٨٠ - ابن طباطبا: عيار الشعر، مصدر سابق، ص ١١.
- ١٨١ - جابر عصفور: مفهوم الشعر، مصدر سابق، ص ٢٣ - ٢٤.
- ١٨٢ - ابن طباطبا: عيار الشعر، مصدر سابق، ص ٨.
- ١٨٣ - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، مصدر سابق، ص ١٤.
- ١٨٤ - عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص ٢٢٤.
- ١٨٤ - المصدر السابق، ص ٤٠.

المؤلف في سطور

د . عبد العزيز حموده

- * حصل على درجتي الماجستير والدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعة كورنيل الأمريكية عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٨.
- * يعمل حاليا أستاذا للأدب الإنجليزي بكلية الآداب - جامعة القاهرة، ونائب رئيس جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.
- * سبق له أن شغل مناصب: عميد الدراسات العليا بجامعة الإمارات، ومستشار مصر الثقافي لدى الولايات المتحدة، وعميد كلية الآداب - جامعة القاهرة، ورئيس قسم اللغة الإنجليزية بها.
- * له عدد من الدراسات من بينها: علم الجمال والنقد الحديث،



ما الموعة

الاقتصاد العالمي وإمكانات التحكم

تأليف: بول هيرست

جراهام طومسون

ترجمة: د. فالح عبد الجبار

المسرح السياسي، البناء
الدرامي، المسرح الأمريكي،
الحلم الأمريكي، المراهية
المحدبة (عالم المعرفة -
العدد ٢٢٢، إبريل ١٩٩٨).

* قدم له المسرح المصري:
الناس في طيبة، ليلة
الكولونيل الأخيرة، الرهائن،
الظاهر بيبرس، المقاول.